روايات الملاك

الساحر

جون فاولز



روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود قاسم

ثمن النسخة
سوريا ١٢٠ ليرة / لبنان ١٥٠٠٠ ليرة / الاردن ٥٥٠٠ فلسا / الكويت ٢٧٠٠ فلسا / السعودية ٣٥ ريالا / المغرب ٥٠ درهم / تونس ٥ دينار / البحرين ٢,٥ دينار / الدوحة ٢٥ ريال / دبى / ابوظبى ٢٥ درهم / مسقط ٢,٥ ريال / غزة والضفة والقدس ٢,٥ دولار / لندن ٥ جك .

العدد ٥٤٧
يوليو ١٩٩٤ ● صفر ١٤١٥ هـ
No - 547 - Jul - 1994

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٦ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٢٥ دولارا ـ امريكا واوربا وآسيا وافريقيا ٣٠ دولارا ـ باقى دول العالم ٤٠ دولارا .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال .. ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول : الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت . ٢٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات ص . ب ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ تلغرافيا المصور ـ القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

« الساحر »

« تجربة خارج نطاق الكون »

تأليف
چون فاولز

ترجمة
عبدالحميد فهمى الجمال

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية
MAGUS
by
JOHN FOWLES

الغلاف للفنانة :
سميحة حسنين

قبـل أن تقـرأ

إذا اردت ان تقرأ أدبا جميلا ، وراقيا . فاقرأ روايات "جون فاولز" .

فرغم أن فاولز قد نشر خلال عمره الأدبي خمس روايات فقط ، طوال ثلاثين عاما ، وكتابين آخرين فإنك لو قرأت إحدى هذه الروايات فسوف تكتشف ان رواية واحدة منها كفيلة بأن تصنع شهرة اى كاتب كبير .

ويكفى أن تقرأ ملحمة روائية مثل روايته المعروفة "الساحر" لتعرف أن فاولز قد استوعب معارف عصور متعددة ، وانه توغل فى الجغرافيا ، والميثولجى ، والفنون الدرامية ، والتاريخ ، فضلا عن رؤيته الواضحة للكون .

وفاولز الذى ولد فى قرية قريبة من لندن عام ١٩٢٦ درس الأدب الفرنسى فى نيوكولدج بجامعة اكسفورد ، وعرف برحلاته المتعددة فى أنحاء العالم . كتب الرواية والدراسة الفلسفية والقصة القصيرة . فروايته الأولى "جامع الفراشات" منشورة عام ١٩٦٤ . ثم جاءت روايته "الساحر" عام ١٩٦٦ . و"عشيقة الضابط الفرنسى" عام ١٩٦٩ ومجموعته القصصية الوحيدة تحمل عنوان "برج الابنوس" ١٩٧٤ . أما كتابه "الامتياز" فهو رؤية فلسفية تدور حول الصراع الأبدى بين الاضداد . ومن رواياته الاخرى "دانيل مارتن" ١٩٧٧ و"فانتيسا" ١٩٨٢ .

ويميل فاولز الى الخروج من الاجواء التقليدية التى اعتادها القارىء ليقدم له نفس الوجوه المألوفة التى يراها كل يوم فى أماكن عديدة مصبوغة بصبغات غريبة فوق وجوهها ، وداخل مشاعرها . فتتصرف بما هو اقرب الى الجنون والشذوذ . ورغم ان اصحاب هذه

الوجوه يبدون ناضرين شبابا فانهم يخفون في دواخلهم نيرانا متأججة .

في روايته الاولى نرى ذلك الشاب البرىء النقي الوجه المغرم باصطياد الفراشات ثم جمعها في مجموعات واحدة . ورغم جمال هذه الفراشات وما تتمتع به من ألوان جذابة . فانها ليست سوى كائنات ميتة لا روح فيها . وهذا الشاب يعمل موظفا صغيرا في أحد البنوك يروق له أن يتلصص على حسناوات المدينة .

وذات يوم يكسب مبلغا كبيرا من المال في "السباق" فيفكر في أن يغير من حياته ، يشترى منزلا معزولا في احدى الضواحي . ويظل يرغب الفتاة التي يرغبها في سيارته الجديدة ويقوم يوما باختطافها ويذهب بها الى مملكته التي صنعها . تتنبه الفتاة انها قد وضعت داخل سجن جميل به كافة ألوان المتعة . تحاول التخلص من سجنها ويتحول صاحب هذا الوجه الى شخص شرس يعاملها بعنف ويضربها حتى تمتثل .

والرواية ذات صوتين روائيين . يحكي فيهما الشاب جزءا من منظوره وتحكي الفتاة المخطوفة الجزء الثاني بعد ان تم اختطافها . سرعان ما تدرك انها واحدة من هذه الفراشات . وانه يود ان يضمها الى مجموعته . لكنها ليست فراشة . وهو لا يستطيع ان يجعلها تحبه . ولكنه يضعها في علبة كبيرة هي غرفة انيقة . يربطها هناك ويمنعها من الخروج . وتحاول الفتاة الهرب اكثر من مرة . وتكاد تنجح في احدى المرات لكنها تسقط تحت المطر . وعندما يجرها داخل المنزل يصاب بجرح فتحنو عليه . ومنذ ذلك الحين تنمو علاقة دقيقة بين الطرفين ، يفك وثاقها . ترفض ان تذهب ، ولكن مرضها يزداد عليها بعد تلك الليلة التي حاولت الهرب فيها . يعتني بها ، ويحضر لها الاطعمة ، والعلاج . لكنها تموت . ولان لديه مسكنا بعيدا ، ومجموعة نادرة من الفراشات ، فانه ينزل مرة أخرى الى شوارع المدينة ، يتلصص على الحسناوات ، ويختار احداهن كي يأتي بها الى مجموعة فراشاته الجميلة .

وفور صدور هذه الرواية قامت السينما بتحويلها الى فيلم من

اخراج ويليام وايلر ، وبطولة سامانتا أيجروتيرنس ستامب وعرض تجاريا فى مصر بعنوان "شقة المحروم" وقد قدمتها روايات الهلال فى ترجمة كاملة فى "يوليو" ١٩٩٢ .

وفاولز مثل العديد من ابناء وطنه الانجليز ، يحب الابحار بنفسه ، وبابطاله ، انه مثل دانيال ديفو وجوزيف كونراد وويليام جولدنج . ولذا فانه فى روايته الثانية "الساحر" يذهب الى إحدى جزر البحر المتوسط فى بلاد اليونان ليصور لنا عالما بالغ الغرابة . فنحن أمام شاب انجليزى بلا وظيفة ، يلتحق بوظيفة مدرس فى اليونان . ويترك وراءه قصة حب معقدة ويرى ان البحر يمكنه ان يمزج بين الواقع الذى يسبح فيه والخيال الذى يصنعه . وهناك يجد نفسه فى تجربة غريبة من خلال لقائه مع أحد اثرياء الجزيرة ويدعى كونشيس . هذا الرجل صنع من الجزيرة قصرا للسرايات والاجواء الفنتازية . إنها الاجواء التى يجد نيكولاس نفسه منجذبا اليها لدرجة انه يرفض ان يعود الى بلاده ، كلما ازدادت التجربة غموضا . انه اشبه بأوليس الذى لجأ الى جزيرة الساحرة سيرسة ، والجزيرة ايضا بها نساء جميلات وخاصة الممثلتين الفاتنتين جوليا وجين اللتين نكتشف انهما مجرد ممثلتين عليهما الاشتراك فى بطولة مسرحية حية .

والساحر رجل درس علم النفس وعرف اسرار النفس البشرية وفى استطاعته ان يتحكم فى سلوك البشر الذين حوله وان يدفعهم للعمل لمصلحته بما له من سطوة وثروة فهو يدفع باحدى المرأتين الى ان تسيطر بجسدها على نيكولاس كى يتوه فى دنيا الرجل الكبير وفى النهاية فان الشاب الانجليزى يجد نفسه مطرودا من الجزيرة ، فردوسه الخصوصى ، ويعود الى بريطانيا فى انتظار بنيليوبى . فهو لا يزال أوليس الذى عليه الرجوع الى حبيبته . أما الجزيرة ، فهى بلاشك احدى الجزر التى نزل عندها أوليس . والساحر هو صورة من تلك الساحرة التى تهتف للبطل الهيلليني ان يترك مركبه وينضم اليها . رغم أنه يعرف انها تحول كل عشاقها ، الذين نزلوا من قبله الى ارضها ، الى خنازير .

وفور صدور هذه الرواية قامت السينما الامريكية بشراء حقوقها وحولتها عام ١٩٦٩ الى فيلم اخرجه جاى جرين وقام ببطولته انتونى

كوين فى دور الساحر اليونانى وادى مايكل كين دور الشاب الانجليزى . وجسدت كانديس برجن دور جوليا ، أما الممثلة الفرنسية آنا كارنينا فقامت بدور الفتاة الاسترالية اليسون . ورغم ان فاولز نفسه كتب سيناريو الفيلم ورغم تكلفة الفيلم الواضحة ونجومه الكبار ، فانه شتان بين رواية عظيمة كتبها فاولز وبين الفيلم المتواضع الذى اخرجه جرين ، ويبين هذا الفارق روعة الأدب وقصور السينما وقد انعكس ذلك ايضا فى الافلام الاخرى المأخوذة عن اعمال نفس الكاتب .

وجون فاولز يهيم وسط علاقات بين الخيال وفنتازيا الواقع . ولذا فان لغته تمزج بين الشعر والنثر والحوار الشعرى . وهو يميل الى استخدام الكثير من المقاطع الشعرية فى هذه الروايات خاصة فى روايته الثالثة "عشيقة الضابط الفرنسى" . حيث يبدو فاولز مشغوفا باحداث تداخل بين عديد من الشخصيات مثلما فعل فى روايتيه السابقتين .

تدور احداث الرواية فى عام ١٨٦٧ . اى قبل ان يكتبها بحوالى مائة عام تقريبا فى قرية على شاطىء البحر جنوب انجلترا حدثت حكاية سارة وتشارلز ، فقد ذهب هذا الاخير لخطبة الفتاة ارنستينا فريان إنه يطمع فى منحة الزواج التى يقدمها ابو العروس له عند اتمام الزواج . خاصة أنه ينتظر ان يرث ثروة من عمه . وتشارلز رجل مثقف يميل الى استخدام ثقافته فى جذب انظار المجتمع من حوله . إنه مؤمن بنظريات داروين ويرى ان العلم سوف يأتى بما هو اكثر تطورا من هذه النظريات . يتردد تشارلز على منزل احدى السيدات الراقيات كى يفخر بثقافته فى الاحاديث المختلفة ويصبح نجم هذا المجتمع .

أما خطيبته ارنستينا فهى فتاة فى العشرين من العمر . وهى وحيدة والديها رآها تشارلز لأول مرة عندما كان فى زيارة عمتها فى احدى القرى بالجنوب الانجليزى .

فى هذه القرية نرى السيدة بولتنى العجوز التى تعيش فى قصر فخم يملؤه الخدم ، فى منزل هذه السيدة الراقية تعمل سارة ضمن

طاقم الخادمات . وهي فتاة مثقفة احبت يوما أحد الاطباء الفرنسيين الذين هجروها ، فآثرت ان تغلق عواطفها عن كل ما يدور حولها . ينبض الحزن في عينيها . يسميها أهل القرية الآنسة "مأساة" بسبب احزانها المتكالبة . لكن هل هناك ضابط فرنسي يعمل فوق المراكب التجارية ارتبط بها فعلا . يقال انها قد اذلت كبرياءها من أجله وكان يطردها وينهرها . وانها كانت تنتظره حين قدومه وتودعه حين سفره .. أما سارة فتقول لتشارلز في أول لقاء لهما يتحدثان فيه عن هذا الملازم ان عليها ان تصنع لنفسها "خيالا" تحبه حين تجد رجلا في حياتها .. وحين تزوره في الفندق ويتم أول لقاء ويكتشف عذريتها يعرف أنه لم يكن هناك رجال في حياتها .

سارة نموذج غريب . اشبه بالساحر كونشيس . فهو يريد ان يسيطر على الجزيرة كي يغدو الجميع حواريين له . أما هي فتريد أن يتحدث عنها ابناء القرية ولو جاء ذلك ضد سمعتها كفتاة لم تعرف رجلا واحدا في حياتها سوى في خيالاتها المحمومة ومثلما تخيلت الضابط الفرنسي تجيء صورة تشارلز ، ولكن سارة امرأة لم تخلق للواقع . فهي تنفر من حبيبها عندما تشعر بأن الحب الذى تكنه له قد اصبح جسدا مميزا واضحا . انها تفضل ان تعيش في حلم يصنعه خيالها عن الحياة في احضان رجل تهبه نفسها . فتهرب منه وتحبس خيالها من جديد داخل هذا الحلم .

وتشتد العلاقة بين تشارلز وسارة بعد ان تنفسخ علاقته بخطيبته حين يدرك هذا الاخير أنه لن يكون وريثا لعمه . فيترك فتاته باحثا عن سارة فتاة الغابة . ورغم ان تشارلز يحن بعد فترة أخرى الى خطيبته الا أنه يجد سارة اقرب النساء الى طبيعته وحين تختفي سارة من حياته لا يعود الى خطيبته كي يجد فيها سلوى بل إنه يدور حول العالم في رحلة نسيان يعود بعدها الى القرية متنسما أخبارها . وعندما يقابلها يكتشف ان رجلا جديدا قد دخل حياتها . إنها ترفض ان تتزوج تشارلز من جديد . كما رفضت ان تتزوج هذا الفنان . ورغم هذا الموقف الغريب فإن تشارلز يفاجأ أن لسارة فتاة انجبتها منه على اثر هذا اللقاء الوحيد الذى تم في الفندق .

في تداخل رائع يقوم جون فاولز بمزج بين كل من واقع المرأة

والخيالات التى تصنعها . فهى فتاة من العصر الفيكتورى لكنها ايضا امرأة من القرن العشرين . يقال إنها ماتت فى نفس اليوم الذى غزا فيه هتلر بولندا . وهى كما رأينا امرأة غريبة الاطوار لا نستطيع ان نحصرها بين اصابعنا مثل نساء "جامع الفراشات" و"الساحر" .

البطل فى أدب فاولز يعيش فى حلم دائم . ممزوج بالواقع الاقرب الى الخيال . فلا يمكن أن تفصل بين الاثنين . والكاتب هنا لا يمزج بين أربع شخصيات كل اثنتين منهم فى وحدة واحدة ليكونا ثنائيا فقط . ويقول بعض النقاد ان فاولز قد مزج بين العصر الفيكتورى فى ستينات القرن الماضى وبين عقلية الكاتب الذى يعيش فى أواخر القرن العشرين .

واذا كان الكاتب قد قام بوضع ثلاث نهايات مختلفة لروايته فانه عندما كتب فى عام ١٩٨١ سيناريو الفيلم الذى اخرجه كارل رايز ، قام بمعالجة مختلفة تماما لهذه الرواية حيث يمزج الحلم بالواقع . حين يخلق رجلا وامرأة يقومان بتمثيل فيلم عن العلاقة بين تشارلز وسارة . الممثل يدعى مايك . أما الممثلة فهى من امريكا اسمها آنا . وهما يحملان كل صفات التنافر فيما بينهما . وكذلك كل سمات التنافر بينهما وبين الشخصيتين اللتين يجسدانهما . ومع ذلك تصبح الفواصل بين الحقيقة والخيال غير موجودة . فأين الممثل من شخصية تشارلز وأين الممثلة الامريكية من آنا . المفاجأة ان الجميع يندمجون - ولو فترة - داخل هذه الشخصيات ثم يرحلون ولا يلتقون مرة أخرى .

روايات الهلال

الباب الأول

١

ولدت فى عام ١٩٢٧ . كنت الطفل الوحيد لأبوين انجليزيين من الطبقة المتوسطة . ولقد ولد أبواى فى الظلال الممتدة فى تشويه تلك الملكة فيكتوريا القزمة الشديدة البأس . لم يتمكن والداى على الاطلاق من الارتفاع فوق التاريخ بالقدر الذى يسمح لهما بترك تلك الظلال . تم ارسالى لتلقى التعليم فى مدرسة عمومية وقضيت عامين من حياتى هباء فى أداء الخدمة الوطنية . وذهبت إلى أكسفورد . وهناك اكتشفت أننى لست الشخص الذى أريد أن أكونه .

وكنت قبل ذلك بوقت طويل قد اكتشفت أنه ينقصنى الأبوان والجدان الذين احتاج اليهم . فقد كان والدى برتبة عميد فى الجيش وكانت والدتى نموذجا للمرأة التى أصبح زوجها بصدد الحصول على رتبة اللواء العسكرية . بمعنى أنها لم تدخل معه فى جدال أو مناقشات على الإطلاق وتتصرف كأن زوجها يسترق السمع فى الغرفة المجاورة حتى ولو كان بعيداً على مسافة آلاف من الأميال . نادرا ما كنت أشاهد والدى أثناء الحرب . اعتدت طوال فترات غيابه الطويلة أن أكون صورة ذهنية عنه تتسم بالنقاء ولكنه كان يحطم تلك الصورة الذهنية فى خلال الـ ٤٨ ساعة الأولى من الإجازة التى يحصل عليها .

انه يتمسك بالمظاهر السطحية شأن جميع الرجال غير الاكفاء فى وظائفهم . فبدلاً من اللجوء إلى الحكمة فانه كان يجمع عتادا من الكلمات المختصرة واذا ما أتتنى الشجاعة ـ وهذا أمر نادر للغاية ـ للدخول معه فى جدال فانه يلجأ إلى احدى هذه الكلمات الطوطمية . ومما لاشك فيه أنه فى الظروف المماثلة كان يخمد الضباط الذين تحت رئاسته بنفس الطريقة . فاذا أصر أحدهم على رفض الأوامر الصادرة له بالاستلقاء والموت فانه

كان يستشيط غضبا أو يتفوه بألفاظ بذئية . وكان سريع الغضب من السهل عليه أن ينفجر في موجة من الغضب .

هناك أخبار تفيد بأن أسرتنا جاءت من غرب فرنسا .. لا يوجد أحد بين أجدادى قد أظهر أى ميول فنية فهم جيلاً وراء جيل كانوا يعملون ضباطا وقساوسة وبحارة وملاكا لمساحات صغيرة من الأراضى . وكانوا جميعا لا يتميزون بالنبوغ والتفوق . ولديهم جميعا ولع شديد بلعب القمار والمضاربات وتضييع الأموال سدى .

وكان لجدى أربعة أبناء . مات اثنان منهم فى الحرب العالمية الأولى . ولقد اتخذ الثالث منهم وسيلة دنيئة فى سداد ديون القمار فاختفى من أمريكا . ولم يشر اليه والدى على أنه مازال على قيد الحياة . وكان والدى وهو أصغر اخوته لديه كل الصفات التى افترض وجودها لدى الأبناء الكبار .

وأثناء السنوات الأخيرة من التحاقى بالمدرسة أدركت أن الأمور الخاطئة فى والدىّ تتمثل فى أنهما لا يمتلكان سوى ازدراء الحياة التى أريد أن أحياها . فقد كنت متفوقا فى اللغة الانجليزية . وطبعت لى قصائد فى مجلة المدرسة ، كنت أعتقد أن د . هـ . لورانس هو أعظم إنسان ظهر فى القرن العشرين . ومن المؤكد أن والدىّ لم يسمعا عنه على الاطلاق اللهم إلا من حيث ارتباط اسمه بكتاب "عشيق الليدى تشاترلى" . وكانت هناك أشياء : مثل تلك الرقة العاطفية التى تتميز بها والدتى وذلك المرح الذى يجتاح والدى من وقت لآخر . يمكننى اكتساب المزيد منها عنهما ، لكننى أحب فيهما أشياء لا يرغبان فى أن يحبا من أجلها وبحلول الزمن الذى بلغت فيه الثمانية عشرة أصبح والداى مجرد شخصين يقدمان لى ما أحتاج اليه من أشياء وكان علىَّ أن أعبر لهما عن العرفان بالجميل .

كنت أعيش نوعين من الحياة . ففى المدرسة اكتسبت شهرة كإنسان محب للفن وكإنسان كلبىّ[1] النزعة . وكان علىَّ أن أنضم للكتيبة العسكرية . فالتقاليد والتضحية بالنفس أرغمانى على الانضمام للجيش . على أن التحق بالجامعة فيما بعد ومن حسن الحظ أن ناظر مدرستى وقف الى جانبى . وواصلت العيش فى حياة مزدوجة : فى الجيش حيث كنت منهمكا فى تمثيل دور ابن العميد أورفى أمام الناس مع الاستمرار فى

القراءة سراً دون أن يعرف الناس ذلك . وعكفت على العمل على تسريح نفسى من الجيش بأسرع ما يمكن .

التحقت بجامعة أكسفورد عام ١٩٤٨ . واضطر والدى أن يسافر بالطائرة إلى الهند . واصطحب أمى معه . وتحطمت الطائرة التى يستقلانها وتحولت إلى محرقة تدار بالبنزين الشديد الاشتعال وذلك بسبب تعرضها لعاصفة رعدية على مسافة ٤٠ ميلا إلى الشرق من كراتشى . وبعد أن تلقيت الصدمة الأولى شعرت بشىء من الارتياح والحرية . ولم يتبق لى سوى شقيق والدتى الذى يعمل فى روديسيا ، لذلك لم تعد لدى أسرة تحاول أن تعرقل اتجاهاتى فى الحياة . وربما لم أكن باراً بوالدى ولكنى كنت ملتزما بالنظام والنواحى العلمية .

أو هذا هو ما كنت أعتقده ، وتشاركنى فى ذلك مجموعة من الزملاء غريبى الأطوار . أسسنا ناديا صغيرا يسمى "نادى الثائرين" . وكنا نحتسى معا النبيذ الأسبانى شديد التركيز ، ونرتدى الحلل ذات اللون الرمادى الغامق وأربطة العنق السوداء أثناء الاجتماعات التى نعقدها (وكان هذا الزى بمثابة احتجاج ضد تلك السنوات الحقيرة المليئة بالمعاطف المصنوعة من نسيج صوفى خشن سادت فى أواخر الأربعينات) . فى النادى كنا نتناقش فى مسألة الوجود والعدم . فنطلق على السلوك الذى لا ينشأ عن مقدمات بأنه "وجودى" . وكان من المتوقع أن يطلق الناس الأقل استنارة على ذلك السلوك أنه يتسم بغرابة الأطوار والأنانية ولكننا لم ندرك أن أبطال الروايات الوجودية الفرنسية التى قرأناها لم يفترض فيهم أنهم واقعيون . كنا نحاول تقليدهم ونعتقد بطريق الخطأ أن الوصف المجازى للمشاعر ماهو إلا وصف مباشر للسلوك . كنا نشعر على الفور بالكروب . كنا نود أن نبدو مختلفين عن غيرنا . وكنا نفعل ذلك فى نادينا الخاص . ولقد اكتسبت عادات باهظة التكاليف وأساليب زائفة . وكان وهما من الدرجة الأولى بأننى كنت شاعرا . ولكن لا يمكن أن يكون هناك شىء أقل شاعرية من معاناتى فى حياتى بوجه عام وفى كسب العيش بصفة خاصة . كنت ساذجا للغاية بحيث لم أدرك أن المذهب الكلبى يخفى وراءه عجزا وقصارى القول أننى لم أدرك أن احتقار كل جهد هو أعظم الجهود على الاطلاق . ولكننى تشربت بالفعل جرعة صغيرة لشىء واحد مفيد بصفة دائمة . وهو أعظم هدية قدمتها أكسفورد للحياة المتحضرة :

وهذا الشيء هو الأمانة السقراطية . اذ أوضحت لى على نحو متقطع للغاية أنه لا يكفى للمرء أن يثور ضد ماضيه . وذات يوم أبديت استيائى أمام بعض الأصدقاء وشعورى بالمرارة ازاء الجيش . وعندما عدت إلى مسكنى فيما بعد شعرت فجأة بالدهشة من نفسى لأننى قلت أشياء كان من الممكن أن تصيب والدى الميت بسكتة فى المخ . اذ كنت لا أزال واقعا تحت نفوذه وتأثيره . وحقيقة الأمر أننى لم أكن ساخرا ومتهكما بطبيعتى وانما كنت كذلك من خلال تمردى . لقد ابتعدت عن الأمور التى كنت أكرهها ولكننى لم أعثر على المكان الذى أحبه ولذلك ادعيت بأنه لا يوجد هناك مكان يمكننى أن أحبه .

خرجت إلى العالم العريض الفسيح وأنا مهيأ للفشل . لأن والدى لم يضم كلمة "عدم التبذير فى النواحى المالية" لمجموعة الكلمات الجوهرية العسكرية الخاصة به .

كان يحتفظ برصيد بسيط فى بنك لادبروك وكانت فواتير الطعام فى ميس الضباط تصل إلى أرقام عالية بشكل مذهل لأنه يحب أن يبدو محبوبا بين الناس كما كان يطلب المشروبات الكحولية فى أماكن الجاذبية . وما تبقى من نقوده عقب حصول المحامين ورجال الضرائب على نصيبهم كان مبلغا ضئيلا لا يكاد يكفينى لمواجهة نفقات الحياة . ولكن كل وظيفة من الوظائف التى تطلعت اليها ـ سواء فى وزارة الخارجية أو فى شئون المدينة أو شئون المستعمرات أو البنوك أو التجارة أو الاعلان كانت قابلة للاختراق . وحضرت العديد من المقابلات الشخصية . ولأننى لم أشعر بأننى مضطر لأن أظهر الحماس الملىء باللهفة والذى يتوقعه عالمنا من موظف شاب فاننى لم أحرز نجاحاً فى أية مقابلة من تلك المقابلات .

وفى نهاية الأمر ، استجبت لاعلان صدر فى "الملحق التعليمى للتايمز" وذهبت إلى المكان الذى ورد بالإعلان وهو مدرسة عمومية صغيرة وتم تفحصى واختبارى ثم عرضت علىّ الوظيفة . ثم أصبح من المقرر أن اتسلم العمل بعد ثلاثة أسابيع .

وكان أولاد الطبقة المتوسطة المنتجون على نطاق واسع سيئين بما فيه الكفاية . وكانت المدينة الصغيرة أقرب الى الكابوس . ولكن الغرفة العمومية المشتركة كانت هى الشىء الذى لا يحتمل ولا يطاق . حتى أن

الذهاب إلى الفصل أصبح بمثابة إغاثة تترك شيئا من الارتياح فى النفس . اذ كان الضجر والملل والسأم والتنبؤات السنوية المخدرة للأحاسيس والمتعلقة بالحياة تهيمن على الموظفين مثل السحابة . كان مللا وسأما حقيقيا وليس مجرد السأم المتمشى مع الموضة الحديثة . ومن خلال ذلك الملل كان ينساب الرياء والنفاق والحركات الفجائية التى تطيح بالأشياء كما كان ينساب منه غضب الناس الأكبر سنا الذين أدركوا أنهم فشلوا ، وغضب الأصغر سنا الذين يخامرهم الشعور بأنهم سوف يفشلون . كان الأساتذة الكبار يقفون مثل الخطب الدينية التى تشبه المشانق حيث يشعر المرء الموجود معهم بنوع من الدوار ويشاهد لمحة من لمحات الحفرة الجهنمية التى لا قاع لها والخاصة بالعبث الإنسانى .. أو هكذا كان شعورى أثناء الفترة الثانية من العام الدراسى .

كان بمقدورى أن أقضى حياتى فى عبور مثل هذه "الصحراء" ، وكلما شعرت بذلك أدركت أن المدرسة المميتة المتحجرة كانت بمثابة ماكيت مصغر للدولة بأكملها وأن التخلى عن شىء ما دون الشىء الآخر سيصبح أمرا يدعو للسخرية . كما كانت هناك أيضاً فتاة تسبب لى الضيق والضجر .

ولدى انتهاء العام الدراسى تقدمت باستقالتى فقبلت فى اذعان ورضوخ ولقد اعتقد ناظر المدرسة اننى أرغب فى الذهاب إلى أمريكا أو احدى دول الكومنولث .

ـ اننى لم أتخذ قراراً حتى الآن أيها الناظر .

ـ أعتقد أننا قد جعلنا منك مدرسا ممتازا ياأورفى . وكما تعرف فانه كان عليك أن تصنع منا شيئا . ولكن لقد فات الآوان .

ـ أخشى أن يكون الأمر كذلك .

ـ أنصحك بعدم التجوال بالخارج . وعلى كل حال فأنت قد اخترت هذا من قبل وسوف نشاهد النتائج الآن .

وتساقطت الأمطار بغزارة فى اليوم الذى سافرت فيه . كان لدى احساس غريب وممتع بأننى أفر هاربا . لم أكن أعرف إلى أين أنا ذاهب ولكننى كنت أعرف ما أريده . كنت أريد أرضا جديدة وسلالة جديدة من البشر ولغة جديدة . كنت بحاجة إلى التوصل إلى سر غامض جديد رغم

أننى لم يكن باستطاعتى التعبير عن ذلك بالكلمات آنئذ .

(٢)

سمعت أن المعهد البريطانى أصدر اعلانا يطلب فيه مدرسين . لذلك توجهت فى أوائل أغسطس إلى شارع دافيز وعقدت لى سيدة امتحاناً شفويا . وكانت هذه السيدة متقدة بالحماس وكانت ذات عقلية حضارية ، أوضحت لى فى شىء من الثقة أنه من الأمور البالغة الأهمية أن يتم "تمثلنا" فى الخارج عن طريق النموذج الملائم ولكن الاجراءات مزعجة للغاية لأن كل الوظائف ينبغى الاعلان عنها وينبغى أن يتم الاختيار من بين المتقدمين بطلبات للحصول على الوظائف عن طريق عقد مقابلة شخصية لهم . وقالت إنهم يركزون على الوظائف بالأماكن التى تقع فيما وراء البحار .. ووصلت إلى لُبِّ الموضوع : ان الوظائف الوحيدة المتاحة هى تدريس اللغة الانجليزية فى مدارس أجنبية ـ أو هل بدا ذلك شنيعا للغاية ؟

فقلت إن ذلك شنيع بالفعل .

وفى الأسبوع الأخير من أغسطس وعلى نحو أشبه بالمزاح أصدرت اعلانا فى الصحف وحصلت على عدد من الردود على العرض الموجز الذى قدمته والذى ينص على الذهاب إلى أى مكان وانجاز أى عمل . وبغض النظر عن النشرات التى تذكرنى بأننى كنت فى مركز قوى وردت ثلاثة خطابات جذابة من أناس مفلسين يتسمون بالحذر .

ولاح شهر سبتمبر فى الأفق ، فبدأت أشعر باليأس والقنوط . فاضطررت للتفكير فى العودة فى يأس إلى الوظائف الكئيبة الباهتة اللانهائية . لذلك عدت فى صباح أحد الأيام إلى شارع دافيز . وتساءلت عما إذا كان لديهم أية وظائف تتعلق بمهنة التدريس بمنطقة حوض البحر المتوسط فانطلقت المرأة التى لها قرون استشعار مخيفة لكى تحضر أحد الملفات . وبدأت أشاهد نفسى فى مدريد أو روما أو مارسيليا أو برشلونة .. أو حتى فى ليشبونة . سيكون الأمر مختلفا بالخارج . لن تكون هناك حجرة مخصصة للمدرسين وينبغى أن أكتب الشعر . عادت وهى خائفة للغاية ناولتنى قصاصة من الورق عن مدرسة فى مدينة ميلانو الايطالية . فهززت رأسى . فوافقتنى على رأيى ثم قالت : تطلب مدرسة

اللورد بيرون في فراكزوس باليونان فى أوائل أكتوبر مساعد مدرس لتدريس اللغة الانجليزية . ينبغى على المتقدم للوظيفة أن يكون أعزب وأن يكون حاصلا على مؤهل في اللغة الانجليزية . المرتب فى حدود ٦٠٠ جنيه سنويا ويمكن تحويله بالكامل والعقد مدته سنتان وقابل للتجديد . والأجور تسدد فى بداية ونهاية التعاقد .

وكانت هناك قصاصة من الورق ملحقة بالاعلان تعطى المزيد من المعلومات . وقد ورد بها أن فراكزوس هى جزيرة تقع في بحر إيجه على مسافة ٨٠ ميلا من أثينا . وأن مدرسة اللورد بيرون هذه كانت "واحدة من أشهر المدارس الداخلية التى تقدم المبيت والوجبات للتلاميذ والتى كانت تدار وفقا لأساليب المدارس العمومية الانجليزية" . وهذا هو السبب فى أنها قد سميت بذلك الاسم . ولقد اتضح أن بها كل التسهيلات التى ينبغى أن توجد فى أى مدرسة .

كانت تبلغ من العمر حوالى ٣٠ عاما . ولدت لتكون عانساً . وهى خالية تماما من مظاهر الأنوثة أو الرجولة حتى أن ملابسها البالغة الأناقة والمكياج الثقيل الذى تضعه على وجهها جعلها مثيرة للشفقة .

ألقيت نظرة أخرى على قصاصة الورق التى تعطى بعض المعلومات عن الجزيرة والمدرسة . وأضافت : نحن فى الواقع لم يسبق لنا أن قمنا باتخاذ اجراءات لتعيين مدرسين هناك ، ونحن نقوم بهذا الاجراء الآن فى حقيقة الأمر من قبيل المجاملة للمدرسة .

وعندما عدت إلى منزلى قمت بملء طلب الاستخدام الذى أحضرته معها لدى مجيئها إلى المطعم . ثم ذهبت على الفور لارسال طلب الاستخدام بالبريد . وفى هذا المساء تقابلت مع أليسون .

(٣)

أعتقد أنه كان لدى قدر كبير من الجاذبية الجنسية بالنسبة لسنى . فالفتيات أو نوع معين من الفتيات كن يشعرن نحوى بالارتياح والحب . وكانت لدى سيارة ـ وهو أمر كان غير شائع بين الطلبة الذين لم ينتهوا من دراساتهم فى تلك الأيام ـ كما كان لدى بعض الأموال . لم أكن دميم الخلقة أو قبيح الشكل . والأهم من ذلك كله أننى كنت أعيش وحيداً بدون أقارب وهذا فى حد ذاته يعتبر سلاحا مميتا مع النساء وهو أمر يدركه جيدا

كل وغد فى المدينة . وكانت "الوسيلة" التى ألجأ اليها هى اظهار اللامبالاة واظهار المزاج الكلبى وعدم توكيد الأمور . وبعدئذ ومثلما يفعل الساحر المشعوذ مع أرنب أبيض كنت أظهر العواطف الجياشة الانفرادية .

لم أركز على عمليات الفتح والغزو . ولكن بحلول الوقت الذى غادرت فيه أكسفورد كنت قد قمت بفض بكارة ١٢ فتاة . وكنت أجد المتعة فى النجاح الجنسى مثلما أجدها فى طبيعة الحب الذى يتسم بالزوال من الناحية الظاهرية . كان الأمر يبدو وكأننى إنسان ماهر فى لعبة الجولف ولكننى فى نفس الوقت أحتقر هذه اللعبة . فالإنسان فى لعبة الجولف يكون مغطى من كل الزوايا سواء أكان يلعب أم لا . ولقد رسمت معظم خططى خلال الإجازات بعيدا عن أكسفورد طالما أن الفصل الدراسى الجديد يعنى أننى بإستطاعتى أن أترك مكان الجريمة التى ارتكبتها بكل سهولة . وأصبحت لباقتى فى انهاء العلاقات تكاد تكون فى نفس لباقتى لدى البدء فى اقامة العلاقات .

وقد يبدو الأمر كأننى كنت أضع حسابات لهذه المواقف ولكن ذلك لم يكن ينجم عن البرود الحقيقى بقدر ما ينجم عن الاعتقاد النرجسى فى مدى أهمية أسلوب الحياة . اعتقدت بطريق الخطأ أن مشاعر الارتياح التى تتعلق بالايقاع بفتاة تؤدى دائما إلى عشق الحرية . وربما أن الشيء الوحيد الذى كان فى صالحى أننى لم أكذب الا بقدر ضئيل للغاية . حيث كنت أحرص دائماً على أن تدرك الضحية جيدا قبل أن تخلع ملابسها الفرق بين المضاجعة والزواج .

ولكن الأمور أصبحت معقدة آنئذ . إذ بدأت فى الخروج مع ابنة أحد كبار المدرسين . كانت جميلة ، أدركت فيما بعد أنها كانت عاطفية من أجل تحقيق غرض معين : الا وهو الارتباط بالزواج منى . فبدأت أشعر بالضيق لأن رغبتى الجسدية فى هذه الفتاة قد تتسبب فى ارباك شئون حياتى . بل كانت هناك ليلة أو ليلتان شعرت خلالهما أننى على وشك الاستسلام لجانيت وهى فتاة سخيفة تماما وكنت أدرك أننى لم أحبها ولن أحبها مستقبلا على الاطلاق . ولقد ظل منظر الفراق بيننا وهو منظر مرير ملىء بالدموع والبكاء فى داخل السيارة بجوار بحر يوليو ماثلاً فى ذهنى . ومن

حسن الحظ أننى كنت أدرك أنها ليست حاملاً . وجئت إلى لندن وأنا ملىء بالتصميم على الابتعاد عن النساء لبعض الوقت .

كانت الشقة الموجودة فى ميدان راسيل التى تقع أسفل الشقة التى قمت باستئجارها شاغرة فى معظم شهر أغسطس ولكننى فى أحد أيام الأحد سمعت صوت غلق أبواب فى عنف وكانت هناك موسيقى تصدح . وتخطيت فتاتين غير جميلتين على السلالم فى يوم الاثنين وسمعتهما تتحدثان . كانتا من استراليا .

وفى مساء يوم الجمعة طرقا على الباب ووجدت الفتاتين القصيرتين الممتلئتين واقفتين هنالك ، قالت :

ـ أوه . هاى . أنا مرجريت . وأسكن فى الشقة الموجودة تحتك ، يسعدنى أن أتعرف عليك . ونحن بصدد اقامة حفل صغير لتناول الخمور . فهل تحب أن تنضم الينا ؟.

ـ أوه . حسنا . فى حقيقة الأمر .. فالضجة والضوضاء ستتصاعدان لأعلى إلى هنا .

وكان ذلك هو الأسلوب المتبع دائما : توجيه الدعوة بهدف القضاء على الشكوى من الضجة والضوضاء . فترددت فى اتخاذ القرار ثم هززت كتفى فى غير مبالاة . وقلت : وهو كذلك . شكراً لك .

"حسنا . هذا أمر رائع . الساعة الثامنة ؟"

وبدأت فى النزول على السلالم ثم توقفت وقالت بصوت مرتفع : ألديك صديقة تود أن تحضرها معك ؟

ـ ليس لدى صديقة حاليا .

ـ سوف نتخذ الترتيبات اللازمة لك . هاى ثم اختفت . وعندئذ تمنيت لو كنت قد رفضت هذه الدعوة .

نزلت على السلم عندما سمعت الأصوات وتأكدت أن عددا كبيرا من الناس قد وصل بالفعل . وكنت آمل أن يكون قد تم التخلص من الفتيات القبيحات ـ ودائما ما تصل الفتيات القبيحات فى وقت مبكر . كان باب الشقة مفتوحا . فدخلت إلى صالة صغيرة ووقفت فى مدخل حجرة الجلوس ممسكا بزجاجة خمر ومتأهبا لتقديم الزجاجة . حاولت أن أعثر فى الغرفة المزدحمة على احدى الفتاتين اللتين شاهدتهما من قبل . وكانت هناك

أصوات استرالية كما يوجد العديد من الهنود الغربيين . وبدا الأمر كأن الحفلة لا يتوافق مع مزاجى وكنت على وشك الانزلاق خارجا فى خلال خمس ثوان وعندئذ وصل شخص ما ووقف فى الصالة ورائى .

كانت فتاة من نفس عمرى تقريباً ، تحمل حقيبة سفر ثقيلة علاوة على حقيبة من الجلد صغيرة معلقة على كتفيها . وكانت مرتدية معطفا واقيا من الأمطار باليا من كثرة الأسفار وكانت بشرتها مدبوغة باللون الأسمر مما يدل على أنها تعرضت لأشعة الشمس على مدى أسابيع ولم يكن شعرها الطويل أشقر تماما وانما تم صبغه ليتخذ ذلك اللون . وبدا شعرها غريبا لأن تسريحة القنفذ كانت هى التسريحة المتمشية مع الموضة : البنات مثل الأولاد وليس البنات مثل البنات . كانت مثل حيوان ضال تبدو غير متمسكة بالأخلاق .

تجنبت الاقتراب من الباب المفتوح واستدعتنى . وكانت ابتسامتها خفيفة للغاية ومليئة بالنفاق والرياء والفظاظة .

- أيمكنك أن تعثر على ماجى وتطلب منها أن تخرج إلىَّ ؟
- مارجريت ؟

فأومأت برأسها . فشققت طريقى إلى داخل الغرفة المزدحمة ثم لمحت مارجريت فى نهاية الأمر فى المطبخ .

- هاى ! هل عملتها ؟

هنالك شخص ما يريد أن يراك بالخارج . انها فتاة تحمل حقيبة سفر ..

"أوه ! لا !" ثم استدارت نحو امرأة خلفها . فأدركت أن هناك بعض المتاعب . وترددت بعض الشىء ثم تركت زجاجة البيرة التى كانت تحاول فتحها . وسرت وراء كتفيها الممتلئتين عائدا بين حشد الجمهور .

- آليسون ! قلت الأسبوع القادم .
- لقد أنفقت كل النقود التى كانت معى .

وتسببت الأشياء المسروقة فى أن جعلت الفتاة الأكبر سنا تبدو فى غاية القلق والتمزق . حيث بدا عليها الشعور بالذنب والحذر فى آن واحد . وتساءلت : هل عاد بيتى ؟

وهبط الصوت فى تحذير : لا . ولكن تشارلى وبيل عادا .

بدا عليها الغضب وقالت : "أوه . اللعنة . ينبغى على أن آخذ حماما" .
- لقد ملأه تشارلى لكى يبرد البيرة . فهو ملىء حتى الحافة .

فتدلت الفتاة ذات البشرة التى لفحتها الشمس فى ضعف وارتخاء .
فتدخلت قائلا : استخدمى دورة المياه الخاصة بى . فى الدور العلوى .
- نعم ؟ ياأليسون . هذا الشاب هو .....
- نيقولاس .
- هل تسمح لى ؟ لقد عدت توا من باريس .
- بالطبع . ولسوف أصعد معك لأعلى .
- يجب علىّ أن أذهب لأحصل على بعض الملابس أولا . وبمجرد أن دخلت إلى الغرفة صدرت صيحة عالية .
- هاى إلىٍّ ! أين كنت أيتها الفتاة ؟

وتجمع حولها رجلان أو ثلاثة رجال استراليين . فقبلتهم جميعا قبلات سريعة . وفى خلال دقيقة قامت مارجريت وهى واحدة من تلك الفتيات الممتلئات اللائى يقمن برعاية الفتيات النحيلات بدفع الرجال بعيداً . وظهرت أليسون مرة أخرى ومعها الملابس التى تريدها ثم صعدنا السلم معا .

قالت : ياإلهى من الاستراليين .
- أين كنت ؟
- فى جميع أرجاء فرنسا وأسبانيا .
ودخلنا معا إلى الشقة .
- سأقوم بتنظيف الحمام من العنكبوت وعليك أن تتناولى مشروبا . هنالك .

وعندما رجعت عقب الانتهاء من تنظيف الحمام كانت واقفة وقد أمسكت بكأس من الاسكوتش فى يدها . وابتسمت لى مرة أخرى ، كانت تبذل مجهوداً لكى تبتسم . قمت بمساعدتها على خلع معطف المطر الخاص بها . وكانت تضع عطرا فرنسياً . وكان قميصها المزركش بأزهار الربيع قذرا ومتسخا .
- أتسكنين الطابق الأول ؟
- أوه . بالتأكيد .

رفعت كأسها فى نخب صامت . كانت لها عينان رماديتان جريئتان نزيهتان . الشيئان الوحيدان اللذان يتسمان بالبراءة فى وجه فاسد كما لو أن الظروف ـ وليست طبيعتها ـ قد أرغمتها على أن تكون صارمة لكى تحمى نفسها ولكى تبدو أنها فى حاجة لمن يدافع عنها . وكانت لصوتها مسحة خفيفة من الطابع الاسترالى . وكان يتأرجح مابين الخشونة ورائحة الأنف الزنخة بعض الشىء والصراحة المكشوفة المباشرة . كانت إنسانة شاذة وغريبة .

ـ أأنت بمفردك فى الحفل ؟

ـ نعم .

ـ هل ستظل إلى جوارى فى هذا المساء ؟

ـ بالطبع .

ـ أيمكنك أن تعود إلىَّ بعد عشرين دقيقة ؟

ـ سوف أنتظرك .

ـ أفضل أن ترجع إلىَّ .

وتبادلنا ابتسامات مليئة بالحذر وعدت إلى الحفل .

وجاءت مارجريت ، وقالت : لدى فتاة انجليزية لطيفة ومتلهفة لأن تقابلك يانيقولاس .

ـ أخشى أن تكون صديقتك قد شرعت فى ذلك قبل حلول الوقت الملائم .

فحملقت فى وجهى ثم نظرت فيما حولها وبعدئذ أشارت لى بيدها لكى أرجع إلى الصالة وقالت : استمع الىَّ . من الصعب أن أشرح لك الموقف ولكن .. أود أن أقول لك إن أليسون مخطوبة لأخى . وبعض أصدقائه موجودون هذه الليلة .

ـ أهكذا ؟

ـ لقد تعرضت لتشويش ذهنى شديد .

ـ لست أفهم .

ـ كل ما أوده ألا يحدث أى شجار .

ـ لن أبدأ فى أى شىء .

وترامى من الداخل صوت شخص ينادى عليها . وحاولت أن تشعر بأنها

واثقة منى ولكنها فشلت فى ذلك . نظرت الىَّ نظرة مليئة بالخبرة الطويلة ثم أومأت إلىَّ ايماءة حزينة وانصرفت . وانتظرت لفترة فى حدود عشرين دقيقة تقريبا بالقرب من الباب . ثم عدت إلى شقتى . ودققت الجرس . وكانت هناك فترة صمت طويلة وبعدئذ ترامى صوت من وراء الباب .

ـ من الذى يدق الجرس ؟

عشرون دقيقة .

ففتح الباب . كان شعرها ممشطا لأعلى . وكانت هناك فوطة ملفوفة حول جسدها ، وكتفاها لهما لون بنى غامق للغاية وكذلك الساقان . ورجعت على وجه السرعة إلى غرفة الحمام . وكانت المياه تقرقر فى البالوعة . فصحت من خلال الباب :

ـ هناك من حذرنى أن أبتعد عنك .

ـ ماجى ؟.

ـ انها تقول انها لا تريد أن ينشب شجار فى المنزل .

ـ انها بقرة ملعونة . وهى بصدد ان تصبح اخت زوجى .

ـ أعرف ذلك .

سادت فترة صمت . واستطردت : الا يبدو الامر غريبا للغاية ؟ فالمرء يذهب بعيداً ويعتقد أن الناس قد تغيروا ثم يفاجا انهم ظلوا كما هم .

ـ مامعنى ذلك ؟

ـ انتظر لحظة . انتظر دقيقة . انتظرت لدقائق عديدة . ولكن الباب فتح . كانت ترتدى فستانا بسيطا للغاية ذا لون أبيض واصبح شعرها ممشطا لأسفل . وكان وجهها خاليا من المكياج وبدت أفضل عشرات المرات مما لو كانت قد وضعت المكياج على وجهها .

ابتسمت ابتسامة خفيفة مقتضبة وقالت :

ـ ما رأيك .. هل شكلى معقول ؟. أنت حسناء الحفلة الراقصة .

ونظرت إلىَّ على نحو مباشر مما جعلنى أشعر بالارتباك . فتساءلت : هل ننزل إلى الشقة السفلية الآن ؟

ـ أتسمح لى بمجرد تناول جرعة واحدة ؟

فملأت لها كأسها مرة أخرى وبكمية أكبر مما كانت تريد . قالت لى وهى ترقب الويسكى الذى ينساب إلى الكأس : لست أدرى لماذا أنا خائفة .

ـ مم تخافين ؟
ـ لست أدرى . ماجى . الأولاد . الحفارون القدامى الأعزاء .
ـ هل تخافين من هذا المنزل الذى يمكن أن يشهد الشجار والمتاعب ؟
ـ أوه . ياإلهى . لقد كنت غبية للغاية . لقد كان هناك ولد لطيف . وكنا لا نفعل شيئا سوى تبادل القبلات . وكان هناك حفل . وذلك هو كل مافى الأمر . ولكن تشارلى أبلغ بيتى . ودخلوا فى شجار .. وأنت تعرف فحول الرجال ، هؤلاء الرجال الذين لديهم رجولة كاملة .

وفقدتها فى الشقة السفلية لبعض الوقت . اصابنى احساس شديد بالاغتراب عن كل شخص حولى . وكانت هناك فتاة تضع نظارة على عينيها ولها عينان قصيرتا النظر فى وجه رقيق وهى واحدة من تلك المخلوقات العاطفيات المثقفات اللائى ولدن لكى يتم افتراسهن واستغلالهن بمعرفة الدجالين ، ابتسمت لى فى حياء من الجانب الآخر للغرفة . كانت واقفة بمفردها ، خمنت أنها هى "الفتاة الانجليزية الظريفة" التى اختارتها مارجريت من أجلى . كان أحمر الشفاه فى وجهها شديد الاحمرار . وكانت مألوفة مثل نوع من الطيور . وأعرضت بوجهى عنها كأننى أبتعد عن حافة صخرة ثم ذهبت وجلست على الأرض بجوار رف للكتب . وهناك تظاهرت بأننى أقرأ كتابا له غلاف من ورق غير سميك .

وركعت أليسون إلى جوارى . لقد أطاح برأسى ذلك الويسكى . ثم تناولت قدرا من مشروب الچن .

وفكرت فى وجه الفتاة الانجليزية الأبيض ذات الفم الملطخ باللون الأحمر . على الأقل كانت هذه الفتاة مفعمة بالحيوية . صحيح أنها تبدو قليلة الخبرة ، ولكنها مليئة بالحيوية .

وقلت : اننى سعيد لعودتك فى هذه الليلة . وراحت ترتشف مشروب الجن الخاص بها . ورمقتنى بنظرة سريعة .

حاولت مرة أخرى .. هل سبق لك أن قرأت هذا ؟
ـ فلننفذ إلى الموضوع مباشرة . وليذهب الانتاج الأدبى إلى الجحيم . أنت إنسان ذكى وأنا إنسانة جميلة . والآن فلنتحدث عمن نكون نحن فى حقيقة الأمر .

وعذبتنى العينان الرماديتان أو تجاسرت على ذلك .

ـ من هو بيتى ؟
ـ انه طيار . ونحن نقيم معا . من وقت لآخر . وذلك هو كل مافى الأمر . وهو بصدد الدخول فى دين جديد . فى الولايات .

ثم حملقت فى أرضية الغرفة وبدت للحظات فتاة مختلفة تتسم بالمزيد من الوقار . وأضافت : "وماجى هى التى تدعى أننا مخطوبان . ولكننا لسنا كذلك . واستطردت : نحن بدون خطوبة حتى الآن" .

ولم يكن من الواضح ما إذا كانت تتحدث عن خطيبها أو تتحدث لصالحى . أو ما اذا كانت الحرية هى مجرد ادعاء من جانبها أو حقيقة واقعة .

ـ وماهى الأعمال التى تقومين بها ؟
ـ بعض الأمور . معظمها أعمال فى قسم الاستقبال .
ـ بالفنادق ؟

جعدت أنفها وقالت : "أى شىء . ولقد تقدمت بطلب للحصول على وظيفة جديدة : مضيفة جوية . وهذا هو السبب فى أننى بدأت فى تقوية نفسى فى اللغة الفرنسية والأسبانية فى الأسابيع الأخيرة .

ـ أيمكننا أن نخرج معا غدا ؟

وجاء رجل استرالى ثقيل الوزن فى الثلاثينات من عمره واستند على عمود جانبى بالباب فى مواجهتنا . فصاحت عبر الغرفة "أوه تشارلى . لقد سمح لى باستخدام الحمام الخاص به توا . وهذا أمر لا أهمية له" .

فأومأ تشارلى برأسه فى بطء . ثم أشار باصبع قصير غليظ فى شىء من التحذير . ثم دفع بنفسه للسير فى خط مستقيم وانصرف مترنحا .

ـ شىء ممتع . وقبلت يدها ونظرت إلى راحة يدها :
ـ هل أمضيت عامين ونصف العام فى معسكر يابانى يضم أسرى الحرب ؟
ـ لا . لماذا تسألين هذا السؤال ؟
ـ لقد أمضى تشارلى هذه الفترة فى معسكر يابانى لأسرى الحرب .
ـ مسكين تشارلى .
ـ الاستراليون أناس وقحون ولا يتصفون بالوسامة . والانجليز خنازير .
ـ لو أنك ..
ـ اننى أسخر منه لأنه واقع فى حبى وهو يرتاح لذلك . ولكن لا يسخر

منه أى شخص آخر . اذا كنت موجودة فى مكان قريب .

وسادت فترة صمت أخرى :

ـ آسفة .

ـ وهو كذلك .

ـ بشأن الغد ؟

ـ لا . بشأنك .

وعلى نحو تدريجى جعلتنى أتحدث عن نفسى . لقد فعلت ذلك من خلال توجيه الأسئلة الجريئة ومن خلال التغاضى عن الاجابات الخاوية . فبدأت أتحدث عن مشاعر الوحدة القاسية التى أمر بها وركزت على شرح جوانب شخصيتى فى بساطة شديدة وبدون اللجوء إلى التجمل . واكتشفت شيئين فى آليسون : أنها كانت ـ على الرغم من الفظاظة وتبلد الحس الذى تبدو عليه ـ خبيرة فى شئون الملاطفة وتعرف كيف تسوس الرجال بل كانت تتميز باللياقة الجنسية وأن جاذبيتها تكمن فى صراحتها واخلاصها بل فى جسدها الجميل ووجهها المثير وادراكها لتلك الحقائق . كانت لديها مقدرة على أن تظهر فجأة بعض الحقائق وبعض الأمور الجادة علاوة على موجات من الاهتمام السريع . وكنت أدرك أنها كانت ترقبنى . وبعد لحظات نظرت اليها . كانت على وجهها تعبيرات تدل على الخجل والاستغراق فى التفكير . كانت كياناً جديداً .

ـ ياآليسون . كم أشعر بالارتياح نحوك .

ـ وأعتقد أننى أميل إليك أيضاً . فأنت لديك فم لطيف . بالنسبة لشخص متزمت .

ـ أنت أول إنسانة استرالية قابلتها فى حياتى .

ـ ياللمسكين .

كانت جميع الأضواء قد أطفئت منذ فترة طويلة باستثناء ضوء واحد معتم وكانت المجموعات الثنائية من ذكر وانثى والمستسلمة كالمعتاد مستلقية على كل قطع الأثاث المتاحة وعلى المساحات الشاغرة بأرضية الغرف . لقد توزع جميع الحاضرين وأصبحوا كل اثنين مع بعض . وبدت ماجى وكأنها قد اختفت تماما . وكان تشارلى غارقا فى نوم عميق فوق أرضية غرفة النوم . بدأنا فى الرقص متقاربين ثم ازداد اقترابنا وقمت بتقبيل شعرها ثم رقبتها وقامت هى بالضغط على يدى وزادت من اقترابها منى .

ـ هل سنذهب إلى الدور العلوى ؟ إذهب أنت أولاً . وسأجيء اليك بعد لحظات .

ثم انزلقت وصعدت أنا إلى شقتى . ومرت عشر دقائق . وبعدئذ وصلت إلى باب شقتى وقد ظهرت ابتسامة خفيفة . كانت تقف هنالك فى ردائها الأبيض ضئيلة الحجم وبريئة ، وفاسدة خلقيا وخشنة ، ورقيقة ومبتذلة ، وخبيرة .

ودخلت ثم أغلقت الباب وعلى الفور اندمجنا فى قبلات على مدى دقيقة أو دقيقتين وانضغط جسدانا على الباب فى الظلام . وكان هناك وقع اقدام بالخارج ثم طرق حاد على الباب تكرر مرتين . فوضعت أليسون يدها على فمى . وجاء الطرق الحاد على الباب مرة أخرى . وساد التردد وتزايدت ضربات القلب . ثم تلاشى وقع الأقدام .

فقالت ضمنى ضمنى تعال إلىَّ .

(٤)

استيقظت فى وقت متأخر من صباح اليوم التالى . أما هى فكانت لا تزال نائمة . وقد استدارت بظهرها العارى البنى اللون بعيداً عنى . فاتجهت إلى المطبخ وقمت بإعداد شيء من القهوة وأخذت القهوة إلى غرفة النوم . كانت قد استيقظت وراحت تحملق فى من فوق بطانيات السرير . كانت نظراتها طويلة ، خالية من التعبيرات . فجلست إلى جوارها وحاولت أن اكتشف ما اذا كان هناك شيء خاطيء ولكنها ظلت جاذبة ملاءة السرير فى احكام على رأسها ، لذلك توقفت عن التربيت عليها وعدت إلى قهوتى . وبعد فترة قصير نهضت جالسة فى السرير وطلبت سيجارة . ثم سألتنى عما اذا كان بالمستطاع أن أعيرها قميصا . لم تكن تنظر إلىَّ نظرات مباشرة فى عينى . ثم ارتدت القميص واتجهت إلى الحمام . وأبدت عدم اهتمامها بى بأن هزت شعرها لدى عودتها من الحمام وارتمائها على السرير مرة أخرى . فجلست عند نهاية السرير ورحت أرقبها وهى تحتسى القهوة .

ـ ماذا فى الأمر ؟

ـ هل تعرف كم عدد الرجال الذينُ اضطجعت معهم خلال الشهرين الماضيين ؟

ـ خمسين ؟

لم تبتسم : لو نمت مع خمسين لأصبحت محترفة .
ـ تناولى المزيد من القهوة !.
ـ بعد نصف ساعة من رؤيتي لك فى الليلة الماضية اعتقدت أننى اذا كنت إنسانة فاسدة بالفعل فاننى استلقى فى السرير معك .
ـ شكرا جزيلا .
ـ لقد حكمت عليك من الطريقة التى تحدثت بها .
ـ حكمت عليَّ بماذا ؟
ـ بأنك من طراز بياع الاجساد .
ـ هذا أمر يدعو للسخرية .

وسادت فترة صمت .

وقالت : لقد مرغت فى الأوحال وأصبحت أشعر بالارهاق الشديد . أسفة . أنت إنسان لطيف . ورائع للغاية فى السرير . أتفعل ذلك باستمرار ؟
ـ لست معتادا على هذا .
ـ اننى معتادة على ذلك .
ـ هذه ليست جريمة . كل ما هنالك أنك تبرهنين على أنك لا ترغبين فى الزواج من ذلك الشخص .

عمرى ٢٣ عاما . كم عمرك ؟
ـ ٢٥ عاما .
ـ هل ستظل شخصيتك على ذلك النحو للأبد ؟ ان ما أشعر به هو اننى سأظل فتاة مومسا أسترالية غبية للأبد .
ـ هدئى من روعك .
ـ أود أن أقول لك ما يفعله بيتى فى هذه اللحظة . انه يكتب الخطابات اليَّ ليقول لى : (لقد خرجت مع فتاة يوم الجمعة الماضى وتم بيننا "ووزامارو" .
ـ ما معنى ذلك ؟
ـ هذا معناه "وأنت أيضاً يمكن لك أن تنامى مع أى شخص تحبين أن تضطجعى معه .

وراحت تحملق إلى الخارج من خلال النافذة . وأضافت : لقد عشنا معا

طوال فصل الربيع . ونحن نحاول تحقيق التوافق بيننا . ونحن مثل أخ وأخت عندما نغادر السرير . أنت لا تعرف ما تشعر به فتاة عندما تستيقظ من النوم لتجد نفسها مع رجل لم تتعرف عليه الا منذ الأمس . انه أمر يوحى بأن الفتاة تفقد شيئا ما . ليس مماثلا تماما لما تفقده جميع الفتيات .

ـ أو تكسب شيئا ما .

ـ ياإلهى . ما الذى تكسبه الفتاة التى تفعل ذلك . أخبرنى .

ـ الخبرة والمتعة .

ـ هل أخبرتك بأننى أحب فمك ؟

ـ مرات عديدة .

فأطفأت السيجارة وجلست فى اعتدال .

ـ أتعرف السبب الذى جعلنى أبكى الآن ؟ لأننى سأتزوجه . بمجرد أن يعود سأتزوجه . انه هو كل ما أستحقه .

وجلست مستندة بظهرها على الحائط وهى مرتدية القميص الفضفاض على جسدها الأنثوى النحيل الضئيل الذى له وجه يدل على كثرة ما تعرضت له من آلام جسدية ، وراحت تحملق فىَّ وتحملق فى أغطية السرير أثناء فترة الصمت التى سادت بيننا وقالت :

ـ أشعر بالتعاسة عندما أنخرط فى التفكير . عندما أستيقظ من النوم وأشاهد ما أنا عليه .

ـ الآلاف من الفتيات يفعلن ذلك .

ـ لست مثل الآلاف من الفتيات .

انزلقت بالقميص على رأسها ثم تراجعت تحت أغطية الفراش . وتساءلت : ماهو اسمك الحقيقى ؟ ماهو اسم أسرتك ؟

ـ أورفى .

ـ اسمى كيللى .

ـ ألا تعتقد أننى مومس ؟

ربما آنئذ وأنا أنظر اليها عن كثب شديد كانت لدى حرية التعبير عن رأيى .

كان بمقدورى أن أقول لها ما يدور فى ذهنى : نعم . أنت مومس بل والأسوأ من ذلك أنك تستغلين مومسيتك ولكم تمنيت لو كنت قد أخذت

بنصيحة أخت زوجك . وربما لو كنت موجوداً فى مكان بعيد عنها فى الجانب الآخر من الغرفة أو فى أى مكان بعيد عنها بحيث يمكننى تجنب عينيها لكنت قد اتخذت الجانب الوحشى فى ردى عليها . ولكن تلك العينين الرماديتين اللتين تتوسلان الىَّ ألا أكذب ، هما اللتان جعلتانى أكذب .

ـ إننى أشعر بالود والارتياح نحوك . كثيراً للغاية فى حقيقة الأمر .

ـ عد إلى السرير وامسك بى . عانقنى فقط . فألقيت بنفسى على السرير واحتضنتها . ولأول مرة فى حياتى اضطجع مع امرأة غارقة فى دموعها .

ولقد بكت بالدموع أكثر من مرة فى ذلك اليوم الأول من أيام السبت . فقد نزلت إلى الدور الأول لتقابل ماجى فى حوالى الساعة الخامسة ثم عادت وقد احتقنت عيناها بالاحمرار والدموع . حيث قامت ماجى بطردها من المنزل . وبعد نصف ساعة صعدت آن ـ وهى تلك الفتاة الأخرى الموجودة فى الشقة وهى واحدة من تلك الإناث اللائى تنحدر وجوههن بشكل مسطح تماما ابتداء من فتحتى الأنف حتى الدقن إلى شقتى بالدور العلوى . لقد خرجت ماجى من شقتها وأرادت أن تقوم آليسون بنقل كل حاجياتها . لذلك نزلنا على السلالم وقمنا باحضار حاجياتها . وتحدثت مع آن . وبأسلوبها الهادىء الذى يميل إلى التحفظ بعض الشىء أظهرت تعاطفا مع آليسون أكثر مما كنت أتوقع . وكان الواضح أن ماجى متغافلة تماما عن أخطاء أخيها .

وظلت آليسون ملتزمة بعدم الخروج الا فى الليل على مدى أيام حيث كانت خائفة من ماجى . كنت أذهب لاشترى الطعام وكنا نتحدث معا وننام معا ونمارس الحب ونرقص معا ونطهو الطعام فى أى وقت بعيدين عن الالتزام بالأوقات المعتادة التى يتم فيها طهو الطعام مثل ابتعادنا عن عالم لندن الكئيب الماثل خارج النوافذ .

كانت آليسون أنثوية الطابع دائما . فهى لم تخن أبداً جنسها الأنثوى مثلما تفعل العديد من الفتيات الانجليزيات . لم تكن جميلة بل لم تكن وسيمة فى كثير من الأحيان . كان لها قوام صبيانى نحيل يتمشى مع الموضة . وكانت ذات ذوق معاصر فى الملابس وتتعمد أن تمشى بطريقة معينة . وكان اجمالى كيانها يزيد على مجموع أعضاء جسدها على نحو غير عادى . كنت أجلس فى السيارة وأرقبها وهى تسير فى الشارع متجهة

نحوى وهى تتوقف وتعبر الطريق وكانت تبدو رائعة فى ناظرى . ولكنها عندما تكون قريبة منى أو بجوارى فكثيرا ما تبدو أشبه بطفلة فاسدة الاخلاق . بل قبيحة الشكل وبعدئذ تأتى بحركة ما أو بتعبير أو بزاوية من وجهها وعندئذ يصبح القبح أمرا مستحيلاً .

اعتدت أن أشاهد الرجال ينزلقون بعيونهم نحوها لدى مرورها بالقرب منهم . كانت واحدة من الفتيات النادرات اللائى ولدن مزودات بهالة طبيعية من النشاط الجنسى بحيث يلفتن النظر حتى فى حالة وجودهن بين نساء جميلات بالفعل : فالأمور فى حياتهن دائما تتركز على العلاقات مع الرجال لأن أهم الأمور عندهن هى الكيفية التى تكون عليها ردود الفعل لدى الرجال . حتى أن أكثر الرجال وداعة يشعرون بوجود هذه الهالة الطبيعية .

كانت أليسون تبدو أكثر بساطة عندما تزيل المكياچ . فهى لم تكن صورة طبق الأصل من ذاتها فى خلال تلك الساعات الاثنتى عشرة الأولى الا أنها ظلت دائماً إنسانة لا يمكن التنبؤ بما يدور فى داخلها . اذ لا يمكن للمرء أن يعرف متى ستظهر شخصيتها المعقدة المصطنعة المحنكة المصابة بالكدمات . كانت على استعداد لأن تضحى بنفسها فى عنف وبعدئذ تتثاءب فى اللحظة غير المناسبة تماما . كما كانت على استعداد لأن تقضى يوما بأكمله فى ترتيب وتنظيف الشقة وفى الطهو وكى الملابس ثم تقضى الأيام الثلاثة أو الأربعة التالية مستلقية على الأرض فى بوهيمية أمام المدفأة وقد انهمكت فى قراءة المجلات النسائية . كانت تحب انجاز الأمور وعمل الأشياء ولكنها عندئذ فقط تعثر على سبب يدعوها إلى انجاز الأعمال .

ذات يوم عادت إلىَّ ومعها قلم حبر غالى الثمن .

ـ هذا من أجل المسيو "ولكن ما كان ينبغى عليك" . الموقف على مايرام . فقد سرقته ، إننى أسرق كل شىء . ألم تدرك ذلك ؟

ـ كل شىء !

ـ إننى أسرق من المحلات الكبيرة فقط . فهم يرغبون فى ذلك . لا تنظر الىَّ هكذا فى دهشة بالغة .

ـ لست مندهشا .

ولكننى فى حقيقة الأمر كنت مندهشا . وقفت ممسكا بالقلم فى حرص

وحذر لكى لا أتسبب فى اصابته بأية أضرار . فابتسمت : إنها مجرد هواية ، اننى أكره المحلات الضخمة . ولا أكره الرأسماليين . هدىء من روعك وكن رياضيا وابتسم . لقد أصبحت الآن مثل النعامة الصغيرة عقب الجريمة .

ووقفت إلى جوارى أثناء قيامى بصب الخمور وقالت : يانيقولاس . هل تعرف السبب الذى يجعلك تأخذ الأمور مأخذ الجد أكثر من اللازم ؟ لأنك تتخذ موقفا جاداً للغاية من نفسك .

وابتسمت لي ابتسامة ضئيلة غريبة تجمع مابين الرقة والسخرية . ثم انصرفت بعيداً لكى تقشر البطاطس فأدركت على نحو غامض أننى أسأت اليها وإلى نفسى .

ذات ليلة سمعتها تذكر اسما أثناء استغراقها فى النوم ، سألتها فى صباح اليوم التالى : من هو ميشيل ؟
ـ انه شخص أريد أن أنساه وراحت تتحدث عن أمها الانجليزية وقالت إنها لطيفة ولكنها تميل إلى فرض سيطرتها . وتحدثت عن والدها الذى كان يعمل ناظرا فى محطة للسكة الحديد والذى مات بالسرطان منذ أربع سنوات .
ـ وذلك هو السبب فى حصولى على ذلك الصوت المخبول الذى أتميز به فى حنجرتى . إنهما والداى اللذان يظلان على قيد الحياة عقب المشاجرات فى كل مرة أفتح فيها فمى . وأعتقد أن هذا هو السبب الذى جعلنى أكره أستراليا ، لم أتمكن على الاطلاق من الاحساس بالسعادة هناك ومع ذلك دائما ما أشعر بالحنين للوطن . فهل هذا الكلام معقول ؟

كانت دائما ما تسألنى عما إذا كان كلامها مفهوما ومعقولا .
ـ ذهبت لزيارة أسرتنا القديمة فى ويلز حيث يقيم عيسى وهو شقيق والدتى . فوجدت الأمور تكفى لأن تجعل الحيوانات الصغيرة تبكى .

ولكنها وجدتنى انجليزى الطابع للغاية ومبهرا تماما . ولأننى كنت "مثقفا" إلى حد ما وهى كثيرا ما تستخدم فى حديثها كلمة "مثقف" . أما بيتى فكان دائما ما يصيح فيها بصوت يشبه صوت الأوزة . ذات يوم قالت : أنت لا تعرف مدى ظرف بيتى . فبالاضافة إلى أنه ابن زنا فهو ابن غير شرعى . وأنا دائما ما أعرف ما يريده . أعرف ما يفكر فيه وماذا يقصد

عندما يقول أى كلام . أما أنت فلا أستطيع أن أعرف منك أى شىء . فأنا أسىء اليك ولا أعرف السبب فى ذلك . وأنا أدخل عليك السرور ولا أعرف السبب فى ذلك .

كانت قد استكملت تعليمها فى المرحلة الثانوية فى استراليا ، وأمضت عاما فى دراسة اللغات فى جامعة سيدنى . الا أنها تقابلت مع بيتى آنئذ . ثم تعقدت الأمور وأجريت لها عملية اجهاض ثم جاءت إلى إنجلترا .

- هل هو الذى طلب منك أن تتخلصى من الجنين ؟

كانت جالسة فوق ركبتى .

- لم يعرف على الاطلاق أننى حامل ، ربما كان السبب فى الحمل شخصا ما آخر . لم أكن متأكدة من ذلك .

- أنت مسكينة .

- وكنت أدرك أنه اذا كان بيتى هو السبب فى الحمل فانه لن يرغب فى الحصول على المولود وإذا لم يكن الجنين بسببه فلن يرغب فى الحصول على المولود . هكذا كان الأمر .

- ألم تكونى أنت .

- لم تكن لدى الرغبة فى الحصول على مولود لأنه كان سيصبح عقبة فى طريقى ولكنها أضافت فى مزيد من الرقة "نعم . لقد كنت" .

- ومازلت ؟

فساد الصمت ثم هزت كتفيها بعض الشىء : احيانا لم يكن بمقدورى مشاهدة وجهها . فجلسنا فى صمت . وكلانا يدرك أننا متلاحمان ومتورطان فى الخجل والارتباك بسبب تعقيدات هذا الكلام الذى ينصب على الأطفال . ففى هذه المرحلة من العمر التى نمر بها لم يكن الجنس هو الذى يطل برأسه القبيح وانما الحب هو الذى يطفو على السطح .

وذات مساء ذهبنا معا لكى نشاهد فيلما قديما لمارسيل كارنيه ، تحت عنوان "رصيف الضباب" وانخرطت فى البكاء عندما خرجنا من السينما ثم انخرطت فى البكاء مرة أخرى عندما أصبحنا فى السرير . وأحست بعدم رضائى عن ذلك .

- أنت لست أنا . ولا يمكنك أن تشعر بنفس الأحاسيس التى أشعر بها .

- يمكننى ذلك .

- لا . لا يمكنك . أنت تفضل ألا تشعر أو أى شىء من هذا القبيل . ثم

يبدو لك كل شيء وكأنه على مايرام .

ـ ليس كل شيء على مايرام . ولكن كل شيء ليس رديئا للغاية .

ـ ذلك الفيلم جعلني أشعر بما أحس به ازاء كل الأمور . اذ لا يوجد هناك أي مغزى أو معنى . فأنت تحاول أن تكون سعيدا ثم يحدث شيء ما بطريق المصادفة وينتهي .. ذلك كل شيء . والسبب هو أننا لا نؤمن بوجود حياة عقب الموت .

ـ ليست المسألة هي أننا لا نؤمن . وانما هي أننا لا نستطيع أن نؤمن .

ـ في كل مرة تخرج فيها بدون أن أكون موجودة معك فانني أعتقد أنك قد تموت . بل انني أفكر في مسألة الموت في كل يوم . وفي كل مرة اضاجعك فيها أعتقد أن الاضطجاع انتزعني من بين براثن الموت . تماما مثلما يكون لديك كمية كبيرة من النقود بينما المحلات والدكاكين على وشك أن تغلق أبوابها في خلال ساعة واحدة . انه أمر يدعو للضيق ولكنك مضطر لأن تنفق . فهل هذا يوحي بأي معنى مفهوم أو معقول ؟

ـ بالطبع . القنبلة الذرية .

ـ انها ليست القنبلة . إنها نحن . وكانت تؤمن بأنها ينبغي عليها أن تكون وحيدة تماما في هذا العالم والا تكون لديها أية ارتباطات عائلية . وعندما قمت ذات يوم بإبداء ضيقي وتبرمي بسبب عدم وجود أي أصدقاء حميمين لي مستخدما التعبير المجازي الخاص بي : القفص الزجاجي الذي يحول بيني وبين باقي انحاء العالم ـ فانها اكتفت بالانفجار في الضحك . ثم قالت : أنت تحب ذلك الوضع . أنت تقول عن نفسك إنك معزول . ولكنك تعتقد في حقيقة الأمر أنك مختلف .

وقامت بتحطيم الصمت المليء بالآلام والذي اجتاحني بأن قالت في وقت متأخر للغاية : أنت إنسان مختلف عن الآخرين . تزوج من أي فتاة . تزوجني .

قالت تلك العبارة كما لو كانت تقترح على أن أتناول اسبرين للقضاء على الصداع . فركزت عيني على الطريق .

انت سوف تتزوجين بيتي .

وأنت لن تتزوجني لأنني مومس ولأنني من سكان المستعمرات .

آمل ألا تستخدمي تلك الكلمة .

كنا دائماً ما نبتعد عن حافة الهاوية الخاصة بالمستقبل . كنا نتحدث عن مستقبل ما وعن الحياة فى كوخ حيث ينبغى علىَّ أن أقوم بالتأليف والكتابة ونتحدث عن شراء سيارة والتجول بها عبر أرجاء استراليا .

وانزلقت الأيام وذابت متداخلة فى أيام أخرى . وبصرف النظر عن أى شىء آخر فانها كانت أكثر إسعادا من الناحية الجسمانية . وفى خارج السرير كنت أشعر بأننى أقوم بتعليمها واضفاء الطابع الانجليزى عليها من حيث المظهر والشخصية ولهجتها فى نطق الكلمات والعبارات علاوة على تهذيب جوانب الخشونة فى شخصيتها وتهذيب طابعها الاقليمى . أما فى داخل نطاق السرير فكانت تقوم بمهمة التعليم . وكنا ندرك هذا التبادل فى العملية التعليمية بدون أن نكون قادرين على تحليل ذلك ، ربما لأننا مجرد طفلين أعزبين . كل منا لديه شىء ما يعطيه وشىء ما يكتسبه .. وفى نفس الوقت كانت لدينا أرضية مشتركة مادية . ونفس الرغبات ونفس المشارب والأذواق علاوة على فن الحب ولكن هذا هو ما كنت أفكر فيه فى ذلك الوقت .

أذكر ذات يوم عندما كنا نقف فى احدى الغرف فى متحف "تات" . كانت آليسون مستندة بعض الشىء علىَّ وممسكة بيدى حيث كانت تنظر بطريقتها اللطيفة إلى لوحة لرينوار . وفجأة هبط علىَّ احساس بأننا بمثابة جسد واحد وأنها اذا ما اختفت فسوف افقد نصف كيانى . شعور رهيب شبيه بالموت كان سينظر اليه أى شخص آخر على أنه بمثابة حب عميق . ولكننى اعتقدت أن ذلك هو أمر نابع من الرغبة الجامحة . فانطلقت بها بالسيارة إلى المنزل وقمت بتمزيق ملابسها .

وفى يوم آخر تقابلنا بطريق المصادفة مع بيللى وايت . انه رجل لطيف وليس من النوع الذى يتعالى على من يعتبرهم أدنى منه . الا أنه كان يحمل فى جوانبه ـ ربما على الرغم منه ـ مسحة من طبقة اجتماعية منغلقة على نفسها بالاضافة إلى اتصاله المستمر مع أفضل الناس مع حرصه على تقليد الطبقة العليا الاجتماعية . فانطلقنا إلى بار يقدم المحار . ولم تتكلم آليسون الا بقدر ضئيل للغاية ولكننى شعرت بالخجل بسبب لهجتها حيث كان هناك فارق بينها وبين الزبائن الآخرين الجالسين بالقرب منا . وتركتنا للحظات . بينما كان بيللى يصب الكمية الأخيرة من خمور عنب الموسكاديت .

- انها لفتاة لطيفة أيها الولد .

قلت : إنها أرخص من التدفئة المركزية . أدركت ما كان يدور فى ذهنه ، وظلت آليسون صامتة تماما بعد أن تركناه . وكنا منطلقين بالسيارة إلى هامبستيد لكى نشاهد فيلما . فنظرت إلى وجهها المتجهم .

- ماذا فى الأمر؟ ماهى الأمور الخاطئة التى حدثت ؟
- أنتم أيها الانجليز تبدون فى بعض الأحيان فى غاية الوضاعة . لقد كنت تعاملنى كما لو أننى لم أكن أنتمى اليك .
- لا تكونى سخيفة !
- كما لو كنت إنسانة لعينة دموية فى حالة سقوط بنطلونى على الأرض أو اى شىء من هذا القبيل .
- من الصعب علىَّ للغاية أن أوضح لك الأمور وأشرح لك !
- لست من النوع الذى يخدع بهذا الكلام . هذا لا ينفع معى !

وذات يوم قالت : ينبغى علىَّ الذهاب غداً لكى أحضر المقابلة الشخصية التى ستعقد لى .

- هل تريدين الذهاب ؟ أعتقد أنك لم تفكرى فى الأمر جيدا .

سأشعر بالارتياح فى حالة قبولهم لى . لمجرد أن أعرف أننى قد قبلت . وغيرت موضوع الحديث . وفى نفس اليوم التالى وصلنى خطاب لكى أحضر مقابلة شخصية . واعتقدت آليسون أنها حازت القبول . وبعد ثلاثة أيام وصلها خطاب يفيد أنها قد ووفق عليها لكى تدخل فى التدريب وأنها ستبدأ فى خلال عشرة أيام .

وعقد لى امتحان بمعرفة مجموعة من الموظفين المهذبين . وقابلتنى آليسون بالخارج وذهبنا معا لتناول وجبة طعام فى مطعم ايطالى مثل شخصين أجنبيين . كان وجهها مليئا بالارهاق وخداها منتفخين . فسألتها عما كانت تفعله أثناء عدم وجودى معها :

- "كنت أكتب خطابا" .
- "اليهم" ؟
- "نعم" .
- هل أخبرتهم أنك نجحت فى المقابلة الشخصية ؟

سادت فترة صمت حرجة وصعبة . كنت أعرف ما تريد أن أقوله . كنت

أشعر بما يشعر به المصاب بمرض المشى أثناء النوم والذى يستيقظ من نومه عند نهاية حافة السقف . إذ لم أكن مستعدا للزواج والاستقرار . ولم أكن قريبا اليها للغاية من الناحية النفسية . كان هناك شىء ما لا أستطيع تحديد كنهه . شىء ما غامض بينى وبينها .

"بعض رحلات الطيران الخاصة بهم تذهب عن طريق أثينا . فاذا كنت موجوداً باليونان فانه يمكننا أن نتقابل . وربما ستكون أنت فى لندن .

وبدأنا نضع الخطط التى تضمن لنا العيش معا فى حالة عدم حصولى على الوظيفة فى اليونان .

ولكننى حصلت على الوظيفة فى اليونان . اذ وصل خطاب يفيد بأن اسمى قد اختير ليقدم إلى هيئة للتدريس بالمدرسة وأنه ينبغى أن أذهب إلى اليونان فى أول أكتوبر .

ووضعت الخطاب فى يد آليسون ورحت أرقبها وهى تقرأ الخطاب . كنت أتوقع أن تبدى بعض الأسف ولكنها بدلاً من ذلك راحت تقبلنى .

- لقد أخبرتك فلنحتفل بهذه المناسبة . هيا بنا إلى الريف .

وتركتها تنطلق بى بعيداً . لم تأخذ الأمر مأخذ الجد . ولم يكن لدى الشجاعة الكافية التي تعيننى أن أتوقف وأفكر فى السبب الذى جعلنى أشعر بأن مشاعرى جُرحت على نحو غير مباشر وذلك بسبب رفضها لأن تأخذ الأمور مأخذ الجد . لذلك انطلقنا إلى الريف وعندما عدنا ذهبنا لكى نرقص فى كازينو سوهو ، تم كل ذلك بدون أن تأخذ الأمر مأخذ الجد . ولكن بعدئذ وفى فترة متأخرة عقب ممارسة الحب لم نستطع النوم فأصبح علينا أن نأخذ الأمر مأخذ الجد .

- ياآليسون ما الذى سأفعله غدا ؟

- سوف توافق .

- هل تريدين أن أوافق ؟

- لن يحيق بنا الخراب مرة أخرى .

كنا فى حالة استلقاء على الظهر . وكانت عيناها مفتوحتين . وهناك إلى أسفل ألقت أوراقا ضئيلة موجودة أمام عمود كهربائى بظلال عبر السقف فى غرفتنا .

- لو قلت لك ما أشعر به نحوك . فانك سوف ...

- أعرف ما تشعر به .

وكان هناك ذلك الأمر "الصمت المليء بالاتهام" . لمست بطنها العارية . فدفعت يدى بعيدا عنها ولكنها ظلت ممسكة بها : نحن نشعر بما هو صالح وخير . ان الأمر هو ما نشعر به معا . ان ما تحس به أنت هو ما احسه كذلك فأنا امرأة .

دب الخوف والرعب فى كيانى وحرصت على أن أتوخى الدقة فى اجابتى :

- هل تتزوجيننى اذا طلبت منك ذلك ؟
- لا يمكنك أن تقول هذا على ذلك النحو .
- اننى على استعداد لأن أتزوجك غداً اذا اعتقدت أنك فى حاجة إلى بالفعل . أو تريدنى بالفعل .
- أوه يانيقولاس . يانيقولاس . وضربت الأمطار فى عنف على زجاج النافذة . وراحت تطرق بيدى على السرير فيما بيننا . وسادت فترة صمت طويلة .

- أطلب منى أن أتزوجك .
- هل ستتزوجيننى ؟
- لا فأنا سأصبح مضيفة جوية . وأنت بصدد الذهاب إلى اليونان . وأنت حر .

وهطلت الأمطار فى لفحات هائلة فجائية عبر قمم الأشجار وضربت النوافذ والسقف فى عنف . مثل مطر الربيع الذى يتم خارج نطاق الموسم . وبدا الهواء فى غرفة النوم مليئا بالكلمات غير الملفوظة وبالذنوب غير المتشكلة ومليئا بالصمت الشرير . مثل تلك اللحظات التى تسبق انهيار كوبرى . كنا نرقد فى استلقاء بدون أن نتلامس . تمثالين على سرير تحول إلى مقبرة . وكان كل منا يخشى تماما أن يعبر عما يدور فى رأسه . وفى نهاية الأمر تحدثت بصوت حاولت أن يبدو طبيعيا ومع ذلك بدا الصوت فظا فى خشونة .

- لا أرغب فى أن أؤذى مشاعرك وأنا كلما شعرت بالمزيد من الرغبة فيك أدى ذلك إلى المزيد من ايذاء مشاعرك . وأنا لا أريد أن تؤذى مشاعرى . وكلما أبديت المزيد من عدم رغبتك فىَّ أدى ذلك إلى المزيد من الايذاء لمشاعرى .

ثم نهضت تاركة السرير للحظات . وعندما رجعت قالت : "هل اتفقنا على ذلك" ؟

ـ "أظن ذلك" .

ولم نقل أى كلام أخر . وسرعان ما اعتقدت أنها ذهبت للنوم .

وفى الصباح بدت وكأنها مصممة على أن تكون مبتهجة . وأجريت اتصالا تليفونيا مع المعهد البريطانى . ثم اصطحبتها معى لكى نتناول معا وجبة الغداء وتمنيت أن تكون وجبة غداء أخيرة .

(٥)

والذى كان ينبغى على آليسون ألا تعرفه هو أننى كنت أخونها مع امرأة أخرى أثناء الجزء الأخير من شهر سبتمبر نظراً لأننى نفسى لم أدرك هذه الحقيقة الا بصعوبة . أما هذه المرأة فهى بلاد اليونان . اذ كنت سأذهب إلى اليونان حتى فى حالة عدم اختيارى للتدريس بها . لم يسبق لى أن درست اللغة اليونانية بالمدارس ومعلوماتى عن اليونان الحديثة بدأت وانتهت مع موت الشاعر بيرون .

وبدا الأمر كما لو أن شخصا ما قد عثر بطريق المصادفة على حل رائع عندما بدا كل شىء وكأنه قد ضاع . اليونان ـ لماذا لم أفكر فيها من قبل ؟ ان النغمة جميلة للغاية : "اننى ذاهب إلى اليونان" . لم أكن أعرف أى شخص سبق له الذهاب إلى هناك . اذ كان ذلك قبل أن يغزوها السياح . وأمكننى الحصول على كتب يونانية . ودهشت عندما أدركت أن معلوماتى كانت ضئيلة للغاية عنها . فرحت أقرأ وأقرأ . وكنت مثل ملك من ملوك العصور الوسطى ووقعت فى حب الصورة قبل مشاهدة الواقع الحقيقى بفترة طويلة .

وتلقيت برقية من المدرسة تؤكد تعيينى . ووصلنى بالبريد عقد لكى أوقع عليه كما جاءنى خطاب ترحيب مكتوب بلغة انجليزية بشعة من ناظر مدرستى الجديد . ولم يبق على سفرى سوى عشرة أيام .

وأصبحت الأمور فى غاية الصعوبة والحرج بالنسبة لآليسون . وكان علىَّ أن أترك الشقة الموجودة فى ميدان راسيل وأمضينا ثلاثة أيام مليئة بالاحباط فى البحث لها عن مكان تعيش فيه . وأخيرا عثرنا على غرفة

استوديو كبيرة بعيدة عن شارع بيكار . وتسبب نقل الحاجيات وتعبئة الأشياء وحزمها في مضايقتنا نحن الاثنين . لم يكن عليَّ أن أذهب حتى اليوم الثاني من أكتوبر أما آليسون فانها قد بدأت العمل بالفعل . وأصبح الالتزام بضرورة الاستيقاظ مبكرا وادخال الانضباط والنظام على حياتنا يشكل عبئا ثقيلا علينا . نشب بيننا شجاران مروعان . الأول ابتدأته ثم زادته اشتعالا ووصلت به إلى مرحلة صبت فيها احتقارها الشديد لكل الرجال ولى بصفة خاصة . قالت إننى إنسان متعال لأننى احتقر أفراد طبقتى الاجتماعية كما قالت إننى شديد التزمت إلى حد الازعاج وإننى دونجوان تافه لا قيمة له . وفى اليوم التالى ظلت ملتزمة بالصمت فى فترة تناول طعام الافطار .

وعندما ذهبت فى المساء لكى أقابلها لم تكن هناك . وأجريت اتصالا تليفونيا : لم يتم الاحتفاظ بالمضيفات الجويات إلى هذه الساعة المتأخرة . فانتظرت بينما الغضب يتصاعد فى داخلى تدريجيا حتى الساعة الحادية عشرة وبعدئذ وصلت إلى المنزل . ثم دخلت إلى الحمام وخلعت معطفها وارتدت قميص النوم اللبنى اللون الذى ترتديه دائما قبل النوم ولم تنطق بكلمة واحدة .

- أين كنت بحق الجحيم ؟
- لن أجيب على أية أسئلة .

ووقفت على الموقد فى داخل كوة المطبخ . انها التى أصرت على الحصول على غرفة رخيصة وأنا كنت أكره النوم والطهو وكل شىء فى غرفة واحدة . كما أمقت الحمام المشترك لأن ذلك يحتم على المرء اللجوء إلى الهمس والفحيح .

- أعرف أين كنت لقد كنت مع بيتى .
- وهو كذلك . كنت مع بيتى . ورمقتنى بنظرة سوداء مليئة بالغضب .
- كان باستطاعتك الانتظار حتى يوم الخميس .
- ولماذا ينبغى علىَّ أن انتظر ؟

وبعدئذ فقدت أعصابى وانتزعت من ذاكرتى كل الأمور التى يمكن أن تؤذى مشاعرها . فلم ترد علىَّ بأى كلام وانما راحت تخلع ملابسها وصعدت على السرير واستلقت وأدارت وجهها إلى الحائط . ثم انخرطت فى البكاء . وبين طيات الصمت ظللت أذكر نفسى ، فى ارتياح شديد ،

بأننى سوف أرتاح من كل هذا . وأنا لم أكن أؤمن بصدق اتهاماتى لها ولكنى كنت أكرهها لأنها أرغمتنى على أن أسوق تلك الاتهامات ضدها . وفى نهاية الأمر جلست إلى جوارها ورحت أرقب الدموع تنساب من عينيها المتورمتين .

ـ لقد ظللت منتظراً إياك لساعات .

ـ لقد ذهبت إلى السينما . ولم أقابل بيتى .

ـ ولماذا كذبت علىَّ ؟

ـ لأنك لا تثق فى . كما لو أننى من المتوقع لى أن أفعل ذلك .

ـ ولكن هذه الطريقة التى لجأت إليها سخيفة .

ـ كان بإمكانى أن أقتل نفسى فى هذه الليلة . لو كانت لدى الشجاعة لألقيت بنفسى تحت عجلات القطار .

ـ لسوف أحضر لك كأسا من الويسكى وعدت بالكأس وناولتها لها .

ـ إننى آمل أن تعيشى مع إنسانة ما . ألا توجد هناك أى مضيفة جوية أخرى يمكنها أن ..

ـ لن أعيش مع أية امرأة أخرى .

ـ هل ستعودين إلى بيتى ؟

رمقتنى بنظرة غاضبة :

ـ أتحاول أن تقول لى إنه ينبغى علىَّ ألا أرجع إلى بيتى ؟

وغاصت إلى الوراء وحملقت فى الحائط . ولأول مرة تبتسم ابتسامة خفيفة . لقد بدأ الويسكى يعمل مفعوله .

ـ هل أصبحنا صديقين مرة أخرى ؟

ـ لا يمكن لنا أن نصبح صديقين مرة ثانية .

ـ لو لم يكن الأمر متعلقا بك لكنت قد غادرت المنزل هذا المساء .

ـ ولم لم يكن الأمر متعلقا بك لما رجعت إلى المنزل .

ومدت كأسها من أجل الحصول على المزيد من الويسكى فقبلت معصم يدها وذهبت لكى أحضر الزجاجة .

وقالت عبر أرجاء الغرفة : أتعرف ما الذى فكرت فيه اليوم ؟.. لقد خطر على ذهنى أننى إذا انتحرت فانك ستشعر بالسرور وتقول فى كل مكان إنها قد قتلت نفسها بسببى . وأعتقد أن هذا هو السبب الذى يبعدنى دائما عن الانتحار . لكى لا أدع شخصاً ملعوناً مثلك يشعر بالفخر بنفسه . ثم فكرت

فى أنه بإمكانى أن أنتحر اذا كتبت مذكرة أولاً أوضح فيها الأسباب التى دعتنى إلى الانتحار . انظر فى داخل حقيبة يدى . استخرج رزمة الورق . فقمت باستخراجها وأضافت قائلة : "تصفح الأوراق الأخيرة بها" .

كانت هناك صفحتان مكتوب عليهما بخط يدها الكبير .

ـ متى قمت بكتابة هذا ؟

ـ إقرأ الكلام المكتوب .

"ولم أعد أرغب فى العيش . فأنا أقضى معظم أوقات حياتى دون أن تكون لى رغبة فى الحياة . والمكان الوحيد الذى أشعر فيه بالسعادة هو هنا حيث يتم تعليمنا وحيث أجد نفسى أفكر فى شىء ما آخر أو أقرأ الكتب أو أذهب للسينما أو أمارس الحب . فأنا لا أشعر بالسعادة الا اذا نسيت أننى أعيش . لا أشعر بالسعادة إلا عندما لا يوجد من كيانى سوى عينى وأذنى وبشرتى وجلدى . لا أذكر أننى كنت سعيدة على مدى عامين أو ثلاثة أعوام . منذ الاجهاض . كل ما أذكره هو أننى كنت أرغم نفسى فى بعض الأحيان لكى أبدو سعيدة لكى أوهم نفسى ـ اذا ما وقع بصرى على وجهى فى المرآة ـ للحظات أننى سعيدة بالفعل" .

رفعت بصرى عن الكلام المكتوب ، وحملقت فى عينيها الرماديتين .

ـ لا يمكن أن يكون هذا المعنى هو ما تهدفين اليه .

ـ لقد كتبت ذلك الكلام فى فترة تناول القهوة . ولو كنت أعرف وسيلة تعيننى على الموت فى هدوء فى البوفيه لفعلت ذلك .

ثم قالت فى صوت أقرب إلى الصراخ .

ـ اننى هستيرية .

ثم انخرطت فى البكاء مرة أخرى ولكنها فى هذه المرة كانت تبكى بين ذراعى . وحاولت أن أسوق لها الحجج والبراهين العقلية وقدمت لها الوعود :اننى على استعداد لأن أؤجل سفرى إلى اليونان . وعلى استعداد لأن أترك هذه الوظيفة .. مئات الأشياء التى لم أكن أهدف فى الحقيقة أن أنفذها وكانت هى تدرك ذلك ولكنها تقبلت أخيرا هذا الكلام من حيث هو أمر يؤدى إلى تهدئة أعصابها .

وفى الصباح أقنعتها بأن تتصل تليفونيا وتعتذر لهم عن تغيبها لأن

صحتها ليست على ما يرام . وقضينا اليوم فى نزهة خلوية بالمناطق الريفية .

وفى صباح اليوم التالى ـ وهو الذى يسبق موعد سفرى بيومين ـ وصلتنى بطاقة بريدية مرسلة من ميتفورد الرجل الذى كان فى فراكسوس وقال فيها إنه سيكون فى لندن لبضعة أيام .

اتصلت به تليفونيا فى يوم الأربعاء فى نادى البحرية وطلبت منه ان نتناول مشروبا معا . كان أكبر منى بعامين مدبوغ البشرة وله رأس ضيق . ومن عادته أن يلمس شاربه باستمرار . يرتدى جاكيت خفيفا يميل إلى اللون الأزرق الغامق ويرتدى رباط عنق له الطابع العسكرى . كانت تفوح منه رائحة الفساد الكريهة . وعلى الفور دخلنا فى حرب عصابات حيث حاول كل منا أن يبرهن على نفوذه وهيبته بينما الآخر يحاول ادحاض ذلك . وكان قد أنزل بالمظلة فى اليونان أثناء الاحتلال الألمانى لها .

كان لطيفا مع الأتراك ومع الأيرلنديين التابعين له . لقد بذل قصارى جهده لكى يكتسب شخصية الاغريقى المثقف الا أنه كان يتكلم بلغة غير سليمة وكان يميل إلى التعنت . حاولت أن أنجح فى مهمتى رغم الصعوبات .. أخبرته أن الحرب التى خضتها كانت من عامين مليئين بالاشتياق إلى التسريح من الجيش . وكان الأمر سخيفا . اذ كنت أريد معلومات منه وليس الكراهية ، لذلك اعترفت فى النهاية بأننى ابن ضابط وسألته عن الشكل الذى تبدو عليه المدينة .

فأومأ برأسه إلى كشك عرض الطعام الموجود فى الحانة التى تقابلنا فيها . ثم أشار بسيجارته .. تلك هى الجزيرة . وهذا هو ما يطلقه عليها السكان المحليون "فطيرة محشوة باللحم" . سلسلة الجبال المركزية . هاهى ذى مدرستك وقريتك فى هذا الركن . وباقى كل هذا الجانب الشمالى وكل أرجاء الجانب الجنوبى مهجور . وذلك هو موقع الأرض .

ـ والمدرسة ؟

ـ انها أفضل مدرسة فى اليونان .

وسألته عن الحياة خارج نطاق المدرسة :

ـ لا توجد أية حياة زاخرة . ولكن الجزيرة تعتبر جميلة للغاية اذا كنت

تحب تلك النوعية من الحياة المليئة بالطيور والنحل ونباتات القبار .
ـ وماذا عن القرية ؟

ابتسم فى تجهم وقال : أيها الولد . قريتك اليونانية لا تشبه أى قرية انجليزية . فهى مستودع لعين للقمامة . مجموعة من الفيلات القليلة ولكنها تعمل كبنسيونات لتقديم المبيت والوجبات على مدى عشرة شهور من كل عام . مكان بعيد ومنعزل . ولسوف تجد أن الناس الذين يسكنون الفيلات أغبياء بعض الشىء . وهناك واحد بينهم قد تقول عنه إنه ليس غبيا ولكنى لا أظن أنك ستقابله . لقد تعاون هذا الأفاق مع العدو الذى يحتل البلاد وذلك أثناء الحرب . وهذا هو السر الدفين المستتر وراء الشجار ، ثم عليك أن تصبر على المدرسين الآخرين اذا كنت تريد الدردشة معهم .
ـ أيتحدثون باللغة الانجليزية ؟
ـ معظمهم يتكلمون الفرنسية . لكن هناك شابا يونانيا يدرس اللغة الانجليزية معك . وهو إنسان أفاق ومغرور بنفسه . ولقد أسأت اليه يوما ما .
ـ لقد مهدت أمامى الطريق . ضحك وقال : عليك أن تمارس القمع على الفلاحين وخاصة الفلاح الكريتى الخاص بك هو من خيار الناس . انهم أناس مدهشون . صدقنى .

فسألته عن السبب الذى جعله يترك هذا المكان .
فقال : إننى أؤلف كتابا حاليا . أتناول فيه تجاربى فى فترة الحرب وكل الأمور المتعلقة بتلك الفترة . ولكى أتقابل مع الناشر الذى سيقوم بطبع ونشر كتابى .

كان هناك شىء من التعاسة فى داخل كيانه . وكان باستطاعتى أن اتخيله وهو يهرول فى اندفاع ونشاط وحيوية فيما حوله مثل تلميذ الكشافة الذى يعمل مخبرا ويفجر الكبارى ويرتدى زى الكشافة الرسمى الخلاب . الا أن عليه أن يعيش فى هذا العالم الجديد الكئيب الملىء بالرفاهية مثل قاض اغريقى قديم ترك فى بلاد غريبة عليه . واستطرد على وجه السرعة :
ـ ولسوف تتحرق شوقا إلى انجلترا . ولسوف تكون الأمور سيئة بالنسبة لك لأنك لا تعرف اللغة اليونانية . ولسوف تتناول الخمور بكميات كبيرة . فكل فرد مضطر إلى أن يفعل ذلك . اما البنات فى أثينا فيشكلن خطرا

داهما اللهم إلا إذا كنت تريد أن تصاب بمرض الزهرى .

أوصلته بالسيارة عائدا به تجاه ناديه .

سألته : هل تعتقد أننى سأنجح فى مهمتى ؟

كانت نظراته مليئة بالشك والريبة . ثم قال : عليك أن تعاملهم فى خشونة . فتلك هى الوسيلة الوحيدة . ولا تجعلهم يسيطرون عليك . فقد سيطر التلاميذ على الزميل الذى كان قبلى .

ثم خرج من السيارة . وابتسم قائلا : حسنا . أتمنى لك كل توفيق لكن ، احترس من حجرة الانتظار . ثم أغلق باب السيارة على الفور كما لو كان قد سبق له أن عاش تلك التجربة .

ناديت وراءه "احترس من اى شىء" !

التفت الىَّ واكتفى بالتلويح بيده إلىَّ فى حدة . ثم ابتلعه الجمهور الغفير . ولم أستطع أن أخرج تلك الابتسامة التى ظهرت على وجهه من داخل ذهنى . لقد كانت تخفى وراءها شيئا تعمد اغفاله . شيئا ما ادخره . كلمة أخيرة غامضة . حجرة الانتظار . حجرة الانتظار . حجرة الانتظار . لقد راحت تلك الكلمة تدور فى أرجاء رأسى طوال ذلك المساء .

(٦)

التقطت آليسون وذهبت إلى الجراح الذى كان بصدد اتخاذ اجراءات بيع السيارة نيابة عنى . كنت قد عرضت على آليسون فى وقت سابق أن تأخذ سيارتى ولكنها رفضت ذلك .

ـ اذا أخذت سيارتك فانها ستذكرنى بك دائما . ولا يمكننى أن أتحمل رؤية إنسان آخر غيرك يجلس فى نفس المكان الذى كنت تجلس فيه وراء عجلة القيادة .

ـ لقد حصلت منك على الكثير . وأنت تستحقين هذه السيارة .

ـ كأجر لى ؟

ـ لا تكونى سخيفة .

كنت أعرف أنها ترغب فى الحصول على دراجة بخارية . لذلك فكرت أن أترك شيكا عند أحد محلات بيع الدراجات واعتقدت أنها سوف تتقبل تلك

الهدية عقب مغادرتى للبلاد . وكان المساء الأخير هادئا للغاية مما أثار دهشتى . وكأننى غادرت الديار بالفعل . وكنا بمثابة شبحين يتحدثان إلى بعضهما . ووضعنا الترتيبات لما ينبغى أن نفعله فى الصباح . لم تكن لديها الرغبة فى المجىء لتوديعى عند فيكتوريا حيث كنت سأسافر بالقطار . ولذلك اتفقنا أن نتناول طعام الافطار كالمعتاد ثم تستأذن للانصراف على أساس أن هذه هى أبسط الوسائل الممكنة . وقمنا بوضع الترتيبات الخاصة بأيامنا فى المستقبل . فعليها أن تحاول بقدر الامكان الذهاب إلى أثينا واذا تعذر ذلك فاننى أقوم بالسفر بالطائرة عائدا إلى انجلترا فى عيد الميلاد . وقد نتقابل فى منتصف المسافة فى روما أو سويسرا .

وفى الليل رقدنا ساهدين وكل منا يدرك أن الآخر مستيقظ لكن الخوف يعقد لسانه . وشعرت بيدها تتحسس للعثور على يدى . وظللنا لبعض الوقت ملتزمين الصمت ثم بدأت هى بالكلام .

- لو أخبرتك أننى سأنتظرك فأعتقد انه بمقدورى ان افعل .

- أعرف ذلك .

- دائما ما تقول "أعرف ذلك" ولكن هذه العبارة لا تعتبر رداً على أى شىء .

- لنفرض أننى أخبرتك أن عليك أن تنتظرنى لأننى فى خلال عام سوف أعرف موقفى . وعلى ذلك فسوف تضطر لانتظارى طوال هذه السنة .

- لا تهمنى هذه الفترة الطويلة . سألتزم بالانتظار .

- لكن ذلك ينطوى على مسحة من الجنون . فالأمر يبدو كأنك تضع فتاة فى دير للراهبات حتى تستعد للزواج منها . وبعدئذ تقرر أنك لا ترغب فيها . علينا أن نترك الحرية لأنفسنا للاختبار .

- لا تفقدى أعصابك .

- علينا أن نترك المجال مفتوحا لنرى ما ستسفر عنه الأمور .

قالت : لسوف اكتب خطابات يوميا انه نوع من الاختبار الحقيقى لنا . ولسوف نرى كم يفتقد كل منا الآخر .

- أعرف تلك الأحاسيس التى يشعر بها الناس عندما يتم الفراق . ففى خلال الاسبوع الأول تسود مشاعر الكرب ثم تسود المشاعر الأليمة فى الأسبوع الثانى ثم يبدأ الإنسان فى النسيان تدريجيا وبعدئذ يبدو الأمر

كأن شيئا لم يحدث . أو أن شيئا حدث لشخص ما أخر .

ثم بعدئذ يهز الإنسان كتفيه ويقول لنفسه : لا تشغل بالك . انها سنة الحياة . تسير كأنك لم تفقد بالفعل أى شىء إلى الأبد .

ـ لن أنسى . لن أنسى أبداً .

ـ لسوف تنسى . وأنا أيضا سوف أنسى اننا مضطرون لخوض غمار الحياة مع الاستمرار فى السير فى مناكبها . مهما كانت حياتنا مليئة بالأحزان .

وبعد مرور فترة صمت طويلة قالت :

ـ لا أظن أنك تعرف جوهر الحزن .

تأخرنا فى الاستيقاظ من النوم فى صباح اليوم التالى . وكنت قد تعمدت أن أضبط مؤشر المنبه على وقت متأخر بهدف أن نصبح على عجلة من أمرنا فى صباح اليوم التالى بحيث لا يكون هناك متسع من الوقت لذرف الدموع . وتناولت آليسون طعام الافطار وهى واقفة وتحدثنا معا فى أمور تافهة . وبعدئذ وضعت آليسون فنجان القهوة على المنضدة وأصبحنا واقفين معا عند الباب . وشاهدت وجهها ــ وبدا الأمر كأنه مازال هناك متسع من الوقت وكأن المسألة ليست سوى حلم ردىء بينما كانت عيناها الرماديتان تبحثان عن عينى كما شاهدت خديها الصغيرين المنتفخين . كانت الدموع تتجمع فى داخل عينيها وفتحت فمها لتقول كلاما . الا أنها انحنت للأمام فى يأس وارتباك وقبلتنى بسرعة حتى أننى لم أشعر بفمها يلامس فمى وانصرفت كالبرق . ولم تنظر وراءها . فهرعت إلى النافذة وشاهدتها تسير بسرعة عبر الشارع . المعطف الشاحب والشعر الذى يكاد يكون له نفس لون المعطف وحركة من يدها إلى حقيبة يدها ثم تمخط أنفها ولم تنظر وراءها ولو مرة واحدة . ثم تحولت مشيتها السريعة إلى جرى وهرولة . ففتحت النافذة على مصراعيها ورحت أطل ملقيا برأسى إلى الخارج وظللت أرقبها إلى أن اختفت عند الناصية لدى انتهاء الشارع والتقائه . وعلى طول تلك المسافة لم تنظر خلفها على الاطلاق .

استدرت إلى الغرفة وقمت بغسل سرفيس الافطار ورتبت السرير ثم جلست إلى المنضدة وحررت شيكا بمبلغ ٥٠ جنيها كما كتبت مذكرة مختصرة :

ياآليسون ياحبيبتى .

أرجو أن تعتقدى أنه اذا كان بمقدورى أن أصبح أى شخص آخر لكنت أنت ذلك الشخص الآخر . آمل أن تتأكدى من أننى كنت أشد حزنا بكثير مما بدا علىَّ من أحزان . ولكننى لم أرغب فى اظهار كل جوانب الحزن لكى لا نصاب معا بالجنون . وأرجو أن ترتدى القرط فى أذنيك وأن تأخذى هذه النقود لكى تشترى دراجة بخارية وتذهبى بها إلى الأماكن التى اعتدنا الذهاب اليها معا ـ أو تنفقى هذه النقود فى أى وجه من وجوف الانفاق التى تروق لك . وآمل أن تهتمى برعاية نفسك . لو كنت فقط أستحق أن تظلى منتظرة اياى .

نيقــولاس

كان من المفروض أن يبدو ذلك الخطاب كأنه قد كتب بطريقة عفوية تلقائية . ولكننى فى حقيقة الأمر ظللت أعدل صياغته على مدى أيام . وقمت بوضع الشيك والخطاب فى ظرف وضعته على رف المستوقد مع العلبة الصغيرة التى تحتوى على القرط الذى سبق لنا أن شاهدناه فى محل للخردوات ولكنه كان مغلقا . وبعدئذ قمت بحلاقة ذقنى وخرجت لكى استقل سيارة أجرة .

الشىء الذى أحسست به فى مزيد من الوضوح عندما توارت آليسون مع أول ناصية فى الشارع هو أننى قد هربت منها كما أحسست بالمزيد من الكراهية لنفسى .. إنها كانت تحبنى على نحو يفوق حبى لها . ومن ثم كان لدى احساس بالانتصار العاطفى يفوق مشاعر الإثارة المتعلقة بالرحلة التى أنا بصدد القيام بها إلى الأماكن المجهولة لى . انه انتصار ملىء بالجفاف . ولكننى أميل إلى الأشياء التى تكون فى حالة من الجفاف . واتجهت إلى ميدان فيكتوريا مثلما يتجه رجل جائع إلى وجبة عشاء رائعة عقب تناول كأسين من مشروب المنزنيلا . وشرعت أدندن مترنما ولم تكن تلك محاولة شجاعة لاخفاء حزنى وانما كانت بمثابة رغبة فى الاحتفاء باطلاق سراحى .

(٧)

أربعة أيام رحت أنظر لأسفل نحو المنظر الذى يضم أثينا / بيرايوس ،مدنا وضواحى ومنازل منثورة مثل الملايين من مكعبات زهر الطاولة المنتشرة فى سهل أتيك . وإلى الجنوب كان يمتد بحر الصيف

المتأخر الصافي الزرقة بالاضافة إلى الجزر الشاحبة اللون وإلى ما وراءها من جبال هادئة وشامخة من بعيد فى محاذاة الأفق بين تدفق رائع من الأراضى والمياه . حاولت البحث عن كلمات أخرى أقل استخداما الا أن أية كلمات أخرى بدت أقل تعبيرا . كان بمقدورى مشاهدة ٨٠ ميلا من المناظر الممتدة وكلها صافية المنظر .

عندما سقط الضوء الباهر للبحر المتوسط على العالم فيما حولى أدركت أنه ضوء بالغ الروعة والجمال ، لكنه عندما لمسنى شعرت أنه ضوء عدائى يخلو من الود . بدا كأنه ينخر فى كيانى ويبث فيه التآكل والصدأ ولا ينظفنى أو يطهرنى . بدأت ذاتى القديمة تدرك أنه يتعذر عليها الصمود والتحمل . كان الأمر في بعض جوانبه بمثابة الرعب الذى ينجم عن الحب الدافق لأننى وقعت تماما وإلى الأبد فى حب جارف مع المناظر الطبيعية اليونانية الخلابة . لكن مع الحب تولدت مشاعر مثيرة للضيق والسخط - تتعلق بالاحساس بالعجز والدونية كما لو كانت اليونان بمثابة امرأة مثيرة جنسيا ينبغى علىّ أن أقع فى حب جسدى معها ولكنها فى الوقت نفسه بالغة الأرستقراطية بحيث لا يمكن لى مطلقا الاقتراب منها .

ولم يكن هناك كتاب من بين الكتب التى قرأتها يقدم لى تفسيرا لهذا السحر الخلاب الملىء بالآثام . فنحن فى انجلترا نعيش فى علاقة بكماء وهادئة للغاية وبالغة الترويض مع ما يتبقى من مناظرها الخلابة الطبيعية وضوئها الشمالى الهادىء . أما فى اليونان فكل من المناظر الطبيعية والضوء جميل للغاية وكلى الحضور وحاد وبرى حتى أن العلاقة تصبح على الفور علاقة حب / كراهية . علاقة حب / ألام . علاقة جنس . ولقد استغرق الأمر شهورا عديدة لكى أفهم هذا واستغرق سنوات عديدة لكى أتقبله .

وفى وقت متأخر من ذلك اليوم كنت واقفا عند النافذة فى غرفة بالفندق الذى وجهنى اليه ذلك الشاب الثقيل الظل الذى استقبلنى فى المعهد البريطانى . وكنت قد انتهيت توا من تحرير رسالة إلى آليسون الا أنها بدت لى بعيدة بالفعل للغاية بحيث أصبحت خارج نطاق البعد الزمانى والبعد المكانى ولكنها صارت موجودة فى بعد ما آخر ليس له اسم . ربما هو بعد يمكن لنا أن نطلق عليه اسم : الحقيقة . نظرت لأسفل إلى ميدان الدستور ، كانت السماء صافية تماما . قمت بمد عنقى للأمام للنظر فى اتجاه الشرق

فتمكنت من مشاهدة جبل الهايميتوس الذى وقفت عنده فى ذلك الصباح كما رأيت منحدراته التى تواجه غروب الشمس . وفى الاتجاه الآخر عند الأكوام غير المنتظمة للأسقف توجد الصورة الظلية الهائلة السوداء للأكروبول . كانت متطابقة تماما مع الصورة الذهنية التى كونتها فى ذهنى عنها حتى أنها بدت وكأنها غير حقيقية . ولكننى شعرت بإرباك أفقدنى حاسة الزمان والمكان فى نوع من الغبطة والانفرادية التى أحست بها آليس فى بلاد العجائب .

تقع فراكسوس على مسافة جنوب أثينا تقطعها الباخرة الصغيرة فى ثمانى ساعات . وهى توجد فى وسط منظر ريفى يخطف الألباب ، كانت جزيرة جميلة . بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان . ولقد حبست أنفاسى مشدوها فى انبهار هائل لدى مشاهدتى لها لأول مرة .. وهى تطفو عائمة تحت فينوس مثل حوت ضخم أسود اللون مهيب الطلعة فى بحر أرجوانى . إنها مازالت تقطع أنفاسى فى انبهار شديد حتى الآن كلما أغلقت عينى وتمثلتها فى داخل ذهنى . كان جمالها من النوع النادر فى بحر ايجه . حيث كانت تلالها مغطاة بأشجار الصنوبر . وكان ٩٠٪ مساحة الجزيرة غير مأهول بالسكان وغير مزروع . أما الأهالى فكانوا متجمعين فى ركن واحد بالشمال الشرقى حيث كانوا يسكنون فى منازل بيضاء كالثلج حول اثنين من الموانىء الصغيرة .

الا أنه كان هناك منظران قبيحان يسببان الازعاج لعين المشاهد . أحدهما فندق يونانى قديم يقع بالقرب من الميناء . وهو فندق يستقبل الزائرين مثلما تفعل مركبة حربية فى معبد يونانى قديم . أما الثانى فيقف شامخا عند مشارف القرية مما يجعل الأكواخ حوله تبدو ضئيلة وتافهة أكثر من اللازم . مبنى طويل بشكل رهيب ومروع ويتكون من عدة طوابق عالية ويذكر الإنسان بالمصانع على الرغم من واجهته المليئة بالزخارف .

ولكن اذا استثنينا مدرسة اللورد بيرون وفندق فيلادلفيا والقرية فان الجزيرة كانت أرضا بكرا .

اما النقصان فى المياه المكشوفة فكان يعنى أنه لا توجد حيوانات برية فى الجزيرة كما لا توجد سوى طيور قليلة للغاية بها . وكانت أهم مميزات الجزيرة هى الصمت .

كما كانت هذه الجزيرة هى أقل الأماكن التى توحى بالخوف . وأكثر الأماكن انعزالاً فى المساحات غير الشمالية من الكرة الأرضية . ولم يتغلغل الخوف إلى هذه الجزيرة على الاطلاق . فهى إذا كانت قد تعرضت للاقتحام فان الذى قام بالاقتحام هم الحوريات وليس الوحوش الضارية .

ولقد أرغمت على الذهاب للنزهة مراراً وتكراراً ، لكى أهرب من الجو المليء برهاب الاحتجاز فى داخل مدرسة اللورد بيرون . هذا بالاضافة إلى أنه كان هناك شيء ما سخيف يتعلق بالتدريس فى مدرسة داخلية لأنها تقع على مسافة قصيرة إلى الشمال من المكان الذى قامت فيه كلتمنسترا بقتل زوجها أجاممون . وكان المدرسون ضحايا لدولة لا يوجد بها سوى جامعتين . أما التلاميذ فلم يكونوا أفضل أو أسوأ من باقى التلاميذ فى جميع أرجاء العالم . ولكنهم ينظرون نظرة تتسم بالطابع العملى للغة الانجليزية . انصبت اهتماماتهم على العلم وليس الأدب . فاذا حاولت أن أقرأ معهم القصائد الشعرية الرمزية المقررة عليهم فانهم يتثاءبون ولكنى إذا قمت بتدريس الأسماء الانجليزية لأجزاء السيارة فاننى أجد صعوبة فى إخراجهم من الفصل عقب انتهاء الدرس . وهم كثيرا ما كانوا يحضرون لى كتبا علمية أمريكية مليئة بمصطلحات يتعذر علىَّ فهمها .

وكان كل من المدرسين والتلاميذ يكرهون الجزيرة ويعتبرون أنفسهم وكأنهم يقضون بها فترة عقوبة .

كان ديمتريياديس هو المدرس الوحيد الذى يجيد الانجليزية ، لذا اصطحبنى فى جولة بين حوانيت القرية وتذوقت الطعام اليونانى والموسيقى الفلكلورية اليونانية . ولكن كان هناك دائما شيء ما حزين فى القرية تحت ضوء النهار . وكان هناك العديد من الفيلات التى تقدم الطعام للأشخاص لفترات متفق عليها . كان على المرء أن يذهب دائماً إلى نفس الحانتين اللتين هما أفضل من باقى الحانات الأخرى لكى يتناول وجبة من الطعام ومن هنا كان يتقابل مع نفس وجوه الناس التى اعتاد مشاهدتها . مجتمع إقليمى تافه ينتمى إلى عالم الامبراطورية العثمانية أكثر مما هو ينتمى إلى الخمسينات من القرن العشرين . وكان علىَّ أن أتفق فى الرأى مع ميتفورد : انه مجتمع كئيب للغاية . وذهبت إلى واحد أو اثنين من محلات الخمور التى يتردد عليها صيادو الأسماك . كانت أكثر بهجة ومرحا . ولكننى أحسست أنهم يشعرون بأننى أزور هذه الأماكن الفقيرة

على سبيل الفضول أو المتعة أو التحقيق العلمى أو القيام بعمل خيرى بالاضافة إلى أن لغتى اليونانية لم تكن فى نفس مستوى اللهجة المحلية التى يتحدثون بها فى الجزيرة .

وأجريت استفسارات وتحريات عن الرجل الذى تشاجر مع ميتفورد، ولكن بدا على الناس أنهم لم يسمعوا عنه أو عن ذلك الشجار أو عما يسمى "بغرفة الانتظار" . وكان من الواضح أن ميتفورد قد أمضى بعض الوقت فى القرية وأن علاقاته مع المدرسين لم تكن قوية وكانت هناك أيضا الآثار العنيفة الناجمة عن شدة الكراهية للانجليز والتى عمقتها المواقف السياسية فى ذلك الوقت وكان عليه أن يتحمل كل ذلك .

سرعان ما توجهت إلى التلال . لم يسبق لأحد من المدرسين أن ذهب إلى مكان أبعد ولو ببوصة واحدة عن الأماكن التى هو بحاجة اليها . أما التلاميذ فلم يكن من المسموح لهم أن يذهبوا إلى ما وراء ملاعب المدرسة . كانت التلال دائما نظيفة ومشرقة ونائية . وبدون رفيق سوى الضجر والملل الذى يلازمنى بدأت لأول مرة فى حياتى أتطلع إلى الطبيعة وأشعر بالأسف لأن معرفتى بلغة الطبيعة كانت ضئيلة مثل معرفتى باللغة اليونانية ، وأصبحت لدى معلومات عن الحجارة والطيور والزهور والأراضى بطريقة جديدة وكذلك المشى والسباحة والطقس الرائع وعدم وجود حركة المرور على الأرض أو فى السماء . حيث لم تكن هناك سيارة واحدة فى الجزيرة كلها ولم تكن هناك أية طرق خارج نطاق القرية والطائرات التى تجتاز سماءها بمعدل أقل من مرة واحدة شهريا . كل هذه الأمور جعلتنى أشعر بأننى أكثر امتلاء بالصحة والحيوية عن ذى قبل . وبدأت أشعر بالمزيد من التوافق بين جسدى وذهنى أو هكذا بدا الأمر لى . وكان ذلك وهما .

ووصلنى خطاب من أليسون . كان خطابا مختصرا للغاية . ومن المؤكد أنها كتبت ذلك الخطاب أثناء وجودها فى العمل فى نفس اليوم الذى تركت فيه لندن :

اننى أحبك . ولا يمكنك أن تفهم معنى الحب لأنك لم تشعر بالحب نحو أى إنسان . وهذا هو ما حاولت أن ألفت نظرك اليه خلال هذا الأسبوع الأخير . كل ما أريد أن أقوله لك هو أنك فى يوم ما عندما تقع فى تجربة الحب ستتذكر ذلك اليوم . ستتذكر أننى قبلتك وخرجت مسرعة من الغرفة .

ستتذكر أننى طوال سيرى فى الشارع لم أنظر ورائى ولو مرة واحدة على الاطلاق . وكنت أدرك أنك ترقبنى . تذكر أننى فعلت كل ذلك وأنا أحبك . فاذا نسيت كل شىء آخر يتعلق بى أرجوك أن تتذكر ذلك المشهد . لقد سرت فى الطريق بدون أن أنظر إلى الوراء على الاطلاق وأنا أحبك . فأنا أحبك . وأنا أحبك حبا عميقا للغاية لدرجة أننى سوف أكرهك للأبد بسبب ذلك اليوم .

ووصلنى خطاب آخر منها فى اليوم التالى . ولم يكن يحتوى على أى شىء سوى الشيك الذى حررته لها وقد مزقته إلى نصفين وكتبت على ظهر أحد النصفين : "لا داعى لهذا الشيك . شكرا جزيلاً" . وبعد يومين وصل خطاب ثالث ملىء بالحماس الشديد لأحد الأفلام التى شاهدتها وهو خطاب ملىء بالدردشة . ولكنها قالت فى نهاية هذا الخطاب : "أرجوك أن تنسى ما كتبته لك فى الخطاب الأول . فقد كنت مضطربة للغاية . ولقد تخلصت من هذا الاضطراب تماما الآن" .

وبالطبع كنت أرد على خطاباتها وإن لم يكن يوميا فهو بمعدل خطابين أو ثلاثة خطابات أسبوعيا . خطابات مطولة مليئة بتبرير للذات . إلى أن كتبت لى ذات يوم :

«لو سمحت لا تسهب فى الكلام عنك وعنى . حدثنى عن الأشياء الموجودة بالجزيرة وعن المدرسة . فأنا أعرف كنه طبيعتك . وعليك أن تكون على ما أنت عليه وعندما تكتب لى عن الأشياء يمكننى أن أتخيل أننى معك ولا داعى لأن تشعر بأنك أسأت . العفو هو النسيان» .

المعلومات حلت محل العاطفة فى خطاباتنا . وكتبت لى عن عملها وعن فتاة تصادقت معها وعن أشياء منزلية صغيرة وأفلام وكتب . وأنا كتبت لها عن المدرسة والجزيرة كطلبها . وذات يوم ارسلت صورة فوتوغرافية لها بالزى الرسمى . لقد قصت شعرها ليصبح قصيراً تحت غطاء رأسها . وكانت تبتسم فى الصورة . مما أعطاها طابعاً مهنيا زائفاً . وأدركت أنها أصبحت إنسانة أخرى غير الإنسانة التى أحببت أن تظل ماثلة فى ذاكرتى . لم تكن هى أليسون الخاصة بى لوحدى . وبعدئذ أصبحت خطاباتها بمعدل خطاب واحد فقط أسبوعيا . وبدأ التحرق الجسدى الذى شعرت به نحوها خلال الشهر الأول يتلاشى تدريجيا . كانت هناك لحظات

أدرك خلالها أننى أتحرق شوقا اليها وأننى على استعداد للتخلى عن أ
شىء فى سبيل الحصول عليها فى السرير . إلا أن تلك اللحظات كان
لحظات من الاحباط الجنسى وليست لحظات من الحب المأسوف عليه
وذات يوم رحت أفكر : لو كنت فى هذه الجزيرة لتوقفت عن التفكير فى هذ
الفتاة تماما . وأصبحت كتابة الخطابات بمثابة مهمة روتينية بغيضة خال
من المتعة . ولم أعد أسارع إلى العودة إلى غرفتى عقب تناول وجب
العشاء لكى أكتب الخطابات . كنت أحرر تلك الخطابات على وجه السرع
أثناء وجودى فى الفصل المدرسى وأرسل تلميذا لكى يعطى الخطاب
لساعى البريد الخاص بالمدرسة .

وفى أجازة نصف السنة ذهبت مع ديمترييادس إلى أثينا . وأراد أن
يصطحبنى إلى بيت الدعارة المفضل لديه .

عندما خرجنا من بيت الدعارة كان المطر يهطل مدراراً وعندئذ تذكرت
سريرى مع أليسون . ولكن آليسون ولندن قد ذهبا إلى غير رجعة بعد أن
فصلتهما عن حياتى . وقررت أن أبعث بخطاب إلى آليسون فى تلك الليلة
أعبر فيه عن عدم رغبتى فى التراسل معها مرة أخرى . وكنت مخموراً
للغاية لدى عودتنا إلى الفندق حتى أننى لم أعرف ماذا أقول لها . وأخيرا
اكتفيت بارسال بطاقة بريدية لا اقول فيها شيئا .

وجاء شهر ديسمبر وكنا مازلنا نتبادل الخطابات . وأدركت أنها تخفى
أمورا عنى . فحياتها وفقا لما ورد فى خطاباتها كانت تتسم بالبساطة
الشديدة والخلو من عنصر الرجال مما جعلنى أدرك أنه كلام غير صادق
وغير حقيقى . ولذلك عندما وصلنى الخطاب الأخير لم أصب بالدهشة .

عزيزى نيقولاس

«لم يعد بإمكانى الاستمرار على ذلك النحو . وانى لآسفة للغاية اذا
كان هذا سيجرح مشاعرك . أرجو أن تعتقد أننى آسفة للغاية وأرجو ألا
تغضب منى .

لقد تعرضت لمشاعر الاكتئاب الشديد . وأنا لم أخبرك فى خطاباتى
السابقة بمدى عمق تلك المشاعر . لم يكن باستطاعتى أن أخبرك بهذا
العذاب الذى اجتاحنى . فى تلك الأيام الأولى كنت أتحلى بالشجاعة أثناء

انهماكى فى العمل وبعدئذ كنت أصاب بالانهيار التام لدى عودتى إلى المنزل .

لقد بدأت فى الاضطجاع مع بيتى من جديد عندما يكون فى لندن . وقد بدأ ذلك الأمر منذ أسبوعين . وأرجو أن تصدق أننى اندفعت إلى ذلك الأمر بدون تفكير عميق . أنا أعرف أنك تدرك ذلك . لم تعد مشاعرى نحوه هى نفس المشاعر السابقة . وليست مثل مشاعرى نحوك . وأرجو ألا تشعر بالضيق والحقد والغيرة .

كل ما هناك أنه غير معقد على الاطلاق . وهو يزيل الكرب عنى ولا يجعلنى أستغرق فى التفكير الأليم ويبعد مشاعر الوحدة القاسية عن كيانى . وربما نتزوج .

انه لأمر شنيع . مازالت لدى الرغبة فى أن أكتب اليك وأن تكتب ألىَّ . وأنت فى ذاكرتى دائما .

وداعـــا آليســون

وقمت بتحرير خطاب رداً على خطابها قلت فيه إننى كنت أتوقع وصول رسالة منها على ذلك النحو وأنها فى حرية من أمرها تماما . ولكننى قمت بتمزيق ذلك الخطاب . اذا كان هناك شيء سيؤذى مشاعرها فانه الالتزام بالصمت . وأنا كنت أريد أن أسبب لها الآلام .

(٨)

كنت أشعر بالتعاسة المريرة خلال تلك الأيام الأخيرة السابقة على إجازات اعياد الميلاد وبدأت أكره المدرسة كرها لا يرتكز على أساس عقلانى . وعندما توقفت خطابات آليسون تزايدت مشاعر الوحدة القاسية لدىّ وأصبح العالم الخارجى المتمثل فى لندن وانجلترا زائفا وغير حقيقى على نحو مريع وسخيف . واعتدت أن أستمع إلى محطة الـ بى . بى . سى من وقت لآخر ولكن الأنباء التى تذاع بدت لى وكأنها تجىء من مجتمع لا علاقة لى به . ويبدو أن الجزيرة كلها كانت تحس بهذه العزلة .

ومع ذلك ، كانت الجزيرة جميلة . ومع اقتراب الاعياد أصبح الجو قارس البرودة . واكتست الجبال بالثلوج وبدأت أكثر من الخروج للنزهة هروبا من الملل الشديد . وبدا أنه لا يوجد لى مكان فى هذا العالم . فأنا من أبناء المدن وبلا جذور . ولذلك انتهى بى الحال إلى أن أصبحت معلقاً فى

الهواء .

وجاءت إجازات الكريسماس . كان عليَّ أن أتجول بمفردى لكى أعطى لنفسى فرصة للابتعاد عن جو المدرسة . لو كانت أليسون غير مرتبطة بأحد لسافرت عائدا إلى انجلترا . وراودتنى أفكار بأن أقدم استقالتى الا أن ذلك بدا كأنه فشل آخر وقلت لنفسى إن الأمور ربما تتحسن مع بداية فصل الربيع .

كنت لا أفكر فى أليسون الا بقدر يسير للغاية ولكننى كنت أشعر بها باستمرار بمعنى أننى حاولت أن أمحوها من ذاكرتى ولكننى فشلت فى ذلك . وجاءت علىَّ أيام اعتقدت فيها أن باستطاعتى أن أظل بدون زواج طوال الفترات المتبقية من حياتى . وجاءت أيام شعرت خلالها بالتحرق شوقا إلى فتاة أتجاذب معها أطراف الحديث . وكانت النساء فى تلك الجزيرة من سلالة ألبانية ولهن وجوه كالحة وصارمة وشاحبة ولا يشكلن أى إغراء .

بدأت أنظم القصائد التى تتناول الجزيرة وبلاد اليونان التى بدت لى عميقة من الناحية الفلسفية ومثيرة من النواحى الفنية . وتزايدت أحلامى فى امكان تحقيق نجاح فى المجالات الأدبية . وقضيت الساعات محملقا فى حوائط غرفتى متخيلا ظهور مقالات فى النقد الأدبى عن انتاجى من الشعر بالاضافة إلى وصول خطابات إلىَّ كتبها زملاء لى من مشاهير الشعراء .

الآن أصبحت موجودا فى خضم البحر وقد غاص طوق النجاة إلى قاع البحر مثل قطعة من الرصاص . كان جهدا يرمى إلى عدم ذرف دموع الشفقة على الذات . وكان وجهى صارما مثل وجه رجل توقف النبض فى جسده . ومشيت على مدى ساعات وشعرت بأننى فى الجحيم .

هناك نوع من النساء ينغمس فى المجتمع بدون أن يدرك ذلك . وهناك نوع آخر من الناس يندمج فى المجتمع من خلال التحكم فيه والسيطرة عليه . النوع الأول هو مجرد ترس فى ماكينة أو سن فى عجلة . أما النوع الثانى فهو مهندس أو سائق . ولكن الشخص الذى فضل الخروج من المجتمع نهائيا لا يكون له سوى مقدرته على التعبير عن فض الاشتباك مابين الوجود والعدم فى داخل كيانه .

وعلى مدى أيام بعد ذلك شعرت بنفسى وقد امتلأت بالعدم . امتلأت

باحساس ميتافيزيقى بأننى شخص ملقى على ساحل جزيرة مهجورة وهو احساس يكاد يكون ملموسا .

استيقظت من النوم ذات صباح فشاهدت فى جسدى قرحتين . وكنت أتوقع إلى حد ما ظهورهما . ففى أواخر فبراير كنت قد ذهبت لى أثينا وقمت بزيارة أخرى لمنزل الدعارة الموجود فى كفسيا . وكنت أدرك أننى قد أقدمت على مخاطرة . ولكن المسألة لم تكن تهمنى كثيرا فى ذلك الوقت .

وشعرت بالصدمة الهائلة حتى أننى ظللت مكتوف الأيدى على مدى يوم كامل بدون أن أتخذ أية اجراءات . وكان هناك طبيبان فى القرية : أحدهما يمارس مهنته وهو المسئول عن المدرسة من الناحية الطبية . أما الثانى فهو رجل عجوز يقوم بعلاج بعض الحالات القليلة رغم أنه شبه متوقف عن مزاولة مهنة الطب .

نظر الطبيب إلى القرحتين ثم نظر إلىَّ وهز كتفيه وسأل :

ـ هل التقطت هذا المرض فى أثينا ؟

فأومأت برأسى .

فقال : الفتيات هناك رهيبات . المغفلون فقط هم الذين يقعون فى هذا المطب .

وصدرت عنه ابتسامة خبيثة ماكرة . وظهرت عليه المتعة والتسلية وهو يرد على أسئلتى العديدة . وأوضح لى أن هناك فرصا لشفائى من المرض . كما قال إننى لست ناقلا للعدوى ولكن ينبغى أن أتوقف عن ممارسة الجنس . وأشار إلى أنه كان بمقدوره القيام بعلاجى من ذلك المرض لو كان لديه الدواء الملائم . لكنه لا يستطيع الحصول على البنسلين . وأوضح أنه قد سمع أنه يمكن للمرء الحصول عليه من مستشفى خاص موجود بأثينا ولكن الأمر يستلزم أن أدفع ثمنا أعلى مما ينبغى بكثير . وأشار إلى أنه ستنقضى ثمانية أسابيع قبل التأكد من أن العلاج قد أتى بالنتيجة المرجوة .

وقفت عند الباب لدى خروجى محاولا فى غباء كسب تعاطفه معى :

ـ لقد حل بى الشقاء والبلاء !

فهز كتفيه وأوصلنى إلى خارج عيادته فى غير مبالاة .

كان الأمر شنيعا ، فكرت فى العودة إلى انجلترا . ولكننى لم استطع تحمل فكرة العودة إلى لندن . هذا بالاضافة إلى أنه كان هناك نوع من الغفلية فى اليونان ولو أن ذلك لم يكن موجودا فى الجزيرة . ولم أكن فى حقيقة الأمر أشعر بالثقة فى الدكتور بتاريسكو . وكان هناك مدرس أو اثنان من المدرسين القدامى صديقين حميمين له يتقابلان معه كثيراً . ورحت أفتش وراء كل ابتسامة ماكرة أشاهدها وأفتش فى كل كلمة تقال لى بحثا عن اشارة خفية إلى هذا المرض الذى أصابنى . خيل الىَّ اننى شاهدت فى نفس اليوم التالى فى العيون العديدة نوعا من التسلية الجافة . وذات صباح أثناء فترة الاستراحة قال لى ناظر المدرسة :

ـ هون عليك ياأورفى وإلا فسوف نقول إن مفاتن اليونان قد سببت لك الأحزان .

وفى خلال ثلاثة أيام من مقابلتى لذلك الطبيب تأكدت أن كل فرد يعرف خبر اصابتى بما فى ذلك التلاميذ . ففى كل مرة يتهامس فيها التلاميذ كنت أسمع كلمة "الزهرى" .

وفجأة وفى نفس ذلك الأسبوع الرهيب هبط الربيع اليونانى علينا . وبدت الأراضى وكأنها قد تغطت فى خلال يومين فقط بنباتات الشقار والسحلبية والبرواق والجلاديولى البرية . وفجأة ظهرت الطيور فى كل مكان قادمة فى هجرتها السنوية من الشمال . وصاحت فى السماء خطوط متموجة من طيور اللقلاق بصوت كالنقيق . وكانت السماء زرقاء صافية والأولاد يتغنون وحتى أكثر المدرسين وقارا انفرجت وجوههم عن الابتسامات . وطار العالم من حولى . أما أنا فكنت ملتصقا بالأرض . كنت أعيش ليالى بشعة قمت فى احداها بكتابة خطاب مطول لآليسون محاولا أن أشرح لها ما حدث لى . وكيف أننى كرهت نفسى وانه كان ينبغى علىَّ أن أتزوجها حيث كان سيصبح لى على الأقل رفيقة فى هذه الصحراء .

لم أضع الخطاب فى صندوق البريد . ورحت أفكر مرة وراء مرة وليلة وراء ليلة فى الانتحار . وبدا لى كأن الموت يقف لعائلتى بالمرصاد . كانت حالتى أسوأ من حالة آليسون . فهى كانت تكره الحياة أما أنا فكنت أكره نفسى . فأنا لم أبتكر أى شىء وانتميت إلى العدم واللاوجود بدا لى أن موتى هو الشىء الوحيد الذى يمكن لى أن أخلقه . ولكننى كنت أعتقد أن

موتى ربما يسبب الاتهامات لأشخاص لم تكن لهم علاقة بى على الاطلاق . هذا بالاضافة إلى أن ذلك يتعارض مع المذهب الكلبى الذى أؤمن به كما أنه يبرهن على أنانيتى ولسوف يكون ذلك بمثابة انتصار أسود .

وفى اليوم السابق على انتهاء الفترة الدراسية كنت أعرف ما سأفعله . فبواب المدرسة يمتلك بندقية قديمة يتسع مستودعها لـ ١٢ طلقة . وهو كان قد عرض علىَّ ذات مرة إعارتها لى اذا كنت أرغب فى الذهاب للصيد فى التلال . لذلك ذهبت اليه وطلبت منه استعارتها فرحب بذلك وملأ جيوبى بالخرطوشات وأشار إلى أن غابات الصنوبر مليئة بطيور السلوى والسمان المهاجرة . وسرت فى أخدود يقع خلف المدرسة وتسلقت ربوة صغيرة وسرعان ما تواريت عن الأنظار . كان علىَّ أن أتأكد أن أحدا لا يمكنه أن يرانى . وأخيرا عثرت على تجويف صخرى . وضعت طلقة فى البندقية ثم جلست على الأرض وأسندت ظهرى إلى جذع شجرة صنوبر . ووضعت البندقية فى الاتجاه العكسى . ورحت أحسب الزاوية التى ينبغى أن أضع رأسى عندها . ووضعت الماسورة فى مواجهة عينى اليمنى وأدرت رأسى قليلا حتى يمكن للطلقة أن تهرس مثل البرق الأسود المخ وتفجر الجزء الخلفى من الجمجمة تماما ـ كان كل ذلك على سبيل التجربة ـ ووجدت أنه من الصعب تنفيذ ذلك على هذا الوضع . فمع الانحناء إلى الامام ربما أقوم بلوى رأسى فى اللحظة الأخيرة مما قد يفسد المهمة . لذلك بحثت عن غصن ناشف لكى أضعه مابين الزند وصمام الأمان . وأخرجت الطلقة من البندقية ودفعت بالغصن فى ذلك المكان ثم جلست ووضعت البندقية بين ركبتى ووضعت نعلى قدمى على الغصن بينما الماسورة اليمنى للبندقية على مسافة بوصة من عينى . وكانت هناك طقطقة لدى سقوط زند البندقية . كانت الأمر غاية فى البساطة . فقمت بوضع الطلقة فى البندقية مرة أخرى .

وترامى من التلال الواقعة إلى ما ورائى صوت لفتاة . من المؤكد أنها تهبط بقطيع الماعز من التلال متجهة إلى القرية . كانت تغنى فى حماس شديد بأعلى صوتها بلحن غير معروف ذات فواصل تركية / عربية . وتذكرت أننى سمعت صوتا مماثلا ربما هو صوت نفس هذه الفتاة ذات يوم فى التل الموجود خلف المدرسة . ولقد انساب صوتها آنئذ إلى داخل حجرة الدراسة فراح الأولاد يضحكون ضحكات مكتومة . ولكن الصوت فى

هذه المرة كان يبدو غامضا منطلقا من غياهب المعاناة الشديدة مما جعل مشاعر الوحدة التى تجتاحنى تبدو تافهة وسخيفة اذا قورنت بحالة الفتاة . كنت أجلس بينما البندقية بين ركبتى غير قادر على الحركة فى حين ينساب الصوت لأسفل . لاحظت أن السماء قد أظلمت وتحول لون البحر إلى لون رمادى .

رفعت البندقية مرة أخرى إلى أن أصبحت الماسورة مصوبة فى اتجاهى . كان الغصن ناتئا فى انتظار أن تقوم قدمى بتحريكه لأسفل . وكان الهواء هادئا وساكنا للغاية . وعلى مسافة أميال عديدة سمعت صوت مركب أثينا يقترب من الجزيرة . الا أن ذلك كان بمثابة شىء ما خارج نطاق الفضاء الكونى .

رحت أنتظر مجىء قوة الارادة ومجىء اللحظة السوداء . طوال الوقت وأنا أشعر أن هناك من يرقبنى وأننى لست بمفردى . وأدركت أن ما أسعى اليه ليس موتا حقيقيا . انه موت للذكرى وليس الموت الحقيقى .

بدأت الظلمة فى الازدياد . وبدأ صوت مركب أثينا يئن فى توجع . وكنت أنا مازلت جالسا أدخن السيجارة . رحت أقيمّ نفسى من جديد . وأدركت أننى منذ الآن فصاعدا إنسان جدير بالازدراء .

رفعت البندقية لأعلى وأطلقت رصاصة على غير هدى فى السماء فأذهلنى ذلك الصوت الهائل الذى دوى فى الفضاء وكان هناك صدى للصوت وتساقطت بعض الأغصان ثم ساد بئر الصمت العميق .

سألنى الرجل العجوز عند البوابة : هل تمكنت من قتل أى شىء ؟

قلت : أطلقت رصاصة واحدة وأخطأت الهدف .

(٩)

بعد سنوات شاهدت الجابيا فى مدينة البياشنتزا الايطالية . انها قفص كناريا أسود اللون ، خشن الملمس معلق فى جانب برج الأجراس الشامخ كان يترك فيه السجناء ذات يوم ليهلكوا جوعا حتى الموت ويتعفنوا أمام أنظار أهالى المدينة أسفل البرج . ومع النظر لأعلى إلى ذلك القفص تذكرت ذلك الشتاء فى اليونان . تذكرت تلك الجابيا التى شيدتها لنفسى من

الضوء والوحدة الانفرادية وخداع الذات . ان كتابة الشعر والانتحار وهما أمران متناقضان للغاية من الناحية الظاهرية كانا فى الواقع هما نفس الشىء . كانا بمثابة محاولات نحو الهروب . وكانت مشاعرى فى نهاية تلك الفترة الدراسية الرهيبة هي مشاعر من يدرك أنه محتجز فى قفص ومعرض لتلقى كل السخريات من طموحاته القديمة إلى أن يموت .

لكننى ذهبت إلى أثينا . إلى العنوان الذى أعطاه لى طبيب القرية . وأجريت لى اختبارات وتأكد لى التشخيص الذى أدلى به الدكتور بتاريسكو . وكان العلاج فى خلال الأيام العشرة الأولى باهظ التكاليف فمعظم الأدوية كان يتم تهريبها إلى داخل اليونان أو كانت تتم سرقتها . وكنت أنا الطرف المتلقى فى شبكة تضم ثلاثة رجال . أخبرنى الطبيب الرقيق المشاعر أنه ينبغى ألا أشعر بالقلق لأن التكهنات بالاحتمالات التى قد يتخذها المرض كانت ممتازة . وفى نهاية إجازات عيد الفصح عدت إلى الجزيرة فوجدت بطاقة مرسلة إلىَّ من آليسون . كانت بطاقة مليئة بالزخارف الملونة وعليها صورة حيوان الكانجارو مع عبارة مطبوعة صادرة عن فم الكانجارو تقول "هل تعتقد أننى نسيتك" ؟. لقد حل عيد ميلادى السادس والعشرين أثناء وجودى فى أثينا . وكانت البطاقة عليها خاتم بريد امستردام . ولم يكن بالبطاقة رسالة موجهة الىَّ . لم يكن عليها سوى توقيع "آليسون" فقط . فألقيت بها فى سلة المهملات . لكننى فى مساء نفس هذا اليوم التقطتها من سلة المهملات مرة أخرى .

وانتظرت فى قلق ظهور نتائج العلاج وكنت أخشى من ظهور التطورات فى المرحلة التالية . وبدأت انتهك حرمة الجزيرة فى هدوء . فرحت أسبح فى مياهها وأمشى بين أرجائها . دائما ما كنت أذهب إلى القمة الجبلية حيث كنت أريد أن أبتعد بقدر الامكان عن القرية والمدرسة . فهنالك عُزلة مطلقة . بدت الجزيرة وكأنها شقت وقسمت إلى ظلام ونور .

لم أشغل ذهنى بالتفكير فى المستقبل . وعلى الرغم مما قاله الطبيب فى العيادة فإننى كنت واثقا من أن العلاج سيفشل وهنا بدأت تظهر الألغاز والأمور البالغة الغموض .

الباب الثانى

(١٠)

كان أحد أيام الآحاد فى أواخر مايو . وكان ذلك اليوم فى نفس زرقة جناح الطائر . وتسلقت دروب الماعز المؤدية إلى أعالى الجبال بالجزيرة . كان البحر يمتد مثل سجادة حريرية عبر الحوائط الظلالية للجبال الموجودة بالأراضى الرئيسية المتجهة نحو الغرب وهو حائط يمتد لمسافات بعيدة فى اتجاه الجنوب على مسافة ستين ميلا نحو الأفق البعيد . كان عالما نقيا إلى درجة مذهلة . وكما هو الحال دائما كلما وقفت على قمة سلسلة الجبال الرئيسية بالجزيرة . فاننى كنت أنسى معظم مشاكلى . سرت فى اتجاه الغرب . وكانت السحالى تتحرك فوق جذوع أشجار الصنوبر مثل قلادات من الزمرد الأخضر مليئة بالحيوية والحياة .

وصلت إلى مكان تنحدر عنده الحافة إلى الجنوب نحو جرف صغير . اعتدت أن أجلس هنالك لكى أدخن سيجارة وأتأمل فى مياه البحر والجبال . وبمجرد أن جلست لاحظت أن شيئا ما تغير ، فعند منتصف المسافة على طول الشاطىء الجنوبى للجزيرة كانت تحصينات من نوع ما خاصة بالفيلا الانفرادية التى تقع فى الأرض الداخلة فى البحر . وكل ما أعرفه عن ذلك المنزل ، أنه ملك لرجل غنى من أثينا وأنه لا يستخدم ذلك المنزل الا فى نمة موسم الصيف . وبسبب الارتفاع المتداخل فى غابة الصنوبر لم يكن بمقدور المرء أن يشاهد سوى السطح المفلطح لهذا المنزل عند سلسلة الجبال الرئيسية .

فى هذه المرة هناك خيط رفيع من الدخان المتصاعد فى تجعد فوق السطح . لم يكن المنزل خاليا من سكانه . وكان أول أحساس هبط علىَّ لدى رؤية الدخان هو الاستياء . استياء شبيه باستياء روبنسون كروزو . لقد

تعودت أن أكون بمفردى تماما فى هذه المنطقة وكأنها ملك لى وحدى . بدون أن يشترك معى فيه أى شخص آخر . عدا الصيادين المساكين الذين يقطنون الأكواخ الثلاثة . وليس لأى فرد آخر ينتمى لطبقة تعلو على طبقة الفلاحين الحق فى الوجود فى ذلك المكان . لذلك دب فى قلبى حب الاستطلاع واخترت ممرا يؤدى إلى لسان البحر الذى توجد الفيلا عليه .

وأخيرا سطع البحر وشريط من الأحجار المائلة إلى اللون الأبيض من خلال أشجار الصنوبر . كان بمثابة كهف كبير مفتوح وامتداد من الحصى والحصباء ومياه البحر الرائقة مثل الزجاج وقد أحاط بها لسانان من الأرض الداخلة فى مساحة الماء . وكان اللسان الواقع جهة الشرق الذى يسمى البورانى يضم الفيلا المتوارية بين الأشجار . كان الموقع بمثابة بلاچ رائع سبق لى الوصول اليه مرتين من قبل ، وهو مثل بلاچات الجزيرة يعطى للمرء الذى يزوره احساسا بأنه أول إنسان تطأ قدمه رماله . لم يكن هناك أثر لوجود اى شخص تابع لهذه الفيلا . فوقفت عند أقصى الطرف الغربى من البلاچ ورحت أسبح فى الماء ثم تناولت طعام الغداء . ورغم كل ذلك لم أشاهد . أى شخص .

وبعد الظهر سرت إلى نهاية كهف الڤيلا . كانت هناك كنيسة صغيرة متوارية بين الأشجار . ومن خلال ثقب الباب تمكنت من مشاهدة كرسى مقلوب وشمعدان شاغر بالاضافة إلى صنف من الأيقونات الموضوعة فوق حاجز صغير عليها اسم أجيوس ديميتريوس ـ القديس جيمس . قفلت راجعا إلى البلاچ . ولأول مرة لاحظت وجود بعض الأسلاك الشائكة على مسافة عشرين قدما من سفح المنحدر الصخرى . وكان بمقدور أية امرأة عجوز أن تنفذ من خلال الاسلاك الصدئة بدون أية صعوبات ، الا أن كانت هذه أول أسلاك شائكة أشاهدها فى الجزيرة . لم أشعر بالارتياح . لانها قطعت أوصال هذا المكان البالغ الانعزال ..

كنت أحملق لأعلى نحو منحدر الأشجار الكثيفة الساخنة عندما احسست بأن هناك شخصا يرقبنى . ولكن لم يكن هناك أى شخص . سرت مقتربا من الصخور المجاورة للأسلاك الشائكة التى تخترق الشجيرات الكثيفة القصيرة .

دققت النظر فيما حولى ثم حركت الفوطة التى تحت قدمى . كان هناك كتاب . إنه أحد الكتب الشائعة التى تتناول الشعر الانجليزى المعاصر .

الذى املك منه نسخة . وكان ذلك أمرا غير متوقع حتى أننى ظللت أحملق فى الكتاب فى غباء بعد أن خطر على ذهنى أنه نسختى وأن شخصا قام بسرقتها .

لم يكن كتابى . لم يكن صاحب هذا الكتاب قد دون اسمه أو اسمها على الصفحة الداخلية وكانت به صفحات عديدة مفكوكة وتكاد تنخلع نهائيا . وقلبت صفحة ووجدت خطاً بالحبر الأحمر تحت أربعة أبيات من الشعر :

لن نتوقف عن الاستكشاف ،
والنهاية لكافة استكشاف .
ستكون مرفأنا الذى بدأنا منه .
وعندئذ سنتعرف على نفس هذا المكان لأول مرة .

والأبيات الثلاثة الأخيرة قد وضعت إلى جوارها علامة أخرى اضافية عمودية . نظرت لأعلى مرة أخرى نحو الأشجار الكثيفة قبل أن أتصفح ورقة أخرى . لقد تم وضع علامات على الصفحات التى تتناول إشارة إلى الجزر أو البحار . وكانت هناك حوالى ١٢ اشارة من ذلك النوع . وفى وقت لاحق من تلك الليلة رحت أقرأ بعض المقطوعات فى النسخة الخاصة بى :

كل واحد فى سريره الصغير تخيل الجزر ..
حيث كان الحب بريئا نظرا لبعده عن المدن .

هذان البيتان المأخوذان عن أودين وضعت علامة تحتهما بينما لم توضع علامة على البيتين الآخرين المتداخلين . وكانت هناك أبيات عديدة فى أماكن متفرقة مأخوذة عن عزرا باوند :

تعال وإلا ستنزلق الموجة النجمية بعيدا
تجنب ساعة اضمحلالها شرقا الآن !
لأن الابرة ترتعش فى داخل نفسى ..
لا تسخر من فيضان النجوم فهذا الأمر محتوم .

وأيضاً :

الذى وهو فى حالة وفاة يجعل عقله سليما .
هذا الضوء جاء فى الظلام
يجب عليك الذهاب أولا إلى الطريق إلى جهنم .

أعدت الكتاب إلى مكانه تحت الفوطة واتجهت نحو التل . تأكدت تماما

أن هناك من يرقبنى بالفعل . ثم انحنيت لأسفل والتقطت الفوطة والكتاب ووضعتهما الى قمة الصخرة لكى يكون من السهل العثور على هذه الأشياء فى حالة مجىء شخص ما للبحث عنها . ليس من باب الشفقة والعطف ولكن لمجرد تبرير فضولى أمام العينين المخبأتين . وكان بالفوطة بقايا عطر نسائى .

ورجعت إلى المكان الذى به ملابسى ورحت أرقب بزاوية من عينى وأنظر على طول البلاچ . ثم انسحبت إلى ظل أشجار الصنوبر الموجودة خلف البلاچ . كانت البقعة البيضاء فوق الصخرة تتوهج تحت ضوء الشمس . واستلقيت على الأرض واستسلمت للنوم . ولكننى عندما استيقظت من النوم نظرت لأسفل فى اتجاه البلاچ لاحظت أن الأشياء اختفت . فالفتاة ـ ومن المؤكد انها فتاة ــ قد أخذت حاجياتها دون أن يراها أحد . فارتديت ملابسى وذهبت الى المكان .

كان الممر المؤدى إلى المدرسة يبدأ من وسط الخليج . ومن عند الخليج شاهدت ممرا آخر صغيرا يتجه لأعلى من عند التفاف الأسلاك الشائكة . كان ممرا منحدرا وكانت الشجيرات كثيفة للغاية بحيث لا يمكن للمرء الرؤية من خلالها . ومن بين الظلال تبزغ الرؤوس القرمزية لنباتات الجلاديولى .

فجأة دوى جرس من على مسافة ما تقع إلى ماوراء الشجيرات القصيرة . فتوقف الطائر عن الغناء وواصلت صعودى لأعلى . كان من الواضح أن ذلك بمثابة توجيه نداء لبعض الناس للمجىء لتناول وجبة ما . أو ربما هناك طفل يعبث بالجرس .

كانت هناك بوابة . مربوطة بالسلاسل الصدئة ومدهونة بالطلاء القديم . وكان هناك مدق عشبى متسع ممتد على طول الأرض الممتدة إلى أسفل التل وكان المدق ينعطف بين الأشجار ولا يكشف أى جزء من المنزل . ورحت أصغى للحظات ولكن لم تكن هناك أصوات آدمية . وإلى أسفل التل راح الطائر يتغنى مرة أخرى .

نفذت من خلال الفتحة . كان على مسافة شجرتين إلى الداخل . توجد كتابة تقول "المنتهكون لحرمة هذا المكان سيلقون العقاب" هذه اللافتة كتبت عليها بحروف حمراء اللون غير واضحة على خلفية بيضاء اللون :

حجرة الانتظار وبدت كأنها قد أخذت منذ سنوات من محطة سكة حديد فرنسية أو كأنها دعابة كتبها أحد الطلاب القدامى . كان الطلاء بها قد تساقط وظهرت بعض أجزاء من المعدن الصدىء . وعند أحد طرفيها توجد أربعة ثقوب ناجمة عن طلقات الرصاص . كان ذلك هو التحذير الذى أشار اليه ميتفورد : احترس من غرفة الانتظار .

وقفت فوق المدق العشبى . فى حيرة ، وغير قادر أن أقرر ما اذا كان علىَّ ان استمر فى الاتجاه نحو المنزل . خمنت أن ذلك المنزل هو الفيلا الخاصة بالشخص الذى تعاون مع العدو المحتل لبلاده . ولكننى تخيلته فى ذهنى كرجل يونانى حقير الوجه مخادع وماكر وليس كرجل مثقف للغاية بحيث يقرأ أو يكون لديه ضيوف يقرأون كتبا بقلم اليوت وأودين . ترددت لفترة طويلة للغاية حتى أننى تضايقت من نفسى بسبب عدم تمكنى من اتخاذ قرار . وأخيرا أرغمت نفسى على الاستدارة للانصراف . وعدت خارجا من خلال الفتحة وتتبعت المدق وسرت نحو سلسلة الجبال الرئيسية . وسرعان ما تلاشى المدق واندمج مع درب للماعز . وعندما وصلت إلى الجبال الرئيسية من ذلك الموقع لم يكن المنزل مرئيا على الاطلاق ولكننى عرفت مكانه على وجه الدقة .

كان الجو يسوده الهدوء والسلام وخبز القربان والهواء الذهبى والمسافات الزرقاء البكماء ، عندما شرعت فى النزول على الممرات المنحدرة المتجهة إلى المدرسة بدا لى الجانب الشمالى من الجزيرة مقهورا ومحزونا وتافها بالمقارنة مع الجانب الآخر .

(١١)

وفى صباح اليوم التالى عقب الافطار اتجهت إلى منضدة ديمترييادیس . الذى كان بالقرية فى مساء اليوم السابق ، لم اهتم بالانتظار لحين عودته . كان قصيرا ممتلىء الجسم . وجهه يشبه الضفدعة . وكان يشعر بكراهية ازاء أشعة الشمس وكل ماهو ريفى . كان لا يكف عن ابداء استيائه من الحياة الريفية التى اضطررنا لأن نعيشها فى الجزيرة . وهو فى أثينا كان يعيش حياة الليل وينغمس فى ممارسة هوايتيه المفضلتين : معاشرة البغايا وتناول الطعام . وكان ينفق كل أمواله لتحقيق هذين الهدفين بالاضافة إلى شراء الملابس لنفسه . ولذلك كان يتوقع له أن

يبدو شاحبا ومتسخا وفاسدا ، الا أنه كان دائما متورد الوجه ونظيفا . كان مثله الأعلى فى التاريخ هو كازانوفا . وكان له سحر وجمال جميع الناس الذين يؤمنون بأن لديهم نوعا من التكامل .

خرجت به إلى الحديقة . وكان اسم التدليل الخاص به هو ميلى . حيث كان يحب الأشياء الحلوة المذاق مثل الأطفال .

ـ ياميلى . ماذا تعرف عن الرجل الموجود فى بورانى ؟

ـ هل تقابلت معه ؟

ـ لا .

"آى" . قالها صائحا فى غلظة .

كانت شخصية كازانوفا تقتصر تماما على حياته الخاصة أما فى الفصل فكان مثل الضابط الصارم المتشدد .

ـ هل تعرف اسمه ؟

ـ فقال : اسمه كونشيس .

ـ لقد قال ميتفورد إنه دخل فى شجار مع كونشيس ذات يوم .

ـ لقد كذب عليك . ولقد دأب على قول الأكاذيب دائما .

ـ ربما . ولكن من المؤكد أنه تقابل معه .

ـ بو ـ بو . وهذا تعبير باللغة اليونانية معناه "اننى أرتاب وأشك فى صحة هذا الكلام" . ذلك الرجل لا يقابل أى شخص على الاطلاق أبداً . ويمكنك أن تسأل فى ذلك المدرسين الآخرين .

ـ ولكن ما السبب فى هذا ؟

ـ هناك قصص وروايات قديمة وكثيرة . وأنا لا أعرف هذه الروايات .

ـ لو سمحت .

ـ إنها ليست شيقة .

سرنا معا على مدق ملىء بالحصى . كان ميلى يبغض الصمت . بدأ يخبرنى بما يعرفه عن كونشيس .

"كان يعمل لصالح الألمان أثناء الحرب . وهو لا يذهب إلى القرية على الاطلاق . لأن القرويين على استعداد لأن يقتلوه رميا بالحجارة . بل أنا شخصيا على استعداد لأن أقتله اذا شاهدته .

ابتسمت : ولماذا ؟

ـ لأنه رجل غنى ومع ذلك فهو يعيش فى جزيرة صحراوية مثل هذه

الجزيرة بينما كان فى استطاعته أن يعيش فى باريس .
- هل يتكلم اللغة الانجليزية ؟
- أظن ذلك . ولكن ما السبب فى اهتمامك الشديد بذلك ؟
- لست مهتما . كل ما هنالك أننى شاهدت المنزل .

ودوى جرس المدرسة عبر البساتين والممرات ، وأثناء الرجوع إلى الفصل دعوت ميلى لكى يتناول طعام العشاء معى بالقرية فى اليوم التالى .

كان الشخص القيادى بالقرية رجلا يسمى سرانتو بولوس ويعرف المزيد من المعلومات عن كونشيس . جاء وتناول معنا كأسا من الخمر أثناء تناولنا الطعام الذى طبخه لنا . صحيح أن كونشيس كان يعشق العزلة ولم يذهب الى القرية على الاطلاق ولكنه لم يكن متعاونا مع الأعداء المحتلين للبلاد . فذلك كذب وافتراء . لقد عينه الألمان فى منصب عُمدة أثناء الاحتلال وهو فى حقيقة الأمر بذل كل ما فى وسعه من أجل القرويين . فاذا كان لا يتمتع بأية شعبية الآن فان السبب فى ذلك أنه يأمر بشراء معظم حاجياته من أثينا . وانهمك فى سرد قصة طويلة . وكانت اللغة العامية التى يتكلم بها وهى لغة أهالى الجزيرة صعبة للغاية حتى بالنسبة لليونانيين الآخرين من غير سكان الجزيرة . وبذلك لم أتمكن من فهم كلمة واحدة . وانحنى فى حماس عبر المنضدة . وبدا على ديمترييادس الملل والسأم وراح يومىء برأسه من وقت لآخر فى نوع من المجاملة .
- ياميلى . ماذا يقول هذا الرجل ؟
- لا شىء . مجرد قصة عن الحرب . لا أهمية لها على الاطلاق .

ونظر سارانتوبولوس فجأة إلى ما وراءنا وقال كلاما ما لديمترييادس ثم نهض فالتفت حولى . كان هناك رجل طويل حزين الوجه من سكان الجزيرة يقف عند فتحة الباب . واتجه إلى منضدة فى الركن البعيد وهو الركن الخاص بأهالى الجزيرة بالحجرة الطويلة الشاغرة . وشاهدت سارانتوبولوس يضع يده على كتف الرجل . وحملق الرجل فينا فى شىء من الريبة والشك ثم استسلم وسمح لنفسه بأن يقاد إلى منضدتنا .
- انه الحمَّار الخاص بالمستر كونشيس .
- ماذا ؟

ـ انه يمتلك حمارا . وهو ينقل الخطابات البريدية والطعام إلى بورانى .
ـ كان اسمه هرميز .

اعتدت أن أسمع أسماء تلاميذ غير أذكياء يسمون باسم سقراط أو أرسطو ومناداة المرأة العجوز التى تقوم بتنظيف حجرتى باسم أفروديت حتى أن سماعى لهذه الأسماء الشهيرة التى تطلق تفكها على أناس عاديين لم يعد يدفعنى للابتسام . وجلس الحمار وتقبل على الرغم منه كأسا صغيرة وراح يداعب حبات مسبحته الكهرمانية . تمكن ميلى من أن ينتزع منه قدرا ضئيلا من المعلومات .

ما الذى فعله المستر كونشيس ؟ كان يعيش بمفرده . نعم بمفرده ــ مع مدبرة لشئون المنزل وكان يزرع حديقته زراعة حقيقية على ما يبدو . وكان يعشق القراءة . ولقد قرأ العديد من الكتب . كان لديه بيانو . يتحدث بلغات عديدة . كان يذهب أحيانا إلى أثينا وإلى بعض البلدان الأخرى .
ـ اسأله عما اذا كان بالمستطاع أن أقوم بزيارة كونشيس ؟
ـ لا . هذا أمر مستحيل تماما .
كان فضولنا وحب استطلاعنا أمرا طبيعيا . أما تحفظه فهو الأمر الذى كان يبدو غريبا ربما قد وقع الاختيار عليه بسبب تجهمه وتحفظه . ونهض واقفا لكى ينصرف .

تساءل ميلى : ألأنت متأكد انه لا يخفى فى منزله فتيات جميلات ؟
رفع الحمار ذقنه الزرقاء وحاجبيه فى اجابة بالنفى صامتة ثم استدار مبتعدا وقد ظهرت على وجهه مشاعر الازدراء .

وتمتم ميلى وراء الرجل قائلا : "يالك من فلاح" ! وتلك العبارة هى أسوأ الشتائم فى اللغة اليونانية . ثم أمسك بمعصم يدى وقال "ياعزيزى . هل سبق لى أن حدثتك عن الرجلين والسيدتين الذين قابلتهم ذات مرة فى مكونوس وعن الطريقة التى مارسوا بها الجنس" ؟
ـ نعم . ولكن لا بأس .

شعرت بالاحباط على نحو غريب . ولم يكن السبب فى ذلك هو فقط أننى سمعت للمرة الثالثة فى تفصيل دقيق كيف أن ذلك الرباعى الاكروباتى قد تمكن من ممارسة الجنس .

تمكنت من التقاط المزيد من المعلومات أثناء الأيام المتبقية من الأسبوع وذلك عقب عودتى للمدرسة . لم يذهب إلى هنالك قبل الحرب سوى اثنين من المدرسين . وتمكن كلاهما من مقابلة كونشيس مرة واحدة أو مرتين آنئذ . ولكن منذ ذلك الوقت لم تفتح المدرسة أبوابها إلا منذ عام ١٩٤٩ . قال أحدهما إنه موسيقار متقاعد . وقال الآخر إنه شكاك فى طبيعة الدوافع البشرية بالاضافة إلى أنه ملحد الا أنهما اتفقا فى الرأى على أن كونشيس رجل يعشق العزلة . وأثناء الحرب أرغمه الألمان على العيش فى القرية . وذات يوم ألقى الألمان القبض على بعض المقاتلين المنتمين للمقاومة الشعبية والذين كانوا موجودين فى الأراضى الرئيسية وطلبوا من كونشيس أن يقوم بتنفيذ حكم الاعدام فى هؤلاء المقاتلين . فرفض فقاموا بوضعه هو ومجموعة من القرويين أمام فرقة عسكرية مزودة بالأوامر لاطلاق النيران عليهم رميا بالرصاص . لكنه أفلت من الموت بأعجوبة . اعتقد القرويون أن كونشيس كان ينبغى عليه أن ينفذ الأوامر التى أصدرها الألمان اليه . ولكن ذلك أصبح جزءا من الماضى . واذا كان هو قد أخطأ فان ذلك كان من أجل شرف اليونان . وعلى كل حال فلم تطأ قدمه القرية على الاطلاق منذ ذلك الوقت .

وبعدئذ اكتشفت شيئا ما صغيرا ولكنه غير طبيعى . لقد سألت العديد من الناس بالاضافة إلى ديمترييايديس الذى لم يمكث بالمدرسة سوى عام واحد عما اذا كان ليفاريير - وهو المدرس السابق على ميتفورد - أو ميتفورد نفسه ، قد سبق له التحدث عن مقابلته لكونشيس . وكانت الاجابة دائما بالنفى . وهى اجابة معقولة على ما يبدو بالنسبة لحالة ليفاريير لأنه كان رجلا متحفظا للغاية . ثم تصادف أن كان الشخص الأخير الذى سألته نفس هذا السؤال هو مدرس "علم الحياة" . فقال كارازوجلو بلغته الفرنسية الركيكة إن ليفاريير لم يسبق له الذهاب إلى هناك على الاطلاق لأنه لو ذهب لأخبره بذلك . اذ كان متقاربا مع ليفاريير أكثر من أى مدرس آخر . وراح يتحسس فى أحد الأدراج ثم استخرج صندوقا مليئا بقصاصات من الورق تلتصق بها أزهار مجففة كان ليفاريير قد جمعها . وكانت تعليقات مطولة ومكتوبة بخط اليد فى وضوح مع استخدام كلمات علمية وفنية على مستوى عالٍ مع وجود اسكتشات مهنية بالحبر الشينى وألوان الماء . وبينما كنت أتصفح فى غير اهتمام فى الصندوق سقطت

منى احدى الصفحات التى توجد بها أزهار مجففة وكان ملحقا بها ورقة أخرى بها ملاحظات اضافية . وقد انزلقت هذه الورقة . وعلى ظهرها كانت هناك بداية لخطاب مؤرخ فى ٦ يونيو ١٩٥١ . أى منذ عامين :

"عزيزى المستر كونشيس . اننى أخشى كثيرا أنه منذ ذلك المشهد غير العادى ..." وبعد ذلك توقف الخطاب .

لم أقل أى كلام لكارازوجلو الذى لم يلحظ أى شىء . ولكننى آنئذ قررت القيام بزيارة المستر كونشيس .

لا أعرف الأسباب التى جعلتنى أشعر فجأة به . ربما لأن المدرسين السابقين علىَّ قاما بزيارة هذا الرجل الذى لا يمكن أن يقابله أحد . ولم يرغبا فى التحدث عن زيارتهما له . وعلى نحو ما شعرت بأن الدور جاء علىّ لكى أقابله . ولم أفعل سوى شىء واحد فى ذلك الأسبوع : كتبت خطابا لآليسون وأرسلته فى ظرف موجه إلى آن فى الشقة السفلية فى ميدان راسيل . وطلبت من آن أن تبعث الخطاب إلى العنوان الذى تسكن فيه آليسون . ولم أقل أى كلام له أهمية فى خطابى لآليسون . كل ما قلته أننى قد اكتشفت معنى كلمة "غرفة الانتظار" وأنه يمكنها أن ترد على خطابى هذا اذا كانت ترغب فى ذلك حقا واننى سأقدر موقفها اذا لم ترد .

وكنت أدرك أن الشخص الذى يعيش فى هذه الجزيرة ينجذب كثيرا إلى الماضى . لأن الجزيرة يسودها قدر كبير من الهدوء ولا يوجد هناك سوى قدر ضئيل من اللقاءات والزيارات حتى أن المرء يمكنه الخروج بسهولة من مرحلة الوقت الحاضر . وعندئذ يبدو الماضى قريبا له للغاية ولعشرات الأضعاف عما هو عليه فى حقيقة الأمر . وكان من المحتمل ألا تكون آليسون قد فكرت فىّ على مدى أسابيع لأن لديها مشاغل كثيرة للغاية . لذلك وضعت الخطاب فى صندوق البريد وكأننى ألقى برسالة موضوعة فى زجاجة فى البحر ليس على سبيل التفكه تماما وانما أقرب إلى ذلك .

(١٢)

ان عدم وجود الرياح الشمسية التى لا تنضب عادة جعل يوم السبت التالى حارا للغاية . وكانت الغابة فى تلك الآونة خلية من النشاط المرئى والمسموع بعد أن زالت عنها عزلتها التامة .

وصلت إلى الحافة الجبلية مرة أخرى . كان البحر فى لون التركواز واتخذت الجبال اللون الأزرق الرمادى تحت الحرارة الخالية من الرياح. وكان باستطاعتى مشاهدة التاج الأخضر اللامع لأشجار الصنوبر الموجودة حول بورانى . وكان الوقت فى فترة الظهيرة تقريباً عندما خرجت من بين الأشجار ومشيت على حصى البلاچ الذى به الكنيسة الصغيرة. كان المكان مهجوراً . ورحت أتأكد من ذلك . ولكن لم أعثر على أى شىء ولم أشعر بأن هناك من يرقبنى . فسبحت فى الماء . ثم تناولت طعام الغداء . ثم رحت فى سنة من النوم تحت ظل شجرة صنوبر .

وتحركت الشمس وبدأت أشعة الشمس تغمرنى . وتسبب لى التوتر. ففكرت فى آليسون والممارسات السابقة التى تمت معها . وتمنيت لو كانت موجودة إلى جوارى . كنت ممتلئا بحزن جاف وبمزيج من التذكر للماضى وادراك للوضع الراهن . كنت أتذكر الماضى وأشعر بالارتياح لأن أعراض الزهرى لم تظهر مرة أخرى . لم أعرف ما الذى ستسفر عنه حياتى . شعرت بأننى فى حالة من التعطيل المؤقت . كنت فى حالة انتظار ولكنى لم أكن أشعر بأى خوف . وانقلبت على بطنى وتخيلت آليسون بعض الوقت . ثم جريت وألقيت بنفسى فى مياه البحر للاستحمام . ثم تسلقت المدق الممتد بجوار الأسلاك الشائكة والشجيرات القصيرة الكثيفة . ومررت بجوار البوابة ووقفت أمام اللافتة الغامضة باللون الأبيض . كان باستطاعتى مشاهدة النوافذ الفرنسية المفتوحة فى غرفة بالدور الأول تؤدى إلى داخل المنزل . ومن الناحية الشرقية والخلفية من المنزل كانت هناك صفوف من النباتات الشبيهة بالسيوف بالاضافة إلى كتل صغيرة من الشجيرات بها أزهار قرمزية وصفراء . وإلى الأمام فى الاتجاه القبلى واتجاه البحر كانت هناك مساحة من الحصباء الممتدة وبعدئذ تنحدر الأرض فجأة نحو البحر . وعند زاويتى الأرض المغطاة بالحصباء توجد أشجار نخيل محاطة بحلقات من الحجارة البيضاء .

شعرت بضعف الثقة فى نفسى لدى مشاهدتى لهذا المنزل . كان طابعه غير يونانى ومليئا بالوفرة والثراء مثل الثلج السويسرى مما جعلنى أشعر بأننى غريب التصرفات .

صعدت على مجموعة من السلالم الصغيرة إلى الجانب القرميدى . كان

هناك باب مغلق له مطرقة حديدية على شكل دولفين . رحت أطرق على الباب . لكن لم يحضر أحد . وانتظرنا : أنا والمنزل فى صمت زاخر بأصوات الحشرات . ثم مشيت على طول صف الأعمدة إلى ناصية الواجهة القبلية من المنزل وهنالك كان صف الأعمدة أكثر اتساعا وكانت البواكى الرفيعة أكثر انفتاحا . ووقفت فى الظلال الكثيفة ونظرت إلى الخارج عبر قمم الأشجار وعبر البحر إلى الجبال ذات اللون الأرجوانى الفاتح .

كان هناك كرسيان قديمان من الخيزران فى وسط صف الأعمدة بالاضافة إلى منضدة مغطاة بمفرش من النوع المشغول بالتريكو وعلى المنضدة يوجد كأسان وطبقان كبيران عليهما قطعة من القماش القطنى . لاحظت الطابع الثنائى لمنضدة الشاى ووقفت عند الزاوية وقد اعترانى الارتباك وبدأت تجتاحنى رغبة سخيفة فى التراجع . وعندئذ وعلى نحو فجائى ظهر هيكل عند مدخل الباب . لقد كان كونشيس .

(١٣)

أدركت أنه كان هناك . شاهدنى دون أن تبدو الدهشة على وجهه . وظهرت على وجهه ابتسامة باهتة تكاد تكون تكشيرة ألم أو ازدراء .

كان أصلع الرأس وبنى اللون ، قصيرا ونحيلا . رجل من الصعب معرفة عمره : ربما يكون ستين وربما يكون تسعين عاماً . يرتدى قميصا ذا لون أزرق داكن وبنطلونا قصيرا ينتهى عند الركبتين وحذاء رياضيا مبقعا بآثار الملح . وأغرب شيء فيه هو حدة عينيه . ومما يزيد وضوح لون عينيه أن المساحة البيضاء فى عينيه كانت ناصعة البياض للغاية مما جعل عينيه تبدوان كأنهما ليستا من نوع العيون الآدمية تماما .

رفع يده اليسرى لأعلى قليلا فى نوع من التحية الصامتة ، ثم سار نحو صف الأعمدة تاركا إياى مع كلماتى التى كونتها ، ثم احتجزت فى حلقى . ونادى إلى الوراء فى اتجاه الكوخ :

ـ ماريا !

وسمعت إجابة بها عويل خفيف .

وعندما استدار الىَّ بدأت بقولى : اسمى .. رفع يده اليسرى لكى

يسكتنى . وأمسك بذراعى وقادنى إلى حافة صف الأعمدة . كان لديه نوع من السلطة والنفوذ والبت الحازم الفجائى مما جعلنى أفقد توازنى . وألقى نظرة عامة شاملة على المنظر الطبيعى ثم نظر إلىَّ فى تفحص . وتصاعدت الروائح الطيبة التى تشبه الزعفران .

ـ هل أحسنت أنا اختيار هذا المكان ؟

وكان من الواضح أن لغته الانجليزية رصينة وممتازة .

ـ على نحو عظيم للغاية . ولكن يجب أن تسمح لى .. ومرة أخرى امتدت ذراعه البنية اللون التى تشبه الجبال نحو البحر والجبال والجنوب لإسكاتى . كان من الواضح أنه من النوع الذى لا يبتسم الا فيما ندر . وكان هناك شىء ما يشبه القناع فى وجهه . وكانت الأخاديد والتجاعيد تهبط من جوار أنفه إلى زاويتى فمه فأوحى ذلك لى بأنه رجل لديه خبرة فى الحياة . كان مجنونا بعض الشىء ومما لاشك فيه أن جنونه كان من النوع غير الضار . خطر بذهنى أنه ظن أننى شخص آخر . فجأة هز رأسه هزة سريعة خفيفة . ساخرة توحى بأنه لا يتوقع اجابة . ثم تحولت سحنته كأن الذى حدث بيننا مجرد نكتة أو تمثيلية مُثلت وانتهت وفقا لخطة معينة . وفقدت توازنى للغاية مرة أخرى . ابتسم وعاد إلى المنضدة . وقال : فلنتناول الشاى معا .

ـ لقد جئت فقط لكى أتناول كوبا من الماء . وهذا هو ...

ـ لقد جئتَ إلى هنا لكى تقابلنى . لو سمحت . الحياة قصيرة .

فجلست . المكان الثانى كان لى . وظهرت امرأة عجوز ترتدى ثيابا سوداء اللون وكانت تحمل صينية عليها براد شاى مصنوع من الفضة بالاضافة إلى السكرية وطبق به شرائح من الليمون علاوة على غلاى الشاى .

ـ هذه هى مدبرة المنزل .. ماريا .

وتحدث معها بلغة يونانية دقيقة . وسمعت اسمى واسم مدرستى يرد أثناء كلامه . وانحنت المرأة العجوز فى اتجاهى وهى تنظر نحو الأرض دون أن تبتسم . ثم أخذت تفرغ حمولة صينيتها . وقام كونشيس بجذب الشاش بسرعة من فوق أحد الأطباق فى اعتداد بالنفس شبيه بذلك الذى يتمتع به المشعوذ أو الساحر . فشاهدت ساندوتشات محشوة بالخيار . وراح يصب الشاى .

ـ كيف عرفت اسمى يامستر كونشيس ؟

أخذ رشفة من الشاى ثم قال : اذا استفسرت من هيرميز فان زيوس سيعرف .

ـ أخشى أن يكون زميلى قد تصرف فى غير لباقة .

ـ من المؤكد أنك عرفت كل ما يتعلق بى .

ـ لم أعرف سوى القليل للغاية .

فنظر إلى فنجاج الشاى . ثم قال "هناك قصيدة من الشهر هذا هو نصفها : **هنا عند الحدود توجد أوراق متساقطة . رغم أن جميع جيرانى من البرابرة ورغم أنك على مسافة ألف ميل فانه يوجد دائما على منضدتى اثنان من فناجين الشاى**" .

فابتسمت وقلت : دائما ؟

ـ لقد شاهدتك يوم الأحد الماضى .

ـ هل الأشياء التى كانت هناك خاصة بك ؟ فأومأ برأسه . ثم قال : لقد شاهدتك أيضاً بعد ظهر هذا اليوم .

ـ آمل ألا أكون قد حرمتك من الاستمتاع بشاطئك .

ـ لا . على الاطلاق . فشاطئى موجود هنا وأشار بيده إلى الحصباء . وأضاف : ولكننى أحب دائما أن يكون لى شاطىء خاص بى . والآن فلتتناول الشرائح .

وأخذ يصب لى المزيد من الشاى . وفى الطبق الآخر كانت توجد فطائر بالزبد مخروطية الشكل ومغلفة بالسكر . وتناولت قطعة من فطيرة وأومأت برأسى تعبيرا عن إعجابى الشديد بمذاقها .

ـ لست أول شخص انجليزى يبدى اعجابه بالمأكولات التى تعدها ماريا .

ـ ميتفورد ؟ لقد قابلته فى لندن فراح يصب المزيد من الشاى : ما رأيك فى الكابتن ميتفورد ؟ هل تحدث عنى ؟.

لا . كل ما قاله .. هو أنك كانت لديك .. وجهة نظر مختلفة .

ـ لقد جعلنى الكابتن ميتفورد أشعر بالخجل من دمائى الانجليزية .

وحتى تلك الآونة كنت قد شعرت بأننى قد بدأت أتعرف على مواصفاته . أولا وقبل كل شىء فإن لغته الانجليزية رغم أنها ممتازة الا أنها على نحو ما

لم تكن لغة معاصرة . فهى أقرب إلى لغة شخص ما لم يذهب إلى انجلترا منذ سنوات عديدة . وثانيا كان مظهره بأكمله أجنبيا . وكان به تشابه عجيب مع بيكاسو .

ـ لم أكن اعرف أنك كنت انجليزيا .

ـ لقد أمضيت ١٥ عاما من حياتى فى انجلترا . والآن لدى الجنسية اليونانية ولدى اسم والدتى اليونانية .

ثم غير موضوع الحديث بسرعة : اذ قال :

ـ أيعجبك منزلى ؟. لقد أعددت بنفسى تصميماته . كما قمت ببنائه بنفسى .

فنظرت فيما حولى وقلت : إننى احسدك .

"وأنا أيضا أحسدك . فأنت لديك الشىء الوحيد الذى له أهمية . فجميع استكشافاتك موجودة أمامك . حسنا . الآن سوف أتركك لدقائق قليلة . وبعدئذ سنلقى نظرة على هذا المكان معا . عليك بتناول هذه الكمية من الفطائر لو سمحت . فهذا سيكون تكريماً لماريا .

وسار تحت ضوء الشمس عند حافة صف الأعمدة ومد ذراعيه وأصابعه وأشار لى بحركة أخرى لكى أتناول الطعام ثم اتجه إلى داخل الغرفة . كان باستطاعتى مشاهدة أحد طرفى أريكة ومنضدة عليها زهرية مليئة بأزهار لبنية اللون ، توقفت عن تناول الطعام ، سائلا نفسى فى تعجب : ترى ماهى المفاجأة الجديدة التى ستقدم لى ؟.

وكانت هناك لحظات من الصمت . ربما لترك المجال لى للتخمين . وبعدئذ ترامى الصوت الحزين الهادىء للبيانو . ترددت ثم قررت أنه يمكن لاثنين أن يعزفا لعبة الاستقلال . كان يعزف بسرعة ثم فى بطء وتوقف مرة أو مرتين لكى يعيد جملة . وجاءت العجوز وأخذت بقايا الطعام والشراب فى صمت دون أن تنظر الىَّ حتى عندما امتدحت الفطائر بلغتى اليونانية المليئة بالتكلف والرسميات . كان من الواضح أن صاحب البيت يفضل الخادمات الصامتات . انسابت الموسيقى فى وضوح من الغرفة . ثم راح يكرر مقطوعة ثم توقف فجأة مثلما بدأ .

شعرت بأنه كان ينبغى علىَّ أن أبدأ بزيارته فى وقت مبكر عن ذلك بعض الشىء . لأننى بذلك تسببت فى مضايقته . ولكنه ظهر قادما من المدخل

وقال :
ـ أرجو ألا أكون قد ازعجتك بتركى لك وحيداً .
ـ لا ، أنت تجيد العزف تماما .
ـ ذات يوم كان بمقدورى أن أعزف جيدا . لا بأس . هيا بنا . سيريك بروسبيرتو ممتلكاته من الأرض . وبينما كنا نهبط على السلالم إلى الحصى قلت :
ـ بروسبيرتو كانت له بنت ، بروسبيرتو كانت لديه أشياء كثيرة : وهى ليست كلها صغيرة وجميلة يامستر أورفى .

فابتسمت في لباقة معتقدا أنه يشير بالتأكيد إلى ذكريات عن الحرب ولذت بالصمت للحظات قليلة .
ـ أتعيش بمفردك هنا ؟
يعتقد البعض أننى أعيش بمفردى . والبعض الآخر لا يعتقد ذلك .

قال ذلك فى نوع من الاحتقار الملىء بالاشمئزاز ، واستمر فى المشى مسرعا . مع الاستمرار فى الشرح والتعليق على الأشياء ، وأرانى حديقة الخضراوات الصغيرة . والمساحات المزروعة بالخيار واللوز وشجرات ورد البشملة ذات الأوراق الطويلة وأشجار الفستق ومن عند الحافة البعيدة لهذه الحديقة كان باستطاعتى أن أشاهد المكان الذى كنت مستلقيا فيه منذ ساعة أو ساعتين :
ـ موستا
ـ لم أسمع أحدا يطلق عليها ذلك الاسم من قبل .

فطرق على أنفه وقال : "ألبانية" وأضاف : الأنف . بسبب تلك الصخرة الموجودة هنالك .
ـ هذه التسمية ليست شعرية ولا تتناسب مع مثل هذا البلاج الجميل .
ـ الألبانيون كانوا قراصنة ولم يكونوا شعراء . ولقد أطلقوا على هذا الرأس اسم بورانى .

وبينما كنت أسير وراءه قلت : لقد تعجبت من اللافتة الموجودة عند البوابة . والتى كتب عليها غرفة الانتظار .
ـ لقد وضع الجنود الألمان تلك اللافتة هنالك ولقد صادروا بورانى أثناء الحرب .

ـ لكن لماذا فعلوا ذلك ؟

ـ أعتقد أنهم كانوا متمركزين فى فرنسا . ولقد اكتشفوا أنه من الغباء أن يقيموا حامية عسكرية يتمركزون بها هنا فى هذا المكان . كان هذا هو ما حدث على وجه الدقة . ويجب علىَّ أن أشكر الألمان على هذه الدعابة من جانبهم . وكان ينبغى علىَّ أن أرحب بعدم تدمير مثل هذه النباتات النادرة .

ـ أتعرف اللغة الألمانية ؟

ـ من المستحيل معرفة اللغة الألمانية . ولكن من الممكن للمرء أن يتحملها . أنا أحكم على البلاد من خلال مميزاتها الخاصة . كان بمقدور الاغريق القدامى أن يضحكوا على أنفسهم . أما الرومان فلم يكن بمقدورهم أن يفعلوا ذلك . وذلك هو السبب فى أن فرنسا مجتمع متحضر بينما أسبانيا ليست كذلك . وذلك هو السبب فى أننى أغفر لليهود وللانجلو/ سكسون رذائلهم وعيوبهم التى لا حصر لها وهذا هو السبب أيضا فى أنه ينبغى علىَّ أن أشكر الله لأنه لا تجرى فى عروقى دماء ألمانية .

ووصلنا إلى تعريشة ظليلة تقع فى نهاية أرض الحديقة . أشار الى تمثال مرعب وسأل :

ـ أتعرف ما هذا ؟

ـ أهو بان Pan (اله الغابات عند الاغريق) ؟

ـ انه بريابوس (آله الانجاب) . وفى العهود القديمة كان لكل حديقة وكل بستان تمثال من هذا النوع . بهدف تخويف اللصوص علاوة على جلب الخصوبة وينبغى أن يصنع من خشب أشجار الكمثرى .

عدنا فى اتجاه المنزل . وكان هناك ممر ضيق متعرج يمتد فى انحدار من أمام صف الأعمدة متجها إلى الشاطىء . وكان هنالك كهف صغير عند الشاطىء . وكان قد أنشأ مرسى علاوة على قارب مزود بموتور . وكان القارب مربوطا فى المرسى . وعند أحد طرفى البلاچ كان باستطاعتى مشاهدة كهف صغير وبراميل كيروسين . وكانت هناك مضخة صغيرة مع وجود أنابيب صاعدة إلى الصخرة .

تساءلت :

"كيف جئت إلى هنا لأول مرة يامستر كونشيس" ؟

ـ هل ستغفر لى اذا طلبت منك ألا توجه أسئلة الىَّ ؟

ـ بالطبع .

والتزمت بذلك . وأقفلت فمى . لو كان هناك شخص آخر موجود معنا لكنت قد اضطررت للانفجار فى الضحك .

وبدأت الظلال تسقط عبر المياه قادمة من أشجار الصنوبر . وكان هناك هدوء شديد . فالحشرات فى حالة خمود واستكانة والمياه هادئة مثل المرآة . وقد وضع يديه على ركبتيه ،كان من الواضح انه منهمك فى تأدية تمرينات التنفس العميق . من الناحية الظاهرية كان يبدو عليه انه لا يشعر نحوى سوى بقدر ضئيل من الاهتمام ومع ذلك كان يرقبنى أثناء الاستدارة بوجهه بعيداً عنى . وجلسنا هنالك معا فى صمت كما لو كنا نعرف جيدا بعضنا البعض ومن ثم فلا حاجة لنا لأن نتجاذب أطراف الحديث . وبدأ هذا الصمت من جانبنا أنه يتلاءم مع الجو الهادىء فى ذلك اليوم . كان صمتا غير طبيعى ولكنه يخلو من الارتباك .

تحرك فجأة . ورفرفت عيناه نحو قمة الصخرة الموجودة إلى يسارنا . فنظرت فيما حولى . لم يكن هناك أى شىء .

فنظرت اليه : رحت أرقب بروفيل وجهه . حاولت أن أجره إلى الكلام معى مرة أخرى : أعتقد أنك تقابلت مع كلا الشخصين السابقين علىَّ ليڤاريير ؟

ـ من أخبرك بذلك ؟

ولسبب ما كان خائفا مما قد يكون قد قاله عنه من وراء ظهره . فتكلمت عن قصاصة الورق التى كانت تضم بعض الملاحظات وعندئذ شعر بالارتياح وقال : لم يكن سعيدا هنا . فى فراكسوس .

ـ وهذا هو ما قاله لى ميتفورد . وظهرت عليه الحملقة المليئة بالاتهام مرة أخرى وقال : ميتفورد ؟

ـ أظن أنه قد سمع بعض الاشاعات فى المدرسة فراح يتفحص عينى ثم أومأ برأسه ولكن بدون أن يظهر عليه اقتناع كامل . فابتسمت له ورد علىَّ بابتسامة خفيفة . كنا نلعب لعبة شطرنج غامضة . وخيل إلىَّ أننى فى موقف أفضل ولكنى لم أعرف السبب فى ذلك .

ومن المنزل غير المرئى الموجود لأعلى جاء صوت الجرس . دق ثلاث مرات . كان من الواضح أن ذلك له معنى معين . وعبر عن حالة التوتر الغريبة التى تسود المكان وصاحبه على ما يبدو والتى تعارضت تماما مع

السلام الهائل سرعان ما وقف كونشيس وقال : ينبغى أن أذهب . وأنت أمامك مشى طويل وعند منتصف المسافة إلى الصخرة العالية حيث يتسع الممر المنحدر كان هناك مقعد صغير من الحديد المطاوع . فجلس عليه كونشيس ليرتاح بعض الشيء وكانت أنفاسه لاهثة وكذلك أنفاسى . وراح يطرق بخفة على قلبه . وتظاهرت بالاهتمام بحالته ولكنه هز كتفيه فى لامبالاة .

جلسنا فى صمت واسترد كل منا أنفاسه . وشاهدت السماء الضاربة إلى اللون الأصفر من خلال أشجار الصنوبر الرقيقة . وكانت السماء فى جهة الغرب . ضبابية وغائمة . وكان هناك القليل من سحب السماء متجعدة لأعلى فى السماء فوق صمت العالم .

مرة أخرى تساءلت فى هدوء : هل تشعر أنك مختار بمعرفة أى شيء ؟

- مختار ؟

- لقد شعر جون ليفاريير بأنه مختار . وأن الله هو الذى اختاره .

- إننى غير مؤمن . ولا أشعر بأننى مختار .

- أعتقد أنك ربما تكون مختارا . فابتسمت فى نوع من الشك وقلت : شكراً .

- ليس هذا مدحا . فالمصادفة تجعلك مختارا . فأنت لا تستطيع أن تختار نفسك .

- وما الذى يختارنى ؟

- المصادفة تتقمص وجوها عديدة .

عندئذ نهض واقفا رغم أن يده استقرت للحظات على كتفى كما لو كان يريد أن يعيد الطمأنينة الىَّ . أو يريد أن يقول إن ذلك ليست له أهمية . وصعدنا على الجزء المتبقى من التل . وأخيرا وصلنا إلى الحصباء الموجودة بجوار صف الأعمدة . وهنا توقف . كان وجهه المتجهم خاليا من روح الفكاهة والمزاح وقال : أطلب منك شيئن . الشىء الأول هو ألا تخبر أى شخص هنالك بأنك قابلتنى . وهذا سببه أحداث معينة حدثت أثناء الحرب .

لقد سمعت هذه القصة ؟

- توجد هناك روايتان لهذه القصة . ولكن لا داعى للتطرق إلى هذا الموضوع الآن . أنا بالنسبة لهم إنسان انطوائى ومنعزل عن العالم . ولا يقابلنى أى شخص أبداً . أتفهمنى ؟

- بالطبع . لن أخبر أى شخص أننى قابلتك .

وكنت أدرك أن المطلب الثانى الذى يريده هو أن أمتنع عن زيارته مرة أخرى . ولكنه قال : أما الشىء الثانى الذى أطلبه منك هو أن تجىء إلىَّ هنا فى عطلة نهاية الأسبوع التالى . وتمكث عندى يومى السبت والأحد . هذا اذا كنت على استعداد للاستيقاظ من النوم مبكراً للغابة فى صباح يوم الاثنين .

ـ شكرا جزيلا لك . إننى أرحب بذلك .
ـ أعتقد أن لدينا أشياء كثيرة ينبغى علينا اكتشافها .
ـ لن نتوقف عن أعمال الاستكشاف ؟
ـ قرأت تلك العبارة فى الكتاب الذى كان على الشاطىء ؟
ـ ألم تتركه لى لكى أقرأه ؟
ـ وكيف لى أن أعرف أنك كنت ستجىء ؟
ـ كان لدى احساس بأن هناك شخصا ما يرقبنى ونظر إلىَّ نظرات ثاقبة بعينيه ذات اللون البنى الغامق . وصمت للحظات طويلة قبل أن يجيب . ولم تظهر على وجهه سوى مسحة من ابتسامة باهتة :

أتشعر الآن أن هناك من يرقبك ؟

ومرة أخرى رفرفرت عيناه إلى ماوراء كتفى كما لو كان يشاهد شيئا ما فى داخل الأشجار . فنظرت فيما حولى . لم يكن هناك شىء بين أشجار الصنوبر . فنظرت اليه . أهى نكتة ؟ كان لا يزال يبتسم ابتسامة جافة باهتة .

"أهناك من يرقبنى" ؟

كنت أتساءل فقط يامستر أورفى اذا لم تستطع الحضور أترك رسالة فى سرانتوبولوس من أجل هيرميز . ولسوف تصلنى الرسالة فى اليوم التالى .

وصافحت يده . وانحنيت تحية له . وشكرته على تقديم الشاى . فرد علىَّ بانحناءة خفيفة جافة . وشققت طريقى خارجا .

وبعد خمسين ياردة نظرت إلى الوراء . كان لا يزال واقفا هناك . مثل الملك فى مملكته . ولوحت بيدى فرفع ذراعيه محييا وقد تقدمت احدى قدميه قليلا عن القدم الأخرى كما لو كان ذلك بمثابة نوع ما من أنواع منح البركات البدائية . وعندما نظرت إلى الوراء مرة أخرى قبل أن يختفى المنزل نهائيا وراء الأشجار أدركت أنه اختفى ودخل منزله .

لم يكن شبيها بأى إنسان آخر شاهدته فى حياتى . كان به شىء ما أكثر من مجرد مشاعر الوحدة . أكثر من مجرد الخيال الجامح للشيخوخة الذى يحترق فى عينيه الذاهلتين وفى تلك المحادثات التى تمت معه وفى نظراته الفجائية الملتوية إلى لا شىء . ولكننى بالتأكيد لم أكن أتصور لدى دخولى بين الأشجار أننى سأحصل على اجابة واضحة عقب المشى لمسافة مائة ياردة أخرى بين الأشجار .

(١٤)

قبل أن أصل إلى البوابة التى تقع خارج بورانى . شاهدت شيئا ما يميل إلى اللون الأبيض ملقى فى الفجوة . فى بادىء الأمر ظننت أنه منديل ولكننى عندما انحنيت لألتقطه أدركت أنه قفاز شاحب . وفى داخل المعصم يوجد تكيت عليه كلمات : صانع القفاز . رحت أتشمم رائحة القفاز واكتشفت أنها نفس الرائحة التى كانت موجودة بالفوطة فى الأسبوع الماضى . الآن بدأت أدرك السبب فى أنه لا يرغب فى الزيارات غير المتوقعة أو الزيارات التى تتم بدون موعد مسبق كما لا يرغبون فى الاشاعات . ولم أستطع أن أتخيل السبب الذى دعاه لأن يخاطر بافشاء سره لى فى خلال الاسبوع التالى على ما يبدو ولم أستطع أن أتخيل من تلك الفتاة . قد تكون سيدة أو ابنة أو زوجة أو أختا . أو ربما مختلة عقليا . وخطر على ذهنى أنها أنسانة ما سُمح لها بالخروج إلى أراضى بورانى وإلى أسفل حتى موتسا بشرط أن تلتزم باخفاء نفسها . وربما تكون قد شاهدتنى فى الأسبوع الماضى . وفى هذه المرة سمعت عن مجيئى وحاولت أن تلقى نظرة خاطفة علىَّ . لقد كان يدرك أنها "موجود بالخارج" وهذا يقدم تعليلا للمقعد الثانى الشاغر عند منضدة الشاى ويفسر أيضا دقات الجرس الغامضة .

استدرت فيما حولى متوقعا إلى حد ما سماع ضحكات مكتومة أو ضحكات بلهاء بعض الشىء . وبعدئذ وبينما كنت أنظر إلى الشجيرات القصيرة القريبة من البوابة وأتذكر الاشارة إلى بروسبيرتو فى شىء من الاشمئزاز هبط على ذهنى تفسير ملىء بالمزيد من الشرور . انه ليس الخلل العقلى وانما هو نوع من التشويه المريع للوجه "وهى ليست كلها صغيرة وجميلة يامستر أورفى" . شعرت لأول مرة فى هذه الجزيرة برعشة برد ناجمة عن الخوف من هذا المكان الموحش .

كانت الشمس منخفضة . علقت القفاز بالقرب من منتصف عمود البوابة وانطلقت بسرعة وقد خطر على ذهنى أن كونشيس ربما يكون شخصا من النوع الذى يجد متعة فى ارتداء ملابس النساء . وبعد قليل بدأت لأول مرة منذ شهور أشدو بالغناء .

لم أطلع أى شخص على زيارتى لكونشيس . ولكننى قضيت ساعات عديدة فى التفكير فى ذلك الشخص الغامض الثالث الموجود بالمنزل . وخيل الىَّ أن أكثر الاحتمالات هو وجود زوجة متخلفة عقليا . وهذا يفسر طابع العزلة والانعزال والخدم الملتزمين بالصمت . حاولت أن أكوّن فكرة ذهنية عن كونشيس أيضاً . ان حركاته توحى بأنه يريد أن يبدو أصغر سناً . وما الذى كان يقصده بقوله أنه يتم اختيارى . أو قوله أن لدينا أشياء كثيرة ينبغى استكشافها ؟ هذا الكلام قد لا يكون له سوى معنى واحد ألا وهو أنه رجل مجنون .

وعثرت على خريطة للجزيرة بمقياس رسم كبير فى مكتبة المدرسة . وعلى الخريطة علامة توضح حدود منطقة بورانى . وأدركت أنها أكبر حجما مما كنت أتوقع . وفكرت فيها مرات عديدة وجلست على قمة نتوئها الجبلى الداخل فى مياه البحر . أثناء الساعات المرهقة التى أقضيها فى الكفاح مع كتاب "المنهج الانجليزى" وكنت أستمتع بحصص المحادثة .

كنت أنظر من النافذة إلى السماء الزرقاء وأشجار السرو والبحر وأدعو الله أن ينتهى اليوم حتى يمكننى الذهاب إلى جناح المدرسين لأستلقى على سريرى . كانت بورانى تبدو لى بعيدة للغاية فأسرارها لم تعد سوى نكهة مضافة أو مخاطرة مضافة إلى المتعة الحضارية المرتقبة منها .

(١٥)

فى هذه المرة كان منتظرا اياى عند المنضدة . ووضعت حقيبتى إلى جوار الحائط ونادى كونشيس على ماريا لكى تحضر الشاى . كانت تصرفاته فى هذه المرة أقل غرابة ربما لأنه قرر أن ينتزع منى كافة المعلومات . تحدثنا عن المدرسة وأكسفورد ، وعائلتى وتدريس الانجليزية للأجانب وعن الأسباب التى دعتنى للمجىء إلى اليونان . ورغم أنه كان يداوم على توجيه الأسئلة الىَّ إلا أننى كنت أشعر بأنه لا يهتم اهتماما

حقيقيا بالكلام الذى أقوله . اذ كان يهمه شىء آخر : بعض الأعراض المتزامنة التى قد تظهر علىَّ . أو الفئة التى أنتمى اليها . لم أكن فى حد ذاتى مثيرا لاهتماماته وانما أنا من حيث إننى نموذج فقط . حاولت مرة أو مرتين أن أعكس أدوارنا ولكنه أوضح لى أنه لا يرغب فى التحدث عن نفسه . فلم أتحدث معه عن موضوع القفاز .

أجلسنى فى كرسى فوتى . ثم بدأ يعزف بعض المقطوعات القصيرة ثم بعض الألحان الراقصة ولم تعجبنى كثيراً ولكنه كان يعزف فى شىء من التمكن والأستاذية . ثم توقف فجأة أثناء العزف وكأن الضوء الكهربائى قد انقطع . وظهر عليه الغرور مرة أخرى .

أومأت برأسى نحو لوحة لرسام موديليانى وذهبنا ووقفنا أمام اللوحة وأضاف قائلاً : أمى .

وللوهلة الأولى ظننت أنه يمزح .

ـ أمك ؟

"من حيث الاسم ومن حيث الحقيقة الواقعة فهى أمه . ولقد كانت دائماً أمه" ، فنظرت إلى عينى المرأة . لم يكن بهما الشحوب المعتاد الموجود فى عينى موديليانى . كانت عيناها تحملقان وترقبان مثل عينى قرد . نظرت إلى الوجه المدهون بالطلاء . فأدركت أننى لم أكن أنظر إلى لوحة هى نسخة طبق الأصل من لوحة أصلية :

ياالهى . من المؤكد أنها غالية الثمن للغاية . بمثابة ثروة .

فقال بدون أن ينظر إلىَّ "لا شك فى ذلك يجب ألا تعتقد أننى فقير لأننى أعيش هنا عيشة بسيطة . فأنا بالغ الثراء . ولم أدفع أى نقود ثمناً لها . وكان ذلك بمثابة صدقة لوجه الله . وكنت أود أن أقول إننى اعترفت بعبقريته ولكننى لم أقل ذلك .

ـ أكنت تعرفه ؟

ـ موديليانى ؟ لقد تقابلت معه . مرات عديدة . وكنت أعرف صديقه ماكس جاكوب . وتلك كانت هى المرحلة الأخيرة من حياته . كان قد أصبح مشهورا فى ذلك الوقت .

ونظرت خلسة الى كونشيس لدى حملقته لأعلى نحو اللوحة . لقد اكتسب من خلال التعلق بأهداب النواحى الثقافية بعدا جديدا تماما ألا وهو

الشعور بالاحترام نحوى . بدأت أحس أننى لم أعد واثقا تماما من شذوذه العقلى وزيفه وغرابة أطواره . كما بدأت أشعر بتفوقى فى المسائل التى تمس جوهر الحياة .

ـ من المؤكد أنك تتمنى لو كنت قد اشتريت المزيد من اللوحات .

ـ لقد اشتريت لوحات أخرى بالفعل . فالإنسان المفلس هو الذى يبيع لوحاته الفنية الجميلة . وباقى لوحاتى موجودة فى منازلى الأخرى .

ـ وأين هى .. منازلك الأخرى ؟

هل يعجبك هذا ؟ (ولمس تمثالا لشاب من البرونز تحت لوحة موديليانى) . هذا ماكيت قام المثال رودان بصنعه . أما بالنسبة لمنازلى الأخرى . فهى موجودة فى فرنسا وأمريكا ولبنان ولدى مصالح مالية تجارية فى جميع أرجاء العالم .

ـ وماذا عن اللصوص ؟

لو كان لديك العديد من اللوحات الغالية الثمن كما هو الحال بالنسبة لى ـ ولسوف أريك المزيد من اللوحات الموجودة فى الدور الثانى فيما بعد ـ فانك ستتوصل إلى رأى أو قرار . بمعنى أنك إما أن تتعامل مع هذه اللوحات على أساس أنها مجرد قطع من قماش القنب المدهون بالطلاء وإما أن تنظر اليها على أساس أنها كتل من الذهب الخالص فتضع الحواجز الحديدية على نوافذك وتظل مستيقظا فى قلق طوال الليل . "اذا أردت أن تسرق هذه الأشياء فإننى سأبلغ الشرطة . ولكنك قد تنجح فى سرقتها والهرب بها . والشىء الوحيد الذى تنجح فيه هو أن تبث القلق والحزن فى نفسى . كما أن الجزر اليونانية لا يوجد بها لصوص . ولكنى مع ذلك لا أحب أن يعرف الناس أن لدى هذه اللوحات هنا .

ـ بالطبع .

ـ حسنا . والآن أتركك لبعض الوقت لكى تأخذ حريتك . وأنا سأقوم بانجاز بعض الرسائل والمكاتبات الخاصة بى . وغرفتك موجودة بالدور العلوى .. إذا أردت أن تصعد اليها لكى تستجم .

وانصرف . ورحت أحملق مرة أخرى فى لوحة موديليانى وأملس على تمثال رودان وأتفحص الغرفة . وشعرت كأننى إنسان قد طرق على باب كوخ ثم وجد نفسه فجأة موجوداً فى قصر . وخرجت من الحجرة إلى صف

الأعمدة . وبعد برهة قمت بعمل شيء ما آخر لم أقم به على مدى شهور عديدة : بدأت أكتب مسودة لقصيدة .

من هذه الصخرة التى تشبه الجمجمة تلقى الجذور
الذهبية الغريبة بالأيقونات والأحداث المهمة
الرجل المتنكر تحت القناع يحدث تأثيرا عليَّ
اننى الأبله الذى يتداعى ولا يتعلم أبداً
كيف ينتظر ويراقب الموقف ايكاروس
ملعون أبد الدهر

واقترح عليَّ أن نلقى نظرة على باقى المنزل . وكان هناك باب يؤدى إلى صالة خالية من الأثاث . وكانت هناك حجرة للطعام وقال عنها إنه لم يستخدمها على الاطلاق وكانت هذه الحجرة تقع على الجانب البحرى من المنزل . وكانت هناك غرفة أخرى تشبه دكانا قديما لبيع الكتب : فوضى من الكتب - أرفف مليئة بالكتب وزكائب مليئة بالكتب وأكوام من المجلات والجرائد بالاضافة إلى طرد جديد لم يفتح بعد وقد وضع على مكتب بجوار النافدة . التفت نحوى . وقال :

- اننى مهتمٍ بعلم الأنثروبولوجيا . أتسمح لى بأن أقيس جمجمتك ؟ (وافترض جدلاً أننى موافق على ذلك فأحنيت رأسى . وضغط بيده فى قوة على جمجمتى) . هل تحب قراءة الكتب ؟

وبدا عليه كأنه نسى - ولكن من المحتمل ألا يكون قد نسى - إننى درست اللغة الانجليزية فى جامعة أكسفورد : بالطبع .

- ماهى الكتب التى تقرؤها ؟

- أوه .. أقرأ أساسا القصص والروايات . ثم الشعر والنقد الأدبى .

- الرواية لم تعد بمثابة قالب فنى .

- كان هذا الكلام بمثابة نكتة عندما كنت طالبا فى اكسفورد . فاذا كنت لا تعرف ما تقوله أثناء وجودك مع أناس آخرين فى حفلة من الحفلات فانك تسأل سؤالا كهذا .

- مثل ماذا ؟

- مثل "هل تعتقد أن القالب الروائى قد استنفد من حيث هو قالب فنى ؟ وعندئذ لا تتوقع أن تسمع إجابة جادة .

- أدرك ذلك . لم يكن السؤال جادا .

ـ كانت غرفة نومه تكاد تشغل كافة الواجهة المطلة على البحر من المنزل . ولاحظت وجود سرير كبير مزدوج علاوة على وجود دولاب كبير للملابس . كان هناك باب مغلق يؤدى إلى غرفة أخرى أصغر حجما ، وربما تكون غرفة لارتداء الملابس . وبالقرب من ذلك الباب توجد منضدة غريبة الشكل قد رُفع غطاؤها .

وفى ركن بعيد توجد مقصورة مثلثة الشكل وكانت أضواء المساء تغمرها وبدت مألوفة أكثر من الغرفة التى تحتها خاصة أنها خالية من الكتب .

الا أن طابعها المميز يرجع إلى وجود لوحتين زيتيتين من الصور العارية : فتيات فى ملابس داخلية ومضاءة بنور الشمس بألوان قرمزية وحمراء وخضراء وعسلى والأضواء مشعة والدفء منتشر ومتوهج مثل نيران صفراء مليئة بالطابع الحياتى والإنسانى والمنزلى والجنسى وطابع حوض البحر الأبيض المتوسط .

ـ أتعرف الفنان الذى رسم هاتين اللوحتين ؟ انه بونار . لقد رسمهما قبل وفاته بخمس أو ست سنوات . ولقد دفعت نقودا كثمن لهاتين اللوحتين .

ـ انهما تستحقان الشراء .

ـ ضوء الشمس . وفتاة عارية . وكرسى . وفوطة . وأرضية من القرميد الأحمر . وكلب صغير . مع اعطاء المعنى لكل ماهو موجود .

حملقت فى اللوحة الموجودة إلى اليسار وليس إلى اللوحة التى قام بجرد محتوياتها . كانت تعبر عن فتاة موجودة عند نافذة مضاءة بنور الشمس وقد أدارت ظهرها حيث كانت تجفف فرجها على ما يبدو وترقب شكلها فى المرآة فى نفس الوقت . وعندئذ تذكرت أليسون وهى تتجول عارية فى أرجاء الشقة وتتغنى بالألحان وكأنها طفلة . كانت لوحة لا يمكن للمرء نسيانها .

تحرك كونشيس فى اتجاه الفراندة فسرت وراءه . وإلى جهة الغرب من النافذتين الفرنسيتين توجد لوحة فوتوغرافية بها زهرية مليئة بالأزهار كما لو كانت قد أعدت قبل التقاط صورة فوتوغرافية بجوارها .

كانت صورة كبيرة ذات إطار فضى من طراز قديم . وبجوار الزهرية تقف فتاة : شاهدنى كونشيس وأنا أطيل النظر إلى اللوحة : هذه الفتاة . كانت خطيبتى فى يوم ما .

فنظرت إلى اللوحة مرة أخرى . كان اسم المصور مكتوبا بلون فضى عند أسفل الركن ـ وعنوانه فى لندن :

ـ ألم تتزوجها ؟
ـ لقد ماتت .
ـ شكلها يوحى بأنها انجليزية .
ـ لقد كانت انجليزية .

ظل يحملق لأسفل نحو الصورة وهز رأسه في بطء .
ـ تعال .

نظرنا فوق أعالى قمم الأشجار إلى المنظر الرائع ، وإلى قبة الضوء الشاسعة الممتدة فوق الأرض والبحر . وكانت جبال البلوبونيسوس قد اتخذت اللون الأزرق الصارخ . وكان كوكب الزهرة معلقا فى السماء الزرقاء الباهتة مثل مصباح أبيض اللون . جلس فى مواجهة الحاجز معطيا ظهره للمنظر الطبيعى .

ـ وماذا عنك ؟ هل أنت فى فترة خطوبة ؟

من المؤكد أنك تجد الحياة هنا موحشة للغاية .
ـ حسنا . كانت هناك فتاة ولكن ...
ـ ولكن ؟
ـ لا أستطيع توضيح الأمور .
ـ هل هى انجليزية ؟
ـ هل لى أن أطلب منك ما طلبته منى فى الاسبوع الماضى ؟ لا أسئلة ؟

عندئذ جلسنا فى صمت . نفس الصمت الغريب الذى فرضه على الشاطىء فى يوم السبت الماضى . وأخيرا استدار تجاه البحر وتكلم مرة أخرى . "اليونان مثل المرآة . انها تجعلك تقاسى وتعانى . وبعدئذ تتعلم أن تعيش ما انت عليه .

وعدنا إلى داخل المنزل . كانت هناك ثلاث حجرات أخرى فى الجهة

البحرية بالدور الأول وسمح لى بإلقاء نظرة سريعة على واحدة من الغرف . كانت غرفة مخصصة لتخزين الأشياء القديمة بها . وشاهدت بها صناديق وأقفاصا وبعض الأثاث المغطى لحمايته من التراب . وكان هناك حمام وبجواره توجد غرفة للنوم صغيرة . وكان السرير بها مرتبا وشاهدت حقيبتى فوق السرير . وتوقعت أن تكون هناك غرفة مغلقة بالمفتاح . انها غرفة المرأة ذات القفاز . ربما تسكن فى الكوخ وربما كانت تسكن فى نفس هذه الغرفة التى خصصت لى .

ناولنى كتيب القرن السابع عشر الذى كنت قد تركته على منضدة ، سألنى :

- هل سمعت بعض الأشياء غير المستحبة عنى ؟
- لم أسمع سوى قصة واحدة عنك . وهى قصة فى صالحك إلى حد كبير .
- قصة الاعدام ؟
- أخبرتك بذلك فى الأسبوع الماضى .
- لدى احساس بأنك سمعت شيئا ما آخر . فهل سمعت شيئا من الكابتن ميتفورد ؟
- لا شىء على الاطلاق . أؤكد لك .

كان واقفا عند فتحة الباب وكان يناولنى أهم الكتب لديه . وبدا عليه أنه يستجمع قواه لكى يتخذ قرارا بشأن إماطة اللثام عن السر الغامض ثم تكلم .

- اننى وسيط روحانى .
- لماذا قلت لى ذلك ؟

فاستدار نحو منضدة صغيرة بجوار الباب وأشعل عود كبريت لكى يشعل مصباحاً زيتيا . وراح يعدل من وضع المصباح فى حرص تاركا إياى فى انتظار الاجابة . وأخيرا ابتسم وقال :

- لأننى وسيط روحانى . وسار فى الممر إلى حجرته .

وأغلق بابه ثم تفجر الصمت فى أرجاء المنزل مرة أخرى .

(١٦)

كان السرير من الحديد الرخيص . فى غرفة لا يمكن أن يتخيل المرء

أنها الغرفة الاحتياطية فى منزل مليونير . كانت الحوائط عارية باستثناء صورة فوتوغرافية لرجال قرويين واقفين أمام منزل ، انه منزل كونشيس . وتبينت كونشيس الصغير فى السن يقف وسط القرويين مرتديا قبعة من القش وشورتا وهناك امرأة واحدة فى الصورة . فلاحة ولكنها ليست ماريا لأنها بدت فى الصورة فى نفس سن ماريا ، من الواضح أن تاريخ الصورة يرجع إلى ثلاثين عاما . رفعت لمبة الزيت لأعلى وقلبت الصورة لكى أشاهد ما اذا كانت هناك أية كتابات على ظهرها . لم يكن هناك سوى برص ملتصق بالحائط يرقبنى بعينين معتمتين .

وعلى المنضدة توجد صدفة مفلطحة تستخدم كطفاية للسجائر وثلاثة كتب : مجموعة قصص أشباح وانجيل قديم ومجلد كبير غير سميك عنوانه "مفاتن الطبيعة" . ويدعى مؤلف قصص الأشباح أنها حقيقة وصادقة . ولقد تثبت من صحتها اثنان على الأقل من شهود العيان الموثوق فيهم .

فتحت كتاب "مفاتن الطبيعة" . الطبيعة بالغة الأنوثة والمفاتن متركزة فى الصدر . هناك لقطات للصدور من جميع الزوايا . مع تكبير الصور تدريجيا إلى أن تصبح الصورة النهائية ليست سوى ثدى فقط مع وجود حلمة قاتمة وأكبر فى الحجم من المعتاد . وكانت تتسم بالمبالغة الشديدة لدرجة أنها بدت غير جنسية .

التقطت المصباح الزيتى وذهبت إلى الحمَّام . كان مجهزا تماما وبه صندوق للأدوية . رحت أبحث عن أية دلائل تدل على استخدام امرأة لهذا المكان ولكننى لم أجد أى شيء . كانت هناك مياه جارية ولكنها باردة ومالحة . ولا تصلح الا للرجال فقط .

عدت إلى الغرفة واستلقيت على السرير . كانت السماء زرقاء من خلال النافذة المفتوحة . سمعت أصواتا خفيفة مترامية من الكوخ الموجود أسفل نافذتى وتمكنت من شم رائحة طهو الطعام . كان الصمت الهائل يطبق على المنزل . لقد سبب لى كونشيس الحيرة والارتباك الآخذ فى التزايد . فهو يبدو أحيانا عقائديا إلى الحد الذى يجعلنى أشعر بالرغبة فى الضحك وفى بعض الأحيان الأخرى يحدث تأثيرا شديداً علىَّ - على الرغم منى — ليس فقط لانه رجل غنى يمتلك لوحات فنية لا تقدر بثمن فى داخل منزله . وهاهو أخيراً قد حاول أن يبث الرعب فى قلبى . ذلك النوع من الخوف غير

المنطقى الذى يجعلنى أشخر فى سخرية . عندما يتعرض له الآخرون . ولكننى كنت أشعر طوال الوقت بأننى لم توجه الىَّ الدعوة بدافع من كرم الضيافة ولكن من أجل سبب ما آخر .

كان هناك شىء ما عجيب للغاية يرفرف فى الجو . "هل تم اختيارك ؟" .. "أنا وسيط روحانى" .. كلها تعبيرات تشير إلى الروحانية وإلى الطرق الخفيف على المنضدة . وربما كانت السيدة صاحبة القفاز النسائى وسيطة روحية من نوع ما . ومن المؤكد أن كونشيس ليس رجلا عاديا .

أشعلت سيجارة وبعد برهة ابتسمت . ففى هذه الغرفة العارية بدا لى الأمر غير ذى بال . وحقيقة الأمر أننى كنت مليئا بنوع جديد من الاثارة . ولم يكن كونشيس سوى أداة . فلما تقابلت عقب فترة من العزوبية باكسفورد مع فتاة وبدأت فى اقامة علاقات معها فاننى أيضا بدأت فى الدخول فى شىء ما مثير مع كونشيس . بدا لى الأمر مرتبطا على نحو ما برغبتى فى مشاهدة آليسون مرة أخرى . أردت أن أحيا مرة أخرى .

كان المنزل هادئا مثل هدوء الموت . مثل الهدوء فى داخل الجمجمة . ولكننى فى عام ١٩٥٣ كنت غير مؤمن على الاطلاق بالروحانية والأشباح وأعمال الشعوذة . واستلقيت هنالك نصف ساعة . وكان الصمت فى المنزل فى ذلك اليوم مازال له طابع السلام والأمان أكثر مما له طابع الخوف والذعر .

(١٧)

عندما نزلت إلى الدور الأول كانت غرفة الموسيقى مضاءة بنور المصباح ولكنها كانت شاغرة . وقمت بجولة بين أرفف الكتب . كانت الكتب مرتبة بطريقة منهجية علمية . كان هناك قسمان كاملان للكتب الطبية معظمها باللغة الفرنسية وتشمل على العديد من كتب الطب النفسى التى لا تتلاءم مع الروحانية الا فيما ندر . كما توجد مجموعات من الكتب العلمية التى تتناول كافة الموضوعات . على عدد لا بأس به من الكتب فى الفلسفة وعلم النبات وعلم الطيور ومعظمها باللغة الانجليزية والألمانية . ولكن الغالبية العظمى من الكتب الباقية تتناول السيرة الذاتية لكبار الشخصيات . يبدو أنها جمعت بدون أى منهج . مما يوحى بأنك أمام مكتبة عامة .

نظرت فى تمعن إلى ساعة الحائط . كانت تضم بعض المناظر الفاحشة . وكذلك الحال بالنسبة لصندوق النشوق . لست أدرى ما الذى جعل كونشيس يضع خطيبته المتوفية بين هذه الأشياء غير الأخلاقية .

كانت تطل من الاطار الفضى البيضاوى للصورة فى تيقظ بينما عيناها تبتسمان . كانت بشرتها البيضاء الرائعة ورقبتها الجميلة . بدت صغيرة السن وكأنها كانت ترتدى أول ثوب رسمى للسهرة لها فى حياتها .

وترامى صوت اغلاق باب فى الدور العلوى . فاستدرت مبتعدا . وبدت عينا موديليانى وكأنها تحملق فى بشدة لذلك تسللت خارجا إلى صف الأعمدة حيث انضم اليَّ كونشيس بعد دقيقة . كان قد غير ملابسه وارتدى بنطلونا فاتح اللون . وكان يقف على هيئة صورة ظلية منعكسة عن الضوء الشاحب المنساب من الغرفة . وشرب نخبى فى صمت .

ـ شكرا على الكتب التى وضعتها لى بجوار السرير .

ـ اذا عثرت على أية كتب أخرى أكثر امتاعا فوق الأرفف أرجوك أن تأخذها .

وانبعث نداء غريب من بين الأشجار المظلمة التى تقع شرق المنزل . ولقد سبق لى أن سمعت ذلك النداء فى الأمسيات بالمدرسة وظننت فى بادئ الأمر أنها تصدر عن طفل قروى مخبول . كان نداء حادا للغاية ومتكررا على فترات منتظمة : كيو ـ كيو ـ كيو .

قال كونشيس : "هذه هى صديقتى" فخطر على ذهنى أنه يقصد المرأة ذات القفاز . وتخيلتها وهى تنساب من بين أشجار الجزيرة مرتدية قفازها وترامى النداء مرة أخرى حادا وغبيا منسابا من الليل المخيم وراءنا . فراح كونشيس يعد من رقم ١ إلى رقم ٥ فى بطء فظهر النداء مرة أخرى عندما رفع يده . ثم راح يعد حتى رقم خمسة مرة أخرى وعندئذ صدر النداء مرة ثانية .

ـ ماهذا ؟

ـ انها البومة . وهى ضئيلة الحجم للغاية . أقل من عشرين سنتيمتر .

ـ لاحظت أن لديك بعض الكتب عن الطيور . وأنت قد درست الطب . ما الذى كنت تقصده بقولك عن نفسك أنك وسيط روحانى ؟

ـ كنت أقصد الطفالة ، اى ان يحتفظ الإنسان بخصائص الطفولة الى مابعد سن البلوغ .
ـ أنت لم تجب عن سؤالى .
ـ ان أول رد فعل لديك هو : عدم التصديق وعدم الايمان . وهذه من الصفات التى يتميز بها القرن العشرين .

وابتلعت الجزء المتبقى من الأوزو فى كأسى .

وقلت : أليس القرن العشرين هو قرنك أيضا ؟
ـ لقد عشت فترات طويلة فى قرون أخرى .
ـ تقصد فى عالم الأدب ؟
ـ فى الواقع . فى الحقيقة .

وترامى صوت البومة مرة أخرى وعلى فترات منتظمة . فحملقت فى الظلام المنتشر بين أشجار الصنوبر .
ـ التناسخ والتقمص والتجسد من جديد ؟ هذا كلام فارغ لا يمكننى الهرب من الامتداد الحياتى البشرى الخاص بى . ولذلك ليس أمامى سوى العيش فى قرون أخرى .

التزمت بالصمت . ثم قلت : اننى أنسحب من المناقشة .
ـ لا تنسحب . أنظر لأعلى . ماذا ترى ؟
ـ النجوم . الفضاء .
ـ وماذا أيضا ؟ وأنك تدرك أنها موجودة هنالك . رغم أنها غير مرئية .
ـ عوالم أخرى ؟

استدرت لكى أنظر اليه . كان جالسا على هيئة ظل أسود . شعرت برعشة خفيفة تسرى فى عمودى الفقرى . وتمكن من معرفة ما يدور فى ذهنى . قلت :
ـ أنت .. تسافر إلى عوالم أخرى ؟
ـ نعم . أسافر إلى عوالم أخرى . فوضعت كأسى على المنضدة وجذبت سيجارة وأشعلتها قبل أن أستأنف كلامى : بالجسد ؟
ـ اذا استطعت أن تقول لى أين ينتهى الجسد وأين يبدأ العقل فاننى سأجيب على سؤالك .

ـ هل .. لديك دليل على هذا ؟
ـ دليل كاف لأولئك الذين لديهم ذكاء يعينهم على مشاهدته .
ـ هل تعنى أن ذلك يتم من خلال الاختيار وعن طريق الوساطة الروحية .
ـ إلى حد ما .

والتزمت بالصمت ورحت أفكر فى نوع التصرفات التى ينبغى علىَّ اللجوء اليها . وأحسست بعداوة كامنة انبعثت من خلف أى شىء قد مر بيننا . بدا لى أن أفضل شىء هو اللجوء إلى مذهب الشك .

قبل أن يجيب كان هناك وقع أقدام خفيف حول صف الأعمدة ، وقفت ماريا وأحنت رأسها بالتحية ، قال كونشيس : شكرا ياماريا . العشاء جاهز .

ذهبنا إلى غرفة الموسيقى . قال : هناك أشياء لا تستطيع الكلمات التعبير عنها أو القاء الضوء عليها .

فنظرت لأسفل وقلت : تعلمنا فى اكسفورد أن نفترض أنه اذا لم تستطع الكلمات توضيح الأشياء فلا يمكن لأى وسيلة أخرى أن تفعل ذلك .

بعد أن انتهينا من تناول الطعام أحضرت ماريا القهوة التركية فى اناء مصنوع من النحاس الأصفر ثم أخذت المصباح الذى كان قد بدأ فى اجتذاب الكثير من الحشرات . ووضعت مكانه شمعة واحدة . أشعلت سيجارة وجلست فى اتجاه البحر والجهة القبلية . لم يكن يرغب فى التكلم واكتفيت أنا بالترقب ، فجأة ترامى وقع أقدام . كانت الأقدام تبتعد عن المنزل وتمشى فى اتجاه البحر . اعتقدت فى بادىء الأمر أنها أقدام ماريا . ولكنى فى الثوانى التالية خطر على ذهنى أنها أقدام الفتاة ذات القفاز .

كانت الخطوات خفيفة كما كان ذلك الشخص يحاول احداث أقل قدر ممكن من الأصوات . كنت جالسا بعيداً عن حاجز الشرفة . نظرت إلى كونشيس . كان يحملق للخارج فى الظلام كما لو كان ذلك الصوت أمرا طبيعيا للغاية . وذهبت إلى الحاجز لألقى نظرة ولكن وقع الأقدام قد تلاشى فى غياهب الصمت ، واندفعت فراشة كبيرة نحو الشمعة . فانحنى كونشيس للأمام وراح يزيل الجزء المحترق من فتيل الشمعة :

ـ هل لديك مانع من الجلوس فى الظلام ؟
ـ على الاطلاق .
ـ ينبغى أن أحكى لك قصة مجيئى إلى هنا .
ـ من المؤكد أنك قد عثرت على مكان رائع للغاية .

شعر على ما يبدو أنه فى حيرة من أمره . ثم قال : لقد جئت إلى فاكوس للبحث عن منزل لكى أستأجره . لكى أقضى فيه فترة الصيف . فأنا لم أكن أحب القرية . ولا أحب الشواطىء . وفى يومى الأخير أحضرت مراكبيا لكى يطوف بى حول الجزيرة . لمجرد النزهة والمتعة وبطريق المصادفة ، رسا بى عند موتسا من أجل الاستحمام فى الماء . قال إنه يوجد كوخ صغير فى الأعالى هناك بالمصادفة صعدت إلى الكوخ . كانت حوائط الكوخ متداعية . اللبلاب الشوكية . وكان الجو حارا . حدث ذلك حوالى الرابعة بعد ظهر ١٨ ابريل عام ١٩٢٨ .

ثم توقف عن الكلام كما لو أن ذكرى تلك الحرب قد منعته من الكلام . ولكى يجعلنى مستعدا للتعرف على جانب آخر من جوانب شخصيته . قال : كان هناك الكثير من الأشجار آنئذ . لم يكن باستطاعة المرء مشاهدة البحر . فوقفت فى المساحة الشاغرة الصغيرة المحيطة بالحوائط المتداعية . وهبط علىَّ على الفور احساس بأننى كنت متوقعا . شىء ما كان قد ظل منتظرا هناك طوال حياتى . وقفت هنالك وعرفت من الذى كان ينتظر ومن الذى كان يتوقع مجيئى . انه أنا نفسى الذى كان ينتظر ذاتى . فلقد كنت هنا وهذا المنزل كان هنا . أنت وأنا وهذا المساء كانوا هنا . وهم كانوا دائما هنا . بدا الأمر شبيها بالحلم . سرت نحو باب مغلق . وعن طريق سحر فجائى أصبح خشبه غير القابل للنفاذ والاختراق زجاجا شاهدت من خلاله ذاتى تجىء من الاتجاه الآخر من المستقبل . اننى أتحدث بلغة القياس التمثيلى . هل تفهمنى ؟

أومأت برأسى فى حرص بدون الاهتمام بالفهم لأننى كنت قد بدأت أشعر أن أى شىء يفعله يكون به مسحة من الغرابة . فهو لم يقص علىَّ قصة مجيئه إلى بورانى كرجل يحكى شيئا ما تصادف أن حدث له بطريقة المصادفة وانما يحكى ككاتب مسرحى ويحكى نادرة واستطرد :

ـ أدركت على الفور أنه ينبغى على أن أعيش هنا . ولم يكن بمقدورى أن أتجاوز ذلك . ففى هذا المكان فقط يندمج الماضى مع مستقبلى . لذلك

أقمت فى هذا المكان . وأنا موجود هنا الليلة وأنت موجود هنا الليلة .

سألت : هل هذا هو ما كنت تقصده بقولك إنك تستجيب للمؤثرات الخارقة ؟

- ان هذا هو ما أقصده من وراء كلمة تصادف . اذ يجيء وقت على كل حياة يشبه نقطة الارتكاز . وفى ذلك الوقت عليك أن تتقبل نفسك . وأنت صغير في السن بحيث لا يمكنك أن تدرك هذا . فأنت مازلت فى مرحلة الصيرورة . وليس مرحلة الوجود .

- وماذا يحدث لو أن شخصا ما لم يتعرف على نقطة الارتكاز؟

- ستكون مثل العديدين . ولا يدرك هذه اللحظة سوى عدد قليل . ويتصرفون بما يتمشى معها .

- المختار ؟

- المختار عن طريق المصادفة .

وسادت فترة صمت ثم قال :

- لا أريدك أن تلتزم بالأدب الجم . فالأدب يخفى وراءه رفضا لمواجهة أنواع أخرى من الحقيقة . سأخبرك بشيء عنك قد يصدمك . فأنا أعرف شيئا ما عنك لا تعرفه . يانيقولاس . أنت أيضاً إنسان حساس للقوى الروحية أو الخارقة للطبيعة . أنت أيضا وسيط روحانى .

- أود أن أعرف السبب الذى جعلك تعتقد ذلك .

- أفضل ألا أقول .

- ولكن عليك أن تقول ، بل اننى لا أعرف ماذا تقصده على وجه الدقة من كلمة وسيط روحانى . اذا كنت تقصد بها مجرد نوع من الذكاء الحدسى عندئذ آمل أن أكون وسيطا روحيا . ولكنى أعتقد أنك تقصد شيئا آخر .

والتزم بالصمت مرة أخرى . ثم قال : أنت تتناول هذا الأمر كأننى اتهمتك بجريمة ما . أو بنقائص أو حالات ضعف معينة .

- آسف . فلم يسبق أن مررت بتجربة روحية خارقة للطبيعة فى حياتى وعلى كل حال فأنا إنسان مادى .

كان صوته هادئا وجافا وهو يقول : لا أتحدث عن الله وانما أتكلم عن العلم . فالتزمت بالصمت وأصبح صوته أكبر جفافا وهو يستطرد قائلاً ..

حسنا . إننى أوافق على أنك تعتقد أنك .. لست وسيطا روحانيا . استأذنك لدقائق قليلة .

واختفى فى داخل غرفة نومه . ونهضت وذهبت إلى حاجز الشرفة حتى يمكننى من هناك الرؤية فى ثلاثة اتجاهات . كان المنزل مغلقا من جميع الجوانب بصمت أشجار الصنوبر المعتمة تحت ضوء النجوم . وإلى أعلى وعلى مسافة بعيدة فى اتجاه الشمال كان باستطاعتى سماع صوت طائرة وكانت هى المرة الثالثة أو الرابعة التى أسمع فيها بالليل صوت طائرة منذ أن جئت إلى هذه الجزيرة . وتخيلت مضيفة مثل آليسون تسير فى الممر بين المقاعد بالطائرة وهبط علىَّ احساس شديد بافتقاد آليسون مع احتمال فقدانها للأبد . وتخيلتها إلى جوارى وقد أمسكت يدها بيدى . لقد كانت دفئا بشريا وحالة سوية ونموذجية من حيث التلاؤم معى .

وبعد لحظات قليلة عاد كونشيس . وذهب إلى حاجز الشرفة واستنشق الهواء فى عمق . كان لا يزال بمقدورى سماع صوت الطائرة . فأشعلت سيجارة وتخيلت أن آليسون ربما تكون قد أشعلت هى الأخرى سيجارة فى مثل هذه اللحظة .

(١٨)

ـ أعتقد أننا سنشعر بمزيد من الراحة لو جلسنا على كراسى طويلة .

ساعدته على جذب الكرسيين الطويلين . ثم ألقينا بظهرينا إلى الوراء فى جلسة مريحة . وعلى الفور تمكنت من شم الرائحة المنبعثة من الوسادة المربوطة فى رأس الكرسى ـ نفس العطر القديم الذى كان موجوداً فى الفوطة وفى القفاز . كنت متأكدا أن ذلك لا يخص كونشيس أو ماريا العجوز . اذن هناك امرأة ما وهى كثيرا ما استخدمت هذا الكرسى .
ـ سيستغرق الأمر وقتا طويلاً لكى أحدد ما أقصده . سيستلزم الأمر أن أقص عليك قصة حياتى كلها .

كان الصمت سائدا وأعطت النجوم اشارات متلألئة . وبدأ يروى قصة حياته .

"أخبرتك أن والدى كان انجليزيا . ولكن أعماله التجارية كانت توجد أساساً فى المشرق وكان من بين المنافسين له رجل يونانى يعيش فى

لندن . وفى عام ١٨٩٢ حدثت لهذا الرجل اليونانى أحداث مأساوية . إذ مات أخوه الأكبر وزوجته بسبب زلزال وبقى ثلاثة أطفال لهما على قيد الحياة . وتم ارسال الولدين الأصغر سنا إلى أمريكا الجنوبية للعيش مع أخ ثالث . أما الطفلة الأكبر سنا وهى فتاة فى سن ١٧ عاما فقد أحضرت إلى لندن لترعى شئون منزل عمها الذى هو منافس لوالدى فى التجارة . وكانت زوجته قد ماتت منذ فترة طويلة وعاش أرمل وكانت ذات جمال مميز ، الجمال المميز الذى تمتاز به الفتيات اليونانيات اللائى تجرى فى عروقهن دماء ايطالية . وشاهدها والدى . وكان والدى أكبر منها فى السن بكثير . ولكنه كان وسيم الشكل . قصارى القول أن والدى تزوج الفتاة .. وكنت ثمرة هذا الزواج .

"أول شىء أتذكره فى وضوح هو غناء والدتى . كانت تتغنى دائما سواء أكانت سعيدة أم حزينة . فكانت الموسيقى هى أهم شىء فى حياتى . كنت طفلا عبقريا . ولقد ألفت أول كونشيرتو وأنا فى سن التاسعة . لم أكن غبيا ولكنى كنت كسولا للغاية . لم أعرف سوى التزام واحد : ألا وهو أن أعزف على البيانو عزفا جيدا .

"كنت سعيد الحظ . اذ كان لدى مدرس للموسيقى شهير يسمى برونو . كان يحلم بأن يكون لديه تلاميذ مهرة . وعندما بلغت الخامسة عشرة أصبت بما نسميه اليوم بالانهيار العصبى اذ كان برونو يدفعنى للعزف المتواصل مما جعلنى أصاب بالاجهاد الشديد . ولم أهتم على الاطلاق بالألعاب الرياضية وسمحت لى المدرسة بتركيز نشاطى فى مجال الموسيقى . ولم يكن لدى أية أصدقاء بالمدرسة . ربما لأنهم كانوا ينظرون الىَّ على أساس أننى يهودى . ولكن الطبيب قال إننى عندما أشفى من الانهيار العصبى ينبغى علىَّ أن أقلل من العزف وأكثر من الخروج للنزهة . كنت مكتئبا . وعاد الىَّ والدى ذات يوم ومعه كتاب غالى الثمن عن الطيور . ومع استلقائى فى السرير والنظر إلى أوضاع الصور المختلفة بالكتاب بدأت تجتاحنى الرغبة فى مشاهدة الحقيقة الحية . والحقيقة الوحيدة التى يمكن البدء بها بالنسبة لى كانت هى الغناء الذى كنت أسمعه من خلال نافذة غرفة مرضى . وانتبهت للطيور من خلال أصواتها . بل وبدت لى فجأة زقزقة العصافير الصغيرة غامضة . وتغريد الطيور الذى سبق أن سمعته آلاف المرات فى حديقتنا بلندن بدأت أسمعه وكأننى لم أسمعه من قبل

على الاطلاق . وبعدئذ قادتنى الطيور إلى تجربة غير عادية للغاية .

شاهدت ليلى لأول مرة عندما كان عمرها ١٤ عاما ، كنت أنا أكبرها بسنة واحدة . وذلك عقب تعرضى للانهيار العصبى مباشرة . كنا نسكن فى حى سانت جون وود . فى واحد من المنازل البيضاء التى يسكنها التجار الناجحون .

ذات يوم صاف من شهر يونيو . كنت أقرأ قصة حياة شوبان . أذكر ذلك على وجه الدقة . كنت أقرأ وأتخيل نفسى "شوبان" وكان لدى كتابى الجديد عن الطيور . وكان ذلك فى عام ١٩١٠ . فجأة سمعت صوتا متراميا من الجانب الذى يفصل مابين حديقتنا وحديقة المنزل المجاور لنا . وهو منزل شاغر . لذلك أصابتنى الدهشة . وبعدئذ ظهرت رأس . فى حذر إنها رأس فتاة صغيرة . كتلة من الشعر الأشقر الفاتح الذى يتدلى خلفها . وشاهدت وجهها الغارق فى الظلال ورأيت عينيها السوداوين وفمها المفتوح قليلا فى فضول . انها وقورة لكنها مصممة على أن تكون جريئة . شاهدتنى . وحملقت فى وجهى للحظات فى سديم ضوئها الذى تشع منه الصدمة الفجائية . ولا أعرف السبب الذى جعلنى غير قادر على التكلم .. وبعدئذ نادى صوت على اسمى .

"تحطم السحر والافتتان . وتحطم معه كل الماضى الخاص بى . وهناك بيت من الشعر بقلم الشاعر سفريس (نوبل ١٩٦٣) : "**الرمانة المكسورة تمتلىء بالنجوم**" . كان الأمر شبيها بذلك . سرعان ما اختفت وعدت للجلوس مرة أخرى وأصبح من المستحيل أن أقرأ . فذهبت إلى الحائط القريب من المنزل وسمعت صوت رجل وأصواتا نسائية فضية تترامى فى ضعف من خلال أحد الأبواب .

"كنت فى حالة من الاكتئاب المرضى . الا أن ذلك اللقاء الأول .. سيطر على كل كيانى على مدى أسابيع .

"وانتقل والدها إلى المنزل المجاور لنا مباشرة وتقابلت مع ليلى وجها لوجه . وكان هناك جسر ما بيننا . ولم يكن ذلك من قبيل تخيلاتى . فذلك الشئ جاء من كلينا حبل سرى مشترك . شىء ما لم نجرؤ على التحدث عنه بالطبع ، الا أن كلا منا كان يعرف أنه هناك .

"كانت تشبهنى فى الكثير من الأمور . ليست موهوبة على نحو مذهل ولكنها موسيقية . مازلت أذكر ليلى وهى تعزف أول عزف منفرد .

وسرعان ما توطدت الصداقة بين عائلتينا . وبدأت أصطحب ليلى وأحيانا كنا نعزف لحنا ثنائيا وفى بعض الأحيان كان ينضم الينا والدها وأحيانا كانت الأمان تشتركان فى الغناء .

وتوقف عن الكلام . وأردت أن أشعل سيجارة ولكن أهم من ذلك أننى كنت أريد ألا أشتت أفكاره . لذلك أمسكت بالسيجارة بين أصبعى وانتظرت .

"كان جمالها من النوع الذى عبر عنه الرسام بوتيشللى . شعر أشقر طويل . عينان لهما لون رمادى . ولكن ذلك يجعلها تبدو شاحبة أكثر من اللازم . كان بها شىء ما قد اختفى من الدنيا ومن عالم الأنوثة . عذوبة وحلاوة بدون نزعة عاطفية . شفافية بدون سذاجة . كانت تبدو خالية من الألوان . كانت جميلة للغاية ولكن روحها فريدة من نوعها .

"لم توضع بيننا عقبات باستثناء تلك الخاصة بالاحتشام والأدب . لقد قلت إننا كنا متشابهين فى المشارب والأهواء والأذواق والاهتمامات ، ولكننا كنا على النقيض من حيث المزاج . فقد كانت تتحلى دائما بضبط النفس وتقديم العون للآخرين . أما أنا فكنت سريع الغضب ومتقلب المزاج وغاية فى الأنانية . لم أشاهدها على الأطلاق تؤذى أى شخص ولكننى اذا أردت شيئا فانه يتحقق على الفور . وقد اعتادت ليلى أن تذكرنى بعيوبى واعتدت أن أفكر فى دمائى اليونانية على أنها دماء داكنة بل تكاد تكون دماء زنجية .

"وبعدئذ بدأت أحبها حباً جسديا أيضاً بينما هى كانت تحبنى أو تعاملنى كأخ لها . ثم تواعدنا على الزواج عندما كان عمرها ١٦ عاما فقط . ولم يُسمح لى بتقبيلها الا فيما ندر . ثم بدأت أتعرض لأحلام يقظة ذات طابع شهوانى . ليلى المحتشمة فى قبعتها القش . سرت الى جوارها عبر ميدان ريجينت فى ربيع عام ١٩١٤ . فهى الفتاة المبهجة التى وقفت خلفها فى الدهليز فى شهر يونيو وأنا أكاد أصاب بالاغماء بسبب حرارة الجو . وفى صيف ذلك العام أصبحت ليلى فى داخل تصوراتى الذهنية الليلية هى

المومس الشابة المهجورة . واعتقدت أننى غير سوى للغاية لأننى قد خلقت هذه الصورة الذهنية الثانية عن ليلى من الصورة الحقيقية لها . وشعرت بالخجل المرير من نفسى ومن دمائى اليونانية . وألقيت باللوم على والدتى . وعانت والدتى من ذلك . يالها من امرأة مسكينة . ولقد كانت أسرة والدى احقر من شأنها بما فيه الكفاية .

"كنت أشعر بالخجل آنئذ من دمائى اليونانية . فأنا أوربى . وذلك هو كل ما يهمنى . ولكننى فى عام ١٩١٤ كنت أريد أن أكون إنجليزيا محضاً حتى أتمكن من تقديم نفسى غير الملوثة بدماء أخرى إلى ليلى .

كانت الأيام الأولى لا توحى بأن الحرب قد بدأت . وكان هناك قدر كبير من السلام لفترة طويلة . وفى داخل العقل الجماعى كان كل فرد يرغب على ما يبدو فى أن يحدث تغييراً حوله . ولكن بدا لنا نحن المواطنين غير المشتغلين بالسياسة أن المسألة مرتبطة بالزهو العسكرى .

وجاء ديسمبر . واختفت "الفتيات المتبرجـات" و"الأشخاص المهووسون" وابلغنى والداى ذات مساء انهما لن ينظرا إلىَّ نظرة سيئة اذا لم أتطوع . كان الجو بها فى بادىء الأمر معاديا للتطوع . فالحرب ليست لها علاقة بالفن أو الفنانين . وأذكر مناقشات اسرتى واسرة ليلى عن الحرب . كانوا متفقين فى الرأى أن الحرب مسألة غير إنسانية . ولكن كلام والدى معى أصبح مليئا بالتوتر . لقد أصبح عضوا فى لجنة الطوارىء المحلية . وبعدئذ قتل ابن رئيسه فى المعارك . فتركنى أنا وامى بمفردنا . ولم تصدر تعليقات وكان كل شىء واضحا ومفهوما .. وبعد ذلك بوقت قصير وقفت مع ليلى لنرقب كتيبة من الجنود تسير فى الشوارع . كانت الشوارع مبتلة عقب سقوط الأمطار وكانت الأرصفة متلألئة . أخذت أرقب وجوههم المغنية فى اشراق تحت لون اللون الأصفر المنبعث من مصابيح الغاز . ورحت أرقب الناس المبتهجين حولنا . وترامت رائحة الصوف المبتل . كانوا مخمورين : الجنود السائرون والمتفرجون . كانوا جميعا تجتاحهم مشاعر الاحساس بالقوة . لم أكن قد سمعت العبارة الشهيرة . ولكن هذه العبارة كانت : تقبل الحرب فى إثارة .

"أخبرت ليلى بأن هؤلاء الناس مجانين . ولكنها لم تسمعنى . ولكنهم عندما اختفوا عن الأنظار استدارت نحوى وقالت « لو كان مقدرا لى أن

أموت غدا لشعرت بالغضب الشديد » . وذهلت لدى سماع هذه العبارة . وعدنا إلى المنزل فى صمت . وعلى طول الطريق كانت تدندن بأغنية ذلك اليوم" .

وتوقف للحظات . ثم أخذ يدندن بتلك الأغنية فى شبه غناء :

"لسوف نفتقدك . ولسوف نقبلك
ولكننا نعتقد أنه ينبغي عليك أن تذهب" .

"شعرت كأننى طفل صغير إلى جوارها . فرحت أؤنب نفسى على دمائى اليونانية التعيسة . التى جعلتنى جبانا منغمسا فى الشهوات . فالمسئولية الاجتماعية لم تكن ابدا احدى الصفات التى يتميز بها الإنسان اليونانى .

"وعندما وصلنا إلى منزلينا . قبلتنى ليلى على خدى وجرت إلى داخل منزلها . وقضيت الليلة ونهار اليوم التالى والليلة التالية فى كرب عظيم . وفى صباح اليوم التالى شاهدت ليلى وقلت لها إننى سأتطوع . فانسحبت كل الدماء من خديها ثم انفجرت باكية وانهمرت الدموع من عينيها وألقت بنفسها بين ذراعى . وهكذا فعلت والدتى عندما أخبرتها . ولكن حزن والدتى كان أكثر نقاءً وعمقا .

"ونجحت فى كشف الهيئة . وأصبحت بطلاً . وقدم لى والد ليلى مسدسه القديم تكريما لى . وفتح والدى زجاجات الشمبانيا وبعدئذ عندما دخلت حجرتى وأمسكت بالمسدس فى يدى انفجرت فى البكاء . بسبب ادراكى لذلك العمل النبيل الذى أقدمت عليه .

"وتم الحاقى بالكتيبة رقم ١٣ اللندنية لحملة البنادق . وتم تدريبنا على فنون القتال . كانوا يقولون لنا إن الحرب لن تستمر لشهر آخر بسبب التكاليف الهائلة التى تتطلبها الحرب" .

وشعرت به يتحرك وهو جالس فى كرسيه . وعندما بدأ فى التكلم مرة أخرى شممت هواء الليل وشعرت بالخرسانة الصلبة تحت قدمى ولمست قطعة من الطباشير فى جيبى . ولكن هبط علىَّ أحساس قوى عندما رفعت قدمى عن الأرض وألقيت بظهرى إلى الوراء بأن شيئا ما كان يحاول الانزلاق بينى وبين الحقيقة .

(١٩)

"ووجدت نفسى فى فرنسا بعد فترة تزيد قليلا على ستة اسابيع عقب تطوعى . لم تكن لدى رغبة فى استخدام البندقية . ولكنهم اعتبرونى حاد الذكاء كما اكتشفوا أننى أستطيع الجرى بسرعة فائقة ولذلك اختارونى للعمل كخادم من نوع ما يطلقون عليه اسم "المرسال" . والرجل الذى تولى تدريبى أنا وزملائى كان ضابطا نظاميا بالجيش يبلغ من العمر ثلاثين عاما ، يدعى الكابتن مونتاجو . كانت ساقه قد كسرت منذ فترة قصيرة وأصبح غير ملائم للعمل فى الجيش النظامى . كان من أغبى الناس الذين صادفتهم فى حياتى وقد علمنى الكثير للغاية .

"قبل أن ينتهى من تدريبنا صدر قرار بتعيينه فى وظيفة عاجلة فى فرنسا ، فى نفس اليوم ابلغنى أنه سيستخدم نفوذه ليلحقنى فى وظيفة معه فى فرنسا . وقابلت ذلك الخبر فى فتور ولكنه لم يدرك ذلك لأنه رجل أجوف . ولسوء الحظ أنه أصبح شغوفا بى للغاية .

"كان لديه ذهن قادر على استيعاب فكرة واحدة فى كل مرة . وكانت الفكرة الملتصقة بذهنه آئنذ هى : الهجوم الطائش المتهور . فقد اعتاد أن يقول : (ان قوة الصدمة هى الكتلة . وقوة الكتلة هى الدافع وقوة الدافع هى الروح المعنوية . والروح المعنوية العالية والدافع القوى والصدمة القوية هى النصر) . ويطرق بيده فى عنف على المنضدة قائلاً "النصر" . وأصر على أن نحفظ جميعا ذلك النص عن ظهر قلب . وذلك أثناء التدريبات على استخدام الحربة . الــ . نــ . صــ . ر مسكين ومغفل .

"وقضيت يومين أخيرين مع والدىَّ وليلى . أقسمت أنا وليلى أن نحب بعضنا للابد . ذهبنا مباشرة إلى الجبهة . وكان أحد قادة السرية هناك قد مات بسبب مرض فى الرئة فحل محله مونتاجر . كنا فى أوائل عام ١٩١٥ . وكان المطر ينهمر بدون توقف ، أمضينا أياما قليلة فى المناورات العسكرية . وبعدئذ قام مونتاجو فى يوم ما بتوجيه خطاب للسرية . كنا بصدد الدخول فى معركة . النصر فيها مضمون بشكل أكيد . معركة ستنتهى بنا إلى دخول برلين خلال شهر واحد . وفى اليوم التالى استقللنا قطاراً فى الليل . وتوقف القطار فى مكان ما فى منتصف سهل منبسط ثم سرنا على الأقدام . وكان من المقرر أن يتم قصف القرية بالمدافع الثقيلة

علاوة على الاغارة عليها فى هجوم مكثف بمعرفة الطائرات الجديدة . كان الجو قارس البرودة وكان اشعال النيران ممنوعا . وبدأت تطفو على السطح ذاتي الحقيقة . بدأت أشعر بالخوف . والخوف هو اسهل طريقة تفسد بها الحرب أخلاقنا .

كان أول شىء رأيته على ما أعتقد هو انعزال كل منا عن الآخر . فليست الحرب هى التى تعزل الناس عن بعضهم . فمن المعروف جيدا أن الحرب تجمع الناس . لكنها أرض المعركة . انها شىء مختلف . ففيها يظهر العدو الحقيقى أو الموت . لم أعد أشاهد دفئى فى الأعداد الكبيرة من زملائى لم أشاهد فيهم سوى موتى .

"لسوف أشرح لك السبب الذى دعانا للذهاب إلى الحرب ! لماذا يذهب الجنس البشرى دائما إلى الحرب . السبب ليس سياسيا أو اجتماعيا . الدول ليست هى التى تذهب إلى الحرب وانما الرجال الذين يذهبون اليها . المسألة شبيهة بالملح . فما أن يذهب المرء للقتال فى الحرب حتى يحصل على الملح اللازم له على مدى الفترات المتبقية من حياته . هل تفهمنى ؟.
- بالطبع .

"لذلك ففى جمهوريتى الفاضلة سيكون الأمر بسيطا . حيث سيكون هناك اختبار لجميع الشباب الذين هم فى سن ٢١ سنة . حيث سيذهبون إلى مستشفى لكى يلقوا بزهر الطاولة . وأحد الأرقام الستة سيكون معناه الموت . فاذا ألقوا بذلك فانهم سقتلون بدون ألم . ودون وحشية . ودون تدمير للمشاهدين الأبرياء . ولكن رمية واحدة هادئة لزهر النرد .
- من المؤكد أن هذا بمثابة ادخال تحسينات على الحرب .. هل قلت إنك لم تشاهد أى معركة فى الحرب الأخيرة ؟
- لا .

وأمسك بصندوق الحبوب واستخرج منه من بين الاشياء الأخرى ستة ضروس كبيرة ويوجد فى اثنين أو ثلاثة منها سدادات قديمة :
- هذه الضروس أو الأسنان قد وزعت على الجواسيس على كلا الجانبين أثناء الحرب الأخيرة . من أجل استخدامها فى حالة استجوابهم .

ووضع أحد الضروس فوق طبق الفنجان ثم سحقها بطعنة صغيرة

لأسفل مستخدما أداة للرَّج . وكانت هشة كقطعة شيكولاتة مزودة بالعطر . ولكن رائحة السائل الذى لا لون له كانت مثل رائحة اللوز الحامض المر . رائحة لاذعة ومخيفة . فأبعد على وجه السرعة الطبق لمسافة ذراع إلى الركن البعدة من الفراندة ثم عاد .

ـ أهى حبوب خاصة بالانتحار ؟

ـ تماما . انها حامض الهيدروسيانيد .

ابتسمت قائلا : أتريد منى أن ألقى بالزهر ؟

ـ اننى أعرض عليك حربا بأكملها فى ثانية واحدة .

ولنفرض أننى لا أريدها .

ـ فكر . فى خلال دقيقة من الآن باستطاعتك أن تقول إنك جازفت بحياتك وألقيت بالزهر من أجل الحياة وكسبت الحياة . انه لشعور رائع للغاية أن تظل باقيا على قيد الحياة . باستطاعتى أن أبرهن بكل سهولة أنها حالة انتحار .

حملق فى وجهى ونفذت عيناه فى داخل كيانى مثلما ينفذ رمح ذو ثلاث شعب فى جسد سمكة . مع ٩٩ شخصا من بين مائة شخص لكنت قد أدركت أن هذه مجرد خدعة . ولكنه كان إنسانا مختلفا . وتملكتنى حالة عصبية قبل أن أتمكن من مقاومتها : انها لعبة قمار روسية . ولا أرغب فى لعبها .

ـ اذن فأنت جبان ياصديقى .

ـ خيل لى أنك تعتقد أن الرجال الشجعان مغفلون .

ـ لأنهم يصرون على اللعب بزهر النرد مرات عديدة . ولكن الشاب الذى لا يريد أن يخاطر بحياته ولو مرة واحدة فى حياته هو إنسان مغفل وجبان فى آن واحد .

ـ هل أجريت هذه التجربة على الناس السابقين علىَّ ؟

ـ جون ليفاريير لم يكن جبانا أو مغفلاً . وحتى ميتفورد لم يكن جبانا .

ونجح فى أن يضعنى فى موقف حرج . كان ذلك الأمر سخيفا ولكنى مددت يدى نحو أداة الرج . انحنى للأمام ووضع يده على معصم يدى . ثم وضع ضرسا إلى جوارى واستطرد : "يجب أن تقسم لى بأنك ستتناول

القرص إذا ظهر الرقم ٦ .. وكان وجهه مليئا بالجدية والحزم فأحسست بأننى أرغب فى التراجع عن هذه اللعبة الخطيرة" .

"أقسم لك" .

أمسك بزهر النرد ، ووضعه فى آلة الرج . فأخذت أهزه بسرعة ثم ألقيت بزهر النرد فجرى على القماش وارتطم بقاعدة المصباح ثم استقر . كان الرقم هو رقم ٦ .

والزم كونشيس تماما بالهدوء وراح يرقبنى .. وأدركت اننى لن التقط القرص . لم أستطع النظر إلى كونشيس . ابتسمت ونظرت اليه وهززت رأسى .

فمد يده مرة أخرى وقد تثبتت عيناه علىَّ وأمسك بالضرس الموجود إلى جوارى ووضعه فى فمه وكسره بأسنانه وابتلع المادة السائلة . فتدفقت الدماء إلى وجهى . ومد يده مرة أخرى وهو مازال يرقبنى ووضع الزهر فى آلة الرج وألقى به . وكان الرقم ٦ . وكرر العملية مرات ومرات وفى كل مرة يظهر الرقم ٦ ثم بصق الغلاف الخارجى للضرس .

ـ إن ما قررته أنت هو بالضبط ما قررته أنا فى ذلك الصباح منذ عاما . لقد تصرفت على النحو الذى ينبغى أن يتصرف به أى إنسان ذكى . أهنئك .

ـ ولكن ما هذا الذى قلته عن الجمهورية الفاضلة ؟

ـ كل الجمهوريات الفاضلة كلام فارغ تماما . فالاشتياق الشديد للمخاطرة إلى درجة الموت هو آخر انحراف هائل نقع فيه . اننا نجىء من الليل ونذهب إلى الليل . فلماذا نعيش فى الليل ؟.

ـ ولكن زهر النرد كان مثل بندقية محشوة بالذخيرة .

ـ الروح الوطنية والدعاية والشرف الوظيفى . ما هو جوهر كل هذه الأشياء ؟ يتم التحكم فى الزهر بطريقة غير مشروعة لدى إلقائها .

ـ والشخصان الآخران على أى نحو كانت صرفاتهم ؟

فابتسم : هذه وسيلة يستخدمها المجتمع ليمنع حرية الاختيار بين أفراد عبيده ليخبرهم أن الماضى كان أكثر نبلا من الحاضر . وجون ليفاريير رجل كاثوليكى . وكان أكثر حكمة منك . لأنه رفض من البداية الوقوع تحت هذا الاغراء .

ـ وماذا فعل ميتفورد ؟

"اننى لا أضيع وقتى هباء وسدى على تعليم الناس المصابين بالعمى .

(٢٠)

"امضينا الساعات الست الوسطى من ذلك النهار فى الانتظار . ولم يكن الألمان قد أطلقوا علينا أية قذائف على الاطلاق الا فيما ندر . كان الشيء الواضح للغاية : هو انه علينا أن نبادر إلى الهجوم على الفور . ولكن الأمر كان يستلزم وجود قائد ممتاز للغاية لكى يدرك فى الوقت الملائم ذلك الشيء الواضح للغاية .

"بدأنا نتحرك إلى الأمام . وكان مونتاجو والرقيب الأول يصيحان باستمرار لكى نظل فى محاذاة الصفوف . وكان علينا أن نعبر حقلا محروثا ومليئا بالحفر العميقة الناجمة عن انفجار القنابل وبعدئذ نعبر حقلا آخر صغيرا ومنه إلى الهدف الذى نريد الوصول اليه وهو كوبرى موجود هناك . وبعد أن قطعنا نصف المسافة تقريبا بدأنا فى الجرى مسرعين نحو الهدف وبدأ بعض الرجال يصيحون مهللين . وبدا على الألمان أنهم توقفوا عن إطلاق النيران نهائيا . وصاح مونتاجو فى انتظار مليء بالنشوة إلى الأمام ياأولاد .. إلى النصر !..

"وكانت هذه هى آخر كلمات قالها فى حياته . لقد نصب الألمان مصيدة لنا . دار مونتاجو حول نفسه وسقط على الأرض عند قدمى وارتمى على ظهره محملقا فى وجهى . فتهاويت إلى جواره . لم يكن الهواء سوى وابل متلاحق من القذائف فغمرت وجهى فى الطين وتبولت لا إراديا وقد تيقنت أننى سأقتل فى أى لحظة . وفى يأس قام الرقيب الأول بجر جثة مونتاجو إلى الخلف . وحاولت أن أساعده فى هذه المهمة وأنا أحس بضعف شديد . وانزلقنا إلى احدى الحفر الناجمة عن القاء القنابل . كان الجزء الخلفى من رأس مونتاجو قد أطيح به تماما ولكن وجهه كانت ترتسم عليه ابتسامة شخص عبيط كما لو كان يضحك فى سخرية من نومه . لم أنس فى حياتى منظر هذا الوجه على الأطلاق . الابتسامة الأخيرة لمرحلة تطور .

"وتوقف القصف . كنت قد فقدت الرغبة فى أى شيء وحتى الرغبة فى أن أكون جبانا . وتم اطلاق الرصاص على ظهور الكثيرين أثناء انطلاقهم

فى الجرى . وكنت واحداً من القلائل الذين تمكنوا من الوصول إلى الخندق الذى بدأنا منه أحياء وبدون اية اصابات . وما إن وصلنا إلى ذلك الخندق حتى بدأ القصف الشديد مرة أخرى من جانبنا .

تولى القيادة ملازم أول جريح . وجثم إلى جوارى وقد ظهر جرح بالغ على خده . كانت عيناه تتقدان فى عتمة . وربما كان هذا هو الشكل الذى نبدو عليه جميعا . فكلما تمكن الإنسان من البقاء على قيد الحياة لفترة أطول كلما أصبح الأمر خرافياً وزائغا .

"جاء لنجدتنا المزيد من القوات وظهر ضابط برتبة كولونيل . ادركت أن هذا الطوفان الرهيب يجب أن يكون نهاية لجريمة بربرية ارتكبت ضد الحضارة . يجب أن يكون نهاية لأكذوبة بشرية رهيبة . ولم أكن أعرف آنئذ ماهية تلك الأكذوبة بسبب معلوماتى الضئيلة للغاية آنئذ عن التاريخ أو العلم . وأنا أدرك الآن أن تلك الأكذوبة تتمثل فى أننا نعتقد أننا كنا نحقق هدفا معينا يخدم خطة معينة وأن كل الأمور ستكون على مايرام فى النهاية لأن هناك خطة عظمى تشمل الجميع . هذه هى الأكذوبة التى تحل محل الحقيقة . لا توجد هناك خطة . وكل شىء هو من قبيل المجازفات والمقامرات . والشىء الوحيد الذى سيحافظ علينا هو أنفسنا"

ولاذ بالصمت . وكان يحملق فى اتجاه البحر كما لو كانت المعركة هنالك مليئة بالطين والجحيم الرمادى .

بعد أن توقف القصف ظللت فى الحفرة طوال الليل . وعودت نفسى على التعايش مع الرائحة الرهيبة . وازدادت البرودة ليلا . وخيل إلى أننى أصبت بالحمى . ولكنى صممت على عدم الخروج من الحفرة الا عقب انتهاء المعركة . لم أخجل من نفسى بسبب هذا التصرف بل تمنيت أن ينجح الألمان فى اجتياح مواقعنا وأن يسمحوا لى بأن أقدم نفسى أسيرا لديهم .

"الحمى . ما ظننته بطريق الخطأ أنه الحمى لم يكن حمى وانما نيران الوجود على قيد الحياة . أو النزعة الشديدة نحو الوجود . وهذه حقيقة أدركها الآن . أنا لا أهدف إلى الدفاع عن نفسى . فكل حالات الحمى والهذيان تكون معادية لمصلحة المجتمع إلى حد ما وأنا أقول هذا الكلام من الناحية التحليلية وليس من الناحية الفلسفية . لقد تمكنت فى تلك الليلة

أن استرجع كافة الأحاسيس المادية . وهذه الاسترجاعات حتى لأبسط الأشياء وأقل الأشياء تساميا مثل : كوب ملىء بالماء أو رائحة شواء لحوم الخنزير قد بدت لى وكأنها تتعدى وتتفوق أو على الأقل تتساوى مع ذكرياتي عن أعظم الأعمال الفنية وأسمى الانتاج الموسيقى بل وتتساوى مع أرقّ اللحظات مع ليلى . لقد عشت تجربة هى على النقيض تماما مما أكد عليه الميتافيزيقيون فى القرن العشرين على أنه هو الحقيقة : ان كل ما هو آخر يكون معاديا للفرد . لقد ادركت أن كل ماهو آخر يبدو مختارا حتى تلك الجثة وتلك الفئران التى تطلق صرخات طويلة حادة . وأن تكون قادراً على الدخول فى تجربة ـ بغض النظر عما اذا كانت تلك التجربة متمثلة فى حالة من البرد والجوع والغثيان ـ فهو فى حد ذاته بمثابة معجزة . حاول أن تتخيل أنك تكتشف فى يوم ما أن لديك حاسة سادسة . وهى حاسة جديدة لم يكن أحد يتصور أنها موجودة فى الإنسان حتى ذلك الوقت . وهى شىء ما لا يمكن فهمه من خلال الاحساس والمشاهدة والحواس الخمسة التقليدية . ولكنها حاسة أكثر عمقا من الحواس التقليدية وهى المصدر الذى تنساب منه باقى الحواس الأخرى . فالكلمة "يكون" لم تعد كلمة سلبية أو وصفية ولكنها كلمة فعالة .. وتكاد تكون ملحة وحتمية وآمرة .

"وقبل أن ينتهى الليل أدركت اننى امتلك ما يسميه المتدينون بالتخاطب . اذ سطع علىَّ بالفعل ضوء من السماء حيث كانت هناك قذائف نجومية دائمة ومستمرة . ولكننى لم يكن لدى حُسن فهم لله . لم يكن لدى سوى ادراك بأننى قد قفزت فترة حياتية خلال ليلة واحدة .

وصمت للحظات قصيرة . وتمنيت لو كان هناك شخص ما إلى جوارى ولتكن آليسون ليشارك معى تجربة الظلام الحى . ولو أنه كان سينبغى عليهم أن يكونوا قد مروا معى فى تلك التجربة التى شهدتها فى خلال الشهور الأخيرة المنصرمة . الرغبة الجارفة فى البقاء على قيد الحياة : لقد عفوت عن نفسى . وعفوت عن فشلها فى أن تموت .

"اننى أحاول أن أصف لك ما حدث لى . والحالة التى كنت عليها . وليس الحالة التى كان ينبغى علىَّ أن أكون عليها . ليس مكامن الخطأ والصواب الخاصة بالاعتراض الواعى . وأرجو ألا تنسى ذلك .

"فى منتصف الليل زحفت عائدا إلى القرية على بطنى . وكنت أخشى

أن يقوم الحراس الليليون باطلاق النار عليَّ . ولكن المساحة كانت مليئة بالجثث وكنت أشق طريقى فى وسط صحراء زاخرة بالموتى . ومررت بجوار خندق للاتصالات وكان مليئا بالصمت المطبق . يقول المثل الاسبانى إن الرجل الذى يتعرض للموت غرقا يتعلم كيف يعوم . وأدركت أننى من الناحية الرسمية فى عداد الموتى . وهذا معناه أننى اذا هربت فلن يقوم أحد بمطاردتى وإلقاء القبض عليَّ . وبحلول مطلع الفجر وصلت إلى مسافة عشرة أميال خلف خطوطنا . وعثرت على فلاحين قاموا بايوائى وإطعامى فى ذلك اليوم التالى . وفى الليلة التالية واصلت المسير عبر الحقول وفى اتجاه الغرب دائما عبر مقاطعة أرتوا بشمال فرنسا فى اتجاه بولونيا .

كانت بولونيا مليئة بالجنود والبوليس الحربى فبدأ اليأس يدب فى قلبى . بالطبع كان من المتعذر تماما أن أصعد على ظهر سفينة حربية بدون أن يكون لدى أوراق رسمية تنص على سفرى بالسفينة . وفكرت أن أقدم نفسى عن رصيف الميناء لكى أقول لهم إن محفظة أوراقى سرقت .. ولكن لم يكن لدى الجرأة التى تعيننى على تنفيذ هذه الخطة . وبعدئذ وقف الحظ إلى جوارى . اذ أتاح لى الحظ الفرصة لأن أقوم بنشل جندى من لواء الرماة الذين يستخدمون البنادق كان مخمورا للغاية . فدفعته لأن يتناول المزيد من الخمور لكى تزداد حالته سوءاً . ثم لحقت بسفينة مغادرة للميناء بينما كان المسكين مازال يغط فى شخيره ونومه فى حجرة بالقرب من المحطة .

"ثم بدأت متاعبى الحقيقية ، ولكننى قد تحدثت بما فيه الكفاية" .

(٢١)

بعد فترة من الصمت . سألته وما الذى حدث عندما رجعت إلى منزلك ؟
- لقد تأخر الوقت غداً نستكمل

وأشعل المصباح مرة أخرى . وعندما انتصب بقامته عقب الانتهاء من تعديل فتيلة المصباح حملق فى وجهى . وقال : ألا تشعر بالخجل لأنك ضيف رجل خائن لبلاده ؟
- لا أعتقد أنك كنت خائنا للجنس البشرى .

وتحركنا نحو نوافذ حجرة نومه : الجنس البشرى لا يشكل أهمية . ولكن

الذات أو النفس هى التى ينبغى عدم خيانتها .

"أظن انه يمكن للمرء أن يقول إن هتلر لم يقم بخيانة ذاته ".

فاستدار نحوى : أنت على حق . انه لم يخن نفسه . ولكن الملايين . الألمان خانوا أنفسهم . وتلك كانت هى المأساة . فالمسألة ليست ذلك الرجل الواحد الذى لديه الشجاعة أن يكون شريرا ولكنها تلك الملايين التى لم يكن لديها الشجاعة لأن يكونوا أخيارا .

وقاد الطريق إلى داخل غرفتى وأشعل المصباح هناك من أجلى : طابت ليلتك يانيقولاس .

وعندما رجعت من غرفة الحمام نظرت إلى ساعتى . كانت الساعة الواحدة الا الربع . خلعت ملابسى ثم اطفأت المصباح ووقفت للحظات بجوار النافذة المفتوحة . كانت هناك رائحة غامضة تشبه رائحة مياه الصرف فى الهواء الساكن . رائحة سيارة للصرف الصحى موجودة فى مكان ما . دخلت إلى السرير واضطجعت ورحت أفكر فى كلام كونشيس .

بدا لى أكثر إنسانية وأكثر تعرضا للوقوع فى الخطأ عما كان عليه من قبل الا أنه مع ذلك كان يشوبه عدم النقاء فى سرد قصته . فما قاله هو أقرب إلى السيرة الحياتية منه إلى السيرة الذاتية وما قاله هو اقرب إلى الدروس الخفية منه إلى الاعتراف الحقيقى . ولم تكن المسألة هى أننى كنت أعمى البصيرة حتى أننى لم أشاهد أى شىء يمكن أن أستفيد منه ولكن كانت المسألة هى : كيف تجرأ أن يقول كل هذا الكلام رغم أنه لم يكن يعرف عنى سوى قدر ضئيل للغاية من المعلومات ؟ وما الذى دفعه أن يهتم بى كل هذا الاهتمام ؟

كنت على وشك الاستغراق فى النوم ولكن ترامى إلى ذهنى صوت شبيه بهلوسة خفيفة يصعب تحديد كنهها على وجه الدقة . واعتقدت أن الصوت منبعث بالتأكيد عبر الحوائط من جراموفون فى غرفة نوم كونشيس . فجلست منتصب القامة ثم وضعت أذنى على الحائط ورحت أصغى . وبعدئذ قفزت من السرير واتجهت إلى النافذة . كان الصوت يزحف لأسفل مترامیا من الخارج من مكان ما بعيد على مسافة ميل أو أكثر . لم يكن هناك أى ضوء ولا أى صوت واضح باستثناء صوت حشرات الحديقة . ولا شىء

سوى تلك الدندنة الخفيفة للغاية لمجموعة من الرجال يتغنون من على مسافة بعيدة . واعتقدت أنهم ربما يكونون من صيادى الأسماك . ولكن لماذا يوجدون فى التلال ؟

ازداد وضوح الأصوات بعض الشىء . ربما مع ظهور هبة ريح فجائية . تعاظمت الأصوات ثم خفتت مرة أخرى . وخيل إلى فى لحظة لا يمكن تصديقها اننى سمعت شيئا ما مألوفا فى ذلك الصوت . دبت الحياة فى الصوت مرة أخرى . تأكدت بما لا يدع مجالا للشك من نوع الكلمات التى كان يتغنى بها هنالك . لقد كانت "تبرارى" ثم انخفض الصوت بشكل متعمد . ولست أدرى سبب ذلك : هل وجود مسافة بعيدة أو وجود جهاز تسجيل . ومن الأرجح أنه صوت منبعث من جهاز تسجيل . خيل لى أيضا أنه توجد بعض التحريفات النغمية الا أننى لم أتأكد من ذلك تماما . ولكن الأغنية كانت تنساب فى بطء واعتام واظلام شبيه بالأحلام وكما لو كان الغناء ينبعث إلى الخارج قادما من النجوم بحيث كان عليه أن يخترق كل ذلك الليل والفضاء الكونى لكى يصل الىَّ .

ذهبت إلى باب غرفتى وفتحته . وكان لدى شعور بأن جهاز التسجيل موجود بالتأكيد فى غرفة كونشيس . وربما يكون قد أوصل الصوت على نحو ما بمكبر للصوت موجود فى التلال . أغلقت الباب وأسندت ظهرى عليه . كانت الأصوات والأغنية تنساب فى خفوت لأسفل خارجة من جوف الليل وعبر غابة الصنوبر وفوق المنزل ومنه إلى البحر . فجأة دفعتنى اللمسات الشعرية للموقف بأكمله والتى تكتنفها روح الفكاهة والسخافة والرقة إلى أن ابتسم . من المؤكد أن ذلك بمثابة مزاح متعمد من كونشيس على أساس أنها مجرد اختبار لروح الفكاهة عندى واختبار للباقتى وذكائى . لم تكن هناك حاجة لأن أسارع لاكتشاف الكيفية التى يتم بها تنفيذ ذلك الأمر . فهذا هو ما سأكتشفه مع حلول الصباح . وإلى أن يجىء الصباح يجب أن استمتع بسماع ذلك الصوت . ورجعت عائدا إلى النافذة .

لقد أصبحت الأصوات ضعيفة للغاية لا تكاد تسمع . الا أن شيئا ما آخر قد بدأ يتغلغل فى عنف . انها رائحة المجارى التى سبق أن لاحظتها من قبل . رائحة مثيرة للغثيان والاغماء تتألف من خليط من روائح الجثث

المتعفنة والبول والبراز وكانت نفاذة للغاية حتى اننى اضطررت للامساك بأنفى مع التنفس من خلال فمى ، مددت رأسى لأسفل لأن مصدر الرائحة كان قريبا للغاية على ما يبدو . واتضح لى أن هذه الرائحة كانت مرتبطة بالغناء . لم أتمكن من مشاهدة أى شىء غير عادى أو أى حركة غير عادية .

خفت الصوت تدريجيا إلى أن تلاشى تماما . وبعد دقائق بدأت الرائحة تتلاشى . ظللت واقفا لمدة عشر دقائق مع تركيز عينى وأذنى بهدف ملاحظة أدنى حركة ولكن لم تكن هناك أية حركات . لا شىء على الاطلاق . كانت حشرات الجدجد تسقسق وكانت النجوم تنبض . لقد تلاشت التجربة تماما . ورحت أتشمم بجوار النافذة . كانت الرائحة العفنة مازالت عالقة فى الهواء ولكن كانت تطغى عليها الرائحة الطبيعية لأشجار الصنوبر والبحر .

وسرعان ما بدا لى الأمر وكأننى كنت أتخيل كل هذه الأشياء التى حدثت . وظللت مستيقظا على مدى ساعة أخرى على الاقل . ولكن لم يحدث أى شىء آخر . ولم تفض الافتراضات إلى شىء مقبول أو معقول .

لقد دخلت إلى منطقة النفوذ .

(٢٢)

طرق شخص علىَّ الباب . نظرت إلى ساعتى . كانت الساعة العاشرة والنصف صباحا . اتجهت الى الباب وسمعت صوت شبشب ماريا وهى تنزل على السلالم . وتحت الضوء الباهر وصخب حشرات الحصاد بدت لى أحداث الليلة المنصرمة وكأنها أمور خيالية على نحو ما وكما كنت قد تناولت قدرا يسيرا من المخدرات . كنت أشعر بصفاء الذهن التام . وارتديت ملابسى وحلقت ذقنى ونزلت على السلالم لكى أتناول طعام الافطار تحت صف الأعمدة . وظهرت ماريا حاملة القهوة . تحاول ـ شأنها شأن القرويات مع الأجانب ـ أن تتكلم فى مزيد من الوضوح وانما نطقت فى حروف سريعة غير واضحة ومتداخلة مع بعضها البعض بنفس الطريقة التى اعتادت أن تنطق بها الحروف الهجائية اللينة .

تناولت طعام الافطار ثم حملت الصينية عائدا بها على طول جانب صف الأعمدة ونزلت بها على السلالم المؤدية إلى كوخها . كانت الغرفة الأمامية

بالكوخ مجهزة لتخدم كمطبخ . كانت تشبه أى غرفة مطبخ/معيشة أخرى في فراكسوس . كل ما هنالك أن الأوعية والآنية كانت أكثر طموحا والموقد أكثر ضخامة . دخلت إلى المطبخ ثم وضعت الصينية على المنضدة .

خرجت ماريا من الغرفة الخلفية . ولمحت فى تلك الغرفة سريرا كبيرا من النحاس الأصفر والمزيد من الصور الفوتوغرافية . ولاحت ابتسامة خفيفة على فمها . ولكنها كانت ابتسامة متعلقة بالموقف وليست ابتسامة جوهرية من أعماق القلب . وكان من الصعب أن أوجه اليها أسئلة باللغة الانجليزية دون أن أبدو فضوليا . ترددت للحظات . ثم شاهدت وجهها خاويا مثل الباب الموجود وراءها فقررت عدم توجيه أسئلة اليها .

سرت فى الممر الذى يقع بين الكوخ والمنزل ومنه إلى حديقة الخضراوات . وعلى الجانب الغربى من المنزل توجد نافذة مغلقة بالشيش ومتوافقة مع الباب الموجود عند نهاية غرفة نوم كونشيس . وبدا أنه يوجد هناك شىء ما أكثر من مجرد دولاب . نظرت لأعلى إلى ظهر المنزل الذى يواجه جهة الشمال وإلى غرفتى . كان من السهل الاختباء وراء الحائط الخلفى للكوخ الا أن الأرض كانت صلبة وعارية ولم تظهر أى شىء . واصلت المسير إلى داخل التعريشة الموجودة فى داخل الحديقة . ورأت تمثال اله الاخصاب يمد يديه نحوى مبتسما ابتسامته الوثنية فى وجهى الانجليزى .

"ممنوع الدخول" .

وبعد عشر دقائق وصلت إلى الشاطىء الخاص . كانت المياه مثل الزجاج الأزرق والأخضر . وكانت باردة فى اللحظات الأولى وبعدئذ أصبحت مقبولة ومنعشة ولذيذة . رحت أسبح بين الصخور المنحدرة ومنها إلى البحر المكشوف . تمكنت من مشاهدة كونشيس يجلس فى الفراندة يقرأ كتابا . وبعد برهة قصير نهض واقفا . فلوحت له بيدى . فرفع ذراعيه لأعلى بطريقته الكهنوتية . وهى طريقة أدركت منها آنئذ ان بها شيئا رمزيا . وليس شىء ما ناجم عن المصادفة . ظهر كونشيس . وكان يرغب فى أن يظهر لكى ينشر بركاته لكى تصدر تعليماته ويتولى القيادة . ملك ومنطقة نفوذه . وغطست تحت الماء ولكن المياه المالحة لسعت عينى فارتفعت إلى سطح الماء . وكان كونشيس قد استدار مبتعدا ربما لكى

يتحدث مع أرييل الذى يشغل الاسطوانات أو مع كاليبان الذى كان يحمل دلوا مليئا بالأمعاء المتعفنة أو ربما مع .. ولكنى استدرت معطيا ظهرى تجاه المنزل . كان من السخف أن أعول كثيرا على وقع الأقدام السريعة . وعلى مجرد اللمحة الخاطفة السريعة للغاية لهيكل له لون أبيض .

وعندما قفلت راجعا إلى الشاطىء بعد مرور عشر دقائق كان كونشيس جالساً على العارضة الخشبية . ولدى خروجى من الماء نهض واقفا وقال : سوف نستقل الزورق ونذهب إلى بتروكارتافى .

وبتروكارتافى ومعناها "سفية حجرية" هى جزيرة صغيرة تقع على مسافة نصف ميل من جزيرة فراكسوس . وكان يرتدى ملابس العوم علاوة على طاقية صارخة بالألوان . امسك فى يده بزعانف الحوت المطاطية الزرقاء بالاضافة إلى زوج من أقنعة الوجه وأدوات التنفس تحت الماء ، سرت وراء ظهره البنى اللون العجوز فوق الحصباء الساخنة .

أسرعت فى خطواتى إلى أن أصبحت محاذيا له أثناء المسير وقلت : لقد سمعت أصواتا أثناء الليل .

لم تظهر عليه الدهشة . فقلت "جهاز التسجيل . لم يسبق فى حياتى أن مررت بتجربة كهذه . فكرة غير عادية وشاذة .

لم يرد علىَّ . واكتفى بأن اتخذ خطوات لأسفل إلى القارب ثم فتح غطاء الموتور . قمت بفك الحبل من الحلقة الحديدية المثبتة فى الخرسانة المسلحة بالشاطىء . ثم جلست القرفصاء فوق حاجز الماء ورحت أرقبه وهو يحاول فتح الباب المؤدى إلى غرفة فى باطن الزورق . ثم قلت : أظن أن لديك مكبرات للصوت بين الأشجار .

ـ لم أسمع أى شىء .

رحت أعبث بالحبل بين أصابع يدى ، وابتسمت ثم قلت : لكنك تعرف أننى سمعت شيئا ما .

أشار لى بيده لكى أعبر إلى الزورق فخطوت إلى داخله وجلست على مقعد التجديف فى مواجهته . وبعدئذ قلت : أردت أن أشكرك على إعداد هذه التجربة الفريدة من نوعها من أجلى .

ـ اننى لم أعد ولم أنظم أى شىء .

ـ من الصعب أن أصدق ذلك .

ظللنا نحملق في بعضنا البعض للحظات . كانت الطاقية قد جعلته شبيها بشمبانزى يقوم بتمثيل دور مسرحي . والابتسامة مازالت مرتسمة على وجهه لكنه لم يرد على ابتسامتي بابتسامة من جانبه . بدا الأمر وكأنني ارتكبت غلطة اجتماعية بسبب تحدثي عن ذلك الغناء . وتوقف عن القيام بتهيئة مقبض تشغيل الموتور .

ـ دعني أفعل ذلك نيابة عنك أنا لا أرغب في الاساءة اليك . وعلى كل حال فلن أتحدث في ذلك الأمر مرة أخرى .

وانحنيت لكي أدير المقبض . فسقطت يده على كتفي وقال : لا أشعر أنك أسأت إلى يانيقولاس . وأنا لا أطلب منك أن تصدق . كل ما أريده منك أن تتظاهر بأنك تصدق . فسيكون الامر أكثر سهولة .

كان ذلك أمرا غريبا . فمن خلال حركة واحدة نجح في انهاء التوتر بيننا . وكنت أدرك أنه يلعب معي نوعا من الحيل الخادعة . لعبة خادعة مثل لعبة زهر النرد . وكنت أدرك أنه يشعر بالارتياح نحوى ، خرجنا بالقارب من الخليج الصغير . لاحظت وجود ندبتين غائرتين وجرح قديم في الجزء العلوى من ذراعه اليمنى . خمنت أن هذه الجروح ناجمة عن اجراءات تنفيذ حكم الاعدام فيه أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان أثناء قيادته للزورق شبيها بالزعيم الهندى غاندى ولكن لدى اقترابنا من جزيرة بتروكارتافى نهض واقفا . لقد صبغت السنوات المتواصلة من أشعة الشمس بشرته باللون البنى فأصبحت مماثلة تماما لبشرة صيادى السمك بالجزيرة .

تتبعت ضربات أقدامه المتأنية فوق الأرض المليئة بكتل الصخور التى ترفرف فوقها اسراب السمك ، رفع كونشيس رأسه فوق سطح الماء وقال : سأذهب لكي أحضر الزورق انتظرني هنا .

واستأنفت السباحة ، وتتبعني سرب يضم بضع مئات من الأسماك الذهبية اللون . واستدرت فاستدارت ورائى ثم انطلقت في السباحة فانطلقت ورائى . استلقيت على بلاطة صخرية كانت تدفىء المياه بحيث اصبحت درجة حرارتها مماثلة لدرجة حرارة الماء في الحمامات الساخنة ، ووقع ظل الزورق على الصخرة .. قادني كونشيس عبر مسافة قصيرة إلى

شق عميق بين جلمودين صخريين .. وهناك قام بتعليق قطعة من القماش الأبيض عند طرف صنارة .

سألنى : مارأيك فى عالم البحار الموجود تحتنا ؟

ـ رائع .. ويشبه الحلم

ـ انه يشبه عالم الانسان ولكن منذ ملايين السنين .

وألقى كونشيس بالأخطبوط تحت مقعد المجدف ، وأضاف متسائلا هل تعتقد أن هذه الأسماك لديها حياة عقب الموت ؟ .

فنظرت لأسفل نحو الكتلة المكسوة بطبقة لزجة ثم نظرت لأعلى لكى أواجه ابتسامته الجافة . لقد مالت طاقيته الحمراء ، البيضاء قليلا على جانب .. وأصبح منظره شبيها ببيكاسو الذى يقلد غاندى الذى يقلد القراصنة . ثم تحرك بالقارب ، هززت رأسى . وأومأ كونشيس برأسه ورفع قطعة القماش البيضاء ، كانت أسنانه المنتظمة المتساوية تلمع فى تزييف وحيوية تحت الضوء الباهر للشمس ، وألمح إلى أن الغباء يفضى إلى الموت وكأنه يريد أن يقول :

انظر إلىّ . لقد تمكنت من البقاء على قيد الحياة .

تناولنا طعام الغذاء تحت صف الأعمدة . كانت حشرات زيز الحصاد تصدح بين أشجار الصنوبر المحيطة بنا وقت حرارة الجو خارج نطاق البواكى الباردة .

حاولت أثناء عودتنا من البحر بذل مجهود واحد آخر لاختراق الموقف بأن أدفعه للتحدث عن ليفاريير .

ولكنه تردد ثم ألقى نظرة علىّ فى جدية ولكنه لم يستطع أن يخفى تماما الابتسامة الكامنة وراء تلك النظرة .

ـ هل هذا هو ما يعلمونه لك فى أكسفورد الآن ؟ هل يقرأ المرء الفصول الأخيرة من الكتاب أولا ؟

اضطررت لأن أبتسم وألقى ببصرى لأسفل ، فاذا كانت اجابته لم تشبع حب الاستطلاع عندى فإنها قد تخطت على الأقل ادعاء آخر وحركتنا خطوة

إلى الأمام ، وطوال فترة تناول الغداء تحدثنا عن عالم البحار ، كان عالم البحار بالنسبة له بمثابة قصيدة عملاقة ، بمثابة حانوت رجل مشتغل بالكيمياء القديمة حيث يكون لكل شيء داخل دكانه قيمة غامضة ، بمثابة تاريخ داخلي ينبغي تتبع نشأته ، لقد جعل التاريخ الطبيعي يبدو شبيها بشيء مركزي وشاعري الطابع وليس مجالا لنشاط رؤساء فرق الكشافة .

ما أن انتهينا من تناول الطعام حتى نهض واقفا . كان بصدد الذهاب الى الدور العلوي من أجل الاضطجاع قليلا في فترة القيلولة وكان من المقرر أن نتقابل مرة أخرى في الوقت الخاص بتناول الشاي .

ـ وما الذي ستفعله ؟

فتحت نسخة من مجلة « التايم » القديمة كانت إلى جواري ، وفي داخلها عثرت على نسخة من كتيب عن القرن السابع عشر .

فقال في دهشة : ألم تقرأ هذا الكتيب حتى الآن ؟

إنه كتيب نادر رفع يده ملوحا لي ودخل إلى المنزل .

رحت أتجول في تكاسل بين الأشجار . ثم جلست وأسندت ظهري على جذع شجرة واستغرقت في قراءة الكتيب . انه يضم الاعترافات الخاصة بالكاتب روبرت فولكس . فعلى الرغم من أنه كان من العلماء المثقفين وقام في عام ١٦٧٧ بالاعتداء على فتاة صغيرة وحبلها ثم قام بقتل المولود فحكم عليه بالإعدام بسبب قتله للطفل المولود ، كان قد « وصل الى قمة الحقوق والانحلال واللاتقوى ، رغم أنه كان يدرك أن القسيس « هو المرآة التي ينظر الناس فيها » ..

وقال مزمجرا من الزنزانة التي احتجز فيها قبل إعدامه .

« اسحقوا الحية الخرافية » . فأنا ميت بحكم الشرع والقانون . ولكن بالنسبة للفتاة فإنه أنكر أنه قد حاول أن يفسدها وهي في سن التاسعة من عمرها » لأن « كلتي عينيها قد شهدت وكلتي يديها قد فعلت . وأقسم لكم كرجل ميت أن هذا هو ماحدث » ..

الكتيب يقع في حوالي ٤٠ صفحة فقرأته في خلال نصف ساعة كان مثلما وصفه كونشيس من قبل ـ أكثر صدقا من أي قصة تاريخية وأكثر

اثارة للمشاعر وللذكريات والعواطف ، استلقيت على ظهرى وحملقت من خلال الأغصان المتشابكة إلى السماء . بدا لى أنه من الغريب أن يكون هذا الكتيب القديم إلى جوارى .

أغلقت عينى ورحت أرقب صفائح اللون الدافىء التى انسابت لدى استرخائى . ثم رحت فى النوم .

عندما استيقظت نظرت إلى ساعة يدى كان كونشيس هناك واقفا فى الظلال الخضراء على مسافة سبعين ياردة من أخدود المياه . نهضت واقفا دون أن أعرف ما إذا كان علىّ أن أنادى عليه أو أصفق بيدى أو أشعر بالخوف أو أضحك .

لم استطع أن أفعل شيئا سوى الوقوف والحملقة فى دهشة . كان مرتديا زيا أسود تماما .

وكان الشعر طويلا والياقة موشاة باللون الأبيض حول رقبته . كان واقفا فى شىء من التكلف والتصنع . يشبه الرسام رامبرانت . كان وجه الشبه شديدا على نحو مزعج ولكنه مع ذلك يبدو غير متلائم وفى غير موضعه ـ رجلا ثقيلا ووقورا وله لون أحمر . انه روبرت فولكس .

نظرت فيما حولى متوقعا إلى حد ما أن أشاهد كونشيس فى مكان ما خلفى . ولكن لم يكن هناك أحد . نظرت مرة أخرى إلى ذلك الهيكل الذى لم يتحرك من مكانه والذى ظل يحملق فى من الظلال عبر ضوء الشمس الذى يغمر الأخدود . عندئذ ظهر هيكل آخر من خلف شجرة الخروب .

انه فتاة صغيرة ذات وجه أبيض فى الرابعة عشرة من العمر وترتدى فستانا بنيا .

استطعت أن أتبين وجود طاقية قرمزية على الجزء الخلفى من رأسها .

كان شعرها طويلا . وسارت الفتاة إلى أن أصبحت وراء الرجل ثم راحت تحملق فى وجهى . كانت أقصر بكثير منه ولا يكاد طولها يصل إلى ضلوعه . ظللنا واقفين نحملق فى بعضنا البعض على مدى نصف دقيقة تقريبا .

وبعدئذ رفعت ذراعى وابتسمت لهما . ولكن لم تظهر ردود فعل عليهما ،

فتحركت للأمام نحوهما لمسافة عشر ياردات أو نحو ذلك تحت ضوء الشمس فى اتجاه حافة الأخدود وبقدر ما أستطيع .

ناديت باللغة اليونانية : طاب يومكما . ماذا تفعلان هنا ؟

لكنهما لم يبادرا بالردّ .

كانا يحملقات فى وجهى - وخيل إلىّ أن الرجل يحملق فى . أما الفتاة فتحملق بدون أن تظهر فى وجهها أية تعبيرات وتدفقت رياح شمسية فأدت إلى رفرفة علم بني اللون هو بمثابة جزء من ظهر فستانها الذى تطاير على جانب ..

اعتقدت أنه الأديب هنرى جيمس . لقد أكتشف الرجل العجوز أنه يمكن اللجوء إلى التهديد بالقوة لارغامى على عمل شيء معين . وبعدئذ ستظهر وقاحته . تذكرت المناقشة التى تمت بيننا عن الرواية « الكلمات هى من أجل تناول الحقائق . وليس من أجل سرد القصص والروايات الخيالية » .

نظرت فى اتجاه المنزل . يجب أن يظهر كونشيس نفسه فى تلك اللحظات .

لكنه لم يفعل . تحركت الفتاة مقتربة أكثر من الرجل الذى وضع يده على كتفها القريب منه . بدا كأنهما ينتظران منى أن أفعل شيئًا .

نظرت إلى أعلى نحو حافة الأخدود . كان من الصعب اجتيازه .

بدا الجانب الذى أقف عنده ينحدر فى سهولة أكثر ألى الأرضية . فقمت بحركة تعبيرية لتوضيح ما سأقدم عليه . ثم بدأت فى الصعود على التل . نظرت إلى الوراء نحو الشخصين . استدارا وراحا يرقبانى إلى أن اختفيا عن الأنظار . فزدت من سرعتى ، ونظرت إلى المكان الذى سبق أن نمت فيه . كان الكتيب ومجلة التايم ملقيين فوق السجادة الصغيرة التى تتألف من الأوراق الأبرية للنباتات . فسرت إلى ما وراء شجرة الخروب إلى أن وصلت الى شريط الأسلاك الشائكة الذى يمر بين الأشجار عند حافة الجرف العالى للجزيرة . كانت الأكواخ الثلاثة تقع فى بستانها الصغير المليء بأشجار الزيتون .

وفى نوع من الذعر والهلع سرت عائدا إلى شجرة الخروب ، لم يكن

بمقدورى أن أتخيل أن ذلك الرجل السريع الغضب قد انبطح على الأرض فى مكان ما بهدف التوارى والتخفى .

ترامي الى سمعي صوت الجرس آتيا من جهة المنزل . دق ثلاث دقات .

فنظرت إلى ساعتى ـ انه وقت تناول الشاى .

اعتقدت أنه كان ينبغي عليّ أن أشعر بالخوف والذعر بسبب ماشاهدته . لكننى لم أشعر بالخوف وانما بالدهشة البالغة ، فكل من الرجل والفتاة ذات الوجة الشاحب كان يبدو من الانجليز . ومهما كانت الجنسية التى ينتميان إليها فإننى أدرك أنهما ليسا من سكان الجزيرة ، لذلك كان عليّ أن أفترض أنهما قد حضرا خصيصا إلى الجزيرة وأنهما انتظرا فى مكان ما قريب لحين أبدأ فى قراءة الكتيب فولكس . ولقد سهلت عليهما الأمر بأن رحت فى إغفاءة من النوم ، الاّ أن ذلك كان من قبيل المصادفة البحتة . وكيف سمح كونشيس لهذين الشخصين بالوقوف فى مكان قريب وإلى أىّ مكان ذهبا لكى يختبئا ؟

وعلى مدى دقائق قليلة سمحت لذهنى أن يتوغل فى الظلام . كان هناك شىء ما فيزيقى بحت فى هذه التجارب التى افترض فيها أنها تجارب « خارقة للطبيعة » هذا بالإضافة إلى أن « التجليات » تكون أقل اقناعا اذا ظهرت فى وضح النهار . بدا الأمر كأنه قد قصد لى أن أدرك أن هذه التجليات ليست فى حقيقة الأمر خارقة للطبيعة . وقفت بين الأشجار وأنا فى حيرة كاملة . لقد وضعت نفسى على نحو ما فى خضم من الخيالات الجامحة والأوهام الخاصة برجل عجوز غير عادى . كان ذلك واضحا . لماذا تحتم عليه أن يبقيهما ولماذا تحتم عليه أن يفهم كنههما على ذلك النحو الغريب ولماذا تحتم عليه أن يختارنى أنا بالذات لأكون المستمع الوحيد له . كل ذلك ظل لغزا محيرا للغاية ، الاّ أننى كنت أدرك أننى أصبحت متورطا فى شىء عجيب حتى أنه صار من المستحيل أن أتخلى عن ذلك الشىء من خلال نفاد الصبر أو افتقاد روح المزاح والفكاهة .

عبرت الأخدود مرة أخرى والتقطت مجلة التايم والكتيب . وعندما نظرت ورائى شعرت بمسحة من الخوف . الخوف من الأمور الخارقة للطبيعة .

وأثناء سيرى الى حيث يجلس كونشيس بينما ظهره فى اتجاهى قررت

أن أقوم برد فعل من جانبى .

التفت كونشيس وتساءل : هل استمتعت بالاسترخاء في فترة الظهيرة؟

ـ نعم .. شكرا جزيلا .

ـ أقرأت الكتيب ؟

« أنت على حق . إنه أكثر روعة من أى رواية أو قصة تاريخية . وأنا اشكرك من كل قلبى .

وبعد أن شعر بالارتياح ذهب لكى يعزف على آلة البيان القيثارى القديمة لمدة عشرين دقيقة . واستغرقت فى التفكير أثناء الاصغاء إلى عزفه . إذ بدا لى أن هذه الاحداث قد قصد بها ادخال الخداع على كافة الحواس . فأحداث الليلة الماضية غطت حاستى السمع والشم . أما أحداث مابعد ظهر اليوم وكذلك تلك اللمحة الخاطفة لذلك الهيكل بالأسى قد قصد بها تغطية حاسة الابصار . أما حاسة التذوق فيبدو أنها غير ملائمة ولكن ماذا عن حاسة اللمس .. كيف يمكننى أن أصدق أو حتى أدعى اننى اصدق أن الشىء الذى لمسته هو شىء خارق للطبيعة » ؟ .

لم يكن هناك سوى شىء واحد : ألا وهو شعوره بالقلق . قد أصبح له تفسير واحد الآن . انه قد مارس حيله الخادعة للحواس على كل من مستفورد ، والليفاريير . وطلب منهما أن يقسما بعدم افشاء ذلك السر .

وعندما رجع أخذنى معه لكى يروى خضراواته بالماء .

ثم قام بأداء تمرينات التنفس العميق . ثم ابتسم فى وجهى وقفز إلى الوراء فجأة لفترة ٢٤ ساعة . حيث قال فى لهجة آمرة وليس على هيئة توجيه سؤال والآن .

حدثنى عن هذه الفتاة .

ـ لا يوجد هناك بالفعل ما أقوله .

ـ هل هى التى تخلت عنك ؟

ـ ابدا . أنا الذى تخليت عنها .

ـ وأنت الآن ترغب في... ؟

لقد انتهى كل شيء . فقد فات الآوان . سبق السيف العزل .

ـ أنت شبيه بأدونيس . فأنت في غاية الوسامة . هل أصبت بأية تقرحات ؟

نفس الارتباك الذى شعرت به منذ أن اكتشفت أنه قد درس الطب .

قلت : معترفا له : في حقيقة الأمر لقد أصبت بالتقيحات لقد اصبت بمرض الزهرى في اوائل هذا العام في اثينا وأنا الآن ، على مايرام . واعتقد أننى شفيت تماما .

ـ من الذى شخص لك هذا المرض ؟

ذلك الرجل بالقرية المسمى بتاريسكو .

ـ حدثنى عن الأعراض التى شعرت بها .

فشرحت له كل شيء بالتفصيل ، فقال « لقد كنت مصابا بقروح عادية .

انها قرحة تناسلية لينة وهذا مرض في حوض البحر المتوسط ، انه يسبب بعض المتاعب ولكنه لايحدث أضرارا .. وأفضل علاج له هو الاستحمام باستمرار بالماء والصابون .

تصارعت في داخلى المشاعر : شعرت بالارتياح لأننى لم أكن مصابا بمرض الزهرى . وشعرت بالغضب من هذا الخداع الشرير الآثم . وبعد لحظات تكلم كونشيس مرة أخرى :

وحتى لو كنت قد أصبت بمرض الزهرى لماذا لم تعد الى الفتاة التى تحبها ؟

رحت اقصى عليه بعض ماحدث بينى وبين آليسون . لم أشعر بتعاطف حقيقى من جانبه نحوى . لم يظهر عليه سوى حب الاستطلاع . أخبرته بأننى قمت مؤخرا بارسال خطاب اليها .

قال : أنت تفكر فيها كثيرا وتتحرق شوقا لأن تشاهدها . ولذلك يجب أن

تكتب لها رسالة « لاينغبى أن نترك كل شىء للمصادفة لكى لا نغرق فى البحر .

ثم هز كتفى وأضاف :

يجب أن تسبح فى الماء .

ـ المسألة ليست هى السباحة فى الماء .

ولكن المسألة هى معرفة الاتجاه الذى اسبح نحوه ..

ـ تسبح نحو الفتاة . فأنت تقول عنها إنها تشاهد الحياة من خلالك . وتقول عنها إنها تفهمك جيدا . وهذا هو أمر حسن .

التزمت بالصمت ثم قلت أعتقد أننى لا افهم طبيعة وجوهر الحب .

ذلك إذا لم تكن طبيعة الحب هى بمثابة أعمال جنسية وأنا على كل حال لم أعد أهتم بالممارسات الجنسية اهتماما حقيقيا .

ـ ياعزيزى الشاب . أنت بمثابة كارثة .

أنت إنسان مهزوم ومتشائم .

ـ لقد كنت فى يوم ما طموحا بعض الشىء . وربما كنت أعمى وربما لم أكن اشعر آنئذ اننى انسان مهزوم نظرت اليه ، واستطردت قائلا : هذا الانهزام لا يرجع الى طبيعتى الشخصية . انه انهزام منتشر فى هذا العصر .. وسائد فى هذا الجيل الذى أنتمى اليه .. فنحن جميعا معشر الشباب نشعر بالانهزامية .

ـ تشعرون بالانهزامية رغم أنكم تشهدون أعظم عصر للتنوير فى تاريخ الكرة الأرضية ؟

وبعد أن قمنا نحن البشر بتبديد المزيد من الظلام خلال الخمسين سنة الأخيرة .

« نهض واقفا كما لو كان الوقت له أهمية بالغة ، قال : تعال معى . سأريك اعمق اسرار الحياة . ومشى بسرعة سرت وراءه الى الدور العلوى وهناك دفعنى الى الفراندة .

ثم جاء بعد دقيقة حاملا معه شيئا ثقيلا مغلقا بفوطة بيضاء . ووضعه فى حرص فى وسط المنضدة . ثم توقف ساكنا للحظات ثم أزاح القماش فى وقار .

كانت رأسا حجريا وكان من الصعب معرفة ما إذا كانت رأس رجل أم رأس امرأة .

الأنف كسر جزء منه . الشعر مربوط بعصابة بواسطة قطعتين جانبيتين . لكن القوة كلها متركزة فى الوجه والعينين شرقيتى الطابع بعض الشىء . قال :

« تلك هى الحقيقة . وليست هى المطرقة والمنجل . وليست هى راية النجوم والأشرطة المتمثلة فى علم الولايات المتحدة الأمريكية ليست هى الصليب ولا الشمس ـ ولا الذهب .

ليست الخير او الشر وانما هى الابتسامة .

وكان على حق ، كان هذا الشىء الصغير الذى تسقط عليه اضاءة الشمس به مسحة من القوة الألهية . ورحت أمعن النظر فى تأمل شديد وبدأت اشعر بشىء ما آخر فقلت :

هناك شىء ما يتصف بالعناد أو الحقد فى تلك الابتسامة .

قال : انه يعبر عن الحقيقة . والحقيقة تتصف بالعناد ولا سبيل الى تغييرها .

ـ من أين جئت بهذه الرأس ؟ .

« من ديديما فى آسيا الصغرى ـ انها ترجع الى القرن السادس قبل الميلاد .

ـ ترى أكانت مثل هذه الابتسامة ستظهر على هذا النحو لو كان صاحب هذا الرأس شاهد الحرب الحديثة ؟ .

راح الرأس الصغير يرقبنا أثناء تأملنا فيه . كان رقيقا وواثقا فى نفسه وكاد يكون مليئا بالغموض والابهام . خطر على ذهنى انها نفس الابتسامة التى يبتسمها كونشيس فى بعض الأحيان . كما لو كان قد اعتاد أن يجلس

أمام هذا الرأس ليتمرن على أداء هذه الابتسامة .انها تتسم بالسخرية الدرامية . ابتسامة أولئك الذين اختصوا بمعرفة معلومات متميزة لا يعرفها الآخرون . نظرت لأعلى نحو وجه كونشيس وأدركت أننى على حق .

(٢٤)

ظلام لامع ومرصع بالنجوم فوق المنزل والغابة والبحر . ثم نقل الأطباق عقب الانتهاء من تناول طعام العشاء . وتم اطفاء المصباح . ألقيت بظهرى الى الوراء فى الكرسى . وأتاح كونشيس الفرصة لليل لكى يغلفنا فى صمت ويحتوينا ويتملك مشاعرنا وأتاح للزمن أن يتضاءل ويتلاشى . وبعدئذ بدأ يجرنى إلى الوراء عبر عشرات من السنين .

« فى أبريل عام ١٩١٥ رجعت إلى انجلترا بدون متاعب . لم أعرف ما ينبغى أن أكون . فالمرء وهو فى سن ١٩ سنة لايكون مقتنعا بانجاز الأعمال . فالأعمال ينبغى أن تكون لها مبرراتها أيضا . أصيبت والدتى بالإغماء عند مشاهدتى . ولأول مرة ولآخر مرة فى حياتى أشاهد والدى يبكى بالدموع . وقبل أن تتم هذه المواجهة مع أقاربى قررت أن أقص عليهم حقيقة ماحدث بكل صراحة لاننى لايمكن أن أخدعهم ومع ذلك عندما مثلث أمامهم . ربما كان السبب، هو عدم الشجاعة .. لست أدرى على وجه الدقة . ولكن هناك بعض الحقائق التى تكون قاسية للغاية أمام وجوه الناس الذين ستعلنهم بها بحيث يتعذر عليك أن تذكرها لهم . لذلك أخبرتهم بأننى تمكنت من الحصول على إجازة وتوغلت فى الكذب فاخترعت لهم معركة جديدة كما لو أن المعركة الأصلية لم تكن كافية . بل أخبرتهم انه قد صدرت توصيات بترقيتى الى رتبة عسكرية أعلى .

« وفى باديء الأمر وقف الحظ الى جانبى . فبعد يومين وصل اخطار رسمى بأننى مفقود وبأنهم يعتقدون أننى قد قتلت اثناء المعارك . ومثل هذه الاخطاء كثيرا ما كانت تتكرر ولذلك لم يشك والدى فى أى شيء . وتم تمزيق الخطاب فى سعادة غامرة .

« وبالنسبة لليلى . فربما جعلتها الأيام تشاهد فى مزيد من الوضوح مشاعرها نحوى . تخلت فجأة عن كل التحفظات . فقدمت لى الكثير بقدر ما تستطيع . والوقت الذى قضيته معها بمفردها .. تلك الساعات سمحت لى

باستجماع قواى والتمادى فى الكذب والخداع ، ولكن فى نفس الوقت تملكتنى الرغبة فى أن أحكى لها حقيقة الموقف قبل أن تطبق علىّ أيدى العدالة . وفى كل مرة أعود فيها الى منزلى كنت أتوقع وجود أفراد من الشرطة فى انتظارى .

« وذات يوم ذهبت مع ليلى للنزهة فى الغابات بشمال لندن . كل ما أذكره أن تلك الغابات كانت منعزله وجميلة رغم أنها قريبة من لندن .

« استلقينا على الأرض . ورحنا نتبادل القبلات .. وبعد ظهر ذلك اليوم قالت لى ليلى إنها تريد أن تتزوجنى . تتزوجنى عن طريق ترخيص خاص . وبدون موافقة والديها إذا لزم الأمر : وذلك حتى نصبح ـ قبل عودتى للجيش مرة أخرى متحدين فى الجسد مثلما نحن متحدان فى الروح وكنت أشعر برغبة شديدة فى ممارسة الحب معها والارتباط معها بالزواج . الاّ أن ذلك السر الرهيب كان يحول بينى وبينها .

وكان على أن أدعى نوعاً من الشهامة الزائفة اذ اوضحت لها اننى لا أوافق على الزواج منها لأن هناك احتمال أن أموت فى المعارك . وبالتالى لا أسمح بمثل هذه التضحية من جانبها .

فجادلت معى وانخرطت فى البكاء .

واعتبرت رفضى بمثابة كرم أخلاق ونبل مشاعر وفى نهاية تلك الفترة من بعد الظهر وقبل أن نغادر الغابات كرست نفسها من أجلى حيث قالت : مهما حدث فإننى لن أتزوج من أى انسان آخر غيرك » .

وتوقف عن الكلام للحظات مثل رجل يصل فجأة الى حافة شديدة الانحدار .

أو ربما كانت وقفة تتسم بالذكاء والدهاء .

ولكنها جعلت النجوم تنتظر الأخرى .

« اقتربت إجازة الاسبوعين الزائفة من نهايتها . لم تكن لدى خطة .

جاءت على لحظات فكرت فيها فى العودة الى فرنسا .

ولكن عندئذ كانت تقفز الى ذهنى اشكال الهياكل الشبحية الصفراء

المترنحة مثل المخمورين والخارجة من حوائط الدخان .. وحاولت طرد هذه الصور من ذهني دون جدوى .

« ارتديت الزى الرسمى العسكرى بى وسمحت لوالدى ووالدتى وليلى بتوديعى عند محطة فكتوريا ، واعتقدوا أننى سأسلم نفسى فى معسكر قريب من دوفر . كان القطار مليئا بالجنود . ومرة أخرى شعرت بتيار الحرب الجارف وبالرغبة الأوربية فى الموت تدفع بى إلى الأمام . وعندما توقف القطار فى محطة ما بمنطقة كينت نزلت منه . وأمضيت يومين فى فندق . كنت أشعر بالضياع التام . من الصعب على المرء الهروب من الحرب . وأخيرا رجعت الى لندن . إلى الشخص الوحيد فى انجلترا الذى اعتقدت انه يمكن لى اللجوء اليه . انه جدى . كنت أعرف انه يونانى وادرك انه يحبنى . واليونانيون يضعون الروابط العائلية فوق أى اعتبار آخر وراح يصغى باهتمام الى قصتى . ثم نهض واقفا واقترب منى .

وكنت ادرك ما سيفعله . لقد صفعنى فى عنف شديد على وجهى .

« ومع ذلك كنت واثقا من انه سيقدم لى كل ما فى استطاعته من مساعدة .

وصب على رأسى أعنف الشتائم التى يعرفها باللغة اليونانية .

خبأنى فى منزله . لاننى أخبرته اننى فى حالة عودتى للجيش سيقومون باطلاق الرصاص على لانهم سيطبقون القوانين التى تنص على اعدام الهاربين من المعارك أثناء الحرب . وفى اليوم التالى ذهب لمقابلة والدتى وأظن أنه عرض عليها أن تختار بين أمرين : اما أن تؤدى واجبها كمواطنة وإما أن تؤدى واجبها كأم . فجاءت لزيارتى وحرصت على عدم تأنيبى . وكان هذا أسوأ عندى مما لو كان والدى قد صب جام غضبه على . وكنت أدرك أنها ستعانى كثيرا اذا علم والدى بحقيقة الأمر . ثم توصلت هى ووالدى الى قرار فى هذا الشأن : ينبغى اتخاذ اجراءات تهريبى من انجلترا الى عائلتنا بالأرجنتين .

ومن حسن الحظ أن والدى كان لديه المال الكافى والأصدقاء اللازمون لانجاز هذه المهمة فى عالم النقل والشحن . وتم اعداد الترتيبات اللازمة . وتم تحديد موعد لسفرى .

« عشت فى منزله ثلاثة أسابيع دون أن أخرج من المنزل وكنت فى حالة من الخوف حتى أننى فكرت مرات عديدة فى تسليم نفسى للجيش ، كنت أشعر بالورطة ازاء ليلى .

فقد وعدتها بارسال خطابات يومية اليها .

وبالطبع لم أستطع أن أفعل .

كنت متشوقا لأن اقنع ليلى بأننى عاقل وأن العالم كله مجانين .

« وفى احدى الامسيات شعرت بأننى لم يعد باستطاعتى تحمل ذلك . فتسللت خارجا من مخبئى . وذهبت الى غابة سانت جون . وكنت أعرف أن ليلى تذهب فى نفس ذلك المساء من كل اسبوع الى المركز الوطنى للحياكه .

وانتظرت فى الطريق الذى ستسلكه

جاءت بمفردها . اعترضت طريقها لدى خروجى من تحت بواكى البوابة التى انتظر عندها . شحب وجهها أدركت أن شيئا رهيبا قد حدث لى لدى رؤيتها لوجهى ولملابسى المدنية . وبمجرد أن شاهدتها سيطر حبى الشديد لها على كل جوارحى تماما .

ـ ونسيت الكلام الذى رتبته لاقوله لها . وأنا حاليا لا ذكر ماقلته لها .

كل ما اذكره هو أننى سرت الى جوارها تحت عتمة الغسق لاننا كنا نرغب فى الظلام وأن نكون بمفردنا . لم نتناقش . وجدنا أنفسنا عند الترعة التى تخترق المنطقة البحرية من المنتزة ، وجلسنا على مقعد . وبعدئذ انفجرت فى البكاء .

ولم تسمح لى بأن أهدىء من روعها . لقد خدعتها . وهذا أمر لايمكن اغتفاره .

لم تكن المسألة من وجهة نظرها أننى قد هربت من الجيش وانما المسألة أننى كذبت عليها . أشاحت بوجهها بعيدا . محملقة فى الترعة .

ثم وضعت يدها على يدى وطلبت منى الألتزام بالصمت . ولفت ذراعيها حولى دون أن تتكلم .

« أدركت أنها لم تفهم شيئا مما قلته لها عن الحرب . توسلت اليّ ان أعود إلى الجيش . واعتقدت أننى أعتبر ميتا الى ان أرجع الى الجيش . واستخدمت مرارا كلمة « المبعوث » وأنا حاولت كثيرا معرفة الموقف بالنسبة لنا وأخيرا قالت إن ذلك هو قرارها وأن ثمن حبها أن أعود الى جبهة القتال - ليس من أجلها شخصيا ولكن من أجلى أنا .

لكى أعثر على ذاتى الحقيقية مرة أخرى قالت إنها مازالت على حبها لى ملتزمة بما قالته من قبل :

إنها لن ترتبط مطلقا بالزواج من أى شخص آخر غيرى مهما كانت الظروف .

« فى نهاية الأمر لذنا بالصمت . ولعلك قد فهمت . كانت ليلى بمثابة الإنسانية المرتبطة بالواجب ومقهورة ومصلوبة وسائرة فى اتجاه الصليب . وأنا كنت حرا طليقا ومصمما أن أبقى على قيد الحياة مهما كان الثمن .

مازلت أرى وجهها المحملق فى الكلام وكأنها تحاول أن تدفع نفسها للحملقة فى عالم آخر .. بدا الأمر وكأننا محتجزين فى غرفة للتعذيب . كل منا مقيد بالسلاسل فى الحائط المقابل . نواجه بعضنا البعض سعيا وراء الأبدية والخلود ولكن دون أن نتمكن من لمس الخلود .

« حاولت انتزاع بعض الأمل منها مثلما يفعل الرجال . لكنها أسكتتنى بنظرة . نظرة لن أنساها طوال حياتى كانت نظرة كراهية . سرت عائدا الى جوارها فى صمت . وقلت لها (مع السلامة) تحت مصباح شارع . لم نتلامس . ولم ننطق بكلمة واحدة . وجهان شابان دبت فيهما الشيخوخة فجأة وهما يواجهان بعضهما البعض . وجهان شاحبان . ورائحة اشجار اللايلاك . وظل عميق لانهائى .

وتوقف عن الكلام . لم تكن هناك عاطفة فى صوته . ولكن تفكيرى كان منصبا على آليسون . وعلى النظرة الأخيرة التى ألقتها آليسون علىّ .

« وهذا هو كل ماحدث . وبعد مرور أربعة أيام قضيت ٢٤ ساعة بغيضة وكريهة جاثما فى ذل فى جوف مركب شحن يونانية راسية فى ميناء لفربول » .

وسادت الصمت .

ـ وهل شاهدتها مرة أخرى ؟

وأطلق خفاش صوتا حادا قصيرا فوق رأسينا :

لقد ماتت .

واضطررت لأن أدفعه الى التحدث فى مزيد من التوضيح فسألته :

ـ ماتت بعد ذلك مباشرة ؟

ـ ماتت فى الساعات الأولى المبكرة من صباح ١٩ فبراير ١٩١٦ ، فقد انتشر وباء التيفود وكانت تعمل فى مستشفى .

ـ يالها من فتاة مسكينة .

ـ كل هذا فى الماضى .

ـ أنت تجعل الماضى شبيها بالحاضر .

كان يحملق فى طيات الليل . وانساب الخفاش فى طيران منخفض للغاية حتى أن شاهدت الصورة الظلية له للحظة خاطفة منعكسة على درب اللبانة :

قلت : وهل هذا هو السبب فى أنك لم تتزوج على الاطلاق ؟

ـ الموتى يعيشون .

ـ ما هى الكيفية التى يعيشون عليها ؟

فسمح للصمت أن يسود مرة أخرى كما لو أن الصمت سيجيب على تساؤلى . ولكن فى اللحظة التى اعتقدت فيها أنه لن يجيب على سؤالى نهائيا بدأ يتكلم فقال : عن طريق الحب .

بدا كأنه يوجه كلامه لكل شىء فيما حولنا وكأنها تقف مصغية فى الظل الداكن عند الأبواب .. كما لو أن سرده لماضيه قد ذكره بمبدأ عظيم أخذ يتبينه من جديد وبعد دقيقة التفت الىّ :

« أود أن تجىء لزيارتى فى الاسبوع القادم . اذا سمحت ظروفك بذلك » .

- اذا وجهت اليّ الدعوة فلن يمنعنى أى شىء .

ثم نهض واقفا ، وقال : الى النوم فى السرير . فالوقت متأخر.

وسرت وراءه متجها الى غرفتى حيث انحنى ليشعل المصباح .

وقال : لا أريد أن يتناقش الناس هنالك عن حياتى وظروفى .

ووقف منتصب القامة فى مواجهتى وقال :

- اذن سوف اشاهدك يوم السبت القادم ؟

نظر فى عينى ثم أتى بحركة غريبة : مد يده ولمس كتفى فى حنان أبوى . بدا الأمر وكأننى قد نجحت فى اجتياز اختبار معين :

حسناء ستقوم ماريا بإعداد طعام الافطار لك غدا . الى اللقاء فى الاسبوع القادم .

ثم انصرف . وذهبت الى الحمام . وأغلقت بابى وأطفأت المصباح. ولكننى لم أخلع ثيابى . وظللت واقفا بجوار النافذة وانتظرت لبعض الوقت

(٢٥)

وعلى مدى عشرين دقيقة تقريبا لم يصدر أى صوت . ظللت منتظرا لفترة طويلة حتى قمت بخلع ملابسى وشرعت فى الاستسلام للنوم الذى بدأ يزحف على عينى . الاّ أن الصمت تحطم . إذ فتح باب كونشيس ثم أغلق فى هدوء وسمعته يهبط السلم . نهضت من نومى ثم تطوحت خارجا من السرير .

انها الموسيقى مرة أخرى منبعثة من الدور الأرضى . انها آلة البيان القيثارى . كانت أصداء الموسيقى تدوى فى ايقاع يشبه الطرق لكنه طرق خافت . صدر صوت جعلنى أهرع بسرعة الى الباب . وفتحته فى حذر ، من المؤكد أن الباب بالدور الأول مفتوح أيضا حيث كان باستطاعتى سماع قعقعة آلة البيان القيثارى .

ولكن الشىء الذى سبب الرعشة فى ظهرى هو ذلك الصوت الحاد الرفيع الصادر عن آلة الفلوت . أدركت أن ذلك الصوت لا يصدر عن

جراموفون وانما هناك شخص ما يعزفه . وتوقفت الموسيقى ثم استؤنفت .. واستمرت آلة الفلوت فى اصدار صوتها الحاد ووقع العازف فى غلطة ثم غلطة أخرى ولو أن العازف كان ماهرا للغاية على مايبدو .

خرجت عاريا ، أرتديت سويتر وبنطلونا وزحفت هابطا على السلم حافى القدمين . وتوقف صوت الفلوت . ثم سمعت صوت حفيف الأوراق يتم تصفحها وتقليبها ـ حامل النوتة الموسيقية . وبدأت آلة البيان القيثارى فى عزف مقطوعة على العود فى حركة جديدة خفيفة كالمطر وبدأت الأنغام والأصوات تنساب عبر أرجاء المنزل فى هارمونيات غامضة وبنائية . ومشيت على أصابع قدمى نحو الباب المفتوح لغرفة الموسيقى . كان الباب مفتوحا توقفت الموسيقى وتحرك كرسى . فازدادت ضربات قلبى . ونطق كونشيس بكلمة واحدة غامضة فى صوت منخفض .

فألصقت نفسى على الحائط بشدة . وصدر صوت خفيف وخشخشة . كان هناك شخص واقف عند باب غرفة الموسيقى .

انها فتاة رشيقة فى أوائل العشرينات من عمرها كانت تمسك فى احدى يديها فلوت وفى اليد الأخرى ريشة ناعمة صغيرة . كانت مرتدية فستانا له ياقة واسعة مخططا باللونين الأزرق والابيض مع ترك الذراعين عاريتين . ذات وجه جميل فتان يأخذ بالألباب خالٍ من المكياج .

وكل شىء فيها يحمل نفس الطابع الذى كان سائدا منذ أربعين عاما .

أدركت أننى أشاهد ليلى .. أنها نفس الفتاة التى شاهدتها فى الصور الفوتوغرافية . دون أى شك . نفس الوجه ونفس العينين .

شاهدتنى ، ووقفت متسمرا فوق الأرضية الحجرية وبدت مندهشة مثلى تماما .. وبعدئذ نظرت بسرعة بعينيها الواسعتين الى حيث كان كونشيس يجلس ثم سرت الىّ مرة أخرى ورفعت ريشة الفلوت الى شفتيها وهزتها لكى تمنعنى من التحدث . ثم ابتسمت لى . كانت تشبه صورة أو لوحة من نوع معين .. كانت ابتسامتها غريبة ـ هناك شىء ما فى فمها . شىء هادىء وملىء بالتسلية ولكنه فى نفس الوقت ملىء بالغموض ملىء . بالادعاء انحنت للأمام ودفعت ذراعى فى رفق مستخدمة طرف الريشة الموجودة بيدها كأنها تريد أن تقول لى : إنصرف .

ولم يستغرق كل ذلك أكثر من خمس ثوان . حيث أغلق الباب ووجدت نفسى واقفا فى الظلام وأعتقد أنها لو كانت شبحا : لو كنت الفتاة شفافة ومقطوعة الرأس لكانت دهشتى أقل ، ولقد ألمحت بشكل واضح إلى ان كل شىء كان بمثابة تمثيلية ولكن يجب على كونشيس ألا يعرف أن الأمر كذلك وأن يعرف أنها قد ارتدت ملابس تنكرية من اجله وليس من اجلى أنا .

نزلت بسرعة على السلم إلى الباب الأمامى . ثم خرجت من الباب الى صف الأعمدة ونظرت من خلال احدى النوافذ ذات القناطر الضيقة فشاهدت كونشيس . وقد عاد للعزف تحركت بحثا عن الفتاة .

وتحركت فى التفاف خلف ظهر كونشيس الى أن تمكنت من مشاهدة كل جزء من الغرفة .

ولكنها لم تكن موجودة . اعتقدت أنها ربما تكون موجودة فحملقت فى حذر حول الناصية ، لكنها كانت شاغرة .

المؤكد أنها جرت حول الجزء الخلفى من المنزل . فتسللت خارجا من الأبواب المفتوحة وحملقت عبر الأراضى المزروعة . بالخضراوات ثم سرت حولها ، شعرت أنها هربت فى هذا الاتجاه . لم يكن هناك أثر لأى شخص أو أى صوت .

فانتظرت لدقائق عديدة توقف كونشيس عن العزف .. وسرعان ما أطفئت اللمبة واختفى كونشيس .

فجلست فى الظلام فى احد الكراسى .. كان الصمت العميق سائدا .

تدفق الحدس فى رأسى فقد كان هؤلاء الناس الذين شاهدتهم وتلك الأصوات التى سمعتها وتلك الرائحة القذرة أشياء حقيقية وليست أمورا خارقة للطبيعة .

وهذا البعد الجديد وهذا الايحاء بأن « التجليات » معدة من اجل كونشيس ومن أجلى ايضا كان هو أكثر الأمور المحيرة .

جلست فى الظلام بينما الأمل يراودنى ان يظهر لى شخص ما ـ ولتكن ليلى ـ ليشرح لى جوانب الموقف . وشعرت كأننى طفل . يمشى فى غرفة وهو يدرك ان كل شخص هنالك يعرف شيئا ما عنه لايعرفه عن نفسه .

وشعرت أيضا بأننى خدعت عن طريق حزن كونشيس « الموتى يعيشون عن طريق الحب » اذ كان من الواضح أنهم يستطيعون أن يعيشوا ايضا عن طريق اتخاذ اشكال اشخاص آخرين .

رحت أنتظر تلك الفتاة التى قامت بتقمص شخصية ليلى . كان علىّ أن أعرف صاحبة ذلك الوجه الأوربى الشمالى الجميل اللطيف المفعم بالشباب . اردت أن اعرف المكان الذى جاءت منه والحقيقة الكامنة وراء كل هذا اللغز الغامض .

انتظرت ساعة ولم يحدث اى شىء . وفى نهاية الأمر زحفت عائدا الى غرفتى ، الاّ أننى نمت نوما خفيفا متقطعا . وعندما طرقت ماريا باب حجرتى فى الساعة ٥,٣٠ صباحا استيقظت مترنحا وكأننى قد امضيت ليلتى فى تناول قدر هائل من الخمور .

ومع ذلك استمتعت وأنا اشق طريقى فى الصباح الباكر عائدا الى المدرسة . بالهواء البارد والى حد ما بدأت ادخل فى الواقع المفعم بالحقائق اثناء سيرى .

هبط على اثناء سيرى شعور عجيب للغاية ـ شعور ناجم عن الوقت المبكر فى الصباح وعن الوحدة المطلقة وعن الأحداث التى جرت ـ بأننى قد دخلت فى اسطورة او فى نوع من الإدراك بأننى شاب من العصور القديمة أو أننى أوديب مازال يبحث عن مصيره .

(٢٦)

كان هناك خطاب . جاء عن طريق مركب يوم الأحد .

عزيز نيقولاس ..
ظننت أنك مت .. اننى اشق طريقى فى الحياة معتمدة على نفسى . الى حد ما .

أرغب فى مقابلتك مرة أخرى فالمسألة هى أننى باستطاعتى ان اقابلك . فأنا أمر بطريق اثينا الآن . أقصد أننى لم اقرر بعد ما إذا كنت خنزيرا بحيث يصبح من الجنون أن أتورط معك مرة أخرى .

. لا استطيع ان انساك حتى ولو كنت مع اولاد اكثر ظرفا منك بكثير. يانيقولاس اننى مخمورة بعض الشىء ولربما اقوم بتمزيق هذا الخطاب.

ربما أرسل برقية فى حالة حصولى على توقف لمدة ايام قليلة فى أثينا .. وأنا اذا استمررت على ما أنا عليه فانك قد لا ترغب فى مقابلتى .. وربما لا ترغب الآن فى مقابلتى . عندما وصلنى خطابك ادركت أنك كتبته لانك كنت تحس بالملل . أليس أمرا شنيعا اننى مازلت اسرف فى الشراب الى أن اصبح مخمورة لكى يتسنى لى أن أكتب لك خطابا .

الألوان حولى رمادية وتوحى بالكآبة والتعاسة الى حد بعيد .. آليسون .

لقد وصل خطابها فى وقت غير مناسب . اذ جعلنى ادرك اننى لا ارغب فى ان يشاركنى اى شخص آخر فى بورانى . فعقب تعرفى لأول مرة على هذا المكان وعقب مقابلتى الأولى لكونشيس كانت لدى الرغبة فى التحدث عن بورانى - مع آليسون - ولكننى شعرت فى هذه الآونة بالارتياح لاننى لم اتحدث مع احد عن بورانى .

ولا أرغب ان يشاركنى احد فى هذه التجربة .

الانسان لايقع فى الحب فى خلال خمس ثوان .. ولكن يمكن للثوانى الخمس ان تجعل الانسان يحلم بالوقوع فى الحب . فكلما فكرت فى وجه منتصف الليل ذاك بدا لى أكثر سحرا مما جذبنى اليها على نحو قدرى محتوم كما تجذب مصابيح صيادى الاسماك المحليين السمك فى الليالى الخالية من ضوء القمر .

وذكرت نفسى بأن كونشيس غنى بالقدر الذى يمكنه من التقاط أجمل النساء ولقد افترضت ضرورة وجود علاقة جنسية من نوع ما بينه وبين تلك الفتاة - لانه من الغريب ألا تكون هناك علاقة جنسية بينهما . ومع ذلك هناك شىء اكثر من الجنس بينهما .

قرأت خطاب آليسون عشرات المرات محاولا اتخاذ قرار بشأن . ما سأفعله . انتهيت الى انه كلما تأخرت فى الرد على ذلك الخطاب كان ذلك أفضل . ولكى أوقف الإلحاح الصامت المنبعث من ذلك الخطاب دفعت به الى قاع درج مكتبى ثم ذهبت للنوم فى سريرى .

وانجرفت الى خيالات عديدة رومانتيكية جنسية مع ذلك الهيكل المليء بالألغاز الغامضة وفشلت تماما فى الاستغراق فى النوم .

الآن بدأ الشبق الجنسى يتعاظم فى داخلى وبدأت افكر فى آليسون تفكيرا جنسيا وافكر فى اصطحابها الى سرير بأحد فنادق اثينا للاستمتاع بالمباهج القذرة فى عطلات نهاية الاسبوع وبدأت افكر فى أن العصفور الموجود فى اليد خير من العصافير الموجودة فى الشجرة ، قمت بكتابة رسالة مطولة لآليسون .

قلت فى خطابى اننى مشغول بالمدرسة إن اجازة نصف السنة ستجيء بعد حوالى اسبوعين وأننى قد أذهب الى اثينا خلال تلك الإجازة ولكننى لست واثقا من ذلك تماما ، الاّ أنه من الرائع ان اشاهدها فى اثينا .

جلست مع ميلى Meli فى حجرته بالمدرسة مستلقيا فى سريره ومصغيا لكلامه بعض الشيء ، سألنى :

هل قضيت وقتا لطيفا فى اجازة نهاية الاسبوع ؟

يجب ألا تخبر الناس الآخرين بذلك .

أعطيته فكرة عن زيارتى الأولى فى الاسبوع السابق واوضحت له ان كونشيس وبورانى فى غاية السخافة .

ثم أضفت قائلا ، ولقد وجه الى الدعوة للذهاب لزيارته فى الاسبوع القادم فهل يمكن أن تقدم لى خدمة بأن تحل محلى فى النوباتجية التى تستغرق الفترة من ظهر يوم الاحد حتى الساعة السادسة بالمدرسة ؟ .

ـ سوف أحل محلك .

ـ أريد أن اعرف ما ستقوله اذا سأل الناس الآخرون عنى .

فراح يفكر للحظات ثم قال : سأقول لهم انك ستذهب الى مدينة « هيدرا » ..

ذهبت الى القرية مرات عديدة فى ذلك الاسبوع بحثا عما إذا كان هناك أناس أجانب أو غرباء .. ولم يكن هناك أى أثر للاشخاص الثلاثة الذين أبحث عنهم رغم أنه كانت توجد بعض الوجوه القليلة الأجنبية : ثلاث أو أربع زوجات مع أطفال صغار أرسلوا من أثينا الى الأماكن العشبية .

وأخيرا جاء يوم السبت . وبمجرد أن انتهيت من دروس الصباح تناولت وجبة غداء ثم اتجهت نحو القرية ومعى حقيبتى . وقلت لخفير المدرسة العجوز الموجود عند البوابة اننى ذاهب الى هيلدا لقضاء إجازة نهاية الأسبوع . وبمجرد أن أصبحت متواريا عن المدرسة شققت طريقى بين الأكواخ . خلف المدرسة ومنها الى الطريق المؤدى إلى بورانى .

وكنت قد تعجبت أكثر أثناء الاسبوع من شأن مجموعة الأكواخ القليلة الموجودة عند الخليج الذى يقع الى الشرق من بورانى .

كان بمثابة مساحة من الحصباء بها صف ضخم من نباتات الصبار التى تقف شمعداناتها المرتفعة الى ١٢ قدما والمليئة بالأزهار فى مواجهة البحر . فاستلقيت فوق منحدر عند الخليج المليء بنباتات الزعتر بعد ان وصلت اليه فى هدوء متسللا من بين الأشجار .. ورحت أرقب الأكواخ الموجودة أسفلى بغية مشاهدة وجود أية دلائل تدل على وجود حياة غير عادية . ورحت أتفحص المكان . وبدا لى أنه مكان غير ملائم لأن يقيم فيه « مساعدو » كونشيس إذ كان مكشوفا للغاية بحيث تسهل مراقبته .

وبعد قليل شققت طريقى هابطا إلى الأكواخ . شاهدنى طفل وأنا أشق طريقى بين أشجار الزيتون فنادى بأعلى صوته ، هنا ظهر جميع سكان هذه القرية الصغيرة : أربع نساء وستة أولاد . وتمشيا مع كرم الضيافة الريفى المعتاد قدموا لى طبقا صغيرا مليئا بمربى السفرجل بالإضافة الى كوب من مياه الآبار .. قلت إننى بصدد الذهاب لزيارة كونشيس فظهرت الدهشة الشديدة اليهم . هل سبق لهم أن قاموا بزيارته ؟ فاتجهت جميع رؤوسهم الى الوراء كما لو أن هذه الفكرة لم تخطر على بال أحد منهم . راحت أكبر النساء سنا تحكى فى فيض من الكلمات سمعت من بينها كلمة « العمدة » وكلمة « الألمان » ورفع الأطفال ايديهم فى حركة تشبه حركة البنادق .

وماذا عن ماريا ؟ وهم قد شاهدوها بالطبع ؟

ولكنهم قالوا انهم لم يشاهدوها على الإطلاق .

وقالت احداهن إن ماريا ليست من أهالى الجزيرة .

أخبرتهم بأننى مجرد صديق له .

فقالت المرأة العجوز : إنه لا أصدقاء له فى هذا المكان . ثم أضافت

بصوت به شيء من العداء إن الرجال السيئين يجلبون الحظ العاثر . سألت شاهدوا ضيوفا ؟ فأجابت بالنفى .

واستأذنت فى نهاية الأمر عقب اهدائهم لى غصن ريحان . ثم سرت بطول الجرف العالى إلى أن تمكنت من الوصول الى الحافة التى تؤدى الى بورانى

(٢٧)

جلست فى غرفة الموسيقى واستمعت اليه وهو يعزف لحنا أوركستراليا وطوال فترة تناول الشاى ظللت منتظرا لأية اشارة تفيد بأنه يعرف اننى شاهدت الفتاة وهو عدم قول أى كلام الى أن يبدأ بالكلام فى هذا الشأن . لكن لم تظهر أى ثغرة فى محادثتنا .

كان كونشيس يعزف كما لو كان لا توجد بينه وبين الموسيقى أية عوائق .

وكنت جالسا فى الغرفة ذات النوافذ المغلقة والمليئة بالهواء المنعش البارد » .. أرقب رأسه المنحنى قليلا .

كانت تلك هى اول مرة أسمعه يعزف فيها موسيقى عظيمة فشعرت بالتأثر الشديد .

وخطر على ذهنى أننى لا أرغب فى الوجود فى اى مكان آخر فى العالم فى تلك اللحظات وأن ما اشعر به قد برر كل الخطوات التى أقدمت عليها لأن كل ما أقدمت عليه كان من خلال وجودى هناك .

كان كونشيس قد تحدث عن تقابله مع مستقبله وعن شعوره بأن حياته توازنت عندما جاء إلى بورانى لأول مرة . كنت أعيش تجربة مماثلة لهذا الكلام الذى قاله كونشيس . تجربة تقبل جديد للذات . احساس بأننى ينبغى أن أكون هذا العقل وهذا الجسد برذائله وفضائلة .

ادراك مختلف تماما عن احساسى القديم بالعالم الذى كان قائما على أوهام الطموح . فاللخبطة الموجودة فى حياتى وحالات الأنانية والتحولات الزائفة وحالات الخيالات ، كل هذه الأمور يمكنها أن تتساقط فى مكانها الصحيح ويمكنها أن تصبح مصدرا للبناء لم تكن تلك لحظات تتعلق باتخاذ قرار اخلاقى جديد وبعد أن انتهى من العزف راح يرقبنى :

ـ أنت تجعل الكلمات تبدو أمورا دنيئة وتافهة .

فبدا عليه الامتعاض رغم أنه حاول أن يخفى ذلك بأن دفعنى للذهاب معه لكى يقدم لخضراواته الرى المسائى .

وبعد ساعة حضر إلى غرفة النوم الصغيرة مرة أخرى .. وأدركت ان هناك كتبا جديدة قد وضعت بجوار سريرى . منها كتاب من القطع الكبير الحجم تحت عنوان : الحياة البرية فى اسكندينافيا . يشبه كتاب « مفاتن الطبيعة » الذى كان موجودا فى الاسبوع السابق حيث تبين لى أن « الحياة البرية » يقصد بها الحياة ذات الطابع الأنثوى : نساء جرمانيات مستلقيات أو واقفات أو جاريات وهى أمور تتعارض تماما مع اصداء موسيقى باخ التى لاتزال تترد فى أذنى .
وأخيرا كان هناك كتاب آخر باللغة الفرنسية تحت عنوان المسرحية التنكرية الفرنسية فى القرن الثامن عشر ..

فتذكرت المختارات الأدبية التى كنت قد قرأتها على البلاج وتصفحت الأوراق الى أن وصلت الى الصفحة التى توجد بها فقرة قد وضعت عليها أقواس لتمييزها . لقد جاء فى تلك الفقرة مايلى :

الزوار الذين ذهبوا الى ما وراء الحوائط العالية لسانت مارتن اسعدهم ان يشاهدوا عبر المروج الخضراء وبين البساتين رعاة وراعيات أغنام يرقصون ويغنون وهم محاطون بالقطعان ، كانوا يرتدون أزياء ذات طابع رومانى قيل انه كان هناك المزيد من المناظر المثيرة للخجل حوريات فاتنات يهربن فى ليالى صيفية تحت ضوء القمر من هياكل غريبة الشكل ذات اشكال تجمع مابين الرجل والماعز ..

وأخيرا بدأ الأمر يتضح فى بساطة . إن كل ما حدث فى بورانى كان بمثابة المسرحيات القصيرة . وما لاشك فيه ان هذه الفقرة كانت تلمح لى بأنه ينبغى على ألا أدس أنفى جريا وراء حب الاستطلاع فشعرت بالخجل بسبب الاسئلة التى سبق أن وجهتها اليه .. اغتسلت ثم ارتديت ملابس تعتبر تحديا للرسميات التى يحرص عليها كونشيس فى فترات الامسيات . وعندما خرجت من غرفتى لكى أهبط السلم لاحظت أن باب غرفة كونشيس كان مفتوحا . نادى علىّ للدخول الى غرفته وقال : « لسوف نتناول الأوزو هنا بالدور العلوى فى هذا المساء .

كان يقرأ خطابا كان قد فرغ من كتابته توا .

كان باب الغرفة الصغيرة الموجودة فى نهاية غرفته مفتوحا بعض شيء . فلمحت وجود ملابس وخزانة . ومن خلال البابين المفتوحين حملقت صورة ليلى الفوتوغرافية فى وجهى من داخل اللوحة الخاصة بها .

ثم خرجنا إلى الفراندة . كانت هناك مائدتان : احداهما عليها الكئوس . والأخرى عليها الاشياء الخاصة بالعشاء . وعلى الفور لاحظت وجود ثلاثة كراسى عند مائدة العشاء .. أدرك كونشيس اننى لاحظت ذلك فقال :

سيجيئنا زائر عقب العشاء فقلت مبتسما « زائر من القرية ؟ » فهز رأسه مبتسما هو الآخر .

تكلم قائلا : أتعرف من سيكون الزائر ؟

اننى لم أعرف ما إذا كان قد قصد لى أن أجيء فى الاسبوع الماضى أم لا ؟

فأبتسم ابتسامة خفيفة وقال :

- هل قرآت الكتيب الصغير الخاص بى ؟

- لم اقرأة بعد .

- عليك بقراءته فى تمعن .

- بالطبع : اننى اتطلع فى اشتياق الى قراءته .

- وبعدئذ يمكننا أن نجرى تجربة فى الليل غدا .

« تتعلق بالاتصال بعوالم اخرى ؟ » .

ولم اهتم بطرد نبرة الشك من صوتى .

- نعم .. هناك فى الاعالى .. فى السماء المثقلة بالنجوم أو هنالك عبر ذلك المكان .

شاهدته وهو ينظر لأسفل الى الخط الاسود للجبال الواقعة الى جهة الغرب .

فقلت متفكها : هنالك فى الأعالى . هل يتكلمون اليونانية أم الانجليزية ؟

قال : إنهم يتكلمون بالاحاسيس والعواطف .

ـ انها لغة لاتتسم بالدقة الشديدة .

ـ بالعكس انها اكثر اللغات دقة وتحديدا . إذا كان باستطاعتك ان تتعلمها ، الدقة بالمعنى الذى تقصده تعتبر أمرا مهما بالنسبة للمواد العلمية . ولكنها غير ضرورية بالنسبة لـ ...

لم أستطع معرفة الأمور التى تعتبر لغة لعواطف غير ضرورية بالنسبة لها .

وسمع كلانا نفس وقع الاقدام الخفيف الذى سبق ان سمعته من قبل . كان يبدو وكأنه يترامى من جهة البحر .

فنظر كونشيس نظرة سريعة إلى .. وقال :

ـ عليك ألا توجه أية اسئلة فهذا هو اهم شىء على الاطلاق .

ـ فابتسمت وقلت : كما تحب : سوف التزم بذلك .

ـ وعليك ان تعاملها كأنك تعامل شخصا فاقدا للذاكرة .

انك تعيش فى الوقت الحاضر .. وهى لا تتذكر ماضيها الشخصى ـ فهى بلا ماض . اذا سألتها سؤالا يتعلق بالماضى فانك ستسبب لها التشويش والإزعاج ، وهى حساسه للغاية . وعندئذ لن ترغب فى مشاهدتك مرة أخرى .

أردت أن أقول له اننى احب تمثيليته التنكرية وأننى لن أتسبب فى اتلافها ، ثم قلت له : اذا كنت لا افهم السبب فإننى أبدأ فى فهم الكيفية .

تركزت عيناه على ثم نظره نحو الأبواب .. وبعدئذ التفت نحوى أدركت أن المصباح قد وضع ورائى لكى ينير لها اثناء دخولها .

وجاء دخو ها من النوع الذى يبهر الانفاس ويجعلها لاهثة .

كانت مرتدية ملابس رسمية مسائية لها طابع عام ١٩١٥ معطفا حريريا فوق فستان يضيق عند الوسط .. بدت كأنها تتردد وتطفو فى آن واحد لدى اقترابها نحونا .

اما تسريحة شعرها فمرتفعة لأعلى ، كانت تبتسم وتنظر الى كونشيس

وان رمقتنى بنظرة بها اهتمام فاتر . نهض كونشيس واقفا على قدميه . كانت انيقة على نحو مذهل واثقة فى جمالها وأناقتها وكأنها خرجت لتوها من محلات كريستيان ديور . وعلى الفور قفزت الى ذهنى فكرة : أنها موديل محترفة . ثم بعد ثوان : انه الشيطان القديم .

تكلم الشيطان القديم بعد ان قام بتقبيل يدها اولا . يا ليلى . اعرفك على السيد نيقولاس اورفى . الآنسة مونتجمرى » .

مدت يدها فصافحتها . تقابلت عيناى مع عينيها . ولكن عينيها لم تبوحا بأى شىء . فقلت « مرحبا » فردت بانحناءة بسيطة من جسدها ، ثم استدارت لكى يقوم كونشيس بخلع معطفها نيابة عنها . ووضع معطفها على ظهر الكرسى الخاص به .

كان كتفاها وذراعاها عارية .

ترتدى سوارا مصنوعا من الذهب والأبنوس ، خمنت أنها فى الثالثة والعشرين كان هناك شىء ما بها يوحى بأنها اكبر بعشر سنوات . رتبت فستانها لدى جلوسها فوق الكرسى ثم طوت يديها وابتسمت لى ابتسامة خفيفة ثم قالت : الجو حار هذا المساء .

قال كونشيس : السيد اورفى هو المدرس الشاب الذى حدثتك عنه .

ـ نعم لقد تقابلنا فى الاسبوع الماضى أو بمعنى اصح ألقينا نظرة خاطفة على بعضنا البعض .

أدركت أن كونشيس قد هيأنى لاستقبال هذه الرقة والعذوبة . لكنها رقة مثيرة لشىء من الضيق لأن وجهها لم يستطع اخفاء ذكائها كانت لها طريقة فى النظر إلىّ كما لو كانت تعرف شيئا ما لم أكن أعرفه ـ شيئا لا علاقة بالدور الذى كانت تلعبه وانما بالحياة بوجه عام .

كانت بشرتها شديدة البياض . والواضح أنها لم تأخذ حماما شمسيا على الاطلاق . وسادت فترة صمت مليئة بالخجل والارتباك كما لو كنا نحن الثلاثة لانعرف اى كلام نقوله . وأخيرا قامت بتحطيم الصمت : من المؤكد أن التدريس مهنة شيقة وممتعة .

ـ ليس بالنسبة لى . فأنا أجدها مهنة سخيفة بعض الشىء ، على كل أنا

أغتفر للتدريس سخافته مادام قد أحضرني هنا .

انزلقت ببصرها الى كونشيس الذى انحنى نحوها وقالت : اخبرنى موريس أنك لست سعيدا فى عملك » ..

واستمر الكلام والحوار بيننا على ذلك النحو على مدى ١٥ دقيقة تقريبا . كانت تسأل فأجيب عليها . ولم يتكلم كونشيس سوى مرات قليلة للغاية تاركا معظم المناقشات لنا . ووجدت نفسى أضفى الصبغة الرسمية على كلامى كأننى أتظاهر بالوجود فى غرفة جلوس تنتمى الى أربعين عاما مضت . ورغم كل ذلك فقد كانت مسرحية تنكرية . وكنت أريد أن ألعب دورى فى المسرحية . ووجدت أنها تحاول أن تسرق الكاميرا منى بعض الشىء ففسرت ذلك على أنه محاولة منها لأن تسلبنى فرصة الظهور على المسرح أو ربما لكى تختبرنى وترى إذا كنت أصلح للتمثيل أمامها على المسرح . واعتقدت أننى شاهدت ومضة من الشعور بالتسلية الساخرة فى عينى كونشيس .

وجدتها فتاة بالغة الحسن والروعة سواء أثناء الخلود الى الهدوء والسكوت أو اثناء التمثيل وسادت فترة صمت . ثم تكلم كونشيس : هل لى أن احكى لك الآن ماحدث عقب مغادرتى انجلترا ؟

ـ إذا لم يكن ذلك يضايق الآنسة مونتجمرى .

ـ لا . اننى أحب الاستماع الى كلام موريس ـ وظل يرقبنى متجاهلا كلامها ـ ليلى دائما تفعل ما أريده على وجه الدقة .

فنظرت اليها وقلت : إذن فأنت سعيدة الحظ . ولم يرفع عينيه عن وجهى ووقعت الظلال على التجاعيد الموجودة بجوار أنفه فبدت اكثر عمقا .. إنها ليست ليلى الحقيقية .

ـ يا سيد كونشيس . لا أعرف ماذا تريد أن تقول لى .

ابتسم واحدة من ابتساماته النادرة وقال : لا تقفز الى النتائج يجب أن ألفت نظرك إلى أننى فى هذا المساء لا أقدم لك قصة وانما أقدم لك شخصية نظرت الى ليلى ، بدت لى وكأنها قد أوذيت مشاعرها بشكل ملحوظ . فبدأت فكرة أخرى جامحة تتغلغل داخل ذهنى : ان هذه الفتاة فى حقيقة الأمر فتاة فاقدة للذاكرة . وهو على نحو ما قد استولى عليها استيلاء حقيقيا . انتقلت بنظرتها المرفرفة المنصبة علىَّ إلى النظر الى رأس

كونشيس الذى تحول لتفادى النظرات ومنه الى النظر الىَّ مرة أخرى . وعلى الفور هبط علىَّ الانطباع بأننا ممثلان لديهما نفس الشكوك ازاء المخرج .

(٢٨)

« عشت فى بيونس أيريس أربع سنوات حتى ربيع عام ١٩١٩ ، تشاجرت مع عمى كنت أشعر بأننى فى منفى . وكان والدى ملتزما بعدم كتابة رسائل إلى أو التحدث معى على الإطلاق . ولكنى بعد فترة من الوقت بدأت والدتى تجرى اتصالاتها معى .

« هناك شيء واحد له أهمية حدث لى فى الأرجنتين . إذ اصطحبنى صديق فى رحلة مقاطعات الأندين .. وشعرت برغبة ملحة فى أن اكرس نفسى من اجل الطبقات الفقيرة وشاهدت أشياء عديدة جعلتنى أقرر أن أصبح طبيبا . ولكن الظروف الواقعية لمستقبلى الجديد كانت قاسية ، فكلية الطب فى بيونس ايريس لم تكن على استعداد لأن تقبلنى وكان علىّ أن أقضى عاما لكى أدرس المزيد من العلوم والمواد العلمية لكى يقبلونى فى كلية الطب .

وحصلت والدتى على دخل مالى كافٍ . وكان نتيجة ذلك كله أننى عدت إلى أوربا وأقمت فى باريس معها . وعشنا فى شقة قديمة ضخمة. وبدأت أدرس الطب ومن بين طلبة كلية الطب تكونت مجموعة . كنا ننظر الى الطب على أنه دين . وأطلقنا على أنفسنا اسم « جمعية الحكمة والرشاد .. كنا نؤمن أنه على جميع الأطباء فى العالم أن يتحدوا معا لكى يصبحوا الصفوة المختارة العلمية والاخلاقية فى العالم . إننا كأطباء ينبغى أن يكون لنا وجود فى كل دولة ، وكل حكومة فنحن بمثابة السوبرمان الاخلاقى الذى سيقوم بالقضاء على الديماجوجية ورجال السياسة الأنانين والرجعية وطبعنا بيانا رسميا يوضح أهدافنا ، وعقدنا مؤتمرا شعبيا فى احدى دور السينما لكن الشيوعيين أطلقوا علينا اسم الفاشستيين وقاموا بتحطيم دار السينما . التفت إلىَّ وقال أتود أن تقرأ البيان الرسمى الخاص بنا يانيقولاس ؟ سأذهب لاحضره لك .

وهكذا أصبحت بمفردى مع ليلى . نهضت واقفة وقالت : « هل يمكننا أن نتمشى ؟ سرت بجوارها . نظرت فيما حولى وأدركت أن كونشيس فى

مكان بعيد بحيث لايمكنه سماع كلامى سألتها :

ـ أأنت هنا منذ فترة طويلة ؟

ـ لا .. لم أكن فى اى مكان لفترة طويلة ، من المؤكد أن موريس طلب منك عدم توجية الأسئلة إلىَّ .

ـ اننى ملتزم بعدم توجية اسئلة اليك أثناء وجوده معنا . فنحن من الانجليز . لكن ماهى اللعبة على وجه الدقة ؟

قالت فى شىء من الحدة : لو سمحت ، إننى حقا لا أستطيع تحمل هذا .

ـ لو سمحت ايمكن أن تغطينى بالشال .

رجعت لكى أحضر الشال ، كان كونشيس مازال فى الداخل . عدت ولففت الشال حول كتفيها ، فجأة مدت يدها وأمسكت بيدى وضغطت عليها كما لو كانت تريد أن تعطينى الشجاعة ربما لكى تجعلنى اعتبرها هى وليلى الأصلية الرقيقة شيئا واحدا ، وكيانا واحدا . ظلت تحملق الى الخارج : لماذا فعلت ذلك ؟

ـ لم أود أن أكون قاسية أو فظة فقلدت على نحو ساخر لهجتها الرسمية في الكلام وقلت لها : هل لى أن أسألك .. فى أى مكان تعيشين هنا ؟

استدارت على حافة الفراندة وأشارت بمروحتها وقالت : هنالك .. أؤكد لك أننى أعيش هنالك . فهبطت على ذهنى فكرة . فتساءلت : على يخت ؟

ـ على أرض.

ـ أمر عجيب . ولكننى لم يسبق لى أن شاهدت منزلك على الاطلاق .

ـ أتوقع ان يكون لديك النوع الخاطىء من الابصار . خيل الىَّ أننى شاهدت ابتسامة خفيفة عند زاوية شفتيها . كنا نقف قريبين من بعضنا البعض بينما العطر ينتشر حولنا .

ـ لا أحب أن يضايقنى أحد بكثرة الاسئلة .

ـ اذن لسوف استمر فى مضايقتك .

مددت يدى وجعلتها تدير رأسها . وسمحت لأصابعى أن تستقر على

البشرة الباردة لخدها ولكن نظرتها الثابتة جعلتنى أرفع يدى عنها ، حملت عيناها الىَّ اشارة تلميحية وتحذيرية فى آن واحد : قد تكسبنى بالرقة ولكن استخدام القوة لن ينفع معى على الاطلاق . والتفتت لتواجه البحر مرة أخرى : هل تحب موريس ؟

ـ هذه هى المرة الثالثة فقط التى قابلته فيها وانني لاشكره جزيل الشكر لدعوته لى لكى أجيء الى هنا ، وخاصة .. قاطعتنى وأوقفت المدح والإطراء . وقالت : كلنا نحبه حبا شديدا .

ـ من تقصدين بكلمة : (كلنا) ؟

ـ أنا وزائريه الآخرين .

ـ من الغريب أن تستخدمى كلمة « زائر »

ـ موريس لايحب « الشبح » . ابتسمت وقلت : ولايحب « الممثلة » أيضا ؟

ـ نحن كلنا ممثلون وممثلات ياسيد أورفى . وأنت من ضمن الممثلين .

(٢٩)

مازلت اعشق الموسيقى كنوع من الممارسة العملية . وذات يوم دافيء فى الربيع عام ١٩٢٠ كنت اعزف بينما النوافذ مفتوحة عندما دق الجرس .. فجاءتنى الخادمة لتخبرنى بأن رجلا جاء للزيارة ويرغب فى التحدث معى : صحح الرجل كلامها قائلا إنه يرغب فى الاستماع لعزفى وليس للتحدث معى .. كان غريب الشكل حتى أننى لم أكن ألحظ تطفله ودخوله عندى بطريقة شاذة كان عمره حوالى ٦٠ سنة فارع الطول للغاية ومهندم الملابس ، نظرت فى حدة الى كونشيس . بدا كأنه ينظر فى اتجاه البحر وسارعت ليلى الى وضع اصبعها على شفتيها فى تكتم وسرية :

« كان يبدو مكتئبا للغاية ، اكتشفت فيما بعد أنه أقل بؤسا مما بدا عليه . وبدون أن يتكلم جلس على كرسى ، وراح يصغى لعزفى . وعندما انتهيت التقط قبعته وعصاه ذات المقبض الكهرمانى بدون أن يتلفظ بكلمات قدم لى بطاقته وطلب منى أن أزوره . عرفت من البطاقة ان اسمه هو : ألفونص دوكانز . كان يحمل لقب كونت . وفى الموعد المحدد ذهبت الى شقته . كانت واسعة وبالغة الأناقة . قادنى خادم الى غرفة صالون . ونهض دوكانز ليرحب بى . اصطحبنى مع الى غرفة أخرى . حيث يوجد

ست من آلات البيان القيثارى . وهى كلها آلات قديمة وفاخرة ومن النوع الذى يعرض بالمتاحف ووجه الىَّ الدعوة لكى أجرب العزف عليها جميعا . ثم أخذ يعزف بنفسه لم يكن فى نفس جودتى ولكن على نحو مقبول ، ثم قدم لى وجبة طعام خفيفة .

« ظلت معلوماتى عنه قليلة لشهور عديدة رغم أننى كنت أقابله فى كثير من الأوقات . فلم يكن لديه اى شىء يقوله عن ماضيه . ولم يكن يشجع اى نوع من الأسئلة . كل ما استطعت ان أكتشفه هو أن اسرته جاءت من بلجيكا . وأنه يمتلك ثروات هائلة . وأنه يدقق كثيرا فى اختيار أصدقائه . وأنه بلا أقارب . ويكره النساء .

« الحياة الحقيقية لدى دوكانز عاشها فى قصره الريفى الضخم فى شرق فرنسا . وهو قصر كان قد شيد فى أواخر القرن السابع عشر وأقيم فى حديقة تزيد مساحتها على هذه الجزيرة . كان باستطاعة المرء مشاهدة الأبراج الزرقاء والحوائط البيضاء من مسافة اميال عديدة . وأذكر اننى لدى زيارتى الأولى شعرت بالرهبة الشديدة، كانت حقول القمح قد حصدت منذ فترة وكان الضباب المائل الى اللون الأزرق يغلف كل شىء . وصلت الى القصر بالسيارة التى أرسلها لاحضارى . سرت وراء الخادم عبر حديقة ضخمة رسمية تقع خلف القصر . وتخطينا سياجا من الشجيرات ووصلنا الى حافة البحيرة ، وعلى مسافة مائة ياردة شاهدت منزلا شرقى الطابع يطل على مياه البحيرة الهادئة . هنا انحنى الخادم وتركنى كى استمر فى طريقى بمفردى ، كان الممر يؤدى الى جدول ماء صغير .. لم تكن هناك رياح كان الجو يسوده الضباب والصمت ولكنه صمت كئيب .

« وخلال تلك الزيارة الأولى شعرت بالصدمة نظرا لاننى كنت آنئذ أميل الى الاشتراكية .

كما شعرت بالانبهار الشديد من حيث اننى رجل مرهف الحس . كان القصر بمثابة متحف كبير . هناك أروقة وصالات عرض مليئة باللوحات الزيتية والخزف الصينى والقطع الفنية على كافة انواعها . وكانت هناك مكتبة شهيرة . علاوة على مجموعة رائعة من الآلات الموسيقية . بالإضافة الى غرفة مليئة بالتماثيل البرونزية التى ترجع الى عصر النهضة . وكذلك غرفة تضم أنواعا مختلفة من الأسلحة . وغرفة أخرى تضم عملات اغريقية

وورمانية . كان من الممكن أن أقضى الليل كله فى مشاهدة هذه الأشياء لأنه كرس كل حياته من اجل جمع كل هذه المجموعات المتبانية . وهى اشياء تكفى لتزيين عشرات القصور » ..
« لم نتناقش على الاطلاق فى الدين أو السياسة . كان يذهب لسماع موسيقى القداس الدينى للطقوس لسبب واحد هو أن النظام الدينى للطقوس شكل من اشكال تشجيع الجمال وتهذيبه . كان رجلا غاية فى البساطة والسذاجة وربما كان السبب فى ذلك هو تلك الثروة الهائلة التى تغمره . وقفت معه ذات مرة ورحنا نرقب معا طابورا من الفلاحين يعملون فى حقل مزروع بنبات اللفت دبت فيه الحياة . وكان تعليقه الوحيد هو : « انه من الجميل ان يكونوا على ماهم عليه وأن نكون نحن على مانحن عليه » . وبالنسبة له كانت أكثر التناقضات الاجتماعية ايلاما والتى يمكن لها أن توخز ضمير الاغنياء الجدد الافاقين لا تسبب له أية آلام .

أما السلوك الايثارى فكان يسبب له إزعاجا شديدا . فمنذ أن كان عمرى ١٨ سنة وأنا أرفض تناول لحوم الطيور البرية على مائدة السفرة . وكان هذا امرا مزعجا من وجهة نظر دى دوكانز . فهذا السلوك من وجهة نظره مثل نغمة نشاز فى مخطوطة موسيقية . ابتهج كثيرا عندما أدرك اننى أعرف قدرا من المعلومات المهمة فى علم الطيور .. وشجعنى أن أتخصص فيما سماه على سبيل الفكاهة باسم : علم دلالات الألفاظ وتطورها لدى الطيور .

« كان أغرب انسان شاهدته فى حياتى . وكان اكثر الناس أدبا واخلاقا . وبالتأكيد أكثرهم ابتعادا عن تحمل المسئولية الاجتماعية . كان عمرى يانيقولاس فى ذلك الوقت ٢٥ عاما اى فى نفس عمرك الحالى الآن . وقد تستنتج من ذلك اننى كنت غير قادر آنئذ على الحكم عليه وتقديمه بطريقة سليمة . وهذه المرحلة من العمر هى فى رأيى أكثر المراحل صعوبة . فالانسان فى هذه السن يعامله الناس على انه رجل مكتمل ولكن بعض الاشخاص يحاولون ارجاعه الى فترة المراهقة .

ولقد آثار-دوكانز شكوكا عميقة فى فلسفتى فى الحياة . وهى شكوك بلورها لى فى خمس كلمات بسيطة .

كنت غير قادر على التصرف بطريقة عقلانية . لكن لماذا كنت أعتقد أن دوكانز انسان شرير ؟ لسوف تقول لأن الاطفال يهلكون جوعا بينما كنت

أنت تعزف تحت ضوء الشمس ولكن ألن يكون لنا ابدا قصور ولا أحاسيس راقية ولا ملذات شاملة ولا خيالات يمكن أن تتحقق ؟ حتى العالم الماركسى يجب أن تكون لديه مآربه وغاياته وأهدافه ويجب أن يتطور بحيث يصبح لديه الحس المرهف بمعنى أن يحقق نوعا من البهجة الأسمى والسعادة الأكثر غنى للآدميين الواقعين فى نطاقه .

« من هنا بدأت أدرك أنانية هذا الرجل الانعزالى ، وأن العمى الذى يعيش فيه كان بمثابة تكلف واصطناع ولو أن تكلفه كان بمثابة سذاجة . وأدركت أنه كان رجلا أصيلا ضاع فى عالم وغير أصيل وصممت على الابقاء على أصالته . ولكن فى يوم مابعدئذ » ..

ولم يتم كونشيس عبارته على الاطلاق ، فعلى نحو فجائى دوى بوق من طيات الظلام من جهة الشرق .. تجمدت مروحة ليلى وتركزت عيناها على كونشيس . الذى كان يحملق فى اتجاه البحر كما لو كان الصوت قد حوله الى حجر جامد .. وبينما أرقبه شاهدت عينيه تنغلقان كما لو كان يصلى فى صمت . لكن الصلاة كانت أمرا دخيلا على وجهه .

حطم البوق صمت الليل المتوتر مرة أخرى . ثلاث نغمات أحدثت أصداء خافتة مترامية من سفح تل منحدر فى الداخل قلت لليلى : ما هذا ؟

نظرت فى عينى للحظات فى لمحات خفيفة من الشك كأن الشكوك تراودها . إننى أعرف طبيعة ذلك الصوت . ومرة أخرى دوى البوق ولكن فى صوت أعلى بحيث أصبح لا يمكننى أن أشاهد أى شىء حتى ولو لم يكن الوقت بالليل . كان كونشيس مازال جالسا بوجهه الغافل عما يدور حوله . ووقفت ليلى ومدت لى احدى يديها : تعال .

تركتها تقودنى الى المكان الذى سبق أن وقفنا فيه من قبل عند الحافة الشرقية من الفراندة . وراحت تحملق لأسفل بين الاشجار فنظرت الى بروفيل وجهها : يبدو أن شخصا مايقوم بمزج استعارتين غير متوافقتين فى عبارة واحدة . قلت : أتمنى لو معى جهاز كمبيوتر . ولا شىء غير ذلك .

ـ كم أنت سخيف يا سيد أورفى . وبدأت الأمور تتضح . فمن مكان ما يقع ما بين الأكواخ ترامى شعاع من الضوء . وكان ينبعث من مشعل كهربائى صغير . ظهر هيكل لرجل عار مثل تمثال من الرخام . كان قريبا للغاية منى مما جعلنى أتمكن من مشاهدة اعضائه بوضوح ، كان طويل

القامة ومتين البنيان مما جعله يصلح للقيام بدور أبوللو . كانت عيناه واسعتين ، يقف فى مواجهتنا بلا حراك . اعترتنى الدهشة لأن بشرته كانت شديدة البياض بل تكاد بلا تكون فوسفورية كأن جسده قد طلى بالدهان مثل وجهه ..

نظرت إلى ورائى : كان كونشيس لايزال جالسا على النحو الذى كان عليه من قبل .. ثم نظرت الى ليلى التى كانت ترقب الهيكل دون أن تظهر تعبيرات معينة على وجهها ولو أنها كانت ترقب فى نوع من الترقب والانتظار والتيقظ .. بدت كأنها قد سبق أن شاهدت هذه البروفة من قبل فأصبحت شغوفة لأن تشاهد العرض الكامل للمشهد ـ مما اسكت فى داخلى أية رغبة فى المزاح . وأدركت أننى لست الشاب الوحيد فى بورانى .

تساءلت : من يكون هو ؟

ـ انه أخى .

وقبل أن أتمكن من توجيه المزيد من الاسئلة إليها ، أشارت الى ما وراء الكوخ . لقد جاء هيكل ضوئى خفيف مهرول وخارج من النفق المظلم ، حيث المدقّ المؤدى إلى المنزل وبدأ يبزغ من بين الاشجار وتحرك ضوء المشعل نحوها ، لقد كانت فتاة . انها ايضا عارية اللهم باستثناء صندل قديم مربوط فى ساقيها . لم تكن عارية تماما ـ كان شعرها ممشطا الى الوراء فى اسلوب كلاسيكى . وكانت بشرتها تبدو بيضاء للغاية وعلى نحو غير طبيعى مثل بشرة أبوللو . إنها تهرول بسرعة كبيرة حتى اننى لم أتمكن من مشاهدة ملامحها على وجه الدقة . ألقت نظرة وراءها لدى مجيئها فى اتجاهنا : لقد كان هناك من يطاردها .

جرت فى اتجاه البحر مابين المكان الذى يقف فيه أبوللو والمكان الذى أقف فيه أنا وليلى بالفراندة . وبعدئذ ظهر هيكل ثالث خلفها . كان رجلا يجرى خارجا من بين الاشجار ثم منطلقا على المدق .. أشبه بساطير إله الغابات ، جذعه العارى داكن . كان يجرى محاولا اللحاق بالفتاة ، تلقيت صدمة أخرى . إذ كان يجرى وراءها فى شبق وقد انتصبت أعضاؤه ، وشعرت بعدم التيقن . ورمقت الفتاة الموجودة الى جوارى بنظرة سريعة . وخيل لى أننى شاهدت ابتسامة خفيفة على وجهها وهى ابتسامة لم اشعر

بالارتياح لها . كانت ابتسامة بعيدة عن « العالم الآخر » الذى لاتزال ترتدى ملابسه .

ثم نظرت الى الحورية والى ظهرها الابيض وشعرها الاشعث وساقيها اللتين ظهر عليهما الارهاق . غاصت بين الاشجار هابطة فى اتجاه البحر . ثم اختفت ثم ظهرت فجأة فى نفس المكان الذى اختفت فيه الفتاة الأولى امرأة فى ثوب اغريقى ذات دروع فضية بما يتناقض تماما مع الكتفين والذراعين العاريين . كانت بشرتها ايضا شديدة البياض على نحو غير عادى . والعينان تبدوان طويلتين بسبب الكحل الاسود . وكان الشعر ملقى للخلف على نحو كلاسيكى ولكن فى شىء من فساد الأخلاق . وكانت تحمل على كتفها سهما فضيا وتمسك بيدها اليسرى قوسا فضيا . وكان هناك شىء ما فى وقفتها وكذلك فى الوجه المشوه يبعث على الخوف الحقيقى . وقفت هنالك للحظات عديدة فى برود وغضب ، وقد اعترضت الطريق على نحو منذر بالشؤم . ثم مدت يدها الشاغرة وانتزعت سهما من جعبة السهام فى سرعة مليئة بالحقد ، ولكن قبل أن تضع السهم فى خيط القوس تراجع الشعاع الى الساطير الواقع تحت الأسر . كان يقف فى خوف وقد ألقى بذراعيه الى الخلف ، مدت قوسها الى اقصى درجة .. وانطلق السهم الذى اختفى بين طيات الظلام . عاد الشعاع الى الساطير الذى أمسك بالسهم المغروس فى قلبه ثم سقط فى بطء تدريجى على ركبتيه وترنح للحظات ثم ارتمى بين الاحجار والشجيرات . وخلف الشعاع الأصلى يقف أبوللو هادئا فى غير حراك . ثم بدأت الآلهة فى المشى . سارت بخطوات سريعة مثل خطوات امرأة تقوم بأعمال الصيد والقنص وقد امسكت بقوسها الفضى فى يد واحدة ملقاة الى جوارها . وقف الاثنان فى مواجهتنا للحظات ثم رفع كل منهما يده الشاغرة وقد انحنت راحة اليد الى الوراء وقدما التحية لنا فى وقار شديد . كانت تلك حركة اخرى لها تأثيرها الفعال . انها وداع الخالدين .

تحركت ليلى كأنها تود أن تحول انتباهى عن هذا الجانب من الأمور .
ـ استأذنك للحظات قصيرة .. ثم سارت فى اتجاه المكان الذى يجلس فيه كونشيس فانحنت عليه وهمست له بكلام . ثم نظرت الى الوراء فى اتجاه الشرق .. وتحرك هيكل اسود فى اتجاه الاشجار : انه الساطير . وترامى صوت ضيئل من صف الأعمدة أسفلنا . فقد اصطدم شخص ما

بطريق المصادفة فى كرسى مما جعل أرجل الكرسى تحدث صوتا كالصرير. أربعة ممثلين آخرين واثنان من الناس يقومون بمهام الإضاءة .. والجوانب الفنية والميكانيكية الخاصة بتصاعد هذا الموقف وكذلك الأحداث الاخرى بدأت تبدو خارقة للطبيعة مثل الأحداث الحقيقية الخارقة للطبيعة . حاولت أن أتخيل العلاقة بين العجوز الذى قابلته على الطريق بجوار الفندق وبين المشهد الذى رأيته توا . واعتقدت أننى فهمت التلميح الى شخصية دوكانز ، فقد كان يتحدث عن نفسه وعنى ، كان من الواضح أنها محاولة من نوع « الاستغاثة المخزية » الواردة فى كتاب « المسرحيات التنكرية الفرنسية » ، وعند ذلك المستوى كان يمكننى أن أسخر من أى محاولة لبعث الهراء الخارق للطبيعة . ولكنى بدأت اشم المزيد من الانجراف الكريه فى هذه اللعبة المسلية التى يقوم بها . الأعضاء التناسلية والعرى الجسدى والفتاة العارية .. وخطر على ذهنى انه سيطلب منى القيام بأداء هذه الأدوار التمثيلية وأن الذى شاهدته ماهو الاّ تجربة استعدادا للخوض فى مغامرة أكثر اظلاما يتم اعدادى لها ، شعرت بالحقد الأعمى على كل الذين ظهروا من اللامكان لينتهكوا حرمة الأراضى « الخاصة بى » .

أخيرا انتصبت ليلى ، ووقفت معتدلة بعد أن كانت تقف فى انحناء بجوار كونشيس وتحدثه فى صوت خافت . كان هناك حب استطلاع لأن تعرف رد فعلى ازاء هذه الأحداث الأخيرة . فابتسمت لها : لقد تأثرت ولكنى لم استغفل ..

ابتسمت وقالت لى : علىَّ أن انصرف الآن ياسيد أورفى ..

ـ بلغى تهنئتى لاصدقائك على هذا الأداء التمثيلى الذى قاموا به . فتظاهرت بأنها فوجئت لكنها لم ترد علىَّ . وظهرت فى عينيها ابتسامة لايكاد يدركها المرء . ثم عضت شفتيها فى رقة شديدة : متى سأراك ثانية ؟ رفرفت عينيها نحو كونشيس دون أن تحرك رأسها . فادركت انهما مشتركان ضدى فى تواطؤ تآمرى .

ـ ذلك يتوقف على الوقت الذى يتم فيه ايقاظى مرة أخرى من نومى السحيق الممعن فى القدم .

ـ آمل أن يكون ذلك فى وقت قريب للغاية ورفعت مروحتها الى شفتيها مثلما فعلت من قبل مستخدمة ريشة آلة الفلوت . ثم أشارت فى سرية

خلسة الى الوراء نحو كونشيس ثم اختفت فى داخل المنزل .

جلست على الكرسى وظل كونشيس يحملق فىّ . فكان لزاما علىّ أن اتكلم : "كنت سأشعر بالمزيد من المتعة لدى رؤيتى لهذا المشهد لو كنت أعرف المعنى الذى يمكن أن يستخلص منه ؟"

سر من سماع كلامى هذا . واضطجع الى الوراء فى جلسته وابتسم : "ياعزيزى نيقولاس لقد ظل الانسان يقول نفس كلامك هذا على مدى العشرة آلاف سنة الأخيرة . والصفة المشتركة بين جميع الآلهة الذين وجه الانسان لهم هذا التساؤل هى أنهم جميعا لم يردوا على ذلك التساؤل. يجب عليك ألا تعتقد أننى اعرف إجابة كل سؤال . وحملقت فى القناع الخفيف الذى يغطى وجهه فى تلك اللحظة وقلت فى هدوء : ولماذا أنا بالذات ؟ أشار لأعلى نحو السماء اعتقد أنه علينا أن نتفق فى الرأى معا على أن أى إله خلق كل ذلك الكون من اجل أن يعطينا درسا فى اللاهوت انت لك مطلق الحرية التامة فى العودة إلى مدرستك إذا كنت ترغب فى ذلك . وربما يكون هذا أكثر حكمة .

فتشت فى عينيه فعثرت فيهما على شىء ما لم استطع تصديقه . أدركت فى شىء من الغموض أن جهلى وطبيعة تكوينى ورذائلى وفضائلى كانت على نحو ما ضرورية بالنسبة لمسرحيته التنكرية . وأحضر زجاجة البراندى من جوار المصباح وصب لى كأسا وصب لنفسه كمية ضئيلة ورفع كأسه فى مواجهتى وهو مازال واقفا :

فلنشرب معا بمناسبة تعارفنا على نحو أفضل يانيقولاس .

شربت وابتسمت ابتسامة مليئة بالحذر . وقلت : أنت لم تتم قصتك .

حسنا . كنت بصدد .. ولكن هذا لايهم الآن هيا بنا نقفز الى الذروة .. فى كل مرة أشاهد فيها صورة فوتوغرافية لجماعة من الفلاحين الصينيين أو لموكب عسكرى أو اشاهد فيها جريدة رخيصة مليئة بالكلام الفارغ والأكاذيب أو اشاهد بها النفايات وسقط المتاع الذى تقوم ببيعه المحلات الكبيرة . وفى كل مرة أشاهد فيها اهوال السلام الذى تفرضه امريكا على الناس أو اهوال الحضارات المسئولة عن ضعف القدرات وانخفاض الذكاء قرنا وراء قرن بسبب الانفجار السكانى وتفشى الأمية فاننى اشاهد فى نفس الوقت دوكانز . وفى كل مرة اشاهد فيها نقصانا فى المكان ونقصانا

فى الفضائل الاخلاقية افكر فى دوكانز . فى يوم ما بعد آلاف السنين اعتبارا من الآن ربما سيكون هنالك عالم لا يوجد به سوى قصور فاخرة كهذه وبدلا من أن يبزغ الناس من تربة اللامساواة والاستغلال البشع فإنهم سينشأون على التطور الذى يتم التحكم فيه وتنظيمه مثل عالم دوكانز المصغر فى قصره .

فى يوم من الأيام قام احد الخدم التابعين له بادخال فتاة الى القصر . فسمع دوكانز صوت امرأة تضحك . فأرسل شخصا لكى يعرف من الذى تجرأ واحضر امرأة الى عالمه الخاص . واتضح ان الذى احضر المرأة هو احد السائقين ، فتم فصله من وظيفته . وبعد ذلك بوقت قصير سافر دوكانز فى زيارة لايطاليا .

وذات ليلة تصاعدت رائحة الدخان فى القصر فشم رئيس العمال الرائحة وذهب لكى يلقى نظرة ، فاكتشفت ان جناحا كاملا بالإضافة الى الجزء المركزى الأوسط من القصر قد شبت فيه النيران . وكان معظم الخدم والعمال موجودين فى منازلهم بالقرى المجاورة وذلك بسبب غياب سيدهم عن القصر . وبدأ العدد القليل من الخدم النائمين بالقصر فى ملء جرادل بالماء وحملها الى كتل النيران . وتم اجراء محاولة للاتصال تليفونيا بمرفق المطافىء ولكن حرارة التليفون كانت مقطوعة . وعندما وصلت عربات الاطفاء كان الوقت الملائم للقضاء على النيران قد فات . ولم تترك النيران سوى أجزاء من الحوائط .

كنت فى رحلة بالخارج فى ذلك الوقت . وتم ايقاظ دوكانز من نومه فى الفجر حيث كان نائما فى فندقه فى فلورانسا . فعاد الى منزله على الفور . وقال الناس انه بمجرد أن شاهد آثار النيران عاد إلى باريس .. وبعد مرور يومين عثر عليه ميتا فى غرفته فى باريس عقب تناوله كمية كبيرة من العقاقير .. ولقد أخبرنى خادمه الخصوص انه ظهر على وجهه وهو ميت نوع من السخرية .

عدت الى فرنسا بعد مرور شهر على جنازته . ولم أعرف ماحدث الاّ بعد عودتى . وذات يوم طلب منى أن ذهب لمقابلة المحاميين الخاصين به . لقد ترك لى كل ثروته . كنت فى تلك الأيام مجرد شاب صغير السن يعتمد على

والدته فى النفقات . لم اصدق فى بادىء الأمر ان كل هذه الثروة الهائلة لى .

وعدتك بأن اقول لك الكلمات التى تركها دوكانز ايضا لى مع ثروته ومع ذكرياته . لقد ترك عبارتين باللغة اللاتينية : ما الذى تشربه ؟ الماء أم الموجة ؟ هل هو شرب الموجة ؟

- نحن جميعا نشرب كلا منهما .

رحت افكر .. ولكنى لم استطع ان اعرف ايهما كنت اشرب ..

ظللت منتظرا . اتجهت الى النافذة ثم استلقيت ممددا على السرير .. ثم نهضت واتجهت الى النافذة مرة أخرى . وفى نهاية الأمر بدأت فى قراءة الكتيبين الصغيرين . كلاهما كان مكتوبا باللغة الفرنسية .

جمعية العقل والحكمة

نحن أطباء وطلبة كليات الطب بجامعات فرنسا نعلن اننا نؤمن بالآتى :

١ - ان الانسان لا يمكنه أن يحقق التقدم الا باستخدام العقل .

٢ - ان المهمة الأولى للعلم هى القضاء على اللاعقلانية فى اى شكل من اشكالها فى الشئون العامة وفى الشئون الدولية .

٣ - المجالات الوحيدة للعقل هى المجالات البشرية . وأية مجالات أخرى هى دلائل خاصة باللاعقلانية .

٤ - لايمكن للعالم أن يكون افضل من الدول التى تتألف منه . ولايمكن للدول أن تكون أفضل من الأفراد الذين تتكون منهم الدول .

يتم الحصول على العضوية فى جمعية العقل والحكمة لدى التوقيع على التعليمات والتعهدات الآتية :

١ - أتعهد بأن أعطى ١/١٠ من دخلى السنوى لجمعية العقل والحكمة من أجل العمل على تدعيم أهدافها .

٢ - أتعهد باستخدام العقل فى جميع الأوقات وفى جميع الأماكن وذلك فى حياتى الشخصية .

أيها الإخوة والأخوات فى الانسانية : نحن نناشدكم أن تشاركوا فى الصراع الدائر ضد قوى اللاعقلانية . وأن تساعدونا لكى نقف جميعا فى

حزم ضد المؤامرات التى يحيكها القساوسة ورجال السياسة . ولسوف تصبح جمعيتنا فى يوم ما أعظم جمعية فى تاريخ الجنس البشرى . انضموا الينا الآن . وقفوا صامدين .

بدا النص والتعليق فى ضوء ما حدث منذ عام ١٩٢٠ وكأن الأمر مثير للشفقة ، فقد سئمنا من المغالاة فى العقلانية . فالكلمات فقدت قوتها سواء أكانت لصالح الخير أم لصالح الشر .

رحت استمع الى الليل خارج المنزل . لايوجد سوى الصمت المطبق . التفت الى الكتيب الثانى . أدركت من ورقه المائل الى الصفرة ومن ظرازه القديم فى الطباعة أنه من الآثار المتبقية من فترة ما قبل الحرب .

عن الاتصال مع العوالم الأخرى

لكى يصل الانسان الى اقرب النجوم فإنه سيضطر لأن يسافر على مدى ملايين السنين بسرعة الضوء . وحتى لو كانت لدينا الوسيلة التى تعيننا على السفر بسرعة الضوء فاننا لايمكننا أن نذهب الى أى منطقة أخرى مسكونة فى الكون والعودة منها فى أية فترة حياة واحدة للفرد .. بل لايمكننا ان نجرى اتصالاتنا من خلال استخدام وسائل علمية أخرى مثل الموجات اللاسلكية ، فنحن منعزلون للابد ـ أو هكذا يبدو الأمر لنا ـ فى فقاعة الوقت الضئيلة الخاصة بنا .

يا لتفاهة الضجة التى نثيرها حول طائراتنا . ويا لغباء ذلك الانتاج من أدب الخيال العلمى الذى كتبه أدباء مثل فيرن وويلز عن الكائنات العجيبة التى تسكن كواكب أخرى ، لكن مما لاشك فيه ان هناك كواكب أخرى تدور حول نجوم أخرى . وأنه يوجد بالكون مخلوقات متورطة مثلنا ولديها نفس الآمال الموجودة . فهل محكوم علينا للأبد الا نتمكن من الاتصال بهم .

لا توجد سوى وسيلة واحدة للاتصال غير معتمدة على الوقت . والبعض لايؤمن بوجود هذه الوسيلة . ولكن هناك العديد من حالات نقل الأفكار فى نفس اللحظة التى يتم فيها إدراكها ويشهد على صحة ذلك .. اشخاص مشهود لهم بالأمانة العلمية . وهذه الظاهرة شائعة للغاية ومتعارف عليها بين حضارات بدائية مثل حضارة اللاب حتى أنها تستخدم كوسيلة من وسائل الراحة فى الحياة اليومية مثلما نستخدم نحن التليفون أو التلغراف

فى حياتنا اليومية ، وهذه هى الوسيلة الوحيدة التى ستكون لدينا دائما من أجل الاتصال بالجنس البشرى الموجود فى عوالم أخرى ..

والشخص الذى قام باعداد هذا الكتيب غير مهتم بالروحانيات . ولقد أمضى بضعة سنوات فى دراسة ظاهرة التخاطر وغيرها من الظواهر المماثلة بالإضافة للعلوم الطبية العادية . وهو يشير فى كتيبه إلى ان هناك عوالم أكثر تحضرا من عالمنا بكثير تحاول الاتصال بنا . وأن مجموعة كاملة من السلوك الذهنى المفيد والنبيل والذى يظهر فى مجتمعاتنا على هيئة الضمير الحسن والأعمال ذات الطابع المتعاطف مع الانسانية والإلهامات الفنية والعبقريات العلمية هى فى الواقع أمور ناجمة عن شبه الفهم للرسائل التخاطرية الواردة الينا من عوالم أخرى .

لم يسبق لى أن مررت فى حياتى بتجربة تخاطرية . واعتقد انه من غير المتوقع أن أبدأ مع كونشيس . فاذا كان هناك رجال أفاضل محبون للخير ومنتمون لعوالم أخرى يقومون بتزويدى بالأمور الحسنة ، فإنهم يفعلون ذلك ليس من أجلى كفرد ولكن من أجل افراد الجيل الذى ولدت فيه . بدأت افهم السبب الذى دعا كونشيس لان يقول لى ذات اليوم اننى انسان حساس للمؤثرات الخارقة للطبيعة . فقد كان هذا بمثابة اجراء تمهيدى من اجل اعدادى للمشهد الأكثر غرابة والذى حدث فى المسرحية التنكرية فى تلك الليلة التالية .. « التجربة » .

لقد أثارت المسرحية التنكرية اعجابى الشديد ومع ذلك أثارت فى داخلى القلق والتوتر مثل قصيدة غامضة لأنها لم تكن غامضة فى حد ذاتها ولكنها غامضة من حيث السبب الذى دعا الى كتابتها .. وفى المساء خطرت على ذهنى نظرية جديدة وهى : ان كونشيس يحاول ان يبعث الحياة من جديد فى عالمه الخاص ولسبب ما تم الالقاء بى فى هذا الخضم على اساس أننى بمثابة ذاته أو شخصه الأصغر سنا ..

فى تلك الأثناء كانت المسرحية التنكرية قد سببت لى مشاعر الإحباط .. وكان الصمت مازال مهيمنا على المكان . نظرت الى ساعة يدى . لقد مرت نصف ساعة تقريبا .. لم استطع النوم ، وبعد أن انتابنى شىء من التردد تسللت هابطا على السلم الى غرفة الموسيقى ومنها الى الخارج تحت صف الأعمدة . سرت بين الاشجار لمسافة قصيرة ثم قفلت راجعا وهبطت على

المنحدر فى اتجاه البلاج .. كانت أمواج البحر تتسابق فى بطء ونعومة جاذبة معها القليل من الحصى من وقت لآخر مما جعلها تصدر أصواتا سريعة وخفيفة رغم أنه لم تكن توجد هناك رياح .. كانت الصخور والأشجار والزورق الصغير غارقة فى ضوء النجوم وفى ملايين الافكار المترامية من عوالم اخرى . وكان البحر الجنوبى الغامض اللامع تحت جنح الظلام فى حالة انتظار وترقب . أشعلت سيجارة ثم شرعت فى التسلق عائدا الى المنزل المليء بالأمور غير السارة وإلى غرفة نومى .

(٣١)

تناولت فطورى بمفردى مرة أخرى ، كان يوما مليئا بالرياح والسماء زرقاء صافية كالمعتاد ، نزلت الى الشاطىء . لم يكن القارب هناك . فأكد لى ذلك نظريتى التى تشكلت تدريجيا فى داخل ذهنى عن « الزوار » فهم فى الغالب كانوا موجودين هنالك فى يخت فى احد الخلجان الصغيرة المهجورة أو ربما قد رسوا بين مجموعة الجزر الواقعة على مسافة خمسة أميال تقريبا الى جهة الشرق . وسبحت فى الماء خارجا عن نطاق الخليج الصغير لكى أعرف ما إذا كان كونشيس فى الفراندة . ولكن الفراندة كانت شاغرة . استلقيت على ظهرى فوق الماء لبعض الوقت وأنا أشعر بتلاطم الموجات الباردة من الماء على وجهى الدافىء بفعل سخونة الشمس ورحت أفكر فى ليلى . ثم نظرت فى اتجاه البلاج . كانت ليلى واقفة على الشاطىء . فبادرت الى العوم فى اتجاه الشاطىء . بأسرع مايمكن . وتحركت ليلى خطوات قليلة ثم راحت ترقبنى . وأخيرا وقفت أنا على قدمى فى الماء لاهثا بينما الماء ينساب منى ، نظرت اليها . إنها ترتدى فستانا صيفيا يرجع الى الموضة التى كانت سائدة أثناء الحرب العالمية الأولى . ممسكة فى يدها بشمسية ذات أهداب زخرفية مصنوعة من نفس قماش فستانها . فأمسكت الرياح بفستانها وضغطته لكى يلتصق على تفاصيل جسدها .. أظهرت مسحة من السخرية . السخرية من نفسها والسخرية منى بينما كنت واقفا وقد انغمست فى الماء حتى الركبتين . ولست أدرى السبب فى هبوط الصمت الشديد علينا . ولماذا حبسنا داخل نظرات وقورة . من المؤكد أن نظراتى اليها كانت مليئة بالدهشة إذ كانت تبدو صغيرة فى السن وداعرة ورعديدة ، ابتسمت ابتسامة مليئة بالخجل لكنها فى نفس الوقت ابتسامة عابثة ، قلت لها : هل قام نبتون - إله البحر - بقطع لسانك ؟ « أنت تبدو فاتنا وباهرا مثل الرسام رينوار" .

وابتعدت قليلا عني ولفت مظلتها وادارتها . وقمت بتجفيف ظهرى بالفوطة ولحقت بها . فابتسمت ثم جلست على صخرة منبسطة تغمرها ظلال شجرة صنوبر ، أغلقت مظلتها وأشارت بها إلى حجر موجود إلى جوار الصخرة لكى أجلس عليه تحت أشعة الشمس . ولكننى وضعت الفوطة على الصخرة لكى تجف ثم جلست جاثما الى جوارها . الفم الرطب والزغب فوق الساعدين والندبة الغائرة فى معصم يدها اليسرى وشعرها المنساب : ان الفتاة الشابة الوقورة التى تجلت فى الليلة السابقة قد اختفت تماما .

فقلت : أنت أجمل عفريتة شاهدتها فى حياتى .

لقد كنت أعنى ما قلته تماما . ولكننى كنت أهدف فى نفس الوقت إلى أن أسبب لها بعض الخجل ولكنها لم تشعر فقد زادت من اتساع ابتسامتها .

سألتها : من هن هؤلاء الفتيات الأخريات ؟

ـ أى فتيات أخريات ؟

دعك من هذا التظاهر وأجيبى على تساؤلى ولا داعى للمزاح .

ـ أرجوك ألا تفسد الأمور .

أردت أن أدفع بشعرها الى الخلف مرة أخرى أو أهزها فى قوة ولم أعرف على وجه الدقة أى الرغبتين أريد . وفى النهاية اكتفيت بالحملقة فى البحر : أنت تحرصين على الايحاء بأنك تلعبين هذه اللعبة الزائفة من أجل أن تدخلى السرور على العجوز .. فإذا كنت تريدين لى الانضمام إلى هذه اللعبة فإنه يحسن بك أن توضحى لى السبب .

أصابها التردد واعتقدت للحظات أننى قد نجحت فى اختراقها .. اعطنى يدك . لسوف اقوم بقراءة بختك .. وأرجو أن تجلس قريبا منى بعض الشىء . أمسكت بيدى فى رفق ثم راحت تتبع خطوط الكف . تمكنت من مشاهدة شكل ثدييها عند الجزء الاسفل من فتحة ثوبها .. بشرة بيضاء شاحبة وأوحت لى أن هذه المناورة الجنسية المبتذلة تعتبر جزئية بعض الشىء وفيها تحدٍّ للثديين . جرى طرف اصبعها فى براءة ، ثم بدأت تقرأ .. لسوف تعيش حياة مثيرة ، ترزق بثلاثة أطفال ، وستموت عندما تبلغ

سن الأربعين تقريبا . عقلك أقوى من قلبك . وعقلك يخون قلبك . أشاهد خيانات عديدة فى حياتك . بل أنت فى بعض الأحيان تخون نفسك . وأحيانا اخرى تخون الذين يحبونك .

سألتها : هل يمكننى أن أقرأ بختك ؟

ـ اننى لم أكمل كلامى .. فأنت لن تصبح غنيا ويجب أن تحترس من الكلاب السوداء والمشروبات الروحية والنساء العجائز .. ولسوف تضاجع الكثير من الفتيات ولكنك لن تحب سوى فتاة واحدة حبا صادقا ـ وهى الفتاة التى ستتزوجها .. وستكون سعيدا معها للغاية .

ـ سعيد للغاية على الرغم من اننى سأموت فى سن الأربعين تقريبا .

ـ ربما السبب لأنك ستموت فى سن الأربعين . فهذا هو المكان الذى ستموت عنده تقريبا وبعد الموت يتعاظم خط السعادة ويصبح قويا للغاية .

ثم أطلقت يدى . وطوت يديها فى حجرها : هل يمكن لى أن اقرأ كفك ؟

فمدت يدها .. وتظاهرت بأننى اقرأ كفها ورحت اتتبع نفس الخطوط فى كفها . وحاولت قراءة كفها فى جدية تامة على طريقة شرلوك هولمز ـ كانت يداها ناعمتين للغاية ـ فجذبت يدها بسرعة وراحت تتأمل يدها وهى مقطبة الجبين وتلاطمت خصلة من شعرها على خدها وداعبت الرياح ملابسها مما جعلها تبدو أصغر سنا وتذكرت الكلام الذى قاله كونشيس عن ليلى الأصلية . والفتاة الموجودة الى جوارى كانت تبذل جهدا شجاعا أو ربما كان توزيع الأدوار على الممثلين قد سبق عملية تأليف الرواية . ولكن كل مهارات التمثيل فى العالم لا يمكنها أن تنجز هذا الدور الحالى ، ثم أمالت راحة يدها نحوى مرة أخرى .

وماذا عن الموت ؟

ـ انت تنسين دورك . فأنت ميتة بالفعل الآن .

خيل لى أننى سمعت نغمة أسف ، شيئا ما يتسم بالتمرد الغامض . اشارة الى السنة الحقيقية التى كنا فيها مترامية من خلف القناع الذى تتنكر وراءه .. فرحت أتفحص وجهها :

بمعنى ؟

ـ انه يسمع كل شىء نقوله ، فهو يعرف . « هل تقصين عليه كل شىء ؟ وتميطين اللثام عن كل شىء ؟ » وبدت نبرة عدم التصديق فى صوتى . فأومأت برأسها ، وأدركت أنها لم تكن تفشى الأمور على الاطلاق ، فسألتها : « ايتم ذلك عن طريق التخاطر » .

« عن طريق التليباثى وأيضا عن طريق ... » ثم نظرت لأسفل .

« وعن طريق ماذا » »

« لايمكننى أن أقول المزيد فى هذا الشأن » ..

التقطت مظلتها وفتحتها كما لو كانت تعتزم الانصراف .. كان بالمظلة شرّابات سوداء صغيرة تتدلى من نهايات الضلوع .

ـ هل أنت عشيقته ؟ نهضت واقفة وشرعت فى المشى بسرعة فى اتجاه المدق الذى يؤدى الى المنزل . فجريت وراءها وسددت عليها الطريق . نظرت بعينيها لأسفل ثم رفعت بصرها ونظرت الىَّ فى نظرات مليئة بالتأنيب . وكانت هناك مسحة من العشق والغرام فى صوتها وهى تقول لى :

ولماذا يجب عليك أن تعرف أين أنت ؟ ألم تسمع من قبل عن التصور والتخيل ؟

ـ هذا كلام جميل . ولكن ذلك لا يأتى بالنتيجة المرجوة .

فحملقت فى برود فى وجهى المبتسم ثم نظرت لاسفل مرة أخرى .

ـ والآن فأنا أعرف السبب فى عدم استطاعتك أن تكتب شعرا جيدا .

وجاء علىَّ الدور لأن اشعر بالصدمة . فقد سبق لى أن عبرت عن فشل آمالى الأدبية لكونشيس . واحسرتاه ، من المؤسف أننى لم افقد ذراعا حيث يمكنكم جميعا أن تسخروا من ذلك أيضا .

فشعرت بالغيظ مما جعلها تنظر نظرة ناجمة عن ذاتها الحقيقية : نظرة سريعة ومباشرة حيث التفتت قليلا برأسها : ما كان ينبغى علىّ أن أقول ذلك . أعتذر لك فلست عشيقته .

مددت رقبتى حول حافة المظلة ، فوجدت أن تعبيرات وجهها تتناقض مع

الكلام الذى قالته وأدركت انها تحاول اخفاء شعورها بالتسلية . وانزلقت عيناها لكى تتقابل مع عينى ثم أومأت تجاه رصيف الميناء سألت : هل سنذهب الى هناك للنزهة ؟

ـ اذا كان ذلك واردا فى النص المكتوب للرواية . استدارت لكى تواجهنى .. ورفعت اصبعا وقالت : ولكن طالما انه من الواضح أننا غير قادرين على التكلم بنفس اللغة فإننا سنكتفى بالسير معا ..

كان هناك المزيد من الرياح القوية عند رصيف الميناء .. واستمرت متاعبها مع شعرها المتناثر مع شدة الهواء : امسكت بمظلتها المغلقة نيابة عنها وحاولت هى السيطرة على خصلات شعرها العابثة . وتغيرت حالتها النفسية تماما ؛ اذ انخرطت فى ضحكات متواصلة وراحت تتقافز مرحاً وأمسكت بذراعى ولكنها كانت مستغرقة فى اللعبة مع الرياح والبحر ، تلميذة جميلة ولعوب فى ثوب خليع .

ثم جاء صوت الجرس متراميا من المنزل . فقالت فى وقار ممزوج بالسخرية : الجرس يناديك . نظرت لاعلى بين الاشجار : لا استطيع أن أعرف السبب فى ذلك .

ـ عليك أن تذهب وحدك فالجرس لم يدق من أجلى أنا ..

ـ أظن أنه ينبغى علينا أن نظهر أننا صديقان مرة أخرى . كانت واقفة بالقرب منى وقد امسكت بشعرها لكى تمنعه من التطاير ونظرت لى نظرة متجهمة . ثم قالت : ياسيد أورفى . هل أنت بصدد أن تطلب منى أن أرتكب جريمة التقبيل ؟

وكان ذلك أمرا لطيفا . فتاة لعوب تنتمى لعام ١٩١٥ تسخر من نكتة فيكتورية واهنة . لمست خدها بشفتى حتى تراجعت الى الوراء . نهضت واقفا ورحت أرقب رأسها المنحنى . ثم ناولتها شمسيتها فانطلقت فى اتجاه المنزل . ورحت أصعد على المدقّ وأنا أنظر خلفى من وقت لآخر ولوَّحت لى يدها مرتين وهى واقفة عند رصيف الميناء وبدأت أشق طريقى بين الاشجار فى اتجاه المنزل . شاهدت ماريا واقفة عند باب غرفة الموسيقى بجوار الجرس . ولكننى لم أكد أسير خطوتين حتى انشق العالم الى نصفين . أو هكذا بدا لى الأمر .

ظهر هيكل فى الفراندة ، وكان ذلك الهيكل فى مواجهتى وفى مكان أعلى منى . لقد كان ذلك الهيكل هو : ليلى . لايمكن أن تكون هى ليلى . ولكنها كانت هى ليلى . نفس الشعر الذى تتقاذفه الرياح ونفس الفستان ونفس الشمسية ونفس القوام ونفس الوجه ، تطابق فى كل شىء ، وكانت تحملق فى اتجاه البحر من فوق رأسى . مع تجاهلى تجاهلا تاما .

كانت صدمة متوحشة ورهيبة ومليئة بالتشويش واقتلاع الجذور . ومع ذلك أدركت فى خلال الثوانى القليلة الأولى انها ليست نفس الفتاة رغم أنه كان من الواضح أنه يراد لى أن أعتقد أن هذه الفتاة هى نفس الفتاة التى تركتها توا عند الشاطىء . ولكنها كانت شبيهة بفتاة الشاطىء تماما حتى أنهما لايمكن الاّ أن تكونا توأم .. لم يكن لدىّ متسع من الوقت للتفكير واستجماع قواى حيث ظهر هيكل آخر بجوار ليلى الموجودة بالفراندة .

كان ذلك الهيكل رجلا طويلا ، وربما يكون « أبوللو » أو « روبرت فولكس » أو حتى ربما يكون « دوكانز » .. لم أستطع أن أتبين هذا الهيكل فى وضوح لأنه كان مرتديا ملابس سوداء وملفوفا فى ضوء الشمس ومرتديا أسوأ قناع تنكرى شاهدته فى حياتى : رأس ابن آوى هائلة سوداء اللون مع وجود أنف طويل للغاية وأذنين متجهتين لأعلى . كانا يقفان هنالك . المالك والمملوك . الموت المتربص الوشيك الوقوع ، كان هناك شىء بالغ الغرابة يتعلق بتشخيص للموت على نحو مبالغ فيه مثل الصور التى توجد فى مجلات الرعب .

اعتقدت بأن هذا الزى الذى أراه لايزيد عن كونه مجرد تحريف ردىء للمسرحية التنكرية . وهذا لايعنى أننى لم أشعر بالخوف ، كنت خائفا بالفعل . ولكن خوفى كان ينبع من أن أى شىء يمكن ان يحدث ، وأنه لا توجد هناك حدود فى هذه المسرحية التنكرية ولا قوانين أو مواثيق اجتماعية عادية .

وقفت متجمدا فى مكانى ثم سارت ماريا نحوى . وبعدئذ انسحب الهيكلان كما لو كانا يتجنبان إتاحة أى فرصة لمشاهدتهما ، وجذبت ليلى للخلف بواسطة اليد السوداء الملقاة فوق كتفها . ونظرت ليلى لأسفل نحوى فى آخر لحظة ولكن وجهها كان خاليا من أية تعبيرات .

بدأت أجرى مهرولا عائدا نحو المدق ، وألقيت نظرة عبر كتفى . لقد

اختفى الهيكلان الموجودان بالفراندة . فذهبت الى الناصية التى يمكن من عندها النظر إلى الأماكن السفلية والتى سبق لى أن شاهدت عندها ليلى / الشاطئية تلوح لى أثناء وقوفها على الشاطىء . وكان رصيف الميناء مهجورا فجريت لأبعد مكان يمكنني منه مشاهدة معظم الشاطىء وانتظرت لعلى أشاهد ظهور الفستان الناصع ولكن دون جدوى . فخطر على ذهنى أنها مختبئة بين الصخور .

كانت ماريا مازالت فى انتظارى عند حافة الأعمدة . وكان قد انضم إليها رجل . انه هرميز الحمار القليل الكلام . من المحتمل أن يكون هو نفس الرجل الذى ظهر مغلقا فى السواد فهو فى نفس القامة لكنه كان يبدو هادئا . قلت على وجه السرعة باللغة اليونانية « لحظة واحدة لو سمحتما » ثم اندفعت الى داخل المنزل ، صعدت على السلالم بسرعة الى حجرة كونشيس ورحت أطرق على الباب . فلم أسمع ردا ثم أمسكت بأكرة الباب محاولا فتحه ولكنه كان مغلقا بالمفتاح . هبطت السلم وتوقفت داخل غرفة الموسيقى لكى أشعل سيجارة كى أتحكم فى أعصابى . إلى أين ذهب السيد كونشيس ؟

لم تكن ماريا تعرف المكان الذى ذهب اليه كونشيس . واعطتنى ورقتين مطويتين عليهما اسم نيقولاس احداهما رسالة موجزة من كونشيس موجهة إلىَّ : -

عزيزى نيقولاس . اننى مضطر لأن أطلب أن تقضى وقتا بهيجا حتى هذا المساء . فهناك أعمال تتطلب وجودى بصفة عاجلة فى نوبليا .

م . كونشيس .

أما الورقة الأخرى فكانت برقية لاسلكية . جاءت من أثينا فى الليلة السابقة .

سأعود يوم الجمعة القادم . وسأكون غير مرتبطة بالعمل لمدة ثلاثة أيام . الساعة السادسة مساء بالمطار . أرجو أن تجىء .

آليسون

لقد أرسلت البرقية بعد ظهر يوم السبت . فنظرت الى كل من ماريا وهرميز . لم تنم أعينهما عن أى شىء . كانا يرقبانى فى بساطة متى

احضرت هذه البرقية ياهرميز ؟

فقال هرميز : فى وقت مبكر من ذاك الصباح . اخذتها من دكان سراتز بولاس بالامس .

ـ ولماذا لم تعطنى هذه البرقية من قبل هز كتفيه ونظر الى ماريا فهزت ماريا كتفيها . وبدا عليهما وكأنهما يريدان القول إن الغلطة هى غلطة كونشيس .

وسألنى هرميز عما إذا كنت أرغب فى ارسال ردّ على البرقية حيث إنه كان بصدد العودة إلى القرية . فقلت له إننى لا أعتزم الردّ على البرقية.

فعدت الى الشاطىء . وذهبت مباشرة الى الكهف . لاتوجد أى دلائل تشير الى وجود ليلى . وبعد دقيقتين من البحث الدقيق اقتنعت أنها غير مختبئة على الشاطىء .

(٣٢)

جلست تحت شجرة الصنوبر ورحت أحملق فى اتجاه البحر . حاولت ترتيب أفكارى . انهما فتاتان توأم . ليلى ذات الندبة الغائرة فى معصم يدها وليلى الأخرى التى شاهدتها بالفراندة . ركزت ذهنى على ليلى التى عرفتها عن كثب : ليلى ذات الندبة الغائرة . لقد حاولت أن تبدو جذابة ومثيرة لانتباهى ، فاذا كانت هى عشيقة كونشيس فأنا لا أستطيع أن أتخيل الأسباب التى دعته لأن يسمح لها بأن تفعل ذلك معى بل ويتعمد أن يتركنا بمفردنا معا اللهم الاّ إذا كان انسانا منحرفا أخلاقيا . لقد اعطتنى انطباعا أنها تؤدى الدور بناء على أوامر صادرة لها من كونشيس . الاّ أن جميع أنواع اللعب التى تتم بين رجل وامرأة تتخذ دائما الطابع الجنسى وهى هنا على الشاطىء قد شرعت فى إيقاعى فى حبها . بناء على أوامر العجوز. كان « أداؤها التمثيلى » أقرب إلى أداء الهواة منه إلى المحترفين . فكل شيء تحت السطح يشير إلى أنها فتاة تنتمى لعالم شبيه بعالمى ، ففى كل نظرة هناك إيحاء بأنه يتم المزاح معى أدركت أن ذلك هو ماجذبنى اليها أكثر من النواحى الجسدية . وعلى نحو ما كانت مغازلتها مليئة بالمهارة واللباقة الممتازة وقصارى القول إنه إذا كان ذلك هو دورها فى الفزورة فينبغى علىَّ أن أقع فى دائرة الإغراء على ممارسة الزنا .

وانزلقت أفكارى إلى آليسون . كانت برقيتها اشبه بحبة الرمل التى تدخل فى عين المرء فى الوقت الذى يريد فيه الرؤية فى مزيد من الوضوح . وكان باستطاعتى تخمين ماحدث . فالخطاب الذى أرسلته لها يوم الاثنين السابق قد وصلها على مايبدو . ربما كانت تشعر بالملل . فأرسلت تلك البرقية . لقد جاءت البرقية مثل شىء دخيل متطفل : مثل تطفل الحقيقة فى النشوة . لم يكن بمقدورى مغادرة الجزيرة . ولم يكن باستطاعتى اضاعة ثلاثة ايام فى أثينا هباء وسدى . وقرأت البرقية التعيسة مرة أخرى . ولعل كونشيس قد قرأها ، هذا معناه أن كونشيس يعرف أن دعوة موجهة إلىَّ للذهاب الى اثينا من الفتاة التى سبق أن حدثته عنها أو هى الفتاة التى ينبغى « أن أسبح متجها اليها » . وربما لذلك غادر الجزيرة وربما كان عليه أن يلغى بعض الترتيبات التى كان من المقرر اتخاذها فى خلال إجازة نهاية الأسبوع التالية . توصلت الى قرار ، أنه لا داعى لأن أتقابل مع آليسون .

دق الجرس من أجلى من مرة أخرى . موعد تناول طعام الغذاء . فجمعت حاجياتى وسرت فى تثاقل صاعدا المدق وانا احاول البحث فى جميع الاتجاهات لمواجهة ظهور أحداث أخرى خاصة بالمسرحية التنكرية . وأثناء سيرى بين الاشجار توقعت أن أشاهد ظهور منظر غريب . ولكنى كنت مخطئا فى توقعاتى .

وعقب الانتهاء من تناولى للطعام تحت صف الأعمدة الذى تجتاحه الرياح العاصفة أخرجت آليسون من تفكيرى تماما . وأصبحت مستعدا لأى شىء قد يعرضه علىّ كونشيس . ولكى أخفف عن نفسى وأسهل الأمور عليها سرت بين أشجار الصنوبر متجها الى المكان الذى سبق أن اضطجعت فيه وقرأت فى كتاب « روبرت فولكس » يوم الأحد السابق . لم أخذ معى كتابا فى هذه المرة واكتفيت بالاستلقاء على ظهرى وأغمضت عينى .

(٣٣)

لم أعط أى وقت لكى استغرق فى النوم فما إن انقضت خمس دقائق على وجودى هناك حتى سمعت حفيفا وشممت عطر خشب الصندل . فتظاهرت بأننى مستغرق فى النوم . كان وقع اقدامها يترامى خلف رأسى مباشرة . ثم جلست على الأرض خلفى مباشرة . وظننت أنها ستسقط كوز صنوبر أو تدغدغ أنفى فى وخز خفيف . ولكنها راحت تتلو أبيات من شعر شكسبير .

وظللت ملتزما بالصمت طوال الوقت مع الاستمرار فى غلق عينى. وتلاعبت بالكلمات فى مزاح معطية اياها معانى مزدوجة . كان صوتها جميلا وانتهت من تلاوة الشعر ولكنى ظللت مغلقا عينى ، تمتمت: استمرى ..

ثم فتحت عينى . فحملق لأسفل نحوى وجه شيطانى له لون أخضر/ أسود وعينان ناتئتان شديدتا الأحمرار . تلويت ناهضا . كانت ممسكة بقناع مهرجانى صينى مرتكز على عصا فى يدها اليسرى . ثم شاهدت الندبة الغائرة . فى يدها لقد غيرت ملابسها . دفعت بالقناع جانبا . أنت تؤدين الدور بطريقة سيئة .

كان من الواضح أننا مازلنا نلعب ونتسلى ولكن فى نغمة مختلفة وفى مزيد من الصراحة .

وضعت يديها حول ركبتيها المغطاتين بالجونلة واستندت الى الوراء وراحت تحملق فى الاشجار الموجودة ورائى . كانت ترتدى فى قدميها حذاء برقية أسود اللون . والتزمت ليلى الصمت فترة طويلة ، سألتها:

ـ ما حكاية الكلب الذى خرجت أختك التوأم معه فى هذا الصباح.

ـ ليس لى أخت .

فقلت : أنت تعودين مرة أخرى للعب . فى أى مكان اختبأت ؟

ـ لقد ذهبت إلى المنزل .

لم تكن على استعداد لأن تلقى بالقناع الآخر . رحت أتفحص وجهها . ثم مددت يدى لكى أشعل سيجارة . وراحت ترقبنى وأنا أشعل عود الكبريت وآخذ نفسا عميقا مرتين . ثم مدت يدها على نحو غير متوقع . فناولتها سيجارتى فوضعت شفتيها على السيجارة بنفس الطريقة التى يدخن بها الأشخاص المبتدئون لأول مرة . ثم دفعت رأسها بين ركبتيها ومدت يدها بالسيجارة لكى آخذها منها . ثم سعلت مرة أخرى . ونظرت الى مؤخرة عنقها والى كتفيها النحيلين فتذكرت تلك الحورية العارية التى ظهرت فى الليلة السابقة والتى كانت نحيلة وصغيرة الصدر ولها نفس الطول . فسألتها : أين تلقيت تدريباتك ؟

لم ترد على ذلك التساؤل . فجربت معها خطا آخر من خطوط الهجوم ، وقلت : أنت تحاولين إيقاعى أسيرا لفتنتك وجمالك . فلماذا تفعلين ذلك ؟

لم تحاول فى هذه المرة أن تظهر أنها قد أسىء اليها . ورفعت رأسها وألقت بظهرها الى الوراء وارتكزت على احدى ذراعيها ثم التقطت القناع وأمسكت به .

- اننى اسطارطة إلهة القمر ، أم الأسرار الغامضة .

واتسعت عيناها الجميلتان وابتسمت لها ابتسامة باهته : كنت اودها أن تدرك أنها آخذة فى الاقتراب الشديد من قاع الخزانة فى ارتجالاتها .

هنا سمعت صوت موتور زورق مترام من جهة البحر . ومن المؤكد أنها هى الأخرى سمعت ذلك الصوت ولكن عينيها لم تكشف عن أى شىء : قلت أتمنى أن أقابلك فى مكان بعيد عن هنا .

- ربما فى إجازة نهاية الأسبوع القادمة ؟ فخطر على ذهنى أنها قد أبلغت بمعلومات عن آليسون .

أكملت :

لن يسمح موريس بذلك أبدا « أنت الآن فى سن يسمح لك بأن تتصرفى بدون الحصول على موافقة أحد » .

- توقعت أنك ستكون فى اثينا فى عطلة نهاية الأسبوع القادم .

التزمت بالصمت للحظات ثم قلت : لا أجد مظهرا واحدا من سلوكك الغريب هنا مسليا للغاية مثل النواحى الأخرى . ؟

استلقت على احد مرفقيها وقد اعطت ظهرها لى . وجاء ردها فى صوت منخفض ، "رقة مشاعرك لا تلقى التجاهل الكامل" أحسست بوخزة من الإثارة ، واعتدلت فى جلستى حتى يمكننى مشاهدة بروفيل وجهها . الذى بدا عليه وكأنه تخلى عن لعبة التمثيل .

- اذن فأنت تعرفين أنها لعبة ؟

- جانب منها فقط .

- لماذا يتم التجسس على حياتي الشخصية على هذا النحو؟ .

فهزت رأسها وقالت : لاتجسس على حياتك . لقد قيل ذلك الكلام أمامى . وهذا كل ما فى الأمر .

- لن أذهب إلى اثينا . فقد انتهى كل شيء بيننا . وهذا من الأسباب التى دعتنى للمجيء الى اليونان . لكى أبتعد عن تلك الأمور التى بدأت تتسم بالفوضى انها استرالية الجنسية ، وتعمل حاليا كمضيفة جوية .

- وانت لم تعد تحبها ؟

- نحن مجرد صديقين الآن .. وكنا ندرك معا منذ البداية أن الأمر لن يدوم طويلا بيننا . ونحن نتبادل الرسائل من وقت لآخر .. آليسون انسانة خرقاء وهى مناهضة للبريطانيين أعتقد أننى شعرت بالأسف الشديد من أجلها .

- هل عشتما معا كرجل وزوجته ؟

- إذا كان ينبغى عليك أن تعبرى عن ذلك بهذه الطريقة السخيفة . اقول لك إننى عشت معها كرجل وزوجته لمدة أسابيع قليلة وأود أن أعرف الأسباب التى تدعوك الى الاهتمام الشديد بهذا الموضوع .

كل ما فعلته أنها حركت رأسها من جانب لآخر . بنفس الطريقة التى يلجأ اليها الناس عندما يقرون أنهم لايستطيعون الإجابة على تساؤل . لم تكن تعرف السبب الذى دعاها للاهتمام الشديد . لذلك استأنفت قائلا : لم أكن سعيدا للغاية فى جزيرة فراكسوس ، كنت أشعر بالوحدة ادركت اننى لا أحب هذه الفتاة كل ماهنالك أنها الفتاة الوحيدة التى عرفتها وذلك هو كل مافى الأمر .

- وربما أنت الشخص الوحيد فى حياتها .

- هناك عشرات الرجال الآخرين فى حياتها . أقول لك ذلك بكل صدق وأمانة ، على الأقل ثلاثة رجال منذ أن غادرت انجلترا ، أمل أن تكفى عن انتحال شخصيات أخرى . ومن المؤكد أنه كانت هناك أمور مشابهة لذلك فى حياتك الحقيقية .

هزت رأسها وقالت : لا

ـ لكنك تعترفين أن لك حياة حقيقية . وأن ادعاءك بالشعور بالصدمة هو أمر سخيف ، أنت تدركين أننى وقفت على حقيقة الدور الذى تقومين به .

فظلت صامتة للحظات ثم واجهتنى ، نظرت فى عينى مباشرة نظرة تسلم بما قد قلته وفى تلك الاثناء كان الزورق البخارى غير المرئى قد أخذ فى الاقتراب ، كان يتجه الى رصيف الميناء الصغير . فقلت : هل تتم مراقبتنا الآن ؟

فهزت كتفها هزة خفيفة للغاية ، وقالت : كل شىء تتم مراقبته هنا .

نظرت حولى ، لم أتمكن من مشاهدة أى شىء . فحملقت فى وجهها وقلت : ربما . لكننى لن أصدق أن كل شىء يتم سماعه ، فوضعت مرفقيها على ركبتيها وحملقت فيما ورائى ! وقالت : المسألة تشبه لعبة الاستغماية يانيقولاس .

فقلت : لايوجد لعب عندما لا يسلم المرء بأنه قد تم اكتشافه فى المكان الذى يختبىء فيه ، أنت لست ليلى مونتجمرى .

ـ هل أنت ابنتها ؟

ـ نعم .

ـ بالإضافة الى اختك التوأم

ـ لقد كنت طفلة وحيدة .

كان ذلك أكثر مما ينبغى . وقبل أن تتمكن ليلى من التحرك كنت قد ركعت جاثما ، وأرغمتها على الاستلقاء على ظهرها ، وامسكت بكتفيها مما جعلها تضطر لأن تتفحص عينى . وشاهدت مسحة من الخوف فى عينيها فبدأت استغل نقطة الضعف هذه فيها :

ـ الآن استمعى الى . كل هذا امر مسلٍّ . ولكنك لديك أخت توأم وانت تعرفين ذلك . كما أنك تقومين بهذه الحيل وتتخذين هذا الطابع الخيالى فى الحوار المنمق بالمحسنات البلاغية وفى الميثولوجيا ، إلا أن هناك شيئين لايمكن إخفاؤهما وهما : انك تتصفين بالذكاء وأنك انسانة تتمتعين بحقيقة مادية جسمانية مثلى تماما وأنا لا أعرف ما اذا كنت تفعلين ذلك لانك تحبين الرجل العجوز أو بسبب أنه يدفع لك النقود أو لان ذلك يدخل عليك المتعة .

كما أننى لا اعرف المكان الذى تسكنين فيه أنت واختك واصدقاؤك الآخرون .

انا لا أهتم كثيرا بذلك لاننى أعتقد أن المسألة كلها تتسم بالخيال الغريب . وأنا اشعر بالارتياح نحوك ونحو موريس ولذلك فأنا على استعداد للقيام بأى دور تمثيلى بنفس القدر من الحماس الذى تبدينه ولكن لاتجعلينا نأخذ الأمر بهذه الجدية الخطيرة .

أرجو أن تتوقفى عن جلد حصان ميت بالسياط . تتوقفى عن هذا المزاح الخشن . مفهوم ؟

ظللت محملقا فى عينيها وأدركت أننى كسبت الجولة ، فالخوف فى عينيها قد تراجع وحل محله الاستسلام .. قالت : أنت تحطم ظهرى . يوجد تحت ظهرى حجر أو شىء من هذا القبيل .

ركعت جاثما مبتعدا بعض الشىء ، وأشعلت سيجارة فانتصبت فى جلستها وعدلت من شأنها ودلكت ظهرها ، وشاهدت كوز صنوبر على الأرض فى المكان الذى اعتصرتها فيه ، وبعدئذ جذبت ركبتيها لأعلى ودفنت وجهها بينهما . فحملقت لاسفل نحوها معتقدا أنه كان على أن أدرك أن استخدام القوة معها سيأتى بالنتيجة المرجوة . دفنت وجهها بين ركبتيها بينما ذراعاها تلتفان حول ساقيها . وساد الصمت فترة طويلة فأدركت أنها تتظاهر بالبكاء . قلت : ذلك لن يطهرك ايضا .

فجلست القرفصاء الى جوارها . وقدمت لها سيجارتى . فأخذتها منى . قلت :

لم أكن أهدف الى إيذائك . وسحبت نفسا من السجارة بطريقة طبيعية وليس كانسانة مبتدئة فى التدخين . لقد حاولت بالفعل .

ـ انت انسانة رائعة . ليس لديك أية فكرة عن مدى غرابة هذه التجربة . انها أمر يشبه الجاذبية الأرضية حيث لا يمكن للانسان أن يقاوم لفترة طويلة للغاية .

فألقت على نظرة بها قدر من الاكتئاب والاشمئزاز ثم قالت : آهٍ لو أدركت كيف اعرف جيدا ما تعنيه .

وهنا تراءت لى صورة ذهنية جديدة : وهو أنه من المحتمل أنها كانت تلعب دورها تحت شكل ما من اشكال التهديد ، قالت : اننى اصغى اليك فى انتباه شديد . كلى آذان صاغية . هناك نوع من النص المسرحى ، ومن المفروض أن أصطحبك لكى أريك شيئا ما . مجرد تمثال .

ـ عظيم ، هيا قودينى الى مكانه .

ثم نهضت واقفا . فالتفتت حولها وأطفأت عقب السيجارة فى حرص فى الأرض . ثم نظرت الى نظرة خنوع ، هل سمح لى أن اعيد نفسى الى ما كنت عليه ؟ لاتتنمر على من اجل خمس دقائق ؟

فنظرت الى ساعتى وقلت : بل ولسوف اعطيك ست دقائق .. ولكنى لن اسمح بثانية واحدة تزيد على الدقائق الست .

أمسكت بيدها لكى اساعدها على النهوض . ثم ظللت ممسكا بها قائلا : وأنا لا أطالب بأننى أرغب فى أن اعرف على نحو افضل شخصا ما اجده جذابا للغاية وهو يمارس استعراض عضلاته على .

اتجهت بنظراتها لاسفل ، وقالت : وهى لا تجد نفسها مضطرة لأن تمثل .. انها اقل خبرة منك .

ذلك لن يقلل من جاذبيتها على الإطلاق . فقالت : انه ليس بعيدا . هنالك عند قمة التل . ثم شرعنا فى السير معا وقد تماسكت يدانا . أخذت اعتصر يدها . قردت على بالضغط على يدى . كان ذلك اقرب الى وعد بالصداقة منه إلى أى شىء يتسم بالطابع الجنسى . اكتشفت أن الملحوظة الاخيرة . التى أبدتها عن نفسها جديرة بالثقة وكان الأمر يرجع الى جمالها نظرا لتلك الملامح الرقيقة التى تتمشى مع توليفة من الجبن والخوف وشدة الحساسية ازاء الاتصالات الجسمانية . وأحسست ان وراءها ازدواجية الماضى الذى تلعبه ، مسحة من البراءة اللذيذة . بل ربما مسحة من العذرية ، انها مسحة مؤهلة لها كى تطهر وتطرد الأرواح الشريرة بمجرد أن يسمح الوقت الملائم لذلك . لم يكن هناك أى شخص فى العالم أرغب فى أن أتبادل معه المواقع بحيث يحل كل منا محل الآخر وذلك بعد أن عثرت على مليكتى واصبحت ممسكا بيدها . بدأت أدرك أن جميع علاقاتى السابقة مع الفتيات بالإضافة الى انانيتى بل وطرد آليسون الى عمق

الماضى قد أصبح له ما يبرره . كان ينبغى أن يكون الأمر دائما على هذا النحو .

(٣٤)

قادتنى بين اشجار الصنوبر الى مكان أعلى من المكان الذى شققت فيه طريقى الأسبوع الماضى . كان هناك مدق ووجدت بعض السلالم المنحوتة بطريقة بدائية . وعلى الجانب الآخر وفوق مساحة من الأرض المرتفعة وصلنا الى تجويف صغير يواجه البحر . وفى الجزء الأوسط من هذه الأرض كان يقف التمثال الذى تعرفت عليه لتوى . انه نسخة من تمثال بوسيدون «إله البحر» فى اوائل القرن العشرين . فهناك بطاقة ملونة لهذا التمثال موجودة فى غرفتى . كان ذلك الرجل الجليل يقف منفرج الساقين بينما ذراعه يشير ناحية البحر ، انه تمثال به نفس الطابع الحديث الموجود فى انتاج هنرى مور ولكنه قديم للغاية فى نفس قدم الصخرة التى يقف عليها . أدهشنى أن كونشيس لم يصطحبنى لكى أشاهد هذا التمثال . لعله كلفه اموالا كثيرة ؛ لذا فالاحتفاظ به فى هذا المكان فى غير مبالاة وفى ركن مستتر هكذا . ودون أن يتحدث عنه أمر يثير الحيرة فوجدت نفسى اتذكر دوكانز .

وقفنا معا ، ورحنا ننظر الى التمثال . وابتسمت لدى مشاهدتها انفعالات التأثر على وجهى . كان بمقدور المرء مشاهدة البحر البعيد من فوق قمم الاشجار أما التمثال نفسه فكان يتعذر على اى شخص عند الشاطىء أن يشاهده . وجلست فى غير تأنق محولة ملابسها الى تنورة وجاكيت كان نوعا من التعرى وخلع الملابس . جلست على مقربة منها ، أدركت أننى انظر اليها . لقد انتهت « برهة التنفس اللاهث » قلت : أخبرينى باسمك الحقيقى

- ألا تحب اسم : ليلى ؟

- انه اسم رائع ، يصلح لأن يكون اسما لنادلة فى حانة فى العصر الفيكتورى .

فابتسمت ثم قالت : انا لا احب اسمى الحقيقى لقد تم تعميدى فى الكنيسة تحت اسم جوليا ولكننى اتخذت لنفسى اسم جولى .

- جولى ماذا ؟

قالت : فى تمتمة جولى هولمز . ولكننى لم يسبق لى أن عشت فى شارع بيكار .

ـ وما اسم اختك ؟

فأصابها التردد بعض الشىء ثم قالت : يبدو أنك مقتنع بها .

لقد تمت ولادتنا فى فصل الصيف . ولم يظهر والداى قدرا كبيرا من ملكات التخيل والابداع أختى تسمى : « جين » .

ـ جين ، وجولى .

ـ عليك ألا تخبر موريس .

ـ هل تعرفين موريس منذ فترة طويلة ؟

هزت رأسها بالنفى وقالت : ومع ذلك يبدو كأننى أعرفه منذ فترة طويلة .

منذ متى تعرفينه ؟

نظرت الى تلك النظرة التى تتسم بعدم التيقن . وكان فى نظراتها نوع من اللوم والعتاب نظرا لاصرارى الشديد على توجيه تلك الاسئلة ، من المؤكد انها ادركت اننى لن أرجىء الحصول على رد منها مرة أخرى . فانحنت للأمام وراحت تنظر الى الأرض . وقالت : لقد تم احضارنا الى هنا بناء على ادعاءات زائفة منذ اسابيع مضت . ومن السخف أننا لم نترك هذا المكان او لم نضرب عن العمل . أصابنى شىء من التردد لأن ذهنى كان قد قفز على الفور الى ليفاريير والى ميتفورد . لكننى قررت أن أدخر هذه الورقة ولا أكشف عنها فى هذه المرحلة من الحديث معها .

ـ ألم يسبق لك أن جئت إلى هنا من قبل ؟

فظهرت على وجهها دهشة حقيقية وتساءلت لماذا .. ؟

ـ مجرد تساؤل .. اعتقدت أن هذا ربما قد حدث فى العام الماضى . كان الأمر شبيها بعض الشىء بنخس بغل متمرد ولكنه خائف من اتخاذ خطوة الى الأمام . حملقت فى الأرض باحثة عن كلمات وقالت : رغم كل شىء فنحن هنا بارادتنا الحرة رغم اننا جميعا لانعرف على وجه الدقة ماهو

مخبأ وراء الكواليس . ونحن نشعر بنوع من الامتنان او بنوع من الثقة . إنه من الصعب توضيح الأمور لك . ولكنى أنا واختى نشعر أننا مدينتان له بالكثير . والمشكلة هى أننى اذا قمت بالاجابة على جميع الأسئلة فاننى أدرك تماما أنك ستتحرق شوقا كي تسأل المزيد وعندئذ سيكون الأمر شبيها بقص حكاية فيلم بوليسى غامض عليك قبل ذلك الفيلم مباشرة .

ـ ومن المؤكد أن باستطاعتك أن تقصى علىّ كيفية دخولك هذا الفيلم .

ـ لا استطيع ، لأن ذلك هو جزء من عقدة الرواية

شعرت كأنها تنسل هاربة من بين يدى . وشاهدت وجهها الواقع تحت الظلال . كان وجهها متهدجا بعض الشيء ، بل ويكاد يكون به مسحة من الخوف .

ـ هل يدفع لك مقابل هذا العمل ؟

فترددت بعض الشيء وقالت : نعم ولكن المسألة ليست مسألة نقود .

ـ لم يظهر عليك من قبل انك تحبين العمل الذى يريدك أن تمارسيه .

ـ السبب فى ذلك اننا لانعرف كمية الصدق فى الأمور التى يقولها لنا . ولا نعرف ماهى الأمور التى يجب أن نصدقها او الأمور التى ينبغى الاّ نصدقها . « اذا اردت ان تعرف شيئا ، أحب أن أقول لك اننا قد خطونا الآن خطوات قليلة فى غياهب المتاهات وذلك لايعنى اننا اقتربنا أكثر منك من المنطقة المركزية فى المتاهات" .

التزمت الصمت للحظات ، ثم قلت : هل سبق لك القيام بالتمثيل فى وطنك ؟

ـ نعم .. ولكن ليس فى احتراف حقيقى .

ـ عندما كنت بالجامعة ؟

فابتسمت فى سخرية وقالت : الأمر لا علاقة له بالتخاطر انه الطعم الذى يوقع المرء فى الشراك ، مجرد مجاز .

ـ ثم ماذا ؟

ـ اذا اخبرتك فان كلامى سيفسد الموضوع . وكل ما أريد أن أقوله لك

إن هذه تجربة فريدة من نوعها . تجربة خارج نطاق هذا العالم .

ـ هل سبق لك أن عشت هذه التجربة ؟

ـ نعم وهذا هو السبب أننى أنا واختى قررنا أن نضع فيه ثقتنا . وذلك الأمر ليس شيئا ما يمكن خلقه عن طريق عقل شرير .

لازلت غير فاهم للكيفية التى يمكنه بها أن يسمع مانقوله من كلام .

راحت تنظر وتتأمل فى الأميال الشاغرة من مياه البحر . ثم قالت : اذا كنت لا أقوم بالشرح لك فسبب ذلك أننى لست واثقة من أنه لن يسمع ، لأنك سوف تخبره .

ـ اكراما لوجه الله . لقد سبق أن أخبرتك اننى لا افكر على الاطلاق .. أن أخونك .

نظرت الى نظرة سريعة ثم راحت تحملق فى البحر . وقالت فى صوت منخفض : لسنا واثقين مما اذا كنت على النحو الذى تقوله عن نفسك ـ لسنا واثقين مما قاله لنا موريس عنك .

ـ لكن هذه حماقة شديدة .

أخذت نفسا عميقا ، وقالت : من سخرية القدر أننى لست متأكدة أنه لايراد لى أن أتخطى القوانين . انه انسان غريب الأطوار للغاية . لعبة الاستغماية .. فالأمر أقرب الى غماية رجل أعمى . أو الدوران مرات كثيرة للغاية بحيث تفقد الاحساس بالاتجاهات . وان تبدأ فى أن تشاهد معنيين وثلاثة معانٍ فى كل شىء يقوله وفى كل عمل يفعله .

ـ اذن حطمى القواعد والقوانين ثم ترقبى مايترب على ذلك .

ترددت ثم ابتسمت ابتسامة فيها مزيد من الصدق ، ابتسامة أوحت لى على ما يبدو بأنها تريد أن تثق فىّ :

ـ هل ستشعر بالارتياح اذا تم الغاء هذا الأمر كله وايقافه تماما ؟ اذا ما انتهى غدا ؟

ـ لا .

ـ أعتقد أننا هنا وفقا لتسامحه وليس وفقا لتشجيعه لنا . لقد حاولت أن

اوحى لك بهذا المعنى من قبل .

ـ لقد فهمت تلك الرسالة .

ـ تلك المسألة كلها هشة للغاية . وهى شبيهة بنسيج العنكبوت . انها تتم بطريقة عقلانية . بل بطريقة مسرحية اذا اردت ذلك . وهناك بعض الأساليب التى إذا لجأنا اليها فإنها تؤدى الى تدمير تلك المسألة على الفور اننى اتكلم في جدية تماما . فأنا لا ألهو ولا أعبث الآن .

ـ هل هدد بالغاء هذا الأمر ؟

ـ انه لا يضطر الى ذلك . اذا لم نكن نشعر اننا نجتاز هذه التجربة الغريبة والمتعلقة بحياتنا ، فإننى أدرك أنه يمكن أن يبدو سخيفا بل ومثيرا للضحك . انه مسعور ومثير للخجل والجنون إنه ممثل هاوٍ عجوز .. ولكننى أعتقد انه قد اكتشف المفتاح لحل لغز شىء ما .

ـ شىء ما غير مسموح لى بأن أعرفه .

فقالت : شىء ما قد نقوم جميعا بمعاقبة انفسنا اذا افسدناه . شىء ليس من النوع الذى يمكن أن أحدثك عنه فى تسلسل منطقى حتى ولو .. وسادت فترة صمت .

ـ من الواضح أن لديه قوى للاقناع ، اعتقدت ان الفتاة التى ظهرت فى الليلة الماضية هى اختك . الآن فقط عرفت من تكون هى . قالت : فى شىء من الدقة : حتى الأختان التوأمات لا تكون لديهما نفس النظرة الى الأمور باستطاعتى أن أخمن ما تفكر فيه . لكن لم تكن هناك أدنى دلائل على .... ما ينبغى أن نظل موجودين هنا لو كانت هناك دلائل ، فأختى جين دائما ماتكون أقل احتشاما منى ازاء ذلك النوع من الأمور ..

توقفت عن الكلام فجأة ، رأيتها تؤدى صلاة كأنها تطلب من الله الغفران ، وابتسمت ، وقلت : من الممكن أن أعرف معلومات عنكم من أكسفورد .. فما السبب إذن فى أنها أرسلت تقريبا من المكان الآخر ؟

ـ أوه .. ياإلهى كم انا انسانة مغفلة عليك ألا تخبره .

ـ أعدك بذلك .

كان ذلك أمرا عديم القيمة . لقد عملت كموديل عارية ذات يوم على

سبيل المزاح والمداعبة . ولم يعد ذلك سرا .

ـ ماذا قرأت ؟

وسادت فترة صمت قصيرة . ثم تحدثت فى صوت منخفض إنه انسان داهية فاذا قمت باخبارك بمعلومات أكثر مما يراد لك أن تعرف ، فإن الأمر لن يكون حسنا ..

ـ إذن كل هذا يمكنَ أن يكون جزءا من الحبكة القصصية .

ـ نعم . الأمر كذلك على نحو ما ففى القريب العاجل للغاية سوف تمتد سذاجتك لمسافة أبعد .

سألت : هل هو الذى كان فى القارب ؟ أومأت برأسها وقالت : لعله يرقبنا الآن وينتظر الدور الذى سيقوم به فى المسرحية .

رحت أتطلع فى حذر الى ما وراءها عبر الاشجار فى اتجاه المنزل ، لم أستطع مشاهدة شىء . انحنت والتقطت غصنا من شجيرة بجوار المقعد الذى تجلس عليه ورحت أحملق فى الأشجار ، إنها أشجار مراوغة ومحيرة للغاية . كانت قد أفرغت الألف سؤال الذى أريد توجيهه اليها . أما فيما يتعلق بها فقد حصلت على اجابات ـ ان لم يكن الكثير منها صادقة وحقيقية ـ فإن بعضها على الأقل كانت اجابات نفسية وعاطفية . تخيلتها فتاة مثقفة وذات اهتمامات فكرية على الرغم من وسامتها وجمالها ومظهرها . كنت أدرك أنها مازالت تمثل على نحو ما . ولكننى شعرت أن تمثيلها اصبح وسيلة لاخفاء ما تحس به من مشاعر نحوى . قلت : يبدو أنه يوجد جزء من الحبكة القصصية يتطلب قدرا يسيرا من التعاون والاشتراك فى التأليف . أو يتطلب مناقشة للبروفة .

ـ ماهو ذلك الجزء ؟

ـ أنا وأنت .

راحت تسوى ذلك الجزء من جونلتها الموجود فوق ركبتها ثم قالت : لست أنت الشخص الوحيد الذى تعرض لصدمة اليوم . فمنذ ساعتين سمعت لأول مرة عن صديقتك الاسترالية .

ـ لقد اخبرتك بحقيقة الموقف معها ونحن فى المنطقة السفلية .

« اننى لآسفة ، حيث بدا على اننى فضولية للغاية . كانت المسألة مجرد ..

ـ مجرد ماذا ؟

ـ نوع من الشكوك . ومعرفة ما إذا كنت تهدف الى تشويش .

لمست بأصابعها الغصن العطرى ، ظللت أنظر اليها . قلت : النقطة الرئيسية من وجهة نظرى ان الفصل الأول من المسرحية قد تطلب أن تقومى بجذب انتباهى . ربما تكونى بمثابة ذبابة واقعة فى نسيج العنكبوت تتضورين فى تلوٍّ وانثناء .

كانت تمزق الأوراق فى الغصن الصغير على نحو طبيعى وفى إصرار على عمل ذلك ، ثم قالت : أعتقد أنه كان ينبغى على أن أتطلع الى التعرف عليك بشكل أفضل .

فكرت فى الأداء التمثيلى الذى قامت به على الشاطىء فى ذلك الصباح ، أدركت ما كانت ترمى اليه . إن ذاتها الحقيقية ليست من النوع الذى يسهل اقتحامه . وأدركت أنه ينبغى على أن أظهر لها أننى قد فهمت . فانحنيت للأمام ووضعت مرفقى على ركبتى قلت : ذلك هو كل ما أردت أن أعرفه فقالت فى بطء : بكل وضوح . لقد أريد لى أن أكون السبب فى رجوعك الى هنا .

ـ وهذا يأتى بالنتيجة المرجوة .

قالت فى خجل بكل وضوح . لقد كان هذا بمثابة شىء سبب لى بعض القلق . لقد وصل الأمر الى هذا الحد الآن . ولذلك لا أريد أن أضللك تساءلت : أيوجد شخص ما آخر ؟

ـ لقد أوضحت الأمر لموريس ، وقلت إننى سألعب أدوارا فى المسرحية من أجله . ولسوف أفعل مافعلته فى هذا الصباح ، ولكن الى ما وراء ذلك ..

ـ انت حرة فى شئونك .

ـ اشعر كأننى نوع من الخنازير التى تجرى عليها التجارب . والله وحده يعرف الاسباب . الأمر غاية فى الغرابة لقد جئت هنا مصادفة منذ ثلاثة

أسابيع . جئت لمجرد الحصول على كوب ماء..

قالت : لا أعتقد أن الأمر جاء مصادفة أقصد أنك ربما جئت على ذلك النحو . ولكنك إذا لم تجيء كنت قد عثرت على طريقة أخرى قيل لنا إنك بصدد المجيء قبل أن تأتي بالفعل . ثم استدارت نحوى ووضعت ذراعها على الجزء الخلفى من المقعد . وقالت : يانيقولاس .. لا أستطيع أن أتكلم اكثر من هذا يجب على أن أتركك الآن . لقد استهوانا بالفعل بشيء أفضل من اللعب .. وسأله خنزير تجارب .. انه من الاسباب التى أدت الى استمرار بقائنا هنا . وهناك شيء مهم ، فهذه الساعة التى أمضيتها معك عادت على بالارتياح . وانني لمسرورة للغاية ، ربما نكون قد أخطأنا فى فهم موريس . وفي هذه الحالة سنكون بحاجة الى فارس جوال .

نظرت إلى مليا نظرات بها شيء من الشك ولكنها انتهت بابتسامة خفيفة ، ثم نهضت واقفة .

قالت هيا نسير الى التمثال . نتبادل التحية . وتعود انت الى المنزل .

فظللت جالسا : هل سأراك فيما بعد ؟ أشعر كأنني زجاجة صودا بها كمية زائدة من الكربونات . أموج وأفور بالاسئلة .

ـ كن صبورا ، وبينما نسير هابطين المنحدر ، قلت لها :

ـ على أية حال لقد قمت بعملية الاقتحام ، بادعائك بأن ليلى منتجمرى هى والدتك فهى كانت موجودة فى أى زمن من الأزمنة ؟

ـ تخمينك فى مثل جودة تخمينى . إن لم يكن تخمينك أفضل .

صمتت لمدة ثانية واحدة ثم التفتت لكى تنظر فى وجهى وقالت : « عليك أن تنصرف الآن » . أمسكت بيديها : « أود أن أقبلك » فنظرت لاسفل . كانت هناك عودة خفيفة لشخصية ليلى اليها ، ردت : أفضل عدم التقبيل . فهناك من يرقبنا .

ظلت يدانا متماسكتين . ولم يقم أحدنا بسحب يده . ثم وضعت ذراعىّ حولها وجذبتها . فأدرات وجهها للحظات ثم سمحت لى بالعثور على شفتيها . ظلت شفتاها مغلقتين فى احكام أمام شفتى اللهم باستثناء رعشة واحدة صغيرة من الاستجابة قبل أن تدفعنى بعيدا عنها ، لم يكن ذلك تعانقا جنسيا ولكن كان هناك شيء به مسحة من الصدمة الغريبة فى

عينيها كما لو كانت هذه القبلة تعنى الكثير بالنسبة لها . ابتسمت لكى أؤكد لها أن ابتسامة كهذه تعتبر جريمة ولكى أؤكد لها أنها بامكانها أن تضع ثقتها فىّ ، فحملقت فى وجهى ثم خفضت من بصرها . كان الموقف محفوفا بالقلق وبدأت كل العقلانية تتهاوى بدون سبب . فخطر على ذهنى انها تمثل دورا آخر لصالح كونشيس أو أى انسان آخر يرقبنا . رفعت بصرها نحوى مرة أخرى وأدركت أن عينيها تركزان على الاهتمام بى وحدى . قالت : لو اكتشفت فى أى وقت من الأوقات أنك تكذب على فلن استمر .

ثم استدارت قبل أن أتمكن من الرد عليها وابتعدت بسرعة وكأنها فى عجلة من أمرها . رحت أرقبها للحظات ثم استدرت لكى أنظر عبر الأخدود . وترددت فيما إذا كان ينبغى على أن اسير وراءها ، ثم أشعلت سيجارة وألقيت نظرة أخيرة على تمثال بوسيدون الرائع وان كان يتتسم بالغموض ثم بدأت فى السير تجاه المنزل . وقبل الأخدود مباشرة نظرت الى الوراء . كانت هناك ومضة من اللون الابيض بين أوراق الشجر ثم اختفت تماما . لم يكن مقدرا لى أن أترك وشأنى . فلم أكد أصعد السلم حتى شاهدت كونشيس وكان ظهره فى اتجاهى وبدا عليه وكأنه يرقب من خلال تليسكوب طائرا موجودا فوق أعالى الاشجار الى ما وراءه . ولدى سيرى نحوه أنزل نظارته المكبرة والتفت مستديرا . كأنه يشاهدنى من قبل .. لم تكن حركة تمثيلية مثيرة للاعجاب ولكننى لم أكن أدرك أنه يقتصد فى مواهبه من أجل المشهد الذى سيجيء بعد ذلك .

(٣٥)

كان مرتديا ملابسه بطريقة رسمية أكثر من المعتاد . قررت أن التزم الحذر حيث هناك شيء ما فى نظراته الفضولية يوحى بأنه متنبه . شعرت بأن ممثلته لم تكن تكذب علىّ ، على الأقل بالنسبة للإعجاب الذى تكنه نحوه ولاعتقادها بأنه ليس شريرا ، وكنت قد اكتشفت أيضا وجود بقايا من الشك بل اقوى مما كشفت عنه لى بالفعل . وكان على أن أركز عينى على العجوز مرة أخرى لكى ادرك أننى احتفظت بالمزيد من الشك اكثر من الآخرين .

ـ مرحبا .

ـ مساء الخير يا نيقولاس . علىّ أن أعتذر عن تغيبى . فلقد كان هناك قدر ضئيل من الذعر فى وول ستريت .

وبدا شارع وول ستريت وكأنه موجود عند الجانب الآخر من الجزيرة وليس فقط عند الجانب الآخر من العالم . حاولت أن يبدو الاهتمام على وجهى .

لقد تصرفت فى غباء حيث دخلت فى تمويل اتحاد مالى منذ عامين . هل يمكنك أن تتخيل فرساى بدون أن يكون بها ملك للشمس واحد وانما يوجد بها خمسة منهم ؟

ـ تمويل ماذا ؟

آمل ألا تكون قد أفلست ماليا .

ـ الشخص العبيط فقط هو الذى يتعرض للافلاس وهو يكون مفلسا منذ البداية منذ مولده . هل كنت مع ليلى ؟

ـ نعم .

ـ وبدأنا فى السير فى اتجاه المنزل ووضعته فى حجمه قائلا : لقد تقابلت مع أختها التوأم .

استمر فى السير لبضعة خطوات وأدركت أنه كان يفكر بسرعة خاطفة ، قال : ليلى لم يكن لها أخت . ولذلك فلا توجد أخت لها هنا .

ـ اعنى أننى شعرت بالتسلية العظيمة للغاية أثناء غيابك . فلم يبتسم .. كان اشبه بأستاذ فى لعبة الشطرنج وجد نفسه متورطا بين نقلتين من نقلات تحريك حجر الشطرنج . فراح يحسب حسابات سريعة ثم التفت الى ليقول كلاما ما ولكنه غير رأيه : هل اعجبك تمثال بوسيدون .

ثم وضع يده على ذراعى وأوقفنى عن المشى ونظر لاسفل وبدا عليه كأنه فى حيرة بشأن اختيار الكلمات : ربما تكون قد شعرت بالتسلية . فذلك هو ما تحتاج اليه . لاسباب أنت تعرفها الآن بالطبع واننى لآسف بشأن هذا السر الصغير الغامض الذى نشرناه حولك من قبل ..

ـ تقصد فقد الذاكرة ؟

ـ توقف عن المشى مرة أخرى . كنا قد وصلنا توا الى السلم . سأل : ألم يوجد شىء ما فى شخصيتها تسبب فى إصابتك بالذعر أو الصدمة ؟

« أشياء كثيرة » . رفع حاجبي عينيه قليلا كما لو كنت قد سببت له الذهول ثم صعد ، السلم واستدار عائدا الى منضدة الشاي . فوقفت بجوار المقعد وهززت رأسي نحوه بنفس طريقته الاستفسارية :

ـ هذا الاحتياج الشديد الى انتحال التنكرات . لكي تعطي نفسها دوافع زائفة . ألم يصبك ذلك بالذهول ؟ فقمت بعض شفتي ، كان وجهه جامدا ولا يعبر عما يجول في خاطره . بدت عليه الحيرة للحظات ثم ظهر الصفاء على ذهنه فقال : أنت تقصد أن الفصام ينتج عنها هذه الأعراض المرضية ؟

ـ الفصام ؟

أشار لي بيده لكي أجلس على الكرسي ، وأضاف قائلا : انني آسف .. ربما تكون هذه الرطانة اللغوية المتعلقة بالطب النفسي غير مألوفة لك .

ـ نعم أنا غير معتاد على هذه الرطانة ولكن .....

ـ الفصام .

ـ أنني أعرف معنى الفصام ، ولكنك قلت إنها تفعل كل شيء . لأنك كنت تريد لها أن تفعل ذلك .

ـ لكنها ذكية للغاية ، انها ليست طفلة . ألقى على نظرة مليئة بالطابع المهني الاحترافي وقال :

ـ العلاقة مابين الذكاء الشديد والفصام هو أمر معروف تماما . تناولت الشطيرة ثم ابتسمت في وجهه وقلت : مع كل يوم أقضيه هنا اشعر أن ساقي تزدادان في الطول بعض الشيء . أظن أنك تحاول اغوائي .. ولكني لا أكترث بذلك .

دفع بكرسيه بعيدا عن المنضدة وراح يضغط على صدغيه . كما لو كان يشعر بأنه وقع في غلطة رهيبة . أدركت أنه كان يمثل ويتظاهر .

ـ كنت واثقا بأنك فهمت جوانب الموقف . هناك أسباب شخصية لا استطيع ذكرها الآن تكمن وراء شعوري بالمسئولية الكاملة تجاه هذه الفتاة التعيسة التي كانت معك اليوم ـ حتى ولو لم أكن أحبها كابنة لي .. انها السبب الرئيسي الذي دفعني الى المجيء الى بوراني . وكنت أعتقد أنك قد أدركت هذه الحقيقة .

ـ بالطبع أدركت ذلك .. على نحو ما

ـ فهذا هو المكان الوحيد الذى يمكن لهذه الطفلة المسكينة أن تطوف وتطلق العنان لخيالاتها الجامحة .

ـ اتحاول أن تقول لى إنها مجنونة ؟

ـ كلمة مجنون هى كلمة غير علمية من الناحية الطبية وهى كلمة ليس لها معنى ، إنها تعانى من الفصام .

ـ اذن فهى تتخيل أنها خطيبتك التى ماتت منذ فترة طويلة للغاية ؟

ـ لقد أعطيتها هذا الدور . فلا ضرر على الإطلاق من وراء اتخاذها لهذا الدور وهى تشعر بالمتعة فى أدائها لهذا الدور . وهو دور لايدخل ضمن أدوارها الأخرى .

ـ أدوار ؟

(واختفى داخل المنزل وعاد ومعه كتاب) . وقال : هذا كتاب مدرسى عن الطب النفسى اسمح لى بأن أقرأ لك فقرة فى هذا الكتاب : من الملامح المميزة لمرض الفصام هو تكوين الأوهام الخادعة التى قد تكون متقنة أو شاذة متنافرة .

ونظر نحوى وأضاف قائلا : وليلى تقع ضمن المجموعة الأولى واستطرد فى القراءة : وهذه الأوهام الخادعة لها كلها نفس الميل إلى إقامة علاقة سببية بينها وبين المريض . فهى غالبا ما تدمج عناصر التحيز الشائع ضد مجموعات معينة من الأنشطة ، كما أنها تتخذ الشكل العام لتمجيد الذات أو لأحاسيس الاضطهاد . فقد تعتقد مريضة ما بأنها كيلوباترا وبالتالى تتوقع أن يتوافق جميع الناس الموجودين حولها مع اعتقادها هذا . بينما تعتقد مريضة أخرى أن أفراد اسرتها قرروا اغتيالها وهم بالتالى سيجعلون أكثر أعمالهم براءة تتوافق مع الوهم الذى ترسخ فى ذهنها : « وكثيرا ماتكون هناك مساحات واسعة من الوعى غير واقعة تحت تأثير هذا الوهم . وفى كل مايتعلق بهذه المساحات فإن المريض يبدو عليه أنه حساس ومنطقى على نحو مثير للحيرة »

أخرج من جيبه قلما رصاصا ووضع علامات على الفقرات التى قرأها .

فنظرت الى الكتاب محملقا ثم نظرت لأعلى نحوه بينما ، الابتسامة مازالت منطبعة على وجهى سألت : هل هى اختها ؟

ابتسم وقال : نعم . بالطبع . أختها .

كنت قد بدأت أفقد إحساسى من أنه يبتكر مرة جديدة من مراحل المسرحية التنكرية . لذلك ابتسمت مرة أخرى : وأنا ؟

ـ هل الأطفال فى انجلترا مازلوا يلعبون الاستغماية ؟

اعتقدت أن العاهرة الشابة المخادعة ، والثعلب العجوز الماكر يلعبان بى مثل الكرة ، تلك النظرة العجيبة الأخيرة التى ألقتها علىَّ وكل ذلك الكلام عن عدم إفشاء سرها ، وعشرات الأمور الاخرى فشعرت بالخزى ، كما شعرت بأن قدرتى على الهرب والحركة مسلوبة . قلت :

ـ لعبة الاستغماية ؟ بالطبع .

ـ الشخص المتخفى يجب أن يكون له شخص باحث عنه . تلك هى اللعبة . والشخص الباحث يكون غير قوى الملاحظة .

ـ لقد تكون لدى انطباع بأننى فى بؤرة الانتباه الى حد ما .

ـ اننى أرغب فى ادخالك فى هذا الموضوع ياصديقى . وأن تكسب من وراء هذا شيئا ما لا استطيع أن أهين مشاعرك عن طريق تقديم نقود لك .. ولكنى آمل أن تكون لك مكافأة .

ـ أنا لا أشكو من راتبى . لكن يهمنى أن أعرف المزيد من المعلومات عن صاحب العمل الذى سيستخدمنى .

ـ لقد أخبرتك أننى لم يسبق لى أن مارست مهنة الطب على الاطلاق . وهذا الكلام ليس صحيحا يا نيقولاس . ففى العشرينيات درست تحت اشراف العالم يونج . وأنا أعتبر نفسى الآن من أنصار يونج . ولكن اهتماماتى الرئيسية فى الحياة ظلت منصبة على الطب النفسى وقبل نشوب الحرب قمت بممارسات قليلة فى باريس وتخصصت فى حالات الفصام .. أتود ان نشاهد الدليل على ذلك ؟ يمكن لى أن أريك مقالات نشرتها فى العديد من الصحف والجرائد ..

وجلس ملقيا ظهره الى الوراء وقال : عليك ألا تكشف عما سأقوله لك

تحت أى ظرف من الظروف ، الاسم الحقيقي لليلى هو جولى هولمز . ومنذ خمس سنوات جذبت حالتها المرضية قدرا هائلا من الاهتمام فى دوائر الطب النفسى والعقلى . وحالتها هى من أحسن الحالات المرضية المدعمة بالوثائق .. وحتى لو لم تكن هى بالفعل بمثابة حالة غريبة للغاية فى حد ذاتها الا أنها كانت فريدة من نوعها ؛ حيث إن لها أختا توأما ذات طراز نفسى سوى للغاية بحيث إنها يمكن أن تقدم للعلماء مايسمونه بالتجربة الحاكمة . وجولى وأختها توحيان بأن الحالة هى اضطراب روحانى .. ومن هنا فقد اثارا اهتماما هائلا فى الدوائر العلمية .

ـ وهل هذه الوثائق موجودة ؟

ـ لسوف تقرأ تلك الوثائق فى يوم ما . فمن المهم أن تصدق أنك لاتعرف من تكون هى حقا . ولا يمكنك أن تخلق هذا الانطباع اذا كنت تعرف كافة الحقائق الكلينيكية المتعلقة بملاحظة المريض ومعرفة المعلومات الخلفية . اتفقنا ؟

ـ افترض ذلك .

ـ لقد كانت جولى معرضة لأخطار جسيمة وبحيث تصبح مسخا بشريا عجيبا من الناحية النفسية ، وهذا هو ما أحاول أن أحميها من التردى اليه ..

بدأت أتأرجح وأتمايل فى الاتجاه الآخر .

فرغم كل شىء كانت قد حذرتنى ، وعلىَّ أن أضع سذاجتى فى الميزان الدقيق مرة أخرى ، إذ لم يكن بمقدورى أن أصدق أن الفتاة التى تركتها توا كانت تعانى من خلل عقلى . وقد تكون كاذبة ولكننى لم أتصور أنها تعانى من احدى حالات الجنون المشهورة ، سألته : هل لى أن أسألك عن الأسباب التى دعتك لإبداء مثل هذا الاهتمام الشديد بها

ـ الأسباب بسيطة للغاية . فوالداها .. من أصدقائى القدامى . وهى ليست فقط مجرد مريضتى الوحيدة التى أقوم بعلاجها وانما هى أيضا ابنتى بالمعمودية .

ـ اعتقدت أنك فقدت كل العلاقات مع انجلترا .

ـ انهم لايعيشون فى انجلترا . وانما يعيشون فى سويسرا .. وهى حاليا

تقضى فى سويسرا معظم ايام السنة فى عيادة خاصة . وللأسف لم يعد باستطاعتى تكريس كل حياتى لها .

وكدت أشعر بأنه يود أن اصدق كلامه . قلت : « قبل أن تخبرنى بهذا كنت بصدد أن أهنئك على استئجار هذه الممثلة الصغيرة المتمرسة .

فنظر الى نظرة متوحشة على نحو غير متوقع ، أحنى رأسه للحظات ثم نهض واقفا ، واتجه الى حافة صف الأعمدة وراح يحملق الى الخارج . ثم التفت نحوى مبتسما .. بابتسامة فيها تنازل ما لتهدئة الأمور ، وقال : أرى أن الأحداث قد سبقتنى .. فهى قد قامت بدور جديد معك .. أليس كذلك ؟

- إنها بالتأكيد لم تحدثنى عن هذا .

وظل يتفحصنى . فنظرت اليه بنظرات خاوية . صافحته . كما لو كان يؤنب نفسه بسبب الغباء الخاص به . ثم عاد الى كرسيه وجلس مرة أخرى وقال : على نحو ما ، أنت على حق يانيقولاس .. فأنا لم أستأجرها مثلما قلت أنت .. ولكنها ممثلة شابة قديرة .. ودعنى أنبهك أن بعض كبار المحتالين فى تاريخ الجريمة البشرية .. كانوا مصابين بالفصام ..
وعليك ألا تضيق الخناق عليها ، لأنك اذا فعلت ذلك فسوف تموج رأسك بالأكاذيب .. وأنت انسان سوى وتلك الأكاذيب بالنسبة لك هى أمر يمكن أن تتحمله . أما بالنسبة لها فقد يسبب لها انتكاسة خطيرة . مما يعنى ضياع مجهود سنوات طويلة من العمل .

- ولماذا إذن لم تنبهنى الى ذلك عن قبل ؟ فظل يرمقنى بنظرات ثاقبة ثم نظر الى اسفل قائلا : نعم .. انت على حق .. كان ينبغى علىّ أن أنبهك . لقد بدأت أردك الآن . إننى أخطأت فى تقديراتى بشكل جسيم . فالإصرار على معرفة الحقائق يمكن أن يتلف التسلية التى نقوم بها هنا ولكننى أؤكد لك الإصرار له نتائج مثمرة من الناحية الأكلينيكية ومما أصاب بعضنا بالدهشة أن هناك تناقضا فى الطريقة التى نعامل بها الحالات غير السوية . فنحن نضع مرضانا فى مواضع تسمح بأن يتم إستجوابهم والإشراف عليهم ومراقبتهم . وبالطبع يمكن أن يدلل بعض العلماء على أن ذلك ليس فى صالح المرضى . بل إن ذلك فى صالح المجتمع . وفى حقيقة الأمر فإن العلاج كثيرا ما يقدم مادة معقولة للأوهام الخاصة بالاضطهاد . والذى أحاول أن أفعله هو خلق بيئة يمكن فيها أن تعتقد جولى أن لديها

شيئا ما من السيطرة على الظروف . بيئة تشعر فيها أنها لاتتعرض للاضطهاد .. أو أنها ليست الانسانة التى تعرف دائما أقل المعلومات .. فنحن جميعا نتعاون لكى نعطيها هذا الانطباع .. وأنا أجعلها تعتقد آننى لا أعرف مايدور حولى من أحداث وأنها تسحبنى من أنفى !

كانت نغمة صوته توحى بأننى كنت بطىء الفهم ، لاننى لم أدرك ذلك بسرعة فهبط ، على ذلك الشعور المألوف الذى جاء فى محادثة بورانى بأننى لا أعرف ما إذا كان هناك ادعاء بأن « ليلى » مصابة بالفصام فعلا أم أن هناك افتراضا بأننى ادرك بالطبع أن اصابتها بالفصام ليست سوى مكان فى لعبة الاستغمابة داخل المسرحية التنكرية .

نظرت إلى طرف سيجارتى وقلت : ألا يمكنها الخروج .. تحت نوع من الاشراف ؟

ـ انها من الناحية القانونية مجنونة وتلك المسئولية التى تقع على عاتقى . ولكى أضمن ألا تدخل ابدا فى اى مستشفى للأمراض العقلية .

ـ ولكنك تسمح لها بالتجول فى المنطقة . مما يتيح لها فرصة للهرب بسهولة ..

رفع رأسه فى انكار وقال : لايمكنها الهرب على الاطلاق .. فمرضها الخاص لايتركها ابدا .

ـ مرضها الخاص !!

ـ انه انسان عاقل وكتوم وحذر للغاية . وانها تتضايق من وجوده بصفة دائمة بالقرب منها وخاصة هنا . ولذلك يحرص على ان يوجد فى الساحة الخلفية من المكان الذى توجد به ولسوف تشاهده ذات يوم ..

سألته : وهل هذا هو السبب فى أنك تحتفظ بها فى اليخت ؟

ـ اليخت ؟ إنه ذلك السر الضئيل الخاص بها .. اسمح لها بالاحتفاظ بهذا السر .

ـ وهل تقوم باحضارها الى هنا كل سنة ؟

ـ أجل .

أدركت أن احدهما كان بالتأكيد يكذب على قررت عدم الاعتراض على

ذلك كما قررت كبت الشعور المتزايد فى داخلى بأنها ليست الفتاة المسماة « جولى » .. فابتسمت .. وقلت : وهذا هو السبب فى مجيىء الشخصين السابقين على الى هنا . وكانا ملتزمين بالهدوء التام ازاء ذلك الأمر ..

ـ جون كان ممتازا . أما ميتفورد فكان على النقيض تماما .. حيث خدعته جولى فى احد ادوارها عن الاضطهاد . وكالمعتاد فاننى أنا الذى اكرس فترات الصيف من أجلها . لقد حاول ميتيفورد ذات ليلة أن ينقذها . وهنا تدخل مرضها . مما اسفر عن مشاجرة حامية وعلى نحو غير ملائم للغاية أدى هذا الى ازعاجها بشدة ، وأنا لا أعنى بذلك أى شىء ذى طابع شخصى فأنت انسان شديد الذكاء وأنت انسان مهذب وهاتان الصفتان لم تكونا متوافرتين فى ميتفورد .

حككت أنفى . وفكرت فى الأسئلة الحرجة التى يمكن لى أن أوجهها إليه .. قررت عدم توجيهها اليه . فهناك ثلاثة أنماط من الأذكياء : الأول شديد الذكاء للغاية ، الثانى ذكى على نحو يكفى لأن يدرك انه يتم تملقه ولايتم وصفه . الثالث قليل الذكاء وهو على استعداد لأن يصدق أى شىء ، وكنت اعرف اننى من النوع الثانى ، لذا لم يكن بمقدورى أن أصدق كونشيس فكل ما يقوله يحتمل ان يكون صادقا .. مجرد احتمال . وافترضت أن عددا قليلا من الاشخاص الأغنياء المصابين بالهوس قد ظلوا موجودين خارج المصحات من خلال علاقات الضعف العقلى الخاصة بهم ، ولكن كونشيس كان أقل الناس الذين قابلتهم فى حياتى تعرضا للضعف العقلى الناجم عن كبر السن . ولكن هذا لم يثبت على محك التحليل . كانت هناك أشياء عديدة تتعلق بجولى مثل نظراتها .

وتلك الدموع الفجائية وهى كلها أمور تؤكد صحة قصته . ولكنها لم تبرهن على أى شىء فربما كان يتم التخطيط لها دائما وهى لم تكن ترغب فى إتلاف الموقف تماما . وقال حسنا . هل تصدقنى ؟

ـ أيبدو على أننى لا أصدقك ؟

ـ كل منا لايكشف مظهره عما يعتمل فى داخله ، لم يكن ينبغى عليك أن تقدم لى تلك الحبة الخاصة بالانتحار .

وعلى مدى لحظات قصيدة بدأت الأقنعة تتساقط على كلا الجانبين .. كنت أنظر الى وجه خال من روح الدعابة وهو على ما أعتقد كان ينظر الى

شخص خال من الكرم والسخاء . أخيرا ظهرت روح العداء . وتصادمت الإرادات . ابتسمنا فى آن واحد . كل منا يدرك أنه يبتسم كى يخفى حقيقة جوهرية وهى أن كلا منا لايثق فى الآخر مثقال ذرة .

ـ رأود أن أخبرك يانيقولاس أن مسألة تصديقك لما قلته لك هى مسألة بلا أهمية . عليك أن تصدق شيئا واحدا ، وهو أن جولى سريعة التأثر وخطيرة للغاية . وهاتان الصفتان موجودتان فيها دون أن تدرك هى ذلك . فهى مثل نصل الشفرة الرقيق الذى يمكن أن يتعرض للتلف بسهولة ولكنه فى نفس الوقت يمكن أن يسبب الضرر والأذى بسهولة .

علينا أن نتعلم كيف نظل منفصلين عنها عاطفيا تماما . لأنها سوف تركز على استغلال عواطفنا ـ إذا منحناها الفرصة .

ظللت محملقا فى مفرش المنضدة مسترجعا فى ذهنى كل ما بها من تهيب وخجل وعذرية . اذركت أن سرعة تقلبها ربما ترجع الى نواح مرضية .. وان الطهارة التى تبدو على وجهها طوال حياتها بالمواقف الجنسية التى تصدر عن الرجال . من الأمور غير المعقولة . ولذلك ليس بمقدورى ألا أصدقه تماما .

ـ وماهو الشىء الثانى ؟

ـ انه امر مخجل بالنسبة لى ولكنه ينبغى أن يقال . فمن بين تراجيديات جولى أنها امرأة طبيعية من الناحية الجنسية ولكن ليس لديها متنفس لمشاعرها . باعتبارك شابا جذابا مفعما بالذكورة فانك تعتبر بمثابة متنفس . وهو فى حد ذاته له فائدة كبرى بالنسبة لها . انها بحاجة الى شخص ليقوم بتحريك مشاعرها ، وأعتقد أنها حققت بعض النجاح فى هذا الشأن .

ـ لقد شاهدتنى وأنا اقبلها منذ لحظات .

فقاطعنى بأن رفع يده وقال : اللوم لايقع عليك . اذا طلبت فتاة جميلة فقبلها ، ولكنك الآن تعرف الحقائق لا أريدك ان تصد أى عرض للصداقة تقدم هى عليه او اى تلميح بالألفة وإقامة علاقات جنسية غير شرعية ، ولكن عليك أن تدرك أن هناك حدودا معينة لا يمكن تجاوزها . فلن أسمح بذلك لاسباب طبية وأنا هنا أتكلم من منطلق افتراضى بحت .. حاولت اقناع ميتفورد فى السنة الماضية أنها ستصبح طبيعية لو أخذها بعيدا

وتزوجها .. انها عندما تقول مثل هذه الاشياء فهى تؤمن بها وذلك هو السبب فى أن أكاذيبها يمكن أن تكون مقنعة للغاية.

شعرت بالرغبة فى الابتسام ، لم يكن بمقدورى أن اصدق أن لديها أية مشاعر عاطفية تجاه ميتفورد المعتوه قلت :

ـ كنت أتمنى لو أخبرتنى بكل هذا من قبل اذن ينبغى عليك ألا تلوم نفسك إلا بقدر ضئيل .. لم اتوقع ردود فعل سريعة من جانب المريضة . ولم أكن لأبدأ فى التحدث عن كل هذا لو لم أكن واثقا أنك غير مرتبط ارتباطات عاطفية فى مكان ما آخر ..

ـ لقد انتهى الأمر .. اذا كنت تشير الى تلك البرقية .. فأنا لست بصدد الذهاب لمقابلتها فى أثينا .

فنظر لاسفل وهز رأسه : لا شأن لى بهذا الموضوع .. لكن ما قلته عن السيدة الشابة وعن مشاعرك نحوها ترك فى نفسى انطباعا قويا .. ويجب أن اخبرك أنك ستكون غبيا اذا صرفت النظر عن هذا العرض من جانبها بتجديد الصداقة بينكما .

سأشعر بالأسف اذا كان قرارك قد تأثر على نحو ما بما يجرى من احداث هنا .

ـ قرارى ليس له علاقة بالأحداث هنا .

ـ اعتقد أنه من الأفضل لك تفكر جيدا فيما إذا كنت ترغب فى الاستمرار فى زياراتك لنا فى هذا المكان أم لا ، سوف أتفهم الموقف جيدا اذا اتخذت قرارا بايقاف تعاملك معنا . وعلى اية حال أود أن أعطى ابنتى بالمعمودية فترة من الراحة لمدة عشرة أيام .

شعرت بالإحباط الشديد . وفى داخل ذهنى رحت ألعن آليسون وبرقيتها المشئومة . كنت مصمما على اخفاء الإحباط الذى اجتاحتنى قلت : اريد ان استمر معكم .

إنظر إلىّ مليا ثم قال ، على كل حال ففى رأيى أن تستمتع بقضاء إجازة نهاية الاسبوع مع امرأة جذابة فى أثينا . أنا طبيب يانيقولاس . واسمح لى أن أكون صريحا .. فالشباب الذين فى مثل سنك لاينبغى أن يعيشوا فى عزوبية هنا .

ثم نهض واقفا فجأة ومدّ يده مصافحا فصافحته .

وقال : حسنا . إننى لمسرور للغاية لأن الأمور أصبحت واضحة بيننا .

وتعمد أن تكون لهجة كلامه على نحو يوحى بأنه يتعمد الكذب كما لو كان يريد لى أن أظل فى حالة من الشكوك .

ثم طوى ذراعيه وقال : لقد كنت افكر فى صديقتك . فكما تعرف ، اننى امتلك المنزل الذى يعيش فيه هيرميز . وهو يستخدم الدور الأول فقط من هذا المنزل . وخطر ببالى أنك ربما ترغب فى إحضار صديقتك الى جزيرة فراكسوس لقضاء بعض الوقت . ونحن نرحب بها تماما إذا جاءت لتقيم بالدور الثانى من هذا المنزل . المنزل بسيط ولكنه مجهز ومزود تماما بكافة الأمكانيات اللازمة . فشعرت بأننى فى موقف حرج تماما .

وقلت : إنها لايمكنها أن تترك وظيفتها . ولا أرغب فى التورط معها مرة أخرى ولكننى اشكرك على كل حال على هذا العرض الذى تقدمت به .

ـ حسنا .. هذا العرض مازال قائما .

أشاح بوجهه فجأة كما لو كنت قد أسأت إلى مشاعره . قلت له : يبدو أنك ياسيد كونشيس قد فهمت موضوع علاقاتى بهذه الفتاة الأخرى بشكل خاطىء . كانت مجرد علاقة غير شرعية فى عداد الماضى .

ـ لكنها ترغب فى أن تقابلك مرة أخرى ؟

ـ لمجرد حب الاستطلاع . فأنت تعرف طبيعة النساء الفضولية . وربما يكون سبب رغبتها فى مقابلتى هو أن الرجل الذى تعيش معه يوجد حاليا خارج لندن .

ـ لن أتدخل اكثر من ذلك . الأمر يرجع اليك بالطبع .

فاستدرت مبتعدا متمنيا لو كنت قد أغلقت فمي والتزمت الصمت ولكنه نادى على باسمى . فنظرت إليه عبر الأبواب المفتوحة فى غرفة الموسيقى . فنظر الى نظرة ابوية وقال :

اذهب الى أثينا يا صديقى ..

فهمت المعنى .. وواصلت السير صاعدا الى غرفتى وخلعت ملابسى ..

ثم أخذت دشا بالمياه المالحة . وعلى نحو غريب أدركت ما كان يريد أن يقوله . انها ليست لى لأنها ليست لى . ليس لأنها شبح أو مصابة بالعصام .

استلقيت عاريا على سريرى ورحت أحملق فى السقف محاولا أن استرجع وجه جولى وذلك الانحناء الموجود فى رموش عينيها ، وملمس يدها وفمها وذلك الضغط الخفيف من جسدها لدى تقبيلها كما استرجعت جسد أختها الذى شاهدته الليلة السابقة ، وتخيلت جولى تجىء الى فى غرفة النوم أو فى غابة الصنوبر تحت جنح الظلام ممتلئة بالرغبة الجامحة فى أن يتم اغتصابها .

(٣٦)

لم أستمتع وأنا اتناول طعام العشاء . حاول أن يوقعنى فى تناقض فى كلامى ناولنى كتابا بمجرد أن ظهرت فى الافق قائلا : هذه ابحاثى كانت فوق الرف غير المخصص لها بطريق الخطأ .

لم يكن كتابا سميكا . كان مربوطا فى قطعة من القماش دون أن يكون هناك عنوان يشير الى المحتويات الموجودة به . فتحت الكتاب ، كان من الواضح أن الصفحات بمثابة مقتطفات مأخوذة عن مجلات وجرائد مختلفة وكانت النصوص مكتوبة باللغة الفرنسية . وشاهدت تاريخا هو ١٩٣٦ . ورأيت عنوانين : « التكهنات المبكرة بالأتجاه الذى يحتمل أن يتخذه مرض الفصام الخفيف » ، « تأثير المهنة على الأعراض المتزامنة لجنون العظمة » ، « تجربة نفسية /عقلية فى مجال استخدام اوراق نبات الداتورة » .

فوضعت الكتاب قائلا : اننى ارغب فى قراءة هذا الكتاب ، كنت قد اقتنعت بأن كونشيس لديه معلومات تفوق كثيرا المعلومات الموجودة لدى رجل علمانى عن علم الطب النفسى . وأنه قد عرف العلاقة ، ولكن بالطبع هذا لايعنى بالضرورة أنه ينبغى على أن اصدقه فيما يتعلق بجولى .. حاولت أن أحضرها ولكنه كان عنيدا .. إنه وعدنى بأن يعطينى صورة كاملة عن الموقف مع نهاية شهر الصيف .

كنت أرغب أن أتحداه ولكننى أخشى من الاستياء الشديد الذى بدأت

أكنه نحوه :

لأن ذلك يفجر الموقف مما قد يعود على بالخسران كأن يطلب منى عدم زيارته بعد ذلك . كما أحسست أنه على استعداد لالقاء المزيد من الغموض اذا حاصرته بالأسئلة . ولذلك لم يكن أمامى سوى أن احل الألغاز عن طريق استخدام ألغاز أخرى ..

وهكذا انتهت وجبة الطعام حيث أصغيت لطبيب عجوز داهية ، وحيث كنت مثل فأر فى مواجهة قط واشعر بالرغبة الشديدة أن تجىء جولى ، كنت متلهفا لأن أعرف نوع التجربة التى سأمر بها فى ذلك المساء . كان المصباح الموجود بيننا يرتعش ويتوهج ويخبو من وقت لآخر ، فأدى ذلك إلى زيادة التوتر بوجه عام ولكن كونشيس وحده هو الذى بدا عليه الهدوء والارتياح .

وبعد رفع الأطباق صب مشروبا من زجاجة صغيرة . سألته ؟ ما هذا المشروب .

"انه مشروب يسمى راكى . انه قوى للغاية . أريدك أن تصبح مخموراً ومسمما بعض الشىء . لكى تصبح متفحتا وسريعا فى تقبل الأفكار والآراء" .

- لقد قرأت الكتيب . ومن الصعب التأكد من صحة ما جاء به .

- التثبت من صحة الأشياء هو المعيار الوحيد للحقيقة . وذلك لا يعنى أنه قد لا تكون هناك حقائق يصعب التحقق من صحتها .

- هل حصلت على أية ردود فعل ناجمة عن هذا الكتيب ؟

"حصلت على ردود كثيرة من المضطربين عقليا . ومن البائسين الذين يدمرون تطلع البشرية إلى معرفة الأسرار الغامضة المادية التى تواجه الإنسان . وهذه مسألة تكنولوجيا . ولكننى أتحدث عن الصحة النفسية العامة للأنواع والأجناس والإنسان . فالإنسان فى حاجة لوجود الأسرار الغامضة .

فرغت من تناول مشروب الراكى الذى يكاد يكون من الكحول الصافى وقلت :

- هذا المشروب رائع .

فابتسم ورفع الزجاجة لأعلى وقال : وعليك أن تتناول كأسا أخرى .

ـ وبعدئذ تبدأ التجربة ؟
ـ أريدك أن تأخذ كأسك وتستلقى على أحد المقاعد . فى هذا المكان بالضبط . استقلى على الكرسى . لسنا فى عجلة من أمرنا . أريدك أن تنظر إلى نجم معين . هل تعرف مجموعة نجوم سيجنوس ؟ هل تعرف مجموعة نجوم سوان تلك المجموعة من النجوم الثابتة التى هى على شكل صليب والتى توجد فوقك مباشرة ؟

أدركت أنه ليس بصدد الجلوس على الكرسى المقابل . فجأة انتابتنى الظنون : هذا ... هذا .. تنويم مغناطيسى ؟
ـ نعم . يانيقولاس . لا داعى لأن تشعر بالانزعاج . لقد سبق أن نبهتنى ليلى فى تحذير : "لسوف تفهم فى هذه الليلة" . أصابنى التردد بعض الشيء ثم ألقيت بظهرى إلى الوراء . قلت : لست منزعجا . لكننى لا أعتقد انه من السهل إقناعى . ولقد جرب شخص ما ذلك فى أكسفورد .
ـ لسوف نرى . انها مسألة توافق فى الإرادات . انها ليست مسألة منافسة أو تعارض . عليك أن تفعل ما أوحى به اليك .

هل تشاهد مجموعة نجون سوان ؟
ـ نعم .

ثم ابتلعت الكمية الباقية من مشروب الراكى فى جرعة واحدة حتى كدت أختنق ثم شعرت بالمشروب يتدفق بين أرجاء معدتى .
ـ هناك نجم يعرف باسم ألفاليراى سأطلب منك أن ترقبه فى امعان .

كان النجم يتلألأ فى السماء الخالية من الرياح . نظرت إلى كونشيس الذى يجلس فوق المنضدة وقد أدار ظهره ناحية البحر لكى يواجهنى . فابتسمت فى الظلام وقلت : أشعر كأننى فوق الأريكة أو الأرض المزروعة بالحشائش .
ـ عظيم . الآن استلق على ظهرك . وقلص عضلاتك ثم ارخها قليلا . فالمشروب سيساعدك على الاسترخاء . وجولى لن تظهر هذه الليلة . أبعدها عن تفكيرك . وأبعد الفتاة الأخرى عن تفكيرك . وأبعد عن ذهنك كل الأشياء التى تحيرك وكل التطلعات التى تهفو اليها وكل همومك ومتاعبك . وأنا لا أجلب لك أى ضرر . لا شيء سوى الخير .
ـ الهموم والمتاعب . ذلك ليس أمرا سهلاً .

فلم يرد عليَّ ، أضفت قائلاً : سأحاول أن أفعل ذلك .
ـ سيساعدك ذلك على النظر إلى النجم . لا تحول نظرك عنه . استلق فوق ظهرك .

بدأت أحملق فى النجم . وحركت جسدى قليلا لكى أجعل استلقائى مريحاً . وتحسست قماش معطفى بيدى . بدأت أشعر بالارتياح وأنا أنتظر . سادت فترة صمت طويلة . أغلقت عينى للحظات قصيرة ثم فتحتهما . وبدا النجم كأنه يسبح فى بحر من الفضاء . وظهر مثل شمس بيضاء صغيرة . احسست بالكحول ، لكننى مع ذلك كنت واعيا لكل ما يدور من حولى . كنت واعيا للفراندة . الموجودة فى منزل يقع فى جزيرة فى دولة اليونان . وكانت هناك نسمة من الرياح . بل باستطاعتى سماع هدير الأمواج . شرع كونشيس فى التكلم مرة أخرى :
ـ الآن أريدك أن ترقب النجم . أريدك أن ترخى جميع عضلاتك . ادخل اعصابك فى حالة توتر . توتر ، استرخ . الآن أرقب النجم . هذا النجم يسمى ألفاليراى .

رحت أفكر : ياألهى . انه يحاول تنويمى مغناطيسيا . وبعدئذ سأضطر إلى اللعب بالقواعد والقوانين . ولكنى سأستلقى متظاهرا بأننى وقعت بالفعل تحت التأثير المغناطيسى .

واستمر فى الكلام ولكن طريقته التى تتميز بالعبارات المختصرة والمقطوعة اختفت تماما . بدا كأن صوت الهدهدة الناجم عن البحر والاحساس بالهواء ونسيج معطفى وصوت كونشيس قد تلاشت كلها ، وخرجت عن دائرة الوعى . ودخلت مرحلة أنظر بكل كيانى إلى النجم وأنا مازلت مستلقيا فى الفراندة . أعنى أننى كنت مدركا لاستلقائى ومدركا لحملقتى فى النجم إذا لم يكن هذا النجم قد أصبح أى شىء آخر .

ثم هبط علىَّ وهم غريب . بدا كأننى لا أنظر لأعلى وانما أشبه بشخص ينظر لأعماق بئر .

وشعرت كأن ذاتى غير موجودة فى مكان واضح المعالم . وكان النجم محاطا بشىء من العزلة تبدو للمشاهد من خلال النظر فى تليسكوب . كان يسبح طافيا فى أنفاس الفضاء فى نوع من السديم الضبابى . أتذكر فى وضوح شديد هذا الادراك البالغ الغرابة تماما للنجم وكأنه أصبح كرة

بيضاء . ثم أحسست أنني معلق مثل النجم في سديم ضبابي مظلم . كنت أرقب النجم وكان النجم هو الآخر يرقبني . اصبحنا متوازنين ومتساويين في كفتي الميزان . استمر هذا الوضع لفترة طويلة على ما يبدو ولا أعرف على وجه الدقة كم من الوقت انقضى ونحن على هذه الحال . كيانان معلقان بالتساوي في السديم الضبابي خاليان من أي معنى أو شعور . لم يكن هناك إحساس بالجمال أو المبادئ الأخلاقية أو بالهندسة الفيزيقية . لا شيء سوى الاحساس بالموقف في حد ذاته . شعور قد يكون مشابها لما يشعر به الحيوان .

ثم حدث ارتفاع في التوتر . كنت أتوقع حدوث شيء ما . لم أعرف ما إذا كان الأمر سيبدو لي مسموعا أو مرئيا أو على أي وجه من وجوه الحواس . ولكن ذلك الشيء كان يحاول المجيء . وحاولت أن أكتشف مجيئه . بدا كأنه لم يعد هناك نجم . آذكر كلمتين . نطق بهما كونشيس : كلمة "توهج" وكلمة "استمع" . كان هناك الضباب السديمي المتوهج المستمع . ثم هب النسيم ملامسا وجهي على هيئة إحساس مادي ملموس تماما . كان منعشا ودافئا أدركت فجأة أن النسيم يهب عليَّ من جميع الجهات . رفعت يدي فأحسست بالنسيم فوق يدي . انها رياح مظلمة شبيهة بتيار هوائي ناجم عن آلاف المراوح غير مرئية تتدفق عليَّ .

ثم بدأ النسيم في التغير بطريقة غير ملموسة . وأصبح ضوءاً . أدركت في غير دهشة أن الرياح أصبحت ضوءاً . انه ضوء لذيذ للغاية . كان شبيها بأخذ حمام شمسي ذهني عب شتاء مظلم طويل . ثم انتقلت إلى مرحلة أخرى ذلك الأمر هو شيء ما قد جذب كل هذا الضوء . بدا كونشيس وكأنه يكشف عن شيء ما بالغ الأهمية . وكنت مدركا لوجودي وأصبح هذا الوعي أكثر أهمية من الضوء مثلما أصبح الضوء أكثر أهمية من الرياح . وبدأ يجتاحني احساس بالتطور وبأنني آخذ في التحول مثلما يتحول شكل نافورة لدى تعرضها للرياح فتصبح على هيئة دوامة في الماء . أصبحت كل من الرياح والضوء مجرد طرق تؤدي إلى الحالة الراهنة . وهي حالة راهنة ليس لها أبعاد ولا أحاسيس .

كان لدي الاحساس بانه لا شعور بالقدسية . ولا بالأخوة الإنسانية ولا بأي شيء كنت أتوقعه قبل أن أصبح واقعا تحت التأثير . ولا وجود لمذهب وحدة الوجود . ولا وجود للمبادئ أو الاتجاهات الإنسانية . وانما يوجد

شيء ما أكثر رحابة وأكثر اتساعا وأكثر برودة وأكثر غموضا وابهاما وأكثر صعوبة من حيث الادراك أو الاستيعاب . تلك الحقيقة كانت بمثابة تفاعل داخلى لا نهائى . لا يوجد خير . ولا يوجد شر . لا جمال ولا قبح . لا تعاطف ولا كراهية . يوجد فقط التفاعل الداخلى . التفرد اللانهائى للواحد . وانفصاله الكامل عن كل ما عداه . جميع الأضداد بدت وكأنها شيء واحد .

أن يعرف الإنسان وأن يرغب وأن يكون عاقلا وحكيما وأن يكون خيرا وأن يعرف التعليم والإعلام والتصنيف والمعرفة بكافة أنواعها ورهافة الحس والأمور الجنسية ، كل هذه الأشياء بدت سطحية . لم تكن لدى الرغبة ان أحدد أو أحلل هذا التفاعل الداخلى . كنت أرغب فقط فى أن أشكله وأكونه . بل ولم أكن "أرغب فى أن أشكله وأكونه" وانما كنت أشكله وأكونه بالفعل . كنت بدون ارادة .

أظن أننى شاهدت النجم مرة أخرى لفترة قصيرة . النجم على النحو الذى كان عليه من حيث تعلقه فى السماء فوقى ولكنه الآن أصبح فى حالة صيرورته . كان شبيها بالسير من خلال باب والطواف فى جميع أرجاء العالم ثم السير من خلال نفس الباب ولكنه باب مختلف .

وبعدئذ حل الظلام الشامل . لا أذكر شيئاً . ثم حل الضوء .

(٣٧)

طرق شخص على الباب . رحت أحدق فى حائط . كنت فى سريرى مرتديا بيجاما . وملابسى مطوية فوق الكرسى . كان ضوء النهار ساطعا وفى وقت مبكر للغاية حيث نظرت إلى ساعة يدى . كان الوقت يقترب من السادسة صباحاً . جلست فوق حافة السرير . احسست بالعار والاذلال لأننى وقعت تحت سيطرة كونشيس بل لأن الآخرين ربما شاهدوا تلك التجربة . لقد رأيت نفسى ملقى هنالك وكانوا جميعا ينظرون ويبتسمون بينما كونشيس يوجه الىَّ الأسئلة فى حين ارد بإجابات صريحة . من المؤكد أنه قام بتنويم جولى تنويما مغناطيسيا وهذا يفسر السبب فى عدم ذهابها للنوم فى فراشها . لقد أدركت الكيفية التى تم بها تنفيذ هذه التجربة . اذ كانت هناك بعض المخدرات وعقاقير الهلوسة فى مشروب الراكى ولعله وضع بعض أوراق نباتات الداتورة . ثم أوحى لى بكل هذه

التخيلات وبكل هذه المراحل من المعرفة التى حفزنى اليها بينما كنت مستلقيا هنالك لا حول لى ولا قوة . نظرت فيما حولى باحثا عن المجلد الذى يضم أوراقه الطبية . ولكنه لم يكن موجوداً بالغرفة . جلست على مدى دقائق وقد وضعت رأسى بين يدى أشعر بالتمزق مابين الاستياء والامتنان .

اغتسلت وحملقت فى المرآة . ونزلت لأسفل لكى أحتسى القهوة التى تقوم ماريا الصامتة بتقديمها لى . أدركت أن كونشيس لن يظهر فى الآفق . وأن ماريا سوف تلتزم الصمت . كان من المقرر ألا يتم توضيح آى شىء . فقد دبرت الخطط الرامية إلى ابقائى فى حالة من القلق والتشويش والترقب إلى أن اعود مرة أخرى .

بينما كنت أسير عائداً إلى المدرسةحاولت أن أقيّم التجربة . لقد بدت تجربة رائعة مليئة بالشؤم . وكان من الصعب على المرء أن يصدق تحت ضوء ذلك الصباح الباكر الذى يغمر المناظر الطبيعية الجميلة أن أى شىء على وجه الكرة الأرضية يمكن أن يكون مشئوما . ومع ذلك كان هذا الاحساس متعمقا فى داخلى فى إصرار . كان احساسا بالاذلال ومقدم خطر جديد . إحساسا بالعبث فى أشياء أكثر إظلاما وأكثر غرابة . لقد جعل هذا خوف جولى من كونشيس اكثر اقناعا من مجرد اهتمامه الطبى الزائف بها . وربما تكون مصابة بالفصام ولكنه كان ممارسا لمهنة التنويم المغناطيسى بشكل أكيد وثابت وعلى نحو لا يدع مجالا للشك . لم يجعلنى هذا افترض أنهما كانا يعملان معا من آجل الايقاع بى فى الحيل الخادعة . بدآت أفتش فى داخل ذاكرتى ومن خلال جميع لقاءاتى مع كونشيس محاولا معرفة ما إذا كان قد قام بتنويمى مغناطيسيا من قبل دون أن أكون مدركا لذلك .

وتذكرت فى مرارة آننى أخبرت جولى فى فترة ظهر الامس آن احساسى بالحقيقة الواقعة كان شبيها بالجاذبية . ولبعض الوقت كنت شبيها برجل فى الفضاء يدور من خلال الجنون . وتذكرت حالة كونشيس التى تشبه الغيبوبة أثناء أبوللو . فهل قام كونشيس بتنويمى مغناطيسيا كى أتخيل كل ما رأيته فى مشهد أبوللو ؟ وهل هو الذى أراد لى أن آنام بالفعل بعد ظهر ذلك اليوم مما أتاح له عمل الترتيبات اللازمة ، وهل كان هناك بالفعل رجل وفتاة واقفان هنالك ؟ بل وحتى جولى ذاتها . تذكرت ملمس بشرتها

وشفتيها . لقد عدت راجعا إلى الأرض ولكننى كنت مهزوزا على نحو خطير .

لم يكن تنويمى مغناطيسيا بمعرفة كونشيس هو الذى هزنى فقط : اذ آدركت أننى قد نومت مغناطيسيا بمعرفة الفتاة وذلك على نحو أكثر دهاء وإن كان بنفس الأسلوب . لقد صدقت أن الرجل والمرأة بامكانهما أن يدركا خلال الدقائق العشرة الأولى ما اذا كانا يريدان الذهاب للسرير معا من عدمه وأن الوقت الذى انقضى عقب تلك الدقائق العشرة بمثابة الضريبة الجديرة بالدفع لو ثبت أن ذلك الشىء كان ممتعا حقا أو قد تكون ضريبة مبالغا فيها بنسبة ٩٠٪ . لم يكن الأمر فقط هو أننى توقعت حدوث مغازلة شديدة الانحدار مع جولى فهى قد هزت نظريتى بأكملها ، ولكن الظلام الذى يسود خلف الباب قد منعنى من فتح الباب على مصراعيه . ربما كان الأمر فى أحد جوانبه بمثابة شعور جارف بالحنين إلى تلك المرأة المتعلقة بالماضى .

طوال ذلك الصباح ، جلست فى الفصول الدراسية أدرس للطلبة كما لو كنت مازلت واقعاً تحت التأثير المغناطيسى . اذ كنت غارقا فى بحر الاحتمالات . وبدأت أشاهد كونشيس على آنه قصاص نفسانى لا يكتب الروايات لأنه لا يستخدم الكلمات فى ابداعه وانما يستخدم الناس . أصبحت أشاهد كونشيس كرجل معقد شديد الانحراف والشراسة . اراه شخصاً عبقرياً ونابغة بين أشخاص عاديين عمليين . كنت مبهوراً به على كل حال ، وكذلك بجولى من حيث هى ليلى بشعرها الملقى على الجانبين وبوجهها المبلل بالدموع ، فى تلك اللحظة الأولى تحت ضوء المصباح بمثابة عاج بارد . لم أحاول أن آتظاهر بأننى أى شىء آخر بخلاف آننى واقع تماما تحت تأثير بورانى . كانت هناك قوة تجذبنى من خلال نوافذ حجرة الدراسة وعبر الهواء الأزرق إلى سلسلة الجبال الوسطى ومنها إلى الأماكن السفلية حيث آرغب فى الوجود دائماً . صفوف من آوجه التلاميذ ذوى البشرة الزيتونية اللون ورؤوسهم السوداء المنحنية ورائحة غبار الطباشير ، وبقعة من الحبر القديم المنطبعة فى ثبات على مكتبى ، كل هذه الأمور كانت مثل أشياء مغلقة فى الضباب . مثل آشياء حقيقية ولكنها ليست حقيقية مثل عقبات أصبحت نسيا منسيا .

وعقب تناول طعام الغذاء جاء ديمترياديس إلى غرفتى ، وأراد آن يعرف

من تكون اليسون وبدأ يستخدم ألفاظا بذيئة فرفضت أن أخبره بأى شىء . وصحت فيه صارخا ان يغرب عن وجهى . فشعر بالاساءة البالغة وظل يتجنبنى على مدى الأيام الباقية من ذلك الأسبوع . فلم أهتم بذلك وشعرت بالراحة لابتعاده عني .

وبعد أن انتهت من الدرس الأخير لم أستطع المقاومة . كان علىَّ أن أعود إلى بورانى . لم أعرف ماذا سأفعل ولكن كان علىَّ أن أدخل مرة أخرى في ذلك المجال . وبمجرد أن شاهدت بورانى وشاهدت خلية الأسرار المستلقية تحت بقايا ضوء الشمس على قمم أشجار الصنوبر الواقعة أسفل منى شعرت بالارتياح كما لو كنت لا أتوقع أن هذه الأمور مازالت هنالك . وكلما اقتربت شعرت أننى أكثر ترديا فى الآثام . كنت أود أن أشاهدهم وأن أدرك أنهم فى انتظارى .

وعند الغسق اقتربت من الجهة الشرقية وانزلقت بين الأسلاك الشائكة وسرت فى حذر متجاوزا تمثال بوسايدون فى الأخدود الطبيعى وبين الأشجار إلى حيث يمكننى مشاهدة المنزل . كل نافذة عند ذلك الجانب كانت مغلقة بالشيش . لم يكن هناك دخان متصاعد من كوخ ماريا . فمسرت حول المنزل إلى حيث يمكننى مشاهدة الواجهة الرئيسية له . كانت النوافذ الفرنسية تحت صف الأعمدة مغلقة أيضاً . وكذلك كانت النوافذ الممتدة من غرفة نوم كونشيس إلى الفراندة مغلقة أيضاً . كان من الواضح أنه لا يوجد أحد هنالك . فسرت عائدا بين طيات الظلام وقد تملكتنى مشاعر الاكتئاب وتزايد غضبى من كونشيس لأنه حرمنى من عالمه الخاص .

وفى اليوم التالى كتبت خطابا لميتفورد قلت له فيه إننى قد ذهبت إلى بورانى وتقابلت مع كونشيس ، وطلبت منه أن يحدثنى صراحة عن تجربته الشخصية فى بورانى .

حصلت على عنوان ليڤاريير فى انجلترا من سكرتير المدرسة . واحتفظت بالعنوان معى لعلى احتاج اليه فيما بعد .

وقمت أيضا ببعض التقصى عن أرتيميس . انها هى أخت أبوللو فى الميثولوجيا . كانت حامية للعذراوات ومتشفعة للصيادين . وكان الرداء الزعفرانى والحذاء ذو الرقبة والقوس الفضى هم الزى الرسمى لها فى

الشعر الكلاسيكى . ورغم أنها كانت مستعدة لاشعال نيران الحرب دون تردد بسبب شباب غارق فى الحب الجنسى فاننى لم أستطع العثور على ما يفيد أن أخاها ساعدها .

اضطررت للبقاء بالمدرسة يومى الثلاثاء والأربعاء لتحضير الدروس . وفى يوم الخميس عدت إلى بورانى . بدا المكان مهجورا مثلما كان عليه الحال فى يوم الاثنين .

سرت حول المنزل . وحاولت مع شيش النوافذ ثم تجولت هائما على وجهى هنا وهناك بالقرب من المنزل ثم هبطت نازلا الى الشاطىء الخاص الذى أبحر منه الزورق . واخيرا جلست منخرطا فى تفكير عميق على مدى نصف ساعة فى الغسق تحت صف الأعمدة . شعرت بأنه قد تم استغلالى وشعرت بالغضب من نفسى ومنهم فى آن واحد . كنت متلهفا للغاية للانخراط فى هذه المسألة برمتها وكنت اشعر بالرغبة الشديدة فى الاستمرار معهم رغم ما يكتنف ذلك من مخاوف هائلة . لقد غيرت رأيى مرة أخرى ، لم أعد اعرف معلومات أكثر عن الفصام ولم استطع أن أتخيل السبب الذى دعاه لأن يوقف التمثيلية التنكرية فجأة . إذا كانت هى مجرد تسلية .

فجأة قفزت آليسون إلى ذهنى ، فهناك اليوم مركب خصوصى من المقرر له أن يبحر فى منتصف الليل من أجل أن ينقل الأولاد والاستاذة ويعود بهم الى اثينا لقضاء اجازة نصف السنة هناك . وكان ذلك يعنى قضاء الليل كله فى إغفاءة من النوم فى كرسى بصالون الدرجة الأولى القذر بالمركب .. لكن ذلك يتيح الفرصة لقضاء يوم الجمعة فى أثينا . ولا أدرى السبب الذى جعلنى اقرر السفر على نفس المركب . هل هو الغضب أم الضغينة أم الانتقام ؟ من المؤكد أن آليسون لم تكن السبب . فكم انا بحاجة الى التحدث مع أى شخص .

وبعد دقيقة رحت اسير بسرعة هابطا على المدق المؤدى الى البوابة . ثم ألقيت نظرة الى الوراء حيث كان لدى أمل لايزيد على واحد فى الألف فى أن يظهر شخص ما وينادى على ويطلب منى الرجوع الى المنزل . لكن ، لم يظهر أى شخص . لذلك اعتليت ظهر المركب لأنه لم يكن هناك أمامى أى شىء آخر أفضل من ذلك .

(٣٨)

كانت أثينا مليئة بالتراب والجفاف والملل . بدت اشجار النخيل كأنها تعاني من الإرهاق . وتراجعت كل الصفات الانسانية خلف بشرات سمراء .. ونظارات اكثر سوادا .. ومع حلول الساعة الثانية بعد الظهر خلت الشوارع بسبب الحرارة والكسل ، استلقيت في اعياء على سرير في فندق في بيروس . ورحت في سنة من النوم المتقطع أثناء فترة غروب الشمس . بدت المدينة غير مريحة فبعد أن عشت في بوراني أصبحت العودة الفجائية الى العصر الذى نعيش فيه أمرا مثيرا للارتباط والتشويش .

جذبت فترة مابعد الظهر الساعات الفاترة المتراخية الخاملة . وكلما اقترب الوقت المحدد لمقابلتى لآليسون شعرت بالمزيد من الحيرة . كنت ادرك أن السبب الرئيسى لحضورى الى اثينا هو الرغبة فى أن ألعب لعبتى المزدوجة مع كونشيس . فبالامس فقط وتحت صف الأعمدة بدت آليسون مجرد دمية تستخدم فى اللعبة . أما الآن وقبل مقابلتى لها بساعتين .. فإن الجنس معها كان امرا لايشغل تفكيرى . لذلك كان هناك احتمال كبير أن أحدثها عما يجرى من أمور فى بورانى . لم أعد اعرف السبب الذى دعانى للمجىء الى اثينا وشعرت بالرغبة الشديدة فى ان اعود الى الجزيرة . فلم اكن أرغب فى خداع آليسون وفى نفس الوقت لا أرغب فى أن أكشف لها عما يدور من حقائق .

ولكن هناك شىءا ما جعلنى أستمر فى الاستلقاء هنالك . شىء من حب الاستطلاع والرغبة فى معرفة ماقد يكون قد حدث لها . شىء من ذكريات العاطفة والمحبة المنصرمة . ووجدت فى ذلك نوعا من الاختبار لعمق مشاعرى نحو جولى واختبار لشكوكى . كانت آليسون بالنسبة لى تعنى الماضى وبذلك كان بالإمكان أن أطلعها على جانب من مغامراتى الخاصة . كنت قد عثرت على حل بطريق المصادفة اثناء الليل الطويل فوق المركب وهو أن اجعل لقائى معها خاليا من العدوى وعلى نحو يجعلها تشعر بالاسى من أجلى ومع التحفظ فى نفس الوقت فى علاقاتى معها .

وفى الخامسة ، نهضت واستقليت تاكسيا الى المطار . وجلست على مقعد فى مواجهة كونتر الاستقبال الطويل ثم تحركت بعيدا وأنا اشعر أن حالتى تزداد توترا .

فى الساعة السادسة والنصف .. سرت الى الكونتر ، كانت هناك فتاة يونانية ترتدى الزى الرسمى الملائم لوظيفتها . قلت لها . اننى على موعد مع احدى المضيفات الجويات . تسمى آليسون كيللى .

ـ آلبى ؟ لقد وصلت طائرتها . وهى تغير ملابسها الآن .

ثم التقطت سماعة التليفون وأدارت رقما وأضاءت بأسنانها نحوى . كانت لهجتها غاية فى الإتقان وهى تنطق بلهجة امريكية : آلى ؟ صديقك الذى أنت على موعد معه موجود هنا اذا لم تحضرى على الفور سيأخذنى بدلا منك ثم بدت سماعة التليفون وقالت وهى تريد أن تتكلم معك ..

ـ أخبريها أننى سأنتظرها . ولاداعى لها أن تكون فى عجلة من أمرها .

من المؤكد أن آليسون قد قالت كلاما ما لأن الفتاة ابتسمت . ثم وضعت سماعة التليفون . نظرت الى نظرات جريئة للغاية من بين رموشها الطويلة السوداء . ثم التفتت لكى تتحدث مع امرأتين ظهرتا عند الطرف الآخر للكونتر . فذهبت لأقف بالقرب من المدخل وقد شعرت كأننى قد جئت من كوكب آخر .

ثم ظهرت آليسون عبر الباب . كان شعرها قصيرا وترتدى فستانا أبيض اللون ، لقد ارتدت ذلك الفستان لكى تذكرنى بأول لقاء تم بيننا ، كانت بشرتها أكثر شحوبا . خلعت نظارتها السوداء عندما شاهدتنى ، تبين لى أنها تشعر بالإرهاق . كان جسدها جميلا للغاية وكذلك ملابسها ومشيتها ، نفس الوجه القديم ونفس العينين الباحثتين عن حقيقة الأمور . وصلت امامى ووقفت وابتسم كل منا للآخر ابتسامة خفيفة .

ـ هاى .

ـ هاى آليسون .

ـ آسفة . لقد تأخرت كالمعتاد ، كانت تتكلم كما لو كنا قد تقابلنا فى آخر مرة فى الأسبوع الماضى . ولكن هذا لم يأت بالنتيجة المرجوة . فالشهور التسعة التى انقضت وقفت مثل الغربال بيننا ، حيث تنفذ الكلمات من ثقوب الغربال وأنها كلمات خالية من العواطف الصادقة .

ـ هل لنا أن نذهب ؟

وأخذت حقيبة شركة الطيران التى تحملها واصطحبتها الى الخارج ، وفى داخل التاكسى جلسنا فى ركنين متقالبين ونظرنا الى بعضنا البعض مرة اخرى . وابتسمت . كنت اتوقع ألا تجىء .

ـ لم أكن أعرف المكان الذى ارسل عليه برقية تفيد رفضى للمجىء .

ـ لقد كنت ماكرة .

نظرت الى الخارج من نافذة التاكسى ، لوحت بيدها لرجل يرتدى الزى الرسمى . بدت لى أكبر سنا وأكثر خبرة فى الحياة من خلال كثرة الاسفار ، وبدا عليها كأنها بحاجة لأن تتعلم مرة أخرى وأنا لم يكن لدى الطاقة التى تعيننى على ذلك .

« لقد حجزت لك غرفة مطلة على الميناء » .

« جميل » .. عظيم .

انهم يتميزون بالشراسة الشديدة فى الفنادق اليونانية . كما ان الغرف فاسدة الهواء ، كنت على وشك أن اقول لها عبارات اعددتها مسبقا فى ذهنى لكننى تضايقت عندما اكتشفت انها تفترض أننى لم اتغير عن ذى قبل ، أمسكت بيدها وضغطنا على الأصابع ، مدت يدها ورفعت نظارتى عن عينى وقالت :

ـ أنت تبدو جميلاً بدون النظارة هل تدرك ذلك ؟ وبشرتك تبدو بنية اللون لقد جففت فى الشمس .

فابتسمت ونظرت لاسفل وتركت يدها لكى استخرج سيجارة من علبة سجائرى .

وكنت أدرا، المعنى الذى يستتر وراء تملقها لى . كانت تريد أن تقول إن الدعوة الموجهة لى بخصوص جسدها مازالت قائمة وممتدة .

ـ يا آليسون . إننى أمر بحالة غريبة تتسم بالحظ العاثر .

فأنطفأ المرح الزائف من كيانها وحملقت امامها فى حيرة . قال : أهناك فتاة أخرى فى حياتك ؟

لا ، لا .. لقد حدث تغيير فى شخصيتى . ولا أعرف كيف أبدأ فى شرح

الأمور لك ..

ـ ولهذا كنت تتمنى من الله ألا اقابلك .

ـ لا .. إننى .. سعيد لمجيئك . والتزمت الصمت للحظات قليلة . وانطلقنا على الطريق الساحلى قالت : مازالت علاقاتى مستمرة مع بيتى .

ـ لقد سبق أن قلت لى ذلك .

ـ نسيت أننى أخبرتك بذلك .

ـ وأنا لم أكون علاقات مع اى شخص آخر منذ أن اقمت علاقات معه ، أنا آسفة .. كان ينبغى ان ابدا معك فى الكلام فى الثرثرة في الموضوعات الخفيفة .

ـ لا .. اقصد .. أنك تعرفين .

رمقتنى بنظرة أخرى . كانت تدرك أن مشاعرها قد جرحت ، ولكنها تحاول إقناع نفسها أن مشاعرها لم تجرح .. بذلت مجهودا . وقالت : أعيش مع « آن » . عدت الى الشقة القديمة فى الاسبوع الماضى وماجى عادت الى بيتها .

ـ كنت أشعر بالارتياح نحو آن .

ـ نعم انها انسانة لطيفة .

سادت فترة طويلة من الصمت ، وانطلق بنا التاكسى ، راحت تفتش فى حقيبة يدها واستخرجت نظارتها السوداء . أدركت السبب فى ذلك ، اذ شاهدت خطوطا من الضوء المبلل حول عينيها لم المسها ولم أمسك بيدها . تحدثت عن الفارق مابين بيروس وأثينا وأن بيروس اكثر جمالا واتساما بالطابع اليونانى ظننت أنها لاتحب بيروس أكثر من أثينا . كنت قد اخترت بيروس بسبب وجود احتمال ضئيل بأن نتقابل مصادفة مع كونشيس وجولى . خطر على ذهنى أنه لو حدث ذلك فقد تنظر الى فى برود مما يثير الرعشة فى عمودى الفقرى . كان هناك شىء ما يتعلق بطريقة آليسون ومظهرها بحيث إذا كان رجل معها فلا يستطيع أن يمنع نفسه من الذهاب الى السرير وبينما كنت أتحدث معها ساءلت نفسى فى تعجب : ترى كيف سيتسنى لنا أن نواجه الحياة معا على مدى الأيام الثلاثة التالية ؟

قدمت بقشيشا للولد فأخذ البقشيش وغادر الغرفة . اتجهت آليسون الى النافذة ونظرت الى رصيف الميناء العريض والى الجماهير التى تسير الهوينى فى الفترة المسائية . وقفت خلفها وبعد حسابات عاجلة وضعت ذراعي حولها فاستندت عليّ على الفور .. قلت : اننى اكره المدن الصاخبة ، وأكره الطائرات . أود أن أعيش فى كوخ بأيرلندا .

ـ ولماذا ايرلندا بالذات ؟

ـ فى مكان ما لم يسبق لى أن ذهبت اليه على الاطلاق .. شعرت بالدفء يسرى فى كيانى وبالرغبة العارمة فى جسدها . كان من المتوقع ان تستدير بوجهها نحوى وعندئذ يتحتم عليّ أن ابادر الى تقبيلها ، قالت : يا آليسون لا اعرف تماما كيف اقول لك هذا النبأ ..

وأبعدت يدى عن جسدها ووقفت الى جوارها حتى تتمكن من مشاهدة وجهى واضفت قائلا : أصبت بمرض منذ ثلاثة شهور . انه الزهرى .

ألقت عليّ نظرة ، تتسم بالاهتمام الشديد وعدم التصديق . فاستكملت « ولكنى الآن على مايرام . ولكن كما تعرفين ، لايمكننى أن .. أومأت برأسى وتحول عدم التصديق الى تصديق .. واتجهت نظراتها الى اسفل . لقد انتقم الله لك منى .. اقتربت منى ولفت يديها حولى وقالت أوه يانيقولاس . آوه يانيقولاس .

فقلت من فوق رأسها ، من المفروض ألا أقوم بأية اتصالات عن طريق الفم والتقبيل أو اتصالات جنسية كاملة على مدى شهر آخر ابتداء من الآن . لم أكن أدرى ماذا أفعل . كان ينبغى على ألا أكتب خطابات اليك على الاطلاق .

فتركت مكانها عند النافذة واتجهت الى السرير وجلست عليه ، فأدركت أننى وضعت نفسى فى مأزق جديد . لقد اعتقدت أن ذلك هو السبب الرئيسى فى الارتباك الذى احاق بنا . ابتسمت ابتسامة رقيقة مليئة بالعطف والحنان قائلة :

ـ احك لى بالتفصيل كل مايتعلق بهذا الموضوع .

فأخذت أجوب الغرفة جيئة وذهابا وأنا احدثها عن بارتاريسكو والعيادة الطبية وعن الشعر وعن محاولتى للانتحار وعن كل شىء باستثناء بورانى .

استندت بظهرها على السرير وراحت تدخن سيجارة بينما جلست انا على حافة السرير ، رحت أصغي لها في غير انتباه مؤديا دورى التمثيلي وبدأت استمتع بوجودي معها مرة أخرى . ليس مع آليسون بصفة خاصة ولكن في هذه الغرفة الفندقية مع سماع تمتمة جماهير المساء المترامية من أسفل وسماع ابواق السيارات علاوة على شم رائحة بحر ايجه الذى يئن من الإرهاق . لم اشعر بأى جاذبية نحوها ولا لانها قطعت علاقاتها مع الطيار الأسترالي الجلف ، لم اشعر الا بذلك الحزن الغامض الذى يغلف الغرفة المظلمة . فسرعان ما خيم الشفق الأحمر على الأجواء . وبدت لى كل خيانات الحب المعاصر جميلة ، وظللت محتفظا بذلك السر الهائل الخاص بى بين ضلوعى . انها اليونان مرة أخرى .. درجات من جمال فى حالة انحطاط خلقى ، المبادىء الاخلاقية كانت أكذوبة فى اوربا الشمالية .

وسادت فترة صمت طويلة .. لم أحضر لكى أكون صديقتك القديمة .

فوضعت رأسى بين يدى .

ـ يا آليسون ، لقد سئمت من النساء من الحب والجنس ، من كل شيء . ولم أعد اعرف ماذا اريد ، انني حاليا اشعر بحنين جارف لأن يكون لدى اخت ، فاذا قلت إن كلامى فارغ سأقدر موقفك وسأفهم ظروفك .

فنظرت لأعلى مرة أخرى وقالت : وهو كذلك . أنت تريد أختا . ولكنك ستشفى تماما فى يوم ما .

ظهر على صوتى الارتباك وانا اقول : لست أدرى ما اذا كنت سأشفى أم لا . استمعى الى .. يمكنك ان تبتعدى عنى وتصبى على اللعنات فأنا رجل ميت فى هذه اللحظات .

ـ رجل ميت احببته ذات يوم ، وزحف صمت طويل بيننا . اعتدلت فى جلستها فجأة فى حيوية وغادرت السرير ثم أضاءت الأنوار وراحت تمشط شعرها . واستخرجت القرط الذى كنت اعطيته لها فى لندن ولبسته ثم راحت تضع احمر الشفاه . فقفز ذهنى الى شفتى جولى الخاليتين من احمر الشفاه .

من سخرية الاقدار ان الطريق المؤدى الى المطعم الذى اخترته كان يمرّ بالمنطقة ذات الأضواء الحمراء فى بيروس ، بارات ولافتات بالنيون

وصور فوتوغرافية لفتيات عاريات وراقصات عاريات البطن ومجموعات من البحارة يتسكعون وصفوف من الفتيات المعروضات على أرائك مبطنة بالوسائد . كانت الشوارع مليئة بالقوادين والديوثين والمومسات والباعة الجائلين ، سرنا فى صمت ، كنت أتخيل ليلي وهى تسير معى فى ذلك الشارع وقد راحت تضفى الصفاء على كل شىء دون أن تلجأ الى استخدام الاساليب السوقية الشرسة ، كان وجه آليسون جامدا وبدانا نسير بسرعة لكى نخرج من هذا المكان . أدركت أن مشيتها بها مسحة من ذلك الطابع الجنسى القديم المحبب للنفس وهذه خاصة متأصلة فى مشيتها بحيث انها لم تستطع أن تمنع نفسها من ذلك مما جعل الآخرين يلحظون ذلك فى مشيتها .

عندما وصلنا محل سبيرو قالت فى اشراق : الآن ياأخى نيقولاس ماذا ستفعل معى ؟

ـ يمكننا أن نذهب الى مكان ما ، لم تشاهديه من قبل .

لا أرغب فى الذهاب الى الاماكن التى يذهب اليها السياح . أريدك أن تفكر فى مكان ما نكون فيه بمفردنا . فأنا اكره الناس .

ـ ما رأيك فى أن نذهب للنزهة ؟

ـ أرحب بذلك . أين ؟

ـ حسنا .. الى هناك ، إلى بارناسوس . مجرد نزهة لمسافة طويلة . ويمكننا أن نستأجر سيارة ونذهب الى معبد دلفى بعد ذلك .

وجاء سمك البربون وشرعنا فى تناول الطعام . فجأة أصبحت تتدفق بالحيوية وبدأت فكرة تسلق جبل بارناسوس تثير اهتمامها وراحت تحتسى كأسا وراء كأس من مشروب الرستينا ، وفعلت كل شىء من الاشياء التى لا يمكن لجولى أن تفعلها ثم كشفت الخدعة بطريقتها الخاصة المميزة لها . قالت : اننى ادرك اننى ابذل قصارى جهدى . ولكنك تجعلنى أحب ذلك . نيقولاس استمع إلىّ ، فى الاسبوع الماضى كنت فى غرفتى القديمة فى الشقة . وسمعت وقع أقدام . فى الدور العلوى . وبكيت . مثلما بكيت فى التاكسى اليوم . مثلما يمكننى أن أبكى الآن ، ولكننى لن أبكى . بل وباستطاعتى ان ابكى لاننا نظل نستخدم اسماء بعضنا البعض.

ـ ألا ينبغى علينا ان نفعل ذلك ؟

لم نكن نفعل ذلك على الاطلاق ، كنا قريبين من بعضنا بحيث لم نكن بحاجة لأن نستخدم اسماءنا . ولكن ما اريد أن اقوله هو لو سمحت كن لطيفا معى ولا تقف لى دائما بالمرصاد لكى تصدر حكما على كل كلام أقوله أو كل شىء افعله فهذه هى طبيعتى ولا أملك تغييرها .

أوأمات برأسى ولمست يدها لكى أهدىء من روعها ، فالشىء الوحيد الذى لم أكن أريده هو التأنيب ، أو ذلك الأمر الابدى الذى يعيد اتصالى بالماضى .

وبعد لحظات عضت فمها وكانت الابتسامات الخفيفة التى تبادلناها عندئذ بمثابة أول نظرات تبادلناها منذ أن تقابلنا .

قلت لها : طابت ليلتك وأنا واقف خارج غرفتها . فقامت بتقبيلى على خدى وقمت بالضغط على كتفيها كما لو كان ذلك شيئا أفضل بكثير مما تتخيله امرأة .

(٣٩)

فى الساعة الثامنة والنصف انطلقنا بالسيارة الى طيبة حيث اشترت آليسون لنفسها حذاء قويا وبنطلونا « جينز » متينا . كانت الشمس ساطعة وبدا الطريق خاليا من حركة المرور إما السيارة البونتياك القديمة التى استأجرتها فى الليلة السابقة فمازال بها بعض المتاعب فى الموتور . كل شىء أثار المتعة فى آليسون الناس والمناظر الريفية ، والارشادات الورادة فى الدليل السياحى المطبوع فى عام ١٩٠٩ وحماسها الممزوج بالجهل والذى أذكره جيدا منذ أن كنا معا فى لندن لم يعد يسبب لى الضيق . بدا ذلك كأنه جزء من حيويتها وصراحتها وصدقها وعشرتها الحلوة . كان ينبغى أن تثار مشاعر الضيق فى داخلى لذلك امسكت عليها غلطة وهى انها تموج بالبشر والبهجة بعد ان تمكنت من الخروج من اسوأ حالات الاحباط . اعتقدت انه كان عليها أن تكون اكثر حزنا . انطلقنا بالسيارة هابطين الوادى الاخضر الذى يمتلىء بحقول القمح ومساحات متفرقة مزروعة بالبطيخ الشمام . ولكن بالقرب من ليفاديا انتشر قطيع كبير من الأغنام على الطريق فاضطررت إلى أن أقلل من سرعة السيارة الى أن توقفت السيارة

تماما . ثم خرجنا من السيارة لنرقب قطيع الأغنام . كان هناك صبى فى الرابعة عشرة يرتدى ملابس قديمة وحذاء برقبة وكانت معه أخته وهى طفلة سوداء العينين تبلغ من العمر سبع سنوات . فأخرجت آليسون بعض سكر النبات الذى يستخدم فى خطوط الطيران لكن الطفلة كانت خجولة للغاية فاختبأت وراء ظهر اخيها ، فجلست آليسون القرفصاء فى ثوبها الأخضر محاولة إغراء وحملقت الطفلة فى آليسون فبدأت اشعر بالتوتر قالت : كيف لى أن أطلب منها أن تجىء وتأخذ السكر ؟ .

ثم وضعت آليسون قطعة من سكر النبات فى فمها ومدت يدها بقطعة أخرى الى الطفلة . مدت يدها فى خوف امسكت آليسون بيدها وجعلتها تجلس بجوارها وجاء أخوها وقبع الى جوارها راحت الطفلة تمتص الحلوى فى وقار ووضعت آليسون ذراعها حول الطفلة وراحت تربت على خديها .

تم بدأنا فى العودة الى السيارة وسارت الفتاة الصغيرة الى جوارنا ثم انحنت آليسون وقبلت الطفلة ولدى انطلاقنا بالسيارة استدرنا ولوحنا لهما بأيدينا . ثم لوحنا لهما مرة أخرى . شاهدت وجهها المشرق يستدير نحوى ثم أدركت مايدور فى ذهنى فاستندت بظهرها الى الوراء وقالت :

لم أكن أدرك أننا فى عجلة من أمرنا ، كنت أدرك على وجه الدقة ما تحاول أن تقول فى صمت مطبق .

وصعدنا بالسيارة فوق الوديان الجبلية الضيقة . وتناولنا وجبة غذاء على منطقة عشبية زاخرة بالنحل البرى . وبعد ذلك تخطينا مفترق الطرق حيث يوجد المكان الشهير الذى قتل فيه أوديب والده . وعلى طول الطريق رحت اتحدث عن والدى من خلال تشجيع آليسون لى .. وربما لأول مرة فى حياتى أتحدث عنه دون مرارة . ثم نظرت الى آليسون التى استندت بظهرها على باب السيارة وعندئذ خطر على ذهنى أنها الانسانة الوحيدة فى العالم التى أمكننى التحدث اليها على هذا النحو ، وأدركت أننى انزلقت دون أن أدرى الى علاقاتنا القديمة . اصبحنا قريبين للغاية من بعضنا البعض بحيث لم تكن لنا حاجة لأن نستخدم أسماءنا عدت بنظرى الى الطريق ولكن عينيها ظلت مثبتتين على . وكان على أن أتكلم قلت : أشركينى فى افكارك .

- كم تبدو فى حالة جيدة !!

ـ أنت تحملقين فى مما يجعلنى اشعر بالاضطراب .

ـ ألا يمكن للأخوات أن ينظرن الى اخوتهن ؟

ـ على ألا تكون نظرات جنسية زانية .

أسندت ظهرها الى المقعد فى خضوع وطاعة واشرأبت بعنقها لتنظر الى الصخور الضخمة التى ندور اسفلها .. قالت : مجرد نزهة .

ـ أدرك ذلك . إننى اعيد النظر فى هذا الموضوع .

ـ بالنسبة لى أم بالنسبة لك ؟

ـ بالنسبة لك اساسا .

ـ سنرى من الذى يسقط أولا . كانت القرية بمثابة كتف رومانتيكى من المنازل الحمراء ، فهى قرية جبلية قابعة فوق قمة وادى دلفى . قمت بالاستفسار فتم ارسالى الى كوخ بالقرب من الكنيسة وجاءت امرأة عجوز الى الباب والى وراءها كان يوجد نول خاص بصناعة السجاجيد . قالت آليسون : اسألها عما اذا كان باستطاعتى أن أدخل فى كوخها لأغير ملابسى وأرتدى البنطلون الجينز .

كان عليها ان تكمل الرحلة فوق بغل وأصبح الأمر فى ايدى القدر .

(٤٠)

كان المدق الطويل يسير فى تعرج صاعدا على وجه الصخرة . وصلنا الى قمة برناسوس . هبت رياح باردة والى ما وراء المساحات العشبية كانت توجد أكواخ سوداء من الحطب والصخور التى تتقوس ثم تختفى بين السحب البيضاء . نزلت آليسون من فوق ظهر البغل وسرنا معا فوق الأرض المكسوة بالعشب بجوار البغال .

كان عمر الرجل الذى يقود البغال حوالى ٤٠ سنة ، وذا شارب متوحش تحت انف مكسور مع مسحة من الشعور بالحرية وحدثنا عن حياة الرعى . وأصوات الذئاب والنسور . انها حياة لم تتغير على مدى ستة آلاف سنة الأخيرة . رحت أترجم المعانى لآليسون . فتعاطفت معه وكونت معه نوعا

من الوفاق المتبادل . عبر حواجز اللغة . رفرفت عيناها فى تحدو تمرد لكى ترى ما إذا كانت تتصرف بطريقة سليمة من وجهة نظرى . الا اننى ظللت مبقيا على مشاعر الحياد التى ظهرت على وجهى .

وعلى الجانب البعيد من الأراضى العشبية وصلنا الى كوخين صغيرين بجوار ينبوع من الماء . وكان البغال بصدد اتخاذ مدق آخر ابتداء من هذين الكوخين . توقفنا فوق المدق الحجرى ورحنا نصغى فى تيقظ وانتباه . لم يكن هناك أى شىء سوى الصمت المطبق والنسيم بين اغصان الاشجار . فأمسكت بيدى وواصلنا المسير .

وكان المدور يتجه صاعدا بين الاشجار وبين مساحات شاغرة تعج بالفراشات ، وفوق منطقة صخرية ممتدة حيث فقدنا المدق مرات عديدة . ولدى صعودنا لأعلى اصبح الجو أكثر برودة واختفى الجبل تماما بين طيات السحب . لم نتكلم الا فيما ندر لأن انفاسنا كانت لاهثة للغاية . ولكن الانعزال والمجهود واضطرارى لأن امسك بيدها باستمرار عندما يصبح المدق بمثابة سلالم متآكلة ، كل هذا كسر قدرا من التحفظ الجسدى بيننا وأنشأ نوعا من الزمالة غير الجنسية التى تقبلناها كصيغة للعلاقة بيننا .

كانت الساعة قد بلغت السادسة عندما وصلنا الى المأوى .

انه مبنى ضئيل بدون نوافذ وكان الباب مصنوعا من الحديد الصدىء المليء بالثقوب الناجمة عن طلقات الرصاص الناتجة عن بعض المعارك مع الشيوعيين اثناء الحرب الأهلية ، شاهدنا اربعة من الاسرة المثبتة وكومة من البطاطين القديمة وموقدا ومصباحا ومنشارا وفأسا وزلاجتين للانزلاق على الثلج . بدا المكان كأن احدا لم يسكنه منذ سنوات طويلة . قلت : إنه يوم غريب هنا .. ولكنها لم ترد بأى كلام . وارتدت بلوزة من التريكو . غلفتنا السحب وأحدقت بنا وبدأت السماء تمطر مطرا خفيفا ولدى صعودنا على ربوة عالية زمجرت الرياح مثلما تفعل فى شهر يناير بانجلترا . أحاطت بنا السحب فى كثافة شديدة من جميع الجهات على هيئة ضباب يموج على شكل دوامة ويحجب الرؤية على مسافة ثلاثين ياردة . التفت الى آليسون ، كان أنفها قد أصبح بالغ الأحمرار وبدت كأنها تشعر بالبرد الشديد . ولكنها أشارت إلى المنحدر التالى .

وعند قمته وصلنا الى ممر جبلى مرتفع ، وعلى نحو أقرب الى المعجزة

وكما لو أن الضباب والبرد كانا بمثابة اختبار بسيط بدأت السماء تصفو مرة أخرى . بدأت كثافة السحب تقل بتأثير ضوء الشمس . ثم انقشعت السماء الى مساحات هائلة من اللون الأزرق الصافي .. وسرعان ما أصبحنا نسير في ضوء الشمس مرة أخرى . وأمامنا كان يوجد حوض فسيح من الأراضي الخضراء المحاطة بالقمم الجبلية : وفي كل مكان توجد الأزهار والنباتات التي كانت تنبثق من جميع الشقوق الموجودة بين الصخور . وجرت أليسون في بهجة والتفتت نحوى مبتسمة وقد نشرت ذراعيها مثل طائر على وشك أن يحلق في الجو ثم واصلت الجرى بحركات صبيانية جامحة وهي تصيح ..

أوه ياإلهى .. أوه ياإلهى ؟!

التقطنا صورا فوتوغرافية لانفسنا وللمنظر الطبيعي ثم جلسنا سويا على الجانب المواجه للرياح لثلة الحجارة ورحنا ندخن السجائر وقد التصقنا ببعض بسبب الاحساس بالبرد .. وغردت طيور الغاق في الأجواء العالية وهي تمرق بين الرياح الباردة مثل الثلج ، وقفزت إلى خاطرى صور الرحلة الذهنية التي دفعها الى داخل كياني كونشيس تحت التنويم المغناطيسي . وبدت لي التجربتان متوازيتين تقريبا باستثناء أن هذه التجربة الجبلية تتميز بالجمال اللحظى الفورى المباشر التلقائي .

كان طرف أنف أليسون ناصع الاحمرار ولكنى كنت أميل الى الاعتقاد أنها تتميز بالشجاعة ولولاها ما وصلنا الى هذا العالم المترامى تحت اقدامنا والى هذا الشعور بالنصر والانتصار والى كل هذه البلورية الفائقة المتسامية لكل ماشعرت به ازاء اليونان . علقت :

هذا هو اول شيء رائع .. حدث لي منذ شهور طويلة . اليوم . هذا المنظر الطبيعي و.. أنت .

ـ لا تقولى ذلك .. فأنا لست سوى قذارة وأوساخ . وتدنيس وتلويث .

ـ مازلت مصرة على أننى لا أرغب في ان اكون في هذا المكان مع اى انسان آخر غيرك هل تريد أن تكون هنا مع فتاة أخرى ؟

ـ لا أعتقد أن هناك أية فتاة أخرى عرفتها في حياتى تستطيع السير لمسافة طويلة كهذه ، فراحت تفكر مليا في ردى ثم نظرت الى مرة أخرى وقالت : اجابتك مراوغة للغاية .

ـ انني مسرور من مجيئنا الى هنا . انت عضوة فى فرقة تمثيلية متجولة يا كيللى .

ـ وأنت ابن حرام يا أورفى .

كان باستطاعتى أن أدرك أنها لم تشعر بالإساءة الى مشاعرها .

(٤١)

وأثناء العودة هاجمنا التعب على نحو فجائى واكتشفت آليسون وجود ورم فى كعبها الايسر حيث كان حذاؤها الجديد يحك فى قدمها . وأضعنا عشر دقائق من الضوء الآخذ في التلاشي لعمل رباط لكعبها . ثم هجم الليل علينا . جاءت الرياح . وظلت السماء صافية وكانت النجوم تتلألأ فى حيوية . كان من الصعب مشاهدة موطىء أقدامنا . بل من الصعب أن نفكر في شيء من الحكمة . شرعنا فى السير بغباء الى أن وصلنا الى منخفض بركانى .

كانت آليسون أكثر رعبا منى وأكثر شعورا بالبرد القارس . وفي منتصف المنخفض البركانى اكتشفنا انه من المتعذر الخروج ألا عن طريق العودة إلى حيث كنا .. فجلسنا لكى نستريح لدقائق تحت صخرة ضخمة . ضممتها الى بهدف أن أشعرها بشىء من الدفء ، دفنت رأسها فى السويتر فى احتضان غير جنسى وهى ترتعد ، شعرت أن ذلك لايعنى أى شىء ويجب ألا يعنى أى شىء . وقلت لنفسى إننى كنت سأشعر بنفس هذه المشاعر مع أية انسانة أخرى .

نظرت إلى المنظر الطبيعى المتجهم أمامى . وتذكرت كلاما قاله البغال وهو أن الذئاب لاتقوم بالاصطياد أبدا بمفردها وانما تهجم دائما فى جماعات . فالذئب المنفرد وحيدا خرافة .

ساعدت آليسون على الوقوف على قدميها ورحنا نشق طريقنا عائدين من حيث أتينا على نفس الطريق . شاهدنا تلا صخريا كنت قد سبق لى أن لاحظته أثناء صعودنا لأعلى . وكان المأوى يقع عند الجانب الآخر من التل . بدا على آليسون أنها لم تعد تبالى . ظللت ممسكا بيدها وحرصت على جرها بالقوة . استخدمت معها الوسائل التى تبقيها فى حالة من الحركة . وبعد عشرين دقيقة ظهر المأوى .

تلمست طريقى فى الظلام داخل المأوى وأجلست آليسون على سرير . ثم عثرت على المصباح وحاولت إشعاله . لم يكن به زيت . ذهبت الى الموقد . حمدت الله حيث وجدت به أخشابا جافة . فقمت . بجمع كافة الأوراق التى يمكن جمعها : اشعلت الأوراق ورحت أصلى لله . واشتعلت النيران فى الأخشاب . وفى خلال دقائق قليلة أصبح الكوخ مليئا بألسنة من النيران الحمراء المرفوفة وبظلال بنية داكنة وبالدفء اللذيذ . والتقطت جردلا . فرفعت آليسون رأسها ، قلت : إننى ذاهب لأحضر بعض الماء . قالت فى ابتسامة واهنة : وهو كذلك ينبغى على أدخل تحت البطاطين .

عندما رجعت وجدتها تضع الكتل الخشبية من خلال الباب العلوى للموقد . كانت حافية القدمين وواقفة على بطانية حمراء كما وضعت فوق السرير بعض ما احضرته من طعام . قلت : كيللى . أمرتك بأن تستريحى فى السرير .

لقد تذكرت فجأة أنه من المفروض أن أكون مضيفة جوية . إن هذا هو روح الهبوط الاضطرارى بالطائرة ومصدر بهجته .

أمسكت بجردل الماء . وعندما جثمت تمكنت من مشاهدة البقع الحمراء الملتهبة فى كعبيها . فسألتها : هل تمنيت عدم قيامنا بهذه الرحلة الخلوية ؟

لا إننى مسرورة لقيامنا بهذه الرحلة . وعادت الى عملها وهى تشعر بالرضا ، جلست أنا على حافة السرير وخلعت حذائى وجوربى ، أردت أن أكون على حالتى الطبيعية ولكنى لم أستطع كما لم تستطع هى أيضا .

وضربت هبة ريح فجائية على سقف الكوخ وزمجر الباب منفتحا فتحة صغيرة ، فقالت : لقد أفلتنا من العاصفة .

نظرت اليها وأنا واقف عند الباب بعد أن أغلقت الباب فى احكام مستخدما احدى الزلاجات . كانت تحرك وتقلب الشيكولاتة الذائبة باحد الأغصان وكانت ترقبنى فى نفس الوقت . وكان وجهها متوردا دارت بعينيها حول الحوائط ، وقالت : هذا المكان شاعرى أليس كذلك ؟

طالما أنه يحمينا من الرياح الشديدة بالخارج . فابتسمت لى ابتسامة غامضة ، سألتها : لماذا تبتسمين ؟

ـ لأن المكان شاعرى

جلست على السرير مرة أخرى . قامت بخلع بلوزتها اطلقت شعرها تراءت لى صورة جولى وعلى نحو لايسمح لجولى بالدخول فيه على الاطلاق . وحاولت أن يكون صوتى مليئا بالسكينة والهدوء ، قلت : تبدين على ما يرام . هذه البيئة تتفق مع أهوائك .

ـ ينبغى أن أكون على مايرام . لقد قضيت معظم حياتى فى مطبخ سفينة مساحته ٤ × ٢ م .

ادارت ظهرها وقالت : التعب يجعلنى دائما اشعر بأننى مثيرة . للغريزة الجنسية . مغامرة أخرى واحدة .

فقلت : مجرد أن الاختبارات الأولية سلبية لايعنى ...

انحنت بجوارى وهى تنظر تلك النظرات الغريبة المتجهة لاسفل وتبتسم ابتساماتها التلقائية التى تتميز بها المضيفات الجويات . وقالت :

أترغب ياسيدى فى أن تتناول مشروبا قبل العشاء ؟ ودفعت بالكسرولة تحت أنفى فابتسمت وردت على بواحدة من ابتساماتها الرقيقة الرائعة . ذهبت الى السرير الذى يقع فى الطرف البعيد من الكوخ وبدأت تفك أزرار قميصها ، سألتها · ماذا تفعلين ؟

ـ أخلع ملابسى .

أشحت بنظرى بعيدا . وبعد لحظات قليلة وقفت الى جوارى ، وقد لفت احدى البطاطين حولها ثم جلست على بطانية مطوية على الأرضية على مسافة قدمين منى ، وعندما استدارت لتمد يدها الى الطعام الموجود وراءها انفرجت البطانية عند ساقيها . فأعادت تثبيتها عندما رجعت فى جلستها إلى وضعها السابق .

رحنا نتناول الطعام . كانت الشيكولاته ساخنة خفيفة ، لكننا لم نهتم بذلك لأننا كنا نشعر بالجوع الشديد ، وأخيرا جلسنا ، كنت قد انزلقت جالسا على الأرضية ، أسندنا ظهرنا على حافة السرير ورحنا ندخن السجائر ونضيف دخانا على الدخان المتصاعد من الموقد . كل منا كان ملتزما بالصمت والانتظار والترقب . شعرت كأننى اعيش تجربتى الأولى

مع أول فتاة أتعرف عليها واعيش اللحظات الحرجة التى يتقرر خلالها ما إذا كان ينبغى إيقاف ذلك الأمر أو الاستمرر والسير فيه حتى النهاية . كنت خائفا من القيام بأى حركة ، كان كتفاها العاريان صغيرين ومستديرين ورقيقين . وكان طرف البطانية الذى ثبتته تحت ابطها قد تحلل بعض الشيء .. فتمكنت من مشاهدة الجزء العلوى من ثدييها .

وأصبح الصمت مثيرا للارتباك الشديد ، على الأقل بالنسبة لى . أصبح الصمت نوعا من اختبار القدرة على التحمل لمعرفة من منا الذى سيقوم بتحطيم الصمت أولا . استلقت يدها على البطانية بيننا . وبدأت أشعر أنها استغلت الموقف بأكمله ورتبت كل شيء لكى تضعنى فى هذا المأزق الحرج : فى هذا الصمت المطبق الذى سيطرت فيه على الموقف والذى اتضح تماما خلاله أننى أريدها، ليس لانها آليسون ولكن باعتبارها انثى ، اى أننى أريد أية فتاة يتفق ان تكون الى جوارى فى تلك اللحظات الرازحة تحت الصمت .

ألقيت عقب سيجارتى فى الموقد ، واستندت بظهرى على السرير وأغلقت عينى كأن كل ما أريده هو الخلود الى النوم . تحركت آليسون فجأة . ففتحت عينى . لقد كانت عارية الى جوارى . وقد ألقت البطانية الى الوراء . ركعت وعكفت على خلع ملابسى نيابة عنى .

ثم باعدت ما بين ساقى وراحت تفك أزرار قميصى ثم خلعته ، أغلقت عينى وتركتها تعرى صدرى تماما .

وملست بيديها على صدرى وعلى كتفى ورقبتى وشفتى فى نوع من المداعبة واللعب معى وتفحصى مثلما تفعل طفلة مع لعبة أطفال جديدة ، ركعت وقبلت الجزء الجانبى من رقبتى فتلامست اطراف ثدييها مع بشرتى .

فقلت : لن أغفر لنفسى أبدا اذا ..

ـ لا تتكلم . عليك البقاء ساكنا بدون حراك ثم قامت بخلع ملابسى كلها ، وقادت يدى عبْر جميع أرجاء جسدها لكى تتعرف اصابعى على جسدها مرة أخرى وعلى بشرتها الناعمة وعلى عريها الذى يتخذ المسحة الطبيعية دائما . ويديها . بينما ملست على جسدى فأحسست كأننى موجود مع فتاة موس . فاليدان ماهرتان وبارعتان كيدى موس . فلا شيء سوى اللذة

الحسية ، اسلمت نفسى للمتعة التى منحتها لى . ثم ألقت بنفسها فوقى ليصبح رأسها فوق صدرى .. سادت فترة صمت طويلة وراحت النيران تطقطق وحرقت بعض الشيء سيقاننا .. ورحت أملس على ظهرها وشعرها ورقبتها الصغيرة واستسلمت للأطراف العصبية الموجودة فى جسدى ، وتخيلت نفسى مستلقيا فى نفس هذا الوضع مع جولى ، أدركت أن عاطفتى عندئذ ستكون جامحة ومكتسحة بشكل كبير .

تأوهت أليسون وتحركت وعضتنى وهيمنت على وتمايلت فوقى فى مداعبة بطريقة معينة تطلق عليها اسم « مداعبة الباشا » ، حيث كانت تدرك أننى أفضل هذا النوع من المداعبة مثلما يفضلها جميع الرجال . سيدتى وعبدتى .

وأذكر سقوطنا معا فى أعماق السرير . وأذكر المرتبة القش الخشنة والبطاطين الخشنة وأذكر امساكها بى للحظات وتقبيلها لى قبلة واحدة على فمى قبل أن أتمكن من التفوق عليها وقلبها على ظهرها وإعادتها الى وضعها الصحيح بينما يدى على صدرها المبتلّ ويدها ممسكة بيدى هنالك والبطن الناعم الضئيل والرائحة الخفيفة لشعرها المغسول بماء المطر . وبعدئذ وبعد ثوانٍ قليلة وبسرعة كبيرة وقبل أن أتمكن من تحليل أى شيء هبط النوم فجأةً .

استيقظت من النوم فى عمق الليل . فذهبت وشربت بعض الماء من الجردل . وتسربت أشعة القمر من خلال ثقوب الطلقات القديمة . رجعت وانحنيت على أليسون ، لقد ألقت بالبطانية بعيدا عن جسدها بعض الشيء وكانت بشرتها متخذة اللون الأحمر العميق الظلالى تحت الضوء المنعكس عن جمرات النيران . بدا احد الثديين عاريا ومتهاويا فى اعياء وكان فمها مفتوحا بعض الشيء علاوة على صدور شخير خفيف . انها مفهمة بالشباب وموغلة فى القدم وتبدو بريئة وفاسدة اخلاقيا وهذه صفات موجودة فى كل امرأة . حين تكون امرأة بمعنى الكلمة .

جعلتنى موجة المحبة أقرر انه اخبرها غدا بالحقيقة ، وأن مرضى الحقيقى لم يكن شيئا قابلا للشفاء مثل الزهرى ، وأنما هو مرض أكثر سخافة لأنه بمثابة رغبة فى مضاجعة نساء عديدات بدون تمييز وهو مرض خلقى وموجود فى كيانى منذ ولادتى . ووقفت قريبا للغاية منها وأنا أكاد ألمسها وأكاد ألقى بالبطانية بعيدا ، وأرتمى فوقها وأدخل الى عمق كيانها ،

وأمارس الحب معها كما أرادت لى أن أفعل ذلك معها ولكنى لم افعل شيئا قمت فى رفق بتغطية صدرها العارى ثم التقطت مجموعة من البطاطين واتجهت الى سرير آخر مجاور للسرير الذى تنام عليه .

(٤٢)

استيقظت لدى سماع شخص ما يطرق على الباب . انسحب الطارق على الباب متراجعا عندما أدرك اننا مازلنا راقدين فى الأسرة . نظرت الى ساعتى انها العاشرة صباحا . ارتديت ملابسى بسرعة وخرجت من الكوخ . انه راعى اغنام . ففى كان ماعلى مسافة بعيدة كان بمقدورى سماع اجراس قطيع الاغنام الخاص به . ضرب بعصاه المعقوفة الكلبين اللذين كشرا عن أنيابهما فى وجهى ثم اخرج من جيوب معطفه كميات من الجبن وبعد دقائق قليلة خرجت أليسون من الكوخ وهى تدفع بنهايات قميصها الى داخل بنطالها ، وتغمض عينيها قليلا لكى تتجنب ضوء الشمس . اقتسمنا مع الراعى ما تبقى من البرتقال والبقسماط واستنفدنا الجزء المتبقى من الفيلم وكنت مسرورا بوجود ذلك الراعى ، كان باستطاعتى أن أدرك ان أليسون قد اعتقدت أننا عدنا الى العلاقة القديمة التى جمعت بيننا . وانها قد كسرت الجليد ولكن الموقف بالنسبة لى كان مثل القفز الى الماء . قالت : أتمنى لو بقينا هنا للأبد . انها مجرد رغبة .

انحنيت وقبلت خدها ووضعت يديها حولى لكى استلقى عليها وتحادثنا فى همس من الفم الى الأذن اليسرى لكل منا .

- قل انك كنت بحاجة الى وقل أنك مازلت تحبنى .

- مازلت احبك .

- ولا تضاجع هؤلاء النساء القذرات مرة أخرى

- لن أفعل ذلك على الاطلاق .

كنت أحملق فى نهايات شعرها الملقاة على الصخرة . أحاول أن أدفع نفسى الى نقطة الاعتراف . بدا الأمر لى شبيها بوضع القدمين فوق زهرة بسبب عدم الاهتمام بتفاديها بأخذ خطوة على جانب . أمسكتنى من كتفى لكى أضطر لأن أحملق لاسفل اليها . تحملت الصدق فى نظراتها للحظات ،

ثم استدرت وجلست معطيا ظهرى نحوها : ماذا حدث من أخطاء ؟ كل ما هنالك اننى اسأل نفسى ، ترى ما هو الذى جعل فتاة لطيفة وجميلة مثلك تنجذب الى شخص سافل وقذر مثلى ؟

ـ ذلك يذكرنى .. بمفتاح لحل لغز الكلمات المتقاطعة . رأيته منذ شهور مضت .

انطلقنا هابطين على المنحدر .. وكلما هبطنا لاسفل اصبح الجو أكثر دفئا ، راحت آليسون تقود الطريق وتسير فى المقدمة لذا لم تتمكن من مشاهدة وجهى إلا فيما ندر .. حاولت ان اعرف حقيقة مشاعرى تجاهها . وشعرت بالضيق لأنها تعول كثيرا على الأمور الجنسية وعلى بلوغ النشوة القصوى الجنسية المشتركة بيننا فى آن واحد .. غلطتها أنها لاتدرك أن الحب الحقيقى شىء مختلف تماما .

وبينما نسير على المدق ، قالت كل ما يؤلمنى أننى ليست لى جذور ضاربة فى أى مكان . لم تعد لى جذور تربطنى بأى مكان . كل الاماكن متشابهة . أسافر من أماكن لأصل إلى أماكن أخرى مشابهة لها . كل ماهنالك أننى لدى أناس اشعر بالارتياح نحوهم او احبهم حبا حقيقيا هؤلاء الناس هم وطنى الذى أشعر بالانتماء اليه . وطنى الذى تركته .

ألقت بنظرة وراءها نحوى . نظرة خجولة كما لو كانت تدخر هذه الحقيقة عن نفسها وعن عدم وجود جذور لها أو وطن قومى لها وهو أمر تدرك أنه حقيقة تنطبق على ايضا . على الرغم من استقلاليتها الزائفة فإن لديها الحاجة لأن ترتبط .. كانت تشبه شقيق البحر الذى اذا لمسه شىء يبادر بالالتصاق به . توقفت عن المشى . عندما سمعنا معا صوت خرير مياه تتدفق . قالت : أود لقدمى أن تستحما فى الماء . هل يمكن لنا أن نهبط الى المياه ؟

سرنا بين الاشجار وبعد قليل وصلنا إلى مدق آخر فى منطقة وعرة . كان هناك شلال من مياه تسقط على مساحة عشرة اقدام وتحت الشلال توجد بركة مياه وفتحة مغارة الى جوارها تعريشة من أغصان الاشجار .
ـ قال : هيابنا نسبح فى الماء ، وجذبت قميصها لتخلعه من فوق رأسها ثم فكت حمالة الثدى وهى تبتسم تحت الظلال الخاصة بالتعريشة . « ربما يكون هذا المكان مليئا بالثعابين »

« مثل عدن » .

وخلعت بنطالها الجينز ثم سروالها الابيض . ومدت يدها وانتزعت كوز صنوبر ميت من احد اغصان التعريشة وقدمته الى . شاهدتها تجرى عارية بين العشب الطويل نحو بركة الماء وهى تجرب الماء وتئن من شدة برودته . ثم ألقت بنفسها فى الماء وهى تصرخ عاليا . كانت المياه بمثابة ثلج مذاب مما جعل قلبى يهتز فى صدمة فجائية لدى القاء نفسها فى الماء الى جوار آليسون . ومع ذلك كان كل شىء جميلا ، ظلال الاشجار وضوء الشمس الساقط على الممر الذى يخترق الغابة والصخب الخفيف الناجم عن السقوط فى الماء والبرودة الثلجية والضحك والعرى . لحظات لايمكن أن يقضى عليها الا الموت فقط .

ثم جلسنا فوق العشب بجوار التعريشة وتركنا الشمس والنسيم لكى يجففا جسدينا ثم تناولنا الكميات المتبقية من الشيكولاتة . استقلت آليسون على ظهرها ، وتركت نفسها لأشعة الشمس . واحسست انها تركت نفسها لى ايضا . وظللت لبعض الوقت مستقليا الى جوارها وقد أغلقت عينى .

قالت : أنا ملكة الربيع .

ثم نهضت جالسة واستدارت نحوى وارتكزت على ذراع واحدة . وكانت قد نسجت تاجا بدائيا من زهور القرنفليات البرية . كان التاج قابعا على شعرها غير الممشط . وظهرت على وجهها ابتسامة مليئة بالبراءة ، بدت فجأة أشبه بقصيدة وشعرت بموجة عاطفية من الرغبة فيها . لم يكن الأمر مجرد شبق ، ليس لانها بالغة الجمال وصغيرة الثديين ونحيلة الخصر ومستندة على يد واحدة ومتخذه شكل طفلة فى السادسة عشرة ، وليس فى الرابعة والعشرين ، ولكن لاننى أدرك كافة التأكيدات القبيحة غير الشاعرية للحياة الحديثة فيما يتعلق بالذات الحقيقية لها - رؤية عارية بنفس الطريقة مثلما كانت عارية فى الجسد .

احسست فجأة اننى احببتها فعلا .. اننى اود الاحتفاظ بها كما أردت أن أحتفظ بجولى لست أريد واحدة منهما أكثر من الأخرى .

بل علىَّ أن احتفظ بهما معا وأنه لاتوجد هناك خيانة عاطفية فى ذلك الأمر . الخيانة الوحيدة كانت متمثلة فى شعورى بأننى غير أمين وبأننى أخفى

الأ. ور ، إنه الحب الذى دفعنى اخيرا لأن أعترف ، وليست الرغبة أن أكون حرا ، انه الحب بكل بساطة .. أعتقد أن آليسون كانت تدرك ذلك . ومن المؤكد أنها شاهدت نوعا من الاكتئاب والحزن فى وجهى فقد تساءلت فى رقة بالغة . ماذا حدث من أخطاء ؟

ـ لم أكن مصابا بمرض الزهرى . كل ذلك كان كذبا .

نظرت الى بتفحص ثم هبطت مستلقية على العشب : أوه يا نيقولاس .

أريد أن أقول لك ..

ـ ليس الآن .. مهما حدث من أمور ، تعالَ ومارس الحب معى الآن ومارسنا الحب معا .. لم نمارس الجنس وانما مارسنا الحب ولو أن الجنس كان سيصبح أكثر حكمة وتعقلا ..

وأثناء استلقائى بجوارها بدأت أحاول أن أصف لها ما حدث فى بورانى ، لقد قال الإغريق القدماء إنه إذا قام شخص ما بقضاء ليلة فى بارناسوس فإنه يصبح إما ملهما وإما مجنونا . وليس هناك شك إزاء ماحدث لى . لقد اخترت أسوأ اللحظات لكى أكون فيها أمينا معها مثل معظم الذين قضوا قدرا كبيرا من حياتهم فى فترة المراهقة فى عدم الامانة العاطفية ، فإننى أخطأت فى تقديرى للنتائج التى تنجم عن كونى أمينا فى عرض الموضوع .

كانت هى تريد أولا أن تعرف سبب الادعاءات الشاذة التى ركزت عليها . ولكنى كنت أريدها أن تفهم غرابة منطقة بورانى قبل أن أذكر لها أشد الأمور التى تجذب الانتباه . ولم أتعمد اخفاء أى شىء آخر عن كونشيس ولكنى مع ذلك تركت فجوات كبيرة .. أخبرتها بكل شىء . صورت لها الأمور غير متعلقة بالنواحى الجنسية وانما مجرد ابهار للعقل . قالت : لكنها تجذبك الى الأمور الجنسية .

ـ يا آليسون لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى كرهى لنفسى خلال إجازة نهاية الأسبوع هذه .. لقد حاولت أن أحكى لك كل شىء مرارا فلا اريد لنفسى الوقوع تحت تأثير جاذبيتها . مازلت حتى الآن لا عرف كفة هذه الفتاة . كل ما أعرفه أننى واقع تحت تأثير شىء فى هذا المكان . وليس تحت تأثير هذه الفتاة فقط . فهناك شىء ما غريب للغاية يحدث . وأنا .. متورط معهم وأنا مضطر للعودة الى هذه الجزيرة . بسبب وظيفتى ..

ـ لكن ما وضع هذه الفتاة ؟

ـ انها ليست بدأت علاقة بالموضوع . حقا .. هى بمثابة جزء ضئيل للغاية فى الموضوع . أشعر وكأنه يتم تمزيقى الى نصفين .

ـ هل هى جميلة ؟

ـ لو لم أكن أشعر بمشاعر عميقة نحوك لأصبح الأمر سهلا للغاية .

ـ هل هى جميلة ؟

ـ نعم .

ـ جميلة للغاية ؟

فلم أرد عليها . دفنت وجهها بين ذراعيها . قمت بالتدليك الخفيف على كتفها الدافىء . قلت : إنها مختلفة عنك تماما . ومختلفة عن أى فتاة عصرية ، لا تستطيع أن توضيح الأمور ، أشاحت برأسها بعيدا ، ورددت : يبدو أننى مجرد ..

ـ ما هذه السخافة التى تظهرينها الآن .

وسادت فترة صمت مليئة بالتوتر الشديد .

ـ إستمعى الى . أحاول لأول مرة فى حياتى. التعيسة أن اكون صادقا . ليست لدى اعذار . اذا تقابلت مع هذه الفتاة غدا فسأبلغها أننى أحب آليسون وآليسون تحبنى ولن أفعل اى شىء بخلاف ذلك .. من المقرر أن أتقابل معها مرة أخرى .

ـ وأنت لا تحب آليسون أو أنك تحبنى إلى أن تقابل فتاة أكثر جمالا ..

ـ لا تكونى بلهاء فى كلامك .

ـ انا بلهاء وافكر بطريقة غير مهذبة واتحدث بطريقة فجة . هل أنحنى لك فى احترام وأنسحب » ؟

ـ تمنيت من الله ألا أكون بالغ التعقيد ..

ولذنا بالصمت سويا .. ومرت أمامنا بسرعة فراشتان متلاصقتان متثاقلتان لهما لون أصفر ومتدليتان فى ارتخاء قلت : كل ما أردت أن اقوله هو أنه ينبغى عليك أن تعرفى طبيعة شخصيتى .

- إننى مازلت أعرف شخصيتك .

واخترقت عيناها الرماديتان الباردتان أرجاء كيانى فى توغل الى ان اضطررت إلى انظر لاسفل . ثم نهضت واقفة وذهبت لتغتسل . كان الموقف ميئوساً منه . لم استطع تناول الموضوع بطريقة سليمة . لم أتمكن من توضيح الأمور لها . ولم تكن على استعداد لأن تفهم جوانب الموقف على الاطلاق ، قمت بارتداء ملابسي وادرت ظهرى لها أثناء قيامها بارتداء ملابسها فى صمت .

وعندما فرغت قالت : إكراما لوجه الله لاتقل كلاماآخر . فأنا غير قادرة على سماع كلامك .

وصلنا الى آراشوفا في حوالى الخامسة وانطلقنا لكى نقود السيارة عائدين الى اثينا . وحاولت مناقشة كل شيء معها ولكنها لم تسمح لى بذلك لقد قلنا كل ما يمكن ان يقال فقد ظلت جالسة وغارقة فى تفكير عميق وملتزمة بالصمت الكامل طوال الطريق .

وصلنا الى الفندق في بيروس ـ حيث كنت قد حجزت نفس الغرفتين . صعدت آليسون الى الفندق بينما اتجهت بالسيارة الى الجراج . وأثناء عودتى اشتريت زهور قرنفل ثم اتجهت الى غرفتها وطرقت على بابها اضطررت لأن أطرق ثلاث مرات قبل أن تفتح بابها ، كانت غارقة فى البكاء .

ـ احضرت لك بعض الزهور .

ـ لا أريد زهورك اللعينة .

ـ استمعى الى يا آليسون ، انها ليست نهاية العالم .

ـ انها مجرد نهاية للعلاقة الغرامية بيننا . فقلت بصوت مرتفع نسبيا : ألن تسمحى لى بالدخول الى غرفتك ؟ .

ـ ولماذا ينبغى ان اسمح لك بالدخول ؟ قد فتحت الباب فتحة ضيقة . بدا وجهها متورما غارقا فى الآلام قلت : دعينى فقط أدخل وأتحدث معك ..

ـ أغرب عن وجهى .

دفعتها بقوة ودخلت وأغلقت الباب فوجقفت معطية ظهرها للحائط وراحت تحملق فى وجهى بشدة وتصاعد ضوء خفيف مترام من الشارع . فتمكنت

من مشاهدة عينيها . قدمت لها الزهور فجذبت الزهور بعنف من يدى وألقت بها من النافذة ، وضعت يدى على كتفيها ولكنها تملصت وحررت نفسها فى غضب .. فجلست على السرير وأشعلت سيجارة. وترامى من مكبر للصوت فى احدى المقاهى بالشارع صوت موسيقى مقدونية . كنت جالسا وكانت هى واقفة فى حالة من الشرنقة الغريبة التى أبعدتنا عن اقرب الاشياء التى تحدث بالخارج .. قلت : جئت الى اثينا وأنا ادرك انه لاينبغى على أن أقابلك .. ولقد بذلت قصارى جهدى لابرهن لنفسى على أننى لم أعد اشعر بمشاعر خاصة نحوك .. لكن كل ذلك لم يفلح وذلك هو السبب اننى بدأت اتحدث معك فى هذا الموضوع . فى غباء شديد. وفى الوقت غير المناسب تماما . باستطاعتى أن أظل ملتزما بالصمت فى هذا الشأن مع الاستمرار فى مخادعتك .

ـ لست الانسانة التى قامت بخداعك ، فماذا تعنى بتعبير « مشاعر خاصة » ؟ التزمت الصمت . فأضافت هى : أنك لست خائفا فقط من ان تذكر كلمة « حب » وانما أنت خائف ايضا من استخدام هذه الكلمة الآن .

ـ أنا لا اعرف معنى كلمة « حب »

فاستدارت حولها . وقالت : حسنا دعنى اشرح لك معنى كلمة « حب » ، الحب ليس فقط هو ما قلته لك فى ذلك الخطاب ، لقد اكتشفت ان الحب هو أن تشاهد الشخص الوحيد الذى تريد أن تعيش معه سعيدا بهروبه منك . أنت تظن أن الحب هو الجنس .. ودعنى اخبرك بشىء : لو كنت أريدك من اجل الجنس فقط لتركتك على الفور عقب الليلة الأولى .

ـ أقدم لك اعتذراتى .

فنظرت الى وأخذت نفسا عميقا وابتسمت ابتسامة مريرة . وقالت : يا إلهى لقد أوذيت مشاعره الان ، إننى احاول أن اقول لك إننى أحببتك أنت من أجل شخصيتك أنت وليس من أجل مهمازك المتفجر . بالطبع انت على مايرام فى السرير . ولكنك لست انت الـ .. ثم ذهبت الى نهاية السرير واستندت عليه وراحت تنظر لاسفل نحوى . وأضافت : أعتقد أنك أعمى فلا تعرف انك لاتحبنى .. بل إنك لا تدرك أنك ابن حرام وأنانى وقذر لايجب ان يكون عاجزا وعنينا بل ولا يفكر ابدا فى اى شىء سوى الجنس . لا يوجد اى شىء يمكن أن يجرح مشاعرك يانيقولاس لقد شيدت حياتك على أساس

أنه لايمكن لأى شىء أن يصلك ولذلك فإن أى شىء تفعله يمكنك أن تقوله . لا يمكنك ان تمنع نفسك من ذلك . ولايمكنك ان تخسر جولة ، فلديك مغامراتك التالية التى تقوم بها . دائما لديك مغامراتك وعلاقاتك الجنسية اللعينة .

ـ انت دائما تحاولين لوى الحقائق ..

ـ أتظن أننى انخدع بذلك الكلام ؟ هناك فتاة ما فى جزيرتك تريد أن تنام معها . ذلك أمر ردىء وتصرفات نابية وأنت تحاول أن تزينها لنفسك . بحيث يبدو الأمر كأنك الانسان البرىء . الانسان المثقف الذى عليه أن يخوض تجربته . هذا هو أسلوبك دائما ، تهيىء الكعكة لنفسك ثم تأكلها .

وددت أن اتكلم لكنها اسكتتنى بحركة فجائية تدل على نفاد صبرها .. ثم راحت تجوب الغرفة جيئة وذهابا .. وتعللت بحجة أخرى فقلت لها . كون أننى ألا أريد أن أتزوجك . أو أتزوج أى انسانة أخرى فهذا ليس معناه أننى لا أحبك .

ـ قولك هذا يذكرنى . بتلك الطفلة الصغيرة . لقد اعتقدت أننى لم ألحظ تلك الطفلة الصغيرة التى كان ببشرتها ، دُمّل . لقد شعرت أنت بالضيق . فآليسون تبدو لطيفة مع الأطفال الصغار . وتتفجر فيها مشاعر الأمومة . وهل لى أن اقول لك شيئا ما ؟ لقد كنت أعبر عن مشاعر الأمومة الكامنة فى داخلى .. لمجرد لحظات .. لم أفكر كيف أننى أرغب فى أن يكون لدى أطفال أنجبهم منك .. وألف ذراعى حولهم أثناء وجودك بالقرب منى . أليس هذا أمرا شنيعا ؟ اننى لدى هذا الشىء المقرف الكريه الذى يسمى الحب .. يا إلهى .. ان الزهرى شىء لطيف اذا قورن بالحب .. اننى أعيش فى فساد وضلال رهيب للغاية .. وفى انحلال رهيب .

ـ آليسون .

وأخذت أنفاسا مليئة بالرجفة والرعشة وأصبحت على وشك أن تذرف الدموع . أكملت . أدركت الموقف بمجرد أن تقابلنا يوم الجمعة . فأنا بالنسبة لك لست سوى آليسون التى اضطجعت معها . الفتاة الأسترالية التى أجريت لها عملية إجهاض ، التى تشبه القوس الخشبى الأسترالى الذى يقذف فيرتد إلى راميه . عليك أن تلقى بآليسون بعيدا وهى سوف تعود اليك دائما من أجل أن تضاجعها فى عطلة نهاية الأسبوع .

ـ هذا الكلام شبيه بالكلمات التى تحت الحزام .

قامت باشعال سيجارة . فذهبت ووقفت الى جوار النافذة وتكلمت الى ظهرى عبر السرير : طوال ذلك الوقت فى الخريف الماضى . لم أكن أدرك أنك يمكن أن تصبح أكثر حنانا . اعتقدت أنك مستمر فى الغلظة . والله وحده يعرف السبب أننى اشعر بالارتياح اليك أكثر من أى رجل آخر . رغم الهوس والجنون الطبقى الذى تشعر به ازاء الطبقات الأجتماعية . لم استطع التغلب على الفراغ الشديد الذى شعرت به عقب رحيلك .

جربت « بيتى » وجربت رجلا آخر بلا جدوى ، دائما هناك الحلم الغبى بأنك قد تكتب لى يوما .. لذلك قمت بترتيب هذه الأيام الثلاثة .

اكتشفت أنك كنت تشعر بالملل وترغب فى التسلية .

ـ هذا ليس صحيحا . لم أكن أشعر بالملل .

ـ كنت تفكر فى هذا الأمر فى فراكسوس .

ـ كنت أفتقدك أيضا . فى خلال تلك الشهور الأولى بصفة خاصة .

فجأة أضاءت الأنوار الكهربائية بالغرفة .

ـ استدر وانظر الى .

هى واقفة عند الباب مرتدية البنطلون الجينز وقميصها الداكن .

ـ لقد وفرت بعض النقود . وأنت لايمكن أن تكون مفلسا تماما . فاذا أبديت رغبتك فى الزواج منى فسأترك وظيفتى غدا على الفور وسأجىء الى جزيرتك لأعيش معك . سبق أن قلت إننى أرغب فى أن أعيش فى كوخ فى أيرلندا .. ولكننى على استعداد لأن أعيش فى كوخ فى فراكسوس . المسئولية الرهيبة هى ان تضطر لأن تعيش مع انسانة تحبك .

شعرت بالارتياح عندما قالت « كوخ فى فراكسوس » لأننى لم أخبرها بالعرض الذى قدمه لى كونشيس ، قالت :

يمكنك أن تقول لا ..

ـ يا آليسون . لو أن ..

ـ نعم أم لا .

فظهرت الحدة فى صوتها حملقتُ فى وجهها . فلوت شفتيها وأجابت نيابة عنى : لا .

ثم هرولت إلى الباب وفتحته . شعرت أننى وقعت فى مصيدة الاختيار الحقيرة مابين نعم أو لا . هذا المطلب الوحشى ازاء الارتباك التام . درت حول السرير واتجهت نحوها ، وخلصت الباب من قبضة يدها ، وأغلقت الباب فى عنف مرة أخرى ثم امسكت بها وحاولت تقبيلها ثم غرقت الغرفة فى الظلام مرة أخرى ، لكنها قاومتنى فى عنف شديد وهى تهز رأسها . جذبتها الى الوراء نحو السرير وسقطت معها على السرير مما أطاح باللمبة وطفاية السجاير من فوق الكومودينو . اعتقدت أنها سوف ترضخ وتستسلم لى الاّ أنها صرخت فجأة بصوت عال للغاية حتى أن صرختها قد اخترقت بالتأكيد جميع أرجاء الفندق ودوت فى أصداء عبر الجانب الآخر من الميناء ، وقالت :

دعنى أذهب .

جلست متهالكا للحظات وراحت تضربنى بجماع يديها . فأمسكت بيديها وقالت : اننى أكرهك .

وأرغمتها على الاستلقاء على جانبها . وقام شخص ما بالغرفة المجاورة بالطّرق على الحائط . وصدرت عن أليسون صرخة أخرى مدوية : اننى أكرهك .

صفعتها على صدغها . فانخرطت فى البكاء فى عنف شديد وتلوّت فى السرير وعوت شذرات من الكلمات فى وجهى مابين الشهقات للحصول على الهواء ومابين البكاء بالدموع :

دعنى وشأنى أيها القذر ..

ووسط انفجارها فى البكاء ، نهضت واقفا وذهبت إلى النافذة بينما بدأت تضرب بيديها على قضبان السرير كما لو كانت غير قادرة على النطق بالكلمات . فى تلك اللحظة كرهتها وكرهت عدم سيطرتها على نفسها وتذكرت أنه توجد بغرفتى بالدور الأول زجاجة ويسكى كانت قد أحضرتها

لى كهدية فى اليوم الأول . قلت :

استمعى الىَّ ، سأذهب لاحضر مشروبا . كفى عن هذا البكاء .

وأنحنيت عليها فلم تلحظ ذلك واستمرت فى ضرب السرير . فاتجهت إلى الباب وترددت بعض الشىء ثم خرجت بسرعة . وكان هناك ثلاثة من اليونانيين واقفين رجل وامرأة ورجل عجوز يطلون من بابين مفتوحين فى الطرقة ويحملقون فى وجهى وكأننى سفاح قاتل . نزلت السلم بسرعة وفتحت الزجاجة وأخذت جرعة من الويسكى ثم عدت الى آليسون .

كان الباب مغلقا من الداخل . واستمر المتفرجون الثلاثة فى الحملقة فى وجهى وشاهدونى احاول فتح الباب وأنادى عليها باسمها . اقترب العجوز وسأل : ـ أهناك شىء ما خاطىء .

ابتسمت فى اشمئزاز وتمتمت ، انها حرارة الجو . فنقل هذه المعلومة فى تكرار لكى يسمعها الشخصان الآخران ، فقالت المرأة : آه . انها حرارة الجو ..

حاولت مرة أخرى ، وناديت على اسمها من خلال ألواح الباب الخشبية . لكنى لم أسمع أى شىء . ثم هبطت السلم . وبعد عشر دقائق عدت مرة أخرى . ثم عدت أربع أو خمس مرات خلال الساعة ولكن بدون جدوى حيث كان الباب مغلقا دائما فى كل مرة مما جعلنى أشعر بالارتياح الداخلى بينى وبين نفسى .

ـ كنت قد طلبت من ادارة الفندق ايقاظى فى الساعة الثامنة صباحا ، فتم ايقاظى فى الوقت المحدد . فارتديت ملابسى على وجه السرعة وصعدت الى غرفتها وعندما جربت أكرة الباب فتح الباب على الفور .

كانت الدلائل تشير إلى أن آليسون نامت فى غرفتها ، لكنها هى وكافة حاجياتها كانت غير موجودة بالغرفة . فذهبت بسرعة الى مكتب الاستعلامات بالفندق .

كان يجلس فى هذا المكتب رجل عجوز يرتدى نظارة وهو والد صاحب الفندق ، وهو قد سبق له الاقامة فى أمريكا ولكنه كان يتكلم اللغة الانجليزية بطريقة سليمة تماما سألته : تلك الفتاة التى كانت معى فى الليلة

الماضية هل هى غادرت الفندق ؟

ـ أوه . نعم .. لقد تركت الفندق . منذ حوالى ساعة . لقد تركت لك هذا المظروف .

مظروف . عليه اسمى . والكتابة بخط يشبه الخربشة : نيقولاس أورفى . قال :

ـ لقد دفعت حسابها بأن حررت شيكا ثم انصرفت وأدركت من الطريقة التى كان ينظر بها الىَّ أنه سمع الصراخ فى الليلة الماضية .

عدت إلى غرفتى وفتحت خطابها كان الخط مثل الخربشة . قرار فى آخر لحظة من جانبها بعدم الانصراف فى صمت :

فكر فيما يمكن أن تكون عليه الأمور لو رجعت الى جزيرتك واكتشفت انه لم يعد يوجد بالجزيرة أى رجل عجوز ولا أى فتاة . ولا مزاح غامض ولا ألعاب غامضة . وبحيث تجد المكان بأكمله قد أغلق للأبد .

لقد انتهى الأمر . انتهى الأمر . انتهى الأمر .

فى حوالى الساعة العاشرة اتصلت بالمطار تليفونيا . لم تكن أليسون قد عادت الى المطار . ولم يكن من المتوقع أن تعود الى المطار حتى حلول موعد طيرانها الى لندن فى تمام الساعة الخامسة بعد الظهر . حاولت الاتصال تليفونيا مرة أخرى فى الساعة ١١,٣٠ صباحا قبل ابحار القارب مباشرة . فتلقيت نفس الإجابة . ولدى تحرك السفينة خارجة من رصيف الميناء رحت أبحث بعينى ، كان لدى بعض الأمل ان تكون بين جماهير المودعين لكى ترقب رحيلى . ولكن حتى لو كانت هناك فإنها كانت غير مرئية .

شقت السفينة طريقها فى اتجاه قمة جبل آيجينا . لقد اخترت طريقى . اخترت الطريق الصعب المحفوف بالمخاطر المتسم بالطابع الشعرى وان كنت قد سمعت أليسون آنئذ تعكس فى مرارة تلك الكلمتين الأخيرتين . فى بار السفينة انزلق شخص ما الى المقعد الذى بجوارى . انه ديمترياديس .. صفق بيديه مناديا على الساقى وقال لى : قدم لى مشروبا على حسابك أيها الانجليزى الوغد وسأحكى لك كيف أمضيت عطلة نهاية

الأسبوع فى تسلية رائعة .

(٤٣)

« فكر فيما يمكن أن تكون عليه الأمور لو رجعت الى جزيرتك واكتشفت أن .. »

وجدت نفسى لا أفكر فى أى شىء طوال يوم الثلاثاء سوى ذلك . رأيت نفسى على النحو الذى رأته آليسون . قمت بكتابة مسودة لخطاب مطول لها فى ذلك المساء ثم كتبت مسودات أخرى لخطابات عديدة ولكن كل تلك مسودات لم تعبر عما كنت أريد قوله : وهو أننى تضايقت من نفسى بسبب مافعلته بها الاَّ أنه لم يكن باستطاعتى أن أفعل أى شىء بخلاف ذلك .كنت شبيها بواحد من بحارة . « أوليس » . الذى تحول الى خنزير . الآن فقط أصبحت قادرا على أن أكون ذاتى الجديدة . ومزقت صفحات مسودة الخطابات ، كنت مقتنعا ان علىّ أن أعطى لنفسى الحرية . وفى مساء يوم الأربعاء وبعد أن عدت الى غرفتى عقب الانتهاء من الدرس الأخير وجدت مذكرة على مكتبى . « نحن نتطلع لمقابلتك يوم السبت . فاذا لم يصلنا ما يفيد عكس ذلك . فأنا أعرف أنك ستجىء . موريس كونشيس » . فشعرت بارتياح هائل وبموجة عارمة من الإثارة . بدا لى كل شىء أثناء تلك العطلة الأخيرة لنهاية الأسبوع ضرورياً ان لم يكن له مايبرره .

ولسبب ما غير عادى وأثناء عودتى الى المدرسة فإن السعادة التى كانت تغمرنى جعلتنى أفكر فى آليسون . كنت اشعر بالشفقة عليها بسبب جهلها بالمنافس الحقيقى لها ووجت نفسى اندفع واكتب رسالة لها.

« عزيزتى آليسون : لا يمكن لك أن تقولى لشخص ما « لقد رايت أنه ينبغى على ان احبك » وانا امامى ملايين الأسباب التى تدعونى لان احبك وذلك لاننى بطريقتى الخاصة البالغة الغباء والشذوذ أحبك بالفعل . كانت بارناسوس مكانا جميلا ورائعا . أرجوك الاَّ تظنى أن ذلك المكان لم يكن له أهمية بالنسبة لى . إكراما لوجه الله أرجو أن نحتفظ بهذه الذكرى فى أذهاننا .. اننى أدرك أن الأمر قد انتهى . الاَّ أن قضاء لحظة أو لحظتين بجوار تلك البركة مهما كان لدى كل منا أحباء آخرون عديدون لن ينتهى أبدا » .

وأراح هذا ضميرى بعض الشىء ووضعت الخطاب فى صندوق البريد

فى صباح اليوم التالى فى تمام الساعة الرابعة الآّ عشر دقائق من يوم السبت وصلت الى بوابة بوراني . وهنالك كان كونشيس يسير فى اتجاهى . يسير وكأنه يتجه نحو هدف معين فى عجلة من أمره . ورفع يده بمجرد أن شاهدنى وتوقفنا فى منتصف الممر على مسافة ستة أقدام .

هز رأسه بايماءه خفيفة بطريقته المعتادة : أقضيت أجازة ممتعة ؟

ـ لم تستطع صديقتى المجىء . فشركة الطيران التى تعمل بها وضعتها فى رحلة جوية على خط آخر ..

ـ أوه . آسف . ياللعار !

فهززت كتفى ثم نظرت اليه وقلت « لقد قضيت معظم الأوقات سائلا نفسى فى تعجب عما اذا كان ينبغى على المجىء الى هنا مرة أخرى . إذ لم يسبق لى من قبل أن تم تنويمى تنويما مغناطيسيا » .

فابتسم وعرف التساؤل الحقيقى الذى كنت أريد أن أسأله فى حقيقة الأمر ، قائلا :

ان مسألة قبول أو رفض مايوحى به اليك متروكة لك .

فرددت عليه بابتسامة خفيفة وتذكرت أننى عدت الى عالم متعدد المعانى من حيث الكلمات . وقلت : إننى شاكر وممتن من هذا الجانب فى ذلك الموضوع .

ـ لم يكن هناك جانب آخر « إننى طبيب .. ولقد حلفت اليمين الذى يقسم به الاطباء . فاذا كنت أرغب فى أن أوجه اليك اسئلة معينة تحت التنويم المغناطيسى فينبغى أن أحصل على موافقتك على ذلك . وبغض النظر عن أى شىء آخر فهى طريقة غير مرضية ، إذ اتضح أن المرضى قادرون تماما على الكذب أثناء التنويم المغناطيسى .. رجل التنويم المغناطيسى يمكنه أن يرغمك على أن تفعل أشياء مثيرة للدهشة . ولكنه يقف عاجزا أمام الأنا العليا . فالتزمت بالصمت للحظات قليلة . سألته : أنت خارج الآن ؟

ـ لقد ظللت منتظرا طوال اليوم ، وينبغى على أن أذهب للنزهة ، وكنت آمل أن أقابلك أولا . وهناك شخص ما فى انتظارك لكى يقدم لك الشاى .

فألقى نظرة الى الوراء فى اتجاه المنزل غير المرئى . ثم أمسك بذراعى وجعلنى أسير الى جواره عائدا فى اتجاه البوابة . قال : مريضتنا تمر بحالات نفسية مختلطة . وليس باستطاعتها أن تخفى مشاعر الاثارة لديها ازاء عودتك . ولا باستطاعتها أن تخفى مشاعر الاحباط لديها ازاء وجود بعض الاسرار بينى وبينك .

ـ ماهى تلك الاسرار ؟ ألقى على نظرة من تحت حاجبى عينيه : يا نيقولاس . التنويم المغناطيسى القائم على الفحص والاستقصاء هو جزء من العلاج المنتظم الذى أقدمه لها .

ـ بتصريح وإذن منها ؟

ـ فى هذه الحالة بتصريح من والديها . أنا أدرك أنها تتظاهر بأنها ممثلة وأعرف أن السبب فى ذلك أنها ترغب فى أن تدخل السرور عليك .

ـ تدخل السرور على أنا ؟

لقد اتهمتها أنت بأنها تقوم بالتمثيل أو هذا هو مافهمته . قد تقبلت هذا الاتهام فى شكر وامتنان .

ـ اذن فهى لن تثق فىّ بعد ذلك .

ـ لم يسبق لها أن وثقت فيك على الإطلاق . لقد كشفت ايضا تحت التنويم المغناطيسى أنها تشك مند البداية فيك وتذهب فى شكوكها الى انك طبيب يعمل معى .

ـ لكن أليس لها الحق فى هذه الشكوك طالما أنك ذكرت لى الحقيقة ؟
رفع اصبعه فى ابتهاج ، بدا الأمر وكأنه يهنىء تلميذا على ذكائه ولم ينتبه الى الحيرة الواضحة التى ظهرت على وجهى . قال : مهمتك الآن هى العمل على كسب ثقتها . وعليك أن تشاركها فى أية شكوك تظهرها ازاء دوافعى . كن حريصا وحذرا .. فهى قد تعمل على خداعك .. وتذكر أن جزءا واحدا من عقليتها المنقسمة قادر على التقييم العقلانى ، وهى لديها خبرة كبيرة فى استغفال الأطباء الذين يستخدمون أساليب سخيفة . أنا واثق أنها ستقص عليك بعض قصص الاضطهاد الذى تعرضت له . وستحاول أن تكسبك لصفها والوقوف الى جانبها ضدى . لكن من المؤكد إذا كنا ندرك

الآن أنها لا يمكن أن تكون ليلى .. ؟

ـ ذلك أمر تركناه جانبا ، لقد اصبحت مليونيرا غريب الأطوار .. وهى وأختها ممثلتان شابتان أحضرتهما الى هنا ، وهى سوف تخترع بلا شك سببا ما غريبا ، مما قد يجعلك تعتقد أن احضارها تم لتحقيق أهداف دنيئة ذات طابع جنسى . وأنت سوف تطلب الدليل والبرهان .

ـ وماذا سأفعل اذا حاولت تكرار ما حدث فى العام الماضى ، أن تدفعني لأن أساعدها على الهرب ؟

نظر إلى نظرة مليئة بالتحذير وقال : عليك أن تخبرنى على الفور . ولكننى أستبعد هذا . فقد تلقت درسا من تجربتها مع ميتفورد .. وتذكر أنها مهما بدا عليها أنها تثق فيك فإنها فى الحقيقة لاتثق فيك . تذكر أنك لم تقل لى كلمة واحدة مما حدث اثناء زيارتك الأخيرة .

ابتسمت وقلت : وماهى فرص النجاح بالنسبة لها فى هذا الشأن ؟

ـ انها فرص ضئيلة . ولكنها فرص قائمة . وخاصة اذا أديت دورك بطريقة جيدة . ربما هى لاتثق فيك . ولكنها منجذبة اليك .

ـ سأبذل قصارى جهدى .

ـ اشكرك . اننى أثق فيك ثقة كبيرة يانيقولاس . واننى لمسرور لعودتك الينا .

وافترقنا .. كان من الواضح أنه سار فى اتجاه موتسا ، لم أصدق أنه ذاهب للنزهة سيرا على الأقدام . كان يسير وكأنه ذاهب لمقابلة شخص ما . شعرت أننى مهزوز . لقد جئت الى بورانى وأنا مصمم ، على أن أنظر بعين الشك الى كل من كونشيس وجولى . ولكننى أدركت أن الأمر سوف يتطلب منى أن أرقبها كالصقر الآن . فالرجل العجوز كان منهمكا فى الطب النفسى وبمقدوره القيام بأعمال التنويم المغناطيسى . وتلك حقائق مؤكدة وثابتة . ولاشىء مما قالته عن نفسها ثبتت صحته . رأيتها واقفة تحت احدى البواكى وقد ولت وجهها نحو البحر ، وكانت ترتدى ـ وكان ذلك بمثابة صدمة لى ـ ملابس حديثة معاصرة . وكانت حافية القدمين فتاة يمكن أن تزدان بها فراندة أى فندق جميل . وبدت جذابة فى الملابس الحديثة مثلما هى جذابة فى ملابس الزى الرسمى . التفتت نحوى وبدا

عليها قدر ضئيل من الدهشة كأنها توقعت انني لن أجيء . ثم ظهر عليها الشعور بالارتياح بدا الامر كأنني ضبطها متلبسة بارتداء ملابس حديثة وكأنها امرأة تعرض فستانا جديدا لأول مرة على رجل عليه أن يدفع ثمنه .

رفعت بصرها لأعلى الى حيث أقف ممسكا بحقيبتي ولاحظت شيئا آخر جديدا منها : وهو ظهور سمرة خفيفة فى بشرتها ناجمة عن التعرض لأشعة الشمس . حاولت تفحصها وانا اقول : « هذه الملابس الحديثة تتلاءم معك تماما » ..

وبدت فى حيرة من أمرها كما لو أن الأيام القليلة الماضية قد تركت بصمات لا تحصى عليها ، سألت : هل قابلته ؟

أجبت : نعم . قابلته . لقد كان خارجا للنزهة والتريض توا .

لم تهدأ شكوكها ، وحملقت فى وجهى للحظات أخرى ، ثم قالت فى غير مبالاة : أتريد قدراً من الشاى ؟
- أرحب بذلك .

سارت فى صمت بقدميها الحافيتين إلى المنضدة . شاهدتها تشعل عود ثقاب ثم تضع براد الشاى على الوابور . انها تتجنب النظر إلى عينى ، راحت تعبث باصابعها فى المفارش بينما الندبة الغائرة ظاهرة فى معصمها . وعلى وجهها يبدو التجهم . وضعت حقيبتى إلى جوار الحائط واقتربت منها ، قالت : هل هناك أمور خاطئة ؟

نظرت الىَّ نظرة خاطفة ثم اتجهت بنظراتها نحو المنضدة . تساءلت : أين كنت ؟
- فى اليخت . فى جولة بحرية .
- افتقدتك كثيراً .

لم ترد . توقعت أنواعا متباينة من الاستقبال ، ولكنى لم أتوقع ظهور هذه الرغبة الواضحة فى عدم مجيئى بالمرة . وتصاعدت فى داخلى قشعريرة ضئيلة من الخوف . كانت تبدو مشحونة بل وضائعة . ومع فتاة جميلة للغاية فان السبب فى ذلك قد يرجع إلى عدم وجود رجال آخرين فى حياتها وهو سبب لم أكن أرغب فى تصديقه ؛ قلت : أعتقد أن ليلى قد ماتت .

قالت وهى تنظر الى المنضدة : لا يبدو عليك أنك مندهش .

ـ لم يعد أى شىء يثير دهشتى هنا . ماهو الدور الذى تلعبينه الآن من الناحية الرسمية ؟

سألت : هل استمتعت بأثينا ؟
ـ لا . ولم أتقابل مع صديقتى .
ـ أخبرنا موريس أنك تقابلت معها .

لعنته فى سرى . ثم قلت : ذلك أمر غريب للغاية . فهو لم يكن يعرف منذ خمس دقائق فقط . حيث إنه سألنى بنفسه عما اذا كنت قد تقابلت مع صديقتى أم لا . لقد انتهى كل شىء بينى وبينها . كنت أدرك أننى سأقابلك مرة أخرى .

صبت قدرا من الشاى فى الابريق . وقالت : يمكنك أن تبدأ الآن فى تناول الطعام . اذا كنت جوعان .
ـ أشعر بالرغبة الشديدة فى معرفة السبب الذى يجعلنا نتصرف كأننا غرباء تماما .
ـ نحن غرباء فعلا . أنا لا ألومك على اعتقادك بأننى مجنونة . لقد سألت نفسى فى تعجب عما اذا كنت غير مجنونة أم لا .

شعرت بارتياح هائل . فقد فعلت الشىء الوحيد الذى لم تكن لتفعله أبداً ، اذا كان الرجل العجوز قد قال لى الحقيقة ـ اللهم الا اذا كانت هى مخادعة فى جنون . تساءلت : لماذا ينبغى علىَّ أن أعتقد أنك مجنونة ؟
ـ لأن السؤال الذى سألته توا يبرهن أنك تعتقد أننى لست مجنونة .

حملقت فى فنجان الشاى ثم حملقت فيها وقلت : لا أعتقد أنك بمثابة حالة فصام نفسى .

نظرت إلىَّ فى تمعن دون أن يبدو أننى كسبتها إلى صفى . ثم اكملت .
ـ ياجولى . انه لأمر سخيف ان نقع فى كل فخ ينصبه لنا . لقد اعتقدت أننا اتفقنا فى آخر مرة . ولا داعى لأن نضطر لأن نكذب أثناء وجودنا بعيدا عنه .

نهضت واقفة ، وسارت نحو الطرف البعيد من صف الأعمدة حيث توجد السلالم المؤدية لأسفل إلى المساحة المزروعة بالخضراوات . واستندت على حائط المنزل وقد أعطت ظهرها لى وراحت تحملق للخارج نحو الجبال .

نهضت ثم وقفت وراءها . لم تلتفت لكى تنظر الىَّ فقلت : أنا لا أوجه اللوم لك . فاذا كان قد حدثك بأكاذيب عديدة تتعلق بى فقد أخبرنى بأكاذيب كثيرة تتعلق بك . لقد أنشأنا بالفعل نوعا من الثقة بيننا فى آخر لقاء .
ـ أعتقد أنك ترغب فى تقبيلى مرة أخرى .

دُهشتُ من عبارتها الفجائية التى تتسم بالسذاجة : هل القبلة جريمة ؟

طوت يديها فجأة وأعطت ظهرها للحائط وواجهتنى فى نظرات حادة : وتأخذنى إلى السرير ؟
ـ لن أفعل هذا الا اذا وددت . راحت تتفحص عينى ثم نظرت لأسفل : واذا كنت لا أريد ذلك .
ـ عندئذ سيكون كل شىء واضح .

قلت تلك العبارة فى قوة شديدة لكى أتحقق من موقفها . أحنت رأسها . تكلمت فى صوت أكثر رقة : ماهو الكلام الذى قاله لك بحق الجحيم ؟
ـ لو كنت فقط أعرف الأمور التى ينبغى علىَّ أن أصدقها ؟ يبدو لى أن غرائزى ضلَّلت منذ أن جئت الى هنا . لقد قال كلاما بغيضا عقب المرة الأخيرة . قال إنك ذهبت إلى بيوت الدعارة التى لم تكن مأمونة وانه يجب علىَّ ألا أدعك تقبلنى مرة أخرى .
ـ اذن فأنت تصدقينه ؟

شعرت بالغضب من كونشيس . انه ملىء بالحقد والضغينة . ذلك الوغد الذى تحدث عن قسم الأطباء بعدم افشاء الأسرار . قلت : لقد سئمت من ذلك كله . لقد طفح الكيل . أننى سأنصرف الآن حالا .

ولم أكن أعنى ما أقوله فى حقيقة الأمر . واستدرت راجعا فى اتجاه المنضدة كما لو كنت بصدد الانصراف . فقالت بسرعة : لو سمحت . لم أقل إننى صدقت هذا الكلام . توقفت عن المشى ونظرت إلى الوراء نحوها .

قائلا : لكنك تتصرفين كأنك تصدقين كلامه :
ـ أنا لا أفهم السبب الذى يدعوه إلى الاستمرار فى اخبارى بأشياء وهو يدرك فى نفس الوقت أننى لا يمكننى أن أصدق تلك الأشياء .

رغم أنها ألقت ببصرها لأسفل فإنها ظلت ناظرة فى عينى لفترة طويلة

مما جعلنى أعتقد أنها صادقة فى رغبتها فى عدم انصرافى . اقتربت منها قائلا : هل نحن مازلنا مقتنعين بطيبته وطبيعته الخيّرة ؟

ـ على نحو ما . نعم رغم كل شىء .

ـ هل سبق أن قامك بتنويمك مغناطيسيا ؟

ـ نعم . مرات عديدة .

ـ انه يدعى أنه بتلك الطريقة يعرف كل ما يدور فى ذهنك .

تسبب كلامى هذا فى اصابتها بصدمة . ثم أظهرت قدرا من الاحتجاج حيث قالت : ذلك أمر يبعث علىَّ السخرية . انها مجرد طريقة فنية للعمل . تعمل على مساعدتك على القيام بدورك التمثيلى . وهى تقول إنه يقوم بمجرد الكلام ، وعلى نحو ما أقوم أنا باستيعاب كل هذا الكلام .

ـ هل جولى هى مجرد جزء آخر ؟

ـ لسوف أريك جواز السفر الخاص بى . فى المرة القادمة .

ـ كان ينبغى أن تحذرينى من أن حالة الفصام كانت بصدد الحدوث .

ـ لقد حذرتك بالفعل من أن شيئا ما بصدد الحدوث . بقدر ما كانت لدى الجرأة على ذلك .

شعرت بشكوكنا وهواجسنا تتصاعد مرة أخرى . وكان علىَّ أن أسلم بانها قد حذرتنى . ثم نظرت إلى القرميد . وقالت :

ـ انه يتحدث كيف أن الناس يواجهون انقساما داخليا داخل أنفسهم . عندما يواجهون المجهول . قال يوما إن المجهول هو أعظم العوامل الدافعة الحافزة فى كافة التجارب الإنسانية . وكان يقصد عدم معرفة السبب فى وجودنا هنا . فى وجودنا على قيد الحياة . والسبب فى الموت . والحياة فى فترة مابعد الموت . وكل تلك الأمور . ولكن ماهو الشىء الذى يريدنا أن نبرهن عليه ؟

ـ لقد حاولنا مراراً وتكراراً أن نجعله يعطينا تفصيلات واضحة . لكنه يصل دائما إلى نفس الحجة . وهى أنه اذا عرفنا الهدف فان ذلك سوف يؤثر على سلوكنا وأدائنا . وهو كلام به شىء من المنطق .

ـ لقد أخبرنى بهذا عندما طلبت منه أن أعرف تاريخ حالتك المرضية وتطورها .

التقت عيناها مع عينى وقالت : الحالة المرضية وتطورها موجودة

بالفعل . ولقد كان عليَّ أن أحفظها عن ظهر قلب . فهى من اختراعه .
ـ أنا لم أعد مصابا بالزهرى مثلما أنك لست مصابة بالفصام . اذا كان هذا جزءا من لعبته فلا يهمنى معرفة كمية الأكاذيب التى يقولها عنى . ولكن ما يهمنى هو شىء واحد : اذا بدأت فى تصديق هذه الأكاذيب .

تبددت الشكوك فى عينيها . وأصبح من المفهوم ضمنيا أن عينيها قد تقبلت وجهة نظرى . غضت بصرها ثم انزلقت يداها خلف ظهرها . وساد الصمت ، هذه المرة كان فى الأمر مشاركة . تحركت شفتاها تحت شفتى وتمكنت من احتضان جسدها عن كثب فتعرفت على الانحناءات والتكورات فى جسدها . كانت ترغب فى أن أقوم بتقبيلها . وتلامس طرفا لسانينا وأصبح العناق قوياً . ثم جذبت فمها بعيداً على نحو فجائى وأدارت رأسها . ولكن جسدها ظل ملتصقا بجسدى . فقبلت الجزء الأعلى من شعرها . قلت : كنت أفكر فيك كثيراً . قالت فى همس : لو لم تحضر اليوم لانتقلت إلى رحمة الله .

ضغطت بذراعى حولها . وسألتها : أيمكن أن نتقابل هذه الليلة بمفردنا فى مكان ما ؟

ابتعدت بجسدها عنى فى رفق ، وأمسكت بيدى قائلة : هذا امر صعب . فهناك أناس أكثر مما تتصور .
ـ فى أى مكان تنامين هنا ؟
ـ لسوف أريك هذا المكان فيما بعد . سيقص علينا فصلا آخر من حياته . ولسوف ألحق بكم عقب تناول العشاء .
ـ ما رأيك ان نتقابل فى منتصف الليل بجوار التمثال ؟
ـ اذا أمكننى ذلك .

عدنا إلى المنضدة . وجلسنا . تناولت شطيرة ودخنت هى سيجارة ، ورحنا نتجاذب أطراف الحديث . وكانت هى وأختها ـ مثلى تماما ـ من حيث إنهما لم تستطيعا فهم ذلك التصميم المتناقض الذى يبديه الرجل العجوز على إغوائنا بالدخول فى لعبته ومع ذلك فهو يبدو عليه وكأنه على استعداد للتخلى عن ذلك .

احسسنا ان كونشيس كان قريباً منا . وانه يتلصص علينا . ألقيت نظرة خلفى نحو جولى . كانت تحملق فى غضب فى الرجل العجوز . وأدركت على

الفور ان هناك شيئًا ما خاطئًا للغاية . بدا الأمر كأننى لم أعد هنالك . قال كونشيس : ماريا تريد بعض الأخشاب من أجل الموقد .

كان صوت جولى حارقا وأقرب الى الطابع الهستيرى وهى تقول : لقد سببت لى صدمة هائلة ! كيف أمكن لك أن تفعل ذلك !

كانت عيناها متسعتين وخاصة حدقة العينين كما لو كانت قد نومت مغناطيسيا بمعرفة كونشيس . بصقت بكلماتها التالية فى وجهه وهى تقول له : انى أكرهك .
- ياعزيزتى . انك فى حالة من التوتر الشديد . اذهبى الآن واستريحى .
- انى أكرهك .

قالت تلك العبارة فى يأس مرير مما جعل ثقتى الجديدة فيها تتحطم مرتطمة بالأرض . ورحت أنتقل ببصرى فى ذعر وهلع شديدين بينها وبين كونشيس محاولاً مشاهدة أى دليل على وقوع تصادم . نشبت معركة قصيرة من الارادات فوق رأسى . ثم استدارت فجأة وأخذت بسرعة فنجان الشاى الموجود أمامى وقذفته على وجهى . وكان الشاى باردا تقريبا ولكن الحركة التى قامت بها كانت مليئة بالضغينة الرهيبة . فاجأتنى تماما بهذه الحركة . وواصلت سيرها على الفور . ونادى كونشيس فى حدة : جولى !

توقفت عند الطرف الشرقى من صف الأعمدة وظلت تنظر فى استياء إلينا قال : أنت تتصرفين مثل طفلة مدللة . وهذا أمر لا يمكن غفرانه .

ولم تتحرك فاتخذ كونشيس خطوات قليلة نحوها وتحدث بصوت منخفض ولكننى سمعت كلماته : قد تظهر الممثلات قدرا من الحساسية البالغة . ولكن ليس أمام المتفرجين الأبرياء . الآن اذهبى واعتذرى لضيفنا .

أصابها التردد ودارت حول نفسها ، ثم عادت نحوى . كانت وجنتاها محتقنتين باللون الأحمر بعض الشىء . بينما عيناها تتجنبان النظر الى عينى . راحت تحملق فى الأرض . فرحت أمعن النظر فى وجهها . نظرت فى يأس خلفها ، نحو كونشيس :
- لقد سببت لنا صدمة كبيرة .

رفع يده نحوى على نحو يفيد بأنه يرغب فى تهدئة الموقف ثم تكلم

مخاطبا ظهرها : نحن فى انتظار اعتذارك ياجولى ثم فجأة انصبت عيناها على عينى ، وقالت : وأكرهك أنت أيضا .

كان صوتها شرساً كصوت طفلة مدللة . ولكن جفن عينها اليمنى رفرف على نحو رائع واعجازى أو هكذا بدا الأمر لى : كان علىَّ ألا أصدق كلمة واحدة من كل هذا المشهد الصغير . ووجدت صعوبة فى الاحجام عن الضحك . كانت قد استدارت وشرعت فى السير متخطية المكان الذى يقف فيه العجوز . فمد يده لكى يوقفها ولكنها أزاحت يده على جانب فى غضب وجرت هابطة السلم . وبعد أن قطعت مسافة عشرين ياردة تقريبا توقفت عن الجرى ورفعت يديها إلى وجهها كأنها كانت تشعر بنوع من الرعب الداخلى ، التفت كونشيس نحوى وابتسم فى وجهى الذى ظهرت عليه دلائل الاهتمام والقلق : عليك ألا تأخذ نوبة الغضب تلك مأخذ الجد . فهناك جزء من كيانها يكون دائما على حافة اتخاذ سلوك ارتدادى بشكل حاد .

- كان باستطاعتها أن تستغفلنى وتخدعنى .
- ودت أن تبين كم أنا طاغية مستبد .

قلت : لا يهمنى إلقاء الشاى على وجهى . لكن كل ما يهمنى أنك أخبرتها أننى مصاب بمرض الزهرى . بينما أنت تعرف كل الحقائق عن ذلك الموضوع .

ابتسم وقال : من المؤكد أنك خمنت السبب فى قولى لها ذلك .

- لم أعرف سبب ذلك حتى الآن .
- لقد أخبرتها أيضا أنك تقابلت مع صديقتك فى الأسبوع الماضى . وربما يكون ذلك هو المفتاح ؟

من المؤكد أنه قد أدرك من خلال التعبيرات التى ظهرت على وجهى أن ذلك لم يكن هو المفتاح . فأصابه التردد . ثم قال : تعالى . سوف أشرح لك .

انطلقنا عائدين فى اتجاه البوابة ، قال : انها تعرف أن فتاة أخرى فى حياتك . وإنك ربما لا تكون شابا مرغوبا فيه على النحو الذى تبدو عليه من أول نظرة . بالاضافة إلى أن المصابين بالفصام غير مستقرين عاطفيا على النحو الذى شاهدته توا . وأنا أدرك أن باستطاعتى أن أثق فيك من حيث إنك لن تحقق انتصارا جنسيا على فتاة مريضة كهذه الفتاة . ولكن اذا ما

تم غرس عقبات أخرى فى ذهنها ، فإن ذلك سيساعد على تسهيل الأمر بالنسبة لك .

أحسست بصوت كالهدير يتصاعد فى داخل كيانى . فتلك الغمزة من عينها جعلت جميع خداعاته جوفاء ، ويمكن التغاضى عنها . كما سمحت لى أن ألجأ ، أنا الآخر ، إلى أعمال الخداع .

ـ وذلك هو السبب ، اننى اضطررت لمقاطعتكما أثناء تحدثكما فى همس وسرية . فهى بحاجة إلى قدر ضئيل من النكسات والمشاكل التى تتطلب التغلب عليها . مثلما أن الناس ذوى الأطراف المكسورة يحتاجون للرياضة والعلاج الطبيعى . ماهو رأيك فيها يانيقولاس ؟

ـ انها تنظر الىَّ بكثير من الارتياب . مثلما أخبرتنى .

ـ هل حاولت أن .... ؟

ـ كنت بصدد البدء فقط .

ـ حسنا . لسوف أختفى تماما غداً . أو على الأقل سوف أجعلها تعتقد فى ذلك . ولسوف يكون أمامك اليوم بأكمله لتقضيه معها فى عزلة واضحة . ولسوف نرى أسلوبها فى التصرف .

ـ كم انا مسرور لأنك تثق فىّ كثيرا . فقام بلمس ذراعى وقال : وأنا أعترف أننى أرغب فى أن أسبب بعض ردود الفعل الزائدة فى داخلها . وهذا سيكون لصالحك . فى حالة اذا ما كانت لديك شكوك متبقية تتعلق بحالتها غير السوية .

أمال رأسه وابتسمت أنا فى داخل عقلى . ووصلنا إلى الشجرة التى يريد تقطيعها إلى أطوال تسمح باستخدامها كوقود . وكان من المقرر أن يحمل هيرميز الكتل الخشبية إلى المنزل . وعلىَّ أن أكوم الكتل فى أكوام بحيث تكون جاهزة لنقلها . انطلق منصرفا بمجرد أن بدأت فى استخدام البلطة فى تقطيع الأخشاب . واستمتعت بعملى . كانت الجذوع الصغيرة جافة وهشة للغاية حتى أنها كانت تتكسر مع الضربة الأولى . وأحسست أن كل ضربة كان لها طابع رمزى . شىء ما أكثر من مجرد خشب يتم تجزئته إلى أطوال قابلة للاستعمال . كنت أشعر أيضا أننى بصدد البدء فى تكويم أسرار بورانى وكونشيس فى أكوام منتظمة ومرتبة . كنت بصدد اكتشاف كل ما يتعلق بجولى . فهى واقفة إلى جانبى . اما هو فيستخدمنا كأشخاص نقوم بتجسيد سخريته من حيث نحن النماذج البشرية التى

يستخدمها فى استكشاف الآراء المضادة . كانت كل أكذوبة بمثابة نوع من الحقائق . وبدأت ـ مثل جولى ــ أتقبل رغبته الأساسية فى مساعدة الآخرين رغم الحيل الخادعة التى تنبع منها الشرور .

على أى حال فهو بالغ الذكاء بحيث لا يمكنه أن يتوقع لنا ألا نشاهد من خلال المظهر السطحى للأقنعة الخاصة به . ومن المؤكد أنه يريدنا أن نشاهد المعنى العميق وراء الأقنعة .

رحت أطوح بالبلطة وأهبط بها تحت شمس ما بعد الظهر مستمتعا بالرياضة البدنية وشاعرا بسيطرتى على الموقف مرة أخرى ومفكرا فى موعد منتصف الليل وفى الغد وفى جولى ، وفى القبلة ، وقد نسيت آليسون تماما وكنت مقتنعا بالانتظار طوال الصيف اذا أراد هو ذلك .

(٤٤)

جاء نحونا فى ضوء المصباح الى المنضدة الموجودة فى الركن الجنوبى الشرقى بالفراندة بالدور العلوى . كان دخولها هذه المرة على النقيض من دخولها أول مرة . فى تلك الليلة التى شاهدتها فيها على أنها ليلى : كانت ترتدى الملابس نفسها علاوة على قدر ضئيل من مكياج تظليل العيون . نهضت أنا وكونشيس واقفين من أجلها . أصابها شىء من التردد وهى واقفة أمامى ثم رمقتنى بنظرة متغيرة ، قائلة : أشعر أننى كنت رهيبة بعد ظهر هذا اليوم . هل ستغفر لى ذلك ؟
ـ انسى هذا الموضوع . انه بالغ البساطة .

ثم حملقت فى كونشيس كما لو كانت تريد أن تعرف ما اذا كانت قد حصلت على موافقته .ابتسم لها وأشار إلى الكرسى الشاغر الموجود بيننا . لكنها وضعت يدها داخل المساحة المغلقة بالزراير فى قميصها واستخرجت غصن ياسمين قائلة :
ـ هدية السلام .

جلست . صب لها كونشيس فنجانا من القهوة بينما أشعلت لها سيجارة . بدا كأنها نالت العقاب اللازم . حرصت على تجنب النظر فى عينى عقب تلك النظرة الأولى . قال كونشيس : كنت أنا ونيقولاس نتناقش فى الامور الدينية .

وكان ذلك صحيحا . فقد أحضر انجيلا إلى المنضدة . ثم شرعنا في الحديث عن الذات الآلهية . حملقت نحو فنجان القهوة وراحت ترتشف . ثم شعرت بضغط خفيف علي قدمي تحت مفرش المنضدة . قال : نيقولاس يقول إنه من أتباع مذهب اللاأدرية . ولكنه أضاف قائلا بعد ذلك إن ذلك الأمر لا يهمه ولا يقلق باله .

لمست الملعقة الصغيرة الموجودة في طبق الفنجان . وقالت : كان ينبغي عليَّ أن أعتقد أنه لا شيء أكثر أهمية من ذلك .

ـ لا شيء أكثر أهمية من الاتجاه نحو أمر لا يمكن أن يعرف جوانبه على الإطلاق ؟ يبدو لي أن ذلك بمثابة مضيعة للوقت . تحسست بقدمي باحثا عن قدمها ، ولكن كانت قد اختفت . التقطت علبة ثقابها التي تركتها على المنضدة بيننا واستخرجت ١٢ عوداً ووضعتها على القماش الأبيض .

ـ ربما أنت خائف من امعان التفكير في الذات الآلهية ؟

لم تكن تبدو على حالتها الطبيعية فأدركت أن هذا كان نوعا من المشهد المعد له مسبقا .. فهي تقول الكلام الذي يود كونشيس أن يقوله : لا يمكن للإنسان أن يمعن التفكير في أمر لا يمكن له أن يعرفه .

ـ ألم تفكر أبداً في الغد ؟ ألم تفكر في السنة القادمة ؟

راحت تعبث بأعواد الثقاب وتدفع بها بأصابعها وتشكل منها نماذج وأشكالاً . ورحت أرقب فمها وتمنيت أن أضع حداً لهذا الحوار البارد ، قالت : باستطاعتي التوصل إلى تنبؤات معقولة عن الذات الآلهية . فمن المؤكد أن الذكاء الإلهي متفوق للغاية على ذكائي . لأنني لا استطيع الحصول على أية مفاتيح أو أية أمور مؤكدة أو أيـة رؤى أو أيـة أسبـاب أو أية دوافع . انه حكيم للغاية . فاذا صليت لله فلن أطلب منه ابداً أن يكشف لي عن ذاته العليا ويتجلى لي . لأنه اذا كشف لي عن ذاته فسأدرك أنه ليس إلها .

ثم ألقت نظرة على كونشيس الذي كان ينظر في اتجاه البحر . اعتقدت أنه ينتظر أن تنتهي من القيام بدورها التمثيلي في هذا الفصل . شاهدت سبابتها تطرق في صمت على المضدة مرتين . ورفرفت عيناها مرة أخرى على كونشيس . ثم عادت ونظرت إليَّ . فنظرت لأسفل . لقد كانت قد وضعت عودين من الكبريت في وضع مائل على بعضهما . ثم دفعت بأعواد

الكبريت وكونت منها كومة صغيرة وانحنت للوراء بعيداً عن دائرة الضوء الصادرة عن المصباح والتفتت نحو كونشيس وقالت :

ـ انك ملتزم بالصمت الشديد ياموريس . أليس كذلك ؟

فابتسم كونشيس لى وقال : اننى أتعاطف معك وأشاركك المشاعر يانيقولاس . ولقد كانت مشاعرى متماثلة مع مشاعرك عندما كنت أكبر منك سنا وأكثر خبرة مما أنت عليه الآن . فلا أحد منا لديه الخاصية البشرية الحدسية الموجودة لدى النساء . ولذلك فلا لوم علينا . ولكنى بعدئذ مررت بتجربة جعلتنى أفهم ما قالته لك جولى تواً . أعتقد أنها تدرك أن كافة التعريفات العميقة للذات الآلهية هى تعريفات تتعلق بمنح الأشياء . لأن الغريزة الدينية هى فى حقيقة الأمر الغريزة التى تحدد ما يعطى مع كل موقف .

واستند بظهره إلى الوراء فى مقعده وأكمل : أعتقد أننى أخبرتك أننى كنت بالخارج عندما قام التاريخ الحديث ـ لأن السائق كان يمثل الديموقراطية والمساواة والتقدم ـ بضرب دوكانز وتحطيمه فى عام ١٩٢٢ . كنت فى أقصى شمال النرويج بحثا عن أصوات الطيور . ولعلك تعرف أن اعدادا لا حصر لها من الطيور النادرة تعيش بالمنطقة القطبية الشمالية . اننى إنسان سعيد الحظ . وأنا من النوع الذى يندفع إلى العمل فى حماس . وكنت فى ذلك الوقت قد طبعت ونشرت بحثين عن رموز صيحات الطيور وبدأت فى مراسلة أساتذة كبار . ولذلك ، ففى صيف عام ١٩٢٢ سافرت إلى المنطقة القطبية الشمالية لكى أقضى بها ثلاثة شهور .

تحركت جولى فى جلستها قليلا فشعرت بضغط خفيف على قدمى مرة أخرى . ضغط عار ولين للغاية . كنت ألبس صندلا فى قدمى ودون أن ألفت انتباه كونشيس ضَغطت على كعب الصندل فى قدمى اليسرى إلى أن تحرر كعبى فشعرت باصبع قدم عار ينزلق لأسفل على جانب قدمى وتقوست أصابع قدمها وراحت تربت علىّ الجزء العلوى من أصابعى . كانت حركة بريئة تتسم بطابع الشهوة الجنسية . حاولت أن أصعد بقدمى على قدمها ولكن الضغط فى هذه المرة كان به شىء من التوبيخ . كان باستطاعتنا أن نظل متلامسين .

اكمل كونشيس : وأثناء اتجاهى الى الشمال حدثنى أستاذ بجامعة

أوسلو عن فلاح متعلم يعيش فى قلب الغابات التى تمتد من النرويج وفنلندا إلى داخل روسيا . ويبدو أن ذلك الرجل كان لديه بعض المعلومات عن الطيور . وكان بالغابة أنواع نادرة من الطيور التى أرغب فى سماع أصواتها . لذلك قررت أن أقوم بزيارة ذلك الفلاح .

كان هذا الفلاح رجلاً ضئيل الجسم وله عينان مليئتان بالحيوية . ويبلغ من العمر خمسين عاما . قام هو بقراءة خطاب التوصية الذى سلمته له . ومعه امرأته التى تصغره بخمس سنوات . وقد وقفت وراءه . كانت ذات وجه قاس لكنه لافت للنظر . ورغم أننى لم أفهم الكلام الذى دار بينها وبين الفلاح الاّ أننى أدركت أنها لا ترغب لى أن أقيم فى ذلك المكان . ولاحظت أنها تتجاهل الرجلين الآخرين اللذين جاءا معى ليجدفا الزورق نيابة عنى . وعلى كل حال فقد رحب بى الفلاح . كان يتكلم اللغة الانجليزية بطريقة سليمة .

اما المرأة ـ كما كنت أتوقع ـ فلم تكن زوجته . وانما زوجة أخيه . وكان لها طفلان . وكلاهما فى مرحلة المراهقة . لم يكن الطفلان ولا أمهما يعرفون اللغة الانجليزية . ودون أن تظهر المرأة لى وقاحتها ، فانها أوضحت لى فى صمت أن وجودى معهم هناك كان ضد رغبتها . ولكننى أنا وجوستاف نيجارد شعرنا بالارتياح من أول نظرة . أرانى كتبه عن الطيور كما أرانى مذكراته عنها . كان رجلا متحمسا .

بالطبع كان من أوائل الأسئلة التى وجهتها اليه تتعلق بأخيه . قال إنه غادر المكان منذ سنوات عديدة .

كان منزل هذا الفلاح صغيرا للغاية فتم اخلاء مكان فى الصندرة التى بها علف الماشية والتى تقع فوق حظيرة الماشية من أجل وضع السرير الخاص بى . كنت أتناول الوجبات مع أفراد هذه الأسرة . وكان نيجارد يتحدث معى فقط . أما زوجة أخيه فلم تكن تتكلم مثل ابنتها . اما شقيق الفتاة فكان يتمنى المشاركة فى الحديث ولكن عمه لم يكن يهتم بترجمة الكلام الذى نقوله . وفى الأيام الأولى لم يشكل هذا المكان أهمية بالنسبة لى ؛ لأن جمال الطبيعة وامتلاءها بالطيور النادرة قد سيطر على كل مشاعرى . وقضيت ايامى فى الاصغاء إلى البط والأوز النادر والبجع البرى الموجود بكثرة فى جميع البحيرات المنتشرة على طول الشاطىء .

انه مكان تتفوق فيه الطبيعة فى انتصار على الإنسان . انه لأمر عاطفى للغاية أن يتحدث المرء عن مناظر طبيعية ويقول عنها إن لها روحا ، كان المكان يتمتع بشخصية أقوى من شخصية أى مكان آخر سبق أن شاهدته فى حياتى . فهو مكان لا يشكل فيه الإنسان أهمية فى هذا المكان . فالنهر زاخر بأسماك السلمون وغير ذلك من أنواع الأسماك الأخرى وكانت فترة الصيف طويلة ودافئة على نحو يكفى لزراعة البطاطس . ورغم شعورى بالخوف من العزلة الشديدة لدى وصولى إلى هذه المزرعة لأول مرة فاننى أدركت خلال ثلاثة أيام أننى وقعت فى غرام ذلك المكان . بل وأحببت بالدرجة الأولى ذلك الصمت الشديد الذى يسوده . فالاصوات التى تشبه الطرطشة لدى إلقاء بطة بنفسها على سطح الماء وصرخات طيور العقاب التى تترامى عبر أميال فى وضوح لا يمكن تصديقها وبعدئذ تترامى فى غموض ، كانت تجعل الصمت والهدوء أكثر حدة شأن الصراخ فى منزل شاغر . ولذلك بدت الأصوات كأنها تحدد الصمت وتميزه وتبرز معالمه وليس العكس .

أعتقد أننى اكتشفت فى اليوم الثالث من وجودى سرهم . ففى صباح اليوم الأول حدد نيجارد مساحة صغيرة من الأرض مغطاة بأشجار طويلة ممتدة كاللسان داخل النهر وطلب منى عدم الذهاب إلى تلك المساحة من الأرض . وأوضح لى أنه قد علق هناك العديد من الصناديق التى تشبه عش الطيور وشيد بذلك مستعمرة مزدهرة للبلقشة البيضاء (نوع من البط) البط الذهبى العينين ولا يريد أن يسبب ازعاجا لهذه الطيور . فوافقته على رأيه .

كان نيجارد يكره الجلوس فى غرفة واحدة معى أثناء وجود الولد والفتاة فى نفس الوقت ؛ اذ كان صمتهما الملىء بالاستنكار يسبب له الضيق . لذلك اعتاد أن يجيىء معى عندما أذهب إلى "غرفة نومى" الموجودة فوق حظيرة الماشية لكى يدخن غليونه ويتحدث معى . وفى ذلك المساء أخبرته أننى شاهدت ابنة أخيه ذاهبة إلى ذلك المكان وقد حملت معها طعاما وشراباً . وسألته عمّن يكون هو ذلك الشخص الذى يسكن فى ذلك المكان . فلم يبذل أية جهود فى إخفاء الحقيقة . إذ اعترف لى أن أخاه يعيش هنالك . وقال إن أخاه مجنون .

تساءلت عما اذا كان هناك طبيب كشف عليه لتشخيص حالته . فهز

نيجارد رأسه كما لو كان رأيه فى الاطباء لا يتسم بالثقة الكبيرة فى مثل هذه الحالة على الأقل . قال : أعتقد أننا جميعا نعانى من الجنون فى هذا المكان . ثم انصرف . الا أنه عاد مرة أخرى بعد دقائق قليلة . وأحضر معه زكيبة صغيرة . وهزها مخرجا محتوياتها على سريرى . فشاهدت زبالة تتكون من حجارة شديدة الصلابة وشقافة من آنية فخارية بدائية عليها أشرطة زخرفية محفورة بالحفر الداخلى . وأدركت أننى أنظر إلى مجموعة من الأدوات التى كانت مستخدمة فى العصر الحجرى . فسألته عن المكان الذى عثر فيه على هذه الأشياء فقال إنه عثر عليها فى سايديفارى .

وكانت المزرعة عبارة عن مأوى صيفى لصيد الطيور والحيوانات والأسماك ولقد قام والده ببناء ذلك البيت الصغير . وكان والده قسيسا وقد تمكن من خلال زواج سعيد الحصول على قدر كبير من الأموال مما مكنه من اطلاق العنان لتحقيق مصالحه المتعددة . وكان دارساً يتمتع بشهرة محلية . ويعشق العودة إلى الحياة البدائية . كان ابناه قد ثارا ضد النواحى الدينية فى حياته . فاتجه الأكبر هنريك إلى البحر . أما جوستاف فقد اتجه إلى الطب البيطرى . وعندما مات الأب ترك كل ثروته للكنيسة . وتقابل هنريك مع راجنا وتزوجها وذلك أثناء اقامته مع جوستاف الذى كان قد بدأ فى ذلك الوقت يتدرب ويمارس أعماله فى تروندهايم . وسرعان ما تعرض لأزمة عصبية عقب زواجه فتوقف عن أعماله كمهندس فى شئون السفن وعاش متقاعدا فى سايديفارى .

ثم سارت الأمور على مايرام ، لكن سلوكه وتصرفاته أصبحت بعد ذلك غريبة . وأخيرا قامت راجنا بتحرير خطاب لجوستاف . وما إن قرأه حتى بادر بالعودة . واكتشف أنها قامت بمفردها بتسيير شئون المزرعة . وبرعاية طفليها الصغيرين . فبدأ يرعى شئون المزرعة ويرعى أسرة أخيه .

وقال : "لم يكن هناك بديل آخر أمامى" . كنت قد شككت أن سبب ذلك هو التوتر بينهما . فقد كان يحب راجنا . فأصبحا منغلقين على بعضهما البعض على نحو أكثر مما ينبغى ـ فى حالة من الحب غير المتبادل من جانبه وفى حالة من الوفاء التام من جانبها .

عرفت أن أخاه اعتاد الذهاب الى سايديفارى لقضاء فترات قصيرة فى "التأمل" . ثم عاش على مدى ١٢ عاما معتزلا الناس . ولم يعد قط إلى

المزرعة . وفى خلال العامين الأخيرين لم يتبادل الأخوان كلمات تزيد على مائة كلمة . ولم تقترب راجنا منه على الإطلاق . وكان هو بالطبع معتمدا فى جميع احتياجاته عليهم خاصة منذ أن أصبح بصره ضعيفا . ولم يعد يدرك تماما ما يفعلونه من أجله . كان ينظر إلى ذلك على انه نعمة هبطت عليه من السماء .

وجدت نفسى مهتما أكثر بهؤلاء الأربعة أكثر من اهتمامى بالطيور . نظرت إلى راجنا وظننت أننى شاهدت فى داخلها بعداً تراجيديا . كان لها عينان جامدتان وسوداوان . وشعرت بالأسف من أجل الطفلين . فقد تربيا - على مزرعة استنباتية ذات طابع اكتئابى دون أن تكون هناك مقدرة على الهروب من الموقف على الاطلاق . ودون أن يكون هناك جيران على مسافة عشرين ميلاً . بل ولا توجد أية قرية على بعد خمسين ميلاً . وأدركت سبب ترحيب جوستاف بوصولى . فقد احتفظ بسلامة صحته العقلية وبمقدرته على الإدراك بطريقة سليمة . وبالطبع تكمن حماقته القصوى فى حبه المشئوم لزوجة أخيه وهو حب فرضته على الأقدار .

ومثل جميع الشبان رأيت نفسى كشخص يجد حلاً للمواقف المعقدة الصعبة . وكانت لدى خبرتى الطبية . سرعان ما تعرفت على الأعراض المرضية المتزامنة . وبدا الأمر واضحا لى تماما مثل سلوك الطيور التى كنت أرقبها كل يوم . وما إن انكشف السر حتى أصبح جوستاف غير راغب فى الحديث فى هذا الموضوع . وفى مساء اليوم التالى راح يخبرنى بالمزيد من المعلومات التى أكدت التشخيص الذى توصلت اليه .

كان هنريك من أنصار القسوة . وكان يؤمن أنه قد اختير لكى تتم معاقبة جسده وتعذيبه . ولكى يفنى شبابه فى المراكب المليئة بالأجواء الكريهة ولكى تنتزع جنته من بين يديه عندما يصل إلى مرحلة الاستمتاع بها . ولم يكن بمقدوره مشاهدة الحقيقة الموضوعية . بأن لا شىء ظالم بالنسبة للجميع وإن كان هناك العديد من الأشياء التى قد تكون ظالمة بالنسبة لكل فرد . وظل هذا الاحساس بالظلم كامنا داخل كيانه . فرفض الذهاب للمستشفى لاجراء فحوص على عينيه . وأصبح يتفجر بالانفعالات فتحرقت روحه فى داخله وأحرقته فى آن واحد . ولم يعد يذهب إلى سايديفارى لكى يتأمل . وانما لكى يتفجر بمشاعر الكراهيه .

ومما لاشك فيه أننى كنت متلهفا لإلقاء نظرة على هذا الرجل المجنون المتدين . ولم يكن ذلك بدافع من حب الاستطلاع الطبى على الاطلاق فقد بدأت أشعر بالارتياح ازاء جوستاف إلى حد بعيد . ولقد حاولت أن أشرح له جوانب من علم الطب النفسي . لكنه لم يظهر اهتماما به . كل ما قاله أنه من الأفضل لأخيه المجنون أن يترك وشأنه . فوعدته بأننى لن أزور ذلك اللسان من الأرض الناتيء فى داخل النهر . وانتهى الموقف عند هذا الحد .

وفى احدى الأيام العاصفة . كنت قد توغلت لمسافة أربعة أميال على طول النهر فسمعت شخصا ما ينادى علىَّ باسمى . انه جوستاف . وكان فوق زورقه . فخرجت من بين الأشجار وقام هو بالتجديف فى اتجاهى . واعتقدت أنه ينشر الشباك لاصطياد السمك . ولكننى اكتشفت أنه جاء خصيصا للبحث عنى . فقد كان يريدنى أن ألقى نظرة على أخيه . وكان علينا أن نظل مختبئين ونرقبه سراً كأنه طائر . وأوضح لى جوستاف أن الوقت ملائم لإلقاء نظرة على أخيه هنريك لأنه أصبح يتمتع بحاسة سمع قوية للغاية شأن العديد من الناس الذين يصابون بضعف شديد فى البصر ولذلك فان الرياح العاصفة ستكون فى صالحنا لأنه لن يحس بمقدمنا .

قفزت إلى القارب ورحنا نجدف نحو شاطيء صغير قريب من نهاية اللسان . كانت زيارة كوخه فى هذه الحالة تتسم بالأمان بالنسبة لنا . شققنا طريقنا بين الأشجار حتى وصلنا الى الكوخ العجيب . كان الكوخ غائرا فى الأرض . فلم يظهر منه سوى ثلاثة جوانب فقط . أما فى الجانب الرابع فكان يوجد باب ونافذة صغيرة .

أشار جوستاف بأن أدخل إلى الكوخ فى حين يبقى هو ليراقب الموقف من الخارج . كان الكوخ عاريا من الأثاث مثل صومعة الناسك . الا من سرير منخفض ومنضدة غير أنيقة . وعلبة بها مجموعة من الشموع . ولا شيء من وسائل الراحة سوى موقد قديم . لم تكن هناك سجاجيد أو ستائر . وكانت المساحات التى يعيش فيها فى داخل الغرفة نظيفة بعض الشيء . ولكن أركان الغرفة كانت مليئة بالفضلات . والى جوار النافذة الوحيدة الصغيرة يوجد انجيل ضخم . ونظارة مكبرة وبركة من الشمع المذاب .

عندما تركنا الكوخ ، سرنا فى حذر نحو لسان الأرض الممتد فى داخل مياه النهر . كانت هناك صخرة جلمودية طويلة شكلتها الرياح والصقيع بهذا الشكل البديع . وأشار جوستاف بيده . كان هناك رجل يقف على مسافة خمسين ياردة عند الجانب البعيد من أشجار البتولا وكان متواريا عن لسان الأرض الناتىء فى مياه النهر . ركزت نظارتى عليه . انه أطول من جوستاف . التفت بطريق المصادفة نحونا فتمكنت من مشاهدة وجهه النحيل . والذى أدهشنى هو تلك الشراسة والوحشية التى كانت تبدو على وجهه . قسوة تكاد تصل إلى حد الوحشية . لم يسبق لى أن شاهدت فى حياتى وجها قد عبر عن مثل هذا التصميم العنيف بألا يتصالح أبداً أو حتى يبتسم . وكان لعينيه لون أزرق بارد على نحو مذهل للغاية . عينا رجل مجنون بدون أدنى شك . وكان بمقدورى مشاهدة كل ذلك حتى وأنا على مسافة خمسين ياردة . كان يرتدى ثوبا واسعا فضفاضا قديما له ضفائر حمراء باهتة عند الأطراف .

رحت أرقب هذه العينة النادرة من البشر . توقعت أن أشاهد مخلوقا متلصصا متخفيا . مخلوقا يتمتم ويهمهم لنفسه لدى زحفه بين الأشجار . وليس هذا الصقر البشرى المتوحش الضعيف البصر . لكزنى جوستاف بيده مرة أخرى لكى يلفت نظرى . لقد ظهر ابن أخيه بالقرب من اللسان الناتىء فى مياه النهر وقد حمل معه جردلا ووعاء لبن . وضعهما على الأرض ثم التقط الجردل الشاغر الآخر الذى وضعه هنريك بالتأكيد هنالك . ثم نظر فيما حوله . وصاح بكلمات باللغة النرويجية . بصوت غير مرتفع للغاية . كان من الواضح أنه يعرف المكان الذى يقف فيه والده لأنه كان يواجه مجموعة أشجار البتولا . ثم قفل راجعاً بين الأشجار . وبعد خمس دقائق بدأ هنريك فى السير فى اتجاه اللسان الناتىء فى النهر . كان يمشى فى ثقة تامة ولكنه كان يتحسس طريقه باستخدام عكازه . ثم التقط الجردل وصفيحة اللبن ووضع عكازه تحت ذراعه واستأنف سيره عائدا على المدق فى اتجاه الكوخ . وبمجرد أن تخطى المكان الذى نقف فيه وقف وأدار وجهه لأعلى نحو السماء . ثم راح يصغى الى اصوات الطيور كما لو كان ذلك بمثابة الاشارات الأولى الصادرة عن المبشرين الذين يبلغونه بأن الزيارة العظمى أصبحت على وشك أن تتم .

ثم توارى عن الأنظار وعدت إلى المزرعة مع جوستاف . لم أكن أعرف

ما ينبغى أن أقوله . لم أرغب فى أن أتسبب له فى الإحباط . ولا أن أعترف بالهزيمة . قررت أن أقوم بزيارة هنريك بمفردى . وأخبره أننى طبيب يرغب فى إلقاء نظرة على عينيه لكى أتفحصها . وأثناء النظر فى عينيه أقوم بالنظر فى داخل عقله .

ووصلت إلى باب كوخ هنريك فى الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم التالى . كانت الدنيا تمطر فى رذاذ خفيف . طرقت على باب الكوخ . ظهر مرتديا نفس الملابس التى كان يرتديها فى مساء اليوم السابق . وعندما واجهته عن كثب شديد ذهلت من تلك الوحشية التى تبدو على وجهه . كان من الصعب أن أصدق أنه يكاد يكون كفيفا حيث كانت توجد فى عينيه زرقة شاحبة محملقة . لكننى أدركت وأنا قريب منه أن حملقته ضعيفة التركيز للغاية . من المؤكد أنه قد أصيب بصدمة هائلة لدى إدراكه لوجودى أمامه ولكن لم تظهر عليه دلائل تشير إلى ذلك . سألته عما اذا كان يعرف اللغة الانجليزية ـ وكنت أعرف مقدما أنه يعرف اللغة الانجليزية . كنت أريده أن يجيبنى على تساؤلى . اكتفى بأن رفع عكازه لأعلى كما لو كان يريد أن يوقفنى عند حدى . كانت حركة تنبيه أكثر مما هى حركة تهديد . فهمت أنه يمكن لى الاستمرار فى وجودى بشرط أن أحتفظ بمسافة بينى وبينه .

أوضحت له أننى طبيب . وأننى مهتم بالطيور وأننى جئت إلى سايديفارى لكى أدرس الطيور .... الخ . وكنت أتكلم فى بطء شديد واضعا فى الاعتبار أنه ربما لم يسمع لغة انجليزية على مدى ١٥ عاما وراح يصغى إلىَّ بدون أن تظهر عليه آية تعبيرات فبدأت أتحدث معه عن وسائل الطب الحديث فى علاج مياه العيون . كنت متأكدا أنه اذا ذهب إلى أى مستشفى فانه يمكن أن يتم عمل أى علاج له . وطوال فترة كلامى معه لم ينطق بكلمة واحدة . ثم التزمت أنا الآخر الصمت .

استدار ءئدا إلى داخل كوخه . وترك الباب مفتوحا . لذلك ظللت منتظرا وفجأة ظهر مرة أخرى . كان ممسكا ببلطة طويلة . أدركت على الفور أنه لا يفكر فى قطع أخشاب وانما يفكر فى الدخول فى معركة معى . وتردد للحظات ثم اندفع نحوى ملوحا بالبلطة . ولو لم يكن هو قريباً من العمى لكان قد تمكن من قتلى . انغرست رأس البلطة فى عمق فى الترمبة . وأمضى لحظات قليلة فى انتزاعها مما أعطانى الحرية فى الهرب .

وانطلق متعثرا ورائى عبر المساحة التى أمام الكوخ . وجريت لمسافة ثلاثين ياردة تقريبا داخل الأشجار ولكنه توقف عند أول شجرة صادفته . ربما لم يكن بمقدوره أن يفرق بينى وبين جذع شجرة . وقف رافعا البلطة فى يديه وراح يدقق النظر . من المؤكد أنه كان يدرك أننى أرقبه من على مسافة ما . لأنه قد استدار فجأة وهبط بالبلطة بكل قوته على شجرة فضية اللون تقع أمامه مباشرة ، اهتزت من قمتها إلى أسفلها مع قوة الضربة . وتلك كانت هى إجابته . كنت خائفا للغاية بسبب عنف هذا الرجل حتى أننى لم أستطع أن أتحرك من مكانى . حملق للحظات بين الأشجار نحو المكان الذى أقف فيه ثم استدار بعدئذ وسار إلى كوخه تاركا البلطة فى المكان الذى انغرست فيه .

عدت إلى المزرعة . بدا لى أنه من غير المعقول للغاية أن يرفض رجل الطب والعلاج والعقل والحكمة والعلم فى مثل هذا العنف الشديد . ولكننى شعرت أن هذا الرجل كان على استعداد لأن يرفض أى شىء آخر أيضاً مقدم من جهتى حتى ولو كان ذلك الشىء له طابع المتعة أو الموسيقى أو الحكمة أو العلاج . كان على استعداد لأن يشق ببلطته جمجمة حضارتنا التى تنزع إلى المتعة وإلى العلم وإلى التحليل النفسانى . فكل هذا بالنسبة له لم يكن هو اللقاء العظيم . وانما هو ذلك الشىء الذى يطلق عليه البوذيون اسم "السير العقيم وراء توافه الأمور" . وبالطبع كان الاهتمام بالعمى الذى يزحف على عينيه من الأمور العقيمة البالغة التفاهة بالنسبة لرأيه . كان يريد أن يكون ضريراً . على أساس أن هذا يتيح له احتمالات أكثر بأن يبصر ذات يوم .

وكان من المقرر أن أغادر المزرعة بعد ذلك بأيام قليلة . وفى آخر ليلة لى بالمزرعة ظل جوستاف يتحدث معى لفترة متأخرة من الليل . لم أكن قد قصصت له عن زيارتى تلك التى قمت بها بمفردى لأخيه . وكانت تلك الليلة الأخيرة لى بالمزرعة . بدأ الجو يميل إلى البرودة الشديدة . ذهبت إلى خارج الحظيرة لكى أتبول بعد أن انصرف جوستاف . كان القمر ساطعا . ولكن فى واحدة من تلك السماوات الصيفية المتأخرة لأقصى الشمال عندما يتسكع النهار ويمتد متوغلا حتى تحت جنح الظلام فتصبح للسماء أعماق غريبة . سمعت صيحة مترامية عبر الماء آتية من لسان الأرض الناتىء فى الماء . اعتقدت للوهلة الأولى أنها ربما تكون صيحة طائر

ولكننى أدركت بعد ذلك أنها صيحة هنريك بكل تأكيد . نظرت فى اتجاه المزرعة وشاهدت جوستاف يتوقف عن المشى . وترامت صرخة أخرى . صرخة شخص ما ينادى على شىء ما يقع على مسافة بعيدة . سرت عبر الأعشاب إلى جوستاف وتساءلت : "هل هو واقع فى متاعب" ؟ فهز رأسه وظل محملقا للخارج فى الظلام عبر المياه الرمادية . تساءلت مرة أخرى .. "ما معنى الكلام الذى ينادى به" ؟ فقال جوستاف : المعنى هو ، هل تسمعنى ؟ إننى موجود هنا . ثم ترامت الصحيتان مرة أخرى مع وجود فترة زمنية قصيرة بينهما واستطعت أن أتبين الكلمات النرويجية . لقد كان هنريك ينادى على الله .

اخبرتكما أن الأصوات تترامى إلى مسافات بعيدة فى منطقة سايديفارى . ففى كل مرة كان ينادى فيها كانت الصيحة تبدو كأنها تمتد لمسافات لا نهائية عبر الغابات وفوق سطح المياه ومتجهة إلى النجوم . وبعدئذ يعقبها أصداء الصوت . وترامت ضوضاء من جهة المزرعة الموجودة خلفنا . فنظرت لأعلى فشادت هيكلا أبيض اللون عند احدى النوافذ العلوية . ولم أستطع أن أتبين ما إذا كان ذلك الهيكل هو راجنا أو ابنتها . وبدا الأمر كأننا جميعا قد أصابنا مس من السحر والشعوذة والافتتان حيث كنا مشدوهين فى صمت .

ولكى أكسر حدة الصمت رحت أوجه الأسئلة لجوستاف . هل هو كثيراً ما ينادى على هذا النحو ؟ فأوضح لى أنه لا يكثر من هذه النداءات . فهو ينادى فى حدود ثلاث أو أربع مرات سنويا عندما لا تكون هناك رياح عاصفة وعندما يكون القمر بدراً . هل سبق له أن صاح بعبارات أخرى ؟ فراح جوستاف يفكر فى امعان ثم قال : نعم . فقد قال ذات مرة عبارة : اننى فى حالة انتظار . وأيضا عبارة : اننى متطهر . وكذلك عبارة : اننى على أهبة الاستعداد .

التفت إلى جوستاف وسألته عما اذا كان باستطاعتنا أن نذهب مجدداً الى هنريك لنشاهد الأشياء التى يفعلها . فأومأ برأسه موافقا ثم انطلقنا معا . ووصلنا إلى قاعدة اللسان الممتد فى النهر . وكنا نسمع صيحاته ونداءاته من وقت لآخر . وشققنا طريقنا فى اتجاه نهاية اللسان الممتد فى الماء . وأخيرا دخلنا بين الأشجار . كان هنريك واقفا على نفس خط التقاء

الاشجار بالماء وعلى مسافة قدم واحدة من الماء . كان ينظر نحو الاتجاه الشمالى الشرقي وهو الاتجاه الذى يتسع عنده النهر . وكان ضوء القمر يغطى ذلك الاتجاه فى لمعان حريرى رمادى . وهنالك فى وسط مجرى النهر كانت هناك سلاسل من الضباب الطويل المنخفض . وبينما كنا نرقب نادى هنريك صارخا مرة أخرى . فركزت نظارتى عليه . كان يقف منفرج الساقين وقد أمسك بعصاه فى يده وعلى نحو إنجيلى مقدس . كان الصمت سائداً . ثم سمعنا هنريك يقول كلمة واحدة . بصوت هادىء نسبيا . وهى كلمة نرويجية تعنى : شكراً . ظللت أرقبه . رجع خطوة إلى الوراء بعيداً عن الماء . ثم ركع ارضا . وسمعنا صوت الحجارة لدى تحركه فوقها . كان لا يزال متجها نحو نفس الاتجاه . لم يكن يصلى . وانما كان فى حالة تأمل . هناك شىء ما قريب منه يراه فى وضوح . كنت على استعداد لأن أضحى بعشر سنوات من عمرى فى سبيل أن أتمكن من النظر الى جهة الشمال من خلال ما يدور فى داخل علقه . لم أكن أعرف الشىء الذى يشاهده ولكنى كنت أدرك أنه شىء له قوة وأسرار هائلة على نحو يقدم تفسيرا لكل الأمور . وبالطبع هبط على ذهنى فجأة السر الخاص بهنريك على نحو يكاد يشبه انعكاسات التنوير التى سطعت عليه . أنه لم يكن منتظرا مقابلة الرب . بل كان مندمجا فعلا فى لقاء خاص به .

وحتى هذه النقطة من حياتى ستدركان أن تناولى للموضوع بأكمله كان يتسم بالطابع العلمى والطبى . كنت أبحث فى علاقة علم الطيور وأصواتها بالإنسان . وكنت أركز على دراسة العينات . وهنا ولأول مرة فى حياتى كنت غير واثق من المعايير الخاصة بى وبمعتقداتى وبتحيزاتى . وأدركت أن ذلك الرجل الموجود عند حافة الماء كان يمر بتجربة تند عن مجال كل خبراتى فى الحياة وكل ما أتمتع به من عقل وحكمة وأدركت أن ما لدى من معرفة سيكون دائما فى حالة من الخلل والنقصان إلى أن أتمكن من فهم ما يدور فى عقل هنريك على وجه الدقة . وكنت أدرك أن هنريك يشاهد عمودا من النيران فوق المياه وكنت أعرف أنه لا يوجد هناك عمود من النيران فوق المياه وأن ذلك معناه أن عمود النيران كان موجوداً فى داخل ذهن هنريك .

وفى ومضة خاطفة اتضح لى فجأة أن كل التفسيرات التى نقوم بها وكل الاشتقاقات التى نقوم بها وكل علوم أسباب الأمراض التى نتمسك بها بمثابة شبكة رفيعة . وخطر على ذهنى أن ذلك الوحش السلبى الهائل لم

يعد ميتا ، ومن السهل التعامل معه ، اذ كان مليئا بقوة غامضة وباشكال جديدة وكانت الشبكة عديمة القيمة حيث كانت الحقيقة تحدث تفجيرات داخل الشبكة . وربما تناقل شيء ما تخاطرى الطابع بينى وبين هنريك لست أدرى على وجه الدقة .

تلك العبارة البسيطة كانت هى عمود نيرانى . كشفت عن عالم يقع إلى ما وراء العالم الذى أعيش فيه . لقد خلقت تواضعا جديداً مماثلا للوحشية . وهى بالنسبة لى بمثابة سرّ عميق ، انها بالنسبة لىّ إحساس بتفاهة أشياء كثيرة يعتبرها العصر الذى نعيش فيه من الأشياء المهمة . أنا لا أقول انه ينبغى علىّ أن أصل إلى مثل هذا التّبصُّر ذات يوم . ولكننى فى تلك الليلة اختصرت ١٢ عاما .

وبعد فترة قصيرة شاهدنا هنريك يسير عائدا إلى داخل الأشجار . لم أتمكن من مشاهدة وجهه . لكننى أعتقد أن الوحشية التى ظهرت على وجهه فى ضوء النهار نجمت عن اتصاله بعمود النيران . فالحياة هى رغبة لا نهائية فى الحصول على المزيد . وهذا ينطبق على أكثر الناس تعلقا بالمادية وينطبق على أكثر الصوفيين سُموًّا . أنا متأكد تماما من شىء واحد . وهو اذا كان لا يزال يفتقر إلى الله فإنه قد وصل إلى الروح القُدُسْ .

وفى اليوم التالى غادرتُ المكان . وودعتُ راجنا . وأعتقد أنها قد اكتشفت سر زوجها وأدركت أن أية محاولة نحو العلاج ستؤدى إلى موته . اصطحبنى جوستاف وابن أخيه فى زورق ، وراحا يجدفان إلى أن وصلنا إلى المزرعة التالية . وتواعدنا أن نتراسل بالخطابات .

(٤٠)

رمقتنى جولى بنظرة كما لو كانت تتساءل فى صمت عما إذا كان هذا لا يبرهن أننا فى أيد أمينة . توقعت أن أشاهد عمودا من النيران يتصاعد بين الأشجار ، سألت : ألم ترجع إلى هناك أبداً ؟

ـ أحيانا يكون الرجوع نوعاً من السوقية .

ـ من المؤكد أنك كنت مشتاقا لأن تعرف كيف انتهت الأمور ؟

ـ لا على الاطلاق . ربما ستشهد يا نيقولاس ذات يوم تجربة تعنى الكثير بالنسبة لك ، عندئذ ستدرك ما أعنيه من أن بعض التجارب سوف

تسيطر على وجدانك حتى أن الشىء الوحيد الذى لن تغفره هو عدم استمرار تلك التجارب على نحو ما للأبد . إن سايد يفارى مكان لا أرغب فى أن يلمسه الزمن لست مهتما بما عليها الآن . اذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة .

وتكلمتْ جولى : لكنك قلت إنك ستتراسل مع جوستاف ؟

ـ وهذا هو ما فعلته فقد أرسل لى خطابات . كتب لى رسائل منتظمة على مدى عامين ، لكنه لم يكن يشير أبداً إلى الأمور التى تثير شغفك ـ فيما عدا أن يذكر ان الموقف ظل كما هو ، دون أىّ تغيير . كانت خطاباته مليئة بالملاحظات التى تتعلق بعلم الطيور وأصواتها . ثم قلت ، وأصبحت الخطابات قليلة للغاية وبعد ذلك ، لم تصلنى منه أية رسائل على الاطلاق . لقد مات كما مات هنريك راجنا .

التفت فى روح أبوية إلى جولى ، وقال : يا عزيزتى . لقد حان الوقت لكى تذهبى للنوم .

كانت الساعة قد تخطت الحادية عشرة مساء ، بقليل فهزت جولى كتفها كما لو كانت مسألة الذهاب للنوم فى السرير لا أهمية لها .

وقالت : لماذا قلت لنا هذا الكلام يا موريس ؟

كل ما هو ماض يتملك حاضرنا ، فسايد يفارى تتملك بورانى . وأىّ شىء يحدث هنا حدث أساسا منذ ثلاثين عاما فى تلك الغابة النرويجية .

كان يتكلم معها على النحو الذى يتكلم به معى فى معظم الاحيان . أدركت أنه يشرع فى خلق نقلة أخرى فى علاقاتنا أو فى الأعراف والتقاليد التى تتحكم فى هذه العلاقات . أصبحنا نقوم بدور اثنين من حوارييه . تذكرت الصورة الزيتية المفضلة لديه والتى تعبرّ عن بحار ذى لحية طويلة يشير إلى البحر ويروى قصة لولدين صغيرين تبادلت نظرة مختلسة سرية مع جولى ، كان من الواضح أننا نتحرك فى أراض جديدة شعرتُ بقدمها بلمسة خفيفة كأنها قبلة خاطفة : قالت : حسنا . أعتقد أنه ينبغى أن أذهب يا موريس . كان ذلك امرا مسليا .

وقبّلته قبلة سريعة على خده . ثم مدت يدها لمصافحتى . كان هناك ظل من ظلال التآمر فى عينيها بالاضافة الى لمسة ضاغطة من أصابعهما استدارتْ لتنصرف .

جلست أنا وكونشيس فى صمت . ثم سمعت وقع أقدام خفيفة تسير فى اتجاه البحر . ابتسمتُ فى وجهه الجامدالذى لا يفصح عما في داخله من مشاعر . بدا انسانا عينيه بمثابة قناع يرقبنى ويرقبنى . كنتُ سأتجادل معه فى أى موضوع فضيعته تضم غموضا محيرّا أكثر مما تضم صوفية . لعله يملك جانبا قويا فى شخصيته ولكن هناك جانبا لديه يشبه ذلك الموجود لدى عجوز نصاب مخادع . قلت فى هدوء : يبدو على مريضتك هذا المساء أنها طبيعية إلى حدّ كبير .

ولعلها تبدو أكثر طبيعية غداً عليك ألاَّ تنخدع . اخبرتك أننى سوف أخفى نفسى عن الأنظار غداً . فهل يمكن أن أشاهدك فى عطلة نهاية الأسبوع القادمة ؟

لسوف أجيء إلى هنا ، نهض واقفا كما لو كان قد أراد أن يعطي وقتا كافيا لجولى لكى «تختفى» ، فنهضتُ أنا الآخر وقلتُ : شكرا جزيلاً على استحواذك لمشاعرى .

أمال رأسَه . ثم سرنا الى داخل المنزل توقفت وقلت له : أعتقد أننى سأذهب للنزهة لبعض الوقت يا سيد كونشيس ، فأنا لا أشعر بالرغبة فى النوم . وكنت أدرك إنه ربما يقول إنه يريد المجيء معى للنزهة مما يؤدى إلى تعذّر ذهابى إلى مكان التمثال عند منتصف الليل كان بمثابة مصيدة مضادة بالنسبة له وبمثابة تأمين بالنسبة لىّ . فاذا ما تم ضبطى مع الفتاة فيمكن أن أدعى أن ذلك اللقاء تم بطريق المصادفة . مدَّ يده مصافحا . وراح يرقبنى للحظات . لكن قبل أن أصل إلى نهاية السلالم سمعت صوت انغلاق باب حجرته . لعله يكون قد ذهب إلى الفرندة لكى يتنصت رحت أسير نحو المدق خارجاً من بورانى . بعد أن وصلتُ إلى البوابة صعدت على التل وجلست مستندا على جذع شجرة يمكننى من عندها أن أرقب المدخل والمدقّ . كانت ليلة حالكة السواد ولكن النجوم كانت تنفث ضوءاً ضعيفا للغاية فوق كل الاشياء . ضوءا يشبه أكثر الأصوات خفوتاً . كان قلبى يدق بنبضات أسرع مما ينبغى لأننى سأتقابل مع جولى ولأننى غارق فى أعماق أغرب متاهة فى أوربا . جلست هنالك . وكانت عيناى وأذناى فى حالة تيقظ شديدة

فى تمام الساعة الثانية عشرة انزلقتُ من خلال البوابة وشققتُ طريقى شرقا إلى الاخدود . كنت أتحرك فى بطء مع التوقف عن المشى من وقت لآخر . وصلتُ إلى الأخدود وانتظرت قليلا ثم سرت على المدق نحو

المساحة الخالية من الأشجار والتى بها التمثال . كان المقعد الموجود تحت شجرة اللوز شاغرا . وقفت تحت ضوء النجوم عند حافة المساحة الخالية من الأشجار متوترا للغاية ، كنت واثقا أن شيئا على وشك الحدوث رحت أدقق النظر لكى أرى ما إذا كان هناك أىّ شخص فى خلفية المكان الشديدة العتمة . خطر ببالى أن هناك رجلا ممسكا ببلطة فى يديه ، وترامى صوت مرتفع . لقد القى شخص ما حجرا فارتطم بالتمثال . ثم تدحرج حجر آخر على الأرض أمامى مباشرة وأظهرت تلك الحركة لمعانا جاء من خلف شجرة فأدركت أنها جولى ، جريت صاعدا الحافة المنحدرة وتعثرت ثم وقفت . كانت واقفة بجوار الشجرة . تمكنت من رؤية قميصها ، تقدمت للامام فخطوت نحوها ورحنا نتعانق فى قبلة طويلة ممتدة . وفى خلال تلك الفترة اعتقدت أننى تعرفت على جوانب شخصيتها ، كانت قد تخلت عن كل مظاهر الادعاء وأصبحت عاطفية بل كادت تكون مليئة بالنّهم الشديد . وسمحت لى بأن أسحق جسدها رحت أتمتم بكلمات الملاطفة بصوت منخفض أمسكت بيدها ومررت بشفتى على جانب يدها .

اضطررت لأن أبعدها عن جسدى ، ورحت أبحث فى جيبى عن علبة الكبريت . ثم أشعلت عودا ورفعت يدها اليسرى لأعلى ، كانت يدها خالية من الندبة الغائرة . رفعت عود الكبريت لأعلى . كانت عيناها وفمها وشكل ذقنها وكل شىء فيها شبيها بجولى . ولكنها لم تكن جولى . كانت هناك تجاعيد خفيفة عند زاوية فمها مع تغيرّ بسيط فى شكلها ، فضلا عن الوقاحة وقلة الحياء المحسوبة كانت هناك سمرة عميقة فى بشرتها نظرت لاسفل ثم رفعت بصرها لأعلى مرة أخرى تحت رموش عينيها . طرقت باصبعى وأشعلت عوداً آخر وقلت «يا للعنة !» فقامت بإطفاء عود الكبريت على الفور ونطقت باسمى ، وكان صوتها مليئا باللوم والعتاب .

قلت : من المؤكد أن هناك خطأ ما . فنيقولاس هو أخى التوأم .

ـ لقد ظننت أن منتصف الليل لن يجىء أبدا .

ـ أين هى ؟

كنت أتكلم فى غضب . رددت : هى ؟

ـ لقد نسيت ندبتك الغائرة .

ـ أنت انسان ذكى لأنك أدركت أن الندبة كانت مجرد مكياج .

ـ وماذا عن صوتك ؟

ـ هذا التغيرّ فى صوتى ناجم عن تأثير هواء الليل .

أمسكتُ بيدها وسرتُ بها إلى المقعد الموجود تحت شجرة اللوز : أين هى ؟

ـ لم تستطع المجىء . ولا تكن فظا .
لم أهتم باستكمال الجملة . سألتها : هل أنت جين ؟

ـ نعم .. اذا كنت أنت «نيقولاس» راحت تتفحصنى بعينين أقل رعونة من التى بدت فى صوتها ، شعرتُ بالانزعاج بسبب التشابه المذهل فى الوجه مع أختها كان الفارق بينهما فى أن جين ذات بشرة أكثر سمرة بسبب التعرض كثيراً لأشعة الشمس مما يدل على أنها كثيرة الخروج من المنزل وبالتالى فهى تتمتع بالمزيد من الصحة ومن استدارة الوجنتين وهو نفس الشكل الذى كانت ستبدو عليه جولى بالتأكيد فى الظروف الطبيعية . انحنيت للأمام وقد وضعتُ مرفقىَّ على ركبتىّ . سألت : لماذا لم تحضر هى بنفسها ؟

ـ أظن أن موريس ذكر لك سبب ذلك .
شعرت أننى مثل لاعب شطرنج واثق من نفسه أكثر من اللازم ، يدرك فجأة ان ملكه المنيع أصبح على وشك السقوط عقب القيام بتحريك قطعة واحدة اخرى من قطع الشطرنج . رجعت بتفكيرى للوراء فقد ذكر العجوز عندما قال إن بعض الناس المصابين بالفصام يتمتعون بقدر عال من الذكاء . فلقد بدا مشهد إلقاء الشاى غير ملائم للغاية باعتبارها مجنونة فلاشك انها اكثر جنونا أن القت بالشاى لمجرد أن تغمز لى بعينها فى نهاية الأمر . ثم تلك الأقدام العارية المتآمرة تحت المنضدة ، وكذلك الرسالة التى بعثت بها بواسطة أعواد الكبريت ربما هو لم يكن غافلاً عن كل ذلك على النحو الذى بدا عليه .

ـ نحن لا نلقى باللوم عليك . فقد سبق لجولى أن ضللت خبراء أعظم منك بكثير .
ـ وما الذى يجعلك متأكدة من أننى ضللت ؟
ـ لأنك ما كنت ستقدم على تقبيل فتاة على ذلك النحو اذا كنت تعتقد بالفعل انها مختلة عقليا ، أنا أدرك كم هى ماهرة فى الايحاء بأن الجنون موجود فى كل شخص من الاشخاص الموجودين حولها . أنها تتخذ أسلوب

الفتاة الغارقة فى الهمّ والقلق .

ظلت ملتزمة الصمت ثم تساءلت ألا تصدقنى ؟

أنت تدركين اننى لا أصدقك . وأعتقد أن أختك مازالت تنظر إلىّ بعين الشك . سألتنى ، وقد بدا انها تغير الحديث : ألم تتقابل من قبل مع موريس قبل أن تجىء الى هذا المكان ؟

- مطلقا .
- أو توقع على أىّ تعاقد من أىّ نوع معه ؟

نظرت اليها وقلت : أتقصدين أنكما قد تعاقدتما معه ؟

- نعم . ولكن التعاقد لا يتعلق بما يدور الآن من أحداث .

ثم ترددت وقالت : لسوف تحكى لك جولى غداً .

- ألقت بسيجارتها وأطفأتها . ثم ألقت بسؤالها التالى : هل هناك أفراد من الشرطة بالجزيرة ؟
- يوجد شاويش واثنان من العساكر .

لماذا تسألين هذا السؤال ؟

أردت فقط أن أعرف ذلك . فأخذت نفسا عميقا وقلت «دعينا نبصر الأمر على حقيقته . فأنتما فى بادىء الأمر كنتما شبحين . ثم أصبحتما مصابتين بالفصام . والآن فأنتما بمثابة الشحنة المرسلة فى الأسبوع التالى إلى قسم الحريم فى سراى سلطان . فقالت بسرعة : أحيانا أتمنى لو تم ذلك . فذلك سيكون أسهل علينا يا نيقولاس . حذار ، فانا لم آخذ أى شىء مأخذ الجد على الاطلاق . وهذا من ضمن الأسباب التى أدت إلى وجودنا هنا . انه امر يدعو للسخرية ، نحن فى الحقيقة فتاتان انجليزيتان اوقعنا نفسينا فى مياه عميقة للغاية فى هذين الشهرين الآخيرين حتى أننا مثل سجينتين هنا . انه سجن مخفف للغاية . فلا توجد حواجز أو قضبان - وأظنها اخبرتك أنه يؤكد لنا باستمرار أن فى امكاننا ان نعود الى وطننا فى اى وقت . ولكننا نتعرض على نحو ما للمراقبة المستمرة .

- باستطاعتى احضار الشرطة بكل سهولة . اذا كنت ترغبين فى ذلك .
- هذا أمر يدعو للشعور بالارتياح ويزيل القلق والتوتر .

وما هو رأيك فيما يدور الآن من احداث ؟ فابتسمت ابتسامة صفراء وقالت : لقد كنت على وشك أن أوجه لك نفس هذا السؤال .

- إننى مقتنع أنه مرتبط ارتباطا وثيقا بالطب النفسى .

ـ لقد قام باستجواب جولى على مدى ساعات عقب انصرافك من هنا . عن الكلام الذى قلته والطريقة التى كنت تتصرف بها والأكاذيب التى قالتها لك .. يبدو أنه يحصل على نوع من الاثارة والنشوة البديلية من وراء معرفة كافة التفاصيل .

وهل يقوم بتنويمها تنويما مغناطيسيا ؟

ـ لقد قام بتنويمها مغناطيسيا وتمويمى أنا أيضا ، ذلك التنويم الغريب .. مثلما تعرضت أنت لتجربة التنويم .

ـ هل يقوم باستجوابها أثناء تنويمها ؟

ـ لا .. فهو يحرص دائما على وجود واحدة منا أثناء قيامه بتنويم الأخرى . ولقد كنت دائما موجودة هنالك لكى أصغى أثناء تنويمه لها .

ـ الا توجد لديك أية شكوك فى هذا الشأن ؟ فأصابها التردد مرة أخرى ، ثم قالت .. هناك شىء ما يقلقنى . نوع من اختلاس النظر من خلال ثقب مثل من يشبع رغبته الجنسية عن طريق النظر إلى الأعضاء الجنسية أو إلى العمل الجنسى . فنحن لدينا الاحساس بأنه يقوم بمراقبتك أنت وجولى وأنتما تقعان فى الحب والغرام معا ، هل حدثتك جولى عن قلوب ثلاثة ؟ أفضل أن تحدثك هى فى هذا الشأن غداً .

ـ ما هى هذه القلوب الثلاثة ؟

ـ الفكرة الرئيسية لم تنصّ على أنه ينبغى علىَّ أن أبقى فى الخلفية دائماً أحاول أن أقول إننى لا أرغب لها فى أن تعانى الالام مرة أخرى

ـ لن تتعرض للأذى والالام بسببى .

انحنت للأمام وقالت : إن لديها نوعا من العبقرية من حيث اختيارها الرجال غير الملائمين لها . وأنا لا أعرفك تمام المعرفة . ولذلك فإن كلامى هذا لا يتخذ الطابع الشخصى بالنسبة لك . كل ما هنالك أن سجلها الماضى لا يعطينى قدراً كبيرا من الثقة ، أنا مهتمة بتقديم الحماية الكافية لها .

إنها ليست بحاجة لحمايتها منى .

ـ أعنى أنها تبحث عن الشعر والعاطفة والحساسية وكل المطبخ الرومانسى وأنا أعيش على رجيم غذائى أكثر بساطة .

قالت تلك العبارة فى جفاف تشوبه مسحة من الحزن والكآبة التى

أحبها . نظرتُ خلسة إلى وجهها . فشاهدت لمحة خاطفة لعالم يلعبان فيه الدور نفسه . قفزت إلى ذهنى تلك القصص الداعرة التى سادت فى عصر النهضة التى تدور عن فتيات يقمن بتبادل الأماكن فى الليل . شاهدت نفسى وقد تزوجت جولى ولكن أختها التى تماثلها فى الجاذبية والمختلفة عنها بعض الشىء وإن كان ذلك من الناحية الجمالية فقط ، ومع وجود فتاتين توأم يتحتم دائماً وجود فوارق دقيقة لا يكاد يدركها المرء علاوة على وجود خلط في الشخصيتين بحيث يصبح من الصعب التفرقة بين الجسدين والروحين ، هل اقنعتك ؟

سألتها : هل يمكننى أن أرافقك أثناء عودتك إلى المكان الذى تختبئين فيه ؟

ـ لا يمكنك الدخول فى نفس المكان الذى أختبىء فيه .

ـ لكننى بحاجة إلى تبديد شكوكى وقلقى .

قالت فى تردد : اذا وعدتنى أن ترجع عندما أطلب منك ذلك .

ـ اتفقنا .

هبطنا فى اتجاه تمثال بوسايدون تحت ضوء النجوم . ولم نكد نصل إليه حتى أدركنا أننا لم نكن بمفردنا فتجمد كل منا من هوْل المفاجأة . كان هيكل أبيض قد برز خارجا من بين الشجيرات من ناحية الجانب المواجه للبحر من الأرض المكشوفة المحيطة بالتمثال . كنا قد تكلمنا بأصوات منخفضة للغاية بحيث يتعذر على أىّ شخص آخر أن يسمعنا ولكننا أصبنا بالصدمة لدى مشاهدة ذلك الهيكل . وهمستْ جين : يا ألهى .. اللعنة .

ـ منْ يكون هذا الهيكل ؟

أمسكت بيدى ودفعتنى لكى أستدير بعيداً وقالت : إنه كلب حراستنا سأتركك هنا .

نظرتُ عبرْ كتفى وتبينتُ شكله على نحو أفضل ، إنه رجل يرتدى معطفا أبيض اللون . إنه ممرض يضع نوعا ما من القناع الداكن على وجهه مما يتعذر معه معرفة ملامح وجهه . ضغطت جين على يدى ونظرت فى عينى نظرة مباشرة مثل نظرات أختها وقالت : إننى أثق فيك بالفعل . ونرجوك أن تثق فينا .

ـ ماذا سيحدث الآن ؟
ـ لستُ أدرى . ولكن لا تجادل . عليك فقط بالعودة إلى المنزل ، وانحنت للأمام وجذبتني نحوها وقبلتنى على خدىّ . ثم شرعتْ فى السير فى اتجاه المعطف الأبيض . وعندما أصبحتْ قريبة من الرجل بدأت فى السير وراءها . فوقف الرجل على جانب فى صمت لكى يدعها تمرّ بين الأشجار . أدركتُ لدى اقترابى منه انه لم يكن يضع قناعا على وجهه مما أصابنى بصدمة ، كان زنجيا . كان يحملق فىَّ دون أن تظهر أية تعبيرات على وجهه . اقتربتُ منه فمدّ ذراعيه مغلقا الطريق أمامى ، توقفتُ عن المشى وقلتُ : أنت تبدو أكثر جمالا عندما تضع قناع ابن آوى على وجهك . فلم يتزحزح من مكانه . ولكن وجه جين ظهر خلفه . مليئا بالقلق والتضرّع : يا نيقولاس . إرجع إلى المنزل . لو سمحت ، إنه لا يستطيع أن يتكلم . إنه أبكم .

ـ لقد اعتقدتُ أن الخصّى والطواشى السود انتهى أمرهم مع نهاية الامبراطورية العثمانية .

أحسستُ أنه لم يفهم كلامى . ولكنه طوى ذراعيه وباعد ما بين ساقيه . أدركت أنه يريدنى أن أهجم عليه فشعرتُ بالرغبة فى قبول تحديه . تركتُ الفرصة لجين لكى تقرّر ذلك ، نظرتُ إليها من خلفه وسألتها : هل ستكونين على ما يرام ؟

ـ نعم . إذهبْ لو سمحتْ .

واستدارتْ مبتعدة . ورجعتُ أنا إلى إله والبحر وجلستُ على الصخرة التى يقف عليها . ثم مددتُ احدى يدىّ وأمسكت بقدم التمثال البرونزى كان الرجل الزنجى يقف وقد طوى يديه مثل خادم يقف فى متحف وقد أعياه الملل . رفعت يدى عن قدم التمثال وأشعلت سيجارة ورحت أتقصى بأذنى عن وجود مخبأ متوقعا سماع هدير زورق بخارى . ولم يكن هناك سوى الصمت المطبق . شعرت أن رجولتى أهينت أمام فتاة جميلة كما شعرت بالقلق بل اجتاحنى الشعور بالذنب . فسرعان ما ستنتقل أخبار هذا الاجتماع السرى إلى كونشيس . وربما سيبادر إلى الظهور فى الأفق . لم أخش قيامه بتصفية الحساب معى بشأن هراء الفصام ولكن الذى يقلقنى أننى قمت بخرق قوانينه مما قد يؤدى إلى الاطاحة بى من هذا المكان

فكرت فى استمالة الزنجى لصالحى بأن اجادله . ولكنه ظل منتظراً بين طيات الظلال ومن المنطقة السفلية بجوار البحر ترامى صوت صفارة . وتلاحقت الأحداث بسرعة كبيرة .

سار الهيكل الأبيض بسرعة نحوى . فنهضت واقفا وقلت له «انتظر قليلاً» لكنه كان قويا كالنمر . كان وجهه خاليا من المزاح والغضب يتفجر من وجهه ، شعرت بالخوف . خطر على ذهنى أنه نسخة سوداء من هنريك نيجارد .. وعلى نحو فجائى بصق على وجهى ثم دفعنى براحة يده إلى الوراء على قاعدة التمثال الصخرية . فارتطمت حافة القاعدة بالجزء الخلفى من ركبتى مما جعلنى أجلس على الرغم منىّ . وبينما كنت أمسح البصاق عن أنفى وخدّى شاهدته يسير هابطا على المنحدر . فتحتُ فمى لكى اسبه ولكننى ابتلعت كلامى . ثم استخرجت منديلاً وعكفت على مسح وجهى . واحسست اننى على استعداد لأن أقتل كونشيس لو كان امامى فى تلك اللحظات .

عدت إلى البوابة ومنها هبطت على المدق وألقيت بنفسى فى مياه البحر ورحت أحك وجهى بالماء المالح ثم سبحت بعيداً عن الشاطىء . غطست فى الماء ثم انقلبت على ظهرى ونظرت لأعلى نحو النجوم . شعرت بالأمان وأنا بعيد عن قبضة أيديهم ، بل شعرت أننى أتمتع بسلامة العقل . وأنا بعيد عنهم .

ساورتنى شكوك كثيرة فى أنه توجد دلالات خفية وراء قصة دوكانز وصالة عرضة التى تضم الاشخاص الآليين . إن ما اقدم عليه كونشيس وهو أن يحول بورانى إلى صالة عرض كهذه ويحول الآدميين الحقيقيين إلى دميات .. ولم أكن على استعداد لأن أتحمل المزيد من الاوضاع الخاطئة . كان من الواضح أننى الرجل الوحيد الذى يمكن للشقيقتين أن تضعا ثقتهما فيه . وبغض النظر عن اى شىء آخر فانهما كانتا بحاجة إلى مساعدتى لهما . أدركت انه ليس من الحكمة أن أثير زوبعة وهجوما داخل المنزل وأصفى حسابى مع العجوز ، لأنه سيقوم بتزويدى بالمزيد من الأكاذيب . كان شبيها بحيوان قابع فى عرين ولذلك كان الأمر يستلزم إغراءه أولا للخروج من العرين ، وذلك حتى يمكن تدميره .

سبحت فى البحر مع المنحدر وهدأت نفسى تدريجيا . اذ كان من

المحتمل أن تكون الأمور أسوأ بكثير من مجرد البصق فى وجهى هذا بالاضافة إلى أننى أهنته . فانا امتلك مجموعة من العيوب لكن التفرقة العنصرية ليست من بينها . لقد جاء الدور على العجوز . فمهما كانت ردود فعله فاننى سأكتشف شيئا ما عنه . وصلت الى الشاطىء وجففت جسدى مستخدما قميصى . ثم ارتديت باقى ثيابى ومشيت عائدا إلى المنزل . كان الصمت مخيما على المنزل . رحت أصغى فى انتباه دون أن اهتم باخفاء ذلك عن اىّ شخص قد يكون هو الآخر فى حالة من الاصغاء عند باب غرفة النوم الخاصة بكونشيس . ولم يكن هناك اىّ صوت .

(٤٦)

عندما استيقظت من النوم ، شعرت أنني أكثر خمولاً مما اعتدت عليه . كان الوقت يقترب من العاشرة صباحا . بلَّلت رأسى بالماء البارد ثم ارتديت ملابسى . ونزلت السلم إلى صف الاعمدة . نظرت تحت قماش الموسلين الذى يغطى المنضدة فوجدت فطورى ، لم يظهر احد فى الافق ران صمت رهيب فى جميع ارجاء المنزل مما أثار دهشتى . توقعت ظهور كونشيس والمزيد من الكوميديا على المسرح ، لم أتوقع ان يكون المسرح شاغراً .

حملت أطباق الافطار الشاغرة وذهبت إلى كوخ ماريا . لكننى وجدت الباب مغلقا . صعدت إلى الدور العلوى ورحت أطرق باب غرفة كونشيس وجربت مقبض الباب بلا فائدة . طفت حول جميع الغرف بالدور الأول ثم رحت ابحث عن أوراقه المتعلقة بالطب النفسى والموجودة فى مكتبته ، لكن دون جدوى فهبط علىَّ خوف مفاجىء : لقد انتهى كل شىء بسبب أحداث الليلة الماضية . لقد اختفوا جميعا إلى الأبد .

مشيت إلى التمثال وفى جميع أرجاء ذلك المكان مثل رجل يبحث عن مفتاح مفقود ، ثم عدت إلى المنزل عقب مرور ساعة تقريباً . كان المنزل لا يزال مهجوراً . بدأت أشعر باليأس ماذا علىَّ أن أفعل الآن ؟ هل أذهب إلى القرية وأبلغ الشرطة ؟ توجهت إلى الشاطىء الخصوصى . لم يكن الزورق موجوداً . سبحت فى الماء إلى خارج الخليج الصغير وحول اللسان الأرضى الممتد فى داخل البحر . رحت اتفحص المنحدرات الصخرية الشاهقة ولا يوجد مكان يمكن ان يرسو فيه اىّ قارب صغير . ومع ذلك فتلك هى المساحة أو المنطقة التى تتجه اليها الأختان عندما تذهبان إلى

«منزلهما» . لم يكن هناك سوى شجيرات قصيرة عند قمم المنحدرات الصخرية بعد انتهاء المساحة المليئة بأشجار الصنوبر . كان من الواضح أنه من المتعذر الاختباء فى تلك الأرض المليئة بالشجيرات القصيرة وطبقا لهذا فلا يوجد سوى احتمال واحد وهو أنهما كانتا تشقان طريقهما على طول قمم المنحدرات الصخرية ثم تدوران إلى الأراضى الداخلية مرة اخرى ومنهما تهبطان إلى ما وراء الأكواخ .

سبحتُ لمسافة أبعد خارج البحر لكننى تعرضت لتيار من الماء شديد البرودة مما جعلنى أدير ظهرى . شاهدت فتاة ترتدى فستانا صيفيا تقف على قمة الصخرة . انها لافتة للانظار . لوحت بيدها فرددت عليها بتلويحة من يدى . ثم سارت تحت حائط الاشجار الخضراء . وبعدئذ شاهدت وميضا آخر من اللون الوردى : انها فتاة اخرى . كانتا تقفان وقد صارت كل منهما نسخة مطابقة للأخرى . ولوحت الفتاة القريبة نسبيا منى بيدها مرة أخرى لاستدعائى للمجىء إلى الشاطىء . ثم اختفيتا كما لو انطلقتا لتقابلانى فى منتصف المسافة .

وصلت إلى الطرف البعيد من الاخدود لاهث الأنفاس وارتديت قميصا فوق المايوه لم تكونا بجوار التمثال ومرت لحظات قليلة من الشكوك المليئة بالغضب ، فقد ظهرتا لتختفيا مرة أخرى ، واتجهت نحو المنحدرات الصخرية . وفجأة شاهدتهما جالستين على صخرة ظليلة فى جهة الشرق . فسرت فى اتجاههما بعد أن وثقت تماما انهما هناك . بدت الانوثة متفجرة منهما ، وكانتا جميلتين .. فتاتين فى عمر ١٩ عاما ترتديان أجمل الملابس الصيفية . بدا ان هناك مغالاة فى ملابسهما والأغرب من ذلك أنه كانت توجد سلة مصنوعة من الحصير والنباتات المائية بجوار «جين» كأنهما مازالتا طالبتين فى جامعة كمبردج .

نهضت جين واقفة لدى اقترابى وسارت لملاقاتى . كان شعرها ممشطا لاسفل مثل أختها .. وكانت بشرتها ذهبية بل واكثر سمرة مما شاهدتها عليه فى الليلة السابقة . كان هناك انفتاح اكبر بل وكانت توجد مسحة من التشبه بالصبيان من حيث الخشونة والصخب . أما جولى فأخذت ترقبنا ونحن نتلاقى . كان من الواضح أنها غير مبتسمة وغير راغبة فى الاختلاط وابتسمت «جين» فى وجهى وردت : لقد اخبرتها أنك لم تهتم بمعرفة ما اذا

كنت قد تقابلت معى أو معها هذا الصباح .
ـ هذا امر لطيف منك .

أمسكت بيدى وقادتني إلى أسفل الربوة : ها هو فارسك فى عتاده الحربى اللامع .
نظرت جولى لاسفل فى برود نحوى ، وقالت : مرحبا .
قالت أختها : إنها تعرف كل شىء ، فانزلقت جولى ببصرها إلى أختها وقالت وأنا أعرف أيضا من الذى ارتكب هذه الغلطة . .

كان التأنيب يطل من عينيها فأفضى هذا إلى الاهتمام : هل كنت على ما يرام أثناء رجوعك ؟

فأخبرتهما بكل ما حدث ، بدأ القلق يطل من أعينهما ، ثم تبادلنا النظرات كأن ذلك يؤكد شيئا ما كانتا تتجادلان فيه ثم تكلمت جولى أولا : هل شاهدت موريس هذا الصباح ؟ المكان كله يبدو مجهورا . ولقد ظللت أبحث عنكما فى كل مكان .

ألقت جين نظرة إلى ما ورائى نحو الأشجار ، ثم قالت : المكان يبدو مهجوراً . ولكننى أراهن أنه ليس مهجوراً .

من يكون ذلك الرجل الأسود اللعين ؟

ـ يقول موريس انه خادمه الخصوصى الذى يعتنى بملابسه . كما يقوم بالخدمة أيضا على المنضدة . ومن المفروض أن يقدم لنا الرعاية عندما نكون فى مخبئنا الخاص . كم تقشعر أبداننا عند رؤيته .

ـ هل هو انسان أبكم بالفعل ؟
ـ نحن نشك فى أنه غير أبكم . انه يكتفى بالجلوس والحملقة كما لو كان بمقدوره أن يعبر عن رأيه .

من المؤكد أن الرجل العجوز يعرف ما حدث فى الليلة الماضية .
ـ ذلك ما نحاول استنباطه .

نظرت اليها قائلا : اعتقدت أننا لم يكن لنا أن نتقابل .

كنا دائماً بصدد أن نتقابل ومن المفترض أن أؤيد قصة موريس . وقالت جين .. قررنا أن نكون على طبيعتنا . لنرى ما سيحدث .

- يجب عليكما أن تخبرانى بكل ما تعرفانه الآن .

نظرت جولى إلى أختها نظرة جافة . وظهر على وجه جين دهشة مصطنعة قائلة : يمكنك ان تذهبى وتعالجى بشرتك المقرفة ولربما سنتغاضى عنك عند الغذاء .

وانحنت جين انحناءة خفيفة وقالت قبل ان تذهب «سأكون بحاجة لأن اعرف كل ما يتعلق بى . ابتسمت ثم أدركت أن جولى كانت تنظر الىّ نظرة باردة بعينين متسعتين ، فقلت كانت الدنيا حالكة الظلام . ونفس الملابس . ولذلك فأنا ...

- انا غاضبة منها . فالأمور بالغة التعقيد .

أنها مختلفة عنك تمام الاختلاف .

- لقد حرصنا على ذلك بعض الشىء فى الحقيقة ، فنحن قريبتان من بعضنا .

أمسكت بيدها لم تسمح لى ان اجذبها لكى تلتصق بى رغم انها لم تسحب يدها ، قلت :

- عثرت على مكان عند المنحدر الصخرى ، يمكننا أن نجلس فيه دون ان يرانا احد .

وسرنا بين الاشجار ، سألت هل استمتعت وأنت تقبلها ؟

- لسبب واحد وهو اننى كنت أعتقد انها انت .

- هل دامت القبلة لفترة طويلة ؟

- استمرت ثوانى قليلة .

فاهتزت على يدى ، وقالت : كذاب .

نظرت فيما حولى ثم أخذتها ، بين ذراعى . هذه المرة سمحت لىّ أن أقبلها قبلة سريعة ، قائلة :

- كنت أرغب فى المجىء فى الليلة الماضية . اضطررت لأن أجعلها تقابلك . فهى تشكو من اننى أحصل على كل أنواع الاثارة . فقامت بتقبيل كتفى من خلال قميصى المبلل بالماء . وقالت : يجب أن نتكلم .

وخلعت حذاءها ذا الكعب المنخفض ثم جلست على السجادة وقد طوت

ساقيها إلى جوارها . وكان جوربها النسائى ينتهى تحت ركبتيها العاريتين . وكانت فتحة الصدر هابطة لأسفل إلى حيث المفرق ما بين الثديين . أضفت عليها ملابسها طابع البراءة . راحت الرياح الشمسية تداعب نهايات شعرها على النحو الذى كانت عليه عندما كانت «ليلى» على البلاج ـ الا أن ذلك الجانب تلاشى تدريجيا مثلما تتسرب المياه بين الحجارة .. جلست إلى جوارها . واستدارت هى ومدت يدها لكى تمسك بالسلة . فانضغط قماش ثوبها على ثدييها وعلى خصرها النحيل فنظرت بوجهها خلفها فتقابلت عيناها مع عينى . فأطالت النظر بعينيها الجميلتين فى داخل عينى . سألتها : متى جئتما إلى هنا ؟

ـ فى السنة الماضية . قلت كل ما يمكننى قوله .. واننى لخائفة للغاية لأنهم قد يشاهدون ما أفعله أنا الآن .

فنظرت حولى . ولكن الحائط الطبيعى كان يوفر لنا الحماية الكاملة . ولا يمكن لأى شخص أن يشاهدنا اللهم الاّ اذا كان فوق أعلى الحائط .

سألتها : لماذا تودين البقاء فى لندن ؟

ـ لقد قمت أنا وجين بأداء الكثير من الأدوار التمثيلية فى كمبردج . وكان أمامنا مستقبل مرموق . ولكن .

ـ وما هو العمل الذى كانت جين تؤديه ؟

ـ كانت تعمل فى شئون الاعلان وتسجيل حق التأليف والطبع والنشر . وهو مجال لم أكن أحبه كثيراً . ولا أحب الرجال الذين يعملون فيه . اعنى أننى أنا وأختى لم نكن مغرمتين بالأعمال التى نؤديانها . لقد تورطنا مع شركة للهواة فى لندن .

استندت إلى الوراء على أحد مرفقى . وجلست مستندة على احد ذراعيها . وإلى ما وراءها كان البحر العميق يتلاقى مع السماء . وهبّ نسيم بين أعصان شجرة الصنوبر فوقنا ، وداعب بشرتنا مثل تيار دافىء من الماء . عثرت على ذاتها الجديدة الحقيقية . كانت التعبيرات على وجهها تتسم بالبساطة . أدركت أن ذلك هو ما كان ينقصها : الاحساس بأنها انسانة بسيطة وعادية وأنه يمكن الوصول اليها . .

قلت : حدثينى عن السبب فى عدم حبك للتدريس .

ـ هل أنت غير شغوف بالتدريس ؟

ـ كنت غير شغوف بالتدريس إلى أن قابلتك .

ـ كنت أشعر أننى غير مغرمة بالتدريس . وهل ينبغى على المرأة أن تتظاهر دائماً بالتجهم والوقار الشديدين ؟

بحثت فى داخل سلتها وعثرت على علبة سجائر . وقمت أنا باشعال السيجارتين ، واستطردت هى قائلة : ذات يوم قرب نهاية العرض المسرحى لمسرحية «ليسستر١» جاء رجل الى الكواليس وأخبرنا أن لديه شخصا يريد أن يقابلنا إنه منتج سينمائى .

ثم ابتسمت عندما شاهدت حاجبى عينى يرتفعان لأعلى . وأضافت : لم يفصح لنا عن شخصية ذلك المنتج السينمائى . ولكن بعد يومين وصلت إلى كل منا باقات الورود رائعة علاوة على دعوة لتناول الغذاء فى مطعم كلاريدج من شخص ما وقع باسمه على الدعوة .

وأحنت رأسها فى سخرية لاذعة وأضافت : تناقشنا فى هذا الموضوع وبعدئذ وافقنا عليه لمجرد التسلية والمزاح وأظن أنه قد بهرنا . وكنا على يقين من أن الفيلم سيتخذ طابع أفلام هوليوود الزائفة . كان صريحا للغاية . ومن الواضح أنه بالغ الثراء ، وأبلغنا ان لديه مصالح تجارية ومالية فى جميع أنحاء اوربا . وأعطانا بطاقة بها عنوان فى سويسرا وقال إنه يعيش أساسا بين فرنسا واليونان . ووصف لنا بورانى والجزيرة . وكل شىء هنا بالتفصيل . تماما على النحو الذى هو عليه .. من حيث هو مكان .

ـ ألم يذكر شيئا عن ماضيه ؟

ـ سألناه عن لغته الانجليزية : فقال لنا إنه عندما كان شابا صغيرا كان يرغب فى أن يصبح طبيبا ولذلك درس الطب فى لندن . وهزت كتفيها وأضافت : أنا أعرف أن اشياء كثيرة للغاية مما قالها لنا آنئذ . كانت كلاما مضللا ولكننا اذا رتبنا كل هذا الكلام المتناثر الذى أدلى به لنا من ذلك الوقت ـ فإننى أعتقد أنه قضى بالتأكيد جانبا من حياته فى انجلترا عندما كان شابا بل لعله التحق بمدرسة داخلية فى وطنه ـ فقد انتقد بشدة أسلوب المدارس الانجليزية منذ ايام قليلة . وكان انتقاده على ما يبدو نابعا من أعماق قلبه وانني لواثقة أنه ثار فى إحدى مراحل حياته ضد النقود . وضد والده .

ـ ألم تكتشفي أيّ شيء .. ؟
ـ في نفس المرة الأولى . واذكر على وجه الدقة أنه قال : كان والدى اغبى واسخف المخلوقات البشرية . كان مليونيرا له عقلية صاحب المتجر وحقيقة الأمر أننا لم نعرف أية معلومات أخرى عنه بخلاف ذلك . باستثناء أنه قال ذات مرة إنه قد مولود في الاسكندرية ـ أى موريس نفسه . ففى الاسكندرية توجد جالية غنيّة من اليونانيين .
ـ اذن هناك شيء ما حقيقي على النقيض من قصة دوكانز ؟
ـ أشك أن ذلك كان بمثابة اغراء تعرض له موريس في مرحلة ما . كطريقة كان يمكن استخدامها للاستفادة من الثروة التي ورثها .
ـ وذلك هو نفس رأيي . لكنكم لم تنجزوا الموضوع في معظم كلاريدج .
«كل هذا لم يساند الموقف . لقد كان حريصا أنه يظهر نفسه كرجل ذى ثقافة متحررة من النزعات الاقليمية . وليس كرجل مليونير فقط ، وسألنا عن الكتب التى درسناها في كمبردج ـ مما سمح له بأن يستعرض قراءاته المستفيضة ، كان من الواضح انه يعرف كل ما يتعلق بالمسرح المعاصر . وما يدور في ارجاء اوربا . قال انه يساند مسرحا تجريبيا صغيراً في باريس على اية حال . فان الاسس التي تقوم عليها النواحي الثقافية تعتبر راسخة للغاية . وبدأنا نفكر في الأسباب التي دعتنا للوجود .

لقد اراد لنا أن نقوم بدور البطولة في أحد الافلام في هذا الصيف . ولكن من المؤكد أنكما ......

«كدنا ننخرط في ضحكات هستيرية بلهاء . وخيل الينا انه يتحدث عن شيء كنا نظن انه يتحدث عنه في بادئ الأمر . لكنه تحدث بعدئذ عن الشروط ، ألف جنيه لكل منا لدى التوقيع على العقد . وألف جنيه أخرى لكل منا لدى الانتهاء من العمل . هذا بالاضافة الى مائة جنيه شهريا من أجل مواجهة النفقات لكل منا . واتضح لنا أنه لا توجد نفقات حقيقية .

وراحت تلمسّ بيدها على الوبر الخاص بالسجادة . وأضافت : وهذه من الاسباب الرئيسية التى جعلتنا نلتصق بهذا المكان يا نيقولاس . انه لأمر سخيف للغاية . ونحن لم نبذل أية جهود تستأهل الحصول على تلك النقود .

ما هو الموضوع الذى كان من المفروض أن يتناوله الفيلم ؟

- كان من المقرر أن يتم تصويره فى اليونان .. ولسوف أوضح لك ذلك بعد قليل يجب الا تعتقد أننا كنا ساذجتين تماما . فنحن لم نقل «نعم» على الفور . وانما العكس . فقد لعب اوراقه فى دهاء واستغل الظروف لتحقيق غرضه . وكاد ان يتسم بالطابع الابوى . وكنا بحاجة لأن نستشير وكيلنا - وحتى لم يكن لدينا وكيل لنستشيره فى هذا الموضوع .

استمرى .

- وتم إرسالنا فى سيارة إلى منزل لكى نفكر ونتخذ قرارا ، أقلتنا سيارة رولزرايس مستأجرة . إلى شقتنا الصغيرة الموجودة فوق السطوح فى بلساير بارك . وكان هو ذكيا ولبقا للغاية حيث لم يضع أية ضغوط مثيرة للشكوك أمامنا .. تقابلنا معه مرات بعد ذلك . واصطحبنا للخروج معه إلى المسرح والأوبرا . انت تعرف ما يكون عليه عندما يرغب فى ابهار اىّ إنسان .

- ماذا كان رأى الآخرين ؟ رأى أصدقائكم مثلا .

- كانوا يعتقدون ان علينا أن نلتزم بالحذر الشديد . وعثرنا على وكيل لنا . لم يكن سمع عن موريس ولا عن شركة افلامه فى بيروت . لكنه ظل يبحث عن هذه الشركة الى أن عثر عليها . انها تصنع الصور واللوحات التى تعبر عن المناظر الصبيانية المليئة بمشاعر المراهقة من أجل توزيعها فى الأسواق العربية : فى العراق ومصر . ومثلما قال موريس لنا من قبل فانه قد اوضح لنا أنهم يريدون التوغل فى الأسواق الأوربية . وكان من المقرر أن يتم تمويل الفيلم الذى ستقوم ببطولته عن طريق الشركة اللبنانية لسبب ما يتعلق بالضرائب .

- ما اسم تلك الشركة ؟

- افلام بوليموس ، لقد ورد اسمها فى الدليل التجارى . وهى شركة محترمة على حد معلومات وكيلنا .

- أيمكن أن يكون هو الذى اختار لكما هذا الوكيل ؟

أطلقت نفسا عميقا ، وقالت : لقد خطر ذلك على ذهننا . ولكننى لا أظن أنه اضطر لاختيار الوكيل لنا ، أدركنا أنها نوع من المخاطرة . ربما لو كان الأمر يتعلق بواحدة منا فقط . ولكن كوننا اثنتين ... ، هل انت تصدق اى شىء من هذا ؟

- الا ينبغى أن أصدق ؟

- أشعر أننى لا أوضح الأمر بطريقة جيدة .

ـ انك توضحين بما فيه الكفاية ، رمقتنى وهى مازالت تشك فى ردود افعالى ازاء مثل هذا الانصياع . ثم قالت .. «هناك آخر . اليونان . ودراستى للكلاسيكيات . كنت اتطلع دائماً للمجىء إلى اليونان . ظل موريس يعدنى بأنه سيكون لدينا الوقت لأن نشاهد كل شىء . وهو أمر لم يتحقق . أقصد أننى شاهدت هذا المكان أما باقى الأوقات فكانت بمثابة إجازة طويلة وهو لديه يخت أسطورى . فنعيش مثل الاميرات فى هذا اليخت .

ـ وماذا عن والدتك ؟

ـ اوه .. لقد راعى موريس ذلك . واصر على مقابلتها ذات يوم عندما تجىء لزيارتنا فى لندن . وبهرها بلطفه وذوقه . وبهرها بأمواله أيضا . قلنا لها إننا مازلنا نجرى البروفات . فنحن لا نريدها ان تشعر بالقلق علينا إنها خبيرة فى الهياج الشديد حول الأمور التافهة .

لقد عرض علينا ونحن فى لندن نسخة من قصة وحوار الفيلم قال إنه يأمل فى توزيع نسختين احداهما باليونانية والأخرى بالانجليزية مع عمل دبلجة للاصوات فى كلا النسختين .

غاصت بيدها فى الحقيبة ثم استدارت حتى اصبحنا جالسين وقد اتجه وجهانا الى جهتين متقابلتين . ثم اخرجت من المحفظة قصاصتى ورق . فى احداهما تقف الاختان فى أحد شوارع لندن مرتديتين معطفين ومنخرطتين فى الضحك . كانت هذه القصاصة قد قصت من إحدى الصحف بتاريخ ٨ يناير ١٩٥٣ . وكان التعليق تحت الصورة على النحو الآتى :

فتاتان توأم سعيدتا الحظ ، جين هولمز وجولى هولمز (الى اليمين) ستقومان ببطولة فيلم فى هذا الصيف وسيتم تصويره فى اليونان .. لقد تخرجتا من جامعة كمبردج وقامتا بالكثير من الادوار التمثيلية فى الجامعة وهما تتحدثان بثمانى لغات . ثم اعلان غير منصف للشباب الأعزب : ليست لديهما الرغبة فى الزواج حاليا .

نحن لم نكتب هذا التعليق على الصورة .

وهذا هو ما استنتجته . أصابها التردد بعض الشىء ثم أضافت : كان ذلك بمثابة عالم جديد بالنسبة لنا يا نيقولاس . لم نكن سوى فتاتين غرتين .

لذلك كنا نشعر بالاثارة فقد قام بتعريفنا على رجلين : الممثل اليونانى الذى قال عنه إنه سيقوم بتمثيل دور الشاعر . ثم المخرج وهو يونانى أيضا . تناولنا جميعا طعام العشاء . وحقيقة الأمر أننا شعرنا بالارتياح نحو هذين الرجلين . وتحدثنا كثيراً عن الفيلم .

ألم تقوما بمراقبتهما ووضعهما تحت الملاحظة .

ـ لم نمكث هنالك سوى ليلتين فقط ، ثم انطلقنا بعد ذلك فى اليخت مع موريس .

كان من المقرر لهما ان يحضرا الى هنا ، لكننا لم نشاهدهما بعد ذلك .

ثم التقطت خيطا مفكوكا من حاشية جونلتها . واستطردت : وحقيقة الأمر أننا اعتقدنا أنه من الغريب حقا الا يكون هناك أى دعاية عن الفيلم ولكنهم كان لديهم الرد الملائم ، إذ اتضح انك اذا قلت إنك بصدد عمل فيلم فانك تجد المئات من الاشخاص الذين يحضرون على أمل الحصول على أعمال أو وظائف تتعلق بالفيلم .

وبطريق المصادفة أدركت أن ذلك حقيقة واقعة . فمنذ ثلاثة شهور كانت شركة أفلام يونانية تعمل فى «هيدرا» فهرب اثنان من العمال الذين يعملون بالمدرسة فى تقديم الطعام على أمل أن يتم استئجارهم للعمل فى الفيلم كانت فضيحة على مدى يومين . لم اخبر جولى بذلك ولكنى ابتسمت عندما خطر هذا على ذهنى .

قلت : ثم جئت إلى هنا

عقب رحلة بحرية ممتعة . ولكن بعدئذ بدأ الجنون يلوح فى الافق بعد مرور ٤٨ ساعة . كنا قد أدركنا بالفعل أن هناك شيئا مختلفا يتعلق بموريس . ففى الرحلة البحرية شعرنا أننا قريبتان منه ، كان ينقصنا وجود اب منذ عام ١٩٤٣ . وكان الأمر أشبه ما يكون بالعثور على عم خرافى . نظرا لقضاء وقت طويل معه على انفراد ولاننا يمكن ان نثق فيه . قضينا معه أمسيات باهرة ودخلنا معه فى مجادلات هائلة عن الحياة والحب والأدب والمسرح .. وعن كل شىء .. ولكننا عندما حاولنا ان نستكشف ماضيه اسدلت ستارة من نوع ما وأنت تعرف الكيفية التى يكون عليها ذلك الأمر . الأشياء التى لا يمكنك ان تشاهدها الاّ اذا استعدت تطور الأحداث . لقد كان كل شىء يتسم بالتحضر الشديد فى المركب . راحت

تفتش فى عينى وكأننى أوجه اللوم لها لاعجابها بالعجوز . كانت قد أستندت على مرفقها ولاذت بالصمت . ومن وقت لآخر تلمس شعرها لتدفعه الى الوراء بعد أن يكون النسيم قد بعثره على خدها قلت : اننى أدرك ما تحسين به من مشاعر .

ـ أول شىء .. كنا نريده مشاهدة القرية ، لكنه اعترض بشدة وكان يرغب فى الانتهاء من الفيلم بأسرع مايمكن . لكن لا أثر للمولدات الكهربائية أو الأضواء . بالاضافة الى الاحساس بأن موريس يرقبنا باستمرار . وكان هناك شىء غريب فى ابتساماته لنا كأنه يعرف شيئا ما لا نعرفه . وأنه لم يعد بحاجة لأن يخفى عنا ذلك الأمر بعد ذلك .

ـ أدرك ذلك تماما .

ـ وفى فترة ما بعد الظهر من اليوم الثانى لوجودنا هنا . حاولت جين ، وكنتُ أنا نائمة ، الذهاب للنزهة . واتجهت نحو البوابة وفجأة شاهدت ذلك الزنجى الصامت ، يعترض طريقها ، ولم يسمح لها بالمرور من البوابة بل ولم يجب على تساؤلاتها . وبالطبع صعقت خوفا . ورجعت على الفور ثم ذهبنا معا إلى موريس ، فحاصرنا فى نوع من الاستجواب : هل سبق له أن تصرف معنا بطريقة غير لائقة . ألم يلتزم بكل ما نصت عليه الاشتراطات المالية فى العقود . ثم تحدث فى صراحة وقال إنه ضللنا فيما يتعلق بالفيلم وقال إنه يحتاج بالفعل لخدمات ممثلتين تتصفان بنفس الصفات الخاصة به . وقال ان علينا أن نصغى إليه فى انتباه . وأقسم لنا أننا إذا أصغينا لكلامه ولم نقتنع بما يقوله فانه يمكن لنا عندئذ ......

يمكنكما أن تتركا هذا المكان فأومأت برأسها وقالت : وهكذا وقعنا فى غلطة الاستماع إليه . وفى نهاية الأمر ظل يتحدث إلينا لساعات طوال . وكانت المسألة على حقيقتها أنه رغم اهتمامه الشديد بالمسرح ـ وأنه يمتلك بالفعل استوديو لتصوير الافلام فى لبنان ، الا أن اهتماماته كطبيب كانت تفوق الاهتمامات الأخرى . فى ذلك اليوم ظل يتحدث عن مساعدتنا له لكى يعبر الحدود إلى عالم جديد يجمع ما بين الفنون والعلوم . ولكى يدخل فى مغامرة فريدة ذات طابع نفسى وفلسفى . لكى يدخل فى شىء أقرب إلى رحلة غير عادية فى اللاوعى الإنسانى . كنا نود أن نعرف ما يكمن وراء كل هذه الكلمات الجميلة ـ ثم ذكر لنا اسمك لأول مرة ، قال إنه يريد أن يخلق موقفا نلعب فيه نحن الاثنتين دورين يشبهان بعض الشىء الدورين

الموجودين فى الفيلم وبحيث تلعب أنت دور الشاعر اليونانى دون أن تكون أنت مدركا لذلك تماما .

أمالت رأسها وأشاحت ببصرها بعيداً للحظات وعلى نحو تعجز الكلمات عن التعبير عنه . ثم قالت : يا نيقولاس ، لقد أصبنا بالحيرة والدهشة والذهول . فكما تعرف فان رجال المسرح الحقيقيين يكونون عادة سخفاء بعض الشىء ويبدو عليهم الافتعال أثناء وجودهم بعيداً عن المسرح . وموريس .. أذكر أن جين قالت إنها شعرت بالاهانة ، إذ كيف يجرؤ أن يعتقد أن بإمكانه شراء الناس لمجرد أنه رجل واسع الثراء . لقد طعنته جين فى الصميم عندما أبدت هذه الملاحظة . وشعر موريس بالألم النفسى . وألقى محاضرة مستفيضة . عن عقدة الشعور بالذنب التى يشعر بها دائما ازاء ثروته الطائلة . وكيف أن شغفه الوحيد الحقيقى كان ينصب على رغبته في توصيل المعرفة الانسانية للآخرين . وكيف أن حلمه الوحيد هو التوصل إلى نظرية راسخة وكيف أن الأمر لم يكن بمثابة أنانية من جانبه وليس مجرد نزوة تمرّ به .. بل وتمكن من اقناع جين بوجهة نظره فى نهاية الأمر .

- كان ينبغى أن تسأليه عن جوانب تلك النظرية .

- لقد سألته مرارا وتكرارا عنها . ولكنه كان ينتهى إلى الفكرة القديمة نفسها فجأة . وهى أننا اذا عرفنا جوانب النظرية فان ذلك سوف يلوث نقاء التجربة . ويكرر نفس كلماته السابقة .

ثم أكملت قائلة : من المؤكد أنه يتحرق شوقا لأن يعرف ما يدور فى نفسك من مشاعر حقيقية ولأن يعرف الأمور التى تفكر فيها . نظرا لأنك المركز الذى يدور حوله كل شىء لانك خنزير التجارب الرئيسى .

- من الواضح أنه كسبك إلى صفه .

لقد قضينا ليلة بمفردنا نتناقش فى ذلك الأمر . وكنت أنا واختى فى غاية التذبذب والتردد . وفى نهاية الأمر قررت جين أن تجرى اختبارا بسيطا . فنزلنا فى صباح اليوم التالى واخبرنا أننا نرغب فى العودة الى بلدنا بأسرع ما يمكن ، فراح يجادل ولكننا تشبثنا بالعناد وفى النهاية رضخ وقال إنه سيأمر باحضار اليخت من نوبليا لكى ينقلنا الى أثينا . لكننا اخبرنا بأنه لا داعى لليخت وأبدينا رغبتنا فى أن نأخذ الباخرة العائدة إلى أثينا .

ـ وهل سمح لكما بالذهاب ؟

وقمنا بحزم امتعتنا ثم اصطحبنا فى الزورق وقد التزم بالصمت الشديد . ووصلنا الى نقطة على مسافة مائة ياردة من الباخرة ، فنظرت إلى جين . كان مبتهجا للغاية . ولم يوجه اللوم لنا على الاطلاق وقال إن ذلك قد برهن على أن اختياره كان سليما فقد رأينا الدنيا مظلمة فى كل مكان سنذهب اليه .

وخلال كل هذا كنت انتظر ان اسمع اشارة إلى الماضى . اشارة الى المعلومة المحددة التى اعرفها عن كونشيس والتى تفيد بأن كونشيس قد خصص ثلاثة فصول من فصول الصيف من أجل «نظريته التى طال تمسكه بها» لكنى منعت نفسى من الكلام . وربما احست جولى بانى مازلت متشككا .

نظرت فى امعان إلى رأسها المنحنى وإلى خطوط جسدها وقربها الشديد منى . وكدت أسمع صوت كونشيس وهو يجيب عن شكوكى المتعلقة بالمصادفة . اذا ، لماذا أنت هنا مع هذه الفتاة ؟ أو هل هذا يهمك طالما انك معها هنا ؟ قالت :

جين تقول إنه يوجه اليك اسئلة كثيرة تتعلق بى .

اتجهت نظراتها إلى السماء للحظات . ثم قالت : أنت ليس لديك فكرة عما يدور . فاستجوابه لى لا ينصب عليك فقط . إنه يسألنى عمّ اشعر به . وعمّ اذا كنت أصدق كلامك .. بل يسألنى عمّ يدور فى داخل ذهنه أى فى داخل ذهن كونشيس . هل تتخيل أن يحدث كل هذا .

ـ من الواضح اننى لم أكن ممثلا .

ـ لم يكن ذلك واضحا بالمرة . لقد اعتقدت أنك انسان ذكى فأنت تمثل بطريقة طبيعية وكأنك لا تعرف التمثيل أو لا تستطيع أن تمثل . لقد أدركنا منذ فترة طويلة أن الخط الأول الذى قدمه لنا ـ وهو أنه ينبغى علينا أن نحيرك ، كان بمثابة وسيلة تضليل . فطبقا للنص المكتوب للفيلم نقوم نحن بخداعك .. الا ان هذا يؤدى إلى وقوعنا فى التضليل أكثر منك .

أهذا هو النص المكتوب الخاص بالفيلم ؟

ـ «النص المكتوب» نكتة وأضحوكة .

وهو يكاد لا يخبرنا بالوقت الذى نظهر فيه والوقت الذى نختفى فيه .

ونوع الجو الذى يخلقه . إنه طوال الوقت يخبرنى أنه اذا لم تسر الأمور وفقا للخطط الموضوعة فإن هذا لا يهم . طالما أننا نحرص على تحقيق التطور الرئيسى ، كل شيء يتعلق بالقيام بتمثيل الأدوار . وكيف يتصرف الناس ازاء مواقف لا يفهمونها .. لقد قال إن ذلك جزء من الموضوع .

ـ هناك شيء واحد واضح تماما . انه يريد لنا أن نعتقد أن يضع بيننا كل أنواع العراقيل . ثم يعطينا كل هذه الفرص لتحطيم العراقيل .

ـ أولا لم يكن هناك كلام عن نصب الشباك لك بحيث تقع فى حبى اللهم الا اذا كان ذلك الحب متمشيا مع ذلك الطراز القديم من الحب الذى كان سائدا فى عام ١٩١٥ .

وبحلول الأسبوع الثانى اقنعنى أنه ينبغى علىَّ أن أتوصل إلى مكانة وسط ما بين ذاتى الزائفة لعام ١٩١٥ وبين ذاتك الحقيقية لعام ١٩٠٣ . وسألنى عما سأفعله اذا اردت أنت ان تقبلنى ، كثيرا ماتقوم الفتاة بتقبيل الرجال على المسرح . وفى نهاية الأمر اتخذت قرارا فى هذا الشأن . ولذلك اصطنعت ذلك المشهد الرهيب .

ـ كان مشهدا تمثيليا جميلا ولطيفا .

ـ تلك المحادثة الأولى معك . لقد احدثت لى ذلك الأثر الرهيب المخلَّف فى دماغى من خبرة سابقة ، أثرا أسوأ بكثير من أى أثر سبق أن تعرضت له على مسرح حقيقى .

ـ ولكنك أرغمت نفسك على أن تدعينى اقبلك .

ـ لسبب واحد وهو أننى اعتقدت انه كان ينبغى علىَّ أن أرغم نفسى على ذلك ، أظن أن الأمر بالنسبة له اقرب الى الافتراض الرياضى ، حيث يمكن له أن يضعنا فى المكان الذى يحبه فى المعادلة الرياضية الخاصة به . اننى غير ملتزمة بالصدق والامانة . لقد اردت ان اعرف الاحاسيس التى سأشعر بها لدى قيامك بتقبيلى .

ـ رغم الدعاية المضادة .

ـ تلك الدعاية المضادة لم تبدأ الا بعد ظهر يوم الأحد . رغم أنه قد حذرنى من التورط معك عاطفيا

وحملقت فى السجادة . وحامت فراشة صفراء اللون فوق رأسينا ثم انزلقت بعيداً . سألتها :

هل ذكر لك سبب ذلك ؟

«نعم .. إنني قد اجعلك تكرهني يوما ما ولانه يتعين عليك ان تبدأ فى الشعور بالانجذاب نحو جين . فكل شىء يرجع مرة اخرى الى قصة «القلوب الثلاثة» المثيرة للسخرية والاستهزاء . فشخصية الشاعر تنقل بالفعل عواطفه وميوله . احدى الأختين كانت متقلبة الأطوار . والأخرى تمسكت به لدى ارتطامه بالفتاة الأولى والارتداد عنها مثل الكرة على النحو الذى تعرفه ، فهو ينتهز كل فرصة ليعيب فيك بشكل رهيب . ويذكر عيوبك أمامنا ، نحن الاختين كما لو كان يعتذر لكلاب الصيد عن إحضار ثعلب شنيع ورهيب كهذا . ومن الواضح أن هذا أمر سخيف للغاية . خاصة عندما تكون قد قمت بكل أعمال الصيد . هل تذكر المحاضرة التى ألقاها علىَّ ـ عندما كنت ليلى ـ والتى قال فيها عنك إنك لا تمتلك موهبة الشعر ؟ ولا روح الفكاهة ؟ أنا واثقة من أنه كان يقصد توجيه هذا الكلام الى بقدر ما هو يوجهه اليك .

ولكن ما الذى يجعله يدفعنا نحو بعضنا البعض ؟

لم تردّ توّاً . ثم قالت اخيرا. لا اعتقد ان قصة «القلوب الثلاثة» ذات اهمية . ولكن هناك إنتاج أدبى أعظم مثل «العاصفة» لشكسبير .

تأملتها وهى تتكلم ، ثم قلت : وماذاعن المكان السرى الذى تختبئان فيه ؟

ـ يا نيقولاس . لا أستطيع أن أريك اياه . فاذا كان هناك من يقوم بمراقبتنا فانهم سيشاهدوننى وأنا أريك ذلك المخبأ .

ـ هل هو قريب من هنا ؟

ـ نعم .

على الأقل يمكنك ان تخبرينى بالمكان الذى يوجد فيه المخبأ على افتراض أنك قد تقعى فى المتاعب وتحتاجين لأن أساعدك .

فابتسمت وقالت : اذا كان مقدرا لنا ان نلقى مصيرا أسوأ من الموت ... لكان ذلك المصير قد حدث بالفعل بعد مرور كل هذا الوقت على ما أعتقد.

ـ ولكن لماذا لا يمكننى أن أعرف مكان هذا المخبأ ؟ سبق أن وعدتِنى بذلك وأنا مازلت عند وعدى . ولكن ليس الآن لو سمحت ومن المؤكد انها لمست الحدة التى ظهرت فى صوتى لأنها لمست بها يدى وقالت : أنا آسفة . لقد سبق أن حنثت فى وعود كثيرة اخرى وعدت بها موريس خلال

هذه الساعة الأخيرة . وأنا اشعر أنه ينبغى على ان افى بهذا الوعد لك .

ـ هل هذا المخبأ يشكل أهمية بالغة ؟

ـ لا . على الاطلاق . كل ما هنالك إنه يقول إنه يريد أن يفاجئك بهذا المخبأ ذات يوم . ولست أعرف كيف سيتم ذلك .

شعرت بالحيرة .. الا أن ذلك بمثابة برهان إضافى على قصتها ، تعمدت الصمت للحظات قصيرة كنوع من الاختبار وأنا ادرك ان الكذابين يكرهون الصمت . ولكنها تخطت ذلك الاختبار بنجاح .

ـ هل تحدثت مع الناس الآخرين هنا ؟ ـ نحن لم نشاهد الآخرين لكى نتحدث معهم وبالطبع توجد ماريا ولكن لا امل ولا رجاء فيها ومن المستحيل استخلاص أية معلومات منها شأنها فى ذلك شأن جو .

ـ وطاقم البحارة على اليخت ؟

ـ انهم يونانيون . ولا أعتقد أنهم يعرفون ما يدور هنا من أحداث .

ـ هل اخبرتك جين أننا نشك فى وجود جاسوس فى مدرستك ؟

ـ من هو ؟

ـ اخبرنا موريس ذات يوم انك كنت متحفظا مع المدرسين ولذلك لم يشعروا بالارتياح نحوك .

ففكرت على الفور فى ديميترياديس وكيف انه من الغريب حقا أن دردشة طبيعية كهذه كان ينبغى أن تجعل رحلاتى إلى بورانى بالغة السرية . هذا بالاضافة إلى أننى كنت متحفظا وفاترا فهو كان المدرس الوحيد الذى أقابلة من وقت لآخر خارج الغرفة المشتركة الخاصة بالمدرسين . وتذكرت ـ فى وميض من الارتياح ـ أننى قد كذبت عليه فيما يتعلق بمقابلتى لاليسون . ولم يكن كذبى ناجما عن الخداع وانما كان لمجرد أن أتجنب مزاحه اللعين . تمتمت : ـ باستطاعتى أن أخمِّن من يكون ذلك الجاسوس .

ـ انه الجانب الوحيد فى موريس الذى لا استطيع أن احتمله . كل هذا التجسس الكثيف . وهو لديه كاميرا للتصوير السينمائى فى اليخت الخاص به . مع وجود عدسات متطورة يزعم ان كل ذلك لمراقبة الطيور ودراستها .

ـ لو تمكنت فقط من ضبط هذا العجوز ابن الزنا ...

ـ لم أشاهد هذه الكاميرا على الاطلاق . وأعتقد أن هذه مجرد وسيلة من

الوسائل العديدة التي يلجأ إليها لتغيير مجرى الحديث بهدف صرف النظر عن النقطة الرئيسية .

ورحت أرقبها فى تمعن وأدركت أن هناك بعض الصراع فى داخلها بالاضافة الى بعض التردد والحيرة وكذلك بعض الاعتراف بأنها ارادت أن تلاطفنى لكى تستخلص منى أمورا كانت تجرى على النقيض من معظم الكلام الذى نقوله . وتذكرت ما قالته اختها عنها فى الليلة السابقة . وأجريت فى ذهنى بعض التخمينات . ثم تساءلت : هل تريدين مواصلة الاستمرار هنا ؟

فهزت رأسها وقالت : لست أدرى يا نيقولاس . اليوم نعم . وغدا ربما لا . ولم يحدث لى من قبل شىء كهذا على الاطلاق . أعتقد لو كانت لدى غريزة واضحة لأدركت أننا اذا تركنا هذا الأمر فلن يحدث لنا مطلقا شىء مشابه هل تشعر بذلك ؟

ونظرت الىَّ فى تفرّس وبدت لى الفرصة مواتية ، فقفزت إلى الاختبار النهائى الذى أجريه عليها قلت : لا أشعر بذلك . نظرا لاننى أعرف أن هذا حدث مرتين على الأقل قبل حلول هذا العام .

فدهشت حتى أنها لم تفهم وحملقت فى ابتسامتى الباهتة وبعدئذ أبعدت بطنها وجلست على كعبيها وسألت : هل تقصد أن هذه ليست هى السنة الأولى لك .

وأصيبت بما يشبه النكسة بشكل واضح وظهر الضياع والاذى فى عينيها وتدفقت الاتهامات من عينيها الى عينى .

- الشخصان السابقان علىَّ في المدرسة هل قاما باخبارك ؟ وهل كنت تعرف طوال تلك الفترة ؟

وأضحت لها كيف اكتشفت ما حدث فى العامين الماضيين وكيف ان معلوماتى ضئيلة بعض الشىء وأن العجوز قد اعترف بذلك بالفعل . ومرة اخرى رحت أرقبها لكى اعرف مدى ردود الفعل عندها . ثم أضفت قائلا : لقد اخبرنى أنك أنت وأختك كنتما هنا من قبل . وأنكما تقابلتما معهما . فحملقت فى وجهى بينما مشاعر الغضب تتفجر فى داخلها ، وقالت : ولكننا لم تطأ اقدامنا أبدا .....

ونظرت فى اتجاه البحر . ثم قالت اوه انه انسان لا يطاق . اذن فأنت طوال الوقت كنت تظن أننا .... ، وتحدثت معها عن ميتفورد وحسب قصة العجوز ، فقد كان من المفروض ان يجذبها ميتفورد اليه . قامت هى بتوجيه بعض الاسئلة اليَّ حيث تريد أن تعرف كافة التفاصيل . قالت : وأنت ليس لديك فكرة بالفعل عما حدث معهما ؟ من المؤكد أنهما لم يقوما باخبار اى شخص فى المدرسة على الاطلاق . ولقد كتبت خطابا الى ميتفورد . ولكنه لم يرد عليّ حتى الآن .

وراحت تتفحص عينى مجددا ثم نظرت لاسفل ، وقالت : سأفترض ان هذا يدل على أن الأمر لا يمكن ان يكون بشعا فى نهاية المطاف .

ـ وذلك هو ما أحاول أن أقوله لنفسى .

ـ يا له من أمر بالغ الغرابة .

ـ يستحسن ألا تخبريه .

ـ لن أخبره بالطبع . هل تعتقد أن لديه عددا لانهائيا من الأخوات التوائم ؟

ـ لا يمكن أن يجد فتاتين توأم لهما نفس مواصفاتكما .

نظرت لاسفل متفادية النظر فى عينى . وتساءلت : ما الذى ينبغى ان نفعله من وجهة نظرك ؟

ـ متى يتوقع له أن يعود ؟ أو التظاهر بأنه يعود ؟

ـ هذا المساء . أو هكذا قيل لنا بالأمس .

ـ من الممكن أن يكون ذلك لقاء ممتعا ومثيرا . «وقد أفصل من العمل على أساس أننى تنقصنى المهارة اللازمة» .

فقلتُ فى رقة : عندئذ سأعثر لك على وظيفة .

سادت فترة صمت فمددت يدى لتلتقى مع يدها جذبتها نحوى . واضطجعنا وقد تباعد جسدانا قليلاً . بدأت أتعقّبُ خطوط وجهها .. والعينين اللتين أغلقتهما . ثم تتبعتُ الأنف حتى أرنبة الأنف . استجابتْ وان كنت قد أحسستُ بشىء من التحفّظ . تباعدنا بعض الشىء وقمتُ بالحملقة فى وجهها . بدا لى أن وجها لا يمكن لى أن أسأم منه على

الاطلاق ، وجها ليست به أية عيوب ، فتحت عينيها وابتسمت لى ابتسامة رقيقة فى شىء من التحفظ سألتنى : فيم تفكر ؟

ـ كم أنت جميلة للغاية .

ألم تقابل صديقتك فى أثينا بالفعل ؟

ـ هل ستشعرين بالغيرة اذا كنت قد قابلتها ؟

ـ نعم .

ـ أذن فأنا لم أقابلها .

ـ أراهن أنك قابلتها بالفعل

ـ بكل صدق وأمانة . أقول لك انها لم تتمكن من المجىء .

ـ اذن ، كنت ترغب فى مقابلتها ؟

ـ بدافع الشفقة ولمجرد أن أقول لها إنه لا فائدة تُرجى من وراء علاقاتنا معا وإننى قد أعطيت كل روحى وقلبى لفتاة ذات قوى سحرية هائلة .

وقبلت يدها ثم قبَّلتُ الندبة الغائرة . ثم قمت بتقبيل معصمها وجذبتها نحوى مجددا ثم قمت بتقبيل عينيها ورقبتها وعلى طول فتحة ثوبها فوق الثديين مباشرة ثم عثرت على فمها مرة آخرى . لايزال هناك شىء ما يتسم بالقلق فى عينيها . فجأة أغلقت عينيها ثم امتد فمها نحو فمى كما لو كان بمقدورها أن تتكلم بشفتيها على نحو أفضل من التحدث بالكلمات . وما إن بدأنا نغيب عن كل ما يدور حولنا فيما عدا شفاهنا الملتحمة وجسدينا المتلاصقين تماما حتى حدث ما يعرقل هذه النشوة الغامرة .

انه صوت الجرس الذى جاء متراميا من المنزل . على هيئة دقات منتظمة واحدة ، دقات ملحة فى إصرار مثل ناقوس الخطر . جلسنا ونظرنا فيما حولنا وقد اعترانا شعور بالذنب . رفعت جولى يدى لأعلى لكى تنظر إلى ساعة يدى . ثم قالت : «من المحتمل أن تكون جين هى التى تدق الجرس . فقد حان وقت تناول طعام الغذاء» انحنيت وقبلت رأسها وقلت : أفضل البقاء هنا .

فقالت فى هذه الحالة ستجىء لكى تبحث عنا ، معظم الناس يعتقدون أن جين اكثر جاذبية منى .

توقف الجرس عن الدق . وظلت ممسكة بيدى . ثم قالت : ربما لمجرد انهم يريدون منها شيئا ما ويدركون أنها تعطيهم ذلك الشىء على نحو

أسهل مما أفعل أنا .

قامت بهز رأسها كما لو كان الأمر غاية فى التعقيد . ثم قالت : أنا لست عذراء يا نيقولاس .

قبلتنى بسرعة . ونهضت واقفة والتقطت سلتها بينما قمت بطيّ السجادة ووضعها تحت ذراعى . واندلقنا فى اتجاه المنزل . وما كدنا نقطع خطوات قليلة ، داخل أشجار الصنوبر حتى شاهدت لمحة خاطفة لهيكل أسود يتراجع للوراء . لم أتمكن من مشاهدة الرجل الاّ بصعوبة . كان هناك شىء واضح تماما بالنسبة للطريقة التى يتحرك بها . قلت : كنا تحت المراقبة . ذلك الرجل جو كان يرقبنا .

لم نتوقف عن السير ، ألقت نظرة إلى الخلف . وقالت : لا يمكن أن نفعل شيئا علينا أن نتجاهله .

لم يكن باستطاعاتنا آن نتجاهل هاتين العينين المخبآتين بين الأشجار . سرنا متباعدين عن بعضنا البعض بل وكاد الشعور بالذنب يتغلغل فى داخلنا .

عند اقترابنا من صف الأعمدة نهض هيكل حافى القدمين واقف على السلم قائلة : كنت على وشك البدء فى تناول الطعام بدونكما . فأنا أشعر بالجوع الشديد . كان القميص غير مقفول بالأزرار فتمكنت من رؤية مايوه بكينى داكن . وكانت كلمة بكينى جديدة للغاية آنئذ مثلما أن موضة البكينى كانت جديدة تماما فى ذلك الوقت ، كان هذا اول بكينى أشاهده على الطبيعية خارج نطاق الصور الفوتوغرافية التى تنشرها المجلات فأحسست بشىء من الصدمة . سرة البطن العارية والساقان الرشيقان والبشرة الذهبية وزوج من العيون المتسائلة فى شىء من المتعة والتسلية . ضبطت جولى متلبسة وهى تنظر إلى هذه الشابة المنتمية للبحر المتوسط . والتى زادت من اتساع ابتسامتها . ذهبت جين إلى ركن صف الأعمدة ونادت على ماريا ثم عادت إلى أختها . عندما جلسنا إلى المائدة ظهرت ماريا . وتحدثت الى جولى . كان المقرر أن يصل اليخت فى الساعة الخامسة لكى ينقل الفتاتين بعيداً . كما أن هيرميز سيجىء ليصطحب ماريا ويعود بها إلى القرية لقضاء ليلة هناك . كى تعرض نفسها على طبيب الأسنان كما أن «الجنتلمان الشاب» عليه ان يعود إلى مدرسته نظراً لأنه سيتم اغلاق

المنزل تماما .

قالت جولى : كنت أعتقد أننا سنبقى هنا .

ثم نظرت فى شك إلى أختها التى قامت بالنظر الىَّ ثم نظرت إلى جولى متسائلة :

ـ هل نحن نثق فيه ؟ هل يثق هو فينا ؟

ـ نعم .

نظرت إلى جولى لكى تساعدنى ، فتمتمت قائلة : اعتقدت أنك زعمت أنك درست اللغة الانجليزية فى اكسفورد . وتصاعدت فجأة ظلال من الشكوك بيننا .

اكتشفت أن جين هى الأخت الأكبر سنا من خلال وسائل وطرق متعددة : إذ اكتشفت أنه يوجد فى داخلها رغبة فى توفير الحماية والرعاية لأختها وهى رغبة نابعة من شخصيتها الأكثر انفتاحا ومن تجربتها مع الرجال . كانت هناك مسحة من الحقيقة فى توزيع الادوار فى المسرحية التنكرية . أخت ميالة إلى توكيد الذات على نحو أكثر من الأخرى ، وأخت هشة أكثر من الأخرى . جلست بينهما مواجها للبحر فى حالة تيقظ شديد بسبب الرجل الذى يحرص على مراقبتنا ، وبدأت الفتاتان فى استجوابى عن ماضىّ : لذلك رحنا نتحدث عن نيقولاس ، عن أسرته وطموحاته وعن نقاط ضعفه ونقائصه . عن والدتهما ثم تنافستا على سرد قصص الحب والحنان والتى تتناول سخافة والدتهما .. كان الأمر أشبه بالدخول فى غرفة دافئة لذيذة عقب رحلة باردة طويلة . غرفة تتصف بالدفء الجنسى أيضاً . ومع قرب الانتهاء من تناول الطعام انزلقت جين خارجة من قميصها . وردا على ذلك أخرجت جولى لسانها لأختها بطريقة أخوية فردت عليها جين بابتسامة مكتوبة . وبدأت أجاهد نفسى لكى أمنع نفسى من النظر إلى ذلك الجسد المثير ؛ اذ كانت قمة البكينى لا تكاد تغطى الثديين وكان النصف الأسفل من البكينى مربوطا مع الردفين بشرائط بيضاء شفافة تسمح برؤية البشرة تحتها . وأدركت أنه كان يتم إغاظتى ببعض الشىء وتتم مغازلتى بشىء من .... ربما قدر من الانتقام الخفيف الذى قامت به جين نظرا لابعادها لفترة طويلة للغاية .

وفى حوالى الثانية بعد الظهر قررنا أن نذهب إلى شاطىء موتسا لكى نستحم ولنرى ما اذا كان سيتم السماح لنا بذلك . وعدت لأتحدى جو اذا

اعترض سبيلنا . وبدا على الفتاتين أنهما تشاركاننى الرأى حسب قوة جو الجسدية . هبطنا المدق متوقعين أن يتم اعتراض سبيلنا فى أية لحظة حيث قد سبق أن تم اعتراض جين ذات مرة . ولكن لم يظهر احد . لا توجد سوى أشجار الصنوبر وحرارة الجو . اخترنا لأنفسنا مكانا يقع عند منتصف المسافة إلى الشاطىء ونشرنا سجادتين على مساحة مفروشة بأوراق الصنوبر . ثم قامت جولى بخلع جوربها الحريمى ، ثم فستانها ، كانت ترتدى ثوبا نسائيا عارى الظهر أبيض اللون متكونا من قطعة واحدة تحت الفستان الذى خلعته . وبدا عليها شىء من الخجل والارتباك بسبب ضعف لون بشرتها المائل للسمرة الناجمة عن التعرض لأشعة الشمس . نظرت الىّ نظرة عابسة وقالت : كنت جالسة فى ذلك اليخت اللعين تحت مظلة تقى من حرارة الشمس بينما كل ما تفعله هو .....

قامت كل منهما بترتيب شعرها ثم سارتا الى الماء وسبحتا لمسافة بعيدة عن الشاطىء ونظرت أنا فى اتجاه بورانى ولكنى لم أشاهد احداً . كنا بمفردنا تماما فى هذا العالم . ثلاثة رؤوس فى المياه الزرقاء الباردة . شعرت بأننى قريب من السعادة المطلقة ، وأحسست أننى مثل طائر يرفرف فى الهواء . لم تكن لدى الرغبة فى أن أعرف ما ستسفر عنه الأمور . كنت متوافقا تماما مع اللحظة الحاضرة . مع اليونان ، مع هذا المكان المفقود ، مع هاتين الحوريتين اللتين تدب فيهما حياة حقيقية . وعدنا إلى الشاطىء وجففنا أجسادنا واستلقينا على السجادتين حيث استلقيت بجوار جولى التى دهنت جسمها بالزيوت . أما جين فكانت منبطحة على بطنها عند الطرف البعيد للسجادة الثانية وقد وضعت رأسها بين يديها واستدرات بوجهها نحونا . رحت أفكر فى المدرسة وفى تلاميذها المكبرتين ومدرسيها المتجهمين وفى نقص الأنوثة ، وعدم وجود النواحى الجنسية الطبيعية فى الحياة المدرسية . وعدنا للتحدث عن موريس مرة أخرى ولبست جولى نظارة الشمس الخاصة بها واستقلت على ظهرها بينما ظللت أنا مرتكزا على مرفقى .

سادت فترة قصيرة من الصمت ربما بسبب الخمور التى تناولناها مع الغذاء أو بسبب الشمس المخدرة الباعثة للنعاس . ومدت جين يدها الى ظهرها وقامت بفك الخطاف الموجود فى أعلى المايوه البكينى من الخلف ثم تمددت بجسدها لأعلى وخلعت الخطاف ووضعته على الأحجار بجوارها

لكى يجفّ . فلمحت ثدييها بينما هى تمد يدها لكى تفعل ذلك . كما لمحت ظهرها الطويل الذهبى الذى يفصله عن الساقين الطويلين الذهبيين الشريط المشدود ذو اللون الأزرق الداكن . ولم يكن هناك شريط أبيض اللون على بشرتها . وكان الثديان لهما نفس لون باقى البشرة . من المؤكد أنها قد سبق لها أن عرضت جسدها مرات عديدة لأشعة الشمس على ذلك النحو . لقد فعلت ذلك بشكل طبيعى . وحرصت على أن تنظر عيناى فى اتجاه البحر عندما استلقت مرة أخرى والتفتت نحونا . وأصبت بالصدمة مرة أخرى : فهذه الملابس لم تكن متمشية مع آخر موضة فقط وانما كان السلوك أيضاً هو سلوك سابق على أوانه لسنوات عديدة . أدركت أنها تحملق فى وجهى وتدعونى الى عقد مقارنة . وبعد لحظات قليلة حركت رأسها لكى تنظر فى الاتجاه الآخر . فرحت أتطلع إلى قوامها البنى اللون ثم نظرت لأسفل إلى جولى ، واستلقيت على ظهرى وتحسست بيدى باحثا عن يد الفتاة المستلقية إلى جوارى . وتجعدت أصابعها بين أصابعى وراحت تعبث وتلعب وتتقلص . فأغلقت عينى .

ولكن سرعان ما حلّ بى العقاب فبعد دقيقتين ترامى زئير فجائى وقادم من اللامكان . أدركت أن ذلك صوت لم أسمعه منذ أن جئت إلى الجزيرة : إنه صوت طائرة تنطلق على ارتفاع منخفض . فهبت جولى جالسة وكذلك فعلت أنا أما جين فاكتفت بالاستناد على مرفقها وقد أعطت ظهرها لنا . وكانت الطائرة منخفضة ، خرجت فى لمح البصر من خلف رأس بورانى وانطلقت بسرعة البرق فوق المياه . واختفت فى ثوانٍ قليلة وراء لسان الأرض الممتد فى البحر فى اتجاه الغرب ، تمكنا منً مشاهدة العلامات الأمريكية قبل اختفائها . وبدا على جولى أنها مهتمة أكثر بظهر أختها العارى ، وقالت جين : يا له من طيار وقح ، من المحتمل أن يعود طالما أنه قد شاهدك وأنت على ذلك النحو .

ـ لا تفرطى فى الاحتشام إلى هذا الحد .

التفتت جين نحونا وهى مرتكزة على مرفقيها وقد تدلى صدرها الصغير بجوار ذراعها القريب المنحنى . وكانت تعض شفتيها وتقول «لم أدرك أن الأمور ذهبت بعيداً إلى هذه الدرجة» .

وكان الموقف لذيذا وممتعا : كانت تشعر بالخجل والغضب فى آن واحد مثل مياه ساكنة تتكدر . ونظرت الىَّ فى تأنيب كما لو كانت الغلطة هى

غلطتى . ثم ألقيت نظرة على جين عند نهوضى واقفا ، اضطررت لأن اعض على شفتى . ثم سرت أنا وجولى الهوينى مبتعدين فى داخل الأشجار وتحت الظلال بأقدام حافية . كان هناك تورد جذاب للغاية فى خديها وتحريض واثارة وعناد فى فمها . قالت أختها : إنها تحاول فقط مضايقتك .

ـ باستطاعتى أن اخربش عينيها إذا لزم الأمر .

ـ الانسانة الدارسة لآداب الاغريق والرومان لا تصدم بسبب العرى فى اليونان .

ـ أنا الآن لست خريجة قسم الدراسات الكلاسيكية . بل فتاة تتعرض لظروف معوقة .

فملت عليها وقبلت جانب رأسها فدفعتنى بعيدا عنها .

وصلنا الى الكنيسة الصغيرة ذات الجدران البيضاء واعتقدت أن أبوابها ستكون مغلقة . ولكن المزلاج الخشبى البدائى تداعى فى انهيار ـ من المؤكد أن شخصا ما بهذه الكنيسة نسى ان يعيد غلق الباب بالقفل . انبعثت رائحة بخور عطرية خفيفة ، نظرنا الى رسومات القديسين المرسومة على الحائط الخشبى الذى نخرته الحشرات والديدان . كنت أدرك أن انتباهنا لم يكن منصبا على صور القديسين وانما على الظلام الذى يكتنف هذا المكان الصغير . وضعت ذراعى على كتفيها . وبعد لحظات استدارت الىَّ وغرقنا سويا فى قبلة طويلة . نظرت إلى الباب المفتوح ثم دفعت جولى إلى الوراء نحو الباب إلى أن أصبح ظهرها ملاصقا للباب ثم استندت على الحائط عند جانب مفصلة الباب وبدأت ملاطفتها : قالت : لا ينبغى ان تفعل ذلك ، الا أن صوتها كان به تلك النغمة الأنثوية الغريبة التى تدعو المرء إلى الاستمرار بالقدر الذى تريده ، فقمت بازاحة الأشرطة عن كتفيها وانزلت الشرائط لأسفل إلى أن أصبحت عارية حتى خصرها . ثم رحت أداعب خصرها بيدى وارتفعت بيدى فى بطء لأعلى نحو صدرها .

هنا وضعت يديها فجأة على يدى ثم همست : لو سمحت . لم يحن الوقت الملائم بعد فمررت بشفتى على فمها وقلت لها : أنت جميلة وفاتنة للغاية .

وانزلق ذراعاها حول رقبتى وانغمسنا فى عناق . وراح كل منا يسحق الآخر وجذبتها الى جسدى فى قوة والتوى فمى وفمها فبدأت تترنح وأحسست أنها قد بدأت تفقد السيطرة على نفسها .

وترامى صوت . كان صوتا ضعيفا بحيث لم نعرف المصدر الذى صدر عنه ، فتشبثنا ببعضنا فى رعب والتفت رأس جولى لكى تنظر فى نفس الاتجاه الذى أنظر نحوه ولكن كميات الضوء القليلة المتسربة من جوانب الباب المغلق لم تساعدنا على الرؤية . وبطريقة غريزية قمنا نحن الاثنين برفع شرائط ثوبها الداخلى لأعلى ، ثم امسكت بيدها وقدتها لتصبح ملاصقة للحائط إلى جوارى ثم مددت يدى إلى الباب . وبعدئذ فتحت الباب فتدفق الضوء إلى داخل الكنيسة . وحملقت الايقونات ولم يكن هناك اى شىء آخر . ادركت أن الايقونات كانت تبعد عن الحائط مثلما هو الحال فى كافة الكنائس اليونانية ولاحظت أن هناك بابا ضيقا عند طرق واحد . فجأة تحركت جولى فى مواجهتى وراحت تهز رأسها فى عنف . فلقد خمنت على الفور من يكون ذلك الرجل : انه الزنجى الملعون . لعله تسلل فى هدوء اثناء سباحتنا فى البحر وافترض أننا لن نترك الشاطىء .

وجذبت جولى يدى وهى تلقى نظرة نحو الطرف البعيد فترددت ثم تركتها تسحبنى نحو الهواء المكشوف . وبعدئذ أغلقت باب الكنيسة فى عنف ثم نظرت اليها . دفعتنى لأن أسير لخطوات قليلة . وتحت الشمس تمكنت من مشاهدة جين وقد اشرأبت برأسها وراحت تنظر إلينا . يبدو أنها سمعت صوت باب الكنيسة لدى غلقه فى عنف . قالت جولى : من المؤكد أن موريس سوف يعرف ذلك .

لم يعد هذا يقلقنى . لقد فعل ذلك فى الوقت القاتل .

نادت جين قائلة : هل هناك متاعب من نوع ما ؟ فرفعت جولى اصبعها إلى فمها . فاستدارت أختها وجلست منتصبة القامة وارتدت الجزء العلوى من المايوه البكينى الخاص بها ثم جاءت لملاقاتنا وقالت : جو موجود هنا ، متخفيا . نظرت جين نحو الحوائط البيضاء ثم إلى وجهينا ، وقالت جولى : سأواجه موريس وأتكلم معه بكل صراحة . إما أن يذهب جو ، وإما أن نغادر نحن هذا المكان .

- لقد ابديت هذا الرأى منذ اسابيع .
- أعرف ذلك .

وعدنا إلى مناقشة الأشياء الخاصة بنا لدقائق قليلة ونحن نرقب باب الكنيسة الذى ظل علىّ ما كان عليه لكن الوجود الأسود غير المرئى فى المبنى الصغير انتشر فى جميع أرجاء المنظر الخلاّب وتغلغل فى ضوء

الشمس وانسحب على فترة ما بعد الظهر بأكملها ، شعرت باحباط جنسى عنيف .. وقررنا أن نعود راجعين إلى المنزل .

بالمنزل وجدنا ماريا جالسة خارج كوخها تتحدث مع الحمار هيرميز . وقالت لنا إن الشاى فى انتظارنا على المنضدة . وراح هذان القرويان يحملقان فى وجوهنا وهما جالسان كما لو كنا أشخاصا بعيدين عن عالمهما اشارت ماريا فى غموض تجاه البحر وقالت كلمتين باللغة اليونانية نظرنا فى اتجاه البحر لكننا لم نشاهد شيئا . قالت جولى : أنها تقول ان هناك اسطولا حربيا .

وذهبنا إلى حافة منطقة الحصباء ورأينا صفا من السفن تكاد هياكلها تكون مغمورة فى الماء وكانت تتجه شرقا عبر بحر ايجه حاملة طائرات وسفينة حربية وأربع مدمرات عاقدة العزم على الدخول فى طروادة جديدة . وهكذا عرفنا السبب فى الاقتحام العنيف للطائرة المقاتلة للأماكن الهادئة التى ننعم بها . قالت جين لعلها الخدعة الأخيرة التى يقوم بها موريس . بأن يضربنا بالقنابل حتى الموت .
وضحكنا معا إلا أن ضحكاتنا توقفت بسبب معدات الموت التى تحمل آلاف الرجال . وقفت بين الفتاتين وأحسست بتداعى المشروع العجوز بل وبتداعى الزمن فى حدّ ذاته . كنت أدرك أننى لن أتمكن من الحصول على مغامرة كهذه مستقبلا ، وكنت على استعداد لأن أضحى بكل أيامى المتبقية من أجل أن أجعل فترة ما بعد الظهر هذه لا نهائية .
وتناقص الشعور بالغبطة الذى كان يجتاحنى اكثر أثناء تناول الشاى ، إذ كانت الفتاتان قد دخلتا إلى داخل المنزل ثم ظهرتا مرة أخرى مرتديتين ملابس الصباح نفسها . كانتا فى حيرة من أمرهما بشأن ما ينبغى عليهما أن تفعلاه . لقد تحدثنا عن امكان مجيئهما معى إلى الجانب الآخر من الجزيرة وقضاء الليل فى الفندق . لكننا فى نهاية الأمر قررنا اعطاء كونشيس فرصة أخيرة لكى يعلن عن نفسه بوضوح . وكنا مازلنا نتناقش عندما وقع بصرى على شىء فى عرض البحر . اقترب ذلك الشىء منا ودار حول لسان الأرض الممتد فى البحر . كانت الفتاتان قد تحدثتا معى عن هذا اليخت ، وكيف انه بمثابة برهان ساطع على ثراء العجوز . وعدنا جميعا الى منطقة الحصباء حيث يمكن لنا مشاهدة ذلك الشىء فى مزيد من الوضوح . كان به قبطانان . وكان يتحرك فى بطء شديد تحت قوة الموتور

وبدا هيكله طويلا أبيض اللون .. كما تدلى العلم اليونانى فى تكاسل من صارية موجودة فى المؤخرة . وشاهدت ستة بحارة وكان اليخت مازال بعيداً مما تعذر معه مشاهدة وجوه الناس . فقالت جين : عليك أن تشاهد ما هو تحت ظهر اليخت ؛ فهنالك ثمانية أصناف من العطور الفرنسية فوق المنضدة بمقصورتنا .

وكاد اليخت يتوقف تماما عن الحركة ، لم يكن اليخت فى حد ذاته تنقصه النواحى الجمالية ، لكننى شعرت بشىء سخيف يتعلق بامتلاكه وشاهدت نفسى بداخله يوما ما . وتصاعدت فى داخلى مشاعر الحسد والحقد تجاه الفتاتين . لقد كان الأمر أكثر سهولة بالنسبة لهما . فجمال الشكل كان هو جواز المرور لهما لكى تدخلا إلى ذلك العالم . لقد كان الحصول على الأموال هو أمر له طابع الذكورة . وربما أحست جولى بكل هذا . وعند رجوعنا إلى صف الأعمدة لكى تقوما بحزم أمتعتهما ، أمسكت بيدى وجذبتنى إلى داخل المنزل بعيداً عن سمع وبصر جين وقالت لى : سأغيب عنك لأيام قليلة فقط .
ـ انها أيام ستبدو كأنها سنوات .
كنا واقفين وقد اقترب جسدانا ، سألتها ، هل تشعرين بنفس الشعور ؟
ـ لا أعرف يا نيقولاس ما أشعر به . أريد أن احس بنفس الشعور .

ثم نظرت نحو الأبواب المفتوحة وقالت : «اننى اود أن اخرج معك فى احدى الليالى ولكن .. يمكننى أن أعمل ترتيبى على يوم الأربعاء حيث يمكن لنا أن نتقابل بجوار الكنيسة الصغيرة» .
وطلبت منى أن أتفهم الموقف ، وقالت : ربما لا نكون هنا .
ـ سوف أجىء . عقب حلول الظلام . وسأظل منتظرا حتى منتصف الليل . فذلك أفضل من قيامى بقضم أظافر أصابعى فى تلك المدرسة اللعينة .
ـ وأنا سوف أحاول . اذ كان بمقدروى أن أجىء اليك . اذا كنا موجودين هنا .

وخرجنا .. كانت جين تنتظر بجوار منضدة الشاى ، ثم أومأت برأسها . وهنالك كان الزنجى واقفا على المدق الذى يؤدى لأسفل إلى الشاطىء الخصوصى . وزأرت سرينة اليخت مرة أخرى . وترامى إلى سمعى صوت محرك فى مؤخرة زورق قادم بسرعة نحو الشاطىء . رفعت جين إحدى يديها وتمنيت لهما حظا سعيداً . ثم شاهدتهما وهما تسيران فى فستانيهما

ورديّ اللون وقد أمسكت كل منهما بسلتها فى يدها . استدار الزنجى قبل أن تصلا اليه بفترة طويلة وشرع فى النزول على المدقّ . كان واثقا أنهما ستسيران وراءه . وبعد أن اختفت رأساهما تماما ذهبت إلى قمة المدقّ . ودخل الزورق إلى الخليج . وسار بحذاء رصيف الميناء . ونزلت إلى رصيف الميناء ورأيت الهيكل الأسود للزنجى والهيكلين الورديين للفتاتين خلفه مباشرة . وكان هناك بحار فى الزورق يرتدى شورتا أبيض بالإضافة إلى قميص أزرق غامق . ساعد البحار الفتاتين على الصعود إلى الزورق ، ثم قفز الزنجى داخل الزورق . ثم اتجه الزورق إلى عرض البحر . من المؤكد أنهم عقب التحرك لمسافة ياردات قليلة قد تمكنا من مشاهدتى واقفا فى أعلى المدقّ حيث لوحتا لدى مغادرتين الميناء الصغير .

استدرت عائدا إلى المنزل حيث كانت ماريا تنتظر لكى تغلق أبواب المنزل تماما . لم أحاول انتزاع المعلومات منها من خلال توجيه الأسئلة حيث كنت أدرك أنه لا فائدة من وراء ذلك . فصعدت إلى غرفتى وعبأت حاجياتى فى حقيبتى وعندما نزلت إلى الدور الأول كان الزورق يتم رفعه لوضعه داخل اليخت الذى شرع فى الابحار . وشعرت بالرغبة فى مراقبة اليخت إلى أن يغيب عن الانظار ولكننى أدركت أنه ربما يكون هناك شخص ما يقوم بمراقبتى من مكان ما ، قررت ألا أقوم بدور الرجل الذى عوقب بتركه وحيداً فى جزيرة مهجورة .

وبعد لحظات انطلقت عائدا إلى المستعمرة الكئيبة والتى اقضى فيها العقوبة اليومية والتى تقع عند الجانب البعيد للحلم . مثلما ترك سيدنا آدم جنة عدن .

(٤٨)

أثناء عودتى رحت أعانى من ردود الفعل الناجمة عن أحداث اليوم ، ولم يكن باستطاعتى أن أشك فى البرهان المادى الذى قدمته جولى على أنها انسانة ينبغى علىَّ أن أثق فيها من الناحية العاطفية . ولكننى ظللت أفكر فى اسئلة أخرى ينبغى على أن أوجهها لها ـ كان من السهل ادراك أن الفتاتين لاتزالان تسايران الطرفين ـ بمعنى أن جولى قد تجدنى جذابا من الناحية الجسدية ومع ذلك فهى على استعداد لأن تقوم بتضليلى . كما أن هناك أيضاً اجتماعى التالى مع كونشيس : وهو دليل قوى على أننى أعرف حقيقة أمر الفتاتين وأننى تأكدت من ذلك من مصادر بعيدة عن الجزيرة .

وهذا فى حد ذاته قد يبرهن على أنه أمر مفيد للغاية .

فى مساء يو الأحد ، وبعد ان عدت إلى غرفتى قمت بتحرير خطابات إلى مدام هولمز فى سيرن أباس ، وإلى ب . ج فيرن مدير بنك باركليز وإلى ناظرة المدرسة الاعدادية التى قامت جولى بالتدريس فيها . فى الخطاب الأول قلت لمدام هولمز إننى قد تقابلت مع ابنتيها بخصوص الفيلم الخاص بهما وأن ناظر المدرسة الريفية طلب منى أن أعثر له على مدرسة ريفية بانجلترا يمكنها أن تقدم «أصدقاء بالمراسلة» وأن الفتاتين اقترحتا أن أكتب لأمهما وأطلب منها أن تجعلنى على صلة مستمرة مع المدرسة الابتدائية فى سيرن أباس . وفى الخطاب الثانى قلت إننى أرغب فى فتح حساب بالبنك وإنه قد تمت التوصية علىَّ بمعرفة اثنتين من زبائن فرع البنك . وفى الخطاب الثالث أعطيت لنفسى رئاسة لمدرسة اعدادية ستبدأ أعمالها فى الخريف بأثينا وقلت إن الآنسة جوليا هولمز تقدمت بطلب لهذه المدرسة للحصول على وظيفة .

ووضعت الخطابات فى صندوق البريد كما وضعت خطابا موجها إلى ليفاريير .. وكان لدى الأمل فى أن يكون هناك خطاب فى انتظارى مرسل من ميتفورد تعمدت أن يكون خطابى المرسل إلى ليفاريير مقتضبا للغاية وبحيث أعرفه على شخصيتى ، ثم أقول له : السبب الرئيسى الذى دفعنى للكتابة اليك أننى تعرضت لموقف معقد . ولقد علمت أنك اعتدت على أن تزور كونشيس هناك وأنا احتاج بالفعل للحصول على نصيحة شخص آخر وأحب أن أضيف أن مساعدتك لى فى هذا الشأن لن تعود بالفائدة علىَّ فقط . لأن هناك اشخاصا آخرين متورطين .

وحتى لحظة اغلاقى ذلك الخطاب كنت أدرك أن صمت ميتفورد وصمت ليفاريير هو أفضل وسيلة متاحة للتنبؤ بما قد يحدث لى . فاذا كان قد حدث فى سنوات سابقة امور غير سارة فى بورانى فان ذلك سيدفعهما لتوضيح الأمور . أما إذا التزما بالصمت فمن المؤكد أنه صمت ناجم عن الامتنان والعرفان بالجميل .

وكلما فكرت ازداد يقينى بأن ديميتر باديس هو الجاسوس . إن القاعدة الأولى للتجسس المضاد أن يتظاهر المرء بأنه مخدوع . لذلك أظهرت له روح الودّ عقب تناول طعام العشاء فى يوم الأحد . ورحنا نتنزه على حاجز المياه الخاص بالمدرسة للعصور على أية نسمة من الهواء فى تلك الليلة

التى تشع فيها الحرارة القابضة للصدر . قلت : شكرا لك يا ميلى فقد قضيت عطلة نهاية أسبوع جميلة فى بورانى حيث استمتعت بالقراءة والسباحة والاستماع للموسيقى .

كان يريد أن يعرف مقدرتى على الإبقاء على فمى مغلقا من أجل أن يبلغ كونشيس بذلك فيما يتعلق بالطريقة التى أمضيت بها وقتى هناك . كما شكرته أيضا على التزامه بالهدوء التام والسرية التامة مع باقى المدرسين الآخرين .

وبينما نتسكع نظرت عبر المياه الداكنة فى المضايق التى تقع فى الجزيرة ، فساءلت نفسى : ترى ماذا تفعل الفتاتان فى تلك اللحظة وما هى المياه الداكنة الأخرى التى يركبانها ؟

يوم الأربعاء .. يوم الأربعاء .. لم يكن باستطاعتى الانتظار لحين حلول يوم الأربعاء . ولذلك قمت عقب انتهاء الدراسة فى مساء يوم الثلاثاء بالصعود إلى أعلى الربوة . وكنت قد اقنعت نفسى بأن هذه بمثابة رحلة بلا جدوى ، ولكننى كنت مخطئا فى تقديراتى . فهنالك إلى أسفل وعلى مسافة بعيدة شاهدت ذلك الشىء راسيا مثل لعبة أطفال فى خليج موتسا مما جعل قلبى يقفز بين ضلوعى ؛ انه الهيكل الأبيض . لقد أدركت عندئذ ان العجوز قد استسلم .

(٤٩)

وصلت إلى البوابة حوالى التاسعة والنصف . وانتظرت لدقائق قليلة لكى أصغى فلم أسمع اى شىء وسرت بين الأشجار إلى مكان يمكننى منه أن أراقب المنزل . كان المنزل يرقد فى سكون فى مواجهة آخر الاضواء المنبعثة من جهة الغرب . كان هناك مصباح مضاء فى غرفة الموسيقى . وكانت هناك رائحة منبعثة عن اخشاب الصنوبر التى تحترق داخل كوخ ماريا . ولدى عودتى فى اتجاه البوابة انزلق هيكل أسود صغير فى الهواء فوق رأسى واتجه هابطا فى اتجاه البحر بين أشجار الصنوبر : ربما هو كونشيس الساحر متمثلا على هيئة بومة .

سرت بسرعة هابطا إلى خارج الضيعة نحو الشاطىء : كانت الغابة مظلمة وكان صوت الامواج خافتا للغاية . وفى داخل البحر شاهدت الضوء

الأحمر الموجود فى جانب اليخت الراسى . لم يكن هناك دليل على وجود حياة داخل اليخت . فسرت بسرعة بين حافة الاشجار نحو الكنيسة .

كانت جولى منتظرة عند الحائط الشرقى للكنيسة . وتحركت جولى للامام بمجرد ان شاهدتنى وكانت ترتدى قيمصا داخليا . وكان شعرها مربوطا للوراء بواسطة شريط . توقفنا على مسافة باردة من بعضنا وقد أصابنا الخجل والارتباك فجأة .

- هل تمكنت من الافلات منهم ؟

الوضع على ما يرام . وموريس يعرف أننى هنا ولم تعد هناك أعمال تجسس . فقد حسمنا النزاع .

- أتعنين .

- انه يعرف ما بيننا . لقد أخبرته بذلك . اخبرته أننى قد أكون مصابة بالفصام وفقا لخطته ولكننى لست كذلك فى الواقع .

لم تفارق الابتسامة وجهها . ثم اتخذت خطوة للامام وارتمت بين ذراعى . لكننى عندما حاولت أن أحتضنها فى عنف أثناء القبلة تراجعت للوراء قليلاً وقد نكست رأسها . قالت : أردتك ان تجىء . من كل قلبى .

- هيا بنا نسير للنزهة فى اتجاة الطرف البعيد . وأمسكت بيدها وبدأنا نسير الهوينى متخطيين الكنيسة ثم السير بين الاشجار . لقد قامتا بتصفية الموضوع مع العجوز بمجرد أن صعدتا إلى اليخت فى يوم الأحد الماضى . وكان من الواضح أنه قد مثل دور الساذج بعض الشىء ولكن جين انفجرت فى غيظ شديد بسبب ذلك الزنجى وبسبب التجسس الذى تم بالكنيسة الصغيرة . كانتا قد فاض بهما الكيل سواء اخبرهما بالأمور التى كان يفعلها أم لا .. وتنهدت جولى تنهيدة خفيفة تتسم بالارتياب ثم نظرت إلىَّ : أتعرف ما الذى قاله ؟ فى برود شديد وكأننا قد أخبرناه أن صنبورا يحتاج للاصلاح ؟ حسنا . هذا هو بالضبط ما كنت آمل فيه وما كنت أتوقعه . وقبل ان نتمكن من استرداد انفاسنا ، أبلغنا أن ما حدث كان مجرد بروفة على التمثيل . كان ينبغى أن تشاهد ابتسامته ، كانت ابتسامة مليئة بالزهو كأننا تلميذتين نجحتا فى امتحان بالابتدائى .

- بروفة تمثيلية من أجل ماذا ؟

أولا وقبل كل شىء فانه سيتم توضيح وشرح كل شىء لنا . فخلال عطلة نهاية الاسبوع القادم . سيجىء شخص آخر . بل أناس ومن المقرر أن

يحصلوا على أدوارنا حتى الوقت الحاضر . أعمال اللف والدوران . ولكن بمعرفتنا وبواسطتنا فى هذه المرة .

من هم هؤلاء الناس ؟

ـ لم يفصح عن ذلك . لقد افاد انه يريدك أن تكون هنا ايضا .

ـ هل من المتوقع ان تقومى بايقاع شخص ما آخر فى احابيلك ومغازلته ؟

ـ ذلك كان أول شىء قلته . قلت إننى سئمت مغازلة الغرباء بعينى . وخاصة الآن .

ـ هل قمت باخباره بما بيننا ؟

ـ ضغطت على يدى وقالت «نعم» ثم تنهدت وأضافت : قال إنه يخشى من تفجر أسوأ الأمور بمجرد أن يقع بصره عليك .

وماهى أسوأ الأمور ؟

ـ إن الجبن فى المصيدة الخاصة به قد يشغف به الفأر

وقالت : انه لا يتوقع منك أن تنجز هذا الموضوع بدون مقابل .. ولذلك سيقوم بدفع الثمن لك . وعلى كل فان ذلك لن يبدأ قبل انتهاء فصلك الدراسى وهو يريد لنا نحن الثلاثة أن نعيش وننام بأية طريقة فى المنزل الموجود بالقرية . وكأننا لم نتقابل على الاطلاق مع موريس .

ـ وهل وقعت تحت هذا الإغراء ؟ لاذت بالصمت للحظات ثم قالت : انه يريد لنا أن نتظاهر بأننا بمثابة رجل وزوجته أمام الشخص الذى سيجىء الينا مهما كان ذلك الشخص .

ـ ليس بمقدورى أن أتظاهر وأدعى فليست لى نفس مقدرتك على التمثيل .

ـ كن جادا .

ـ اننى ملتزم بالجدية فى القول .. وعلى نحو اكثر مما تظنين .

ومرة اخرى مالت برأسها على كتفى ثم قالت : حدِّثنى عمّ تشعر به .

ـ كل شىء يتوقف على عطلة نهاية الأسبوع القادم . عندما نعرف ما هو مخبأ لنا من مخاطر فى حقيقة الأمر .

نظرت إلى الخارج فى اتجاه اليخت الصامت ثم تساءلت : إلى أين ذهبتما ؟

ـ ذهبنا إلى «كيثيرا» وعدنا بالأمس .

رحت أفكر فى الأيام الثلاثة الخاصة بى : تعويض ما فاتنى من تصحيح

الكراريس المتراكمة اللانهائية الخاصة بالتلاميذ ، وتحضير اثنين من الدروس التى سأشرحها للأولاد ورائحة الطباشير والأولاد . والتفكير فى قرب انتهاء الفترة الدراسية .

قلت : لقد حصلت على نسخة من رواية «القلوب الثلاثة»

ـ هل استطعت قراءتها ؟

ـ بالقدر الذى يسمح لى بأن أصدق ذلك الجزء من الرواية .

التزمت بالصمت مرة اخرى للحظات . ثم قالت : يا نيقولاس . إننى سأفعل أى شىء تقوله ، لسوف نرجع الآن مباشرة ونخبره . بكل جدية .

فترددت ثم ابتسمت وقلت : هل يمكننى أن أعتمد عليك اذا لم اعجب بالفصل التالى الذى سيورده ؟

ـ أنت تعرف انك يمكنك الاعتماد على .

ثم استأنفنا السير ووصلنا إلى الطرف البعيد من الخليج . كان الجوّ خاليا من النسيم ، وقالت : اننى أعشق الليالى هنا . أكثر من النهار .

ـ وأنا أيضا .

ونزلنا إلى منقطة المياه . وركلت قدميها خالعة حذاءها . وخلعت أنا حذائى ايضا . تركتنى اقبلها مرة أخرى وأمسكت بها فى إحكام ثم همست فى أذنها : مازلت أذكر الحالة التى كنت عليها فى الكنيسة .

كنت أشعر بان جسدى متفكك ، لقد جعلتنى أشعر وكأننى مازلت عذراء .

ـ ألم يكن فى حياتك رجال آخرون ؟

ـ واحد أو اثنان .

وعدنا مرة أخرى إلى داخل الأشجار وصعدنا المنحدر وكانت هناك كتلتان من الصخر الجلمودى قد سقطتا منذ الماضى السحيق فوقفنا عند صخرة منهما . ثم جلست معطيا ظهرى لهذه الصخرة ، واستندت جولى علىَّ . مددت يدى وفككت الشريط الموجود حول شعرها الطويل .

ـ هل نمت مع فتيات كثيرات ؟

ـ ليست هناك واحدة مثلك ، لم يسبق لى ان احتفظت بفتاتين فى آن واحد . أدركت أن تساؤلها يخلو من الكياسة . فأضافت قائلة : لم أكن أقصد .. ولم يكن ذلك موضوعا أرغب فى التحدث عنه فى اسهاب لكنه

يحمل فى طياته انبهاراً بها طالما أنه قد تم التطرق الى هذا الموضوع .

قلت : لا أستطيع أن أنظر إلى هذا الموضوع نظرة باردة مثلما تفعل جين .

ـ هل جين لا تبدى نحوى الكثير من المشاعر الشخصية ؟

ـ انت تحصلين على موافقتها . بالنسبة للأمور الجديرة بذلك ، لقد شعرت بالكراهية نحوها فى يوم الأحد وشعرت بالكراهية نحوك لأنك لم تشعرى بالكراهية نحو أختك .

ضممتها الىَّ قليلاً ، وقلت أعرف المقدراتِ العقلية التى أفضلها .

وساد الصمت . أمسكت بيدى وراحت تتحسس أصابعى وقالت : لقد جئنا إلى هنا الليلة الماضية «لماذا ؟»

ـ كان الجو قائظا . ولم نستطع النوم . فجئنا للسباحة فى البحر . كانت هى تأمل أن يبزغ من بين الاشجار راعى أغنام يونانى محبب للنفس .

أما أنا فقد كنت افكر فى الراعى الانجليزى الخاص بى .

لم تقل اى كلام للحظات ومع ذلك كان باستطاعى أن أدرك أنها تبتسم . ارتفعت بهامتها وهمست فى اذنى : لماذا يرغب الرجال فى أن يعرفوا من خلال التعبير بالكلمات ؟

وفى اللحظة التالية هبت واقفة على قدميها وجذبتنى لكى أقف على قدمى . ورجعنا عائدين إلى الشاطىء . كان الضوء الأحمر يطفو سابحا على جانب اليخت الأبيض . وكانت هناك ومضة من الضوء تنفذ من الأشجار العالية الموجودة فى مواجهة المنزل . أمسكت باطراف قميص نومها ورفعت يديها لأعلى لكى أقوم بخلع قميصها من فوق رأسها . ثم أدارت ظهرها لى لكى أقوم بفك صديرية الثديين . بينما راحت تعبث بيديها فى جونلتها . وانزلقت بيدى إلى الأمام . وسقطت جونلتها لأسفل . واستندت بظهرها علىَّ للحظات قليلة وغطت بيديها يدى لكى تسكتهما وتثبتهما على صدرها ، قمت بتقبيل منحنى رقبتها . ثم سارت نحو الماء بشعرها الطويل وقوامها الرشيق الشاحب مع وجود شريط ابيض وضيق حول خصرها . صدى ليلى لأختها على نفس الشاطىء عندما كانت أختها غارقة تحت وهج الشمس منذ ثلاثة ايام مضت . وقمت بخلع ملابسى . ودون أن تنظر وراءها اقتحمت المياه مع إحداث طرطشة خفيفة وبدأت فى

العوم فى اتجاه اليخت على بطنها . وبعد نصف دقيقة كنت إلى جوارها وانطلقنا معا لمسافة أبعد . ثم توقفت وابتسمت لى ، كان ذلك بمثابة مسرحية هزلية تتم بطريقة فجائية ، بمثابة حركة ، جريئة يتم انجازها قالت : سأطفو عائمة على سطح الماء . لقد تعلمت كيف أفعل ذلك منذ فترة قصيرة ، ثم مدت ذراعيها وطفت فوق الماء على ظهرها كطفلة تستعرض مهارتها . كانت مستلقية على ظهرها وقد أغلقت عينيها وبدت بشعرها المبلل أصغر سنا . وكان البحر هادئا للغاية ومثل زجاج أسود اللون .

- أنت تشبهين أوفيليا .
- هل أدخل نفسى فى دير للراهبات ؟
- لم أشعر أبدا بأننى أقل من هاملت لعلك الشخص المغفل الذى نصحنى ان اتزوجه .

دفعت نفسى قليلا مقتربا منها ثم قلبت الجزء الجانبى من جسدها ، وحاولت أن أعضها فى رفق ولكنها دفعتنى بعيدا عندما التوت وغاصت تحت الماء مرة اخرى . وكان هناك قدر من الهياج فى الماء عندما حاولت احتضانها . ومنحتنى قبلة عابرة من فمها ثم سبحت على بطنها عائدة الى الشاطىء .

فجأة تفجر الصمت والسماء اللامعة بالنجوم والاثارة الجنسية فى داخلى أدارت رأسها فى عنف وتعلقت بى وبعد لحظات سمعتها تهمس قائلة : أيها المسكين . الوقت غير ملائم .

- ما باليد حيلة . فأنت تثيرين مشاعرى الى درجة كبيرة .
- لا أريد أن تتمالك نفسك . سحبت نفسها قليلا ودفعت باحدى يديها لأسفل خلال الماء لتحول بينى وبينها . وأوقفتنى فجأة . بدأت تمشط أصابعها من خلال الماء ثم همست مرة أخرى : أتريد منى أن أفعل ذلك .
- حمقاء .. عبيطة .

فأصابها التردد ثم انزلقت بيدها اليمنى حول وسطى بينما وضعت يدى اليسرى على كتفها وجذبتها الى جانبى . وتحسست يدها اليسرى لأسفل وراحت تربت وتلمس واتجهت بيدها إلى أعلى الجذع وأمسكت واعتصرت . وبدت الأصابع خالية من الخبرة وخائفة من الأضرار . بدأت أفقد الاحساس بكل ما يدور حولى . لم يكن هناك شىء سوى لسانها وعريها الضاغط وشعرها المبلل . كنت مستعدا ان يستمر هذا الوضع طوال الليل .

هذا الأغواء من جانبها هو اغراء على الاندماج . باعدت قليلاً ما بين قدمى لكى اتمكن من الوقوف فى مزيد من الثبات والتفت احدى ساقيها حول ساقى . بدت الرغبة الجنسية جامحة للغاية . ويبدو أنها أدكرت بغريزتها الفطرية أننى لم أعد أرغب فى الممارسة معها لكنها ظلت متشبثة بى بدت مبتدئة قليلة الخبرة .

وتفكك جسدها . وخففت من قبضة يدها علىَّ ثم راحت تربت لأعلى على بطنى . وأدرتها بقوة وقبلتها قد أصابتنى الدهشة بعض الشىء بسبب ذلك النزول السريع عن الأفراط فى الاحتشام . ساورتنى الشكوك أن الفضل فى ذلك يرجع إلى معاكسات أختها ربما كان فى داخل جولى نفسها رغبة داخلية أن يحدث شىء كهذا . وقفنا متشبثين ببعضنا بدون أن نكون بحاجة لأن نتكلم بعد أن تحطم الحاجز الأخير بيننا . راحت تقبل بشرتى فى رفق . ثم قالت : ينبغى على أن أذهب الآن . لأن جين فى انتظارى .

وتبادلنا قبلة أخيرة سريعة .

ثم سبحنا فى الماء إلى حافة الشاطىء وسرنا عائدين بحذاء حافة الماء إلى بورانى وقد تشابكت أذرعنا . وهبط علىَّ إدراك حدسى بأن ذلك يعنى الكثير بالنسبة لها .. كان بمثابة نوع من إعادة الاستكشاف لقواها الجنسية الكامنة من خلال الاشباع الجنسى الذى حدث لى ، ومن خلال الليل والدفء والسحر القديم لبلاد اليونان الضارية الوحشية . بدأ وجهها أكثر نعومة وبساطة لم أعد بحاجة للحصول على اجابات على الخطابات التى أرسلتها . .. لحظة فوق السطح أو تحت الماء ولكنها كانت لحظة متقاسمة بين الطرفين ومطلوبة على كلا الجانبين قمت فجأة بجذبها نحوى أثناء سيرنا فالتفتت الىَّ ورفعت فمها فى لهفة كما لو كانت قد تواجدت داخل عقلى وقرأت أفكارى . كان كل شىء غاية فى الوضوح والشفافية بيننا .

اصطحبتها عائدين إلى داخل الأراضى وتكلمنا همسا عن عطلة نهاية الأسبوع القادمة . الا أن كل ذلك تقلص فالعجوز كان عند كلمته حيث لم يتم التجسس علينا . لقد تم اعطائى اذنا رسميا فمهما حدث فان الصيف كان ملكا لنا بل كل الحياة كانت ملكا لنا .

قبلتنى واستدارت بسرعة وجرت عائدة إلىَّ وقبلتنى مرة أخرى . ثم شاهدتها تنزلق تحت صف الأعمدة وتختفى .

رغم أننى كنت أشعر بالإرهاق فإننى سرت على المدق الصاعد على التل

متجها الى القمة من اجل انَ اجفف ملابسى المبللة، ولم افكر فى ان النهار على وشك البزوغ واننى اعانى من النقص فى النوم واننى قد اكافح لكى أظل مستيقظا اثناء وجودى فى الفصل أمام التلاميذ . لقد سحرتنى جولى وسلبت عقلى واستحوذت على مشاعرى . وكأننى عثرت على أميرة ناعسة . وأنها استيقظت فى حالة من العشق الشديد بل من الشهوة الجنسية العميقة متلهفة كي تطرد من داخلها كل التجارب المريرة الخاصة بممارسة الجنس معها . وتخيلت جولى وقد اكتسبت كل تجارب أليسون وكل انفعالاتها العاطفية المتقدة وكل دلالها وعلاوة على ذلك فإنها تتصف بسعة الأفق وسمو الذوق وشدة الذكاء بالاضافة إلى تذوقها للشعر والنواحي الفنية . ظللت ابتسم أثناء سيرى . كنت قد بدأت أحفظ عن ظهر قلب طريقى الذى يتغلغل فى الغابة الشبحية المليئة بأشجار الصنوبر . لم أشاهد أى شىء أثناء سيرى ، لاشىء سوى الجسد المفعم بالرغبة :

بدأت استرجع ذلك السر الغامض الذى جعلنى ألتقى بجولى . ان ذلك السر الغامض هو كونشيس وأهدافه . لو كان لديك مجموعة حيوانات متوحشة محبوسة فى سيرك فإن كل اهتمامك ينصب على الاحتفاظ بالحيوانات دون أن تملى عليها ما ينبغى أن تفعله داخل القفص . فكونشيس قد أقام حولنا حواجز جنسية نفسية جعلتنا مربوطين بالسلاسل فى بورانى . كان يعتقد أننى والفتاتين لأخبرة لنا فى الحياة . ولكننا استطعنا أن نكشف خيانته .

كانت الأشجار أقل كثافة حيث ترتفع الأرض فى انحدار شديد نحو الجرف الصغير . توقفت للحظات لكى ألتقط أنفاسى والتفت إلى الوراء نحو بورانى . كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل . والجزيرة بأكلها غارقة في النوم . وتحت الضوء الفضى الخافت للقمر شعرت بمشاعر العزلة فى الفلسفة الوجودية . شعرت بالوجود بمفردى فى عالم تقدمه الليالى الصامتة أحيانا .

سمعت صوتا من ورائى . انه صوت خفيض كفيل بأن يجعلى أخرج عن المدقّ بسرعة وأستتر وراء شجرة صنوبر . لقد قام شخص بالقاء حجر . وسادت فترة صمت على مدى ١٥ ثانية أو أكثر . تجمدّ الدمّ فى عروقى بسبب الصدمة كان هناك رجل واقف فوق قسمة المنحدر العالى ثم تبين لى وجود رجلين آخرين وكان باستطاعى سماع الصوت الخافت لأقدامهم فوق الصخر وسماع الطقطقة المكتومة لشىء معدنى كان هناك ستة من الرجال

ستة ظلال رمادية واقفة على طول خط السماء . رفع احدهم ذراعا وأشار بيده ولكننى لم أسمع أية أصوات آدمية . هل هم من أهالى الجزيرة ؟ انهم نادرا ما يستخدمون الجبال فى فصل الصيف . أدركت فجأة حقيقة هويتهم . لقد كانوا جنوداً . اذ أصبح بمقدورى مشاهدة الخطوط الخارجية غير الواضحة لبنادقهم ورؤية اللمعان الخفيف لاحدى الخوذات .

كانت هناك مناورات حربية يونانية بالأراضى الرئيسية اليونانية منذ شهر مضى . مع وجود زوارق خاصة لإنزال الجنود إلى البر . من المؤكد أن هؤلاء الرجال يقومون بتدريبات على غرار العمليات الفدائية التى تهدف إلى اقتحام أرض العدو .

استدار أحد الرجال إلى الوراء وتبعة الآخرون . أدركت حقيقة ما حدث . لقد جاءوا على طول الممر الذى يؤدى لاسفل إلى بورانى . ومما أكد تخميناتى أننى سمعت فرقعة مثل التى تحدث فى الالعاب النارية . شاهدت ضوءاً لامعا فى السماء . كان من الواضح أن هؤلاء الجنود الستة بصدد القيام «بهجوم» على موقع ما فى الجانب الآخر من بورانى . نظرت حولى . هناك مجموعة من الصخور تضم شجيرات صغيرة تكفى لتوفير الحماية لى . جريت تحت الأشجار . ألقيت بنفسى فى مكان منخفض يقع بين صخرتين .

وبعد ثوان حدثت حركة شاحبة اللون فأدركت أننى كنت صائبا فى رأيى . اذ بدأ الرجال يهبطون لأسفل . ربما كانوا مجموعة من الصبية القادمين من أبيروس . ضغطت نفسى بقدر ما أستطيع أدركت أنهم قد جاءوا سائرين على صف واحد وعلى مسافة ثلاثين ياردة بدأت أنظر فى تلصص من خلال الأغصان التى كانت تحمينى .

وقفز قلبى بين ضلوعى . انهم يرتدون الملابس العسكرية الألمانية . وللوهلة الأولى اعتقدت أنهم قد ارتدوا هذه الملابس لكى يقوموا بدور «العدو» أثناء المناورات العسكرية . الا أن ذلك التصرف كان أمرا لا يقبله العقل خاصة بعد الأعمال الوحشية التى تمت أثناء الاحتلال ولذلك لا يمكن لأى جندى يونانى ان يرتدى الزى العسكرى الألمانى حتى ولو من اجل تدريبات . عندئذ بدأت أدرك حقيقة الموقف . لقد انتقلت المسرحية التنكرية ألى خارج الضيعة كما أن ذلك الشيطان العجوز لم يستسلم على الاطلاق .

وكان الرجل الأخير يحمل بقجة اكبر من التى يحملها الآخرون . وهنا لاحت الحقيقة كالوميض فى داخل ذهنى . اذ أدركت فى لمحة خاطفة أن ديميترياديس كان له زميل جاسوس بالمدرسة . كان رجلا يونانيا متين البنيان وقليل الكلام وكان احد المدرسين الذين يقومون بتدريس العلوم . ولم يسبق ان دخل غرفة المدرسين حيث كان يوجد معمله . كان زملاؤه يطلقون عليه اسم «الكيميائى» تفكها . تذكرت أن ذلك الرجل كان من الاصدقاء المقربين لباتاريسكو بل أنه كان لديه جهاز ارسال فى معمله نظرا لان بعض التلاميذ يرغبون فى أن يصبحوا ضباط لاسلكى . أصبح كل شىء واضحا للغاية فذلك هو السبب فى أنهم يعرفون دائماً أننى قادم .

لقد ذهب الرجال . ومن المؤكد أنهم كانوا يلبسون أحذية من المطاط يحملون أمتعتهم فى مهارة لكى لا يحدثوا سوى قدر ضئيل من الأصوات . وكان من الواضح أن سيرى بسرعة أفسد حساباتهم وتلك الشعلة المتوهجة لم تكن سوى اشارة متأخرة تفيد أننى متجة فى طريقى . راودتنى الرغبة فى السير وراء الرجال لكى أعرف المكان الذى يهدفون اليه ، لكننى تذكرت تدريباتى العسكرية . لا تذهب فى دورية فى ليلة خالية تماما من الرياح على الاطلاق اذا كان باستطاعتك أن تتجنب ذلك . وتذكر أن الشخص القريب أكثر من القمر يستطيع أن يشاهدك على نحو أوضح من مشاهدتك أنت له .

وعند قمة السلسلة الجبلية كان على أن أعبر الأراضى المكشوفة قبل أن تنحدر الأرض .

وما إن قطعت نصف المسافة فوق تلك المساحة المكشوفة ، حتى سمعت صوت فرقعة . أغرقت سلسلة الجبال فى ضوء باهر . فألقيت نفسى على الأرض محولا اتجاه وجهى . ثم تلاشى الضوء . ثم سارعت الخطى نحو أشجار الطرفاء . واحتميت فى داخلها محاولا معرفة طبيعة الخدعة الجديدة التى يلعبها كونشيس . ثم سمعت وقع أقدام تجرى على طول سلسلة الجبال من ناحية الاتجاه الذى تفجرت فيه الشعلة . وبدأت أسرع هابطا المدقّ بين الشجيرات التى يصل ارتفاعها إلى سبعة أقدام .

ووصلت إلى منحنى منبسط أكثر اتساعا على المدق حيث يمكننى الجرى بسرعة أكبر ، وفجأة تم الامساك بقدمى فارتميت للامام . وشعرت بطعنة بحافة حادة لقطعة من الصخر . وضربة عنيفة أليمه فى ضلوعى ،

فسمعت أنفاسى تحدث صوتا متفجرا فى داخل رئتى مع الاصطدام وسمعت صوتى وأنا أقول فى صدمة بالغة «أيها السيد المسيح» شعرت بدوار شديد للحظات ولم أستطع أن اتبين حقيقة ما حدث . لقد صدر أمر عسكرى بصوت منخفض من وراء الأشجار ، انه صوت ألمانى الطابع على ما يبدو .

وأصبحت محاطا برجال يرتدون ملابس الجنود الألمان السبعة ، زحفت على ركبتى بينما رحت أمسح الحبيبات الرملية الخشنة العالقة فى يدى . وقف رجلان ورائى وأمسكانى من ذراعى لكى أنهض واقفا . بينما وقف رجل آخر وسط المدق . كان من الواضح أنه قائد المجموعة . لم يكن يحمل بندقية مثل الآخرين ، وانما كان معه مسدس فقط . نظرت الى البندقية التى يعلقها الرجل الواقف إلى يسارى على كتفه . انها بندقية حقيقية . بل كانت ملامح الرجل ألمانية وليست يونانية .

وتكلم الرجل الذى معه المسدس مرة أخرى فانحنى رجلان يقفان على جانبى المدقّ . ثم أطلق الرجل الذى معه المسدس صفارة فى هدوء . فنظرت إلى الرجلين اللذين بجوارى . وتساءلت : هل تتكلمان اللغة الانجليزية ؟ فلم يبديا أدنى اهتمام واكتفيا بهز ذراعى لكى ألتزم الصمت . فقلت لنفسى : على أن انتظر الى ان ارى كونشيس . وقف الجاويش فى منتصف المدقّ وقد أعطى ظهره لى وتجمع الرجال الآخرون وراءه ثم جلس اثنان منهم على الأرض . كانوا جميعا من الألمان وليسوا مجرد يونانيين يعرفون كلمات ألمانية . وقلت للجاويش : عندما تنتهى من هذا التهريج آمل أن أعرف الأسباب التى تدعونا إلى الانتظار هنا . استدار الرجل نحوى . لم تبد عليه الوحشية . وانما بدا كأنه يؤدى دوره .

ظل محملقا فى وجهى ، كان يشعر بالارتياح لأنه شاهدنى اخيرا ، ثم استدار مبتعدا وخفف العساكر من قبضتهم علىَّ . لو كنت أشعر بأننى أقل انهيارا لفكرت فى الهرب ، ترامى إلى سمعى وقع أقدام عند الحافة الجبلية فوقى . وبعد ثوان قليلة بدأ الرجال الستة يهبطون المدقّ فى طابور .

كان الولد الممسك بى من جهة اليمين فى حوالى العشرين عاما . وبدأ يصفّر بصوت منخفض . وفى خلال هذا الأداء التمثيلى المقنع ـ على الرغم من تعليقى عليه بأنه تهريج ـ أخذ يصفر بنغمة واضحة المعالم بعض الشىء لأن اللحن كان هو لحن «ليلى مارلين» الشهير بدا كأنه لا يعرف

سبب وجوده هنا ولا يعرف من أنا وليست لديه الرغبة فى أن يعرف فكل ما يهمه أنه ينفذ الأوامر الصادرة له .

ورحت اعدّ ثلاثة عشر رجلا نصفهم من الألمان . وتكلفة احضارهم إلى الجزيرة ، وتكاليف التدريب على البروفات . وتكاليف عودتهم من الجزيرة إلى ألمانيا . لا يمكن أن يتم ذلك فى حدود ٥٠٠ جنيه . ترى لماذا ؟ هل من أجل إخافة ، أو إبهار شخصى بلا اهمية . شعرت أن موقفى من الأحداث قد تغير . فهذا المشهد كان محكم الاعداد للغاية . ووقعت تحت تأثير تعويذة الساحر كونشيس مرة أخرى . كنت خائفا لكننى كنت منبهرا . وبعدئذ ظهر المزيد من وقع الأقدام .

ثم ظهر رجلان آخران . أحدهما قصير نحيل . جاء هابطا بخطوات واسعة اما الآخر فأطول منه وكلاهما كان يرتدى قبعة الضباط ونهض الجنود لدى مروره بجوارهم ولكنه حرك يده فى رشاقة نحوهم لكى يأخذوا راحتهم . وشق طريقه نحوى مباشرة . وكان من الواضح أنه ممثل تخصص فى القيام بدور الكولونيل الألمانى . بدأ وجهه جامدا . وكل ما ينقصه هو نظارة ذات عدسات مستطيلة واطار من الصلب قلت : مرحبا .
فلم يجب ، ونظر الى نظرة اشبه بنظرة الجاويش . أما الضابط الآخر فكان برتبة ملازم على ما يبدو . انه ضابط مرافق . لاحظت أنه يعانى من عرج خفيف سألت وأين المنتج ؟
أخرج الكولونيل علبة سجاير من جيبه الداخلى سحب منها سيجارة . وعندئذ تقدم الضابط الملازم نحو الكولونيل لكى يشعل له السيجارة .

اكملت يهمنى أن أقول انكم تؤدون دوركم فى اتقان .

أشاح بوجهه . وقال كلاما ما باللغة الألمانية ثم صعد الممر إلى المكان الذى كان يقف فيه «الجاويش» كان هناك شىء غريب فى نظرات «الملازم» كأنه يرغب فى اخبارى بشىء ما ولكنه لا يستطيع ذلك . راح يتفحص وجهى بحثا عن اجابة ثم التفت فى شىء من الارتباك ، مستديرا على عقبيه ولحق بالكولونيل ثم سمعت أصواتا ألمانيا خافتة وبعدئذ سمعت امرا عسكريا مقتضبا صادرا عن الجاويش .

ووقف الرجال لدى سماع الأمر العسكرى ولسبب لا أعرفه اصطف الرجال على جانبى المدقّ ولم تكن وقفتهم هى وقفة انتباه عسكرية . ظننت

أنهم بصدد أن يأخذونى إلى مكان ، وامسك الجاويش بالمصباح الذى ألقى دائرة من الضوء حولى . وأدركت أن للمصباح وظيفة درامية .

وساد صمت شديد للغاية . كان دورى هو دور المتفرج على نحو ما . وليس الشخصية الرئيسية فى المسرحية . وأخيرا سمعت أناسا آخرين يجيئون . وبزغ فى الأفق هيكل لا يحمل الطابع العسكرى . وخطر على ذهنى أنه مخمور . لكننى أدركت أن يديه مربوطتان خلف ظهره وأنه سجين مثلى تماما . كان يرتدى بنطلونا داكنا لكن الجزء العلوى من جسده كان عاريا . وكان احد الجنديين يقوم بنخسه ، حيث كان يتوجع . ولدى اقترابه منى أدركت ان الزمام ينفلت من المسرحية التنكرية . وقف إلى جوارى . انه شاب قصير القامة يبدو أنه يونانى . كان وجهة مليئا بالكدمات وكان أحد جانبى وجهه غارقا فى دماء منسابة من جرح بالقرب من عينه اليمنى . وكان يبدو عليه أنه يشعر بالدوار وأنه غير قادر على الكلام . ولم يلحظ وجودى إلى جواره . عندما توقف عن المشى ونظر الىّ فى وحشية . حيث أدركت أنه شاب قروى أمسكوا به وضربوه ضربا مبرحا . وفجّأة قام العسكرّى الواقف وراءه بلكزه وفى وحشية فى الجزء الأسفل من عموده الفقرى رأيت شهقة الألم الحقيقية التى نجمت عن اللكزة . زلت قدمه وهو يندفع متعثرا لمسافة ياردات وعندئذ بصق الكولونيل بكلمة واحدة . فتقدم الحراس وأوقفوا الشاب وتحرك الكولونيل هابطا لأسفل إلى أن أصبح أمامى مباشرة بينما سار «الملازم» فى عرج إلى جواره . وساد الصمت . لا شىء سوى الأنفاس اللاهثة . جاء هيكل آخر وقد ربطت يداه خلف ظهره وقد وقف وراءه جنديان مثل زميله . هنا أدركت طبيعة الموقف والمكان . لقد رجعت إلى عام ١٩٤٣ وكنت أنظر إلى أفراد المقاومة الذين يتم إلقاء القبض عليهم .

وكان من الواضح أن الرجل الثانى الذى ألقى القبض عليه هو القائد . نزل هابطا على المدقّ فى اتجاهى . كان له وجه لصّ وكان ذا شارب كثيف ، لقد سبق أن شاهدت مثل هذه الوجوه فى البيلوبونيسوس . كان باستطاعتى مشاهدته واقفا فى صورة فوتوغرافية مطبوعة فى اوائل القرن التاسع عشر مرتديا الأزياء الفلكلورية وقد وضع المسدسات فى حزامه ، ومتخذا شكل اللصّ النبيل . كان يرتدى الزى الكاكى الذى يخص الجيش البريطانى اثناء المعارك الحربية . انه حافى القدمين رفض أن يتعثر . كان

أقل انهياراً من الرجل الآخر وربما كان الجرح هو السبب فى ذلك .

وعندما أصبح موازيا لى توقف عن المشى ثم نظر إلى ما وراء الكولونيل والملازم نحوى مباشرة . وفهمت أنه كان يراد له أن يتعرف علىَّ بدت نظراته مليئة بالكراهية وباليأس الغاضب . التزم الصمت للحظات . وبعدئذ همس بكلمة واحدة باللغة اليونانية «خائن» . بدا مندمجا فى دوره . وفى شبه وعى كأننى أحسست أنه يجب علىَّ أن أصبح ممثلا ، فأنا لم أدل بتعليق صغير وتم ركله مرة أخرى ، ألقى علىَّ نظرة حارقة إلى الوراء عبر ضوء المصباح الممتد لعشرة أقدام . ثم قال الكلمة مرة أخرى كأننى ربما لم أتمكن من سماعها فى المرة الأولى . ما إن قالها حتى صدرت صرخة على هيئة صيحة تعجب . فألقى الكولونيل أوامره فى سرعة وخشونة : لا تطلقوا الرصاص .

فشدد الحراس من قبضتهم علىَّ . لقد أفلت الرجل الأول هاربا وغاص داخل الأشجار . واندفع وراءه الحارسان ثم اصطف ثلاثة جنود على المدقّ . وصدرت صرخة اشمئزاز مليئة بالألم وترامى صوت الركل لجسد وضربه بمقبض البنادق .

هنا التفت الملازم :

ونظر الملازم نحو أعماق الليل . وكان يتعمد ان يجعلنى أفهم أنه تضايق من هذه الوحشية . اما الكولونيل فقد ألقى نظرة محملقة على الملازم . ثم تكلم باللغة الفرنسية لكى يفهم الحراس كلامه . يا صديقى الملازم هذه هى أجمل موسيقى فى العالم .

كانت لغته الفرنسية مثقلة بالنبرة الألمانية . وضغط بشفتيه فى تهكم على كلمة «موسيقى» . لقد كان من النوع الألمانى . السادى النزعة أما الضابط «الملازم» فكان المانيا مهذبا وطيبا .

وبدا على الملازم انه على وشك أن يقول شيئا ولكن سكون الليل تمزق فجأة . لقد صدرت الصيحة عن قاطع الطريق النبيل ومن المؤكد أن الصيحة ترددت فى أرجاء الجزيرة كنت أدرك أن كان تمثيلا لكنه تمثيلا كان رائعا جاءت الصرخة مزعجة كالنيران . كانت أقرب إلى العواء الشيطانى منه إلى أىّ شيء آخر . ولكنه عواء مكهرب نابع من أعمق الأعماق .

وإلى أسفل المدقّ شاهدتهم يجرون الرجل الآخر من بين الشجيرات . لم يكن قادراً على الوقوف فكانوا يجذبونه من ذراعيه . ثم أسقطوه فى منتصف المدق فارتمى على جانبه وراح يتوجع . نزل الجاويش وأخذ زجاجة ماء من أحد الجنود وصب الماء على وجهه . فبذل الرجل محاولة لكى يقف على قدميه . تكلم الكولونيل ، فانقسم الجنود إلى قسمين بينما كان الاسرى فى الوسط وبدأوا فى التحرك . وفى خلال دقيقة صرت بمفردى مع الحارسين والكولونيل والملازم .

سار الكولونيل نحوى . وتكلم بلغة انجليزية واضحة . لم ينته الموقف بعد . ارتسمت ابتسامة خفيفة خالية من روح الفكاهة على وجهه . يشع منها التهديد . كما لو كان يقصد أن نتيجة هذا المشهد أصعب مما رأيته . وان الفكر النازى سيتم بعثه من جديد ثم استدار وشرع فى السير وراء الجنود هابطا على المدق فذهب معه الملازم فناديت صائحا : وما هو الشيء الذى لم يتم بعد ؟ .

لم اتلق أى اجابة على تساؤلى . واختفى الهيكلان الداكنان - بينما الهيكل الأكثر طولا يمشى فى عرج - بين الحوائط اللينة الشاحبة لأشجار الطرفاء . فالتفت ناظرا الى الحارسين وسألت : وماذا بعد الآن ؟

وردا على تساؤلى وجدت نفسى مرغما على الجلوس . وبعد دقيقة كانا قد ربطا قدمى فى حبل . ثم نقلانى عند صخرة جلمودية كى أتمكن من أن أسند ظهرى عليها . ووضع الجندى الأصغر سنا يده فى الجيب العلوى لسترته وألقى اليَّ سجاير . وتحت ضوء عود الثقاب الذى أشعلته رحت أنظر اليهما . بدت نكهة السيجارة كريهة للغاية فعمرها عشر سنوات على الاقل وكما لو كانوا قد اطيح بهم فاستخدموا سجاير من علبة صفيح يرجع تاريخها إلى فترة الحرب . ومن المؤكد أن مذاق تلك السجاير كان طازجا فى عام ١٩٤٣ .

بذلت محاولات متكررة لكى أتكلم معهما ولكنهما كانا يجلسان فى تبلد وبلاهة أمامى على الناحية الأخرى من المدق . ولم يتحدثا بأكثر من عشر كلمات معا وكان من الواضح أن التعليمات صدرت إليهما بعدم التحدث معى .

وبعد قليل سمعت صوتا أقرب إلى صوت ديزل خاص بزورق . لقد صعدت شخصيات المسرحية إلى ظهر السفينة مرة اخرى . ومن المؤكد أن الحارسين الخاصين بى كانا ينتظران سماع ذلك الصوت . اذ وقفا .

ورفع احدهما سكينا لكى أراها ثم ألقى بها فى نفس المكان الذى كانا يجلسان فيه . ثم شرعا فى السير بعيداً ـ ولكن ليس فى نفس الاتجاه الذى سلكه الآخرون ، إذ صعدا على المدقّ عائدين إلى السلاسل الجبلية الرئيسية ومنها هبطا الى بوراني .

وبمجرد أن تأكدت من انصرافهما رحت أزحف على الحجارة فى اتجاه السكين . كانت سكينا غير حادة وكان الحبل جديدا فلم أتمكن من فك قيودى الا بعد عشرين دقيقة من الغيظ . ثم تسلقت راجعا دقيقة إلى الحافة الجبلية إلى حيث يمكننى القاء نظرة نحو الشاطىء . بالطبع كان الشاطىء ساكنا . كان اليخت مازال راسيا . وبمقدورى سماع صوت الزورق متجها بعيداً وفكرت فى الانقضاض فى غضب على بورانى وايقاظ الفتاتين من النوم ، والامساك بلحية كونشيس فى غضب طالبا منه تقديم تفسير لما حدث ولكنى كنت أشعر بالارهاق الشديد وكنت واثقا من براءة الفتاتين شعرت ـ علاوة على مشاعر الغضب المتفجرة فى داخلى بالرهبة القديمة من الأعمال التى يقوم بها كونشيس . كنت بمثابة رجل متورط داخل أسطورة خرافية وغير قادر على فهم كنهها وطبيعتها ولكنه يدرك على نحو ما أن فهمه لها يعنى أنه ينبغى عليها أن تستمر عندما ظهرت فى الفصل فى صباح اليوم التالى . كان الجو مزعجا حيث لم يكن به نسمة من الهواء . البحر فقط هو الذى ظل باقيا على قيد الحياة . ولم أبدا فى التفكير فى شىء من التماسك الا بعد أن انتهت الفترة المدرسية ظهرا حيث امكننى أن ألقى بنفسى فى الماء وان استسلقى فى ارتياح بين طياتها الزرقاء .

خطر على ذهنى شىء واحد ان جميع الجنود الألمان باستثناء الممثلين الرئيسيين ، كانوا صغار السن للغاية . ولأننا فى اوائل شهر يوليو فهذا معناه أن الفترات الدراسية فى الجامعات الألمانية واليونانية قد انتهت . فاذا كان لكونشيس علاقة بانتاج الأفلام فانه يكون قد تمكن من الحصول على بعض الطلبة الألمان واحضارهم بسهولة للعمل لأيام قليلة معه وبعدئذ يقضون إجازاتهم فى بلاد اليونان . وما لم أستطع تصديقه هو أنه قد أحضرهم لليونان لكى يستخدمهم مرة واحدة فقط . اذ كنت أتوقع من كونشيس المزيد من السادية ، فهو ما هدد به الكولونيل .

سبحت طافيا على ظهرى وقد نشرت ذراعى وأغلقت عينى ، كانت مشاعر الغضب المتفجرة فى داخلى قد هدأت كثيرا ، وكنت فى الصباح قد

لاحظت وجود شيء ما يتسم بالفضول فى عينى ديميترياديس ـ والأجراء الوحيد الاكيد من جانبى هو الا افعل ما هو متوقع . ومع التفكير فى الأمر مليا اعتقدت أنه لا يوجد أى خطر داهم على الأختين . طالما أنه يعتقد أنهما قد ضللتا فانهما فى حالة من الأمن والأمان . واذا كان عليَّ أن أخلصهما من ذلك الوضع فمن الأفضل أن انتظر إلى أن تصبحا أمامى وبدا لى أنه من السخف أن أغضب من الطريقة التى تم بها تنفيذ ذلك الأمر فى حين أن الحقيقة المذهلة تشير إلى أن ذلك تم بأية حالة من الأحوال .

وجاءت الخطابات أثناء فترة تناول طعام الغذاء . جاءتنى ثلاثة خطابات . كان أحدهما نادرا حيث جاءنى من عمى الموجود فى روديسيا ، أما الخطاب الثانى كان مرفقا به النشرات الأخبارية التى ارسلتها القنصلية البريطانية فى أثينا . أما الخطاب الثالث فقد عرفته من الخط اليدوى المكتوب به . شققته . فسقط من المظروف نفس الخطاب الذى أرسلته لآليسون . وكان لا يزال مغلقا كما هو ولم يكن هناك اى شيء آخر فى المظروف . وعند عودتى إلى غرفتى وضعت الخطاب فى طفاية السجائر دون أن افتحة وأشعلت فيه النيران .

وفى اليوم التالى وصلنى خطاب آخر أثناء تناول الغذاء وعرفت من الخط الشخصى الذى أرسله ولم افتحه الى أن غادرت غرفة الطعام وكان ذلك تصرفا سليما لأن محتوياته المقتضبة جعلتنى أسب وألعن بصوت مرتفع . كان خطابا وحشيا وغير متوقع مثل صفعة على الوجه . وكان بدون تاريخ وبدون مكان وبدون عنوان :

«اى زيارات أخرى تقوم بها لبورانى ستبوء بالفشل الذريع . ولا أعتقد ان على أن أوضح لك الأسباب . لقد خيبت ظنى وسببت لى الاحباط بشكل شنيع .

موريس كونشيس

وعلى الفور غرقت فى حالة من الاحباط المذهل فبأى حق أصدر مثل هذا القرار الاستبداى ؟ لقد كان قرارا غامضا ومتناقضا مع كل شيء سمعته من جولى فذلك الاتهام بالخيانة والغدر قد اكتسب دلالات جديدة وأدركت فى شيء من القشعريرة ان مشهد الاحتلال ربما كان يعنى أيضا أنه المشهد الختامى وأنه انذار بالطرد . طوال اليوم كنت أتوقع مجيئهما اليَّ بالمدرسة . من المؤكد أنهما فهمتا كل جوانب شخصيته وراودتنى افكار

بأن أتوجه إلى قسم الشرطة واتصل بالسفارة البريطانية فى أثينا ولكننى عدت تدريجيا إلى ضبط النفس ، تذكرت جولى ليس لانها الجسد العارى فى البحر ولكن ايضا لثقتها فى علاقتنا الفرد وعندما ذهبت للنوم فى سريرى رأيت انه ينبغى علىَّ أن أنظر إلى ذلك على أنه مجرد مزاح سخيف من جانبه أو مجرد خدعة مشابهة للعبة النرد . رفضت أن أصدق أنه سيحجب جولى عنى أو سيجب الحقيقة الكاملة عنى لأسبوع آخر . من المؤكد أنه يدرك اننى سأذهب بالتأكيد إلى بورانى فى اليوم التالى . وهو قد يستمر فى كوميديا لها طابع الاستنكار الشديد ولكنه سيكون هناك . وستكون دميته موجودة ايضا هنالك لكى تساعدنى على كشف خدعته فى نهاية الأمر .

وعقب الساعة الثانية مباشرة فى يوم السبت كنت فى طريقى صاعدا نحو التلال . دخلت فى مجموعة الاشجار . ظل الطقس خاليا من النسيم وراكدا ـ كان من الصعب على ان اصدق أن ما رأيته حدث بالفعل . وكانت هناك العديد من الاحجار المقلوبة فى المكان الذى انفلت فيه «السجين» هاربا حيث كان قاع تلك الاحجار ملطخا باللون الأحمر الذى هو لون تربة الجزيرة . كما كانت هناك المزيد من الأزهار المحطمة . قمت بالتقاط العديد من أعقاب السجاير الملوية المبرومة . كان عقب واحد منها فقط لسيجارة تمّ تدخين نصفها فقط .

وقفت على المنحدر ورحت أنظر نحو الجانب الآخر من الجزيرة فأدركت ان اليخت لم يعد هناك ولكنى مع ذلك لم أدع هذا يقتل كل الآمال فى داخلى

وصلت إلى البوابة ومنها إلى المنزل الذى كان مهجورا . قمت بهز شيس النوافذ . فلم يتداع أى منها ، رحت أنظر حولى ليس بسبب أننى كنت أشعر أنه تتم مراقبتى بالفعل ولكن لاننى كنت أشعر أنه علىَّ أن أحس بذلك . فمن المؤكد أنهم كانوا يرقبوننى وهم متخفون فى داخل المنزل ورحت أحملق نحو الشاطىء فى اتجاه تمثال بوسايدون . وفى اتجاه المنحدر الصخرى وفى المكان الذى سبق أن جلست فيه مع جولى يوم الاحد الماضى .

بدأت أسير فى اتجاه الخليج الذى توجد به الأكواخ الثلاثة . ثم صلت إلى الأسلاك الشائكة التى توضح حدود بورانى . كانت أسلاكا رمزية وليست حقيقية . والى ما وراءها بمسافة قصيرة كانت الصخرة الواقعة إلى

الداخل توجد على مسافة من الأرض المنخفضة . انحنيت بين الأسلاك ثم سرت إلى الداخل . وصلت إلى الموقع الذى يتجه السور عنده نحو البوابة . ولم تكن هناك أية أحجار مقلوبة ولا فجوات واضحة فى الأسلاك . فسرت مع المنحدر الصخرى الشاهق إلى أن وصلت إلى المدق الذى سبق لى أن سرت عليه أثناء زيارتى السابقة للأكواخ .

وكان اثنان من هذه الاكواخ المكونة من طابق واحد متلاصقين . وكان الباب الأمامى لكل منهما مغلقا بالترباس . أما باب الكوخ الثالث فكان يبدو قابلا للفتح وعندما حاولت فتحه انفرج لمسافة معقولة . كان هناك قضيب خشبى مثبت فى الداخل . فذهبت الى الجانب الخلفى من الكوخ . عندما وصلت الى جانب الآخر من الكوخ وصعدت عل عشة دواجن اكتشفت وجود شيس لنافذتين غير محكم . فرحت أحملق من خلال النافذتين القذرتين فشاهدت سريرا قديما من النحاس فى وسطه مكعب من المفارش المطوية . كان هناك حائط عليه صور فوتوغرافية . كان للكوخ مزلاج مغلق على بابه الخلفى . بدا المزلاج مربوطا بخيط من الدوبارة . فأشعلت عود كبريت وبعد نصف دقيقة وقفت داخل الكوخ لم يكن هناك اى شىء يثير الشكوك داخل الغرفة المظلمة . وكان هناك باب يؤدى من غرفة الجلوس إلى الكوخ المجاور مباشرة .

قضيت فترة ما بعد الظهر فى البحث على الشاطىء فى المساحة الواقعة إلى الشرق من الأكواخ الثلاثة . ثم عدت راجعا مارا بالأكواخ الثلاثة فى اتجاه بورانى مرة أخرى مع التوقيت الملائم لتناول الشاى تحت صف الأعمدة . ظل المكان مهجورا مثلما كان عليه من قبل . وأمضيت ساعة زمنية أخرى فى البحث عن دليل . بدا الأمر كأننى رجل عبيط يقوم بقلب محتويات درج رغم أنه قد سبق له البحث فى الدرج عشرات المرات .
وفى تمام الساعة السادسة شرعت فى العودة إلى المدرسة وقد اجتاحتنى موجات من الاحباط . الغضب من كونشيس ومن جولى ومن كل شىء .

على الجانب البعيد من القرية كان هناك ميناء آخر لا يستخدمه سوى صائدى السمك المحليين . وكان كل شخص بالمدرسة يتجنب الذهاب إلى الميناء . كما يتجنب الذهاب اليه كل شخص له وضع اجتماعى بالقرية وكانت الكثير من المنازل متداعية .

أما المنازل التى لا تزال صامدة كانت ذات أسقف مقوسة ومتموجة بها رقعات ، لا يوجد بينها سوى حانة واحدة بها بعض المناضد القليلة الخشبية خارج أبوابها .

ذهبت إلى تلك الحانة ذات يوم أثناء عودتى من إحدى النزهات الشتوية لكى أتناول بها مشروبا وتذكرت صاحب الحانة انه رجل حلو الحديث يشعر المرء بالألفة لدى التحدث معه كان يسمى «جورجيو» وله شارب صغير مما أعطاه تشابها كوميديا مع هتلر . فى صباح يوم الأحد جلست تحت شجرة . فجاء صاحب الحانة نحوى فى ابتهاج لأنه حصل على زبون غنى . وقال انه يسعده أن يتناول كأسا من الأوزو معى . ثم نادى على واحد من نادليه لكى يخدم علينا . تركت له العنان لكى يوجه الأسئلة المعتادة . ثم شرعت أنا فى العمل . وكانت هناك اثنا عشر من الزوارق الطويلة فى المياه الزرقاء الساكنة الهادئة أمامنا . فأشرت إلى تلك الزوارق وقلت إنه لأمر مؤسف ألا يجىء اليكم إلى هنا اى سياح أجانب . فى يخوت .

بصق من فمه بذرة زيتونة وقال :

- فراكسوس جزيرة ميتة .
- ظننت ان السيد كونشيس يرسى يخته هنا !

سأل : هل قابلت ذلك الرجل ؟

اخبرته اننى لم أتقابل مع كونشيس . وأوضحت له أننى أفكر فقط فى القيام بزيارته . تساءلت : وهو يمتلك يختا بالفعل ؟

- نعم . ولكن يخته لم يقترب ابدا من هذ المكان بالجزيرة .
- هل سبق لك أن تقابلت مع كونشيس ؟
- لا ..
- هل كونشيس يمتلك منازل فى القرية ؟

افاد بأن كونشيس لا يمتلك سوى المنزل الذى يسكن فيه هيرميز . وهو منزل قريب من كنيسة القديس إلياس التى تقع فى الجزء الخلفى من القرية . فقمت بتغيير موضوع الحديث وسألته فى شىء من التكاسل عن الأكواخ الثلاثة القريبة من بورانى وسألته عن المكان الذى ذهبت اليه العائلات التى كانت تقيم فى هذه الأكواخ الثلاثة .

فهز يده فى اتجاه الجنوب وقال : ذهبوا الى الأراضى الرئيسية فى

العمق . بسبب حلول فصل الصيف .

وأوضح لى أن اقلية من صائدى الاسماك بالجزيرة هم من البدو شبه الرحل . وهم فى الشتاء يقومون بصيد الأسماك فى المياه المحمية خارج نطاق شواطىء فراكسوس .. أما فى الصيف فإنهم يأخذون أفراد عائلاتهم ويبحرون الى مسافات بعيدة تصل أحيانا الى جزيرة كريت بحثا عن أماكن أفضل لصيد الأسماك .

سألته «هل تشاهد ضيوفه فى القرية ؟ رفع رأسه فى غير اهتمام ولم يكن يهمه ما إذا كان هناك ضيوف له أم لا . فألححت فى اصرار على التساؤل . وسألته عما اذا كان يعرف ما اذا كان اجانب يقيمون هنالك . هز كتفيه وقال ربما ثم وقف الحظ إلى جانبى بطريق المصادفة . اذ ظهر رجل عجوز قادم من زقاق جانبى ووقف خلف ظهر جورجيو . كان يرتدى طاقية بحار قديمة . رمقه جورجيو بنظرة لدى مروره بجوار منضدتنا ثم نادى عليه . تعال يا باربا ديمتراكى لكى تتكلم مع استاذ اللغة الانجليزية .

فتوقف الرجل العجوز عن المشى . كان يبدو فى حوالى الثمانين من عمره . يرتعش ويهتز بشدة لكن عقله لم يكن متداعيا للغاية . التفت جورجيو نحوى قائلا : قبل نشوب الحرب . كان يقوم بنفس المهمة التى يقوم بها هيرميز حاليا . كان يحمل الخطابات البريدية إلى بورانى .
وأقنعت الرجل العجوز بأن يجلس معنا وطلبت المزيد من الاوزو كما طلبت مزة اخرى . سألته هل تعرف بورانى معرفة جيدة ؟

فلوح بيده العجوزة بأنه يعرف بورانى على نحو يفوق مقدرته على التعبير عن ذلك . ثم قال كلاما لم استطع فهمه . فقام جورجيو الذى كان يمتاز بأنه واسع الحيلة بتكويم علب السجاير وعلب الكبريت التى امامنا على هيئة قوالب من الطوب .

- لقد فهمت . عام ١٩٢٩ ؟
- هل كان للمستر كونشيس العديد من الضيوف قبل الحرب ؟
أجانب كثيرون . فرنسيون . انجليز .
- وماذا عن مدرسى اللغة الانجليزية بالمدرسة ؟ هل كانوا يذهبون إلى هناك ؟

- نعم .. كلهم يذهبون .

- هل يمكن أن تتذكر أسماءهم ؟

- فابتسم لسخافة السؤال . فهو لم يكن يتذكر الشكل الذى كانت عليه وجوههم . باستثناء شخص واحد منهم كان يتميز بأنه فارع الطويل .

- هل تقابلت معهم فى القرية ؟

- احيانا كانوا يغنون ويرقصون !

وما نوع الغناء والرقص ؟ لم يكن يعرف على وجه الدقة . بدت عيناه الراشحتان وكأنهما تفتشان فى الماضى البعيد ثم أضاف قائلا : كانت هناك أمور أخرى . حيث كانوا يقومون بالتمثيل فى روايات ومسرحيات لقد حدث ذلك بالفعل . وأنا أقول الصدق .

أوحيت للعجوز أننى أصدق كلامه .ثم قلت له : ما هو نوع تلك المسرحيات ؟ ولكن الملامح على وجهه دلت على أنه لا يعرف ثم قال : كان هناك مسرح فى الحديقة .

- فى اى مكان بالحديقة ؟

- خلف المنزل . ومسرح له ستائر . مسرح حقيقى .

- هل تعرف ماريا ؟

- يبدو أنه كانت هناك مديرة أخرى لشئون المنزل فى فترة ما قبل الحرب تسمى سولا لكنها قد ماتت .

- متى ذهبت إلى هناك فى آخر مرة ؟

- منذ سنوات عديدة قبل نشوب الحرب

- هل مازلت تحب كونشيس ؟

وما الرجل برأسه . ولكنها ايماءة مقتضبة وفى شىء من الثقة . ولكن جورجيو تدخل فى الحديث مقاطعا وقال :

«لقد قتل ابنه الأكبر فى عملية تنفيذ الاعدام رميا بالرصاص .

فهز الرجل العجوز كتفيه : إنها القسمة والنصيب . انه ليس رجلا سيئا . وليس شريرا .

- هل كان يعمل لصالح الألمان اثناء الاحتلال ؟ فرفع العجوز رأسه معبرا عن النفى القاطع . وظهر الاستياء الشديد على وجه جورجيو بسبب اجابة العجوز وبدأ يجادله بسرعة فلم أتمكن من متابعة ما يدور بينهما من كلام . سمعت العجوز يقول : كنت موجودا بنفسى هنا . أما أنت فلم تكن

هنا فى تلك الآونة .

فنظر إلى جورجيو وغمز لى بعينه وقال :

ـ لقد قام باعطاء العجوز منزلا . كما يعطيه نقودا كل عام وهو بذلك لا يعبر عما يدور فى عقله من آراء حقيقية .

ـ وهل يفعل ذلك مع الأقارب الآخرين ؟

ـ سحقا له . انه يفعل ذلك مع شخص او شخصين ، من العجائز الطاغين فى السن . ولم لا يفعل ذلك ؟ انه يمتلك الملايين .

وصدرت عنه حركة تعنى انها نقود تعبر عن ضميره الذى يؤنبه ، ثم قال ذات مرة : كان هناك مهرجان ضخم يضم العديد من الموسيقى والالعاب النارية المختلفة ، والكثير من الضيوف .

وأضاف : شاهدت منظرا غير معقول لحفلة فى حديقة : مئات من الفتيات والنساء الرائعات .. ورجال يرتدون ملابس الصباح .

ـ متى حدث ذلك ؟

ـ قبل الحرب بثلاث سنوات . ولم يكن يعرف سبب هذا الاحتفال سألته : هل كنت هناك ؟

ـ كنت مع ابنى نصطاد السمك . وشاهدنا الاحتفال فى بورانى .

فقال جورجيو : لقد كنت مخمورا يا باربا .

لا . لم أكن مخمورا . لم أكن ثملا ورغم محاولاتى العديدة فإننى لم أتمكن من الحصول على المزيد من المعلومات من العجوز ، ثم لذلك قمت بمصافحة الرجلين وسددت فاتورة الحساب واعطيت جورجيو بقشيشا كبيرا . ثم سرت عائدا إلى المدرسة .

شيء واحد كان واضحا . لقد كان هناك ليفاريير وميتفورد وأنا . ولكن كانت هناك أيضا تلك الأسماء التى ترجع إلى الثلاثينات . انه طابور طويل من الاسماء وقد اعطانى هذا عودة الى التوقعات والشجاعة على مواجهة أى شيء جديد يتم اعداده فى ذلك المسرح الخالى من الستائر الموجودة على الجانب البعيد .

عدت إلى القرية فى ذلك المساء ، وجلت فى الشوارع الضيقة المرصوفة بالحصى والتى تؤدى إلى الجزء الخلفى من القرية إلى ان وصلت إلى بوابة ذات بواكٍ باعلاها حجر مكتوب عليه عام ١٨٢٣ وذهبت فى تخميناتى إلى أن المنزل بالداخل قد شيد بمعرفة أحد القراصنة

المنتمين لحرب الاستقلال . وكان هناك باب ضيق يؤدى إلى إحدى البوابتين وهو البوابة الواقعة إلى الجهة اليمنى . وفى ذلك الباب الضيق يوجد شق طوالى من أجل الخطابات . وفوقه كانت توجد لوحة معدنية صغيرة مكتوب عليها : «هيرميز أمبيلاسى» . وإلى اليسار تراجعت الأرض وراء الكنيسة . لم تكن هناك وسيلة لتفحص الحائط . من ذلك الجانب . فذهبت إلى الباب الصغير ودفعته فى رفق لكى أرى ما اذا كان بالامكان فتحه بسهولة . ولكنه كان مغلقا بالقفل . اندهشت والجزيرة لا تعرف اللصوص . ولا أذكر أننى شاهدت بوابة خارجية مغلقة على ذلك النحو فى أى مكان آخر بالجزيرة . أدركت أن المنزل لم يكن ضخما ولكنه بالمقارنة مع مستويات المنازل بالقرية يعتبر فخما ولا يتناسب مع حمار يشتغل فى قيادة الحمير .

نافذتان بالدور الأول وثلاث نوافذ بالدور العلوى كلها مغلقة بالمصاريع وكلها ساكنة تحت ضوء الشمس الأخير ومن المؤكد انها تقدم منظرا جميلا من جهة الغرب فوق القرية وإلى أسفل وفى ميدان صغير تحتى شاهدت أمرأتين يرقباننى فى شغف واهتمام . فلوحت بيدى وواصلت سيرى كما لو كانت نظراتى لأعلى هى من قبيل حب الاستطلاع العادى . وصلت الى زقاق صاعدا الى نقطة بدايتى . كان المنزل بمثابة حصن منيع فى عيون الناس المارين بجواره .

وعندما وصلت إلى فندق فيلادلفيا نظرت ورائى . كان باستطاعتى مشاهدة كافة الأسطح المتداخلة ومشاهدة المنزل الواقع إلى يمين الكنيسة بينما النوافذ الخمسة تطل محملقة إلى الخارج .

بدت النوافذ كأنها تنظر فى تحدٍ وتمرد ولكنها كانت عمياء .

(٥١)

كان يوم الاثنين هو يوم انجاز أعمال مدرسية . حيث عكفت على تصحيح أوراق امتحانات نهاية الفترة الدراسية وحاولت طوال الوقت عدم التفكير فى جولى .

كنت أدرك أنه لا جدوى من وراء الاستعانة بديميترياديس كى يساعدنى على معرفة أسماء مدرسى اللغة الانجليزية بالمدرسة فى فترة ما قبل

الحرب . وحتى لو كان هو يعرف أسماءهم فانه سيتمتنع عن تزويدى بها ذهبت إلى الصرَّاف ، لكنه لم يستطع مساعدتى . فجميع السجلات التى كانت لديه ذهبت مع رياح عام ١٩٤٠ . وفى يوم الثلاثاء حاولت مع الأستاذ الذى يشرف على مكتبة المدرسة . وجذب مجلداً يضم البرامج الخاصة بيْوم التأسيس . وكان القصد من تلك البرامج احداث تأثير على اولياء الأمور الزائرين وكانت تحتوى فى الصفحات الأخيرة بها قوائم بالفصول الدراسية بالاصافة الى اسماء المدرسين وحصلت على اسماء ستة من المدرسين ممن قاموا بالتدريس فى الفترة من عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٣٩ ولكن كان علىَّ أن أواصل الجهد لمعرفة عناوينهم .

ومرت أيام الأسبوع بطيئة وفى كل فترة من فترات تناول طعام الغذاء كنت أرقب ساعى البريد ، لم تصلنى أية خطابات . وبدأت أتوقع القسوة من جانب كونشيس ولكننى وجدت من الصعب علىَّ أن أعفو عن جولى .

الاحتمال الأكثر وضوحا انهما طارتا عائدتين إلى انجلترا . وفى هذه الحالة ليس باستطاعتى أن أصدق أنها لم تحرر رسالة الىَّ لكى تخبرنى بما حدث والاحتمال الثانى أنها اضطرت لأن تتقبل الغاء إجازة نهاية الأسبوع . ولكنها مع ذلك بمقدورها أن تكتب رسالة لكى تشرح لى جوانب الموقف . والاحتمال الثالث أنها وضعت فى حبس انفرادى ، وقطعت الصلة بينها وبين العالم الخارجي بحيث لا يمكنها ان ترسل خطابا الىَّ . لم أستطع تصديق ذلك ولو ان لحظات الغضب كانت لا تزال تتصاعد فى داخلى كلما فكرت فى اللجوء إلى الشرطة .

ومرت الأيام فى بطء وتثاقل ولكن وصلت إلىّ معلومة بسيطة بطريق المصادفة . فبينما كنت أستعرض الكتب الموجودة فى جناح الكتب الانجليزية بالمكتبة عثرت على كتاب مكتوب عليه بخط اليد : د . ب . ر . نيفينسون وعرفت ان هذا المدرس كان موجودا بالمدرسة فى فترة ما قبل الحرب . وتحت اسمه كانت عبارة كلية باليول ١٩٣٠ . لقد ترك نيفينسون معلومة لا بأس بها .

تركت مائدة الغذاء مبكرا فى يوم الخميس وطلبت من أحد التلاميذ أن يحضر لى أية خطابات تخصنى لدى توزيع الخطابات . وبعد دقائق ، كنت قد ارتديت بيجامتى استعددا للنوم قليلا فى فترة القيلولة ، طرق التلميذ باب غرفتى وسلمنى خطابين .. احدهما من لندن عبارة عن كتالوج تعليمى

خاص بأحد الناشرين . أما الخطاب الثانى فكان عليه طابع بريد يونانى . وعلامات بريدية من المتعذر فك رموزها ، وكتابة بخط اليد باللغة الانجليزية .

عزيزى وحبيبى نيقولاس .

أدرك أن كنت تشعر باحباط رهيب بسبب إجازة نهاية الأسبوع وآمل ان تكون الآن فى حالة أفضل . لقد أعطانى موريس خطابك . وكم اشعر بالأسف من أجلك . لم أتمكن من الكتابة اليك فى وقت مبكر ولقد كنا فى البحر واليوم هو أول مرة يقع فيها بصرنا على صندوق البريد . لقد قالوا توا إن القارب الذى يأخذ البريد لأثينا فى نصف ساعة ، وأنا اكتب لك هذا الخطاب وأنا جالسة على مقهى قريبة من الميناء . لقد كان موريس ملاكا صامتا بالفعل، انه يصر على الانتظار إلى أن تصبح معنا فى إجازة نهاية الأسبوع هذه القادمة اذا كنت فى حالة أفضل . لقد ابدى موريس قدرا من الاستياء ايضا لاننا لا نقدم له وعدا بالتجاوب مع خطته الجديدة اللهم الا اذا اطلعنا على خطته بالتفصيل . ولقد توقفنا بالفعل عن محاولاتنا الرامية إلى معرفة جوانب خطته ـ وأدركنا أننا نضيع وقتنا عبثا لأنه يستمتع كثيرا بكونه محيرا لنا وغامضا أمامنا . لقد أشار إلى أنه يرغب فى أن يقص عليك الفصل الأخير عن حياته وأنك ستتوقع سماع الفصل الأخير الآن .. انه إنسان رهيب . فهو لن يكف عن اللهو واللجوء إلى الحيل المخادعة . وعلى أية حال فاننى آمل ان تعرف كل ما يتعلق بالموقف .

اننى أبذل قصارى جهدى رغم المصاعب لمواجهة الأمور حتى النهاية . لقد اقسم لنا أنه لن يتم ابعادنا عن هذا المكان مرة اخرى اذا كنا نرغب فى البقاء فى جزيرته بمنزله الريفى .

وربما تتغير مشاعرك نحوى . فلا تشعر نحوى بالحب الجارف اذا أصبحت تشاهدنى يوميا . واصاب الضيق «جين» لأننى بدأت أخيرا احصل بعض الشىء على بشرة سمراء مائلة للحمرة نتيجة للتعرض لاشعة الشمس .

لسوف يصلك خطابى هذا فى خلال يومين ولعله يلعب لعبة أخيرة من لعبة الموريسية ، لذلك ارجوك أن تتظاهر بأنك لم تسمع شيئا عن موضوع الفصل الأخير واعطه الفرصة ليقوم بآخر أعماله المزعجة اذا كان يرغب فى ذلك . وأظن أن هناك قدرا ضئيلا من الغيرة منك والحقد عليك . فهو دائما ما يشير إلى أنك انسان سعيد الحظ للغاية .

يا نيقولاس .

ـ لن أنسى ابدا مياه الليل . فقد كنت رائعا للغاية ينبغي ان أنهى خطابى الآن .

ـ أحبك من كل قلبى .

جولى

قرأت الخطاب ثلاث مرات كان من الواضح ان الشيطان العجوز مازال منهمكا في حيله . فلم يسبق لها على الاطلاق ان شاهدت خط يدى ولكن من السهل تقليد خط اليد خاصة ان ديميترياديس يمكن ان يزوده بعينات من خط يدى . لماذا يلقى بهذه العقبات الأخيرة ؟ لم أستطع تخيل الاسباب . ولكن الكلمات الأخيرة الواردة فى نهاية الخطاب مع الاشارة الى اقامتى معها فى القرية ، كل ذلك جعل الخطاب يبدو عديم الاهمية وشعرت بالغبطة الكاملة مرة اخرى وشعرت أننى قادر على حل كافة المشاكل طالما انها ستظل فى اليونان تنتظرنى .

صحوت فى الساعة الرابعة عند سماعى صوت الجرس معلنا عن نهاية فترة القيلولة وهو جرس يقوم بدقه دائما تلميذ مكلف بحفظ النظام ، فيعكف على دقه فى عنف انتقامى مما يجعل الصوت يدوى فى ازعجاج شديد فى الدهليز الحجرى الموجود خارج غرفنا وصدر وابل من الصحيات الغاضبة كالمعتاد من باقى المدرسين زملائى . واستلقيت على مرفقى ورحت أقرأ خطاب جولى مرة اخرى . ثم تذكرت الخطاب الآخر الذى ألقيت به على مكتبى . وذهبت إلى المكتب فى تثاؤب لكى افتح مظروف ذلك الخطاب .

فى داخله كانت توجد ورقة صغيرة مكتوبة على الآلة الكاتبة علاوة على مظروف آخر مفتوح وعليه اختام البريد الجوى . الا ان كل انتباهى انصب على قصاصتين .. من الصحف مرفقتين مع الورقة الصغيرة بالجزء العلوى منها . فاضطررت لقراءتهما اولا .

كانت قصاصة الجريدة العلوية مقصوصة من جريدة محلية لندنية وجاء بها ما يلى :

انتحار مضيفة جوية

تم العثور بالامس على مضيفة جوية أسترالية تسمى آليسون كيللى ، ٢٤ سنة راقدة فى سريرها فى شقة بميدان راسيل . وتقيم معها فى هذه

الشقة صديقتها الاسترالية التى تسمى ان تيلور وقد تم العثور على آليسون راقدة فى سريرها عقب عودتها من إجازة نهاية الأسبوع وقد تم نقلها بسرعة إلى مستشفى ميديلسيكس ولكنهم اكتشفوا أنها لفظت أنفاسها أثناء التصريح لها بدخول المستشفى . وتم علاج الآنسة تيلور من الصدمة العصبية التى تعرضت لها . سيتم عمل تحقيق رسمى لمعرفة أسباب الوفاة وذلك فى الاسبوع القادم .

أما قصاصة الصحف الثانية فجاء بها ما يلى :

فشلت فى الحب فقتلت نفسها

ابلغ الشرطة هنرى دافيز نائب مفتش التحقيقات بهولبورن يوم الثلاثاء أنه عثر مساء يوم الأحد ٢٩ يونيو على فتاة مستلقية فى سريرها مع وجود زجاجة اقراص منومة شاغرة الى جوارها. وقال أنه قد تم استدعاؤه بمعرفة زميلة الفتاة المتوفاة والتى تسكن معها فى نفس الشقة والتى تسمى آن تيلور والتى تعمل فى العلاج الطبيعى والتى عثرت على الفتاة الميتة آليسون كيللى المضيفة الجوية البالغة من العمر ٢٤ عاما عقب عودتها من قضاء إجازة نهاية الاسبوع باستراتفورد .

قالت الآنسة تيلور أن صديقتها تعرضت لنوبات من الاكتئاب وكانت لا تتمكن من الحصول على قدر كاف من النوم على النحو السليم الا انها ليست الاسباب الكافية التى تجعلها تفترض ان المرحومة كانت تفكر فى الانتحار بشكل جدى . وردا على بعض الاسئلة قالت الآنسة تيلور «لقد تعرضت صديقتى أخيرا لحالة شديدة من الاكتئاب بسبب وقوعها فى حب تعس ، ولكننى كنت أظن انها قد تغلبت على الاكتئاب وشفيت منه تماما» .

أما الدكتورة بهرينز وهى الطبيبة الخاصة بالقتيلة فقد قالت لمفتش التحقيقات إن الآنسة كيللى جعلتها تعتقد ان عملها كمضيفة جوية هو سبب لها حالات الأرق . وعندما سألها مفتش التحقيقات عما اذا كانت قد اعتادت أن تكتب لها بالروشتة مثل هذه الكميات الهائلة من الأقراص قالت الطبيبة : إنها كانت تضع فى الاعتبار المشقة ا لتى تتعرض لها المتوفاة لدى التردد كثيرا على الصيدلية . وقال إنها لم تتصور ان تستخدم الأقراص فى ارتكاب جريمة الانتحار .

قال مفتش التحقيقات ان الشرطة قد عثرت على رسالتين موجزتين ولكن هاتين الرسالتين لم تلقيا اى ضوء على الدافع الحقيقى وراء هذا الانتحار

المأساوى .

وكانت الورقة المكتوبة على الآلة الكاتبة مرسلة من آن تيلور . وكان نصفها كالآتى :

عزيزى نيقولاس أورفى : القصاصتان المرفقتان ستوضحان لك السبب فى ارسال خطاب لك . اننى لأسفة للغاية . فهذا سيسبب لك صدمة هائلة ولكننى لا أعرف وسيلة اخرى لكى أطلعك بها على هذه الانباء المؤسفة . كانت آليسون مكتئبة للغاية عقب عودتها من أثينا ، لكنها لم تتكلم عن اسباب اكتئابها ولذلك لا اعرف غلطة من هذه ، لا اعرف من منكما اخطأ فى حق الآخر . لقد سبق لها التحدث معى عن رغبتها فى الانتحار اكثر من مرة ولكننا كنا ننظر للأمر دائماً على أن هذا مجرد مزاح .

لقد تركت هذا المظروف من اجلك وقامت الشرطة بفتح المظروف . ولكن لم يكن بداخله اية رسالة موجزة .. كانت به رسالة موجزة موجهة الىَّ ولكنها رسالة لا يوجد بها أية معلومات ـ مجرد اعتذارات .

شعرنا جميعا بالحزن العميق لما حدث . وأنا أشعر بأن ضميرى يؤنبنى . والآن وبعد أن انتقلت هى إلى رحمة الله على ذلك النحو أصبحنا ندرك مدى حساسيتها وظروفها فلا أتصور كيف يمكن لأى رجل يعرف الأمور الدفينة الحقيقية فى داخلها ومع ذلك لا يرغب فى الزواج منها . أعتقد أننى لا أفهم طبيعة الرجال .

المخلصة الغارقة
فى الأحزان
آن تيلور

ملحوظة : لا أعرف ما اذا كنت ترغب فى تحرير رسالة إلى أمها .. سيتم ارسال رماد جسدها إلى عنوان أمها باستراليا . وكتبت عنوانها .

نظرت إلى الظرف الخاص بالبريد الجوى . كان اسمى مكتوبا عليه من الخارج وكان مكتوبا بخط يد آليسون . أخرجت المحتويات على مكتبى . كانت المحتويات عبارة عن كتلة متشابكة من أزهار البنفسج وبعض أزهار القرنفل .

وفى رعب شديد انحرطت فى بكاء مرير .

لم تستمر دموعى لفترة طويلة للغاية . فأنا لم أكن أعيش فى عزلة عن

باقي الغرف المجاورة .. ودق الجرس ايذانا ببدء التدريس فى الفصول مرة أخرى وبدأ ديميترياديس يطرق باب حجرتى . فمسحت الدموع من عينى مستخدما ظهر معصمى واتجهت إلى الباب وفتحته . كنت مازلت مرتديا البيجاما . وقال : ماذا تفعل ؟ لقد تأخرت كثيرا .

ـ أشعر أننى لست على ما يرام .

ـ يا زميلى العزيز . شكلك يبدو غريبا للغاية .

ـ عليك بابلاغ التلاميذ بان يقوموا بمراجعة دروسهم استعدادا للامتحان . واخبر التلاميذ فى الحصص التالية ان يفعلوا نفس الشىء .

ـ وما الذى سأقوله فيما يتعلق باسباب اعتذارك ؟

ثم دفعته فى عنف الى خارج غرفتى قائلا تعلل لهم باى شىء وبمجرد ان تلاشت الاصوات ووقع الأقدام بالمدرسة ادركت ان المدرسة استأنفت العمل وارتديت ملابسى وخرجت من المدرسة . كنت اريد ان ابتعد عن كل شىء . سرت نحو خليج صغير مهجور وجلست هنالك على حجر واخرجت قصاصات الصحف مرة أخرى ورحت أقرأهما ثانية .

الأمر لا يقتصر فقط على اننى اشعر بالذنب لأننى تخليت عن آليسون . بل أدركت أن انتحارها جاء كنتيجة مباشرة لاخبارى لها بمحاولة الانتحار التى سبق لى أن قمت بها . لقد أدركت اننى كنت أخدعها للمرة الأخيرة . وقالت لى : لا أظن أنك تعرف معنى الحزن الحقيقى .

تذكرت المشاهد الهستيرية فى فندق بيرايوس وتلك «النغمة الانتحارية» المبكرة التى صاغتها لكى تبتزنى بالتهديد كما تصورت آنئذ قبل مغادرتى لندن مباشرة . وفكرت فيها عندما كنا فى بارناسوس عندما كنا فى ميدان راسيل وفى الكلام الذى قالته وفى الأعمال التى فعلتها وفى كل تلك التصرفات التى عبرت عن شخصيتها . فهبطت على سحابة هائلة سوداء من الشعور بالذنب وادراكى لانانيتى الوحشية . كل تلك الحقائق المريرة عن نشأتها الأولى والتى ألقت بها إلى منذ البداية ومازالت تحبنى . كانت عمياء للغاية حتى انها كانت لا تزال تحبنى . لقد قالت لى ذات يوم : «عندما تحبنى ـ وهى لم تكن تقصد هنا بكلمة «حب» ممارسة الحب او المعاشرة الجنسية ـ فان الأمر سيبدو وكأن الله قد غفر لى حياة العبث والفوضى التى كنت أعيشها . أخذت كلامها هذا على انه مجرد ابتزاز عاطفى ولكى تعطينى الاحساس بالمسئولية تجاهها . وعلى نحو ما كان

موتها بمثابة الفصل الأخير من الابتزاز ولكن الانسان الواقع عليه الابتزاز ينبغى ان يشعر انه برىء وأنا شعرت بالذنب - وبدا لى الأمر فى هذه اللحظة التى كنت فيها ارغب تماما فى أن أكون نظيفا ونقيا كأننى ترديت إلى أعماق الفحشاء . كنت فى أقصى درجات الانطلاق نحو المستقبل ومع ذلك كنت مكبلا بالاغلال إلى أقصى درجة وهى أغلال تجذبنى إلى الماضى فى عنف شديد .

وجولى . لقد أصبحت الآن ضرورية تماما ولا غنى عنها على الاطلاق ، ليس فقط الزواج منها وانما الاعتراف لها . لو كانت هى بجانبى أنئذ لقصصت عليها كل شىء بكل صراحة وأبديت لها رغبتى فى البدء بداية نظيفة . كنت فى مسيس الحاجة لأن ألقى بنفسى تحت رحمتها وأحصل منها على الغفران ، أذ أصبح غفرانها هو التبرير الوحيد الممكن آنئذ . كنت قد سئمت الخداع ومن وقوعى إلى ما لانهاية تحت رحمة اعضائى التناسيلة . فذلك التهلف نحو تحقيق ما هو أفضل هو الذى اوقعنى فى كل تلك المتاعب وهو الذى جعلنى انسانا سيئا للغاية .

عندما رجعت فى ذلك المساء قمت بكتابة خطابين : آحدهما موجه إلى آن تيلور والآخر موجه إلى والدة آليسون . وشكرت «ان» وألقيت باللوم على نفسى بقدر ما أستطيع وذلك بما يتشمى مع صدق تصميمى الجديد . أما خطابى لوالدة آليسون فكان خطاب تعزية ومشاطرة للأحزان .

(٥٢)

ووصلنى خطاب آخر من انجلترا فى صباح يوم السبت . كان يوجد نسر أسود صغير فوق لسان مظروف الخطاب : بنك باركليز .

عزيزى المستمر أورفى

أشكرك على الكتابة الىَّ بشأن التوصية على الآنستين هولمز . ويسعدنى أن أرفق طيه استمارة وآمل أن تتكرم بملء بياناتها واعادتها بالتالى إلىَّ كما أرفق طيه كتيبا صغيرا يتضمن بيانا تفصيليا عن الخدمات الخاصة التى نقدمها لزبائننا فيما وراء البحار .

المخلص

ب . ج فيرن

المدير العام

وعقب الانتهاء من قراءة الخطاب نظرت فى عينى الصبى الذى كان

جالسا إلى المنضدة فى مواجهتى وابتسمت له ابتسامة خفيفة . الابتسامة غير المكبوتة التى يتسم بها لاعب البوكر الردىء .

وبعد نصف ساعة كنت أشق طريقى صاعدا بين أرجاء الغابة الخالية من النسيم فى اتجاه سلسلة الجبال الرئيسية . وصلت ألى مكان يمكن لى منه الرؤية لأسفل فى اتجاه الجنوب ثم قفز قلبى بين ضلوعى . لقد كان اليخت هناك ويمكن منه مشاهدة بورانى . ثم جلست هنالك لمدة نصف ساعة بينما موت آليسون مازال قاتما وداكنا فى داخل كيانى والأمل المعقود على جولى موجود تحتى هنالك فى ضوء الشمس : وكنت قد بدأت فى خلال اليومين الأخيرين فى الاستيعاب التدريجى لحقيقة موت آليسون وقررت ان انزل الى هناك .

كنت أمر بنفس الأحوال التى مررت بها فى اليوم الأول ، الوجود بدون دعوة رسمية وعدم التيقن من ردود الفعل . والذهاب من خلال البوابة . والاقتراب من المنزل المغلف بالغموض المضاء بأشعة الشمس . والتجول حول صف الأعمدة . وهنالك وجدت ايضا نفس الشىء ، منضدة الشاى مغطاة بقماش الموسلين ولا احد على الاطلاق . البحر والحرارة المتغلغلة بين الاقواس والبواكى والأرضية المغطاة بالقرميد والصمت والانتظار .
ورغم اننى كنت عصبيا للغاية لاسباب عديدة فقد قمت بوضع حقيبتى فوق الأريكة ودخلت إلى غرفة الموسيقى . فنهض هيكل من خلف الة البيان القيثارى كما لو كان قد ظل جالسا هنالك فى حالة انتظار والتزم كل منا بالصمت للحظات ، فسألت :

هل حضورى متوقع ؟
- نعم

حملق فى وجهى ثم نظر الى يدى - نحو الجرح الذى أصابنى نتيجة للحدث النازى الذى تم منذ عشرة ايام مضت . كانت هناك ندبة غائرة لاتزال مكسوة باللون الأحمر نتيجة لقيام الزائرة الصحية بالمدرسة بوضع الميكروكروم عليها ، قال : عليك ان تلتزم بالحذر ، فهناك مضاعفات تنجم عن التيتانوس .

لا اعتذارات . ولا القاء أى ضوء لتوضيح الأمور ، ولا رد عن اسئلة : من الواضح تماما انه لم يشر فيما قال من كلام عنّى للفتاتين إنه يحاول الاحتيال علىَّ .

شاهدت ماريا تمر ومعها صينية . لاحظت اختفاء الصورة الفوتوغرافية الخاصة ب "ليلى" من مقصورة المعروضات المنافية للآداب ، وضعت حقيبتى المصنوعة من القماش على الأرض . ثم طويت ذراعى وابتسمت له ابتسامة خفيفة ، قلت :

لقد تحدثت مع باربا ديميتراكى منذ أيام فأدركت أن لدى زملاء من الضحايا أكثر مما كنت أتخيل .

ـ ضحايا ؟

ـ لقد استعنت بأناس يعانون من مشاكل دون أن يكون لهم خيار فى ذلك .

ابتسم ، كأنه أخذ الكلام الذى قلته عنه فى سخرية على أنه مدح وثناء . دار حول آلة البيان القيثارى لكى يجىء نحوى . وقال : هيا بنا نشاهد يدك هذه فرفعت يدى فى نفاد صبر . كانت مخدوشة على طول المفاصل بين سلاميات الأصابع ولكن الجروح كانت قد التأمت إلى حدّ . راح يتفحص يدى وسألنى عما اذا كان هناك أى تسمم دموى جراثيمى . ثم نظر فى عينى وقال : لم يكن هذا متعمدا . فهل سنتقبل ذلك على الأقل ؟

ـ لن أتقبل شيئا بعد اليوم يا سيد كونشيس . باستثناء الحقائق الخالصة .

ـ ربما تكتشف أن عدم معرفتك للحقائق كان سيضمن لك الشعور بالمزيد من السعادة .

ـ لسوف أخاطر بذلك .

فراح يسبر أغوار النظرات التى ظهرت فى عينى ثم هز كتفيه هزة خفيفة ، وقال :

ـ حسنا . هيا بنا نتناول الشاى معا .

فسرت وراءه الى المكان الموجود تحت صف الأعمدة . وقف ليصب الشاى . ولوح بيده فى اتجاه الطعام وقال : "تفضل لو سمحت" فأخذت «ساندويتش» ولكنى بدأت فى التكلم قبل الشروع فى الأكل : "اعتقدت أن الفتاتين ستسمعان الحقائق معى"

ـ انهما تعرفان الحقائق بالفعل الآن .

ـ بما فى ذلك الحقيقة التى تتعلق بقيامك بكتابة خطاب مزور نيابة عنى موجه إلى جولى ؟

ـ ان خطاباتها المرسلة اليك هى الخطابات المزورة .

لاحظت أنه تحدث عن خطاباتها بصيغة الجمع . من المؤكد انه قد ضمن أنها كانت تكتب لى خطابات ولكن تخمينه جاء خاطئا بالنسبة للكمية ، فابتسمتُ وقلت : آسف . لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين فنظر لأسفل . وهدأ من ثورته وغضبه وتخيلت فى شىء من القلق وجود احتقان فى وجهه وكان من الواضح أنه لا يعرف المدى الكامل للوئام الموجود بينى وبين جولى ولا يعرف حافة مفرش المنضدة . نظر إلىَّ بعينين وقورتين .

ـ وما الذى أفعله فيما تظن ؟

ـ أنت تمارس بعض الحريات الجهنمية .

ـ هل أرغمت على العودة إلى هنا ؟ وهل أرغمت على المجىء إلى هنا فى بادىء الأمر ؟

ـ أنت تعرف جيدا أنه لم يكن بمقدور أى انسان غير عادى أن يبقى بعيدا . ورغم هذا فأنا أبعد ما يكون عن نكران الجميل . ولكن المرحلة الأولى من المسرحية التنكرية قد انتهت .

وراح يفتش فى داخل عينى مرة أخرى . وتذكرت شيئا ما كانت جولى قد قالته : "انه يريد لنا أن نكون غامضين بالنسبة له أيضا" كان من الواضح أنه يريد أن تكون لدينا فقط حرية محدودة وأسرار محدودة أيضا . فمهما بلغ كبر حجم المتاهة التى يشيدها العالم فان الهدف من وراء المتاهة مازال هو السماح للعالم بأن يرقب كل حركة عن كثب . وبدا عليه أنه اتخذ قرارا . سأل : هل أخبرك باربا بأنه كان لدى مسرح خصوصى صغير هنا قبل الحرب ؟

ـ نعم .

فاستند بظهره إلى الوراء . وقال : "أثناء الحرب كان لدى متسع من الوقت لأفكر ولم يكن لدى أصدقاء ليقوموا بتسليتى . فتخيلت نوعا جديدا من الدراما . دراما يتم فيها الغاء الفصل التقليدى ما بين الممثلين وجمهور المشاهدين . وتُلغى جغرافية المناظر التقليدية والجزء الأمامى من خشبة المسرح والصالة التى يجلس فيها المتفرجون . بحيث تكون والقصة متميعة ولا يوجد سوى نقطة مغادرة ونقطة محددة للختام . وما بين هاتين النقطتين يبتكر المشاركون مسرحهم" . ولسوف تجد أن أرتو وبيرانديللو وبريخت قد كانوا يفكرون على نفس المنوال بوسائلهم المختلفة . ولكنهم لم يمتلكوا المال ولا العزيمة ولا الوقت الذى يعينهم على التوغل كثيرا فى هذا المجال مثلما فعلت أنا . ولقد كان جمهور المشاهدين هو العنصر الذى لم

يستطيعوا التخلى عنه .

فابتسمت ابتسامة مليئة بالشك . كان كلامه معقولا بعض الشىء عن "تفسيراته" السابقة لكنه ظل متعاميا فى سخافة عن الحقيقة التى مفادها أنه دمر كل آمالى فى أن أصدق أى شىء يقوله ، بمعنى انه عرض هذه القصة الجديدة مستخدما طريقته الاقناعية المألوفة كأن ذلك سيجعلنى أصدق ما يقوله قال :

ـ كلنا ممثلون ياصديقى . لا أحد بيننا يبدو على ما هو عليه فى الحقيقة . فنحن جميعا نكذب فى بعض الأوقات والبعض منا يكذب فى جميع الأوقات .

ـ باستثنائى أنا .

ـ مازال أمامك الكثير الذى ينبغى أن تتعلمه . وأنت بعيد عن ذاتك الحقيقية . مأساة الانسان البالغ الثراء أن رصيده فى البنك لا يقدم له أية مفاجآت . سواء سارة أو غير سارة . وأعترف ان هذا كان أكثر الأمور طموحا لابداعاتنا لسبب واحد انه قد لا تكون هناك سنة أخرى بالنسبة لى .

انه يبدو لائق صحيا . مما أبعد أى تعاطف مهما كان الأمر . قلت : استمع إلىّ ياسيد كونشيس . أعرف الكلام الذى كنت تقوله لجولى عن الأوقات المتبقية من هذا الصيف . أنا لم أجىء الى هنا لكى أحرص على الدخول فى مشاجرة معك . فهل يمكننا أن نكف عن الكلام الفارغ المثير للسخرية وأننى خيبت آمالك بطريقة ما ؟

"أقول لك باعتبارى المخرج إنك فشلت فى الحصول على دور . وإنك حتى لو حصلت على دور فان ذلك لم يكن ليحقق رغبتك ، فالفتاة الشابة التى تعتبرها فاتنة . والتى من المقرر ان تكون نقطة الختام فى هذ الصيف .

ـ أود أن أسمع ذلك الكلام منها .

ـ لم تعد لديك الرغبة فى مشاهدتها مرة أخرى . لقد انتهت الملهاة .

ـ ولكننى أعتزم مشاهدة منزل الممثلة فيما بعد .

ـ لقد وعدت بذلك . ما فى ذلك شك . لكن وعودها لا قيمة لها . فكل شىء هنا دهاء وخدع . انها تمثل وتسلى نفسها معك . وهى تقوم بدور أوليفيا .

ـ وأنا أفترض أن اسمها ليس جولى هولمز ؟

ـ اسمها الحقيقى هو : ليلى .

فابتسمت ابتسامة عريضة حتى أننى اضطررت لان أبدى إعجابى بقدرته على اخفاء ضحكاته . سألت : هل يمكن لى مشاهدتهما الآن ؟
ـ انهما فى أثينا . ولن تشاهد ليلى أو روز ثانية .

فقلت فى عدم تصديق ملىء بالتهكم : روز ؟ أنت لست بلطجيا . ولم يعد أحد يشير الى فتيات من نفس سنهما بأسمائهن المجردة بدون أن يسبق الاسم كلمة "آنسة" .
ـ لن تشاهدهما ثانية .
ـ سوف أشاهدها . أولا لأنك تريدنى أن أشاهدهما . وثانيا : لا شىء يمكنه أن يمنعنى من مشاهدة جولى . وثالثا : ليس من حقك التدخل فى العلاقات الشخصية المتبادلة بينى وبينها .

ـ أوافق ان تلتقى بها اذا كانت العلاقات الخاصة صادقة وحقيقية من كلا الطرفين .

تحكمت فى أعصابى وجعلت صوتى يتسم بمشاعر عدوانية أقل قائلا : وأنا أعرف أنك تتصف بالنواحى الانسانية بحيث لا يمكنك ان تفكر انه باستطاعتك أن تتحكم فى عواطف الناس بسهولة .
ـ المسألة أبسط مما تظن . عندما تتقن الحبكة القصصية .
ـ الحبكة الحالية دمرت . موضوع "القلوب الثلاثة" ، وأنت تعرف ذلك أفضل منى . أعترفت بالكثير للفتاتين ، فلماذا تجعلنى أظن انك لم تفعل ذلك ؟

ياسيد كونشيس . نحن فى أشد الحاجة للاقناع . يسعدنا جميعا أن نعترف أننا واقعون تحت تأثير فتنتك الساحرة . وفى نطاق حدود معينة ، نحن مبتهجون بحيث لا يمكننا أن نتذمر من أى شىء يجىء فى خطتك التالية .

ويبدو أن كلامى قد أحدث تأثيرا عليه . فشعرت للحظات قليلة أننى كسبت الجولة . ولكن عينيه سقطتا علىَّ مرة أخرى فأدركت أننى لم أكسب الجولة . قال : خذ نصيحتى . عد الى انجلترا وسوى خلافاتك بطريقة ودية مع تلك الفتاة التى حدثتنى عنها . وتزوجها وكون لنفسك أسرة . وتعلم كيف تعيش وفق شخصيتك الحقيقية .

فأشحت بوجهى بعيدا . وأردت أن أصيح فى وجهه قائلا : إن آليسون ماتت . وإننى لا أستطيع أن أفعل ذلك لأنه قد نسج حياتى مع حياة جولى

إلى حد كبير .

كدت أخبره أننى لا أريد منه المزيد من حالات الغش والخداع والكلام الذى يحتمل أكثر من معنى والذى يعتبر عقيما ، ولكننى التزمت الهدوء والصمت . سألت : هل هذا هو رأيك ؟ مجرد الزواج وتكوين أسرة ووظيفة ثابتة ؟

ـ معظم الناس يعيشون على ذلك النحو .

ـ اننى أفضل الموت على ذلك .

هز كتفيه فى أسف كأنه لم يعد تهمه مشاعرى . ثم نهض واقفا فجأة . وقال : لسوف نتقابل ثانية لنتناول العشاء معا .

ـ أود مشاهدة يختك .

ـ هذا أمر عسير .

ـ أريد التحدث مع الفتاتين .

ـ قلت لك إنهما فى أثينا ، وأنا أنوى أن أخبرك هذه الليلة بشىء يتعلق بجنسنا وحدنا بمعنى انه شىء لا علاقة له بالمرأة .

الفصل الأخير : لقد ضمنت بالفعل المقصود من وراء هذا الكلام .

استدار وسار فى مشية عسكرية إلى داخل منزله . كنت غاضبا منه الا أن غضبى كان ناجما عن نفاذ الصبر أكثر مما هو ناجم عن الخوف . وافترضت أننى أنا وجولى قد أفسدنا تسليته وأننا تمكنا من اختراقه بطريقة لم يحبها ، وربما على نحو أسرع مما كان يتوقع . وكنت أدرك أن الفتاتين فى اليخت ، وأننى لو لم أتمكن من مشاهدتهما فى هذا المساء فسأشاهدهما فى اليوم التالى . والتقطت كعكة ورحت أتناولها وأنا غارق فى التفكير .

فكرت ان علينا ان نستمر . فكل ما مررت به من تجارب كان مجرد نوبة من الخداع فى الجانب المبكر من لعبة بوكر ؛ فالمقامرة الحقيقية لم يجىء موعدها بعد .

تذكرت وجبة الغذاء على نفس المنضدة منذ أسبوعين ثم نظرت إلى خارج صف الأعمدة . ربما كانت الاختان تنتظران ما بين أشجار الصنوبر ... ربما لم يكن الأمر سوى هذه الطريقة الدؤوبة الخاصة به والتى تجعلنى أنظر . وأخذت حاجياتى الى الدور العلوى ووضعتها فى

غرفتى ثم رحت أبحث تحت الوسادة وفى دولاب الملابس على أمل أن تكون حولى قد تركت رسالة صغيرة لى . ولكننى لم أعثر على أى شىء . ثم خرجت من الغرفة .

بدأت أتنزه وأسير الهوينى فى أرجاء الضيعة تحت الهواء الخالى من النسيم . وانتظرت فى كافة الأماكن السابقة . التفت هنا وهناك أنظر إلى الوراء مع ارهاف السمع . الا ان كافة المناظر الطبيعية بدت صامتة ولم يظهر لى أى شخص . حتى اليخت لم يكن به دلائل تشير الى و جود حياة بداخله ولو اننى لاحظت أن الزورق البخارى كان فوق الماء . بدا المسرح خاليا مثل باقى المسارح الخالية ، لقد أصبح فى نهاية الأمر كئيبا وموحشا بعض الشىء .

تقرر أن نتناول طعام العشاء تحت صف الأعمدة . وكانت المنضدة المعدة لشخصين قد وضعت فى أقصى الطرف الغربى بحيث تطل على الأشجار . ووضعت منضدة أخرى بالجزء الأمامى عند السلم الرئيسى وقد وضع عليها الشيرى والأوزو بالاضافة الى الماء وسلطانية مليئة بالزيتون .

كنت قد قررت أثناء انتظارى أن أكون أكثر دبلوماسية . وساورتنى الشكوك اننى كلما ازداد غضبى ازداد شعوره بالبهجة . واضطررت ان ارضى بالأمر الواقع وهو عدم مشاهدة الفتاتين وان اتظاهر بتقبلى للتفسير الذى أبداه . وجاء فى صمت الى حيث اقف . فابتسمت له .

صببت له نصف كأس وناولته له . ثم قلت : اننى آسف للغاية اذا كنت قد اتلفت خططك . فشرب نخبى فى صمت وقال : خططى هى كل شىء . وأنت لا تستطيع أن تتلفها .

ـ لكنك أدركت أننا سنواصل القيام بالأدوار التى أعطيتها لنا وينبغى أن ندرك حقيقة هذه الأدوار .

نظر نحو الشاى وقال : الهدف من وراء المسرح السامى ان نسمح للمشاركين بأن يدركوا المرامى الكامنة فى الأدوار الأولى . لكن ذلك ليس سوى التأزم السابق لذروة المسرحية .

أى ما يسبق الفصل النهائى ، انها الكوميديا ، وفقا لما تكون عليه الحالة .

ـ وفقا للحالة التى تعتمد عليها ؟

ثم قفزت بسؤالى التالى عليه عقب مرور لحظات من الصمت مع استخدامى لنفس الاسلوب : إلى أى حد تعتبر كراهيتك لى جزءا من دورك الخاص ؟

لم تظهر عليه الحيرة وقال : ابداء الميل والارتياح نحو الشخص الآخر ليس له أهمية . بين الرجال .

فشعرت بالأوزو يتسرب فى كيانى . ثم قلت : حتى ولو كنت لا تشعر بالارتياح نحوى ؟

ـ أشعر بالارتياح نحو عدد قليل من الناس . الذين هم فى نفس عمرك ومن جنسك . فالشعور بالارتياح نحو الآخرين . وهم وخداع نرحب به فى داخل أنفسنا اذا كان علينا أن نعيش فى مجتمع . وهو وهم قد تخلصت منه منذ فترة طويلة وأبعدته عن حياتي هنا . أنت ترغب فى أن تكون محبوبا من الآخرين . وأنا أيضا . وربما ستعرف ذات يوم معنى هذه الرغبة . وعندئذ سوف تبتسم . ليس عندى وانما معى .

التزمت الصمت للحظات . ثم قلت : كلامك يشبه كلام جراح ، شغوف بالعملية الجراحية أكثر من المريض نفسه .

ـ لا أحب أن أضع نفسى بين يدى جراح لا يتخذ وجهة النظر تلك .

ـ اذن يمكن القول أن مسرحك السامى هو فى حقيقة الأمر مسرح طبى ؟

وظهر ظل ماريا خلفى لدى احضارها سلطانية مليئة بالحساء الى المنضدة ـ البيضاء الفضية الغارقة فى بركة من ضوء المصباح . قال : لعلك تنظر الى المسرح السامى على ذلك النحو . أما أنا فأفضل أن أنظر اليه على انه مسرح ميتافيزيقى . وأعلنت ماريا أنه يمكن لنا أن نجلس على مقعدينا ، فرد على كلامها بانحناءة خفيفة من رأسه ولكنه لم يتحرك من مكانه . ثم أضاف قائلا : المسألة وقبل كل شىء نوع من الهروب من التصنيفات .

ـ أقرب الى الفن منه الى العلم ؟

ـ كافة أنواع العلوم الجيدة هى فن . وكافة أنواع الفنون الجيدة هى علم .

وبهذه العبارة الجميلة من حيث الشكل ، الجوفاء من حيث الجوهر ، وضع كأسه على المنضدة وتحرك نحو المنضدة الأخرى الخاصة بالطعام ،

فتحدثت إلى ظهره أثناء سيرى وراءه . يبدو لى أننى الشخص المصاب بالفصام بالفعل هنا .

فلم يجب علىَّ إلى أن أصبح جالسا على كرسيه . ثم قال : الأشخاص المصابون بالفعل بالفصام ليس لهم خيار فى الوضع الذى هم عليه .

ووقفتُ فى مواجهته : اذن فأنا شخص غير مصاب بفصام حقيقى ؟

وما إن شرعنا فى تناول الطعام حتى سمعت وقع أقدام أشخاص بالقرب من كوخ ماريا . فرفعت بصرى عن الحساء لكى أنظر ورائى . ولكن المنضدة كانت قد وضعت بحيث يتعذر علىَّ رؤية أى شىء ، ومما لاشك فيه أن ذلك تم بشكل متعمد .

قال كونشيس : أود أن ألقى على قصتى المزيد من الايضاح عن طريق ضرب الأمثلة .

وأشار انه ينبغى علىَّ الاستمرار فى تناول الطعام لأنه لن يقول أى كلام آخر . سمعت وقع أقدام على الفراندة فوق رأسينا تماما . انتهيت من تناول حسائى وأثناء انتظارنا قيام ماريا باحضار باقى أصناف الطعام حاولت التهدئة من روعه واسترضاءه ، فقلت : يؤسفنى أننى لن أسمع منك المزيد عن حياتك فى فترة ما قبل الحرب .

علق قائلا : هناك بعض الصدق فيما قلته لك . كان هناك حدث مهم فى حياتى يعتبر متشابها مع القصة التى ابتكرتها . كان هناك دائما صراع فى داخل كيانى ما بين السر الغامض والمعنى . لقد اقتفيت أثر المعنى وسعيت وراءه ونظرت اليه نظرة تقديس باعتبارى طبيبا عقلانيا . وبعدئذ أدركت أن محاولة اضفاء الطابع العلمى على الحقيقة ومحاولة تسميتها وتصنيفها ومحاولة تشريحها وعزلها عن الوجود هو أمر أشبه بمحاولة إبعاد الهواء عن الغلاف الجوى . وأثناء خلق الفراغ الكونى كان القائم بالتجربة هو الذى مات لأنه كان موجودا فى داخل الفراغ الكونى .

ـ هل دخولك فى عالم الثراء كان أشبه بقصة دوكانز ؟

رد ؛ لقد ولدت غنيا . ولم أولد فى انجلترا .

ـ من المؤكد أنك ولدت فى مكان ما .

ـ منذ فترة طويلة لم أعد أهتم بمثل هذه الأمور المتعلقة بى وفق تلك المصطلحات .

ـ من المؤكد انك عشت فى انجلترا .

وأحضرت ماريا طبقا مليئا بلحوم مطهية على نار هادئة وأخذت أطباق الحساء الشاغرة ثم ساد الصمت . ولكنه لدى مغادرتها المكان نظر إلىّ على نحو غير متوقع . كان عنده كلام آخر يريد أن يقوله : الثروة هى مارد شديد البأس ، انها وحش كاسر ، والأمر يستغرق شهرا لكى يتعلم المرء كيف يسيطر على الثروة ويستغرق سنوات لكى يتعلم كيف يتحكم فيها من الناحية النفسية . لقد عشت حياة مليئة بالأنانية ، وقدمت لنفسى كل بهجة من مباهج الحياة ، فسافرت كثيرا . وفقدت بعض الأموال فى مجال المسرح وكسبت الكثير من الأموال فى سوق الأوراق المالية . لقد كسبت أيضا العديد من الأصدقاء وبعضهم قد حقق شهرة كبيرة ، لكننى لم أكن سعيدا للغاية فى أى وقت من الأوقات . لقد اكتشفت ما لم يكتشفه بعض الأغنياء .

ـ وهو أننا لدينا جميعا مقدرة معينة على السعادة والتعاسة . وأن ذلك الأمر لا تؤثر فيه المقامرات الاقتصادية تأثيرا خطيرا .

ـ متى بدأت فى مسرحك هنا ؟

ـ اعتاد الأصدقاء ان يجيئوا . كانوا يشعرون بالملل وكثيرا ما كانوا يسببون لى الضجر . ويمكن لشخص مسلّ فى لندن أو باريس أن يصبح انسانا لا يطاق عندما يكون فى جزيرة فى بحر إيجه . كان لدينا مسرح صغير مثبت وخشبة للمسرح .

ـ هل ظللت على اتصال بالأشخاص الذين جاءوا قبلى ؟

كان يأخذ لنفسه كمية ضئيلة من اللحوم المطهية على نار هادئة . ثم قال : "قبل الحرب ، كنا تمثل مسرحيات من تأليف رجال آخرين . أو نمثل ترجمات لها . لم نكن نمثل مسرحيات من تأليفنا .

ـ حدثنى باريا عن عروض للألعاب النارية . لقد شاهد هو تلك العروض عندما كان فى زورقه بالبحر .

أومأ برأسه إيماءة خفيفة . ثم قال : لقد شاهد إحدى الليالى المهمة فى حياتى دون أن يدرك ذلك ، حدث ذلك فى عام ١٩٣٨ . لقد اشعلت النيران فى مسرحى فى المبنى . وكانت الألعاب النارية احتفالا بذلك .

تناول كمية ضئيلة للغاية من اللحم وقبل ان انتهى من تناول كل ما فى طبقى بوقت طويل نهض واقفا على قدميه . وقال : خذ راحتك فى تناول الطعام . ولسوف أعود اليك .

ثم اختفى داخل المنزل . وبعد وقت قصير سمعت أصواتا خافتة تتكلم اليونانية فى الدور العلوى ، ثم ساد الصمت مرة أخرى . وأحضرت ماريا طبق الحلوى ثم أحضرت القهوة . رحت أتشبث بآمال لا رجاء فيها بأن جولى وأختها قد تجيئان . كنت فى مسيس الحاجة الى دفئهما والى حالتهما الطبيعية والى لغتهما الانجليزية السليمة . لقد كان كلامه طوال فترة تناولنا الطعام معا يكتنفه شىء غريب . كان هناك شىء كئيب فى داخله . شىء ينسحب الى داخله . وكنت قد صدقت كلامه عندما أوضح لى أنه لا يحبنى . وعلى نحو ما أدركت الآن أنه لن يبعد الفتاتين عنى بالقوة .... شعرت بشىء من الرعب لأنه عرف أننى تقابلت مع آليسون فى أثينا . لقد حصل على برهان يثبت به أننى كاذب وأكثر ابتذالا .

ظهر مرة أخرى عند عتبة حجرة الموسيقى وقد أمسك بيده مطوية من الورق المقوى . أشار إلى المنضدة التى كانت توجد عليها المشروبات والتى أصبحت خالية بعد أن قامت ماريا بنقل ما عليها . ثم قال : أحضر كرسيين لو سمحت ، وكذلك المصباح . فنقلت الكرسيين الى هناك . وبينما كنت أنقل المصباح جاء شخص ما حول زاوية صف الأعمدة ، فقفز قلبى بين ضلوعى للحظات قصيرة . لأننى تخيلت أن جولى قد جاءت أخيرا . ولكنه كان الرجل الزنكى وكان يرتدى الملابس الداكنة ، وكان يحمل أسطوانة طويلة ، وسار أمامنا . ثم وضع الاسطوانة على طرفها الذى به حامل ثلاثى القوائم .

سرعان ما أدركت طبيعة الاسطوانة ـ لقد كانت شاشة سينما صغيرة ، وصدر صوت خشن ناجم عن ترسى وسقاطة لدى قيامه بنشر المربع الأبيض اللون وتثبيته بخطاف من أعلى ومواءمة الزاوية الخاصة به . ونادى شخص ما فى هدوء من منطقة علوية . انه صوت شخص يونانى لم أعرف صاحبه .

رجع الزنجى فى صمت عائدا من نفس الطريق الذى جاء منه دون أن ينظر الينا . وخفض كونشيس من شعلة المصباح الى أقل توهج ممكن ثم جعلنى أجلس فى مواجهة الشاشة . قال : ما سأقوله لك الآن قد يساعدك على فهم السبب فى قيامى بانهاء زياراتك لنا هنا ابتداء من الغد . وما سأقوله قصة حقيقية بالفعل .

فلم أرد عليه رغم انه ظل صامتا للحظات كأنه يتوقع منى أن أعترض

على ذلك ، وأضاف ؛ أود منك أن تنظر بعين الاعتبار الى أن تلك القصة لا تحدث الا فى عالم يعتبر فيه الرجل نفسه أعلى من المرأة ومتفوقا عليها . فى العالم الذى يسميه الأمريكان باسم "عالم الرجل" عالم تتحكم فيه الوحشية والغطرسة الخالية من روح الفكاهة والهيبة المخادعة والغباء البدائى الذى يرجع الى اقدم العصور الجيولوجية . الرجال يعشقون الحروب لأنها تسمح لهم بأن يتخذ شكلهم طابع الوقار . انهم يتخيلون أن الحروب هى الشىء الوحيد الذى يمنع النساء من السخرية منهم . فأثناء الحروب يمكن للرجال تخفيض قيمة النساء بحيث يصبحن مجرد أشياء . وذلك هو الفارق الهائل بين الجنسين . الرجال يشاهدون الأشياء ، والنساء من يشاهدن العلاقة ما بين الأشياء . انه بعد اضافى للمشاعر غير موجود لدينا نحن الرجال وذلك هو السبب الذى يجعل الحروب بغيضة من وجهة نظر النساء الحقيقيات . ولسوف أحدثك عن جوهر الحرب . الحرب هى الاختلال العقلى الحاد الناجم عن عدم المقدرة على رؤية العلاقات الموجودة بين الأشياء . أو رؤية العلاقات الموجودة بين زملائنا من الرجال . أو رؤية علاقاتنا مع موقفنا التاريخى ووضعنا الاقتصادى . وأولا وقبل كل شىء عدم القدرة على رؤية علاقاتنا بالعدم . بالموت .

وتوقف عن الكلام . كان وجهه المتوارى وراء القناع مسحوبا الى الداخل تماما على نحو لم أره عليه من قبل . ثم قال : لسوف أبدأ .

(٥٣)

"عندما قام الايطاليون بغزو اليونان عام ١٩٤٠ قررت عدم الهرب . ربما كان السبب هو مجرد حب الاستطلاع . أو الشعور بالذنب اذا هربت . أو اللامبالاة . وهنا فى هذا المكان الذى يقع فى ركن بعيد بجزيرة بعيدة نائية لم يستلزم شجاعة كبيرة . وحل الألمان محل الايطاليين فى ٦ ابريل ١٩٤١ . وبحلول يوم ٢٧ ابريل وصل الألمان الى أثينا . وفى شهر يونيو بدأوا غزوهم لجزيرة كريت ودخلنا فى عنفوان الحرب لفترة من الوقت . كانت طائرات النقل تمر فى الجو طوال النهار وكانت الزوارق الألمانية الخاصة بانزال الجنود ومعداتهم الى البر تملأ الموانى . ولكن بعد ذلك سرعان ما خيم السلام والهدوء على الجزيرة . لم تكن للجزيرة قيمة استراتيجية سواء بالنسبة للمحور أو بالنسبة للمقاومة . وكانت الحامية هنا صغيرة للغاية . أربعون من النمساويين ـ فالنازيون كانوا يعطون النمساويين والايطاليين كافة مواقع الاحتلال السهلة ـ تحت قيادة ضابط برتبة ملازم جُرح أثناء غزو فرنسا .

"وأثناء غزو جزيرة كريت صدرت الأوامر لى بالفعل بمغادرة بوراني . وتم اقامة نقطة مراقبة دائمة هنا . وصيانة نقطة المراقبة هذه كانت السبب الحقيقى فى وجود حامية فى هذا المكان . ومن حسن حظى أننى كان لدى منزل فى القرية . وكان الألمان مهذبين معى . حيث قاموا نيابة عنىَ بنقل كافة حاجياتى التى يمكن نقلها من بوراني الى منزلى بالقرية بل ودفعوا لى ايجارا بسيطا نظير مبيت الجنود فى بوراني . وبدأت الأمور تسير فى هدوء وتستقر على ذلك النحو الى ان تصادف أن أصيب عمدة القرية بجلطة دموية فتم استدعائى بعد مرور يومين لكى أقابل قائد الجزيرة الجديد الذى وصل إليها اخيرا . وكان ذلك القائد ورجاله متمركزين فى مدرستك التى أغلقت منذ الكريسماس .

"توقعت أن أقابل ضابطا من ضباط الامداد والتموين مُرقى حديثا لكنى وجدت نفسى أمام شاب وسيم للغاية يتحدث الفرنسية بطلاقة مما جعله يدرك أننى أتكلم الفرنسية أيضا فى طلاقة . وكان غاية فى الأدب الجم وأبدى لى بعض الاعتذار وسرعان ما تطرق الى الموضوع الرئيسى . لقد كان يريدنى أن أشغل منصب العمدة الجديد للقرية . فرفضت لأننى لم أكن أرغب فى التورط فى هذه الحرب على الاطلاق . ثم طلب استدعاء ثلاثة من كبار الشخصيات بالقرية . وعندما جاءوا تركنى بمفردى معهم فاكتشفت انهم هم الذين رشحوا اسمى لأكون العمدة . وكانمت حقيقة الأمر بالطبع هى أنه لم يكن يوجد بينهم من يرغب فى الحصول على هذه الوظيفة لأنها تنطوى على التعاون البغيض وأنا من وجهة نظرهم الشخص الملائم . وأوضحوا لى أن هذه المسألة تتسم بالطابع الأخلاقى بالاضافة الى انها بمثابة تكريم كبير لشخصى .... قصارى القول أننى تقبلت هذه المهمة»

"انه مجدى الجديد ولو انه مجد مريب قد جعلنى على اتصال مع الملازم كلوبير فى أوقات كثيرة . وبعد مرور خمسة أسابيع على أول اجتماع أخبرنى ذات مساء أنه يريدنى أن أناديه باسمه أنطون عندما نكون بمفردنا . وهذا يوضح لك اننا كنا بمفردنا فى أغلب الأحيان وأننا قد أكدنا على شعورنا بالارتياح نحو بعضنا البعض . ولقد تمت أول علاقة بيننا من خلال الموسيقى . كان له صوت تينور جميل . ومثل الكثير من الهواة الموهوبين بالفعل فإنه كان يغنى لشوبيرت ووولف على نحو أفضل من الآخرين باستثناء أفضل الموهبين المحترفين . أى أفضلهم بالنسبة لأذنى

الموسيقية . وعندما قام بزيارته الأولى لمنزلى شاهد آلة البيان القيثارى . وفى شىء من سوء القصد عزفت له تنوعات جولدبرج فاذا أراد أحد ان يسيل دموع شخصى ألمانى حساس فتلك هى أفضل موسيقى يعزفها له . ينبغى ألا أوحى لك بأن أنطون كان من الرعايا الذين يصعب هزيمتهم . كان يميل الى الشعور بالخجل من نفسه وكان يميل الى الرغبة فى العثور على شخصية مناهضة للنازية لكى يعبدها . وفى المرة التالية التى زرت فيها المدرسة طلب منى ان أصطحبه الى بيانو المدرسة الذى نقله الى المسكن . ثم جاء الدور علىَّ لكى أشعر بالتأثر العاطفى . ولكن ليس الى حد ذرف الدموع" .

"ومن أوائل الأمور التى أردت أن أعرفها هو السبب فى أن انطون لم يوضع فى فرنسا المحتلة رغم اجادته التامة للغة الفرنسية . ويبدو ان "مواطنين معينين" اعتبروه "ليس ألمانيا بالقدر الكافى" من حيث اتجاهاته ازاء الفرنسيين . ومما لاشك فيه انه تحدث أكثر من مرة فى المطعم العسكرى كلاما يعتبر دفاعا عن ثقافة بلاد الغال . وذلك هو السبب فى تخفيض رتبته العسكرية ونقله بشكل مؤقت الى هذه المنطقة النائية . نسيت أن أخبرك انه أصيب فى عام ١٩٤٠ فأصبح يعرج فى مشيته مما جعله غير صالح لأداء المهام الحربية الميدانية . كان ألمانيا وليس نمساويا . من أسرة غنية ، قضى عاما فى الدراسة بجامعة السوربون قبل نشوب الحرب . وكان قد قرر أخيرا أن يشق طريقه فى الدراسة من أجل أن يصبح مهندسا معماريا . ولكن دراسته قد تعرقلت بالطبع بسبب نشوب الحرب"

"لم يعجبه منزلى هذا . وعدنى بأن يجىء إلىَّ عقب انتهاء الحرب ليشيد لى منزلا آخر جديدا بما يتمشى مع أفضل النظريات"

وكشف لى عن الخرائط المكتوبة باللغة الفرنسية . وكانت الرسومات التصميمية عليها التوقيع التالى ؛ انطون كلوبير وتركنى انظر فى مزيد من التمعن للحظات أخرى قليلة ثم خفض من شعلة المصباح مرة أخرى .

وعلى مدى سنة أثناء الاحتلال كان كل شىء معقولا ومريحا . وكان لدينا نقص شديد فى الطعام ولكن انطون ورجاله أغمضوا أعينهم عن انتهاكات القوانين والأصول المرعية . وكانت تلك الانتهاكات عديدة بلا حصر .

بمعظم الجنود النمساويين كان عمرهم يزيد على أربعين عاما أى انهم كانوا هم أنفسهم من الآباء ـ وبذلك كانوا يعطفون على الأطفال بالقرية .. وفى فجر أحد الأيام الصيفية عام ١٩٤٢ جاءت طائرة تابعة للحلفاء وألقت طوربيدا على زورق للمؤن ألمانى كان راسيا فى الميناء القديم استعدادا لاستئناف رحلته الى جزيرة كريت . فغرق الزورق . وطفت على السطح مئات من صناديق الطعام . وفى ذلك الوقت لم يكن سكان الجزيرة قد تناولو أى نوع من الطعام . باستثناء السمك والخبز الردىء . وكان منظر كل تلك الصناديق المليئة باللحوم واللبن والأرز وغير ذلك من الأطعمة الفاخرة أكثر مما يستطيع الأهالى احتماله . فتجمعوا وراحوا يلتقطون أى شىء يطفو على سطح الماء . وأخبرنى شخص ما بما حدث فأسرعت الى الميناء . كان للحامية مدفع عند اللسان الممتد الى داخل المياه وكان ذلك المدفع قد قصف طائرة الحلفاء فى وحشية غاضبة وبذلك تخيلت مناظر رهيبة لمذبحة انتقامية . ولكننى عندما وصلت الى هناك شاهدت أهالى الجزيرة منهمكين فى جر صناديق الطعام . على مسافة لا تزيد على مائة ياردة من موقع المدفع . وكان انطون يقف خارج نطاق اللسان ومعه الفرقة العسكرية الصغيرة ، ولم يطلقوا رصاصة واحدة .

وفى وقت لاحق من ذلك الصباح استدعانى انطون ، وبالطبع عبرت عن شكرى الجزيل له . وقال لى انه كان بصدد اعداد تقرير يفيد ان العديد من بحارة الزورق تم انقاذهم بواسطة القرويين حيث قاموا بالتجديف فى البحر لانقاذهم ، ومن المؤكد انه حصل على بعض الصناديق القليلة التى سلمت له كدليل على ما قاموا به من عمليات الانقاذ .

"وأذكر أن مجموعة من الجنود المخمورين شرعوا فى الغناء عند الميناء ذات مساء عقب حادث الزورق بحوالى شهر . وعندئذ بدأ أهالى الجزيرة يشاركون فى الغناء . وكان ذلك أمرا غريبا للغاية . وفى النهاية تغنوا جميعا بأغنيات بعضهم البعض .

"كان ذلك هو قمة عصرنا الذهبى الضئيل فمن المؤكد انه كان هناك جاسوس فى مكان ما بين الجنود النمساويين . فبعد مرور أسبوع تقريبا تم ارسال فرقة عسكرية صغيرة تضم عددا من الجنود الألمان للانضمام الى حامية انطون بهدف "تقوية المعنويات" . وجاء الى انطون ذات يوم مثل طفل غاضب وقال : قيل لى اننى فى خطر لأننى بصدد أن أصبح انسانا

يقوم بنزع الثقة من جيش الدفاع الألماني وبذلك ينبغى على ان احسن من سلوكى . وتم منع جنوده من اعطاء الأطعمة لأهالى الجزيرة ولم نعد نشاهد جنوده يتجولون بالقرية كثيرا مثلما كان يحدث من قبل . وفى شهر نوفمبر ، ومن حسن حظى أن القرويين كانوا قد منحونى ثقة أكثر مما استحق بسبب البساطة فى أسلوب الحكم . ولذلك تقبلوا الموقف على أحسن وجه يمكن أن يتوقع منهم"

وتوقف كونشيس عن الكلام . ثم صفق بيديه مرتين .

"أودك أن تشاهد انطون"

ـ أعتقد أننى شاهدته بالفعل .

"لا . فانطون قد مات . لقد شاهدت ممثلا يشبهه . ولكن هذا هو انطون الحقيقى . وأثناء الحرب كان لدى كاميرا سينمائية صغيرة وبكرتا فيلم ، وقد احتفظت بهما حتى عام ١٩٤٤ حيث قمت بتحمزيضهما . ولكن النوعية رديئة للغاية" .

وسمعت الصوت الخفيف الذى ينبعث من آلة العرض السينمائى . وترامى شعاع من الضوء من أعلى وتم ضبطه ومواءمته وتركيزه على الشاشة ، وظهرت صورة مشوشة وتجميع متسرع فى البؤرة .

وشاهدت شابا وسيما من نفس عمرى تقريبا . لم يكن هو نفس الشخص الذى شاهدته فى الأسبوع السابق وان كان له نفس الملامح وخاصة بالنسبة لحواجب العينين القاتمة الكثيفة حيث كانت متشابهة للغاية . انه ضابط من زمن الحرب على نحو لا يدع مجالا للشك . وبدا أشبه ما يكون بطيار يتسم باللامبالاة . وكان يسير على مدق بجوار حائط مرتفع . لعله حائط منزل هيرميز وكان مبتسما . وكان صوته يميل الى الصوت التبنور العالى البطولى فى الغناء وكان يضحك فى شىء من الخجل أو الارتباك . فجأة انتهت اللقطات السينمائية التى تتابعت على مدى عشر ثوان . وفى اللقطة التالية كان يحتسى القهوة ويلعب مع قطة . بدت نظراته وقورة تتسم ببعض الحذر كما لو كان شخصا ما قد نبهه لكى لا يبتسم . وظهرت لقطة سينمائية أخرى . طابور من الرجال يسيرون عند ميناء الجزيرة ويبدو أن تلك اللقطة قد صورت من مكان مرتفع أو من نافذة بالدور العلوى . قال : ذلك هو انطون . انه فى المؤخرة . كان يعرج خفيفا . أدركت اننى كنت أرقب الحقيقة الغير قابلة للتزييف . والى ما وراء الرجال شاهدت رصيف

ميناء عريض حيث يوجد به مبنى الجمرك الصغير ومبنى حرس الحدود .
أدركت ان هذه المبانى الصغيرة قد شيدت منذ نشوب الحرب . وفى هذا الفيلم كان رصيف الميناء شاغرا .
وبعدئذ أطفىء شعاع الضوء .

لقد التقطت مناظر أخرى ولكن بكرة واحدة أصابها التلف . وتلك البكرات هى كل البكرات التى تمكنت من انقاذها عقب الحريق . أما الضابط المسئول عن "تدعيم المعنويات" فى هذه المنطقة فكان برتبة كولونيل ويسمى فميل ديتريش . وبحلول ذلك الوقت الذى أتحدث عنه كانت حركات المقاومة قد بدأت بالفعل فى بلاد اليونان . فى كل مكان تسمح فيه التضاريس الأرضية بذلك وكانت جزيرة كريت بالطبع هى الجزيرة الوحيدة من بين كافة الجزر التى كانت تسمح ظروفها بعمليات الفدائيين .. فى البيلوبونيوس كانت جماعة إيلاس والجماعات الأخرى قد بدأت فى تنظيم نفسها . وكان يتم اسقاط الأسلحة لها . وكان هناك اشخاص مدربون على القيام بأعمال التخريب . وكان فميل قد أحضر الى نوبليا فى أواخر عام ١٩٤٢ من بولندا نظرا لما حققه من نجاح كبير هناك . وكان مسئولا عن الأجزاء الجنوبية الغربية من اليونان وهى الأجزاء التى تشملنا . كان لدى فيميل اساليب غاية فى البساطة . اذ كان لديه قائمة أسعار تنص على الآتى : إذا جرح أى ألمانى يتم اعدام عشرة من أسرى الحرب المحتجزين كرهائن . واذا قتل أى ألمانى يتم اعدام عشرين من أسرى الحرب المحتجزين كرهائن وكانت هذه الطريقة ناجحة بالفعل .

وكان يعمل تحت قيادة مجموعة منتقاة من الوحوش الذين كانوا يقومون بالاستجواب والتعذيب وتنفيذ حكم الاعدام وغير ذلك من الأهوال . وكانوا يعرفون باسم : الغربان السود .

"قابلته قبل أن تصبح بشاعته معروفة على نطاق واسع . وذات صباح فى الشتاء سمعت أن زورقا ألمانيا قد أحضر على نحو غير متوقع ضابطا مهما الى الجزيرة . وفى وقت لاحق من ذلك اليوم استدعانى انطون . وتم تقديمى فى مكتبه الى رجل نحيل ضئيل الحجم . انه من نفس طولى وسنى . وكان فى غاية الأناقة والنظافة وكان مؤدبا للغاية . ونهض واقفا ليصافحنى بيده . وكان يعرف قدرا ضئيلا من اللغة الانجليزية وعلى نحو يكفى لكى يدرك اننى أتكلم الانجليزية بشكل أفضل منه . وعندما اعترفت

له أننى كانت لدى ارتباطات ثقافية عديدة مع انجلترا واننى قد حصلت على قسط من التعليم هناك ، قال : "أكبر مأساة فى وقتنا هذا هى دخول انجلترا وألمانيا فى حروب ضد بعضهما البعض" وأوضح انطون الموقف قائلا انه قد سبق له أن تحدث مع الكولونيل عن أمسياتنا الموسيقية وإن الكولونيل أبدى رغبته فى أن انضم اليهما على مأدبة طعام الغذاء"

لم أشعر بالارتياح نحو الكولونيل على الاطلاق . كانت له عينان حادتان مثل شفرة الحلاقة . إنهما أسوأ عينين شاهدتهما فى وجه كائن بشرى . كانتا خاليتين تماما من أى حنان ازاء أى شىء يقع بصرها عليه . لا شىء سوى التقييم والتخمين والظنون . ولو كانت هاتان العينان تتصفان بالوحشية أو الفجور أو الدعارة أو السادية لكانتا أفضل حالا . ولكنهما كانتا عينين آليتين .

آلة مثقفة متعلمة . تناولنا أشهى وجبة غذاء حتى أننى لم أتناول وجبة رائعة مثلها منذ شهور عديدة . وتناقشنا فى موضوع الحرب مثلما يتكلم الناس عن الأحوال الجوية . وكان الكولونيل نفسه هو الذى غير موضوع الحديث وتطرق إلى الأدب . كان من الواضح أنه قارىء ممتاز حيث كان يعرف شكسبير وجوته وشيللر معرفة جيدة . فقد قام بعقد مقارنة أدبية بين الأدب الانجليزى والأدب الألمانى ولم يكن كلامه كله فى صالح الأدب الألمانى . ولاحظت ان انطون كان غير ملتزم بالحذر بالنسبة للكلام الذى يقوله . لقد كنا نحن الاثنين تحت المراقبة فى حقيقة الأمر . وقد أدركت هذه الحقيقة بعد مرور بعض الوقت أثناء تناولنا الطعام . وعرف الكولونيل اننى أدركت ذلك . وقمنا نحن الرجلان الأكبر سنا باستقطاب الموقف . وأصبح انطون لا صلة له بالمناقشات . كان الكولونيل من النوع الذى يشعر بازدراء واختفاء الموظف اليونانى العادى وكان تكريما كبيرا لى أن يعاملنى كشخص متساو معه تماما . ولكننى لم أخدع .

وعقب تناول طعام الغذاء أدينا قدرا ضئيلا من الغناء من أجله - فعبر عن شكره . ثم أعلن عن رغبته فى التفتيش على نقطة برج المراقبة التى تقع عند الجانب البعيد للجزيرة ووجه لى الدعوة للذهاب معه - لم يكن لذلك المكان أهمية عسكرية كبيرة ، لذلك انطلقت معهم فى اللنش الى موتسا وصعدنا الى المنزل هنا . كنت سعيدا لأن المنزل لم يتعرض للدمار على الاطلاق . وقام الكولونيل باستعراض الجنود وكان يتكلم معهم باللغة

الألمانية . وكان يشير إلىَّ بقوله "هذا الجنتلمان" وأوضح لهم انه ينبغى عليهم احترام ممتلكاتى والحفاظ عليها .

ثم لم نشاهده بعد ذلك طوال تسعة شهور حتى خريف عام ١٩٤٣ .

كان الوقت فى نهاية شهر سبتمبر . وكنت فى منزلى عندما جاء الىَّ انطون فى خطوات واسعة . فأدركت ان شيئا رهيبا قد حدث . وكان قد عاد لتوه من بوراني . وفى ذلك الصباح نزل أربعة رجال ممن هم فى غير أوقات العمل الرسمية التى شاطىء موتسا لكى يستحموا فى البحر . ومن المؤكد انهم اعتادوا على الاسترخاء وعدم الالتزام بالدقة . فقد نزلوا الى الماء فى وقت واحد . ثم خرجوا الواحد تلو الآخر وراحوا يستمتعون بتعريض أجسامهم للشمس على الشاطىء . وبعدئذ خرج ثلاثة من الرجال من بين الأشجار الموجودة وراءهم . وكان أحدهم ممسكا بمدفع يدوى رشاش . ولم يكن لدى الألمان فرصة للهرب . وسمع الجاويش المكلف بالحراسة الطلقات النارية من المنزل فاتصل بانطون باللاسلكى ثم هبط نازلا الى موتسا لكى يلقى نظرة . فعثر على ثلاث جثث وعلى رجل واحد مصاب ظل على قيد الحياة لفترة تسمح له بأن يقول ما حدث . كان الفدائيون قد اختفوا بعد أن أخذوا بنادق وأسلحة الجنود . وعلى الفور انطلق انطون فى لانش حول الجزيرة .

"مسكين انطون . لقد كان ممزقا ما بين تأدية واجبه وبين محاولة تأجيل ابلاغ النبأ الى الكولونيل فميل الرهيب . وهو بالطبع كان يدرك انه عليه أن يكتب تقريرا عن هذا الحادث . فقام بكتابة التقرير بالفعل . لكنه لم يكتبه الا بعد ان قابلني فى المساء وقال لى : إنه ذهب فى تفكيره الى ان الفدائيين تسللوا إلى الجزيرة ليلا ولذلك فهم لن يغامروا بالعودة من الجزيرة قبل حلول الظلام . لذلك قام بجولة فى المياه حول الجزيرة فى بطء شديد مع البحث فى كل مكان عن زورق قد يكون مختبئا . وبالفعل عثر على زورق بين الأشجار عند نهاية الجزيرة . ولم يكن أمامه خيار آخر . من المؤكد ان الفدائيين شاهدوه وهو يبحث . وكانت هناك أوامر عليا مشددة فى مثل هذه الطوارىء . وصدرت الأوامر بتدمير وسيلة التراجع . فأشعلت النيران فى الزورق . ووقعت الفئران فى المصيدة .

لقد جاء الىَّ ليوضح لى كل هذه الأمور . كانت قائمة أسعار فميل أصبحت مشهورة ومعروفة لدى الجميع . أصبحنا مدينين له بثمانين

رجلا . وكان انطون يعتقد أن لدينا فرصة واحدة . وهى أن نلقى القبض على الفدائيين ونتحفظ عليهم لحين وصول فميل . وكان وصوله مؤكدا فى خلال اليوم التالى . حيث كان يمكننا على الأقل أن نبرهن على أن الفدائيين ليسوا من أهالى الجزيرة وانما هم مجرد عملاء . ونحن ندرك أنهم بالتأكيد من الشيوعيين لأن سياستهم ترتكز على التحريض المتعمد على الأخذ بالثأر من الألمان ـ بهدف تقوية المعنويات لدى الجانب اليونانى .

وفى تمام الساعة الثامنة من ذلك المساء استدعيت جميع الشخصيات القيادة بالقرية وشرحت الموقف لهم . ولكن الوقت كان متأخرا للغاية بحيث لم يكن هناك مجال لعمل أى اجراء . كانت فرصتنا الوحيدة هى التعاون مع جنود انطون فى تمشيط الجزيرة فى اليوم التالى . كانوا غاضبين للغاية بسبب تعرض أمنهم وحياتهم لمثل هذه الأخطار الداهمة . ووعدوا أن يقضوا الليل فى حراسة زوارقهم وخزانات المياه مع الانطلاق فى الفجر لاقتفاء أثر الفدائيين فى الأماكن القريبة من السواحل .

استيقظت من النوم فى منتصف الليل لدى سماع أصوات أقدام تسير فى مشية عسكرية . إنه انطون لقد اتى ليخبرنى ان الزمام قد أفلت من بين يديه . حيث صدرت اليه الأوامر بألا يتخذ اية اجراءات من تلقاء نفسه . لأن فميل سيصل الجزيرة فى الصباح . وقال إن الأوامر صدرت بوضعى تحت الاقامة الجبرية . وإن جميع الذكور الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٤ سنة ، ٢٧ سنة سيتم حشدهم فى الفجر . قال انطون هذا الكلام فى غرفة نومى . كان يجوب الغرفة فى قلق شديد بينما الدموع تكاد تتجمع فى عينيه ، وكنت استمع اليه وهو يقول انه يخجل انه جاء الى هذه الحياة . بل وقال انه سيبادر الى قتل نفسه لو لم يشعر ان من واجبه ان يحاول ان يتوسط لدى الكولونيل فى خلال اليوم التالى . رحنا نتحدث سويا لفترة طويلة . وزودنى بالكثير من المعلومات عن فمِّيل . فقد كنا منعزلين هنا عن العالم الخارجى للغاية . قال فى نهاية الأمر إن هناك شيئا واحدا حسنا فى هذه الحرب . انها اتاحت له الفرصة كى يقابلنى . ثم تصافحنا بالأيدى فى نهاية هذا اللقاء .

عدت معه الى المدرسة ونمنا هناك تحت الحراسة المشددة .

وعندما تم اقتيادى والهبوط بى الى الميناء فى صباح اليوم التالى فى الساعة التاسعة كان جميع الرجال ومعظم النساء بالقرية هنالك . وكان

جنود انطون يحرسون جميع المنافذ . وكان من الواضح أن الفدائيين لم يشاهدوا . وكان القرويون فى حالة من اليأس المرير . ولم يكن هناك شىء يفعلونه .

وفى تمام الساعة العاشرة وصل "الصاعقة" فى زورق خاص بانزال الجنود ومعداتهم الى البر . وكان باستطاعة المرء أن يلحظ الفارق بينهم وبين النمساويين . كانوا أفضل من حيث التدريب ومن حيث اقتلاع المشاعر الانسانية من قلوبهم . وكانوا صغار السن . واكتشفت ان أشد الأمور المرعبة فيهم هو شبابهم المفعم بالتعصب الشديد . وبعد مرور دقائق هبطت طائرة مائية . وأذكر ظلال جناحيها لدى سقوطها على البيوت المطلية باللون الأبيض . مثل منجل كبير أسود ذى يدين . والتقط صياد أسماك شاب زهرة هبسكوس ووضع الزهرة القانية على قلبه . وأدركنا جميعا المعنى الذى كان يريد أن يقوله .

وصل فميل إلى الشاطىء . وكان أول شىء يفعله أنه أمر بتجميع الرجال ودفعهم الى رصيف . ولأول مرة أدرك أهالى الجزيرة بأنهم سيتعرضون لما يشبه الركل والضرب بواسطة جنود أجانب . أما النساء فتم اعادتهم الى الأزقة القريبة . ثم اختفى فميل فى بار مع انطون . وسرعان ما تم استدعائى . فقام جميع القرويين برسم علامة الصليب بأيديهم على أنفسهم . واقتادنى اثنان من رجاله فى مشية عسكرية لكى أقابله . ولم ينهض واقفا لكى يرحب بى وعندما تكلم موجها كلامه الىَّ كان كمن يتحدث الى شخص غريب عليه تماما . ورفض أن يتحدث بالانجليزية . وكان قد أحضر معه مترجما يونانيا . وكان باستطاعتى أن أدرك أن انطون فى حيرة . لم يكن يعرف ماذا يفعل بسبب الصدمة التى وقعت عليه نتيجة هذه الأحداث .

وتم الاعلان عن لوائح فميل ، وأصبح الأمر يتطلب اختيار ٨٠ رهينة على الفور . على أن يقوم باقى الرجال بتمشيط الجزيرة والعثور على الفدائيين واحضارهم ومعهم الأسلحة المسروقة . ولا يكفى احضار جثث الفدائيين الثلاثة الشجعان . فاذا فعلنا ذلك فى خلال الـ ٢٤ ساعة التالية سيتم ارسال الرهائن الى معسكرات العمل . واذا لم ننجح فى مهمتنا سيتم اطلاق الرصاص على الرهائن .

وتساءلت عن الكيفية التى يمكن استخدامها لالقاء القبض على

الفدائيين المساحين فى حالة العثور عليهم . فنظر فى ساعة يده بكل بساطة وقال باللغة الألمانية "الساعة الآن الحادية عشرة وأمامكم مهلة حتى ظهر غد" .

وعند الرصيف كان علىَّ أن أكرر باللغة اليونانية الكلام الذى قيل لى . فبدأ جميع الرجال يصرخون من التذمر ويطالبون بالحصول على أسلحة حتى يتمكنوا من القبض على الفدائيين . وفى نهاية الأمر أطلق الكولونيل رصاصة من مسدسه فى الهواء فساد الصمت بين الجميع . وتم تلاوة أسماء رجال القرية من الكشف لمعرفة الحاضرين . وقام فميل باختيار الرهائن بنفسه من بين صفوف الحاضرين . ولاحظت أنه قام باختيار أكثرهم صحة وعافية وممن تتراوح أعمارهم ما بين عشرين وأربعين عاما كما لو كان يضع فى اعتباره معسكر العمل . ولكننى اعتقدت انه كان يختار أفضل العينات من أجل اعدامهم . واختار ٧٩ رجلا وبعدئذ أشار الىَّ . لقد كنت أنا الرهينة رقم ٨٠" .

تم اقتيادنا الى المدرسة تحت الحراسة المشددة . ثم حشرونا فى فصل واحد بدون تزويدنا بأى طعام أو شراب ـ وكان الصاعقة يقومون بالحراسة علينا . كنا منعزلين عن كافة الأخبار . فلم أعرف إلا فى وقت متأخر الأحداث التى تمت أثناء ذلك الوقت .

اندفع الرجال المتبقون الى منازلهم والتقطوا كل ما يمكن أخذه من عصى وسكاكين ومناجل ثم تقابلوا مرة أخرى فوق تل بجوار القرية . رجال طاعنون فى السن لا يمكنهم السير الا بصعوبة وأولاد من سن العاشرة والثانية عشرة . حاولت بعض النساء الانضمام اليهم ولكن تم دفعهم الى الوراء . لكى تكن متكفلات بعودة رجالهن .

هذه الكتيبة الحزينة راحت تتجادل وتتناقش مثلما يتناقش اليونانيون دائما . واتفقوا على خطة معينة ثم غيروا رأيهم واتفقوا على خطة أخرى . وفى النهاية تولى شخص القيادة وحدد المواقع التى سيتم البحث فيها . انطلقوا جميعا وكان عددهم ١٢٠ شخصا . لم يدركوا انهم يبحثون دون جدوى .

ظلوا فوق التلال طوال الليل حيث وقفوا على هيئة كردون مضروب حول الجزيرة ـ وكان بالطبع كردونا مفككا ـ على أمل أن الفدائيين قد يحاولون

اختراق الحصار ويتجهون الى القرية .. وفى صباح اليوم التالى راحوا يبحثون فى وحشية . وفى العاشرة صباحا فكروا فى القيام بهجوم يائس على الجنود الموجودين بالقرية . ولكن العقلاء بينهم أدركوا أن تلك المحاولة لن ينجم عنها الا مأساة مروعة . فلقد قام الألمان منذ شهرين بقتل جميع الرجال والأطفال والنساء بقرية فى مانى بسبب قيامهم بأعمال استفزازية أقل خطورة .

وعند الظهيرة نزلوا الى القرية . وكان فميل واقفا فى انتظارهم . حكى المتحدث الرسمى عن الأهالى وهو بحار عجوز كذبة عقيمة ، حيث أفاد أنهم شاهدوا الفدائيين يهربون فى زورق صغير . فابتسم فميل وهز رأسه وأمر بالقاء القبض على الرجل العجوز ليصبح الرهينة رقم ٨١ . فما حدث كان أمرا غاية فى البساطة . اذ ان الألمان تمكنوا من الامساك بالفدائيين . فى داخل القرية . وتعال لنرى كيف كان فميل .

شعرنا بالأمل يراودنا بعد ان تم القاء القبض على الفدائيين . وبعد مرور بعض الوقت فتح باب غرفتنا على مصراعيه . ونودى على اسمى وعلى رجل آخر : الجزار المحلّى .

وتم اقتيادنا فى مشية عسكرية لنهبط على السلالم الى خارج المدرسة نحو الجناح الذى يعيش فيه الآن مدرسو المدرسة . وكان فميل واقفا عند مدخل ذلك الجناح ومعه ضابط برتبة ملازم من التابعين له .

وعلى جانب السلالم خلفهما كان المترجم المتعاون مع الأعداء جالسا وقد وضع رأسه بين يديه . يبدو شاحب الوجه وكأنه أصيب بصدمة نفسية . وعلى مسافة عشرين ياردة شاهدت جثتين لفتاتين مقتولتين بجوار الحائط . وقام الجنود بدحرجة الجثتين لوضعهما فوق نقالتين لدى اقترابنا . واتخذ الضابط الملازم خطوة للأمام واعطى اشارة للجزار لكى يتبعه .

استدار فميل ودخل الى المبنى وتم دفعى للأمام لكى أسير وراء فميل . كان يقف عند باب فى نهاية الطرقة ينتظرنى . وكان الضوء يتدفق من ذلك الباب . وعندما وصلت الى هناك أشار لكى أدخل من الباب .

وأظن أن أى شخص غير طبيب كان سيغمى عليه . وكان ينبغى على أن أرحب بأن يغمى علىَّ . كانت الغرفة شاغرة . وفى وسطها منضدة وكان

هناك شاب مربوط بالحبال فى المنضدة . انه أحد الفدائيين . كان عاريا تماما باستثناء الفانلة الداخلية . الملطخة بالدماء . كانت أعضاؤه التناسلية قد اختفت .

وفى احدى الأركان البعيدة بالغرفة كان هناك رجل آخر عار ملقى على الأرض . وكان وجهه متجها نحو الأرضية ولم أستطع أن أتبين ماذا فعلوا به . كان مغميا عليه . ولن أنسى فى حياتى السكون الشديد الذى كان سائدا فى تلك الغرفة . كان هناك أربعة جنود ساديون مختلون عقليا - أحدهم ممسك بخازوق حديدى .

وكان هناك رجل آخر مربوط فى كرسى فى إحدى الأركان . وكان قد تم تكميمه . رجل مثل الثور الهائل . كان مصابا بجروح بالغة فى أحد ذراعيه من الواضح انه لم يتم تعذيبه بعد . لقد بدأ فميل أولا مع الأشخاص الذين كان من المتوقع لهم أن يهربوا .

"أعترف أن مشاعرى كانت هى الخوف الشديد . ظل فميل صامتا لفترة طويلة لكى يتيح لى الفرصة لأفكر فى عمق . فتوصلت الى انه سيتم تعذيبى فى وحشية أيضا . وكان العالم قد خلا من كل حكمة أو تفكير سليم . عندما يمكن للمخلوقات البشرية أن تمارس مثل هذه الأمور البشعة ..

التفت إلىَّ فميل . بدا كأنه الشخص الآخر المتصف بالمشاعر الانسانية الخالصة داخل الغرفة . كان يبدو عليه الاعياء والغضب . وكأنه فى حالة من الخجل بسبب الفوضى التى خلقها رجاله .

وقال لى باللغة الانجليزية (هؤلاء الناس يفعلون ذلك من أجل التسلية . وأنا شخصيا لا أفعل ذلك . وآمل .. قبل أن يبدأوا فى تعذيب ذلك السفاح الموجود هناك ، أن تتحدث معه أولا)

- قلت : وماذا ينبغى علىَّ أن أقوله له ؟

- اننى أريد أن أعرف أسماء اصدقائه . والذين يساعدونه ، والأماكن التى يختبئون فيها وأماكن الأسلحة . فاذا قام بتزويدى بكافة هذه المعلومات فاننى أتعهد له بأن يتم تنفيذ حكم الأعدام فيه بطريقة عسكرية سليمة .

فتساءلت ؛ ألم يقوموا بإخبارك بقدر كاف من المعلومات ؟

فقال فميل : قالوا كل ما يعرفونه ولكن هذا الرجل يعرف المزيد . ولقد

تمنيت أن أقابل هذا الرجل . وباستطاعة أصدقائه أن يدفعوه الى التكلم . ولا أعتقد اننا سننجح فى حفزه على التكلم . أما أنت فربما توفق فى ذلك . ولسوف تنصحه بأن يقول كل المعلومات التى يعرفها . وإنه لن يشعر بالذنب طالما أنه قد تم القاء القبض عليه وتم إرغامه على التكلم . أتفهمنى ؟ تعال معى .

وذهبنا إلى غرفة أخرى شاغرة مجاورة . وبعد لحظات قليلة تم سحب الجريح الذى كاد لايزال مربوطا فى كرسيه ووضع فى منتصف الغرفة . قدم لى كرسيا لكى أجلس فى مواجهته . وجلس الكولونيل فى المساحة الخلفية . وأمر رجال التعذيب بالخروج من الغرفة . فبدأت أتكلم مع الجريح .

وقلت نفس الكلام الذى أمرنى الكولونيل بأن أقوله . بمعنى أننى توسلت للرجل بأن يقول كل المعلومات التى يعرفها . قد تقول إننى فعلت بذلك أمورا غير شريفة لأنك تفكر فى العائلات الذين سيفشى سرهم هذا الرجل . ولكننى فى تلك الليلة عشت فى هاتين الغرفتين . انهما بمثابة الحقيقة الوحيدة . فالعالم الخارجى لم يكن موجودا على الاطلاق . وشعرت ان من واجبى ايقاف هذه الأمور الوحشية التى يتعرض لها الآدميون . وشعرت أن عناد هذا الرجل يزيد الأمور تعقيدا .

أخبرته اننى لست متعاونا مع الأعداء . وأننى طبيب . وأن عدوى الحقيقى هو المعاناة الانسانية . أخبرته أننى أتكلم دفاعا عن اليونان عندما أقول له إن الله سيغفر له اذا تكلم لأن اصدقاءه عانوا بما فيه الكفاية . وقلت له كل حجة منطقية خطرت على ذهنى .
ولكن التعبيرات التى ظهرت على وجهه كانت تنم عن العداء الشديد نحوى ، ومقته الشديد لى . ويبدو انه لم يكن يصغى لأى كلام أقوله له . ومن المؤكد انه اعتقد اننى متعاون مع الأعداء وأن الكلام الذى قلته له من قبيل الأكاذيب .

لم استطع اخفاء فشلى الذريع . ومن المؤكد ان الكولونيل اعطى اشارة للحراس بالخارج لأن واحدا منهم دخل الغرفة ووقف وراء الرجل الكريتى وفك الكمامة . وعلى الفور أصدر الرجل صوتا كالزئير – وقد برزت كل أوتار حلقه – ناطقا بنفس الكلمة . بتلك الكلمة الوحيدة : الحرية . لم يكن هناك شىء نبيل فى هذه الكلمة . كانت بمثابة وحشية خالصة . كما لو كان يلقى

بصفيحة من البنزين المشتعل علينا . فدفع الحارس بالكمامة فى وحشية مرة أخرى على فمه ولواها الى الداخل وربطها .

بالطبع لم تكن هذه الكلمة بالنسبة له بمثابة فكرة أو مفهوم ذهنى أو مثل أعلى . لقد كانت بكل بساطة هى سلاحه الأخير .

فقال الكولونيل (عد به وانتظر لحين أن اصدر لك تعليمات أخرى) وتم جر الرجل الى تلك الغرفة المشئومة وسار الكولونيل الى النافذة ، وأطل على الظلام ثم التفت الىَّ وقال .

ينبغى علىَّ أن أجعلك تشاهد الحوار الذى سيتم بين رجالى وبين ذلك الحيوان . سألنى عما اذا كنت أعتقد انه يستمتع بمثل هذه المناظر . فلم أرد عليه . ثم قال : اننى سأكون سعيدا للغاية اذا جلست فى مركز القيادة وبحيث لا أفعل شيئا سوى التوقيع على الأوراق والاستمتاع بمشاهدة الآثار الكلاسيكية الجميلة . أنت تظن أننى رجل ساد . أنا لست ساديا وانما أنا انسان واقعى .

ظللت جالسا فى صمت . وزرع نفسه أمامى وقال : سيتم وضعك تحت الحراسة فى غرفة مستقلة . ولسوف أصدر تعليماتى باحضار بعض الطعام والشراب لك . ولأننى متحضر يخاطب متحضرا فاننى اسف بسبب احداث اليوم وبسبب الأحداث بالغرفة المجاورة . وأنت بالطبع لن تكون أحد الرهائن .

من أكبر المغالطات العظمى التى شهدها عصرنا أن النازيين وصلوا الى السلطة لأنهم ادخلوا النظام على الفوضى . فالعكس هو الصحيح تماما ـ لقد كانوا ناجحين لأنهم فرضوا الفوضى على النظام . فقد مزقوا الوصايا والسنن المفروضة وأنكروا الأنا الأعلى . لقد قدموا للبشرية كل غواياتها الكبرى . لا شىء يتسم بالصدق . وكل شىء مسموح به .

أعتقد ان فميل كان يدرك جوانب مهمته البشعة ، وانه يلعب بعواطفى ويغرر بى . وألقى علىَّ نظرة . أخيرة ثم خرج من الغرفة . وسمعته يتكلم مع أحد الحراس الذين أحضرونى . وتم اقتيادى الى غرفة فى طابق اخر وتم تقديم بعض الطعام لى بالاضافة الى زجاجة من البيرة الألمانية . كانت تجتاحنى مشاعر عديدة . ولكن أهم تلك المشاعر أننى سأظل على قيد الحياة .

كنت أشعر باننى سأتمكن من مشاهدة الشمس تشرق مرة أخرى . سأتمكن ثانية من التنفس ومن تناول الخبز ومن لمس مفاتيح آلة البيان القيثارى .

ومرت تلك الليلة ، وأحضرت لى القهوة فى الصباح وسمح لى بأن أغتسل ، وفى تمام الساعة العاشرة والنصف طلب منى أن أخرج من الغرفة ، فوجدت جميع الرهائن الآخرين فى حالة انتظار .. لم يقدم لهم أى شراب أو طعام ومنعت من التحدث اليهم ، ولم يكن هناك أى أثر لفمّيل أو آنطون .

وتم اقتيادنا الى الميناء ، وكانت القرية كلها هناك تحت حراسة صف من الصاعقة راحوا جميعا يصرخون عندما ظهرنا أمامهم .. كنا نحاول تحطيم القيود ولكننا كنا غير قادرين على عمل ذلك ..

كان هناك منزل كبير له غرفة علوية ضخمة فوق السطوح يطل على الميناء ـ هل تعرف ذلك المنزل ؟ ـ فى تلك الأيام كانت هناك حانة بالدور الأرضى ، وفى الشرفة التى فوق الحانة شاهدت فميل ورأيت آنطون وراءه وقد التف حولهما رجال يحملون مدافع رشاشة ، وتم اخراجى من طابور الرهائن ، ثم ايقافى فى مواجهة الحائط تحت الشرفة بين الكراسى والمناضد ، أما باقى الرهائن فقد دخلوا فى شارع ، ثم اختفوا عن الانظار .

كان الجو حارا وسيق القرويون من الرصيف الى الشرفة التى توجد بها المدافع القديمة والتى توجد أمام الحانة ، وقفوا هناك .. لم يكن بمقدورى مشاهدة الشرفة ، ولكن الكولونيل فرض صمته على الناس ، وفى الأعالى بالسماء شاهدت الستونو الصغيرة المهاجرة ، من الغريب أن أشاهد حشدا كبيرا من يونانيين دون أن تصور عنهم كلمة واحدة ، لا شىء سوى التغريد الخافت للطيور الصغيرة .

وبدأ فميل يتكلم ، والمترجم يترجم :

لسوف تشهدون ما سيحدث لأولئك الناس أعداء ألمانيا ... وبناء على الأحكام الصادرة عن المحكمة العسكرية للقيادة العليا التى عقدت جلسة لها فى الليلة الماضية ، فقد تم تنفيذ حكم الإعدام فى ثلاثة أشخاص ولسوف يتم الآن تنفيذ حكم الاعدام فى شخصين آخرين .

اما الثمانون رهينة فوفقا لقانون الاحتلال .. وكانتقام من الاغتيال الوحشى .. للأشخاص الأربعة الأبرياء التابعين للقوات المسلحة الألمانية .. فسيتم تنفيذ حكم الاعدام فيهم .

وعندما قام المترجم بتوضيح معنى العبارة الأخيرة ، تصاعدت زفرات مليئة بالأنين والزمجرة وكأنهم ضربوا جميعا فى المعدة فى آن واحد .. وخر العديد من النساء ، ومن المؤكد أن فميل قد انسحب لأن التوسلات تحولت الى نحيب وبكاء بصوت مرتفع .

تم إخراجى من عند الحائط ودفعى للسير وراء الرهائن ، وكان الجنود النمساويون يقفون عند جميع المداخل المؤدية الى الميناء ويدفعون القرويين الى الوراء ، وقد راعنى أن يقوم النمساويون بمساعدة الصاعقة واطاعة أوامر فميل وأنهم يلفعون الناس فى عنف وخشونة رغم أنهم لم يكونوا يشعرون تجاههم بأية كراهية منذ يومين فقط وهذه حقيقة كنت أدركها تماما ، فلم تكن هناك أية كراهية من جانب النمساويين ازاء الأهالى .

كان الزقاق يتلوى لأعلى بين المنازل وينتهى عند الميدان الموجود الى جوار مدرسة القرية ، انه مسرح طبيعى يميل الى الجهة البحرية .

وكان ذلك هو أول شىء شاهدته لدى وصولى الى الميدان : ثلاثة جثث معلقة فى فروع الشجرة وشاحبة فى الظلال وبشعة وفظيعة مثل الصور المطبوعة من ألواح معدنية محفورة والخاصة بالفنان جويا ..

وخلف تلك الهياكل الشنيعة الثلاثة شاهدت الرهائن .. كان قد تم تجميعهم فى مواجهة المدرسة فى حظيرة محاطة بالأسلاك الشائكة .. والرجال الموجودون فى الجزء الخلفى كانوا تحت ظلال الحائط أما الموجودون منهم فى الجزء الأمامى فكانوا تحت أشعة الشمس ، وبمجرد أن شاهدونى شرعوا فى الصياح ، انطلقت شتائم نحوى وكأننى اذا قلت أى كلام للكولونيل .. فانه قد يعدل عن قراراته .. وكان الكولونيل موجودا هنالك وسط الميدان مع أنطون وحوالى عشرين من الصاعقة .

تم ايقافى خلف صفَّىْ الرجال ، لم يكن أنطون على استعداد لأن ينظر الى وجهى وان كان فميل قد التفت الىَّ .. وكان يحملق فى الفراغ ، كما لو

كان قد نوم نفسه مغناطيسيا بحيث أصبح يعتقد أن الأمور التى شاهدتها لا وجود لها فى الواقع ، واستدعى الكولونيل الشخص المتعاون مع الأعداء لكى يجىء اليه ، اعتقدت أنه يرغب أن يعرف معنى الصيحات التى يصيح بها الرهائن .. كأنه يفكر ، ثم اتجه نحو الرهائن ، فلاذوا بالصمت الشديد .. بالطبع لم يكونوا يعرفون أنه أصدر بالفعل أوامره باعدامهم ، لاحظت أن القرويين قد ركنوا الى الهدوء ، ومعنى ذلك أن الكلام الذى قيل لهم لم يكن هو قرار الاعدام .. وسار الكولونيل فى مشية عسكرية عائداً الىَّ .

وقال لى : (اقترحت على هؤلاء الفلاحين اقتراحا).. كان وجهه خاليا من الانفعالات العصبية ، كان مسيطرا على أعصابه ، ثم أضاف قائلا :

لن ينفذ الاعدام فيهم .. سأكتفى بارسالهم الى احدى معسكرات العمل .. ولكن بشرط واحد .. فباعتبارك عمدة القرية ستقوم بتنفيذ حكم الاعدام فى الفدائيين أمام القرويين .

فقلت .. لكن مهنتى ليست هى تنفيذ أحكام الاعدام .

وبدأ رجال القرية يصيحون فى قلق شديد فى وجهى .

ونظر الى ساعة يده وقال :
أمامك ثلاثون ثانية لكى تتخذ قرارا فى هذا الشأن .

وبالطبع لا يمكن للمرء أن يفكر جيدا فى مثل هذه المواقف ، ويجب أن تتذكر هذا جيدا .. بدأت أتصرف دون عقل وأتصرف على نحو لا يتمشى مع الحكمة .

فقلت : ما باليد حيلة .. لا يوجد أمامى خيار آخر .
امسك مدفعا رشاشا من كتف أحد الرجال وتأكد انه مشحون بالطلقات قدمه الىَّ ، فراح الرهائن يهتفون ويرسمون علامة الصليب على أنفسهم ، ثم لاذوا بالصمت .. وراح الكولونيل يرقبنى .. وراودتنى فكرة : وهى أن أصوب المدفع الرشاش الى الكولونيل .. ولكننى أدركت على الفور أننى اذا فعلت ذلك ستقام مذبحة كاملة للقرية كلها بشكل أكيد .

سرت تجاه الرجلين المربوطين بالاسلاك فى البوابات الحديدية ، وأدركت السبب الذى جعله يتصرف على ذلك النحو .. فالصحف الخاضعة

للرقابة الألمانية. سوف تتحدث عنى كرجل يونانى تعاون مع النظام الألمانى ، وسيكون هذا بمثابة تحذير للعمد الآخرين .. ولكن هؤلاء الرجال كيف يكننى أن أصدر عليهم حكما بالإدانة ؟

أصبحت قريبا للغاية من الفدائيين ، وكنت أنظر الى الحائط المرتفع ذو القمة المائلة والى قارورتين للزينة فوق قمة الأعمدة الموجودة على جانبى البوابة والى أوراق شجرة الفلفل الموجودة الى الوراء ، ثم اضطررت للنظر فى وجهيهما .. كان أصغرهما سنا يئن ويتوجع .. ويتمتم بكلام ما .. كان فى حالة من الهذيان والهلوسة .

أما الفدائى الأخر فكان فمه قد تعرض لضربة شديدة ، وكنت فى حالة من اليأس المرير .. وشاهدت العديد من الحروق فى أماكن متفرقة من جسده .. ولكن الألمان كانوا قد وقعوا فى غلطة واحدة رهيبة لأنهم لم يقوموا بفقأ عينيه .

رفعت المدفع الرشاش وأنا لا أكاد أرى شيئا أمامى ، وضغطت على الزند .. ولكن لم يحدث أى شىء .. لا شىء سوى صوت طقطقة ، فضغطت على الزند مرة أخرى .. ومرة أخرى تجىء الطقطقة الخاوية .

التفت ونظرت حولى .. كان فميل والحارسان يرقبون الموقف .. وفجأة بدأ الرهائن ينادون علىّ .. اعتقدوا أن عزيمتى قد خارت ، استدرت مرة أخرى وجربت ثانية .. وجاءت نفس الطقطقة مرة أخرى .. التفت نحو الكولونيل ولوحت بالمدفع لكى أوضح أن النيران لا تنطلق منه .. وشعرت بالغثيان والاشمئزاز الشديدين .. ولكنى كنت غير قادر على الوقوع فى دائرة الاغماء بالفعل .

قال لى : هل هناك شىء ما خاطىء ؟
وقلت : لقد حاولت وفشلت .. لن تنطلق النيران لأنه لا توجد به ذخيرة .

فقلت فى عجز ويأس ؟ وكيف يمكن لى أن أقتلهما ؟
ابتسم ابتسامة رفيعة مثل جرح السيف .
ثم قال : اننى منتظر .
انه يريد أن أقوم بضربهما حى الموت ..

مشيت نحوه .. وظن الحارسان أننى بصدد الهجوم عليه ، لأنهما رفعا

مدفعيهما فى حدة ، توقفت قريبا منه .. ورحنا نحملق فى بعضنا البعض فى عمق .

أتوسل اليك باسم الحضارة الأوروبية أن توقف هذه الأعمال الهمجية .

وأنا أمرك أن تستمر فى تنفيذ العقاب ، واذا رفضت التنفيذ ، فان هذا سيؤدى الى تنفيذ حكم الاعدام فيك على الفور .

فسرت عائدا الى البوابة ، ووقفت أمام الرجلين ، وكنت بصدد أن أقول للرجل الذى يبدو عليه أنه قادر على الفهم إننى مغلوب على أمرى وإننى مضطر لأن أفعل فيه ذلك الشىء الرهيب .. ولكننى توقفت عن الكلام ثانية واحدة مميتة ..

وفى خلال تلك الثوانى الخمس المذهلة والتى تمثل أخطر لحظات فى حياتى فهمت حقيقة شخصية هذا الفدائى على نحو أفضل من فهمه لنفسه ، اذ ساعدنى ، وحاول أن يمد رقبته نحوى وأن يقول الكلمة التى لم يستطع أن يقولها .. لم تكن على هيئة صوت وانما كانت مسخا وتشويها فى حلقه كانت اختناقا به خمسة مقاطع لفظية ..

فلم يكن به سوى شىء واحد لايقدر بثمن .. انها الحرية .. كان هو فوق العقل والحكمة والمنطق والحضارة والتاريخ .. لم يكن إلها .. كان بمثابة حق الانسان فى أن يرفض ويستنكر وأن تكون له حرية الاختيار ..

حرية خصى رجل وزالة اعضائه التناسلية باستخدام مقص لقطع الأسلاك الشائكة .. كان بمثابة شىء ما تخطى الى ما وراء المبادىء الأخلاقية .

كل هذا يتطلب العديد من الكلمات التى أقولها لك .. لم أقل كلاما عن كيف أننى شعرت أن هذا المعدن غير القابل للطرق عليه هو أمر يونانى أساسا .. بمعنى أننى اتخذت طابعى اليونانى فى نهاية الأمر .. لقد أدركت فى « لا زمن » أننى الانسان الوحيد المتبقى فى هذا الميدان الذى تركت له الحرية فى أن يختار وأن الدفاع عن تلك الحرية كان أمرا أكثر أهمية من الحفاظ على الذات .. بل من حياتى ذاتها وأكثر أهمية من حياة الثمانين رهينة . ومنذ تلك اللحظات وأولئك الرجال الثمانون ينهضون فى الليل ويوجهون أصابع الاتهام الىَّ .. ويجب أن تتذكر أننى كنت متأكدا أننى

سوف أموت أيضا .

ولكن كل ما كان عليَّ أن أضعه أمام وجوههم المعذبة التى رسمت عليها علامة الصليب بالأيدى هى تلك الثوانى القليلة البالغة السمو من المعرفة .. انها معرفة تشبه السخونة البيضاء حدثنى عقلى مرارا وتكرارا أننى على خطأ .. ولكن كيانى الشامل مازال يقول لى إننى كنت على حق .

ألقيت بالمدفع اليدوى الرشاش على الأرض واتخذت خطوة الى جوار القائد الفدائى ، وشاهدت الكولونيل يرقبنى ، فقلت : موجها كلامى له ولبقايا الرجل الموجود الى جوارى لكى يسمعنى الكلمة الوحيدة التى بقيت لتقال .

وفى مكان ما خلف فميل شاهدت أنطون يمشى بسرعة نحوه .. ولكن الزمام كان قد أفلت .. اذ تكلم الكولونيل وصدر الوميض من المدافع اليدوية الرشاشة فأغمضت عينى فى نفس اللحظة التى أصابتنى فيها الرصاصات الأولى .

« ٥٤ »

وانحنى للأمام عقب فترة من الصمت .. ثم رفع شعلة المصباح لأعلى وحملق فى وجهى .. أحسست أن شيئا ما تحرك فى داخل أعماقه .. قال :

المساوىء الموجودة فى هذه الدراما الجديدة الخاصة بنا أنك فى دورك لا تعرف الأمور التى يمكن أن تصدقها والأمور التى لا يمكن أن تصدقها ، اذ لا يوجد شخص فى الجزيرة الان كان موجودا فى الميدان .. ولكن يمكن لأشخاص عديدين أن يؤكدوا لك حدوث كل واقعة أخرى من الوقائع التى قصصتها عليك .

لم أشك فى هذه القصة التى قالها كونشيس وأدركت أننى كنت أستمع الى تاريخ الوقائع التى قد حدثت بالفعل وأنه فى قصة حياته قد التزم بالصدق حتى النهاية .. سألته :

وماذا حدث بعد اطلاق النيران عليك ؟

- سقطت على الأرض ولم أعد أعرف أى شىء آخر لأننى تعرضت للاغماء ، وأعتقد أننى سمعت زئيرا متراميا من الرهائن قبل هبوط الظلام

على عيني .. وربما ذلك هو الذى انقذنى ، وفى تخيلى أن الرجال الذين أطلقوا الرصاص قد وقعوا فى الارتباك والتشويش ، اذ صدرت تعليمات أخرى باطلاق الرصاص على الرهائن .. قيل لى ذلك بعد مضى نصف ساعة عندما سمح للقرويين بأن « يولولوا » على موتاهم ، فتم العثور على حيث كنت ملقى على الأرض غارقا فى بركة من الدماء عند أقدام الفدائيين .. ولقد عثرت عليَّ مديرة شئون منزلى « سولا » .

قبل حلول الأيام التى جاءت فيها ماريا ـ وكان هرميز معها أثناء العثور عليَّ .. وعندما قاما بتحريك جسدى ظهرت عليَّ دلائل خفيفة تؤكد أننى مازالت على قيد الحياة .. فقاما بنقلى الى المنزل وخبآنى فى غرفة ، وأشرفا على علاجى .

وماذا عن الكولونيل ؟

بعد انتهاء الحرب ، أصبح من المطلوب القاء القبض عليهم ومحاكمتهم بسبب الأعمال الوحشية التى لا حصر لها التى ارتكبوها .

وماذا عن أنطون ؟

اعتقد أنطون أننى مت ، فخدمى لم يبوحوا بالسر لأى شخص آخر ، وغادر فميل الجزيرة بعد ظهر نفس ذلك اليوم تاركا أنطون وسط هذه المجزرة من الجثث البشرية وبحيث لا يمكنه أن يقول شيئا عن العلاقات الطيبة التى أنشأها .. من المؤكد أنه قضى طوال الفترة المسائية وربما قضى الليل كله منتظرا الحصول على تقرير تفصيلى عن هذه الأحداث البشعة بأكملها ، وقام بنفسه بكتابة التقرير على الآلة الكاتبة .

لم يخف أى شىء فى تقريره ولم يلتمس الأعذار لأى شخص بما فى ذلك هو نفسه شخصيا ولسوف أعرض عليك ذلك بعد لحظات .

وماذا حدث له ؟

بعد يومين عثر على جثته تحت حائط مدرسة القرية ، حيث كانت الأرض مازالت مسودة بسبب الدماء .. لقد أطلق الرصاص على نفسه .. كان يريد للقرويين أن يدركوا كم هو نادم ، وتكتم الألمان الأمر ، وبعد فترة قصيرة تغيرت الحامية .

هبط الصمت فجأة ، فرحت اقطعه قائلا :

من المؤكد أن تلك السنوات أصابت فلسفتك بالتوتر والاجهاد ، فلسفة

الابتسام .

بل العكس ، فالتجربة جعلتنى أدرك تماما جوهر روح الفكاهة ، انها بمثابة كشف عن الحرية ولأن هناك حرية فالابتسامة موجودة ولا يمكن أن يكون هناك عالم خال من الحرية اللهم الا اذا كان ذلك العالم قد قدر أمره مسبقا تماما ، وفى النهاية اذا أصبح الفرد ضحية ، فان النكتة القصوى تغيب عن باله ـ حين يكتشف ان مَنْ لم يعد له وجود ، يصبح فاقداً للحرية .. وذلك هو ما يتعين على الغالبية العظمى من البشر أن يكتشفوه دائما .. أو ما سوف ينبغى عليهم أن يكتشفوه دائما .

واستطرد كونشيس قائلا : يجب أن تستقر على رأيى يانيقولاس .. اما أن يندرج تحت لواء أمثال ذلك السفاح الذى لم يكن يعرف سوى كلمة واحدة او تحت لواء آنطون .. اما أن ترقب وتشعر باليأس ، واما أن تشعر باليأس وترقب ، وأنت فى الحالة الأولى تنتحر انتحارا فيزيقيا ، وفى الحالة الثانية تنتحر انتحارا أخلاقيا .

مازال بمقدورى أن أشعر بالشفقة عليه .

ـ يمكنك أن تشعر بالشفقة عليه ، ولكن هل ينبغى عليك أن تشعر بذلك؟

وانزلق ذهنى الى التفكير فى آليسون .. وشعرت بالشفقة عليها مثلما شعرت بالشفقة على ذلك الوجه الألمانى المجهول ، وربما شعرت باعجاب ، ذلك الإعجاب الذى يشبه الحقد على أولئك الذين ساروا لمسافات أبعد على نفس دربى .. فكلاهما شعر باليأس المرير بحيث لم تعد لديه الرغبة فى مشاهدة المزيد ، فى حين كان انتحارى هو الانتحار الاخلاقى .

وقلت : نعم .. انه لم يكن فى وسعه الا أن يفعل ذلك .

ـ اذن فأنت مريض ، لأنك تعيش من خلال الاعتماد على الموت .. وليس على الحياة .

ـ تلك مسألة فيها نظر .. فرأيى فيها يخالف رأيك .

ـ انها مسألة عقيدة لأن الحدث الذى قصصته يعبر عن أحوال أوربا بالفعل .. شخص برتبة كولونيل يسمى فميل . وتمرد مجهول الاسم . وشخص يسمى آنطون يتمزق بينهما ويقتل نفسه عندما يشعر أن الزمام افلت ، مثل .

ـ ربما لا يكون لدى الاختيار .

شعرت بحيويته المتدفقة وبوحشيته وبقسوته وبنفاد صبره ازاء غبائى واكتئابى الأسود وأنانيتى .. لم تكن كراهيته منصبة على فقط وانما منصبة على كافة الأمور التى أعتقد أننى أدافع عنها : أمور تتسم بالسلبية .. كان شبيها برجل يرغب فى تغيير كافة الأمور ولكنه لم يستطع ، فشعر بالغضب الشديد بسبب عجزه وضعفه ولم يكن أمامه سواى - ميكروسوم لكى يقوم بهدايتى الى مذهب جديد أو صب غضبه الشديد علىَّ .

- اذن فأنت تعتقد أننى أنطون آخر ؟

أنت شخص لا يفهم المعنى الحقيقى للحرية .. والاهم من ذلك كله أنك كلما فهمت الحرية على نحو أفضل كلما أصبحت أقل امتلاكا لها .

حاولت أن أستوعب هذه العبارة المتناقضة وأن أفهمها ، وتساءلت : هل أظهرت لك الكثير من الجوانب بحيث أصبحت لا أدخل السرور عليك ؟

رد : أصبحت لا تمثل أهمية بالنسبة لى ، والآن أقترح أن نذهب للنوم .. فتكلمت فى حدة : لا يمكن لك أن تعامل الناس على هذا النحو .. كما لو كنا جميعا مجرد قرويين يطلق الرصاص عليهم حتى يمكنك أن تبرهن على صحة نظرية مجردة غير تطبيقية عن الحرية .

فنهض واقفا ، وحملق لأسفل نحوى ، وقال : طالما أنك تفضل وجهة نظرك الحالية عن الحرية ، فانك أنت الذى أمسكت بمدفع المنفذ لحكم الاعدام .. فانزلق تفكيرى على آليسون مرة أخرى .. فأخمدت تفكيرى .

سألته : ما الذى يجعلك متأكدا أنك تعرف ذاتى الحقيقية ؟

- أنا لا أدعى ذلك .. فرأيى يقوم على ادراكى بأنك غير قادر على معرفة ذاتك بنفسك .

- اذن ما الذى تريدنى أن أفعله الآن ؟

هل تريدنى أن أضع حاجياتى فى حقيبتى وأعود الى المدرسة ؟

يبدو أن تساؤلى هذا جعله يتراجع قليلاً ، وعلى غير متوقع تردد قبل أن يجيب وان كان قد حدث تغيير على ملامح وجهه يوحى بأنه يحاول أن يخفى شيئا ، كما ترغب ، كان من المقرر أن يقام احتفال ختامى صغير صباح الغد .. لكنه احتفال لا أهمية له .

- حسنا .. يهمنى الا يفوتنى ذلك .

وراح يتأمل ابتسامتى الخالية من روح الفكاهة والتى انصبت عليه ، ثم

أومأ برأسه ايماءة خفيفة وقال : « تصبح على خير » فأدرت ظهرى ، وبدأ صوت وقع اقدامه يتلاشى تدريجيا ولكنه توقف عند باب غرفة الموسيقى وقال « اننى أكرر ، لن يجيء أحد » .

واستمر فى السير فى داخل المنزل .. صدقته فيما يتعلق بعدم حضور أحد ولكنى كنت قد بدأت أبتسم لنفسى فى الظلام .. اذ أدركت أن تهديدى بالذهاب أرغمه على أن يلقى أمامى بحافز سريع .. أو يهيىء لى سببا يدعونى للبقاء .. ومن المؤكد أن كل ذلك كان بمثابة اختبار ينبغى علىَّ اجتيازه قبل أن أدخل الدائرة الداخلية .. أحسست احساسا صادقا أن الفتاتين فى اليخت ، واذا جاز القول فاننى قد وقفت أمام فرقة عسكرية لتنفيذ حكم الاعدام ولكن فى هذه المرة كان الأمر يستلزم وجود ارجاء لتنفيذ حكم الاعدام فى آخر دقيقة ، وكلما حرمنى من جولى ، كلما سار فى نفس درب فميل وعلى الأقل كنت أدرك أن كونشيس مخلوق آدمى مختلف للغاية .

أشعلت سجارة ، كان هناك هدوء ملىء بالسخونة الهائلة وجو خانق يقبض الصدور ، روحت أمشى الهوينى فوق المدق هابطا الى الشاطىء ، لم أتوقع مثل هذا المشهد الختامى : كان قد خمن أن الحرية بالنسبة لى تعنى حرية اشباع الرغبات الشخصية ، وفى مواجهة ذلك فان الحرية مسئولة بالتأكيد عن أعمالها ، انها شىء أكثر قدما من الحرية الوجودية أو هى على ما أظن أمر أخلاقى لا يتخذ الطابع السياسى أو الديموقراطى ، ورجعت بتفكيرى الى سنوات حياتى القليلة والى الكفاح المرير نحو الفردية التى كانت تتملك مشاعر كل أفراد جيلى عقب سنوات الحرب وانسحابنا من المجتمع الى داخل الذات ، وأدركت أننى لا أستطيع أن أرد بالفعل على اتهامه وعلى التساؤل الذى طرحته قصته ، وأننى لا يمكن أن أفلت بأن أدعى أننى كنت ضحية تاريخية وكنت عاجزا عن أن أكون أى شىء آخر بخلاف أن أكون أنانيا ـ أو أنه لا ينبغى أن أكون قادرا على الافلات من الآن فصاعدا .

راح ذهنى يتجول فى حالات الصمت الرمادية لليل وينصب منزلقا على أليسون وليس على جولى .. ومع الحملقة للخارج فى اتجاه البحر تمكنت من ارغام نفسى على التوقف عن التفكير فيها كانسانة مازالت على قيد الحياة تتنفس وتعمل وتتحرك وان كان ذلك فى داخل الذاكرة فقط وبحيث

ينصب تفكيرى عليها من حيث هى كميات من الرماد المبعثر بالفعل ومن حيث هى رابطة مقطوعة ونهاية ميتة بيولوجية وانسحاب أبدى من الواقع الملموس .

لم أقم بالصلاة من أجلها ، لأن الصلاة لن تعيدها الى الحياة ، ولم انخرط فى البكاء من أجلها أو من أجل نفسى لأن المنبسطين هم فقط الذين يبكون مرتين ، جلست فى صمت تلك الليلة وفى ذلك العداء اللانهائى للانسان وللديمومة والبقاء للأبد وللحب وغرقت فى التفكير فيها وتذكُّرها .

« ٥٥ »

فى الساعة العاشرة استيقظت وتأرجحت خارجا من السرير بعد أن أدركت أننى نمت فترة أطول من المعتاد ، حلقت ذقنى على وجه السرعة .. وفى مكان ما أسفلى سمعت صوت طرق بمطرقة وصوت رجل بالاضافة الى صوت شبيه بصوت ماريا .. ولكن الرواق ذا الأعمدة كان مهجورا وخاليا من الناس عندما نزلت الى الدور الأول ، وعند الحائط شاهدت أربعة صناديق شحن خشبية .. كان من الواضح أن ثلاثة من هذه الصناديق بها لوحات ملونة فى داخلها ، ونظرت الى الوراء نحو غرفة الموسيقى والى داخلها ، لقد اختفت لوحة موديليانى وكذلك لوحة روان الصغيرة ولوحة جياكوميتى وخمنت أن الصندوقين الآخرين يضمان لوحات بونار الذى كان بالدور العلوى .. وسرعان ما تلاشى التفاؤل الذى اجتاحنى فى الليلة السابقة أمام هذا الدليل الواضح على أن « المسرح » يتم تفكيكه .. وهبط علىَّ حدس بأن كونيش كان يعنى الكلام الذى قاله على وجه الدقة .

وظهرت ماريا حاملة القهوة من أجلى .. فأشرت لها بيدى نحو الصناديق ، وقلت : ماذا يحدث ؟

فقالت : نحن ذاهبون .

انه بصدد المجىء فتركتها وشأنها ، وابتعلت فنجانا من القهوة .. كانت هناك رياح مشرقة ، كان يوما مليئا بالحيوية والحياة المفعمة بالألوان ، فسرت نحو حافة منطقة الحصباء .. كانت الحياة تدب فى اليخت وتمكنت من مشاهدة العديد من الناس فوق ظهر اليخت .. لم يكن بينهم نساء .. ألقيت نظرة نحو المنزل ، فشاهدت كونشيس واقفا تحت رواق الأعمدة كما لو كان فى انتظار عودتى .

انه يرتدى ملابس غريبة الشكل ، متنافرة وذات ألوان زاهية .. وكان شبيها برجل أعمال مثقف بعض الشيء .. شنطة أوراق سواء من الجلد ، وحلة صيفية زرقاء ، وقميص أصفر باهت ورباط عنق (بابيون) كان منظره يتلاءم مع أثينا ولكنه مثير للسخرية في جزيرة فراكسوس ... ولم يكن هناك داع لأن يرتدى تلك الثياب فى فراكسوس مادام سيقضى ست ساعات على الأقل في اليخت ، ثم يغير ملابسه بعد ذلك مرة أخرى ، اللهم الا اذا كان يريد أن يثبت لى أن عالمه الآخر استدعاه بالفعل .. ولم يبتسم فى وجهى لدى اقترابى منه ، قال : اننى بصدد مغادرة هذا المكان بعد فترة قصيرة للغاية .. فى نفس هذا الوقت غداً سأكون فى باريس .

وأحدثت الدياح صوتا كالطقطقة فى الأوراق السرخسية لأشجار النخيل .. كان الأمر يستلزم تأدية الفصل الأخير بايقاع سريع ، علقت : اسدال سريع للستارة ؟

ـ لا توجد ستارة فى المسرحية الحقيقية ، فهى تمثل وبعدئذٍ تستمر فى التمثيل .

وحملق كل منا فى وجه الآخر فى عمق :

وماذا عن الفتاتين ؟

ـ ستجيئان معى الى باريس .. أنت دائما تتصرف فى سذاجة شديدة .

ـ على أى نحو ؟

ـ من حيث افتراضك أن الأغنياء يتخلون عن دمياتهم .

وابتسم فى غير مزاح وقال « جولى وجين ليستا من دمياتك » أتظن أن الذكاء والذوق السليم والجمال والفتنة لايمكن شراؤها ؟ انك مخطىء تماما .

ـ اذن فأنت لديك فتاتان غير مخلصتين للغاية .

واستمررت فى اثارة روح الفكاهة عنده فقال : عندما تصبح أكبر سنا سوف تدرك أن الخيانة الزوجية امر لا أهمية له .. اننى أدفع التكاليف الخاصة بمظهرهما ووجودهما ومحادثتهما وليس تكاليف جسديهما ، وفى مثل سنى فان المطلب هنالك يتم تلبيته بسهولة .

هل تتوقع لى أن .... تقاطعنى قائلا : أعرف ما تفكر فيه .

لقد أمرت بعزلهما فى مقصورة .. ونحن لم نتقابل فى عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة لسبب بسيط للغاية .. لكى أتيح الفرصة لليلى لكى تقرر

ما اذا كانت تفضل الحياة مع شخص مفلس ماليا ومدرس غير موهوب وهذا هو ما أشك فيه .. أو تفضل المعيشة فى عالم ملىء بالثراء والإثارة والتسلية .

فطوى ذراعيه وقال : اقراراً للحق أقول إنها ترددت ، وربما يحمل كلامى هذا شيئا من المواساة لاعتدادك بنفسك .. ولكنها فى نهاية الأمر أدركت أن الحياة الطويلة المملة والمستقبل الذى يمكن التكهن بكافة جوانبه سيكون ثمناً باهظا للغاية تدفعه فى مقابل اشباع نزوة جنسية عابرة .

فالتزمت الصمت لحظات قليلة ، ثم وضعت فنجان القهوة وقلت « ليلى » وما قلته : روز ؟ »

لقد أخبرتك فى الليلة الماضية . فحملقت فى وجهه ثم أخرجت حافظة نقودى .. وعثرت على الخطاب المرسل من بنك باركليز .. ودفعت به نحوه .. فأمسك بالخطاب وألقى عليه نظرة سطحية عابرة قائلا : إنه مزيف .. آسف .

فجذبت الخطاب من يديه فى عنف وقلت : يا سيد كونشيس ، أريد مشاهدة هاتين الفتاتين وأنا أعرف الطريقة التى لجأت اليها لكى تحضرهما الى هنا فى بادىء الأمر .. وربما سيهتم البوليس بمعرفة تلك القصة .

سيهتم البوليس بذلك فى أثينا ، طالما أن الفتاتين هناك حاليا .. ولسوف تسخران من اتهاماتك على الفور .

ـ أنا لا أصدقك ، انهما فى اليخت ـ يمكن لك أن تجىء معى الى اليخت الآن ، وتفتش فى كل مكان ، وتستجوب البحارة ، ولسوف نعيدك الى الشاطىء قبل أن نبحر .

ـ وهو كذلك .. ولكنى سأضع المسألة برمتها فى أيدى السفارة البريطانية بمجرد أن أصل الى القرية .

لا أظن أن السفارة سوف تهتم بذلك وخاصة اذا اكتشفوا أن الاستنجاد بمساعدتهم يجىء من مجرد عاشق يشعر بالاحباط « والآن ، فان اثنتين من الممثلات التابعات لى ترغبان فى توديعك » .

ونادى : كاترين !

وتم نطق تلك الكلمة بالطريقة الفرنسية ، ثم استدار نحوى .. « ماريا ـ بالطبع ـ ليست فلاحة يونانية بسيطة » .

ـ مثل هذه المشاهد تنتمى للدراما القديمة وليس الدراما الجديدة .
ـ ذلك ليس له علاقة بطبيعة شخصية چولى .
ربما ستتقابل معها فى يوم ما مرة أخرى ، وقد تطلق العنان لغرائزك الماسوشية عندئذ .
وظهرت ماريا فوفرت علينا كافة المجادلات الأخرى .. كانت امرأة متقدمة فى السن ولها وجه ملىء بالتجاعيد ولكنها ترتدى بدلة سوداء متوائمة معها تماما مع وجود بروش .. وكان بوجهها مسحة خفيفة من المساحيق وأحمر الشفاه .. منظر لسيدة من الطبقة المتوسطة تبلغ ٦١ عاما من النوع الذى يمكن أن يشاهدها المرء فى أى شارع من الشوارع الحديثة بأثينا .. تقف وقد ظهرت عليها ابتسامة خفيفة ـ المفاجأة والدخول المتميز بالتغير السريع .. وراح كونشيس يرقبنى فى سخرية ..
هذه هى السيدة كاترين أتانا سوليس .. والتى تخصصت فى أدوار الفلاحات ، ولقد سبق لها أن ساعدتنى مرات عديدة من قبل .

ومد يده فى أدب نحوها مشيرا لها لكى تقترب ، فتقدمت وقد فتحت راحة يدها فى شىء من التأسف بسبب خداعها لى خداعا كاملاً ، فنظرت اليها نظرة باردة ، ثم أحنت رأسها انحناءة زائفة بعض الشىء وقال كونشيس : الأمتعة .

فرمقتنى بعينها وقالت : كل شىء جاهز .. ثم أضافت : حسنا ، مع السلامة ..
ثم انسحبت فى هدوء ورباطة جأش مثلما جاءت ، وكنت قد بدأت أشعر بشىء يشبه اليأس ، كنت أدرك أن كونشيس كان يكذب ولكنه كان يكذب الى مثل هذا الحد وبمثل هذه التفصيلات الدقيقة للغاية ، ولم يخف التوتر فى داخلى لأنه نظر عبر منطقة الحصباء وقال : « عظيم .. ها هو جو » ..
انه الزنجى .. كان يسير الهوينى قادما على المدق الخاص بالشاطىء وكان مرتديا حلة بنية داكنة ورفع يده لدى ادراكه أننا فى انتظاره وجاء عبر منطقة الحصباء وابتسم فى وجه كونشيس مع الإتيان بحركة مراوغة بفمه فى اتجاهى .
هذا هو جو هاريسون .
وقال جو : مرحبا .
فلم أرد بأى كلام .. وألقى نظرة جانبية خفيفة نحو كونشيس ثم مد يده

وقال : آسف يا صديقى .. لقد قمت فقط بتنفيذ تعليمات سيدى .
كان أمريكيا وليس من جزر الهند الغربية ، تجاهلت يده الممدودة ، وهو يقول لى : بالطبع نحن الزنوج جميعا أولاد العم الأوائل للقرود ، وأنتم تسموننا الخصى والطواشى ، ونحن لا نفهم ذلك ...
- إننى لم أقصد ذلك ..
تبادلنا نظرات حذرة ، ثم نظر كونشيس وقال : انهم قادمون لأخذ المواد .
فقال كونشيس : لدى بعض الأشياء الأخيرة بالدور العلوى .
وتركنى واقفا مع جو ، وظهرت المزيد من الهياكل على المدق ، أربعة من البحارة يشبهون اليونانيين ولكن أحدهم كان له شعر أشقر فاتح ويبدو عليه أنه اسكندنافى ، ولم تكن الفتاتان قد تحدثتا معى عن البحارة الا فيما ندر من الحقد والغيرة ، بدأت أشعر أننى منبوذ ومجرد عبء .. رمقت جو بعينى وكان جو مستندا فى تكاسل على احد الأعمدة بالبواكى ، وكان يبدو كأنه مجازفة بسيطة ولكنه المجازفة الوحيدة أمامى .. سألت : أين الفتاتان ؟
فرمقتنى نظارته السوداء فى تفحّص بطىء وقال : فى أثينا .
وما معنى كل ذلك ؟
فهز كتفه هزة خفيفة قائلا : تلك كانت الطريقة التى قيلت بها .
فقلت : أنت تتكلم من واقع الخبرة ؟
فتمتم فى خفة : يمكن أن يكون الأمر كذلك .
ومر البحارة الى جوارنا وذهبوا الى الصناديق ، ثم ظهر هيرميز حاملا معه المزيد من الحقائب ومتجها نحو الشاطىء ، وسارت وراءه ماريا مرتدية أفخر ثيابها ، ووثب جو مبتعدا عن العمود ممسكا بيده علبة سجاير أمريكية يمدها نحوى .. فترددت بعض الشىء ، ثم أخذت سيجارة وانحنيت لكى أشعلها من عود الثقاب الذى أشعله ، وبعدئذ تكلم فى صوت منخفض فقال : لقد عبرت عن أسفها ..
تساءلت : وهل كانت تعنى ما تقوله ؟
فانزلقت عيناه نحو الأبواب وكأنه لم يكن يرغب فى أن يتم ضبطه متلبسا بالتحدث معى فى سرية ، ثم قال : موقفك ضعيف فى مواجهته .. ولا توجد أمامك فرصة سانحة .. هل تفهمنى ؟
وعلى نحو ما أقنعنى كلامه هذا أكثر من أى كلام آخر قاله العجوز

بنفسه .. وفكرت فى أن أرد عليها برسالة مريرة ينقلها لها جو ولم يكن هناك متسع من الوقت ، اذ وقف كونشيس فى المدخل ومعه حقيبة صغيرة .. وتحدث مع أحد البحارة باللغة اليونانية .. فلمس جو ذراعى فى تعاطف سرى ، ثم تحرك للأمام لكى يأخذ الحقيبة من يد كونشيس .. ولدى رجوعه ومروره بجوارى عوج فمه فى ازدراء وقال : أتعرف العبء الذى يلقيه الرجل الأبيض على كاهلنا ؟ انهم يصنعون العبء ونحن نحمله .

رفع يده فى تحية وداع ، ثم انطلق وراء هيرميز وماريا ، وانطلق البحارة ومعهم الصناديق ، وبذلك تم تركى مرة أخرى مع كونشيس .

ومد لى يديه فى غير ابتسام وفى شىء من التوتر : من الأفضل لى أن أصدقه الآن .

فقلت : أنت لم تستمع الى كل ما أريد أن أقوله .

- لا ينبغى أن أكون عبيطا ، فالنقود لها مفعول السحر فى هذه البلاد .

- والسادية ، على ما يبدو ..

فراح يتفحصنى للمرة الأخيرة ، ثم قال : لسوف يعود هيرميز ليغلق الأبواب بالأقفال بعد دقيقة ، كانت أمامك الفرصة ، أقترح عليك أن تفكر فى تلك الأمور الموجودة بداخلك والتى فوتت عليك انتهاز الفرصة .

واكتفى بتثبيت عينيه علىّ ، كما لو كان بمقدوره أن ينومنى تنويما مغناطيسيا لكى أتراجع وأعترف بأخطائى .. فقلت : اننى أعنى ذلك . ومرت لحظات قصيرة ، ثم هز رأسه فى بطء ، ثم قال : أنت لا تعرف المعنى الذى تقصده أو المعنى الذى أقصده أنا .

ومن المؤكد أنه أدرك أننى لست على استعداد لمصافحة يده ، تحرك ماراً بجوارى ، ثم التفت الى وقال : نسيت أن أقول لك إن النزعة السادية لدى لا تمتد الى معدتك ، اذ سيقوم هيرميز بتقديم وجبة غذاء معدة لحملها فى علبة من أجلك .. وهذه الوجبة جاهزة الآن .

وما إن مشى مسافة صغيرة حتى فكرت فى إلقاء ملاحظة لاذعة عند انصرافه فصحت بصوت مرتفع لكى يسمعنى .

« شطائر بها حامض الهيدروسيانيد ؟ »

تجاهل كلامى ، فشعرت بالرغبة فى أن أجرى وراءه وأمسكه من ذراعه وأوقفه بالقوة ولكننى أدركت أننى عاجز ، وظهر هيرميز على المدق عائدا من الشاطىء الى ما وراء كونشيس .. ثم سمعت صوت موتور الزورق الصغير وهو يقوم بالنقلة الأولى الى اليخت .. توقف الرجلان وتبادلا بضعة

كلـات ، ثم تصافحا بالأيدى ، ثم جاء الحمار مواصلا سيره نحوى .. وتابع كونشيس سيره هابطا على المدق الى أن توارى عن الأنظار ، ووقف هيرميز عند أسفل السلالم ونظر الىَّ فى تجهم ، ثم رفع كتلة من المفاتيح ، سألته باللغة اليونانية : هل الفتاتان فى اليخت ؟

فلوى فمه بحيث أصبح شبيها بفم ضفدعة : انه لم يكن يعرف .

أشحت بوجهى بعيدا فى استياء وصعد هيرميز ورائى الى الدور العلوى ، ثم تركنى عند باب غرفتى وانطلق ليغلق النوافذ فى جميع الأماكن .. لم أشاهده وهو يفعل ذلك ، فما إن دخلت الى غرفتى حتى أدركت أن هدية وداع قد تركت لى ، كانت ملقاة فوق الوسادة : مظروف محشو بالأوراق المالية اليونانية . فرحت أعد وأحصى النقود ، ٢ مليون درخمة .. انه يزيد على ٢٠٠ جنيه ويعادل مايزيد على ثلث مرتبى السنوى .. فعرفت السبب الذى دعا العجوز الى التسلل الى الدور العلوى قبل مغادرته المنزل وتصاعد الغضب فى داخلى لأن ذلك يعنى أننى أيضا يمكن شرائى بالأموال انه بمثابة الاذلال لى .. وفى نفس الوقت فان المبلغ كبير للغاية وفكرت فى أن أجرى الى رصيف الميناء وألقى بالمبلغ فى وجهه ، كان من المقرر أن يفرغ الزورق الصغير حمولته ، ثم يعود ولكنها أفكار تراودنى فقط ، وعندما سمعت وقع أقدام هيرميز سارعت بحشر النقود داخل حقيبتى المصنوعة من القماش .. ونظر من فتحة الباب الىَّ ، بينما كنت أقوم بوضع باقى حاجياتى القليلة فى حقيبتى ، ثم تبعنى مرة أخرى وأنا أهبط السلم ، كأن عليه أن يراقب كل حركاتى .

ألقيت نظرة أخيرة على غرفة الموسيقى وعلى المسمار وعلى العلامة الموجودة على الحائط ، حيث كانت لوحة لموديليانى معلقة .. وبعد لحظات قليلة وقفت بمفردى تحت بهو الأعمدة بينما هيرميز يغلق باب غرفة الموسيقى من الداخل .. وسمعت صوت الزورق البخارى يعود من اليخت الى الشاطىء ، وكنت مازلت واقعا تحت اغراء والقاء النقود فى وجهه .. ولكن كان علىَّ أن أفعل شيئا ما إيجابيا وليس رمزيا .. حيث باستطاعتى التحدث مع جاويش الشرطة بالقرية لكى يسمح لى باستخدام جهاز اللاسلكى الخاص بحرس السواحل .. ولم أكترث بما اذا كان ذلك التصرف سيجعل منى أضحوكة بين الناس .. كنت متشبثا بأمل واحد أخير ، إن كونشيس قص على الفتاتين قصة جديدة مما جعل غيابهما عن الجزيرة أمرا مقنعا . وفكرت فى انهما قد حصلتا على شىء ما متكافىء مع ما قاله

لى عنهما ولعله أقنعهما بأننى أكذب على جولى ، ولذلك فكرت فى أن علىَّ مقابلتهما ربما لاكتشف أنهما على النحو الذى ادعاه ولكنى لم أكن على استعداد لأن أصدق ذلك قبل أن أسمعه منهما شخصيا ، وتشبثت بذكرياتى مع جولى فى الماء .. جولى التى كانت بالتأكيد غاية فى الاخلاص على مدى لحظات لا حصر لها وتشبثت بطابعها الانجليزى وبكل تلك الخلفية المشتركة بيننا من حيث الانتماء للطبقة المتوسطة وللطابع الجامعى ، ولكى يبيع المرء نفسه ولو لشخص مثل كونشيس فان الأمر يستلزم فقدان روح الفكاهة والنقد الموضوعى فضلا عن ضحالة لا تفقد شيئا اذا استبدلت الذوق بالترف والعقل بالجسد .. ولم تكن هناك فائدة ترجى من وراء ذلك ، ومهما حاولت أن أبث قدرا كبيرا من الشكوك الانجليزية ازاء حالات الفساد الأوربية المنحطة ثقافيا والمنحلة خلقيا فاننى لا أزال حائراً ازاء السر الغامض الذى جعل مثل هاتين الفاتنتين ترفضان المعجبين بهما مع حجب نفسيهما بحيث لا يراهما الا كونشيس ، اذن فقد وضع قبضته الثقافية على جولى بثروته الهائلة وهناك احتمال بأن الفتاتين اعتادتا على حياة الترف على نحو يفوق ادعاءاتهما .. ولهذا كله عدلت عن فكرة الاتصال باللاسلكى .

واتخذت قراراً : اننى كلما أسرعت بتحريك الأمور كان ذلك أفضل .. سرت نحو البوابة وقفزت من حافة بهو الأعمدة الى منطقة الحصباء ، فنادى هيرميز فى حدة : الطعام !

فلوحت بيدى له دون أن أتوقف عن السير : فليذهب الطعام الى الجحيم .. فواصلت سيرى دون أن أعيره أدنى اهتمام ، ثم شاهدته وهو يجذب شيئا ما من الظلال السائدة فى داخل المدخل وسمعت صوت أقدامه السريعة مندفعا ورائى ، استدرت لكى ألوح له بيدى فى غضب مرة أخرى للذهاب بعيدا عنى .. ولكنى توقفت وقد تجمدت يدى ..

كان ممسكا بسلة مصنوعة من سيقان النباتات .. انها سلة سبق لى أن شاهدتها من قبل بجوار جولى أثناء يوم الأحد الذى أمضيناه معا ، وانتقلت ببصرى فى بطء من السلة الى عينى هيرميز ، وحثنى على أن آخذ السلة ، ثم قال باللغة اليونانية إنه ينبغى علىَّ أن آخذها .. ولأول مرة منذ أن عرفت ذلك شاهدت ابتسامة خفيفة على وجهه .

وترددت ، ثم وضعت حقيبتى على الأرض وأخذتها وفتحتها : تفاحتان وبرتقالتان ولفافتان مغلفتان بورق أبيض ومربوطتان فى أناقة ..

حركت احد لفافتى الساندويتش لكى أشاهد البطاقة الخاصة بها : كروج ، فنظرت لأعلى وقد ظهرت على وجهى ملامح الدهشة .

سألته : هل تنتظر ؟

أومأ برأسه وراءه نحو الصخور التى تقع الى الشرق من الشاطىء الخصوصى ، بنظرة فى ذلك الاتجاه متوقعا أن أشاهد هيكلا .. سمعت صوت الزورق البخارى عائداً من اليخت ، وفى هذه المرة أشار هيرميز بيده ، قائلا : أنت لا تعرف حتى الآن المعنى الذى أريد أن أقوله لك ، ولكى أحافظ على وقارى .. سرت فى مجرى الأخدود الطبيعى ولكننى لم استطع التراجع ، كان تمثال بوسايدون يقف تحت ضوء الشمس ، يبدو هذه المرة اقل جلالاً .. كانت هناك لافتة ترفرف مع النسيم مثل جلباب معلق على حبل . وكانت معلقة من ذراع التمثال .. تشير نحو المنحدر الصخرى الشاهق .. فهرولت هابطا الى أشجار الصنوبر .

« ٥٦ »

تمكنت من تحديد مكانها من خلال الأشجار الرفيعة ، كانت تقف عند حافة المنحدر الصخرى الشاهق .. تنظر فى اتجاهى ، فلوحت لها بيدى فردت علىَّ بالتلويح لى ـ ولدهشتى الشديدة فإنها بدلا من المجىء فى اتجاهى استدارت وغابت عن الأنظار أسفل المنحدر ، فشعرت بالارتياح الشديد حتى أننى لم أشعر بالقلق بسبب اختفائها ـ فلربما كانت تريد أن تعطى اشارة لليخت للافاءة بأن كل شىء على ما يرام .. فشرعت فى الجرى ، ولم تمر أكثر من ٢٥ ثانية ما بين رؤيتى لها وبين وصولى الى المكان الذى وقفت فيه .. توقفت عن الجرى وأنا لا أصدق ما اشاهده .. فالأرض كانت متجة لأسفل فى انحدار شديد قبل أن تصل الى حافة الصخرة المنحدرة ذاتها .. لم يكن هناك مكان يمكنها أن تختبىء فيه .. ومع ذلك كانت قد اختفت تماما .. كانت ملابسها من النوع اللافت للنظر للغاية ... فوضعت السلة وحقيبتى على الأرض وسرت على طول قمة المنحدر فى نفس الاتجاه الذى سلكته ، ثم نزلت على نفس حافة المنحدر الصخرى ولكنه كان منحدراً صعبا للغاية بحيث لا يمكن أن ينزل عليه الا شخص من المتخصصين فى تسلق الجبال ومع استخدامه للحبال .

كان أمرا يتناقض مع الأسباب المادية .. لقد اختفت فى طيات الهواء الرقيق ، وحملقت لأسفل نحو اليخت .. شاهدت البحارة يرفعون الزورق

البخارى لوضعه على ظهر اليخت .. وشاهدت عشرة رجال فوق ظهر اليخت ما بين بحارة ومسافرين ، وكان الجسد الرئيسي لليخت في حالة حركة وهو يتقدم بحذاء المكان الذى أقف فيه كما لو كان الأمر يستلزم السخرية منى علناً .

فجأة سمعت سعالا .. فاهتززت مستديرا حولى - نحو منظر غير عادى .. وعلى مسافة ١٥ ياردة ورائى .. رأس جولى وكتفاها من الأرض .. كان مرفقاها مرتكزين على الأرض وخلف رأسها كانت هناك دائرة مشرشرة مثل هالة ما سوداء مشوهة .

فتسلقت مقتربا منها ، كانت بشرتها قد اكتسبت المزيد من اللون البنى بحيث أصبحت قريبة من لون بشرة أختها .. أدركت أن الدائرة الموجودة خلفها كانت عبارة عن غطاء حديدى .. وكانت الأحجار مثبتة بالأسمنت حول حافتها العلوية من جميع الجهات .. وكانت جولى نفسها موجودة فى أنبوبة حديدية عمودية غائرة فى الأرض .. وكان هناك سلكان متدليان لأسفل من الغطاء كنوع من الجهاز المعادل .. وعضت شفتيها .. وقوست اصبعها مشيرة لى بالمجىء اليها قائلة : الا تريد الدخول الى غرفة الجلوس ؟

ولكن فجأة تغير صوتها وتغيرت التعبيرات على وجهها : أوه أيها المسكين - ماذا حدث ليدك !

- ألم يقم بابلاغك ؟ لا تقلقى ، ذلك جزء من التاريخ المنصرم .

- المنظر يبدو شنيعا .

وقفنا سويا للحظات ، ثم أمسكت بيدى ذات الندبة الغائرة وراحت تفحصها ، ثم نظرت فى عينى نظرة مليئة بالحرص على راحة ضيفها ، فابتسمت لها وقالت : ذلك أمر بسيط ، انتظر لحين أن أقص عليك المتاعب التى أوقعنى فيها على مدى الساعات الأخيرة .

- اعتقدت أنه سيفعل ذلك .

وأومأت براسى نحو الحفرة الموجودة فى الأرض وتساءلت : ما هذا بحق الجحيم ؟

الألمان .. فى الحرب .

أوه .. يا الهى .. كان ينبغى أن أخمن ذلك .

من المؤكد أن كونشيس قد قام باخفاء المدخل وسد الفتحات الأمامية .. كانت الحفرة غارقة فى الظلام .. وتمكنت من مشاهدة سلم وأثقال ضخمة متعادلة عند نهاية الأسلاك ، كما شاهدت مساحة قاتمة من

الأرض الخرسانية فى القاع .. ومدت جولى يدها ولمست الغطاء فهبط فى سلاسة لأسفل الى مستوى الأرض حيث تلاءمت الأحجار الناتئة الموجودة فوق الجانب الأعلى مع الأحجار المحيطة بها مثل أجزاء لعبة الصور المقطعة ، كان من المستحيل على المرء أن يشاهدها .

قلت : لا أستطيع أن أصدق أن هذا يحدث منذ نصف ساعة فقط .. قال لى إنك فتاته وإننى لن اراك أبدا .

ـ فتاته .

وجين أيضا .

وجاء الدور عليها فى هذه المرة لكى تصاب بالصدمة ، وحملقت فى وجهى كأننى أحاول أن أختبرها ، ثم أظهرت احتجاجها على ذلك الكلام ..

وقالت : ومن المؤكد أنك لم تصدق كلامه .. ولو صدقته لامتنعت عن الكلام معك للأبد .

ضممتها بين ذراعى وتقابلت شفاهنا .. بدا ردها مختصرا ومقنعا ، جذبت رأسها فى رفق بعيداً عنى .. ثم قالت : إعتقد أن هناك من يرقبنا .. فنظرت فى اتجاه اليخت وتركت جسدها ولكننى لم اترك يديها ..

وظلت تنظر الىَّ للحظات ثم أحنت رأسها وقالت : هل تعتقد أننا يمكننا أن نتحمل بعضنا البعض مثل الناس العاديين ، دون كل هذه الإثارة ؟

هذا الكلام سخيف للغاية لدرجة أننى لن أجيب عليه .

فابتسمت وهى تنظر لأعلى : اذن ، فالأمر يبدو كأنك ملتصق بى تماما ، وصدر صوت سرينة اليخت ، فالتفتنا وقد تماسكت أيدينا ، وكان اليخت قد أصبح فى مواجهتنا على مسافة ٣٠٠ ياردة تقريبا من خط الشاطىء ، فرفعت جولى يدها ولوحت بها .. وبعد لحظات لوحت بيدى أيضا ، وتمكنت من رؤية كونشيس وجو بينما الهيكل الأسود وماريا بينهما ، ولوحوا بأيديهم ونادى كونشيس فى اتجاه رجل موجود ، وكان هناك خيط من الدخان المتصاعد الى عنان السماء .. وصدر صوت فرقعة مع انطلاق شىء أسود صغير الى أعلى بالسماء .. وتصاعد ذلك الشىء ، ثم ابطأ من سرعته وانفجر .. وتلألأ وابل من النجوم المتوهجة بالضوء للحظات قليلة مع صدور أصوات فرقعة عبر الألوان اللازوردية ، ثم تكرر المنظر ، ألعاب نارية من أجل انتهاء المسرح .. وصدر أنين مطول من السرينة وتزايد التلويح بالأذرع .. وضعت جولى يديها على فمها وطبعت قبلة على يديها وألقت بها نحو اليخت ، ثم لوحت مرة أخرى وبعدئذ بدأ جسم اليخت الطويل الأبيض

اللون يتجه بعيداً عن الشاطىء .. سألت : هل قال إننى امراته المصونة ؟ فكررت لها نفس الكلمات التى قالها على وجه الدقة ..

فحملقت وراء اليخت : يا لها من وقاحة !!

- أدركت أنه يبالغ فى كلامه ويتظاهر بذلك .

- سأواجهه بهذا الكلام وسأتحدث معه فى عنف عندما أشاهده فى المرة القادمة ، إن جين سيجن جنونها اذا عرفت ذلك ، على فكرة ، انا اشعر بالجوع الشديد !

- أريد أن أشاهد المكان الذى تعيشين فيه .

- فيما بعد .. هيا ناكل اولاً ، وعدنا الى المكان الذى تركت فيه السلة ، ثم جلسنا تحت شجرة صنوبر .. وقمنا بفك اللفائف وفتحت الشمبانيا ، وشربنا نخب بعضنا البعض .. ثم 'تبادلنا' القبلات وشرعنا فى تناول الطعام ، وأرادت أن تعرف منى كل الأمور التى حدثت بالأمس فقصصت عليها ما حدث ، ثم حكيت لها عن المناورات الليلية والخطاب الذى كان علىَّ أن أرسله لها فى الأسبوع قبل السابق ، بالاضافة الى أننى لم أكن مريضا ..

سألتها عما كانت تفعلانه فى كريت أثناء الجولة البحرية ، فلوت عضلات وجهها فى عدم ارتياح ، وقالت : مجرد الاستلقاء تحت الشمس والشعور بالملل والسأم .

أمسكت بحقيبتى وجعلتها تشاهد مظروف النقود وقلت : انظرى الى هذا .. وذكرت لها حجم النقود وعددها وأخبرتها اننى ارغب فى التخلص من النقود ، لكنها رفضت وجهة نظرى قائلة : عليك أن تأخذ تلك النقود ، فمن حقك الحصول عليها ، وهو انسان غنى ولديه الكثير من الأموال .. وأنت قد تضطر لأن تبدأ فى شراء الطعام من اجلى ، فأنا الآن عاطلة .

ألم يحاول اغراءك بالمزيد من النقود ؟

حاول بالفعل .. وأنت الذى حال دون استكمال اتفاقية النقود وخلعت القبعة وراحت تتأملها كطفلة ، فأملت نفسى عبر القبعة وقبلت خدها .. ثم وضعت ذراعى حول كتفيها وجذبتها نحوى .. كان اليخت قد أصبح على مسافة ثلاثة أميال حيث بدأ يختفى عند طرف جزيرة فراكسوس .. وأصبح البحر شاغرا وهبت الرياح فى رفق بين أغصان الصنوبر وحركت خصلات قليلة من شعرها .. كانت قد تهاوت علىَّ قليلا ، بينما كنت جالسا مستندا بظهرى على جذع شجرة الصنوبر ..

أدرت وجهها نحوىَ ، ثم استلقينا تحت الظلال التى تتخللها بقع من ضوء الشمس وغرقنا فى وابل من القبلات .. كنت أريدها ولكننى لم أكن فى عجلة من أمرى مادامت فترة الصيف كلها أمامنا .. لذلك اكتفيت بأن وضعت يدى تحت قميصها واكتفيت بفمها ، وفى النهاية وضعت شفتيها على خدى فى صمت ، وهمست قائلاً : هل كنت تشعرين بالرغبة الشديدة فى رؤيتى ؟

- أكثر مما تتصور .
- أريد أن استلقى على هذا النحو فى كل ليلة طوال حياتى .

جرت بأصابعها فى داخل قميصى وقالت : أكانت هى ممتعة فى السرير ؟ صديقتك الاسترالية ؟ .

فشعرت بالقشعريرة للحظات وأنا مُستلق هنالك وحملقت لأعلى ، من خلال أغصان شجرة الصنوبر نحو السماء وقد راودتنى فكرة أن أقص عليها ما حدث .. ولكننى غيرت رأيى .. كان من الأفضل أن أنتظر : لسوف أحكى لك كل شىء عنها ذات يوم .

قرصتنى فى رفق وقالت : كان عليك أن تحكى قصتها منذ فترة .

- لماذا تسألين عنها ؟
- ربما لأننى لست مثل .... كما تعرف فالتفت وقبلت شعرها ، وقلت : لقد برهنت بالفعل على أنك أكثر ذكاء ومهارة .

فالتزمت الصمت وبدت كأنها لم تتبدد شكوكها تماما .. ثم قالت : لم يسبق لى أن مارست حباً جسديا مع أى شخص .. ثم قامت بتقبيل رقبتى وقالت .. تتشابه آرائى إنا وجين حول الرجال فيما يتعلق بك .

- انها مولعة بمداعبتك ومضايقتك .

ثم قلت :

- أريد أن أخلع لك ثيابك الآن .
- عندئذ ستجعلنى أعود لذكرى الأيام السالفة .
- لن يهمنى ذلك .

فاستندت على احدى مرفقيها ، ثم انحنت علىَّ وقبلتنى وابتسمت ابتسامة خفيفة ، وقالت : الليلة .. أعدك .. وجين فى انتظارنا ..

دعينى أشاهد مكانكما أولا ..

- انه مكان فظيع ومقرف ، أشبه بالمقبرة .

فنظرت بتفرس فى عينىّ كأنها تميل لأن تتناقش معى فى ذلك ، ثم

ابتسمت ومدت يدها الى ، وسرنا على المنحدر الصخرى المشرف على البحر .. وانحنت جولى وجذبت حجرا : فارتفع الغطاء ، فقتحت الحفرة المظلمة فمها .. ثم ركعت وتحسست لأسفل بقدمها لكى تضعه على الدرجة الأولى للسلم ، وبدأت تهبط السلم حتى وصلت الى القاع .. ثم اشرأبت بوجهها لأعلى قائلة :

ـ كن حذرا .. فبعض درجات السلم متآكلة .

وبدأت أهبط السلم وراءها ..

كان الجو فى داخل هذه الأنبوبة مثيرا للخوف من الأماكن المغلقة .

ولكن عند القاع وفى مواجهة السلم كانت هناك غرفة صغيرة تؤدى إلى الخارج . وتحت الضوء الخافت تمكنت من مشاهدة باب فى كل حائط جانبى وعلى الجانب الذى يتجه نحو البحر كانت توجد الفتحات المسدودة والتى كانت بالتأكيد ذات يوم بمثابة الفتحات الخاصة بالمدافع . وكانت هناك منضدة وثلاثة كراسى ودولاب صغير . وكان الهواء غير متجدد وبه رائحة عفنة وشبيهة برائحة الرطوبة وكما لو كان الصمت له رائحة خاصة به .

ـ هل معك علبة كبريت ؟

ثم رفعت المصباح الذى لا تطفئه الرياح أو الأمطار فقمت باشعاله . وكان الحائط الأيسر للغرفة مطليا بصورة جدارية غير جميلة ــ صورة لسرداب تقدم فيه البيرة فى أقداح فوارة وفتيات خليلات لهن صدور ناهدة وعيون غامزة . وكانت هناك آثار ضعيفة توحى بأنه كانت هناك ذات يوم ألوان ولكن لم يتبق منها سوى الخطوط الخارجية السوداء . وعلى الحائط الذى يقع جهة اليد اليمنى كان هناك شىء ما أكثر حذقا ومهارة ـ رسم منظورى لشارع فى مدينة نمساوية . وضمنت أيضا أن يكون أنطون قد ساعد على تنفيذ هذا الرسم . وكان البابان الجانبيان يشبهان الأبواب الجاهزة المانعة للمياه الموجودة بالسفن . وكانت هناك أقفال ضخمة فوق البابين .

وأومأت جولى برأسها وقالت : تلك كانت غرفتنا . وكان جو يستخدم الغرفة الأخرى .

ياله من مكان شنيع . ردىء الرائحة .

ـ اعتدنا أن نسمى هذا المكان الجحر . هل سبق لك أن شممت رائحة

جحر ثعلب ؟.

ـ وما السبب فى إغلاق الأبواب بالقفل ؟

ـ لست أدرى . اذ لم يغلقا من قبل على الاطلاق . وأظن أن أناسا فى الجزيرة يعرفون أن هذا المخبأ موجود ولا ينقصك أى شىء هنا . الملابس الملائمة موجودة ، والأسرة . والمزيد من الصور الحائطية المرعبة .

نظرت إليها تحت ضوء المصباح وقلت : أنت فتاة شجاعة . لأنك تواجهين مثل هذا الأشياء .

ـ لقد كرهنا هذا المكان . ولقد كرهه الكثير من البشر التعساء . فالمرء يحتجز هنا بعيداً عن ضوء الشمس .

فقمت بلمس يدها : لقد شاهدت بما فيه الكفاية .

ـ هل يمكنك أن تطفىء المصباح ؟

فأطفأت المصباح . واستدارت جولى تصعد على السلم . ساقان زرقاوان رشيقان حيث كان ضوء النهار الساطع يخطف بالأبصار لدى تدفقه لأسفل . انتظرت للحظات عند القاع لكى أترك مسافة بينى وبين قدميها ثم بدأت فى صعود السلم . حتى اختفى الجزء العلوى من جسدها ، ثم صرخت منادية على اسمى . فلقد قفز شخص ـ وربما شخصان ـ من خلف الغطاء وأمسكا بذراعيها . ثم رفعها لأعلى وراحت تركل بإحدى ساقيها فى وحشية . سمعتها تنطق باسمى مرة أخرى ولكن صوتها انقطع فجأة . وسمعت اصطدام الأحجار ببعضها بالخارج دون أن أتمكن من مشاهدة أى شىء . وخربشت بيدى فى عنف صاعدا على الدرجات المتبقية بالسلم . وأطل وجه فى لمحة خاطفة من الفتحة الموجودة فوقى . إنه شاب أشقر ، نفس البحار الذى سبق أن شاهدته فى ذلك الصباح بالمنزل . أدرك أنه لا يزال أمامى درجتان من السلم لكى أصل إلى السطح ثم أغلق الغطاء فى عنف على الفور . فصحت كالثور لدى هبوط الظلام الفجائى حولى . ورحت أدفع بكل قوتى فى الجانب السفلى من الغطاء . فانفرج انفراجا ضئيلا للغاية ، كأن شخصا ما كان واقفا عليه . لكن الغطاء رفض التزحزح مع المحاول الثانية . ولم أتمكن من ممارسة الكثير من الضغوط لأعلى .

واستجمعت قواى لكى أدفع الغطاء لأعلى مرة أخرى ثم توقفت عن ذلك

ونزلت على السلالم إلى القاع ثم أضأت المصباح مرة أخرى . وجربت فتح البابين الهائلين . كان من المتعذر اختراقهما على الاطلاق . فحطمت الدولاب وفتحته . كان خاليا تماماً . زمجرت فى غضب . وتذكرت الخروج الخرافى لكونشيس : الوداع المرح والألعاب النارية وزجاج الكروج . لقد انتهى صخبنا .

وقفت عند أسفل السلم وتأججت غضبا محاولا فهم الرياء السادى لدى هذا العجوز : حاولت أن أقرأ ذلك الرق الأثرى العتيق الذى استعمل للكتابة مرة ثانية بعد الكتابة الأصلية .. ذلك الرق الخاص به . ان المسرح "الذى هو بدون متفرجين" وما ينادى به ليس له أى معنى . ولا يمكن أن يقدم التفسير لذلك . فالشيء الوحيد الذى يتطلع إليه كافة الممثلين والممثلات هو جمهور المشاهدين . ربما أن ما يفعله نبع من نظرية عن المسرح ولكنه سبق أن قال : "القناع ليس سوى استعارة" . إنها فلسفة ما جديدة غير قابلة للفهم : الاستعارية ؟ ربما كان ينظر لنفسه على أنه بروفسور فى التورية . رحت افكر مرات عديدة لم أصل إلى أى شيء سوى المزيد من الشكوك . بدأت الشكوك تمتد لتشمل جولى وجين أيضاً . من المؤكد أن ذلك هو مسرح العضام . لقد تم التخطيط لكل ذلك من البداية وعلى أساس الا أتمكن من الحصول عليها على الاطلاق . وأن يتم تعذيبى باستمرار . كيف يمكن لأى فتاة أن تفعل ما فعلته هى مازلت أشعر بنبض قبلاتها وأتذكر كل كلمة من الكلمات الهامسة التى قالتها إنها لا تعنى مثقال ذرة مما قالته أو فعلته ؟ اللهم إلّا اذا كانت مشوشة عقليا بالفعل ومدركة على نحو ما أن الأمر لا يحتاج منها إلى الايفاء بوعودها .

ولكن ، كيف يمكن لرجل يدعى أنه طبيب أن يسمح لمثل هذه الأمور أن تحدث ؟ كان ذلك أمرا لا يصدقه العقل ولا يتصوره .

وبعد نصف ساعة ، وعقب قيامى بالمحاولات العديدة تراجع الغطاء عند دفعه لأعلى ، صعدت إلى ضوء الشمس مرة أخرى . كان البحر شاغرا . وتسلقت المنحدر إلى موقع يمكننى منه الرؤية لمسافات أبعد ولكن لم يكن هناك شيء .

وبعد دقيقتين وصلت إلى المنزل . كانت النوافذ مغلقة تماما على النحو الذى كانت عليه عندما شاهدتها آخر مرة . فشرعت فى السير بسرعة فى

اتجاه البوابة . وهناك اكتشفت أنه ترك لى مفتاحا يعيننى على معرفة اللغز . أو بالأحرى ترك لى مفتاحين .

(٥٧)

كانا يتدليان من غصن شجرة الصنوبر القريبة من البوابة فى منتصف المدق على مسافة أقدام من الأرض كانا يتأرجحان مع نسيم الهواء بينما أشعة الشمس تلامسهما . إحداهما . كان دمية والآخر كان جمجمة بشرية .

تدلت الجمجمة من حبل متين أسود أما الدمية فمتدلية من حبل أبيض اللون . وكانت رقبة الدمية معلقة فى أنشوطة . إنها مصنعة من الخشب ومطلية باللون الأسود والفم مبتسم والعينان بيضاوان . كانت تلك الدمية تشير إلى أن جولى إنسانة شريرة وأنها سوداء مستترة تحت البراءة البيضاء اللون التى ترتديها .

لويت الجمجمة وجعلتها تلف وتدور . كانت الظلال تغمر تجويفاً بالجمجمة وكان الفم بالجمجمة يبتسم فى تجهم . كانت هناك عيون ترقبنى . ولكننى لم أشاهد شيئاً يتحرك . كانت الأشجار الجافة غارقة تحت ضوء الشمس . اجتاحنى الخوف . فتملك الأشجار وهذه الشمس بمثابة الشراك الرفيعة للحقيقة . كنت بعيداً عن موطنى . إن أعمق المسافات لا تكتسب الطابع الجغرافى على الاطلاق .

أمسكت بى الافتراضات وعرقلتنى أقدامى فى الأرض . كل ما أعرفه أننى تحرقت شوقا لجولى . كنت مجنونا بها . وكان العالم فى ذلك اليوم ليس لا معنى له بخلاف ذلك . لذلك أسرعت إلى المدرسة مثل زعيم عصابة يستعد للانتقام فى إحدى قصص البطولة . ولو أنه توجد فى داخل ذهنى دائماً فرصة ضئيلة أخيرة فى ان أعثر على جولى منتظرة إياى . ولكننى عندما فتحت باب غرفتى فى عنف فإننى فتحت الباب على غرفة شاغرة . على ذهنى أن أذهب إلى ديميترياديس لكى أحاول استخلاص الحقائق منه مع ارغامه على المجيىء معى لكى نذهب إلى أستاذ العلوم . وقررت أن أذهب إلى أثينا ، ولكنى غيرت رأيى . وربما كان السبب الوحيد الذى جعلنى أغير رأيى هناك أسبوعين على انتهاء الفترة الدراسية .

وأخيرا ذهبت إلى القرية ومنها مباشرة إلى المنزل الذى يقع خلف الكنيسة . كانت البوابة مفتوحة وكانت الحديقة يانعة بأشجار الليمون . ورغم أن ذلك المنزل لم يكن كبيراً الا أن به أناقة معينة . وكانت الواجهة المطلية باللون الأبيض مغمورة فى الظلال . وبينما أسير بين الحوائط الباردة للأشجار ظهر هيرميز عند الباب الأمامى . وبدا مندهشا لرؤيتى بمفردى . سألته باللغة اليونانية : هل السيدة الصغيرة موجودة هنا ؟

- فرفع رأسه لأعلى بما يفيد "لا" .
- هل ذهبت هى مع السيد كونشيس إلى أثينا ؟
- نعم .

من الممكن أن يكون اليخت قد رسى فى أحد موانىء القرية عقب اختفائه عن الأنظار وافترضت أن تكون جين قد صعدت إلى ظهر اليخت . أحملق فى هيرميز للحظات ثم اندفعت متخطيا إياه ودخلت فى المنزل .

صالة مليئة بالهواء الطلق ورطبة وشاغرة . وكانت هناك سجادة تركية جميلة معلقة على أحد الحوائط . ومن خلال باب مفتوح إلى جهة اليسار شاهدت الصناديق التى تضم اللوحات والصور التى نقلت من بورانى . وكان هناك ولد يقف فى مدخل الباب ومن المؤكد أنه كان أحد أبناء هيرميز . ولم يقل الرجل لابنه أى كلام وحملق الطفل حملقة بنية رزينة ثم استدار منصرفا . وتكلم هيرميز خلف ظهرى : ماذا تريد ؟

- ماهى الغرف التى كانت بها الفتاتان ؟

فتردد بعض الشىء ثم أشار لأعلى السلم . وكان انطباعى عنه أنه عاجز عن تتبع الموضوع . وانطلقت صاعداً السلم . كانت الطرقات تتجه إلى كل من اليسار واليمين بطول المبنى . نظرت إلى هيرميز الذى تبعنى . وأصابه التردد مرة أخرى ثم أشار بيده إلى باب فى الجهة اليمنى . ووجدت نفسى فى غرفة شبيهة تماما بالغرف الأخرى بالجزيرة : سرير عليه مفرش من المشغولات اليدوية والأرضية مثبتة عليها الألواح الخشبية التى جرى تلميعها . وكان شيش النافذة التى تواجه الناحية الغربية قد أغلق ثلاثة أرباعه عن طريق السقاطة .

وفتحت جزءا من الشيش لكى أسمح بدخول المزيد من ضوء الشمس . وكان هيرميز يقف فى فتحة الباب محملقا فى ريبة . سألنى عما أفعل . بدا

أنه لم يهتم بأن يسألنى عن المكان الذى توجد فيه جولى . فى هذه المرة تجاهلته . كنت أتمنى أن يحاول التعرض لى نظرا لأننى أشعر بتزايد الرغبة فى داخلى نحو اللجوء للعنف الجسمانى من أى نوع . لكنه لم يحاول إيقافى . فاضطررت لأن أصب كل ما لدى من احباط على دولاب الملابس الصغير . ورحت أنظر فى أرجاء الغرفة . طوحت بالستارة على جانب فشاهدت صفا قصيرا من الفساتين والجونلات بالاضافة إلى معطف صيف . وتعرفت على الرداء الوردى الذى ارتدته يوم الأحد الذى حُكى لى عما بدا أنه حقائق . وفوق الأرضية توجد حقيبة سفر . فالتقطت الحقيبة والقيت بها على السرير .

كان يوجد المزيد من الملابس . من الواضح أنها أشياء لا يحتاج اليها فى صيف اليونان .

سأل هيرميز : عن أى شىء يبحث ؟

فقلت فى تمتمة "لا شىء" . كانت لدى شكوك أن كونشيس يعمل وفق المبدأ الذى يطبق فى خلية التجسس وبحيث لا تبلغ التشكيلات الأدنى بأكثر مما يحتاجون إلى معرفته من معلومات .. ولذلك لم يكن هيرميز يعرف معلومات كثيرة . فتركت حقيبة السفر ونظرت إليه : أين غرفة الفتاة الأخرى ؟

- لا يوجد أى شىء . لقد أخذت معها كل حاجياتها .

أرغمته أن يرينى الغرفة . كانت مماثلة من حيث الأثاث . ولكن الدلائل كانت تشير إلى أن أحدا لم يشغلها على الاطلاق . وحتى سلة المهملات بجوار منضدة كانت شاغرة . فثبت نظراتى على هيرميز مرة أخرى .

- ولماذا لم تأخذ حاجيات أختها معها ؟

فهز كتفيه كما لو كنت أسأله سؤالا غير معقول . ثم قال : أخبرنى السيد أنها ستعود معك .

وعندما نزلنا إلى الدور الأول طلبت من هيرميز أن يستدعى زوجته . كانت امرأة من نساء الجزيرة تبلغ من العمر خمسين عاما . إنها أقل تجهما من زوجها وأكثر ثرثرة منه . نعم . لقد قام البحارة باحضار الصناديق ولقد جاء السيد . وكان ذلك فى حوالى الساعة الثانية . وذهبت معه الفتاة لدى انصرافه من هنا . هل كان يبدو عليها أنها تعيسة ؟ لا . على الاطلاق . فقد

كانت تضحك . وأضافت قائلة : إنها سيدة شابة بالغة الجمال . هل سبق لها مشاهدتها من قبل فى أى وقت قبل هذا الصيف ؟ لا . على الاطلاق وأضافت أنها فتاة أجنبية على أساس أننى ربما لا أعرف هذه الحقيقة . هل قالت : إنها سوف تعود مرة أخرى ؟ ففتحت المرأة يديها بما يفيد أنها لم تكن تعرف ، ثم أضافت قائلة : ربما . شعرت أنهما كانا قطعتى شطرنج وحتى ذا كانا يدركان على وجه الدقة طبيعة ما يدور من أحداث فانه كان من الواضح تماما أنهما ليسا على استعداد لأن يخبرانى بأى كلام مفيد . لقد كانت تضحك . كان باستطاعتى أن أتخيل أن جين قد خدعت وأقنعت أن تذهب مع كونشيس ولكن كان عليها ألا تكتفى بمجرد الضحك . كان الموقف مليئا بالزيف وزاد ذلك من شكوكى . هذا بالاضافة إلى تلك الحاجيات الخاصة بجولى والتى مازالت بالغرفة العلوية . بدأت أعتقد أنه ينبغى علىَّ أن أتذرع بالصبر مهما أصابنى من الاحباط الشديد .

وصلنى خطاب أثناء فترة تناول طعام الغداء فى يوم الاثنين . كان خطابا مرسلا من مدام هولمز .

"اسعدنى كثيراً أنك تقابلت مع جولى وجين كما اسعدنى أن هناك شخصاً بريطانيا فى الجزيرة . فهذا أمر يبدو رائعاً ومحببا للنفس للغاية . ارجوك أن تذكرهما لكى تقوما بكتابة الخطابات إلىَّ . فهما كسولتان بشكل شنيع فى إرسال الخطابات الىَّ .

المخلصة

كونستانس هولمز

كنت قائما بأعمال النوباتجية فى ذلك المساء ولكننى تسللت خارجاً عقب ذهاب الأولاد للنوم فى أسرتهم . ذهبت إلى منزل هيرميز . ولم تكن هناك أنوار فى الدور العلوى .

وجاء يوم الثلاثاء . وشعرت بالقلق وبعدم الجدوى وبعدم المقدرة على اتخاذ أى قرار . وفى وقت متأخر من بعد الظهر سرت إلى الميدان الذى تم تنفيذ حكم الاعدام به وكانت هناك لوحة لتخليد الذكرى على حائط مدرسة القرية . وكانت شجرة الجوز مازالت جهة اليمين . بدا الميدان شبيها بالغرفة . بغرفة التعذيب تلك التى ذهبت لمشاهدتها عندما رجعت من القرية مساء يوم الأحد حيث كان مغلقا درت حول المكان من الخارج ورحت أدقق

النظر إلى الداخل فاتضح أنها استخدمت كغرفة مخازن . من المؤكد أنها تركت على حالتها بالاضافة إلى المنضدة الوحيدة الرهيبة فى الوسط .

ربما كنت مشغولا للغاية بشئون المدرسة خلال تلك الأيام . فالامتحانات كانت قد بدأت . نصت النشرة المطبوعة على "أن يقوم مدرس اللغة الانجليزية بامتحان الطلبة امتحانا تحريريا" . مما يعنى أن أمامى حوالى ٢٠٠ ورقة أجابة تستلزم منى القيام بتصحيحها . لم انزعج كثيراً لأن انشغالى بتصحيح الأوراق يمكن أن يبعد عن الهموم الأخرى

ادركت أن هناك تغييراً داخل كيانى وأنه لم يعد بمقدروى أن اثق فى الفتاتين . بعد أن اتضح انهما تنفذان رغبة كونشيس أى انهما تعرفان ما يكمن وراء كل ذلك . ولكن إذا كان هذا هو أحد الافتراضات المعقولة فينبغى أن أضيف افتراضا آخر . لقد كانت تخدعنى لصالح العجوز ولكنها كانت تخدعه أيضاً لصالحى . مما يعنى أنها تدرك أننى لن أحرم منها فى نهاية الأمر وأن هذه المضايقات ستتوقف يوماً .

كان يوم الأربعاء خانق الحرارة عديم الرياح وكأنه آخر يوم فى عمر الكرة الأرضية . فى تلك الليلة ، قضيت جلسة طويلة لتصحيح أوراق الامتحانات . وكان يوم الخميس هو المحدد لتسليم الأوراق لنائب ناظر المدرسة . كان الهواء ثقيلاً للغاية . وفى حوالى العاشرة والنصف سمعت دمدمة . كان المطر بصدد الهطول . وبعد ساعة كنت قد انتهيت من تصحيح ثلث الأوراق . سمعت طرقا على الباب . ظننت أن الطارق هو أحد المدرسين لكن الطارق كان باربا فاسيلى . وكان قد جاء من البوابة . وارتسمت ابتسامة تحت شاربه الأبيض الشبيه بشارب عجل البحر . وما أن لفظ كلماته الأولى حتى قفزت ناهضا من مكتبى .

(٥٨)

- معذرة ياسيدى ولكن سيدة شابة ..
- أين هى ؟

فأشار بيده فى اتجاه البوابة . ارتديت معطفا بسرعة خاطفة . وأضاف هو : أنها فتاة أجنبية بالغة الحسن .

تخطيته وانطلقت فى الطرقة . ثم قفزت هابطاً على السلالم . واسرعت

من المبنى فى اتجاه البوابة . توقعت أن أشاهدها واقفة فى تلك المساحة ولكن لم يكن هناك أحد . كانت البوابة مغلقة نظرا لأننا نحن المدرسين كان لدينا جميعا مفاتيح لاستخدامها فى فتح البوابة . تذكرت أننى تركت مفتاحى فى السترة التى كنت أرتديها فى الفصل . فنظرت من خلال القضبان . لم يكن هناك أحد على الطريق . ولا بجوار مياه البحر .

لم يظهر أى هيكل سريع من وراء الحوائط . فاستدرت فى حنق وسخط . كان باربا فاسيلى يمشى بين الأشجار قادما من الكتلة السكنية الخاصة بالمدرسين ، سألته : أليست هى هنالك ؟ بدا كأنه يستغرق وقتا طويلا للغاية فى فتح البوابة الجانبية التى تستخدم فى الفترات المسائية . وخرجنا إلى الطريق . وأشار العجوز إلى مكان بعيد عن القرية . بدأت أشم رائحة المزيد من المكايد . كان هناك شىء ما فى ابتسامة الرجل العجوز . ومع ذلك قررت الانطلاق وليحدث ما يحدث .
ـ هل لى أن آخذ مفتاحك ياباربا ؟ لكنه رفض إعطائى المفتاح الذى معه . اضطر إلى العودة داخل مسكنه مع البحث لاحضار مفتاح آخر . وبدا كأنه يتعمد تعطيلى وعندما رجع ومعه مفتاح اختطفته منه على وجه السرعة .

وسرت بسرعة على الطريق . وبعد أن ابتعدت عن المدرسة . ظننت أن جولى ربما تكون منتظرة ولكنها لم تكن هنالك . لم يكن الطريق يمتد لمسافة أكثر من ربع ميل . وبعد الحائط كان الطريق يمتد حتى جسر صغير وفى اتجاه الأراضى الداخلية كانت توجد كنيسة صغيرة متصلة بالطريق بواسطة صف من أشجار السرو الطويلة . وكان القمر قد احتجب بسبب سحابة عالية كثيفة . وصلت إلى الجسر وأصابنى التردد مابين الاستمرار فى السير على الطريق أو العودة إلى القرية . وعندئذ سمعتها تنادى على اسمى .

جاء صوتها متراميا من بين صف أشجار السرو . كانت واقفة متوارية عن الطريق مابين أشجار السرو . معطف مشمع للوقاية من الأمطار وإيشارب حريمى وبنطلون وقميص أسود اللون على ما يبدو والشكل البيضاوى الأكثر شحوبا لوجهها . صحت : جولى :
ـ أنا جين . أشكر الله على مجيئك . اقتربت منها وقلت : أين جولى ؟ فأطالت النظر إلىَّ ثم نكست رأسها .

"لقد اعتقدت أنك عرفت ما يدور من أحداث بينها وبين موريس" .

فالتزمت بالصمت ونظرت هى لأسفل مرة أخرى .

تساءلت : ماذا تظنون فىَّ أنتم جميعا بحق الجحيم ؟ يبدو أنكم نسيتم أننى قد دخلت هذه المسرحية الهزلية حول الفتاة والعجوز.

فهزت رأسها وقالت : لم أقصد ذلك . مجرد أنها سوف تفعل أى شىء يطلبه منها . بطرق أخرى .

وظلت رأسها منكسة آنئذ . كان علىَّ أن أستدير على عقبى وأسير عائداً إلى المدرسة وإلى تصحيح أوراق الامتحانات فقد أدركت أننى عدت إلى نقطة البداية فيما يتعلق بالمسرحية التنكرية . وفى ضوء الحقيقة المرة لم أعرف المزيد عن حقيقة الفتاة منذ أن وقعت عيناى عليها لأول مرة . أدركت أننى لا أستطيع أن أستدير على عقبىّ عائداً مثلما أن الحجر الذى يلقى على الأرض لا يمكنه أن يطير عائدا إلى اليد سألت : وما الذى تفعلينه هنا على وجه الدقة ؟

- لا أظن أن الأمر يتصف بالعدل .

- ماهو الأمر الذى لا يتصف بالعدل ؟

- نظرت نحوى ، وقالت : كل شىء كان مخططا له . بما فى ذلك بعادها عنك على ذلك النحو . فهى كانت تدرك أن ذلك سوف يحدث .

- ومجيئك لى الآن ليس مخططا له ؟

فحملقت إلى ما ورائى نحو طيات الليل وقالت :

- لا ألومك اذا افترضت ذلك .

- لم تذكرى المكان الذى توجد فيه جولى الآن .

- انها فى أثينا . مع موريس .

- أهى فى المكان الذى جئت أنت منه تواً .

رحتُ أبحث عن الانطباعات التى ظهرت على وجهها وهى تومىء برأسها . كان بها شىء من البراءة علاوة على التأنيب بسبب شكوكى فيها . كان من الواضح أنها تلعب دورا معينا . سألت : ولماذا لم تنتظرى عند البوابة ؟

- شعرت بالهلع والذعر . فقد نادى عليك ولكنه استغرق وقتا طويلا

للغاية . ورفرف البرق مرة أخرى . وكان الهواء محملا برائحة قدوم الأمطار .
ـ وما الذى جعلك تشعرين بالهلع ؟
ـ لقد هربت يانيقولاس . من المؤكد أنهم خمنوا ليعرفوا إلى أين ذهبت .
ـ ولماذا لم تذهبى إلى الشرطة . أو السفارة ؟
ـ هذه الاساءة لا تعتبر جريمة . فتشجيع شخص ما لكى يحبك تحت ادعاءات مزيفة لا يعتبر جريمة . انها أختى وهذه التصرفات لا يفعلها موريس . انما تفعلها جولى .

سمعنا صوتا مترامياً من الطريق . نظرنا معاً حول شجرة السرو . كانت هناك ثلاثة هياكل معتمة لرجال يسيرون فى اتجاه الجسر يتكلمون اليونانية . نظرت الىَّ جين نظرة توحى بالخوف . نظرت فى اتجاه الطريق . كان الرجال الثلاثة يسيرون فى هدوء وقد أصبحت ظهورهم فى اتجاهنا وأصبح الشريط الرمادى للطريق مترامياً وكذلك البحر المعتم . قلت : "استمعى الىَّ . لقد سئمت كل هذا تماما . ليس لدى مانع من لجوئكما للعب . ولكننى لا أوافق على اللعب بعواطف الناس .
ـ هذا هو ما أشعر به . لقد غشتك وخدعتك .
ـ لقد خدعتنى كثيراً . لذلك أرجو أن تتكلمى معى بصراحة . أين هى ؟
ـ لعلها فى السرير مع حبيبها الحقيقى .

فسحبت نفسا عميقا وقلت : موريس ؟
ـ مع الرجل الذى تعرفه باسم جو .

فضحكت لأن ما تقوله غير معقول على الاطلاق .

فقالت : وهو كذلك . لست مضطرا لأن تصدقنى .
ـ وينبغى عليك أن تقول كلاما معقولاً أفضل من ذلك . وإلا فسوف اعود إلى غرفتى . وأنا أفترض أنه يقف ويرقبنا ونحن نمارس الحب معاً .

يمكن للمرء أن يفعل ذلك اذا كان يمارس الحب بالفعل مع إنسانة ما فى كل ليلة . واذا كان يدرك أن الرجل الآخر يتم خداعه .

كانت مصرة على رأيها تماما . وكان الأمر أشبه بمحاولة بيع شىء ما

مرتين لنفس الزبون . قلت : لقد سئمت كثيراً . وحصلت على مافيه الكفاية وضقت ذرعاً .

استدرت لكى أنصرف ولكنها أمسكت بذراعى .

ـ لو سمحت يانيقولاس ، بغض النظر عن أى شىء آخر فانا لا أعرف أين أقضى ليلتى . ولا أستطيع الذهاب إلى المنزل بالقرية .

ـ حاولى الذهاب إلى الفندق .

فابتلعت الاهانة ثم حاولت مرة أخرى . قائلة : من المحتمل أن يكونوا هنا غداً . واذا ما كنت بصدد التعرض لأى اتهام فاننى أود ان تقف بجانبى .

وللوهلة الأولى كانت هناك نغمة تتسم بالمزيد من الصدق فى صوتها . ابتسمت أخيراً ابتسامة خفيفة جعل صوتى يكتسب شيئا من الرقة وأنا أقولها : ما كان عليك أن تقصى علىَّ قصة "القلوب الثلاثة" .

ـ هل هى قصة غير محتملة للغاية ؟

ـ تعرفين أن عدم الاحتمال هنا يكمن فى قيامكم بلوى الحقائق لكى تتلاءم مع القصة .

كانت نغمة صوتى قد بدأت تتخذ طابعا أكثر تهكما نظرت الىَّ فى تفرس عميق واتسعت حدقتا عينيها وأصبحت مثل حدقتى طفل جرىء يرغب فى التحدى . قلت : كلما ازدادت معرفتى أصبحتما غير معقولتين بحيث يزداد عدم تصديقى لكما .

ـ هل لأننا نشعر أنك جذاب ووسيم بعض الشىء ؟ ولأننى أشعر بالأسف من أجلك ؟ مثلما أشعر بالأسف من أجلى أنا .

فحملقت فى وجهها وقد شعرت برغبة أن أختبرها . بدا أن الاختبار الحقيقى كان اختباراً لى قلت :

ـ هل أخبرت جولى أننى بعثت بخطاب إلى والدتكما ؟

ـ نعم .

ـ وصلنى رد منذ يومين . واننى لأسائل نفسى فى تعجب : ترى ما الذى ستعتقده لو أرسلت خطابا أخبرتها فيه عن حقيقة وضعكما ؟ إنها لن تصدق شيئا .

راحت تتأملنى ثم نظرت لأسفل . وقالت : خطاب أمنا الوهمى المرسل إليك كان نصه كالآتى : عزيزى السيد أورفى . قمت بتسليم خطابك للمستر فوليامى الذى هو ناظر المدرسة الابتدائية هنا ..

جاء الدور لكى أتهاوى ، تحولت الأرض الراسخة تحت قدمى إلى رمال هشة متحركة فى خلال ثوان قليلة . فقلت : لقد تم تحرير الخطاب هنا وتم لصق طابع بريد انجليزى عليه . وبعدئذ ..

ثم قامت بالحركة التى يتم بها ختم الخطاب بخاتم البريد . وقالت : والآن هل ستصدقنى ؟

ورجعت بتفكيرى للوراء فى يأس مرير : اذا كانوا يقومون بفتح خطاباتى المرسلة للخارج .

سألتها : هل تقومون بفتح الخطابات الواردة لى من الخارج أيضا ؟

ـ أخشى أن يكون الأمر كذلك .

ـ اذن فأنتم تعرفون موضوع صديقتى الاسترالية ؟

فصدرت حركة خفيفة من كتفيها "بالطبع" ، قلت : أنت تعرفين بالفعل أننى قابلتها فى أثينا فى أجازة نصف السنة ؟

أصابها التردد ثم ابتسمت فى وجهى ولاذت بالصمت . تذكرت اننى تركت خطاب والدتها على مكتبى . ولعل شخصاً تسلل إلى غرفتى وقرأه . أما خطاب آن تيلور وما به من قصاصات الصحف فقد خبأته تماما فى حقيبة مغلقة بالمفتاح . قلت : اذن . برهنى لى على ذلك . هل قابلتها فى أثينا أم لا ؟

ـ أنت تعرف جيدا أنك لم تقابلها .

وقبل أن تتمكن من التحرك صفعتها على خديها . وشعرت بالصدمة . ثم وضعت يدها فى بطء على خدها . واكملت :

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

ـ ولسوف أصفعك مرة أخرى اذا لم تقولى الحقيقة . هل يتم فتح الخطابات المرسلة الىَّ بالبريد ؟

فترددت وهى لا تزال ممسكة بخدها ثم أذعنت فى استسلام : لا نفتح .. سوى الخطابات التى تتعلق بنا .

ـ ذلك أمر يدعو للأسف . ينبغي عليك أن تكوني أكثر دقة في كلامك . لو فتحت الخطاب لعرفت أنني قابلت تلك الفتاة المسكينة في أثينا .
ـ إنني لا أدرك ماذا .
ـ بسبب أختك طلبت من هذه الفتاة المسكينة أن تخرج من حياتي . وبعد أسبوعين خرجت ، ليست فقط من حياتي ولكن أيضاً من حياتها . لأنها ماتت منتحرة . والآن أنتم تدركون الثمن الباهظ الذي نجم عن اللهو الذي تمارسونه .

راحت تحملق ، ظننت أنها صدقت كلامي ، ولكنها أشاحت بوجهها بعيداً . ثم قالت : لو سمحت ، لا تحاول أن تلعب لعبة موريس .

فأمسكت بذراعيها وهززتها وقلت : أنا لا ألهو من أجل التسلية أيتها البلهاء . لقد قتلت نفسها .

بدأت تصدقني ، فقالت : ولكن .. لماذا لم تخبرنا بذلك الانتحار ؟

تركت ذراعيها ، قلت : لأنني شعرت بتأنيب الضمير .

سادت فترة من الصمت . ثم تكلمت في نوع من الخجل :
ـ هل تحدثت معها عن جولي ؟

أحسست بذعر في صوتها ، قلت : كنت غارقا في حب أختك على هذا النحو السخيف .
ـ ولكن موريس سبق أن حذرك .
ـ ومتى قال هو الحقيقة لي في أي وقت من الأوقات ؟ فالتزمت بالصمت مرة أخرى وغرقت في التفكير . وبدأ يظهر عليها شيء من التغيير ونظرت إليَّ نظرات عميقة متفرسة في عيني ، وقالت : هذا أمر في غاية الأهمية . الا تكذب عليَّ ؟

لدي البرهان في غرفتي . أتودين أن تشاهديه .
ـ لو سمحت .

وظهر في صوتها شيء من الاعتذار ، قلت : وهو كذلك . انتظرى عند البوابة في خلال دقيقتين .

عندما رجعت بعد دقيقتين ومعي الخطاب وقصاصات الصحف شاهدتها

على جانب الطريق المواجهة للبوابات . وكان باربا واقفا فى مدخل بابه المضاء ولكننى تجاهلته . أمسكت بالظرف الذى دفعت به نحوها . استدارت لكى تستقبل الضوء المترامى من المسكن وبدأت فى القراءة . ظلت تحملق فى الخطاب للحظات ثم نظرت فى اقتضاب إلى قصاصات الصحف . أحنت رأسها . ثم راحت تطوى الأوراق فى بطء ووضعتها فى داخل الظرف وأعادته إلىَّ . وظل رأسها منكسا .

- اننى لآسفة . لا أعرف ماذا أقول .
- وها أنت الآن تعرفين .
- كان عليك أن تخبرنا بكل ذلك .
- لكى أجعل موريس يخبرنى بأن ذلك هو جزء من كوميديا الحياة ؟

فنظرت لأعلى بسرعة وكأن شيئا لدغها قالت : اذا كنت تعرف .. ذلك ليس عدلا بكل أمانة يانيقولاس .

وراحت تتأملنى فى وقار . وقالت : لا أعرف ماذا أقول . المؤكد أن ذلك كان ...

- زمن خاطىء .

استدارت وعبرت البوابة الجانبية نحو باربا فاسيلى ، سمعتها تتحدث معه باللغة اليونانية بسرعة كبيرة ، شاهدت العجوز يحنى رأسه متقبلا منها بعض التعليمات . ثم رجعت جين من فتحة البوابة ، ووقفت قريبا منى . ونظرت إلىَّ نظرة فيها اعتراف بأخطائها .

ثم قالت : هيا بنا إلى المنزل . فجولى تنتظر هناك .

ابتسمت فى رقة لكى تهدىء من وجهى المليىء بالضياع . أمسكت بذراعى لكى أضطر للنظر إلى وجهها ، وقالت : أريدك أن تنسى كل ما قلته لك هذه الليلة . اسمى هو جين هولمز . وهى اسمها جولى هولمز . ولدينا أم بلهاء . وهى تكتب بالفعل على ذلك النحو . ولكننا قمنا بتلفيق الخطاب .

- وماذ عن جو ؟
- جولى تشعر بالارتياح نحوه . لكنها لا تنام معه فى السرير . أرجوك أن تثق فىّ . إلى أن نصل إلى هناك . أقسم لك أننا نعرف تلك الأخبار المفجعة عن صديقتك ، وأقسم لك أننا كنا سنتوقف عن تعذيبك على الفور لو علمنا بهذه الأنباء المفجعة .

بدت فتاة مختلفة ، سألتها ماذا قلت توا لباربا فاسيلى ؟
- لدينا كلمة سر خاصة بالطوارىء . أوقف التجربة .
- هل العجوز موجود هنا ؟
- انه فى بورانى . وسيتم إرسال الرسالة له باللاسلكى . وخلفها راح باربا فاسيلى يغلق البوابة الجانبية بالمفتاح . شاهدته يسير فى اتجاه العمارة السكنية الخاصة بالمدرسين . وحملقت جين فى الاتجاه الذى أنظر اليه ثم أمسكت بيدى وجذبتها قائلا : هيا بنا .

كنت لا أزال أشعر بالتردد لكن تصميمها جعلها تنتصر علىَّ . فشعرت بنفسى منجذبا خلفها وقد أمسكت بيدى مثل إنسان مقبوض عليه . سألت : ماهى تلك التجربة ؟

فضغطت على يدى ولكنها التزمت بالصمت على مدى خطوات قليلة وقالت : لسوف يفقد موريس صوابه لأن ما فعلته صديقتك أمر كان قد كرَّس معظم حياته ليحاول منع حدوثه .

راحت تنظر فى تفرس شديد فى عينى حتى اضطررت لأن أحول بصرى وأنظر لأسفل . قلت : لقد نفد صبرى .
- أدرك أننى أطلب منك الكثير . ولكننا سنكون شاكرين فضلك إذا تحليت بالصبر .

لم أظهر أى دليل على موافقتى على كلامها ولم أدخل معها فى مزيد من المناقشات وشرعنا فى السير معاً مرة أخرى . من المؤكد أنها شعرت أننى عنيد . وبعد خطوات قليلة بدأت تقول كلاما لاسترضائى . سوف أقدم لك مفتاحا واحداً . المجال الذى تخصص فيه موريس هو علم الطب النفسى بدأ يزيد من اهتماماته بالجانب الآخر . لماذا يكون الناس العقلاء ، ولماذا لا يتقبلون الخيالات على أنها أمور حقيقية . من الصعب أن تستكشف ذلك اذا قلت للإنسان العاقل الذى تجرى عليه التجربة : إن كل شىء سيتم إخباره به هو محاولة لتضليله . ومن المؤكد أنك ستعتقد أننا نقتحم مجالاً دقيقا للغاية فى القواعد الأخلاقية الطبية . ونحن على وعى لهذه الحقيقة . ولكن هناك ما يبرر تصرفاتنا بالضحايا المؤقتين من العقلاء أمثالك سيكونون قد ساعدوا بعض المرض الشديد . وربما أبعد مما يخطر ببالك .

والتزمت بالصمت على مدى بضعة خطوات قليلة أثناء سيرنا .
ـ وماهو الوهم الذى وضع فى خطة هذه الليلة ؟

فقالت : إنه يتمثل فى أننى صديقتك الحقيقية وهو أمر لم يكن أكذوبة . الجزء الخاص بالصداقة على أية حال .

وابتسمت لى ابتسامة أخرى سريعة وأضافت : "اذا كان باستطاعتك ان تتخيل أنك تلعب الشطرنج ولكن ليس بهدف أن تكسب .. ولمجرد أن تشاهد التحركات التى يقوم بها الشخص الآخر .

سألتها : تلك الفتاة "ليلى" والفتاة روز ، هل هما مجرد عبث ؟
"الأسماء هى نوع من الاضحوكة . وهناك بطاقة فى ميثاق طاروت تسمى الساحر . الساحر .. المشعوذ . وهناك رمزان من رموزه التقليدية يسميان زهرة الزنبق والوردة" .

اقتربنا من الفندق ووصلنا إلى الميدان الصغير . وجعل البرق واجهات الفندق تنبض بالحياة مثل معدات المنظر على المسرح .. وما كانت قد شرعت فى اخبارى به . بدا شبيها بالبرق : ومضات من مشاهدة كل شىء وظلام الشكوك التى مازالت عالقة . ولكن التنوير والاستنارة بدأ يتغلب على الليل مثلما هو الحال مع البرق الحقيقى .
ـ ولماذا تعتبر هذه السنة هى الأولى بالنسبة لوجود جولى هنا ؟
ـ أعتقد أنها حدثتك عن حياتها العاطفية .
ـ هل كانت فى جامعة كمبردج ؟
ـ نعم . ولقد كانت علاقاتها مع أندرو بمثابة كارثة . لم تتغلب عليها ولم تشف تماما . ظننت أن هذا قد يساعدها على الشفاء . كما أن موريس استهوته فكرة وجود أختين توأم .
ـ أكان يقصد لى أن أنخدع بها ؟

ترددت . ثم قالت : باستطاعتك أن ترغم الناس على عمل الكثير من الأمور . ولكن لا يندرج الجاذبية الجنسية تحت ذلك أو العكس . الأمور تتم بطريقة مرتجلة يانيقولاس . فالفأر يعطى نوعا من التكافؤ مع الشخص القائم بالتجربة . ويمكنه إملاء حوائط المتاهة مثلما فعلت أنت دون أن تدرك ذلك . ولسوف أقول لك سراً آخر . جولى لم تكن سعيدة على الاطلاق

بسبب ما حدث فى يوم الأحد . الاختطاف . وحقيقة الأمر أننا لم نكن متأكدين أنها ستفعل ذلك .

ورجعت بتفكيرى للوراء . وتذكرت إحجام جولى عن اتاحة الفرصة لى لمشاهدة المكان الذى تختبىء فيه تحت الأرض قبل قيامنا بالنزهة الخلوية وتذكرت ما أعقب ذلك من أحداث . وتذكرت كيف أرغمتها أن ترينى ذلك المخبأ .

ثم أكملت قائلة : أنا إنسانة ماكرة . وأندرو ماهر للغاية . لكنه كان مخنثا . ولذلك واجها مشكلات رهيبة . وهى الآن فى أشد الحاجة إلى شخص ما . ورأيى من الناحية الطبية البحتة عثرت على الشخص الملائم .

وسرنا صاعدين على زقاق متجه لأعلى التل ومؤدى إلى الميدان الذى تم فيه تنفيذ حكم الاعدام . سألتها : هل كل ما قاله لى العجوز عن ماضيه كانت حكايات ملفقة ؟

- نحن متلهفون لمعرفة تخميناتك .
- لكنك تعرفين الحقيقة ؟

أصابها التردد ، ثم قالت : أظننى أعرف الحقائق . التى سمح لنا موريس أن نعرفها .

وأشرت بيدى إلى الحائط الذى عليه اللوحة التذكارية الخاصة بتنفيذ حكم الإعدام ثم تساءلت : وماذا تعرفين عن ذلك ؟

- اسأل أى شخص فى القرية عنه .
- هل حدثت الأمور على النحو الذى قاله ؟

فالتزمت بالصمت للحظات ، ثم قالت : لماذا لا تعتقد أن الأمور حدثت على النحو الذى قاله ؟

- ذلك هو ما شعرت به .

فشاهدت ابتسامتها . وقالت : إذن ربما كانت تلك هى غلطتك فى الحكم . عندما كنت على النحو الذى أنت عليه الآن فإنه قضى أمسية فى تدمير كل المعتقدات التى كانت لدى فى ذكائى وتدمير كل فخر كنت أحس به فى العمل الذى أقوم به .. وفى النهاية أصبت بانهيار عصبى وأنا اردد هذا ليس صحيحا . فلست على ذلك النحو .

ـ أتمنى ألا يكون قد حقق لنفسه متعة سادية من وراء فعلته .
ـ لكن ذلك هو السبب أن المرء يصدقه . إن المؤامرة السادية ضد الفرد هى ما نسميه التطور . الوجود . التاريخ .
ـ لقد أدركت أن ذلك هو ما يدور حوله المسرح الفلسفى . ومن الواضح أنك معجبة به كثيرا .

فأومأت برأسها قليلا أثناء سيرها ثم قالت فى هدوء : أعتقد أنه أعظم معلّم فى العالم .
"وماذا عن ليفاريير" ؟

فابتسمت إبتسامة لها طابع الذكرى العاطفية على نحو لا يدع مجالاً للشك ثم قالت "جون" وبعدئذ لمست ذراعى وأضافت "تلك هى قصة مختلفة تماما . أقولها لك غداً ؟ والآن جاء الدور عليك . حدثنى أكثر عن ... أنت تعرف ما أريده" .

ثم طلبت منى أن أحدثها عن آليسون . سألت : ألم يسبق لها أن قامت بمحاولات الانتحار ؟.
لا . على الاطلاق . فهى دائمة إنسانة تأخذ الأمور على ماهى عليه .
ـ هذا يحدث . مع النساء . وعلى نحو فجائى . والمأساة أنهن فى الغالب لا يعنين الانتحار ، ربما كان الانتحار كامنا فى داخل كيانها . ولو أنه توجد دلائل تشير إلى ذلك وعادة ما يكون هناك سبب أهم من مجرد قطع العلاقات الشخصية .
ـ لقد حاولت أن أشعر بذلك .

فقالت : على أية حال أنت لم تكذب عليها ولم تحاول أن تخدعها عليك ألا تلقى باللوم على نفسك .

ووصلنا إلى المنزل . وكان وصولنا فى الوقت المناسب لأن قطرات المطر الأولى الثقيلة بدأت فى السقوط . دفعت جين البوابة الخارجية فسرت وراءها على الممر . واستخرجت مفتاحا ثم فتحت الباب الأمامى . كانت الصالة مضاءة رغم أن التيار الكهربائى ظل يتأرجح تحت وطأة التيارات الكهربائية الأخرى الهائلة التى تطلق فى السماء . وهنالك استدارت وقبلت خدى فى شىء من الخجل .

- إنتظر هنا . فلربما تكون نائمة . سأعود اليك بعد قليل .

ورحت أرقبها وهى تصعد السلم . وترامى صوت طرق خفيف ثم صوتها وهى تنادى باسم جولى بصوت منخفض . ثم فتح باب وأغلق . وبعدئذ ساد الصمت . كان الرعد يبرق بالخارج مع صراخ فجائى لأمطار أكثر رسوخا وطرقا على الألواح الزجاجية للنوافذ علاوة على هبة ريح باردة قادمة من مكان ما . وانقضت دقيقتان . وبعدئذ فتح الباب غير المرئى بالدور العلوى .

وجاءت جولى أولاً عارية القدمين وكانت مرتدية كيمونو فوق قميص نوم أبيض . وتوقفت للحظات وراحت تنظر نحوى بوجه حزين ثم هبطت على السلالم بسرعة : أوه ! نيقولاس .

ألقت بنفسها بين ذراعى . ولم نتبادل القبلات . وظلت جين واقفة أعلى السلم نحونا فى ابتسام . وابعدتنى جولى قليلا لكى لا أنظر إلى جين وراحت تنظر فى عينى فى عمق . ثم تساءلت : لماذا لم تقم باخبارى ؟
- لست أدرى .

فغاصت فى داخلى مرة أخرى كما لو كانت هى الشخص الذى يحتاج إلى تطييب الخاطر . فأخذت أربت على ظهرها . وأرسلت جين بقبلة خفيفة إلى عبر الهواء إلى أسفل من فوق السلم ثم اختفت . سألتنى : هل أخبرتك جين عن كل شىء ؟.
- أخبرتنى ببعض الأشياء .

فزادت من التصاق جسدها بى ، وقالت : أشعر بالارتياح لأن كل شىء انتهى .
- لن أغفر لك ما حدث يوم الأحد . فنظرت لأعلى وقد ظهر على وجهها قدر كبير من الجدية وتوسلت الىَّ أن أصدقها .
- لقد كرهت ذلك الأمر يانيقولاس . وأنا لم أفعل ذلك تقريباً . لقد كان ذلك أمرا رهيبا حيث ادركت ذلك بصدد أن يحدث .
- لقد أخفيت ذلك عنى بشكل مثير للاشمئزاز .
- كنت أدرك أن كل شىء قارب على الانتهاء .
- سمعت أن هذه هى السنة الأولى لك هنا .
- وستكون آخر سنة لى هنا .

التمست منى أن أتفهمها وأعفو عنها . ثم قالت : كانت جين غامضة للغاية دائما إزاء ذلك الأمر . علىَّ أن أعرف طبيعة تلك الأمور .

وزادت من اقتراب جسدها من جسدى مرة أخرى . وبحثت عن يدى فأمسكت بها وقرصتها فى رفق كنوع من العتاب ثم تكلمت بصوت هامس : لا يمكن أن ترجع إلى مدرستك تحت هذا الوابل من الأمطار وأنا أكره أن أظل بمفردى أثناء الرعد والبرق .

أمسكت بيدى وقادتنى إلى الدور العلوى . ووصلنا إلى باب الغرفة التى قمت بتفتيشها منذ ثلاثة أيام ولكنها ترددت بعض الشىء عند الباب ثم نظرت إلىَّ نظرة بها شىء من السخرية ومليئة بالخجل الحقيقى وقالت : هذا هو المكان الذى تتوقف فيه أعمال السحر عن العمل .

ثم نظرت الىَّ فى عمق وبدت كأنها بصدد أن تقول شيئا ثم غيرت رأيها . فتحت الباب . ودخلنا . كان هناك مصباح مضاء بجوار السرير . وكان السرير على الحالة الذى تركته عليها . الوسادة متجعدة ، وهناك ديوان للشعر مفتوحاً تحت المصباح كما كانت هناك محارة مستخدمة كطفاية للسجاير . ووقفنا فى شىء من الحيرة . وكان شعرها منسابا لأسفل . وكانت الحاشية البيضاء لقميص نومها تكاد تصل إلى كعبيها . راحت تحملق فى أرجاء الغرفة وكأنها تنظر من خلال عينى . حدث وميض من البرق . ارتجفت اللمبة وانطفأت . فغمرنا الظلام . ثم ترامى رعد فوق رؤوسنا . وقبل أن يتلاشى صوت الرعد ارتمت بين ذراعى وغرقنا فى القبلات فى نهم شديد . فتلوت فى أحضانى وتشبثت بى مثل طفلة . فقبلت قمة رأسها وقمت بالتربيت على ظهرها . وقلت فى تمتمة : هل لى أن اخلعك ثيابك وأضعك على السرير ؟

ـ دعنى أجلس على حجرك للحظات قليلة .. فالرعد يجعلنى أشعر بالخوف الشديد . جلست على الكرسى وجلست فوق ركبتى ورحنا نتبادل القبلات . ثم استندت علىَّ . عثرت على يدى الشاغرة ودفعت بأصابعها بين أصابعى . قالت : حدثنى عن صديقتك . وماذا حدث . قلت لها نفس الكلام الذى قلته لأختها منذ دقائق قليلة . قالت : هل حدثتها عنى ؟

ـ أخبرتها أننى تقابلت مع إنسانة فى الجزيرة .

ابتسمت فى الظلام من هذه المعركة غير المتوارية تماما مابين التعاطف

وحب الاستطلاع الأنثوى . وقالت : يالها من فتاة مسكينة . إننى على الأقل أستطيع أن أتخيل المشاعر التى شعرت هى بها .

ـ لم تكن مثلك . فلم تأخذ أى شىء مأخذ الجد . خاصة اذا كان ذلك الشىء له طابع الذكورة .

ـ من المؤكد أنها أخذتك مأخذ الجد . فى نهاية الأمر .

كنت قد توقعت ذلك . فقلت : أظن أننى مجرد رمز . نوع من الرمز . لكل الأمور التى سارت فى الاتجاه الخاطىء فى حياتها . أصبحت القشة التى قصمت ظهر البعير .

وتوغلت أظافرها فى رفق فى ظهر يدى ثم قالت : أراهن أنك نمت معها فى السرير .

ـ لماذا أنت محبة للاستطلاع للغاية ؟

ـ لأن هناك أموراً كثيرة لا أعرفها عنك .

وسادت فترة من الصمت وبعدئذ قامت بتقبيل خدى وقالت "اننى أحاول فقط أن أعرف ما إذا كنت أقضى الليل مع خنزير منحط قاسى القلب أو مع ملاك مليىء بالرضوض والكدمات" .

وقبلتنى قبلة خفيفة أخرى . ثم انزلقت محررة نفسها من بين ذراعى وتحركت بجوار السرير . كانت الغرفة معتمة . لكن البرق ارتعش مرفرفا من خلال شيش النوافذ . وعلى مدى ومضة شاهدتها واقفة تقوم بخلع قميص نومها من فوق رأسها . فمددت يدى ثم جذبت ظهرها العارى إلى حجرى .

وتقابلت شفاهنا . ورحت أتجول فى أرجاء جسدها : البطن الملساء والشعر والردفين . كان باستطاعتى استخدام عشرات الأيدى وليس يدا واحدة .. لكى أجعلها طيعة وملكا لى . حددت مكان حجرى وبدأت تفك الازرار فى قميصى . ومع ومضة برق أخرى تمكن من مشاهدة التعبيرات على وجهها ــ نوع من الجدية فى اصرار شديد مثل طفلة تقوم بخلع ملابس دمية . وخلعت عن جسدى السترة والقميص . شابكت يديها خلف رقبتى مثلما فى مياه البحر ، قلت : أنت أجمل شىء وقع نظرى عليه فى حياتى .

ـ أنت لا تستطيع مشاهدتى . .

وانحيت وقبلت صدرها . ثم جذبتها إلى جسدى . كانت تضع نوعا من

العطر الغريب الذى يجمع مابين رائحة المسك ورائحة البرتقال . وبدا أنه يتلاءم مع شىء ما فى داخلها له الطابع الجنسى والبراءة فى آن واحد . بعد لحظات قليلة همست قائلة : دعنا نفتح شيش النافذة . فأنا أحب رائحة المطر .

وانزلقت لكى تفتح الشيش . وعندئذ قمت بسرعة بخلع باقى ثيابى وأمسكت بها لدى رجوعها من النافذة . وجعلتها تستدير وأمسكت بها فى إحكام من الخلف . كنا نقف بينما الأمطار تنهمر على مسافة ثلاثة أقدام منا على شكل حائط بارد من الهواء المظلم . رحت أربت على بطنها الصغير . فأدرات رأسها قليلا ثم وضعتها على كرسى أسفل النافذة . ثم أمسكت بيدى الأخرى ، ظلت فى سلبية تامة متيحة لى الفرصة لكى أثيرها . كأن المطر هو عشيقها الحقيقى وكذلك الليل . قفزت طرطشات قليلة من الأمطار من قاعدة النافذة على يدى السفلية وعلى بشرتها . همست قائلاً : أتمنى لو استطعنا الخروج إلى الطبيعة لكى نخوض غمار المعركة . إلتوى فمها لكى تقبلنى ، لكن يديها عثرت على يدى مرة أخرى وضغطت عليهما لكى تبقيهما فى مكانهما . كان العالم الحقيقى الوحيد هو جسدها . أمسكت بيدى ووضعتهما على بطنها سألتها : أهناك شىء ما خاطىء :
- أنت إنسان شرير .

استدارت الىّ وهى تدفق وجهها وقالت : حدثتنى عن الطريقة التى كنت تفضل أن تمارسها هى معك .

تذكرت قانون أورفى القديم : إن الفتيات يمتلكن لباقة جنسية بنسبة عكسية مع المستوى التعليمى لهن ، سألت : لماذا تريدين أن تعرفى ؟
- لأننى أريد أن أفعل ذلك لك .

ضممتها أكثر الىّ وقلت : أريدك على النحو الذى أنت عليه .

كان يبدو عليها شىء من العذرية لكنها ترغب فى أن تساق إلى ماهو أبعد من ذلك .

كان هناك المزيد من الضوء وقد خفت كثافة السحب بعض الشىء حيث تمكنت من مشاهدة الخطوط الخارجية لجولى .

كان المطر قد بدأ يخف ولكن طابع الهواء الطلق المصاحب للأمطار ،

ورائحة خزانات المياه . كانت تسود فى أرجاء الغرفة . وشاهدت المياه وهى تنساب فى خفية إلى أسفل حوائط مئات خزانات المياه بينما تعابين الماء فى حالة من الاثارة عند القاع ، ازدادت ابتسامتها . اقتربت منها . فنهضت وسحبت نفسها فوقى وعندئذ ساد الصمت باستثناء لغة الأجساد ، تظاهرت بأنها تتملكنى بل كما لو كانت ستذوب فى داخل كيانى . قمت بتحطيم تعويذة الصمت فتحركت هى واستلقت على ظهرها وقد رفعت ذراعا وألقت برأسها على جانب . أدركت أننى قد كسبت شيئا يزيد كثيراً على مجرد جسدها . ظللنا مستلقين لفترة قصيرة فى حالة اتصال بين طيات الصمت الشديد للمنزل . ثم انقلبت على بطنها . فرحت أربت على ظهرها . شعرت بموجة عارمة من الغبطة . اذ لم أكن أتوقع ذلك الأمر بهذه المشاركة العميقة ولم أكن أتوقع منها أن تكون دافئة على ذلك النحو . قلت لنفسى : إنه كان علىَّ أن أتوقع كل ذلك لأن أختها جين من النوع الذى يستمتع بذلك . لقد عبر جسدانا عن مشاعرهما . وكنت أدرك أنه بالمستطاع إنجاز ذلك الأمر على نحو أفضل .

رحنا نرقد فى صمت مطبق حيث لم نكن بحاجة إلى الكلمات . وظللنا على تلك الحال لمدة خمس دقائق . دفعت نفسها لأعلى . وانحنت علىَّ وقبلتنى قبلة سريعة . ثم وضعت وجهها على وجهى فى سحابة معلقة من شعرها بينما عيناها فوق عينى .

ركعت للوراء وتركت السرير ومدت يدها لكى تلتقط الكيمونو . كان ينبغى أن يكون رد فعلى أكثر سرعة ، خاصة بالنسبة لحركاتها الخاطفة وهى تلتقط ثوبها فلم أنتبه لذلك الشىء الغريب الذى ظهر فى صوتها وفى وجهها عندما كانت تنظر لأسفل نحوى . سألت : إلى أين أنت ذاهبة ؟

استدارت وهى تجرب الشريط القماش للكيمونو ونظرت نحوى . وأظن أنه كان لا يزال على وجهها بقايا ابتسامة خفيفة .

"إلى المحاكمة" .

إلى ماذا" ؟

وتداعت الأحداث بسرعة هائلة . اذ بدأت تتصرف على وجه السرعة قبل أن أتمكن من التعرف تماما على التغيير الذى طرأ على صوتها وهو تغيير يفيد بوضوح بأنه لا توجد أى براءة أو سذاجة فى صوتها .

"جولى" ؟

فاتجهت إلى الباب تاركة البرهة الدقيقة للممثلة قبل خط خروجها . قائلة : اسمى ليس جولى يانيقولاس . يؤسفنى أننا لا نستطيع أن نقدم الشعلات المتعارف عليها .

وفى هذه اللحظة جلست معتدلاً ــ شعلات . أى شعلات ــ ولكن قبل أن أتمكن من التفوه بكلمة قامت بفتح الباب على مصراعيه وخطت خارجة منه . وعندئذ غمرت الأنوار الغرفة .

(٥٩)

وكان هناك تدفق عنيف من الهياكل .

ثلاثة رجال . يرتدون بنطلونات داكنة وبلوزات سوداء لها رقبة عالية ضيقة تطوى حول العنق . دخلوا الغرفة بسرعة هائلة حتى أننى لم يكن لدى وقت لأن أفعل أى شىء سوى جذب مفرش السرير لكى أغطى الجزء الأسفل من جسدى بعد أن شعرت أن الشلل اجتاح كل شىء فى داخلى باستثناء الغريزة . كان قائد المجموعة هو جو الزنجى . ألقى بنفسه علىَّ فى نفس اللحظة التى كنت على وشك أن أصيح فيها مستغيثاً . وضغطت يده على فمى فى وحشية وشعرت أن قوته قد ألقت بى على ظهرى . ومن المؤكد أن واحدا من الآخرين قد أضاء المصباح المجاور للسرير . وشاهدت وجها آخر أعرفه : آخر مرة شاهدت فيها ذلك الوجه كان فوق سلسلة الجبال عندما كان صاحب ذلك الوجه يرتدى الزى العسكرى الألمانى ويقوم بدور أنطون . أما الوجه الثالث فإنه وجه البحار الذى شاهدته مرتين فى بورانى . وبينما أقاوم تحت جو حاولت أن أشاهد جولى ـ كنت لا أزال غير قادر على أن أتقبل أن هذا لم يكن كابوسا من نوع ما . كل ما لمحته كان مجرد ظهورها لدى مغادرتها الغرفة . وتقابل شخص ما معها هنالك ولف ذراعه حول كتفيها كما لو كانت قد أفلتت لتوها من كارثة طيران جوى وجذبها بعيداً عن الانظار .

بدأت أقاتل فى عنف ولكن كان من الواضح أنهم توقعوا ذلك حيث أحضروا معهم أنشوطات من الحبال . وفى أقل من نصف دقيقة تم وثاقى وإلقائى على وجهى . لا أعرف ما إذا كنت قد ظللت أصيح فيهم بأفحش الألفاظ ولكننى كنت بالتأكيد أفكر فى تلك الألفاظ . تم تكميمى . وألقى

شخص ما ملاءة السرير عليَّ . وحاولت أن ألوى رأسى لكى أشاهد الباب .

وظهر هيكل آخر فى الغرفة : إنه كونشيس . كان مرتديا ملابس سوداء مثل الآخرين . الشعلات . الشياطين . جهنم . تقدم ووقف أمامى ونظر نحو عينى المتفجرتين بالغضب نظرات خالية من أى تعبير . وقذفت بكل الكراهية الموجودة فى داخلى نحوه . وحاولت الاتيان بأصوات يمكن له أن يفهم معناها . رجع ذهنى إلى تلك الحادثة التى حدثت فى الحرب : غرفة فى نهاية الممر ورجل ملقى على ظهره وقد أزيلت أعضاؤه التناسلية . وبدأت عيناى تمتلىء بدموع الغضب والاذلال المليىء بالاحباط الشديد . وأدركت أخيرا الشكل الذى بدت عليه النظرة الأخيرة التى ألقتها جولى عليَّ . لقد كانت نظرة شبيهة بنظرة الجراح الذى انتهى توا من اجراء عمليته بنجاح وهو يقوم بخلع القفاز المطاطى ويرقب خياطة الجرح . المحاكمة . الشعلات . ألسنة اللهب . من المؤكد أنهم مجانين وهى أكثرهم شرا وصفاقة وانحلالا .

مد "أنطون" محفظة صغيرة فى اتجاه كونشيس منها محقنة للحقن بابرة تحت الجلد وتأكد أنها ممتلئة بالسائل بطريقة سليمة . ثم انحنى عليَّ قليلاً وعرضها عليَّ لكى أشاهدها . وقال : لن نتسبب فى إخافتك أكثر من ذلك أيها الشاب . لكننا نريد لك أن تستغرق فى النوم . ولسوف يكون ذلك أقل إيلاما لك . وأرجوك أن تلتزم بعدم المقاومة .

خطر على ذهنى كومة أوراق الامتحانات التى تتطلب أن أقوم بتصحيحها . وقام جو والرجل الآخر بقلبى على ظهرى مرة أخرى وأمسكا بذراعى اليسرى وكأنهما يستخدمان كماشة من الحديد . قاومتهما ثم استسلمت وأحسست بمسح بمنديل أو قطنة مبللة . وانغرست الابرة فى الجزء العلوى من ذراعى . وشعرت بالمورفين يدخل إلى جسدى . ثم تراجع كونشيس للوراء وراح يرقبنى ثم استدار ووضع المحقنة فى المحفظة الطبية السوداء التى أخذت منها .

حاولت أن أدرك ما ترديت إليه : عالم من أناس لا يعرفون أية قوانين أو أية حدود .

مخلوق أسطورى نصفه الأعلى بشرى والأسفل حيوانى وقد غُرس سهم فى قلبه . ربما مرت ثلاث دقائق . وبعدئذ ظهرت جولى فى مدخل الباب . لم

تنظر اليَّ . كانت مرتدية ملابس تشبه الرجال : قميص أسود وبنطلون أسود تأججت فى سخط شديد وأنا أتذكر أنها قد ارتدت نفس تلك الثياب خارج المدرسة . أدركت أن هذا كان مقررا له أن يحدث بعد أن حدثتهم أخيراً عما حدث لآليسون . تحركت جولى عبر الغرفة وكان شعرها مربوطا إلى الوراء ، راحت فى برود تفرغ الملابس من الدولاب الموجود فى ركن الغرفة وتضع الملابس فى حقيبة سفر . وبدأ رأسى يعوم . وبدأت الوجوه والأشياء وسقف الغرفة تتراجع . وإلى أسفل كان يوجد لغم أسود عميق . لغم من الصدمة وعدم الفهم والأعماق المضروبة للانتقام المستحيل .

(٦٠)

فقدت الاحساس بالزمن على مدى الأيام الخمسة التالية . وعندما استيقظت لأول مرة لم أعرف عدد الساعات التى انقضت . كنت أشعر بالعطش الشديد ومن المؤكد أن ذلك هو السبب الرئيسى الذى أدى إلى استيقاظى . أحسست بالدهشة البالغة لأننى وجدت نفسى مرتديا بيجامتى ولكن لست فى غرفتى بالمدرسة . أدركت أننى فى سرير فى البحر ولكننى لست فى زورق شراعى خفيف كنت فى المقصورة الأمامية الضيقة فى يخت . غير راغب فى التخلى عن النوم وغير راغب فى التفكير أو الاتيان بأى عمل باستثناء الارتماء فى أحضان النوم مرة أخرى . وتم تقديم كوب من الماء لى بمعرفة البحار وكان من الواضح أنه قد ظل منتظراً استيقاظى من النوم . كنت أشعر بالعطش الشديد حتى اضطررت لأن أشرب الماء رغم أننى قد أدركت أن لون الماء مكفهر على نحو يوحى بالشكوك . ومن المؤكد أننى رحت فى نوم عميق مرة أخرى .

ونفس هذا الاجراء حدث مرة أخرى . مرة واحدة أو مرتين . لست أعرف على وجه الدقة وفى ظروف مختلفة . وفى هذه المرة كنت فى غرفة وفى سرير ملائم . وكان الوقت دائماً بالليل حيث يوجد دائما الضوء الكهربائى والأصوات غير الواضحة المعالم وبعدئذ يحل الظلام .

ذات صباح ـ كان الوقت شبيها بالصباح ـ أيقظتنى الممرضة وجعلتنى أجلس على سريرى وأرتدى ملابسى وأتمشى داخل الغرفة جيئة وذهابا . وكان هناك رجل آخر لم أشاهده من قبل يقف عند الباب .

ظننت أننى حلمت به فى ضباب سديمى : صورة جدارية غير عادية

مسيطرة على الحائط المطلى باللون الأبيض والذى يواجه السرير . كانت الصورة عبارة عن هيكل أسود ضخم أكبر من الحجم الطبيعى . وهناك يد هزيلة تشير نحو مرآة معلقة على الحائط ، وتحثنى لكى أنظر إلى نفسى كى أفكر أننى يجب أن أموت . وكان باستطاعتى أن أدرك أن هذه الصورة رسمت منذ فترة قصيرة .

طُرق الباب . ظهر رجل ثالث . كان يحمل معه صينية عليها إبريق مليىء بالقهوَة . الجميلة الرائحة . رائحة أقرب إلى رائحة بن الجبل الأزرق . وكانت هناك فطائر هشة أسطوانية وزبد ومربى البرتقال والسفرجل وطبق به لحم خنزير وبيض . وعلى الرغم من هذه الظروف فانه كان من أجمل وجبات الإفطار التى تناولتها فى حياتى . كان يبدو علىَّ وكأننى بصدد الهلاك من شدة الجوع فأكلت كل ما بالصينية وشربت كل قطرة من القهوة وكان باستطاعتى تناول أضعاف تلك الكميات من الطعام والشراب .

قمت بعملية جرد للأشياء الموجودة . كنت ارتدى احد بلوفراتى . وأحد بنطلوناتى . وكان السقف المقوس هو سقف لخزان مياه تحت منزل . وهناك ضوء كهربائى . أما حقيبتى الصغيرة فواقفة فى ركن . وكانت سترتى معلقة فى شماعة بواسطة مسمار .

رحت أفتش فى حقيبتى فوجدت قميصا نظيفا و"تغييرة" من الملابس الداخلية وبنطلونا صيفيا . كما شاهدت ماكينة الحلاقة . وأطلت علىَّ من المرآة لحية لم تحلق منذ يومين على الأقل . كان وجهى غريبا . نظرت إلى هيكل الموت الموجود على الحائط فوقى . هيكل الموت . وزنزانة الموت والافطار الأخير التقليدى الذى يقدم قبل الوفاة : تنفيذ صورى بالاعدام كان يتعلق بالاذلال الوحيد الذى تركته لكى يعانى .

وخلف وتحت كل شىء كانت هناك الخيانة الشريرة التى لا يمكن اغتفارها خيانة لكل الغرائز البالغة النبل والسمو ترتكبها جولى ، أو ليلى ، أو أى اسم تندرج هى تحته . بدأت أفكر فيها على أنها ليلى مرة أخرى ربما لأن قناعها الأول قد بدا أكثر صدقا لأنه أكثر تزيفا من الأقنعة الأخرى . حاولت أن أتخيل حقيقتها . كان من الواضح أنها ممثلة شابة شديدة البراعة فى الخداع وتقوم بدور غير أخلاقى تماما بالاضافة إلى ذلك . ولا يمكن أن تتصرف أى فتاة على ذلك النحو إلا اذا كانت مومسا .

إنهما إثنتان من الفتيات المومسات . لأننى ذهبت فى تخميناتى إلى أن أختها جين أو روز ربما قد أعدت لتنفيذ ذلك الفصل الأخير البغيض البالغ السوء . وربما كانوا يريدون لى أن أتعرض للإذلال بشكل مضاعف .

كل قصصهم ورواياتهم كانت أكاذيب . إنها بمثابة الطعم الذى يستخدم فى صيد الأسماك . ومن المؤكد أنهم حرصوا ألا أتمكن من كشف ألاعيبهم بسهولة . وفى ومضة خاطفة شرسة خطر على ذهنى مايلى : أن كافة الخطابات التى جاءت إلىَّ بالجزيرة وكافة الخطابات التى أرسلتها إلى الخارج تمت قراءتها بمعرفتهم . أدركت أنهم عرفوا حقيقة آليسون كاملة . وعندما نصحنى كونشيس بالرجوع لكى أتزوجها فإنه كان يعرف بالتأكيد أنها قد ماتت . وغاص ذهنى فى شىء من الغثيان كما لو كنت قد ابتعدت عن حافة العالم . لقد شاهدت قصاصات مزورة من الصحف عن الأختين . ولذلك إذا كان الأمر مجرد قصاصات مزورة ذهبت إلى سترتى حيث وضعت خطاب آن تيلور . كان الخطاب لا يزال موجوداً . رحت أحملق فى الخطابات وفى القصاصات المرفقة به مع البحث عن أية علامة أو دليل يدل على أن كل شىء كان تلفيقا . لكن دون جدوى . وتذكرت المظروف الذى تركته فى غرفتى ولم أره لها والذى يوجد به حروف منقوشة بخط يد آليسون .

آليســـون

نظرت فى المرآة وحملقت فى عينى . وفجأة بدت أمانتها وعدم خيانتها ، وموتها الحقيقى الصادق ، بمثابة خطاف السفينة الأخير . لقد أصبحت الحياة كلها مؤامرة كبرى . وغصت مجاهداً فى أعماق الزمن لكى أمسك بآليسون ، ولكى أتمكن من الاسماك بجوهر آليسون الحقيقى المستتر إلى ما وراء كل قوى الحب والكراهية لديها وإلى ما وراء كل الفساد المتعلق بقوى الحب والكراهية . وتركت ذهنى يتجول فى طيات الجنون الذى لا يسبر له غور .

حملقت فى وجهى فى المرآة . انهم يحاولون دفعى إلى التعرض للجنون وإلى إجراء غسيل مخ لى بطريقة مذهلة . ولكننى تشبثت بالحقيقة بشىء ما داخل كيان آليسون . شىء ما شبيه بقطرة من الدموع .

لم تكن دموعى مسكوبة عليها فقط وإنما هى دموع الغضب من

كونشيس وليلى . فهما على يقين من أنها ماتت ومع ذلك كانا يستخدمان الاحتمال المثير للعذاب من أجل أن أتمرغ فى الألم والعذاب . ولكى يمارسا علىَّ ــ لسبب ما غير مفهوم وغير معقول ــ تجربة بالغة القسوة والانحطاط بهدف التوصل إلى مزيد من المعلومات الطبية .

جلست وأمسكت رأسى بيدى . وظلت شرائح متناثرة من الكلام الذى قالاه تقفز إلى ذهنى مع ظهور معان مزدوجة رهيبة ومع ظهور سخرية لاذاعة . كل عبارة قالها كونشيس أو ليلى كانت تتسم بالسخرية اللاذعة بما فى ذلك الحوار الأخير مع "جين" والذى تضمن معان مزدوجة بشكل واضح .

تواترت على ذهنى صور ليلى وتدفقت صور ليلى وهى فى مرحلة جولى . كما تدفقت لحظات من العاطفة القوية بما فى ذلك الاستسلام الكامل لجسدها وغير ذلك من لحظات أخرى تتسم بروح الود علاوة على لحظات تلقائية لا يمكنها أن تكون لحظات قد تدربت عليها مسبقاً وانما لحظات نبعت من اندماجها العميق فى الدور الذى كانت تؤديه . رجعت إلى تلك النظرية التى تفيد بأنها كانت تمثل دورها تحت التنويم المغناطيسى . ولكنها لم تكن نظرية معقولة .

ترامت ضجة من الخارج ثم فتح الباب . وجاء البحار والى خلفه ظهر أنطون . يرتدى أفرول طبيب أبيض اللون وبدون ياقة . وكان لصوته نغمة ألمانية يبدو وكأنه يقوم بالواجبات الروتينية اليومية . سأل : كيف حالك الآن ؟

فحملقت فيه وتحكمت فى مشاعرى وقلت : رائع للغاية . واستمتع بكل دقيقة تمر علىَّ . فنظر إلى صينية طعام الافطار وتساءل : أتحب أن تتناول المزيد من القهوة ؟

فأومأت برأسى. فأشار بيده إلى الرجل الذى قام بنقل الصينية إلى الخارج . وجلس أنطون على الكرسى الموجود بجوار المنضدة . واستند البحار الشاب على الباب . وإلى ما وراءه ظهر دهليز طويل وفى نهاية الدهليزمن الجهة اليمنى كانت هناك سلالم تؤدى إلى ضوء النهار . كان يعتبر خزانا كبيرا للغاية بالنسبة لمنزل خاص . وراح أنطون يرقبنى ورفضت أن أتكلم ولكننا جلسنا فى صمت لبعض الوقت . قال : "أنا

طبيب . وعليَّ أن افحصك" . هل تشعر أن حالتك ليست سيئة للغاية ؟

فاستندت إلى الوراء على الحائط وحملقت فى وجهه . فلوح بأصبعه فى توبيخ وتبكيت : أجب عليَّ لو سمحت .

فصرخت قائلاً : اننى استمتع بهذا الاذلال الذى ينصب عليَّ . ويسعدنى أن أحصل على فتاة . وأن أطأ بقدمى على اللياقة الإنسانية . وفى كل مرة يخبرنى فيها هذا العجوز الأفاق بكذبة أخرى أشعر بالغبطة الهائلة تسرى فى كيانى . والآن . أين أنا بحق الجحيم ؟

فأعطانى انطباعا بأن كلماتى لا معنى لها . ولا جدوى منها لأن مهمته هى مراقبة سلوكى . ثم قال فى بطء : حسنا . هاأنت قد استيقظت .

تساءلت : اين تلك الفتاة المومس ؟

فبدا كأنه لم يفهم . فأضفت قائلاً : ليلى . جولى . مهما يكون اسمها .

فابتسم وقال : كلمة مومس .. بمعنى عاهرة ؟

فأغلقت عينى . كان الصداع قد بدأ يزحف على رأسى . وكان عليَّ أن أحافظ على هدوئى ورباطة جأشي والتفت الرجل الواقف عند الباب وظهر الرجل الثانى أسفل السلم البعيد حاملا صينية . وقام أنطون بصب القهوة فى فنجان من أجلى ثم فى فنجان وقام أنطون بابتلاع قهوته على وجه السرعة . وقال : ياصديقي . أنت مخطيء فى رأيك . فهى فتاة طيبة . وشديدة الذكاء . وشجاعة للغاية .

ـ كل ما ينبغى أن أقوله أننى عندما أخرج من هنا سأخلق لكم جميعا جحيماً دمويا .

فرفع يده فى تهدئة وفى شيء من العفو عنى . وقال : ذهنك ليس على مايرام . فلقد أعطيناك الكثير من العقاقير فى هذه الأيام الأخيرة .

فأخذت نفسا عميقا : ما عدد هذه الأيام الأخيرة ؟

ـ نحن الآن فى يوم الأحد .

ثلاثة أيام ضائعة تماما : تذكرت أوراق الامتحان اللعينة . والمدرسة بأكملها لا يمكن أن تكون متواطئة مع كونشيس . إن شناعة الإساءة هى

التى أربكتنى على نحو يفوق كثيراً الآثار الناجمة عن العقاقير التى أعطيت لى . لقد تمكنوا من تحطيم القوانين وتحطيم وظيفتى وكل شىء من شأنه أن يجعل العالم مألوفا ومتعارفا عليه وصالحا للاقامة فيه وموحيا بالتكيف مع البيئة . كان ذلك بمثابة تنكر لما فهمته عن عالم كونشيس . رحت أحملق فى آنطون . ثم قلت : أعتقد أن كل هذا يعتبر مزاحا مألوفا عندكم أيها الألمان .

ـ أننى سويسرى . وعلى فكرة .. أود أن أقول لك أن والدتى يهودية .

كان حاجبا عينيه كثيفين للغاية وعلى هيئة خصلات شعر من الفحم النباتى . وكانت عيناه تموجان بالتسلية . وتناولت فى جرعات كبيرة الكميات المتبقية من القهوة فى فنجانى . ثم ألقيت بالفنجان الشاغر فى وجهه . فلوث الفنجان معطفه الأبيض ببعض البقع . فاستخرج منديلاً من جيبه ومسح وجهه ، وقال كلاما للرجل الموجود بجواره . لم تظهر مشاعر الغضب على وجهه واكتفى بهز كتفيه ثم ألقى نظرة على ساعة يده وقال : الساعة الآن العاشرة و ٣٨ دقيقة . واليوم سنعقد المحاكمة وعليك أن تكون يقظا .

ـ المحاكمة ؟

ـ فى خلال فترة قصيرة للغاية نذهب للمحاكمة وأنت سوف تحكم علينا . سوف تصدر حكما علينا .

ـ أصدر حكما عليكم !

ـ نعم . أنت تظن أن هذا المكان شبيه بالسجن . إنه ليس سجنا على الاطلاق . إنه مكان يشبه .. ماذا تسمون الحجرة التى يعيش فيها القاضى ؟

ـ الغرفة ، لسوف يكون هناك عدد كبير من الناس .

"فحملقت فى وجهه . وقلت "من الأفضل أن يكون هناك عدد كبير من الناس" .

فأيد وجهة نظرى . ثم أومأ برأسه نحو الرجل الأشقر . وقال : آدم سيعود إليك بعد عشرين دقيقة لكى يقوم بتجهيزك .

ـ تجهيزى ؟

ـ إنها مسألة بسيطة للغاية . فنحن لدينا كتاب طقوس صغير . وهو لا

يشكل أهمية بالنسبة لك . وبالنسبة لنا .

ـ لنا ؟

ـ سوف تفهم كل شيء وتمنيت لو أبقيت كمية كبيرة من القهوة لكى ألقيها عليه . ابتسم ، ثم انحنى وخرج . وقام الشخصان الآخران بغلق الباب ثم سمعت صوت الترباس . فرحت أحملق فى الهيكل الموجود على الحائط . وفى طريقته التى تتسم بتحضير الأرواح والسحر بدا عليه وكأنه يقول نفس الكلام : حالا وفى وقت قصير للغاية لسوف تفهم . كل شيء .

(٦١)

بعد مرور عشرين دقيقة بالضبط ، عاد الرجلان إلى الزنزانة مثلما حدث من قبل . جعلتهما الملابس السوداء يبدوان أكثر فاشستية مما كان عليه من قبل . ولم يكن هناك شيء ما يتسم بالوحشية فى وجهيهما بصفة خاصة . ووقف آدم الأشقر أمامى وقد أمسك بيده حقيبة صغيرة غريبة الشكل . قال : أرجوك .. ألا تقاوم .

ثم وضع الحقيبة الصغيرة على المنضدة ثم استخرج منها إثنين من الكلبشات . فمددت معصمى يدى فى استخفاف وسمحت لنفسى بأن يتم ربطى مع الشخصين الآخرين الموجودين إلى جوارى . ثم قام باستخراج كمامة للفم سوداء اللون وغريبة الشكل ومصنوعة من المطاط . كمامة مقعرة لها نتوء سميك بحيث يقوم المرء بالعض على هذا النتوء . وقال : لو سمحت .. سألبسك هذه الكمامة . ولن تصاب بأى أذى .

أصابنى التردد للحظات . كنت قد قررت ألا أقاتل مع الاحتفاظ بالهدوء وانتظار اللحظة المناسبة التى أتمكن فيها من الحاق الأذى بشخص أرغب فى إيذائه بالفعل ومد الكمامة المطاطية فهززت كتفى فى لامبالاة . شعرت بطعم مادة معقمة . وقام آدم بربط شرائط الكمامة إلى الوراء فى مهارة بالغة . ثم قام بلصق أطراف الكمامة على بشرتى . وعندئذ تمنيت لو كنت قد حلقت ذقنى .

وأدهشتنى الحركة التالية . اذ ركع آدم وشمر رجل بنطلونى اليمنى إلى مافوق الركبة وثبت البنطلون برباط مرن . وطلب منى الوقوف مرة أخرى ثم نبهنى بحركة لكى لا أصاب بالفزع وقام بجذب السويتر للوراء من فوق

رأسى وأنزله لأسفل إلى أن أصبح معلقا من معصمى ورائى . ثم قام بفك ازرار قميصى . وألقى بالجانب الأيسر من القميص إلى الوراء إلى أن أصبح كتفى عاريا . ثم استخرج أشرطة بيضاء فى كل منها حلية من الحرير الأحمر . وربط شريطاً منها حول الجزء الأعلى من بطن ساقى اليمنى وربط شريطا آخر تحت إبط ذراعى وفوق الكتف العارى . وبعدئذ قام بتثبيت دائرة سوداء يبلغ قطرها حوالى ٢ بوصة فى منتصف جبهتى . ثم قام بوضع حقيبة فضفاضة سوداء فوق رأسى . تزايدت رغبتى فى المقاومة الا أن الفرصة كانت قد مرت . وانطلقنا . وكانت هناك يد فوق كلتى ذراعى .

وقاما بإيقافى فى نهاية الدهليز وقال آدم : سنذهب إلى الطابق الأعلى .

صعدت على أصابع قدمى كان باستطاعتى الإحساس بالشمس على بشرتى العارية ، وخيل إلىَّ أننى شممت رائحة البحر ولكننى لم أكن واثقا من ذلك . وتوقعت أن أشعر بحائط وراء ظهرى وأن أجد نفسى أمام فرقة عسكرية لاطلاق النيران علىَّ . ولكنهما أوقفانى عن السير مرة أخرى وقال صوت : "إلى الطابق الأسفل الآن" . وأعطيانى متسعا من الوقت لكى أنجح فى العثور على السلم . وأصبح الهواء أكثر برودة . أدركت من خلال إصدار الصوت أننا دخلنا غرفة كبيرة . كما كانت هناك رائحة منذرة بالشؤم لخشب يحترق . وتم إيقافى . ثم قام شخص ما بجذب الحقيبة عن رأسى .

كنت قد توقعت أن أشاهد أناساً . ولكننى كنت بمفردى مع الحارسين فى إحدى أطراف غرفة ضخمة تحت الأرض . غرفة تشبه خزانا هائلاً يصل حجمها إلى حجم كنيسة صغيرة . تذكرت أننى سبق أن شاهدت غرفة مشابهة لها فى بيلوس . ونظرت لأعلى وشاهدت فتحتين تشبهان فتحات المداخن .

وفى الطرف البعيد كان يوجد منبر صغير . عليه عرش . وفى مواجهة العرش توجد ثلاث مناضد طويلة بجوار بعضها فى شكل هلال منبسط وعليها مفرش أسود اللون . وخلف هذه المنضدة ١٢ كرسياً أسود مع وجود مكان شاغر للكرسى رقم ١٣ فى المنتصف .

وكان هناك شىء غريب للغاية فى قاعة المحكمة هذه . فالضوء الذى

شاهدت به المحكمة يترامى من سلسلة من الجمرات المتوهجة التى كانت تحترق على طول الحوائط الجانبية . ولكن فى كل ركن من الأركان الموجودة وراء العرش هناك وابل من آلات تسليط الأشعة الضوئية . مصوبة نحو المنضدة الهلالية الشكل ، أن كابلاتها يكتنف الغرفة . ولم تكن الغرفة شبيهة بمحكمة العدل وانما كانت شبيهة بمحكمة الظلم واللاعدل .

دفعت لكى أتقدم فى السير . وتخطينا المنضدة الهلالية الشكل واتجهنا نحو العرش . وبمجرد أن جلست على العرش تم فك الكلابشات . ونظرت لأسفل . كان العرش مربوطا فى احكام مع المنبر عن طريق أذرع وركائز متينة . وغمغمت من خلال الكمامة ولكن آدم هز رأسه . كان علىَّ أن ألاحظ وليس لى أن أتكلم . واتخذ الحارسان الآخران موقعيهما خلف العرش . وقام آدم بفحص الكلابشات وجذب القميص الذى حاولت أن ألقى به على كتفى الأيسر . ثم استدار ملتفتا ثم انحنى انحناءة خفيفة ودار حول المنضدة ثم خرج من الباب .

رحت أنظر فى أرجاء الغرفة . كانت هناك شعارات تصوفية يهودية . وعلى الحائط الذى يقع إلى يمينى يوجد صليب أسود . ليس الصليب المسيحى لأن قمة الدعامة العمودية كانت منتفخة وعلى هيئة كمثرى معكوسة . وإلى اليسار وفى مواجهة الصليب توجد وردة .

وعند الطرف البعيد وفوق الباب الكبير هناك رسم باللون الأسود ليد مقطوعة عند المعصم مع اتجاه الاصبع السبابة والاصبع البنصر فى اشارة لأعلى بينما الاصبعان الموجودان فى الوسط يضغطان لأسفل على الاصبع الابهام . وكانت الغرفة بها الرائحة النتنة للطقوس الدينية . وكنت أدرك أن منظرى يبدو مثيرا للسخرية بسبب وجود تلك العين السوداء على جبهتى ووجود الأشرطة البيضاء والحليات الحريرية الملونة . ولكن كان علىَّ أن أبتكر طريقة لكى أبدو غير مثير للسخرية .

وبعدئذ تقافز قلبى مهتزا فى عنف . فعلى نحو فجائى ظهر "هيرن الصياد" آله نيوليتى من العصر الحجرى . وكان أسود مثيرا للقشعريرة . رجل له رأس ظبى . إنه عملاق على هيئة لا يمكن للمرء أن ينساها وكانت خطوطه الخارجية منعكسة على الحائط المطلية باللون الأبيض والمضاءة إضاءة خافتة وهى حائط الدهليز الواقع إلى الوراء . وكانت القرون ضخمة

وهائلة وفى نفس سواد أغصان شجرة اللوز وعديدة السنون الشوكية . كان الرجل غارقا فى السواد من قمة رأسه إلى إخمص قدميه ولا يظهر أى شىء باللون الأبيض سوى العينين وفتحتى أنفه . وفرض هذا الرجل وجوده علىَّ ثم تقدم فى بطء ماشيا فى الغرفة نحو المنضدة . ثم تحرك نحو أقصى الطرف الأيسر . وأدركت أنه مضطر أن يتحرك فى بطء لأن القناع كان غير محكم حيث كان كبيراً للغاية .

الخوف الذى أحسست به هو نفس الخوف القديم . إنه الخوف من الباعث المستتر وراء المظهر . ولم يكن القناع هو الشىء الذى خفت منه لأننا فى قرننا هذا تعودنا كثيراً من خلال قصص الخيال العلمى وأصبحنا واثقين تماما من الحقائق العلمية بحيث لم نعد نشعر بالخوف من الأمور الخارقة للطبيعة مرة أخرى . ولكننا نخاف من الأمور الكامنة وراء القناع .

وظهر هيكل آخر ، فى هذه المرة كانت القادمة امرأة . ترتدى الزى التقليدى الانجليزى للساحرة . تلبس قبعة سوداء ذات حافة صلبة مثبتة فى مقدمتها . ذات شعر أبيض طويل ومريلة حمراء وعباءة سوداء وقناعا مليئا بالحقد والضغينة . وكان لها أنف شبيه بالمنقار . سارت فى عرج ومنحنية الظهر إلى الطرف الأيمن من المنضدة ووضعت القطة التى تحملها فوق المنضدة . كانت القطة ميتة ومحشوة فى وضع الجلوس . وكانت عينا القطة الزجاجيتين مثبتتين علىَّ .

ثم هيكل آخر مزعج : رجل له رأس تمساح ـــ قناع غير مألوف ناتىء للأمام وله ملامح زنجية أكثر من أى شىء آخر مع وجود أسنان بيضاء شرسة وعينين جاحظتين . اتجه بسرعة إلى مكانه بجوار الرجل الظبى كما لو كان الشخص الذى يرتدى ذلك القناع لا يشعر بالارتياح فى ذلك الزى وغير معتاد على مثل هذه المناظر .

ثم جاء هيكل لذكر أكثر قصرا : رأس كبير بشكل غير طبيعى به أسنان بيضاء على شكل كعوب فى ابتسامة وحشية . وبدت عيناه كأنهما مدفونتان فى محجرين عميقين أسودين . وحول قمة رأسه توجد أهداب هائلة . وكان هذا الرجل يرتدى عباءة سوداء اللون ويشبه المكسيكيين .

ثم ظهر هيكل أنثوى آخر . احسست أنها ليلى . انها مصاصة الدماء المجنحة . رأس خفاش به أذنان ومغلف فى فراء أسود اللون وسنتان

طويلتان . وفى أسفل خصرها ترتدى جونلة سوداء . اتجهت بسرعة إلى مكانها بجوار التمساح . جاء الهيكل التالى كان إفريقيا مرعبا . بدا قناع الرأس مصنوعا من الخرق البالية مع وجود ثلاث ريشات بيضاء في القمة وعينين هائلتين . وبدا ذلك الهيكل بدون ذراعين وبدون ساقين بل وغير محدد من حيث الذكورة أو الانوثة . اتجه للأمام ليتخذ مكانه بجوار مصاصة الدماء . ولكى ينضم إلى كوراس الحملقات الغامضة .

اما الرجل الذى جاء بعد ذلك على النقيض من سابقيه ، حيث كان يتسم أساساً باللون الأبيض . وعلى هيئة هيكل عظمى لمهرج تقشعر منه الأبدان . إنه بمثابة صدى للرسم الموجود على حائط الزنزانة الخاصة بى . وكان قناعه على شكل جمجمة . وله مشية ناشفة عظيمة . ثم ظهرت شخصية أكثر شذوذا وغرابة . لقد كان امرأة . ولذلك بدأت أشك فيما اذا كانت مصاصة الدماء هى ليلى . وسار ذلك الهيكل للأمام فى بطء بينما يدها اليسرى تساند بطنها المنتفخ بالحمل البالغ ثمانية شهور وقد وضعت يدها اليمنى بين الثديين . وكان رأسها الأبيض الشبيه بالمنقار . بدت المرأة/ السمكة / الطائر جميلة ورقيقة على نحو غريب بالمقارنة بالتهافت والتهديد الذى تتسم به الهياكل الأخرى . وتبقت أربعة أماكن .

وكان الهيكل التالى يكاد يكون صديقا قديما . أنه رأس ابن آوى . كان متيقظا ومليئا بالشرور . وسار بخطوات واسعة إلى مكانه فى مشية زنجية . رجل فى عباءة سوداء مكتوب عليها رموز خاصة بالتنجيم والكيمياء باللون الأبيض . يرتدى قبعة لها قمة يبلغ ارتفاعها ياردة ولها حافة بشعة يتدلى منها غطاء للرقبة أسود . يمسك بعصا طويلة تعلوها دائرة عبارة عن ثعبان ممسك بذيله فى فمه . وتعرفت على شخصيته . وكان باستطاعتى مشاهدة العينين اللامعتين والفم المتصلب اللدود .

وظل هناك مكانان شاغران فى الوسط ومرت فترة من التوقف . وحملق صف الهياكل الموجود وراء المنضدة لأعلى نحوى بدون حركة وفى صمت مطبق تام . نظرت إلى حراسى الذين كانوا ينظرون أمامهم مثل الجنود . ثم هززت كتفى .

وظهر أربعة رجال فى الدهليز يحملون عربة سوداء بدون عجلات شبيهة بتابوت منتصب القامة . وشاهدت ستائر مسدلة على جوانبها وفى

المقدمة . وعلى اللوحة الأمامية كان قد دهن باللون الأبيض نفس الشعار الموجود فوق عرشى . على هيئة عجلة ذات الأشعة الثمانية .

وكان الأشخاص الأربعة الذين يحملون الكرسى يرتدون أثوابا نسائية فضفاضة . وعلى رؤوسهم أقنعة شاذة مشوهة للخلقة ـ أوجه ساحرات . ويرتفع من فوق تاج كل رأس صلبان عمودية .

لم يصلوا مباشرة إلى وسط المنضدة ولكنهم حملوا التابوت . وداروا به أمام عرشى حتى يمكننى أن أشاهد رموز آله القمر الموجودة على اللوحات ثم واصلوا سيرهم نحو الباب إلى المنضدة .

ثم ظهر الهيكل الثالث عشر . وعلى النقيض من الآخرين كان يرتدى ثوبا نسائيا فضفاضا طويلاً أبيض كهنوتيا . وكانت الزخرفة الوحيدة فى ذلك الثوب تتمثل فى الشرائط السوداء الموجودة حول الكمين الفضفاضيين . كان يحمل عصا سوداء فى يديه المغلفتين بقفاز أحمر اللون . وكانت رأسه هى رأس جدْى حقيقية يرتديها كنوع من الطاقية . قرنان هائلان ملقان إلى الوراء ضاع منهما لونهما الطبيعى . وعينان زجاجيتان لهما لون الكهرمان . والزينة الوحيدة تتمثل فى شمعة ممتلئة وذات لون أحمر كالدماء كانت الشمعة مثبتة بين القرنين . تمنيت لو استطعت أن أتكلم لأننى فى مسيس الحاجة إلى فضح وكشف الناس على حقيقتهم . ولكن كل ما استطعت أن أفعله أن أظهر بخلاف ما أبطن .

وتقدم الهيكل ـ الجدْى للأمام فى مهابة فاستجمعت قواى لمواجهة الأحداث : اذ كان من المتوقع إقامة قداس أسود . وربما كان من المقرر أن تتحول المنضدة إلى الهيكل للكنيسة . وحملق الصف الطويل من الدميات الكرنفالية نحوى . فحملقت بدورى فى ذلك الصف الطويل : الشيطان / الظبى والشيطان / التمساح والشيطانة مصاصة الدماء والمرأة / الطائر والساحر والكرسى / النعش والهيكل العظمى / المهرج والدمية / الغلة والساحر . ووجدت نفسى أنظر فيما حولى نحو حراسى الغامضين . وبدأت أشعر بالآلام الناجمة عن الكمامة الموضوعة على فمى . فى نهاية الأمر اكتشفت أنه من المريح لى أن أحملق لأسفل المنبر .

ومثلما يفعل الممثلون على نحو فجائى لدى خروجهم من المسرح قام صف الهياكل الموجود أمامى بإزالة أقنعتهم وخلع عباءاتهم . واستدار

الرجال ذوو الرؤوس المتقاطعة وحملوا الشعلات وساروا نحو الباب . ثم اضطروا للانتظار بسبب ظهور مجموعة من الشباب يصل عددهم إلى عشرين فردا ويرتدون ملابس عادية . وبعضهم يحمل كتبا وملفات . وقد التزموا بالصمت واتخذوا أماكنهم بسرعة على المقاعد الجانبية التى تقع إلى يمينى . ثم اختفى حاملوا الشعلات . فنظرت إلى القادمين الجدد ـ إنهم من الألمان . كان الذكاء يطل من وجوههم . من بينهم ثلاث فتيات . تعرفت على اثنين من الرجال سبق أن شاهدتهما .

وآخر رجل وصل إلى القاعة وهو الذى له رأس جدْى ، إنه عجوز ذو لحية بيضاء . كان شبيها بالسنادج . شاهدته يبتسم لكونشيس الساحر الموجود إلى جواره . وفى المكان الذى يلى كونشيس ظهرت امرأة رشيقة متوسطة العمر عقب إزالة رأس الطائر والبطن الحامل . يبدو أنها تشتغل بالأعمال التجارية . وكان جو الذى كان يرتدى رأس ابن آوى مرتديا حلة داكنة . وظهر آنطون على نحو مثير للدهشة من خلف زى الهيكل العظمى . أما دمية القمح فكانت ماريا . والرأس الأزئيقى كان للكولونيل الألمانى أو هو فميل الزائف . أما مصاصة الدماء فلم تكن ليلى وانما أختها حيث بدا معصمها خاليا من الندبة الغائرة . اما التمساح فهو فى أواخر العشرينات له لحية رفيعة . أما رأس / الظبى فكان رجلاً لا أعرفه . يبلغ من العمر حوالى أربعين عاما . وكانت بشرته مكتسبة اللون الأسمر الناجم عن التعرض للشمس .

وتبقت بعد ذلك الساحرة إنها ليلى . ترتدى فستانا من الصوف أبيض . شاهدتها وهى تربت على شعرها ثم ترتدى نظارتها . وانحنت لكى تتمكن من سماع كلام ما كان يهمس به "الكولونيل" الجالس إلى جوارها . وأومأت برأسها ثم فتحت الملف الموجود أمامها .

لم يكن هناك سوى شخص واحد لم يكشف النقاب عنه : إنه الشخص المتواجد فى التابوت . كنت أجلس فى مواجهة منضدة تضم أناسا لهم أشكال مألوفة تماماً . كانوا جالسين يفحصون ملفاتهم وبدأوا ينظرون الىَّ . كان الاهتمام يطل من وجوههم . حملقت فى وجه جين / روز فنظرت إلىَّ بدون أن تظهر أية تعبيرات على وجهها كما لو كنت تمثالاً من الشمع . أما ليلى فعندما نظرت الىَّ لم يبد أى شىء فى عينيها . كان موقعها يوحى بأنها عضو له أهمية قليلة فى لجنة تحقيق .

وأخيرا نهض العجوز ذو اللحية مشذبة فتوقفت الهمهمة . وشاهدت بعض "الطلبة" وقد وضعوا كشاكيل مفتوحة على حجرهم إستعداداً للبدء فى الكتابة . وحملق العجوز نحوى من خلال نظارته ثم أومأ برأسه منحنيا . قائلا :

ـ ياسيد أورفى . من المؤكد أنك توصلت فى استنتاجاتك أنك وقعت فى أيدى رجال مجانين ساديين . وأعتقد أن أول مهمة أقوم بها هى ان اعرفك عليهم . لكن علينا أولاً أن نعيدك إلى حالتك الطبيعية مثلما أعدنا أنفسنا .

وأومأ فى هدوء للحارسين . فراحا يفكان الشرائط البيضاء وأعادا ملابسى إلى وضعها الطبيعى على جسدى وأزالا الرقعة السوداء التى كانت ملصقة على جبهتى وقلبا إلى الوراء البلوفر الصوفى الخاص بى . بل وقاما بتسوية شعرى بالفرشاة ولكنهما تركا الكمامة على فمى .

ـ حسنا . والآن .. اذا سمحت لى فإننى سأقدم نفسى أولاً . أنا الدكتور فردريش المدير الحالى لمعهد علم النفس التجريبى التابع لجامعة ايداهو بأمريكا . وعلى يمينى يوجد الطبيب كونشيس من جامعة السوربون الذى تعرفه (فنهض كونشيس واقفا وانحنى لى انحناءة مقتضبة . فحملقت فيه) . وعلى يمينه توجد الدكتورة الطبيبة مارى ماركوس الأستاذة بجامعة أدنبره (فأمالت هذه المرأة التى يبدو عليها أنها تمارس مهنة الطب رأسها تحية لى) وعلى يمينها يوجد البرفسور ماريو سياردى الأستاذ فى ميلانو (فنهض واقفا وانحنى وهو رجل ضئيل ولطيف مثل ضفدعة) ، وبعده توجد مصممة الأزياء الشابة الفاتنة الموهوبة الآنسة مرجريت ماكسويل (ابتسمت "روز" ابتسامة هشة خاطفة) . وعلى يمين الآنسة ماكسويل يوجد السيد ينى كوتوبولوس . مدير مسرحنا . ثم هاهو أرنى هالبرشتدت الأستاذ بمسرح استكهولم وهو أستاذ فذ فى تحويل القصص إلى مسرحيات وأستاذ كبير فى الاخراج المسرحى ونحن جميعا مدينون له . فنحن كنا مجرد هواة فى الدراما الجديدة . بالكثير بسبب هذا النجاح العظيم .. لمشروعنا من حيث الاخراج والفتنة الجمالية .

استدار العجوز وقال : والآن ـ أنت تشاهد ـ على يسارى ـ صندوقا شاغرا . ولكننا نود ان ترى فيه إلهة عذراء لم يشاهدها أى واحد منا من قبل على الاطلاق . ونحن نسميها أشتاروث . واننى لواثق من أن خبرتك فى الأدب ستسمح لك بأن تخمن والمغزى الذى يستتر وراءها . وبعد

الصندوق يوجد الطبيب الدكتور جوزيف هاريسون المنتمى لقسمنا فى ايداهو والذى يليه هو الدكتور الطبيب هيزيش ماير الذى يعمل فى ڤيينا . ثم مدام كونشيس التى يعرفها الكثير منا على أنها الباحثة الموهوبة التى أعدت أبحاثاً عن تأثير الصدمات النفسية التى قد تؤدى إلى العصاب على الأطفال اللاجئين فى أوقات الحرب وأنا بالطبع أشير إلى الدكتورة أنيتا كازانيان الأستاذة بمعهد شيكاغو . وبعد مدام كونشيس يوجد ثورفالد الأستاذ بجامعة عالبورج وبعده توجد الدكتورة فانيسا ماكسويل . أعتقد أننا نشعر جميعاً أن نجاح الجانب الطبى من مشروعنا هذا الصيف يرجع إلى الدكتور ماكسويل .

اما الطلبة الذين تشاهدهم فهم طلبة دراسات عُليا نمساويون ينتمون لجامعة عالبورج .

ابتسم وراح يرتشف كوبا من الماء . وقال موجهاً كلامه الىَّ : حسنا . لذلك لعلك سيد اورنى قد عرفت سرنا الآن . فنحن مجموعة دولية من العلماء النفسيين ولقد كان لى شرف قيادة هذه المجموعة لأسباب تتعلق بأقدميتى فى الوظيفة . ولأسباب عديدة فإن مسار البحث يتطلب منا أن يكون لدينا أناس من غير المتطوعين . يتم اجراء تجربة عليهم . ونحن لسنا متفقين فى نظرياتنا عن السلوك بأى حال من الأحوال ولسنا متفقين من حيث مدارسنا العلمية المختلفة ولكننا متفقون من حيث النظر إلى طبيعة التجربة . أنا متأكد من أنك ـ عندما تتمكن من استجماع قواك فى هدوء ـ ستجد نفسك قادراً على استنتاج جزء على الأقل من قوانينا حول العلة والمعلول . لقد وضعناك خلال هذه الأيام الثلاثة الأخيرة فى حالة من فقدان الشعور تحت تأثير المخدرات والنتائج التى حصلنا عليها من ورائك . كانت بالغة الأهمية ولذلك فنحن نعبر عن تقديرنا من الحالة السوية التى ظهرت عليها أثناء جميع المتاهات وحالات الارباك والتشويش التى جعلناك تمر بها .

وعندئذ وقف جميع الحاضرين وصفقوا تصفيقا حادا . شعرت أننى لم أعد أستطيع السيطرة على أعصابى . وشاهدت ليلى وكونشيس يصفقان بأيديهما كما شاهدت الطلبة يصفقون . فرفعت رسغى لأعلى وأعطيت لهم علامة على شكل حرف V وعندئذ شعر العجوز بالحيرة لأنه استدار نحو

كونشيس لكى يسأله عن المعنى المستتر وراء هذه العلامة . التفت كونشيس إلى الطبيبة . فتكلمت بصوت قوى : هذه العلامة هى المعادل المرئى لبعض التعبيرات الكلامية مثل "أنت لوطى" .

ويبدو أن هذا التفسير قد أثار اهتمام العجوز . فقام بتكرار هذه الحركة وهو يرقب يده .

انحنى فميل / جورجنسين للأمام وقال فى لكنة قوية : هل هناك ارتباط بين هذه الحركة وبين الاشارة إلى حركة الزوج المخدوع أو زوج المرأة الفاسقة ؟

فقمت بثنى عضلاتى وحك ساقى فى بعضهما البعض وأرغمت نفسى على أن أظل عاقلاً لكى أتمكن من معرفة الأسباب التى تكمن وراء كل هذا من معرفة الأسباب التى تكمن وراء كل هذا الجنون . لم أستطع أن أصدق أنهم من علماء النفس لأنهم لا يمكن لهم أن يجازفوا باعطائى أسماءهم .

ومن ناحية أخرى فإنهم بارعون بالتأكيد فى ارتجال اللهجة الملائمة الخاصة بمهنتهم طالما أن الحركة التى قمت بها قد صدرت فجأة وبدون سابق إنذار . أم أنهم كانوا يتوقعون تلك الحركة من جانبى ؟ رحت أفكر بسرعة . كانوا بحاجة إلى مشاهدة هذه الحركة . لكى يبدءوا حوارهم . فهم عندما أظهروا إعجابهم بى عن طريق التصفيق . شعرت أننى مضطر لأن أعطى الإشارة . ومن هنا علىَّ أن أكون على حذر بحيث لا أفعل أى شىء بدون تدبر .

وقام العجوز بوضع حد للمناقشات . ثم استطرد قائلاً : ياسيد اورفى . إن الحركة المهمة التى قمت بها تقودنى إلى الهدف الذى نصبو إليه من وراء مقابلتنا معك هنا . ونحن ندرك أنك ممتلىء بمشاعر الغضب العميق إزاء بعضنا على الأقل . ولكن يقول الزميل الدكتور هاريسون "إن ما نؤمن أننا نتعيش عليه هو ما يهمنا بالدرجة الأولى" . ولذلك تجمعنا اليوم لكى نسمح لك بأن تقوم بالحكم علينا بدورك . وذلك هو السبب أننا وضعناك فى كرسى القاضى . ولقد قمنا باسكاتك ومنعك من الكلام لأن العدالة ينبغى أن تكون بكماء إلى أن يحين الوقت الملائم لاصدار الأحكام بعقوبة ما . ولكن قبل أن نسمع حكمك علينا ، عليك أن تسمح لنا بأن نقدم دليلا إضافيا "ضد" أنفسنا . والمبرر الحقيقى الذى دفعنا إلى ذلك هو مبرر علمى .

ولكننا جميعا متفقون أن متطلبات الممارسة الطبية الممتازة تمنعنا من تلمس مثل هذه الأعذار . وأنا أناشد الآن الدكتورة ماركوس أن تقرأ بصوت مرتفع ذلك الجزء من التقرير الذى أعددناه عنك كإنسان عادى .

فنهضت المرأة واقفة . كان عمرها يبلغ حوالى الخمسين وشعرها يميل إلى اللون الرمادى . وقالت : إن موضوع تجربتنا لعام ١٩٥٣ ينتمى إلى فئة مألوفة من الانطواء الذاتى الشبه ذهنى . ورغم أن نموذج شخصيته يعتبر ممتازا بالنسبة لأهدافنا الا أن هذا النموذج يخلو من الاهتمام الثانوى . فأهم ملامح حياته انها تخلو من المحتوى الاجتماعى والدوافع التى تحدد سلوكه تنبع من عقدة أوديب .

"هذا الشخص استغل من الناحية الجنسية والعاطفية عدداً من الفتيات الشابات وافترسهن . وكان سبيله إلى ذلك - وفقا لما أوردته الدكتورة ماكسويل - هو التركيز على شعوره بالوحدة القاتلة . وقصارى القول أنه كان يلعب دور الولد الصغير الذى يبحث عن أمه المفقودة . وهو بذلك كان يثير غرائز الأمومة المكبوتة داخل ضحاياه من الفتيات وكان يبادر إلى استغلالهن فى غير رأفة وبأسلوب أقرب إلى الزنا .

"والمخرج له من حالة القلق والانفصال الرئيسى الذى يعانى منه يتطلب منه أن يعطى لنفسه دور الثائر أو الخارج على القانون . وهو لا شعوريا يهدف من رواء السعى إلى هذه العزلة إلى العثور على مبرر يسوغ له افتراس النساء والانسحاب بعيداً عن أية جماعة تتحرك فى اتجاهات عدائية ضد احتياجاته الرئيسية المتعلقة بالانجذاب نحو الذات .

"وأسرة هذا الرجل وكذلك الطبقة الاجتماعية المغلقة التى ينتمى اليها والخلفية الوطنية القومية التى ينتمى اليها لم تساعد على حل مشكلاته . فهو يجيىء من أسرة عسكرية كان بها عدد كبير من المحرمات الناجمة عن النظام الأبوى الصارم . والطبقة الاجتماعية الخاصة به فى داخل بلاده وهى الطبقة الوسطى المهنية . وقد اشارت الدكتورة ماكسويل أن هذا الرجل قد قال : "كان علىَّ أن أعيش حياتين طوال فترة المراهقة التى مررت بها" . وهذا وصف جيد من جانب رجل علمانى للبواعث النفسية البيئية التى تؤدى فى النهاية إلى الفصام .

وبينما هى تتكلم كان الجالسون إلى المنضدة يصغون بطرقهم

المختلفة . اذ كان بعضهم ينظر إليها بينما آخرين غارقين فى التأمل فى المنضدة . وكانت ليلى تصغى فى انتباه شديد . وكان "الطلبة" يكتبون فى كراساتهم بعض الملاحظات . ولقد قضيت كل الوقت محملقا فى المرأة التى كانت تقرأ والتى لم تنظر إلىَّ ولو مرة واحدة على الاطلاق . شعرت بالغضب الشديد يتصاعد فى داخلى . وبالكراهية ازاء جميع هؤلاء الناس . كانت هناك بعض الحقائق فى الكلام الذى كانت تقوله ولكننى كنت أدرك أنه لم يكن هناك أى مبرر لمثل هذا التحليل العلنى حتى ولو كان ذلك التحليل يتسم بالصدق . كما لم يكن هناك أى مبرر لهذا السلوك الذى سلكته ليلى - لأن معظم "المادة العلمية" التى قام عليها التحليل قد استيقت من ليلى . فرحت أحملق فى وجهها ولكنها لم تنظر نحوى .

وراحت المرأة الأمريكية ترتشف ماء من كوب وسادت فترة من الصمت . وكان من الواضح أن التقرير لم ينته . واستطردت فى القراءة : ويوجد ملحقان . أحدهما ورد الينا من البرفسور سياردى وهذا هو نصه : "اننى أعارض الرأى القائل بأن هذا الشخص الذى أجرينا عليه التجربة هو إنسان بلا دلالة خارج نطاق تجربتنا . ففى رأيى أنه يمكن للمرء أن يتوقع فى خلال عشرين سنة فترة ازدهار كبير فى الغرب وهو أمر لا يكاد يتصوره أحد فى هذه الأيام . فاننى أتنبأ بأن الرجال الذين حرموا من ثدى الأم مثل هذا الرجل سيصبحون هم النموذج أو قاعدة السلوك فنحن بصدد الدخول فى عهد إباحى يكون فيه اشباع الذات على هيئة أجور مرتفعة ومساحة ممتدة من البضائع الاستهلاكية التى يمكن الحصول عليها أمراً متاحا للغالبية العظمى من الناس ان لم تكن متاحا لكافة الناس . وفى مثل هذا العهد فإن نموذج الشخصية سيصبح نموذجا يتسم بالاهاجة الذاتية . ومثل هذا الشخص سيصبح لأسباب اقتصادية معزولاً - عن الاتصال المباشر بشرور الحياة الإنسانية مثل الهلاك جوعا والفقر وعدم توفر الظروف المعيشية الملائمة وغير ذلك من شرور أخرى . فالإنسان الغربى بوصفه نوعا بيولوجيا سوف يصبح إنسانا انعزاليا . ورغم أن لدى قدر من التعاطف مع هذا الشخص من حيث هو زميل فى البشرية فإن ورطته ومأزقه تثيران اهتمامى باعتبارى عالم فى علم النفس الاجتماعى .

ثم وضعت المرأة الورقة على المنضدة والتقطت ورقة أخرى . "وهذا التذييل الثانى قد كتبته الدكتورة ماكسويل التى كانت لها أوثق العلاقات

الشخصية مع هذا الرجل . وهذا هو نص ما كتبته :

«فى رأيى أن أنانية هذا الرجل وعدم توافقه الاجتماعى قد تحددا عن طريق ماضيه وأى تقرير ننقله إليه ينبغى أن يشير إلى أن نواحى الاختلال فى شخصيته ترجع إلى ظروف خارجة عن إرادته . وقد لا يدرك هذا الرجل أننا نقوم بإعداد شرح إكلينيكى ولذلك فإن اتجاهنا ينبغى أن يتسم بالشفقة نحو شخصية كان عليها أن تخفى نقائصها تحت العديد من الأكاذيب التى يسوقها وعى . وينبغى أن نتذكر دائماً أن هذا الرجل الذى أطلق إلى هذا العالم كان تعليمه تعليما ضارا فهو ـ اذا جاز القول ـ قد ولد قصير النظر بطبيعته تم تعرض للمزيد من العمى عن طريق بيئاته . ولا عجب فى أنه لا يستطيع العثور على طريقه .

وجلست المرأة الأمريكية . وأومأ العجوز كأنه قد ابتهج وسر مما قيل . ونظر إلى ثم نظر إلى ليلى . وقال : أعتقد يا دكتورة ماكسويل أنه من المفيد لهذا الرجل ان نقوم بتكرار ما سبق أن قلته لى فى الليلة الماضية فيما يتعلق به» .

فأحنت ليلى رأسها ثم نهضت واقفة وتحدثت للآخرين ونظرت إلىَّ نظرة خاطفة كما لو كنت أنا بمثابة رسم بيانى مثبت على سبورة . «أثناء علاقاتى مع هذا الرجل مررت بدرجة معينة من التحول المضاد . ولقد قمت بتحليل هذا بمساعدة الدكتور ماركوس ونحن نعتقد أن هذا التعليق العاطفى يمكن تقسيمه إلى عنصرين . الأول نشأ عن جذبه جسمانيا وقد تعمق هذا العنصر من خلال الدور الذى كان علىَّ أن أؤديه . أما العنصر الثانى فقد كان تقمصا وجدانيا . والاشفاق على الذات لديه ينعكس على بيئته إلى الحد الذى يجعله متلوثا بواسطتها . .

فأومأ العجوز برأسه ثم نظر لأعلى نحوى وقال : «قد يبدو كل هذا قاسيا من وجهة نظرك . ولكننا نرغب فى عدم اخفاء أى شىء (وتكلم إلى ليلى) فيما يتعلق بالعنصر الأول وهو الجاذبية الجنسية نحوك فهل لك أن تصفى لهذا الرجل ولنا مشاعرك الحالية ؟

أعتقد أن هذا الرجل سيصبح زوجا غير ملائم للغاية باستثناء المشاركة فى النواحى الجنسية .

وتدخل الدكتور ماركوس متسائلا : هل لديه دوافع أساسية تتسم بتدمير

الحياة الزوجية ؟

- نعم : مثل الخيانة الزوجية ، الأنانية ، الجفاء وعدم الاهتمام بمشاعر الآخرين فى روتين الحياة اليومية . وربما بعض الانحرافات الجنسية وتساءل الرجل العجوز : «وهل يمكنه أن يتغير الموقف إذا حصل على تحليل ؟

من وجهة نظرى . لا .

فالتفت الرجل العجوز : وما رأى موريس ؟

فتكلم موريس . وهو يحملق فى وجهى : أعتقد أننا متفقون فى الرأى على أنه يدعو للاعجاب كمادة لإجراء أبحاثنا . فهو يمتلك خصائص ماسوشية بحيث أنه سيحصل على المتعة حتى من وراء مناقشاتنا لأخطائه . وفى رأيى أن المزيد بالاهتمام به ويعتبر أمراً غير ضرورى .

ونظر العجوز نحوى : اكتشفنا أنك مازلت متعلقا تعلقا شديدا بالدكتور ماكسويل . والبعض منا اهتم بمدى تأثير فقدان الفتاة الاسترالية عليك والذى نجم عنه - شعور عميق بالذنب وهو شعور فى اللاوعى كما اهتموا بما قد يكون قد أحدثه لديك الفقدان الثانى للهيكل الأسطورى المعروف تحت اسم «جولى» . فالنتيجة التى توصلنا اليها هى كالآتى : ان تعلقك باشباع الذات عميق للغاية بحيث لا يمكنك أن تقدم على أية محاولة للانتحار . ولذلك فنحن نحذرك من التردى إلى تلك المحاولة .

فأومات برأسى شاكراً فى تهكم ساخر . وقلت لنفسى : عليك بالتزام الوقار والتمسك بالقدر المتبقى من الوقار والرزانة .

فنظر الرجل إلى الجالسين إلى المنضدة وقال : والآن .. هل يرغب أحدكم فى ان يقول أى كلام آخر ؟ (فهزوا رؤوسهم جميعا) حسنا . لقد وصلنا إلى نهاية تجربتنا . نحن لم نخف رأينا فيك . ونظرا لأن هذه بمثابة محكمة فقد كنا بالطبع نقوم بدور الشهود ضد أنفسنا . فأنت القاضى ولقد حان الوقت الملائم لك لكى تحكم علينا . ولقد قمنا أولاً وقبل كل شىء باختيار كبش فداء» .

ونظر إلى يساره . فخلعت ليلى نظارتها وسارت خطوات حول المنضدة وجاءت ووقفت أمامى عند أسفل خطوات المنبر وقد أحنت رأسها بينما

رداؤها الصوفى الأبيض تشع منه دلائل القدم . وحتى هنا كنت غبيا إلى الحد الذى جعلنى أشاهد تطورا وهميا وخياليا .. زواجا صوريا .. نهاية سعيدة سخيفة .. ورحت أفكر فى تجهم فيما سأفعله اذا ما وصلت جرأتهم إلى محاولة تنفيذ ذلك . وقال : إنها سجينتك . ولكنك لا تستطيع أن تفعل بها ما تريد . لأن قانون العدالة الطبية الذى نحرص عليه يحدد نوعا من العقاب إزاء جريمة تحطيم كل قوى التسامح والعفو فى الشخص الذى نجرى عليه تجاربنا ثم استدار ملتفتا إلى آدم الذى كان يقف بالقرب من المدخل ذى الباكية وقال له «الجهاز» .

فنادى آدم بكلام ما فوقف الآخرون على جانب واحد . على هيئة مجموعة متماسكة فى مواجهة «الطلبة» مع وجود العجوز فى مقدمتهم ودخل إلى القاعة أربعة رجال مرتدين الزى الرسمى الأسود . وحركوا التابوت واثنتين من المناضد لكى يصبح وسط القاعة شاغرا وتم رفع المنضدة الثالثة لتصبح أمامى وبجوار ليلى . ثم غادر القاعة أثنان منهم وعادا يحملان إطاراً خشبيا ثقيلا به رفوف كتيفية مثل إطار الأبواب . وعلى ارتفاع سبعة أقدام لأعلى كانت هناك حلقات حديدية عند قمة القوائم العمودية . استدارت ليلى وسارت إلى المكان الذى وضعوا فيه الإطار الخشبى : ووقفت أمامه ورفعت ذراعيها لأعلى . وقام آدم بربط معصميها بالكلبشات فى الحلقات الحديدية ثم وضعت على رأسها خوذة من الجلد الناشف كنوع من الوقاية لقد كانت إطاراً من أجل أن يتم الضرب بالسوط .

لم أستطع مشاهدة الشىء الذى كان ممسكا آدم به ولكنه كان يطوح بذلك الشىء لدى مجيئه فى اتجاهى . هنا أدركت طبيعة الخدعة التى يلعبونها والتى لا يمكن تصديقها . إن مقبضا ناشفا فى نهايته مجموعة من السياط الطويلة ذات اللفائف المليئة بالعقد . وقام آدم بفك ثلاث عقد متشابكة ثم وضع هذا الشىء البالغ السوء على المنضدة جاعلا المقبض فى اتجاهى . ثم عاد إلى ليلى ـ كان كل شىء قدم التخطيط له فى عناية ليتم على هذا التتابع ـ وجذب لأسفل سستة ردائها الأسود حتى خصرها . بل وقام بفك عروة السوتيان ثم طوى السوتيان والرداء على جانب حتى يتم الكشف تماما عن ظهرها العارى . وتمكنت من مشاهدة الخطوط القرمزية الحمراء المُوجودة على بشرتها فى الأماكن التى كان شريط السوتيان يتقاطع عليها .

وبدأ العرق يتصبب فى يدى . وغرقت فى يأس مرير . فمع كونشيس دائما ما يغرق المرء فى هوة سحيقة ولا يستطيع الذهاب لمسافة أبعد تقدم العجوز مرة أخرى ووقف أمامى . قائلا : أنت تشاهد الآن كبش الفداء وتشاهد الأداة التى تستخدم فى توقيع العقاب . أنت الآن القاضى والجلاد فى آن واحد . ونحن جميعا هنا نكره المعاناة التى لا لزوم لها . عليك أن تتفهم الموقف عندما تفكر فى هذه الأحداث . نحن متفقون أن تكون هناك نقطة فى تجربتنا لك فيها مطلق الحرية بإنزال العقاب بنا وإصابتنا بالآلام البغيضة لقد قمنا باختيار الدكتورة ماكسويل لأنها ترمز إلى ما نحن عليه بالنسبة لك . والآن نطلب منك أن تفعل ما فعله الأباطرة الرومان بحيث ترفع إصبعك الإبهام لأعلى أو تخفضه لأسفل . فاذا قمت بخفض أصبعك لأسفل سيتم إطلاق سراحك لكى تقوم بتنفيذ العقاب بالوحشية والقسوة التى تريدها بحد أقصى عشر ضربات بالسياط فهذا العدد من الضربات يكفى لتحقيق أقصى المعاناة وتحقيق التشوية الدائم . وإذا رفعت أصبع إبهامك لأعلى معطيا علامة الرحمة فإنك سوف تتحرر من قبضتنا للأبد بخلاف عملية واحدة أخيرة تتعلق بازالة آثار التخدير وستكون لك مطلق الحرية إذا اخترت توقيع العقاب لأن هذا سيوضح لنا أيضا الاستكمال المرضى لازالة آثار المخدرات من جسدك . والآن أطلب منك مطلبا أخيرا : أن تفكر فى حرص شديد قبل أن تختار .

ولدى انطلاق إشارة ما غير مرئية نهض جميع الطلبة . وراح كل شخص بالقاعة يحملق فى وجهى . كنت أشعر أننى أرغب فى اتخاذ الاختيار الصحيح . اختيار الشىء الذى يجعلهم جميعا يتذكروننى . ويبرهن لهم أنهم جميعا مخطئون . كنت أدرك أننى لست قاضيا بالفعل . فمثل جميع القضاة كنت أنا الذى يحكم عليه فى الأمر . يحكم علىَّ من خلال الحكم الذى أصدره بنفسى .

أدركت أن الاختيار الذى عرضوه علىَّ كان سخيفا . فكل شىء قد وضع بحيث يجعل من المستحيل علىَّ أن أعاقب ليلى . كان العقاب الوحيد الذى أردت توقيعه عليها هو أن أجعلها تصبح طالبة العفو عنها لا أن يصرخ من شدة الآلام . أدركت أننى لو أشرت بابهامى لأسفل فإنهم سيتمكنون من إيقافى بطريقة ما . فالموقف بأكمله كان بمثابة مصيدة كان لدى الاحساس

بالغفران والدهشة البالغة فكيف تم إعداد وتجهيز كل هذا من أجلى أنا فقط .

وفى تردد وتفكير لما إذا كنت حرا فى الاختيار ومع إحساس بأننى متأكد أن هذا أمر غير متحكم فيه مسبقا أنزلت إصبع ابهامى لأسفل .

فحملق العجوز فى وجهى للحظات طويلة ثم أعطى إشارة للحارسين ورجع إلى المجموعة . وتم تحرير معصمى فنهضت واقفا ورحت أحكهما ثم مزقت الكمامة ونتف شريط الكمامة شعر ذقنى لدى نزع الكمامة كل ما استطعت أن أفعله أننى رحت أرمش بعينى بسبب الآلام .. لم يتحرك الحارسان . وأخذت احك البشرة حول فمى ثم نظرت فى أرجاء الغرفة . كانوا يتوقعون أن أتكلم لذلك قررت ألاَّ أتكلم .

نزلت هابطا على السلالم الخشبية والتقطت السوط وكنت قد توقعت إلى حد ما أن يكون هذا السوط من ممتلكات المسرح . ولكنه كان ثقيلا على نحو يدعو للدهشة . كان المقبض من الجلد المضفر فوق خشب وبدت الشرائط الجلدية وبالية أمام العقد فناشفة مثل الرصاصات . أنه سوط من النوع القديم . قطعة أثرية قديمة من ممتلكات البحرية الملكية منذ الحروب النابليونية . وعندما أمسكت بالسوط رحت أفكر . أن أكثر الحلول المتوقعة أنهم سيقومون باطفاء الأنوار وقد تحدث مشاجرة . وسيكون الرجال الأربعة وأدم عند الباب وسيصبح من المتعذر الهروب .

التقطت السوط ، وهبطت به لأسفل على المنضدة . فصدرت هسهسة وحشية . ولدى ارتطام شرائط السوط بسطح المنضدة صدر صوت شبيه بالطلق النارى الصادر عن بندقية . حيث قفز طالب أو إثنان فى أماكنهما لدى سماع الصوت . وشاهدت أحدهما ـ وكانت فتاة ـ تنظر بعيداً . الاَّ أن أحدا لم يقترب . دون أن أتوقع الوصول إليها .

ولكننى وصلت بالفعل ومع ذلك لم يتحرك أحد . وأصبحت فجأة على مسافة قصيرة تسمح لى بضربها وقفت كما لو كنت أقيس المسافة . مددت قدمى اليسرى للأمام واستدرت لكى أضرب . بل وأعطيت ذلك السوط الوحشى مسافة اختبار بسيطة حتى يمكن للشرائط أن تتلامس مع منتصف عنقها . وكان وجهها متواريا وراء جهاز الاضاءة . فألقيت بالسوط لأعلى وراء كتفى كما لو كنت سأهبط بكل قوتى على الظهر الأبيض اللون .

وتوقعت أن تدوى صيحة وأن أرى شخصا ما يندفع نحوى . الَّا أن أحدا لم يتحرك وأدركت أنه سبق السيف العزل وقد فات الاوان . بحيث لم يعد هناك أى شيء يمكنه أن يوقفنى سوى إطلاق رصاصة علىَّ . ونظرت فيما حولى متوقعا أن أشاهد بندقية . إلاّ أن الأحد عشر شخصا والحارسين و«الطلبة» وقفوا جميعا دون حراك .

عدت بنظرى إلى ليلى . كان هناك شيطان حقيقى داخل كيانى . فى داخلى ماركيز شرير يرغب فى أن يضرب ويشاهد العلامات الحمراء المبللة بالدماء تجتاز البشرة الرقيقة والهدف من وراء ذلك إصابتهم بالصدمة أكثر مما هو الحاق الأذى بها ، لكى يشعروا ببشاعة الأعمال التى مارسوها . لقد قالها «آنطون» . لقد قال : شجاعاً للغاية .. أدركت أنهم واثقون من أدبى الانجليزى الغبى فعلى الرغم من كل ما قالوه وعلى الرغم من كل السهام التى غرسوها فى احترامى لذاتى فإنهم واثقون أننى لن أهبط بالسوط ولو مرة واحدة طوال مائة الف عام . هنا هبطت بالسوط ببطء شديد . وحاولت ان أحدد ما اذا كان قد خطط لى مسبقا بحيث لا أفعل ذلك وأن ذلك . التخطيط تم بمعرفة كونشيس ولكننى كنت أدرك أن لدى حرية مطلقة فى «الاختيار . وأنه بمقدورى أن أفعل ذلك اذا أردت ثم فهمت فجأة أننى لم أكن ممسكا بسوط فى يدى فى خزان تحت الأرض ، وانما فى ميدان عمومى تغمره أشعة الشمس منذ عشرة سنوات وكنت ممسكا فى يدى بمدفع نصف آلى ألمانى . ولم يكن كونشيس الذى يلعب دور فميل . فقد كان فميل فى داخلى وفى ذراعى المتخشبة الملقاة إلى الوراء فى كل أرجاء الماضى الخاص بى وفوق كل ذلك فيما فعلته فى آليسون .

«كلما فهمت الحرية على نحو أفضل أصبحت أقل امتلاكا لها» .

وحريتى أيضا كانت متمثلة فى عدم الضرب مهما كان الثمن ومهما أدى ذلك إلى موت ثمانين جزءاً أخر منى ومهما كانت ظنون العيون التى ترقبنى .

كل مناورات كونشيس كانت من أجل أن توصلنى إلى هذا التصرف . كل هذه الفوازير الفيزيقية والجنسية ووقفت ، مثلما وقف هو من قبل أمام الفدائيين غير قادر على الانتحار باطلاق الرصاص على نفسه واكتشفت أن هناك أوقاتا غريبة للمطالبة برد القروض القديمة بل إن هناك ثمنا أكثر غرابة

ينبغى دفعه .

كنت أدرك أنهم ليسوا سوى ممثلين أن مهنتهم لا يمكنها أن تعبر من خلال الصمت عن صفات إنسانية معينة مثل الذكاء والخبرة والامانة الذهنية وأنهم لا يمكنهم أن المشاركة فى مثل هذا المشهد دون وجود حافز يفوق الأموال . مهما كانت النقود التى قدمها لهم كونشيس كبيرة للغاية . أحسست بأن هناك لحظة فهم بيننا جميعا ونوع غريب من الأحترام المتبادل . احترام من جانبهم لتوافقى مع ارائهم السرية فى شخصيتى . من جانبى لأننى أصبحت مقتنعا بعض الشىء بأننى دخلت فى مجتمع أكثر عمقا وحكمة وسرية وبينما كنت واقفا قريبا من الصمت الخاص باحد عشر شخصا وجوههم خالية من المشاعر العدائية بلا تنازل او تساهل . وجوه منفصلة عن الغضب الذى يعتمل فى داخلى .

استطعت مشاهدة ذلك فى عينى كونشيس . فهنالك شىء ما بالاضافة إلى الحرية تم اثباته والبرهنة عليه . ارتعشت مئات الأشياء فوق شفتى وفى داخل عقلى وماتت هنالك . وفجأة قفلت راجعا إلى «العرش» وشاهدت «الطلبة» يخرجون من القاعة ويفكون وثاق ليلى ساعدتها جين على ارتداء ملابسها وتم إزالة الإطار الخشبى . ولم يتبق فى نهاية الأمر سوى المجموعة التى تضم ١٢ شخصا وقف الرجال على جانب لكى تسير السيدات فى المقدمة . وكانت ليلى هى اول من اختفت من النساء ثم رجعت ليلى إلى المدخل للحظات قصيرة وحملقت فى وجهى دون أن يبدو أى تعبير على وجهها وأن يظهر عليها أى امتنان تاركة عشرات الأسباب معلقة فى الهواء فيما يتعلق بالدافع الذى اتاح الفرصة لالقى النظرة الأخيرة عليها .

أصبحت بمفردى مع الحراس الثلاثة الذين أحضرونى . قدم لى آدم سيجارة . فرحت أدخن السيجارة وأنا أموج ما بين مشاعر الغضب والارتياح لقد فعلت الشىء الوحيد الذى من شأنه أن يترك لى بعض الهيبة . وما كدت انتهى من تدخين السيجارة حتى نظر آدم إلى ساعته ثم نظر إلىَّ وأشار إلى الكلبشات التى تتدلى دعامتى مسند الذراع بكرسى «العرش» وقال : أنظر . لقد انتهى الأمر .

فنهضت واقفا . وأخذت نفسا عميقا . وهز آدم كتفيه : لو سمحت وتركت نفسى لكى يتم ربطى فى الكلبشات مع الرجلين . وبعدئذ جاء آدم بالكمامة . لقد كان ذلك اكثر مما أحتمل فبدأت المقاومة لكنهم دفعونى نحو

العرش . ومرة اخرى أذعنت بدون أن تكون لى حرية الاختيار . ودفع بالكمامة فى انزلاق على رأسى ولكن بدون أن يربطها بالشريط فى هذه المرة . ثم وضع القناع على وجهى وانطلقنا معاً . وسرنا من خلال المدخل ولكننا عندما خرجنا اتجهنا إلى اليمين لم نسلك الطريق الذى جئنا منه . ثم هبطنا لأسفل نازلين خمس درجات ومنها إلى غرفة أخرى أو خزان آخر كبير .

وأرغمت على التقهقر للوراء وكان هناك تلاعب مع الكلبشات رفعت ذراعى اليسرى لأعلى ثم صدر صوت يشبه الطقطقة . لقد تم ربطى فى الاطار الخاص بالضرب بالسياط . بدأت أقاوم مقاومة حقيقية ورحت أركل بقدمى وركبتى وجذبت الرجل الذى ما أزال مربوطا فى معصم يده . كان بمقدورهم أن يشبعونى ضربا كما يحلو لهم لأنهم كانوا ثلاثة اشخاص بالاضافة إلى أننى لم أتمكن من الرؤية علاوة على أن الموقف كان مثيرا للسخرية من المؤكد أن الأوامر صدرت لهم بأن يلتزموا بالرقة معى قدر الامكان . وفى النهاية تمكنوا من رفع يدى الأخرى لأعلى بالقوة وربطوها مع الحلقة الثانية . ثم رفع القناع عن رأسى .

كانت غرفة ضيقة وطويلة . كانت خزانا آخر . سقفها اكثر انخفاضا . وفى منتصفها توجد شاشة سينما مثل الشاشة التى استخدمت فى بورانى . وعند ثلاثة أرباع المسافة توجد ستارتان سوداويتين مسدلتين وممتدتين بعرض الغرفة . وكانت نهاية الحائط الغامضة مرئية من فوق أعالى الستارتين . للقديسين . لقد تم تثبيتى فى الاطار الذى كان قد وضع فى مواجهة الحائط . وأمامى مباشرة وإلى يمينى قليلا توجد آلة عرض سينمائى من طراز ١٦ مم .

ولم يضع الرجال الثلاثة المكلفين بى أى وقت . اذ اتجهوا إلى آلة العرض السينمائى وأداروها لتشغيلها . وبدأ الفيلم بالعجلة السوداء على خلفية بيضاء كما لو كان هذا هو شعار شركة أفلام . أدركت اننى قد أرغمت على «ان أعفو» حتى يمكن نقلى إلى هذا الإذلال عن طريق جلدى بطريقة استعارية كنت بمفردى مع آلة العرض السينمائى ومع ما يكمن خلف الستائر . وتلاشى الشعار وظهرت الكلمات :

أفلام بوليموس
تقدم
الحقيقة المخزية
المومس الأسطورية
بطولة : ليلى مونتجمرى

ظهرت لقطة سريعة مقتضبة لليلى وهى راكعة وراء رجل . وانتهت اللقطة قبل أن أدرك أن ذلك الرجل هو أنا . فى دور جولى هولمز .
ثم ظهرت لقطة أخرى سريعة : كنت واقفا أقبلها تحت ضوء الشمس بجوار تمثال بوسايدون .
وايضا فى دور «فانيسا ماكسويل» .
وفى هذه المرة ظلت الصورة لفترة اطول . كانت تجلس وراء مكتب مغطى بالأوراق . ورف مليىء بأنابيب الاختبار . وميكروسكوب . مدام كورى صغيرة

وظهرت لقطة باهتة لجو مرتديا قناع ابن آوى وهو يجرى هابطا على المدق نحو المنزل فى بورانى . وجرى داخلا فى عدسات الكاميرا مما جعل المنظر يبدو حالك السواد .

شارك فى التمثيل
وَحْسنُ الميسيسيبى
جو هاريسون

كنت بصدد أن أشاهد فيلما يدور حول الفسق وبدأ الفيلم : غرفة نوم مليئة بالاثاث المثير للرغبة الجنسية ، غرفة كثيرة الزخارف . وظهرت ليلى فى رداء فضفاض وقد انسدل شعرها لأسفل كان الرداء ينفتح على كورسيه أسود . وتوقفت بجوار كرسى لكى توائم فردة جوربها بالطريقة المبتذلة التى يتم بها الكشف عن الساق وإن كانت اللقطة القريبة قد سمحت لها بأن تظهر معصمها ذا الندبة الغائرة ثم نظرت فى اتجاه الباب ونادت فدخل صبى يرتدى الزى الرسمى للفندق ومعه خطاب موضوع على صينية .

فأخذت الخطاب . ثم ظهرت لقطة لها وهى تفتح الخطاب ويظهر عليها السخرية ثم تلقيه على جانب . ثم ركزت الكاميرا على الخطاب الملقى على أرضية الغرفة .

ثم ظهرت ليلى مضطجعة على السرير . بينما الكاميرا تركز جسدها . وفجأة جلست معتدلة على السرير النحاسى الفرنسى الذى يشبه الاسرة فى بيوت الدعارة وراحت تنظر نظرات شبقة فاضحة . وكان هناك شخص ما قد دخل إلى الغرفة لقطة سينمائية للباب المفتوح انه جو يرتدى بنطلونا محزقا . كان أقرب إلى مصارع ثيران زنجى منه إلى ثور أسود . وقام جو باغلاق الباب . وراح ينظر نظرات متقدة حارقة .

وتحول الفيلم إلى النداءة والقذارة والقرف . انها تجرى لملاقاته وأمسكها من ذراعيها ثم راحا يتقبلان فى وحشية . القاها فى عنف على السرير تدحرجت عليه وأصبحت فوقه مغطية وجهه راحت تقبل رقبته .

ثم لقطة اخرى لها وهى واقفة فى ملابسها الداخلية السوداء مستندة على الحائط وقد مدت ذراعيها . جو راكعا امامها يتحسس صدرها فأمسكت باحدى يديه وضغطتها على جسدها .

ثم جاء فاصل من الفتشية لمدة خمس ثوان . كان مستلقيا على الأرض . ثم هناك لقطة قريبة لساق عارية تنتهى بقدم يرتدى حذاء اسود اللون ذا كعب عال والقدم ملقى على بطنه . وراح يربت على القدم بيديه . بدأت الشكوك تساورنى . فهذه الساق يمكن ان تكون ساق اى امرأة بيضاء أخرى أما البطن واليدان السوداوان فيمكن ان تكون لأى رجل أسود اخر .

لقطة عبر الغرفة وهى تضغطه على الحائط ثم اندلقت يده حول ظهرها . ظهر طويل عار ملفوف فى ذراعين سودواين . وتحركت يد سوداء ويبدو أن جو قد أصبح عاريا ولو أنه كان متواريا وراء جسدها الأبيض . كان باستطاعتى مشاهدة وجهه ، الا ان نوعية الفيلم كانت ردئية للغاية فلم أتاكد أنه جو بالفعل . أما وجهها فلم يظهر طوال اللقطة .

بدأت أشعر بالمزيد من الشكوك أكثر من شعورى بالصدمة . وظهرت سلسلة من اللقطات القصيرة ثديان عاريان بيضاوان ردفان عاريان سوداوان . وهيكلان عاريان على السرير . بدأ الشعر الأشقر للمرأة يظهر

أشقر أكثر من اللازم ولامعا للغاية : شبيها بالباروكة .

ظهرت مداعبات بذيئة للغاية . هنا تكمن فى الحقيقة التى مفادها أن رجلا وامرأة قد سمحا لنفسيهما بأن يضطجعا وأن يتم تصويرهما . وظهر معصم اليد اليمنى الذى لا يوجد بها الندبة الغائرة . ورغم أن تلك اليد قامت بحركة من حركات العزف على الفلوت إلا أننى تأكدت أنها ليست يد ليلى .

ثم اللقطات اكثر قسقا حيث تركزت على الفتاة النائمة على السرير . لم تظهر اللقطة وجهها . كانت اللقطة تعبر عنها وهى فى انتظار استقبال الزنجى الذى كان ظهره الاسود المشوش قريبا من الكاميرا .

فجأة تغيرت نوعية الفيلم . فقد أخذت اللقطات فى اهتزاز شديد بواسطة كاميرا أخرى فى ظروف وملابسات مختلفة . شخصان فى مطعم مزدحم بالزبائن . وفى موجة من الغضب الشديد أدركت هوية هذين الشخصين : إنها آليسون وأنا معها فى ليلتنا الأولى فى بيروس . ثم ظهرت مساحة بيضاء من الفيلم على الشاشة ثم ظهرت لقطة أخرى لنا لم أستطع تذكرها . كانت آليسون تسير فى شارع قروى منحدر وأنا خلفها . كان الارهاق باديا على كل منا . ورغم أن اللقطة كانت بعيدة بحيث يتعذر مشاهدة التعبيرات على الوجه للمرء يمكن ان يعرف من الطريقة التى نسير بها أننا نعيش وتذكرت تلك اللقطة : إنها أثناء عودتنا إلى آراشوفا . من المؤكد أن المصور السينمائى كان مختبئا فى كوخ وربما كان يصور من وراء نافذة . وتذكرت اللقطة السينمائية المتتالية لفميل فى وقت الحرب . وأدركت المغزى وهو أننا كنا تحت المراقبة . تذكرت بحيرة الماء والشمس الساقطة على ظهرى العارى آليسون أسفلى . كان أمرا رهيبا أن يتم تصوير هذه اللقطات بصفة خاصة بحيث تصبح معروفة للجميع .

وظهر جزء شاغر من الفيلم مرة أخرى . ثم جاء عنوان آخر .

عملية المضاجعة

ترامى صوت من آلة العرض يشبه الطرق الخبيف . وظهر اللون الأبيض على الشاشة . ولكن شخصا ما جرى من خلال الباب إلى داخل الغرفة

وأطفأ آلة العرض السينمائى . ظللت منتظرا حدوث فقدان الاعصاب ، وتداعى جرأتهم فيما يتعلق بهذه المناظر الفاضحة . وظلت الغرفة غارقة فى الظلام . ثم قفز الضوء من خلف الستائر .

إذ بدأ شخص ما يجذب الستائر من الخلف عن طريق الحبال مثلما يفعلون فى المسرحيات وعندما فتحت الستائر فتحة تصل إلى ثلثى مساحتها توقفت . ظهرت أريكة منخفضة . مغطاة ببطانية ضخمة ذات لون ذهبى مائل للسمرة . وكانت ليلى عارية فوق الأريكة . لم أستطع مشاهدة الندبة الغائرة فى معصمها ولكننى كنت أدرك أنها هى بالفعل فبشرتها لا تميل إلى السمرة الشديدة بتأثير الشمس وتستند على تل من الوسائد عميق ، المستندة على شىء لامع مفرط فى البهرجة وعلى قطعة خشبية عليها نقوش محفورة . انها تلتفت فى اتجاهى فى تقليد متعمد للوحة «المايا العارية» التى رسمها جويا لم تكن تتباهى بنفسها وانما تعلن عن نفسها من حيث هى حقيقة مقدسة خالدة . الإبط العارى مثير جنسيا . وعينان مثبتتان فى هدوء المتعجرف .

كان القوام الرقيق مستلقيا فى بحيرة من الضوء الأخضر بدون أن تصدر عنها اية حركة . وهى تحملق فىَّ . أعتقدت أن هذا المنظر هو المشهد الختامى الأخير . هذه اللوحة الفنية المليئة بالحياة . هذا اللغز العارى . هذا الكيان الذى لا يمكن الوصول اليه ابدا .

ثم تحركت .

التفت رأسها فى بروفيل جانبى وامتد ذراعها الأيمن فى رشاقة واغراء بنفس الحركة الكلاسيكية للوحة مدام ركايية نحو الشخص الذى أضاء الضوء وفتح الستائر . وظهر هيكل جديد . انه جوكان يرتدى عباءة شديدة البياض حملق فى للحظات قصيرة اذ كان مهيبا للغاية . يمتلك الغرفة والمسرح والمرأة . نظر اليها وأمسك بيدها الممتدة .

وفجأة فهمت من هما ومن أكون أنا . وكيف أن هذه اللحظة قد أعد لها . ؟ حاولت فى يأس مرير التخلص من الكمامة وقمت بحك رأسى فى ذراعى . ولكنها كانت محكمة للغاية .

وقام الزنجى المغربى بالركوع الى جوارها وقبل كتفها . فامتد ذراع أبيض نحيل وطوق رأسه الأسود فى احكام . ومرت لحظات ثم انزلقت

للوراء . واثقا من استسلامها . ثم نض فى هدوء وقام بغلق ثوبه الفضفاض من عند الكتف .

فأغلقت عينى .

لا شيء حقيقى فكل شيء مسموح به كونشيس : دوره لم ينته بعد وفتحت عينى مرة أخرى . لم يكن هناك انحراف أو تشويه للحقائق لم تكن هناك محاولة للايحاء بأننى أرقب اى شيء اخر بخلاف شخصين ويمارسان الحب . اغلقت عينى مرة أخرى رافضا أن أرقبهما . ولكننى أضطررت ان ارفع رأسى لكى أرقب . بدأ التنميل يسرى فى ذراعى مشكلا لى عذابا إضافيا . وراح الهيكلان المستلقيان على السرير يتعانقان وهما غافلان عنى وعن كل شيء آخر باستثناء الدور الذى يقومان به .

وظل الجسدان مستلقيين فى هدوء مطلق على محراب السرير وكان رأسه متواريا وراء رأسها وتمكنت من مشاهدة يديها تربتان على كتفيه وحاولت تحرير يدى المتفجرتين بالألم من الاطار كان مربوطا فى الحائط بمسامير من نوع خاص وبعد فترة لاتطاق نهض من سريره وركع وقبل كتفها على نحو يكاد يكون بطريقة رسمية . ثم ضم عباءته وغادر المسرح فى هدوء متجها الى الظلال. وظلت مستلقية منسحقة بين الوسائد ثم رفعت نفسها متكئة على مرفقها الأيسر واضطجعت فى نفس الوضع الذى كانت عليه فى البداية . وتركزت حملقتها على . دون أن يبدو عليها الأسف ، ثم ضم الستائر فى بطء وتركت فى المكان الذى ابتدأت منه بين طيات الظلام وحلت على لحظة من التعب تساءلت خلالها عما اذا كان كل ذلك قد حدث امامى . أهى هلوسة دفعت إليها ؟ ولكن الالام الرهيبة فى ذراعى اكدت لى أن كل شيء حدث .

ثم ظهر هيكل فى فتحة الباب . إنه كونشيس ، جاء إلى المكان الذى أتدلى فيه ووقف امامى . فأغلقت عينى . كان الألم فى ذراعى يغطى على كل شيء اخر أصدرت صوتا له طابع الزمجرة من خلال الكمامة . لم أعرف المعانى الحقيقية التى تريد أن تعينها الزمجرة . ما اذا كنت أعانى من الألم الشديد أو أننى إذا ما شاهدته فى أى وقت مرة أخرى فاننى سأمزقه إربا إربا . قال : جئت لاخبرك انك اصبحت مختارا .

فهززت رأسى فى عنف من جانب لآخر قائلا : ليس لك حرية الاختيار فى ذلك .

فظللت أهز رأسى من جانب لآخر فى مزيد من الإعياء .

فحملق فى وجهى بتلك العينين التى بدت اعجز من فترة حياة الانسان وظهر بصيص من التعاطف على وجهه كأنه مارس ضغوطا اكثر من اللازم على ذراع رفيعة للغاية . قال : تعلم كيف تبتسم يا نيقولاس .. تعلم كيف تبتسم ثم انصرف .

وما ان انصرف حتى دخل أنطون ومعه آدم والآخرون المرتدون لقمصان سوداء .. وقاموا بفك الكلابشات وانزال ذراعى لأسفل . وكان اثنان من مرتدى القمصان السوداء يحملون عامودا طويلا أسود اللون ثم قاموا بفكه ونشره ، فشاهدت نقاله إرغمونى أن اتمدد عليها ثم تم ربط معصمى بالكلابشات فى جانبى النقالة . لم يكن بمقدورى مقاومتهم لذلك استلقيت فى استسلام تام وقد اغلقت عينى لكى أتجنب مشاهدتهم . وشممت رائحة الأثير وشعرت بوخز ابرة خفيف للغاية وتمنيت أن يهبط علىَّ النسيان بسرعة .

(٦٣)

وظللت مستلقيا وانا مازلت مخدرا لا استطيع ان أبذل المجهود الذى يعيننى على معرفة المكان الذى ينبعث منه الضوء والذى يمكننى من مشاهدة الحائط . او معرفة المكان الذى يجيىء منه صوت الأجراس . وصرير الريح لقد تعودت أن أكون سجينا . قمت بتحريك معصمى . لقد كان غير مكبلين فى الاغلال استدرت ورحت انظر .
كان بمقدورى مشاهدة شقوق فى السقف يتسرب منها الضوء . وكانت هناك فتحة للباب مكسورة . وفى الخارج راح ضوء الشمس يخطف بالأبصار . كنت مستلقيا على مرتبة هواء . نظرت خلفى . كانت هناك حقيبتى وفوقها مجموعة من الاشياء : ترمس وعلبة اوراق بنيه وسجائر وكبريت وصندوق اسود يشبه علبة مجوهرات .

جلست معتدلا . وهززت رأسى ، وألقيت بالبطانية على جانب . كنت فوق قمة تل . وأمامى كان يوجد منحدر من الاطلال والخرائب الشاسعة الممتدة لاسفل . مئات من المنازل الحجرية . وفى أماكن متفرقة . توجد مساكن أقل تقوضا عبارة عن أجزاء متبقية من الدور الثانى لها نوافذ تعطى اطارا للسماء . ولكن الشىء البالغ الغرابة هو أن كل مدينة الأموات هذه تبدو

وكأنها طافية فى الهواء على ارتفاع الف قدم من مستوى سطح البحر . تسلقت فوق قمة حائط ونظرت حولى . فى الاتجاه الذى تستلقى فيه شمس ما بعد الظهيرة شاهدت أراض جبلية ممتدة لمسافات بعيدة وبدا لى أننى فوق قمة رأس بحرى عملاق ممتد داخل البحر واننى آخر رجل على وجه الكرة الأرضية ما بين البحر والسماء ولم أعرف للحظات ما اذا كانت ساعات زمنية قد مرت او حضارات بأكملها قد انصرمت .

هبت ريح متوحشة فعدت إلى داخل الحجرة وحملت الحقيبة وخرت بها إلى ضوء الشمس ثم ألقيت نظرة على المظروف . انه يحتوى على جواز سفرى وعشرة جنيهات تقريبا بالعملة اليونانية وعلى قصاصة مكتوبة على الآلة الكاتبة . بها ثلاث عبارات» يوجد مركب سيتجه إلى فراكسوس فى تمام الساعة ٣٠ر١١ فى هذه الليلة . وأنت الآن فى المدينة القديمة والطريق الذى يهبط من هذا المكان يسير فى الاتجاه الجنوبى الشرقى» . لا تاريخ ولا توقيع . ثم فتحت الترمس : انه مليىء بالقهوة . صببت لنفسى ملو .الغطاء وأفرغت القهوة فى جوفى . كانت اللفائف تحتوى على ساندوتشات وشرعت فى تناول الطعام وأنا أشعر بالغبطة البالغة من مذاق القهوة والخبز ولحوم الضأن وعصير الليمون .

ثم احسست بأننى تمكنت من البقاء على قيد الحياة وأننى قادر على استعادة حيويتى وربما ساعد المنظر الطبيعى ذو الهواء الطلق على هذا الشعور .. وفوق كل ذلك كانت هناك الغرابة الشديد للتجربة . تناولت هذه التجربة على أنها سر هائل او رحلة إلى المريخ وعلى أنها جائزة لم يظفر بها اى شخص آخر . بدا لى كأننى استيقظت على مشاهدة سلوكى تحت ضوء أفضل . وأن المحاكمة وازالة التحذير هى مجرد خيالات شريرة أرسلت لى لاختبار حالتى السوية «فهم» الاشخاص الذين تعرضوا للاذلال والتحقير فى نهاية الأمر ـ واعتقدت أن هذا العرض المذهل ربما كان القصد منه ان يكون اذلالا متبادلا ، ادركت الان انه من الانتقام الذى يقدم لى فى مقابل تجسسهم على وعلى أليسون .

كنت أشعر إننى منتصر فى شىء من الغموض . وأننى أرفل فى حرية من نوع جديد ، حرية متطهرة على نحو ما .

وتعاظم هذا الاحساس وأصبح من البهجة أن ألمس الصخر الدافىء

الذى اجلس عليه وأن أسمع الرياح تهب وأن اشم الهواء اليونانى مرة اخرى وأن أكون بمفردى فوق هذه الهضاب الغريبة وهى مكان كنت انوى زيارته يوما ما . أهم شيء أننى تمكنت من البقاء على قيد الحياة وتخطيت المتاعب سالما .

ثم أدركت أنه كان هناك شيء ما إصطناعى فى هذه البهجة ، وفى التغاضى عن التحقير وعن استغلال موت آليسون ولذلك فأنا أفترض أن كل ذلك تم تحت تأثير التنويم المغناطيسى الذى قام به كونشيس وربما كان هذا جانبا من وسائل الراحة شأنه في ذلك شأن القهوة والساندوتشات .

قمت بفتح الصندوق الأسود . كان بداخله مسدس جديد . فالتقطته وفتحته . ونظرت إلى الرصاصات الست . كانت الدعوة واضحة . استخرجت رصاصة . صوبت المسدس فى اتجاه البحر نحو الشمال وجذبت الزند . فصدر صوت هائل جعل أذنى تطن كما ان الطيور الضخمة التى تشق طريقها عبر السماء الزرقاء فوق رأسى ارتفعت لأعلى فى وحشية .

انها النكتة الأخيرة للكونشيس .

تسلقت إلى قمة التل . وعلى مسافة غير بعيدة فى اتجاه الشمال كان يوجد جزء من جدار محطم بين برجين . انه البقية الباقية من حصن عثمان . أنه جبل بارنون الذى يبدو واضحا للعيان من بورانى فى الايام الصافية . نظرت لاسفل . كانت الهضبة تنحدر انحدارا شديدا لمسافة ٧٠٠ قدم نحو شريط ضيق من الأرض المليئة بالحصباء . وهو شريط يلتقى عنده البحر الغاضب بالأرض وقفت على الجزء النائى من الحصن القديم وأطلقت الرصاصات الخمس المتبقية فى الهواء فى اتجاه البحر . لم أصوب النيران إلى أى هدف . ثم طوحت به فى السماء شاهدته وهو يسقط بين الصخور عند حافة البحر .

شققت طريقى هابطا الدروب التى تتخلل منازل مطلية باللون الأبيض . ووقفت امرأة قروية فى مدخل منزلها وكان معها سلطانية مليئة بقشور الخضراوات حيث كانت تفرغ محتوياتها لدواجنها ومن المؤكد أن منظرى كان يبدو غريبا قلت لها «مساء الخير» فسألت المرأة العجوز : اسئلة الفلاحة اليونانية : من انت وإلى اين انت ذاهب ؟

اخبرتها اننى انجليزى وأننى احد افراد الشركة التى كانت تقوم بتصوير الفيلم .

- أى فيلم هنالك بالمنطقة العلوية ؟

تجاهلت اسئلتها العديدة المنطوية على الشكوك ثم تابعت مسيرتى إلى شارع صغير تتزاحم على طوله منازل مغلقة او شاغرة ثم شاهدت لافتة على أحد هذه المنازل فدخلت . فخرج رجل عجوز من ركن معتم انه صاحب الحانة ورحت اتجاذب اطراف الحديث مع الرجل فعرفت منه كل ما يمكن معرفته . عرفت اننى اضعت يوما كاملا . فالمحاكمة لم تتم فى ذلك الصباح وانما تمت بالامس . اذ كان اليوم هو يوم الاثنين وليس يوم الأحد . لقد تم تحذيرى لمدة يوم كامل . ورحت اسبر اغوار التجويفات العميقة فى داخل ذهنى . لم تكن هناك شركة افلام ولا اى مجموعة كبيرة من السياح ولا اى اجانب منذ عشرة ايام مضت . واسفاه .. لم يحضر اى شخص لمشاهدة مونيمفاسيا . أكانت هنالك خزانات كبيرة بها رسومات ونقوش على حوائطها فى المنطقة العلوية هنالك ؟ لا شىء من هذا القبيل .

انطلقت فوق الجسر المرتفع بين الرياح العاصفة نحو القرية الصغيرة التى توجد فى المكان الذى ترسو عنده السفينة البخارية . وتناولت وجبة طعام ردئية فى حانة وحلقت ذقنى فى المطبخ - نعم فقد كنت سائحا - وامطرت الطباخ بوابل من الأسئلة . ولكنه لم يكن يعرف معلومات تزيد عما يعرفه الرجل الآخر .

وظلت السفنية الصغيرة ترتفع وتنخفض بتأثير الأمواج إلى أن وصلت فى منتصف الليل . وتقدمت أنا واثنان من المسافرين للدخول إلى السفينة وجلست لمدة ساعتين فى الصالون المهجور أقاوم دوار البحر . وفى النهاية خفت حدة الشعور بالغثيان وأفقت واستردت وعيى تماما مثل بائع الخضار .

وعندما اقتربنا من الجزيرة خرجت إلى ظهر السفينة الصغيرة . كانت الحيتان السوداء تلوح خارجة من طيات العاصفة . وكان باستطاعى مشاهدة رأس بوراني ولو أن المنزل كان غير مرئى وبالطبع لم تكن هناك أضواء . رحت أسأل نفسى فى تعجب ترى كم من الأموال تكلفت هذه التمثيلية التى انفق عليها كونشيس لقد تكلفت خمسين ضعف ما يكسبه واحد من فقراء هذا البلد طوال عام من العمل الشاق المرير فإلى جوارى

كانت توجد عائلة الزوج أحنى ظهره ورأسه على زكيبة اما الولدان الصغيران فقد حشرا بينه وبين زوجته سعيا وراء الدفء وفوقهم بطانية خفيفة ملقاة . كانت احدى يدى الزوجة ملقاة على كف الطفل الموجود فى الجهة الأمامية . رحت اتحسس جيبى . لا يزال به ثمانية جنيهات انحنيت ووضعت كتلة الأوراق المالية فى إحدى ثنيات البطانية خلف رأس المرأة . ثم غادرت المكان هاربا كما لو كانت قد فعلت شيئا مثيرا للخجل .

فى تمام الساعة الثالثة الا الربع كنت أصعد على السلالم فى صمت فى الجناح المخصص للمدرسين . كانت غرفتى مرتبة وكل شىء بها فى مكانه . لم يتغير أى شىء فيما عدا أن أوراق الامتحانات ليست هناك . وفى مكانها خطابات عديدة .

هناك خطاب من لندن من انسانة ادعت انها ناظرة مدرسة . وكان مكتوبا على ورقة من الورق المخصص لكتابة الرسائل وهى ورقة موثقة من المدرسة .

الآنسة جولى هولمز .

الآنسة هولمز كانت معنا لمدة عام واحد حيث قامت بتدريس الكلاسيكيات علاوة على تدريس قدر محدود من اللغة الانجليزية فى الكتاب المقدس فى بعض الفصول المدرسية المخصصة للتلاميذ الصغار . وكان من المتوقع أن تصبح مدرسة ممتازة . فهى جديرة بأن يعتمد عليها وعلى وعى كبير كما كانت محبوبة من تلاميذها .

وأود أن أضيف أنها كانت ناجحة للغاية فى اعداد واخراج المسرحية التى نقدمها عادة فى كل عام كما أنها قامت بدور رئيسى فى جمعيتنا المدرسية ولذلك اقدم خطاب التوصية هذا الخاص بالآنسة هولمز متمنية لها كل توفيق .

أما الخطاب الأخير فكان مرسلا من آن تيلور : وفى داخله بطاقة بريدية وصور فوتوغرافية .

قد عثرنا على هذه الأشياء .. وقد اعتقدنا أنك ربما تحب الحصول عليها ولقد أرسلت «النيجاتيف» إلى المدام كيللى نحن نشعر باللوم بطرق مختلفة . والشىء الوحيد الذى لا أعتقد أن اليسون كانت تريد هو أن نحزن

حزنا شديدا على وفاتها طالما أن أن ذلك لن ينجم عنه اى فائدة لا وكان على أن أقوم بحزم كل حاجياتها ويمكنك ان تتخيل هذا الموقف الصعب بدا لى أن حزم امتعتها أمر لا ضرورة له وقد تسبب هذا فى انخراطى فى البكاء مرة أخرى حسنا أعتقد انه علينا أن نتغلب على مشاعر الحزن العميق . ولسوف أعود إلى الوطن فى الأسبوع القادم ولسوف أقوم بزيارة مدام كيللى فى أقرب وقت ممكن .

المخلصة

آن تيلور

ثمانى لقطات فوتوغرافية رديئة . خمس لقطات منها كانت عنى وثلاثة لقطات عن آليسون .

جلست إلى مكتبى وحملقت فى ذلك وجهها وفى خصلة الشعر التى تطايرت عبر جانب الجبعة تصاعدت مشاعر الحزن ولم استطع الخلود إلى النوم . قمت بوضع الخطابات والصور الفوتوغرافية فى أحد الأدراج وخرجت إلى الشاطىء . وعلى مسافة بعيدة فى جهة الشمال وعبر المياه كانت هناك نيران مشتعلة بين الشجيرات شعرت اننى قريبا مما قاله كونشيس : «لا شىء سوى المنعطفات الخاطئة التى لا حصر لها» . ورفضت معظم الكلام غير المفهوم الفرويدى الذى ورد فى المحاكمة . ولكننى حاولت أن أحول الحياة إلى خيال وأن ازيح الحقائق بعيداً وكنت دائما ما اتصرف كما لو أن شخصا ثالثا يرقبنى ويضغى إلى ويعطنى درجات على السلوك كنت دائما غير قادر على التصرف فى حرية . لم يكن ذلك هو دفاعى وانما كان هو طغيانى .. لقد شاهدته ميتا فى وقت متأخر للغاية .

جلست عند الشاطىء وانتظرت بزوغ الفجر على البحر الرمادى .

وحيدا وبمفردى وعلى نحو لا يطاق .

(٦٤)

ألم أذهب إلى الحصة الأولى وادخرت عودتى إلى الحياة المدرسية مرة أخرى لحين حلول موعد الافطار . وعندما ظهرت حدث صمت مطبق فجائى مثل ذلك الصمت الذى يظهر عندما تلقى حجرا فى بركة مليئة بنقيق

الضفادع . سكون شديد فجائى وبعده الاستئناف التدريجي للضوضاء كان بعض التلاميذ يبتسمون وراح المدرسون يحملقون فى وجهى كأننى ارتكبت الجريمة القصوى . استطعت مشاهدة ديميترياديس عند الغرفة . فاتجهت وبسرعة نحوه قبل أن يتصرف اى تصرف نهض قليلا ثم أدرك فى وضوح الأمور التى يمكن أن تحدث ، ثم جلس فجأة خائفا ووقفت على مسافة خطوة واحدة منه ، وصحت . انهض . عليك اللعنة .

بذل محاولة ضعيفة لكى يبتسم . وهز كتفيه وهو ينظر الى التلميذ الموجود إلى جواره . فكررت مطلبى بصوت مرتفع وباللغة اليونانية أضفت كلمات باللغة اليونانية تتعلق بالسخرية والاستهزاء» . انهض يا سافل يا تربية والمواخير .

فساد الصمت المطبق مرة أخرى . واحمر وجه ديميرياديس وراح يحملق لأسفل وكان امامه طبق به خبز لين وكوب لبن ومنثور عليه عسل النحل وهى وجبة دائما ما يتناولها كطعام للافطار . وضربته باللبن فى وجهة فانساب على قميصة . فقفز واقفا وراح ينفر بخفة على ملابسه مستخدما يديه . وعندما نظر لأعلى فى غضب انهلت عليه بالضرب ضربته على عينه اليمنى بعض التلاميذ مطالبين بالمحافظة على النظام واندفع مدرس الالعاب الرياضية ووقف ورائى وأمسك بذراعى ولكننى صحت فى وجهه قائلا له : إن الأمور تسير على ما يرام وأن الموقف انتهى عند ذلك الحد . ووقف ديميرياديس وقد وضع يديه على عينيه . ثم استدار فى اتجاهى وراح يركل وينشب أظافره كامرأة عجوز . فقام مدرس الألعاب الرياضية الذى يزدريه بامساك ذراعيه فى قوة .

استدرت خارجا .. وبدأ ديميرياديس يصيح بلعنات لم أفهم معناها . وكان هناك خادم واقفا عند مدخل الباب فطلبت منه أن يحضر القهوة إلى غرفتى ثم جلست منتظرا .

وبمجرد أن بدأت المرحلة الثانية تم استدعائى للذهاب إلى غرفة الناظر . وإلى جوار الرجل العجوز كان يوجد وكيل المدرسة وكذلك المشرف الأول ومدرس الالعاب الرياضية وافترضت أن الأخير قد تواجد بهدف مواجهة الموقف فى حالة لجوئى إلى العنف مرة اخرى . وكان المشرف الأول والذى يسمى أندروتوس يتكلم الفرنسية بطلاقة وكان من الواضح أنه سيقوم بدور المترجم فى هذه المحكمة العرفية .

وبمجرد أن جلست تم تسليمى خطابا واردامن مجلس ادارة المدرسة بأثينا كان تاريخ تحريره يفيد بأنه كتب منذ يومين . إن مجلس ادارة اولياء الأمور لمدرسة لورد بيرون قد نظر بعين الاعتبار فى التقرير الذى قدمه ناظر المدرسة وقرر بكل أسف الغاء التعاقد معكم وذلك وفقا للبند رقم ٧ الوارد فى ذلك التعاقد : سلوك غير مرضى كمدرس ووفقا للفقرة المذكورة سيتم تسديد راتبك حتى نهاية شهر سبتمبر كما سيتم دفع اجرة تكاليف السفر الخاصة برحلة عودتك إلى وطنك .

لم يكن هناك مجال للمحاولة لالغاء هذا القرار . لم تكن هناك سوى العقوبة . نظرت نحو الوجوه الاربعة التى لم يظهر عليها سوى الارتباك فقلت : لم اعرف ان ناظر المدرسة كرس نفسه لخدمة كونشيس وأصبح ممالئا له .

فظهرت الحيرة على وجه أندروتسوس . «من الذى سيدفع له النقود ؟» وقام بترجمة ما قمت بتكراره فى غضب . ولكن ناظر المدرسة بدت عليه الحيرة انه رجلا يتصف بالوقار الشديد وهو رمز لناظر مدرسة بل أقرب لرئيس كلية أمريكية منه إلى ناظر مدرسة لا يمكنه أن يتستر على عملية طرد من المدرسة بطريقة ظالمة . لقد استحق ديميترياديس ان أضربه على عينه بحيث تتحول إلى كتلة سوداء حتى قبل أن أعرف بقرار فصلى من المدرسة . المسئول عن هذه الكارثة هو ديميترياديس وكونشيس وشخص ثالث آخر له نفوذ فى مجلس الادارة .
جرت مناقشة سريعة بين ناظر المدرسة ووكيل المدرسة . وسمعت إسم كونشيس يتردد مرتين أثناء المناقشة ولكنى لم أستطع تتبع ما يقال . وطلب من أندروتسوس ان يقوم بالترجمة فقال : ناظر المدرسة لا يفهم تعليقك وملاحظاتك .

ولويت عضلات وجهى وأنا أنظر إلى العجوز كنت شبه مقتنع بأنه بالفعل يفهم ملاحظاتى .

وأصدر وكيل المدرسة اشارة فرفع أندروتسوس قصاصة من الورق وراح يقرأ ما جاء بها : «الشكاوى التالية قد رفعت ضدك : أولا : لقد فشلت فى الدخول فى حياة المدرسة حيث كنت تتغيب فى معظم اجازات نهاية الاسبوع خلال المرحلة الدراسية . وثانيا : انك قمت مرتين بتقديم الرشوة

للطلبة المسئولين عن حفظ النظام لكى يحلوا محلك فى فترات الاشراف الخاصة بك وثالثا : انك لم تقم بتصحيح اوراق امتحانات الطلبة وهو من الواجبات المدرسية البالغة الأهمية . ورابعا : أنت . كنت قد حصلت على ما فيه الكفاية من هذه المسرحية الهزلية . تكلم ناظر المدرسة وقام اندروتسوس بالترجمة ويقول أيضا ناظر المدرسة : إن هجومك على زميل لك أثناء طعام الافطار احدث ضررا بالغا بالاحترام الذى يكنه دائما لأراضى بيرون وشكسبير .

وانفجرت ضاحكا . ثم مددت أصبعى فى تهديد فى وجه أندروتسوس . فاستعد مدرس الالعاب الرياضية للهجوم علىَّ . فقلت : اخبره أننى سأذهب إلى أثينا . إلى السفارة البريطانية ووزارة التعليم إلى الصحف ولسوف أثير ضجة كبرى .

ولم أكمل عبارتى . ونظرت اليهم فى احتقار شديد وانطلقت خارجا . من الغرفة .

ولم يتم السماح لى بالخروج من المدرسة ومعى حاجياتى اذ لم تنقض خمس دقائق على رجوعى إلى غرفتى طرق على باب حجرتى . فابتسمت فى تجهم وفتحت الباب فى عنف . وكان يقف عند الباب وكيل المدرسة وهو آخر عضو فى المحكمة كنت أتوقع مجيئه . أنه مافرو ميخاليس . وهو يدير المدرسة من الناحية الادارية انه رئيس مجلس التأديب وهو انسان ضامر . متوتر الاعصاب ، أصلع الرأس وفى أواخر الأربعينات من عمره ومنسحب إلى داخل نفسه حتى مع باقى اليونانيين الآخرين . ولم يربطنى سوى علاقات ضيئلة إنه يعشق بلاده فى شىء من التعصب . وكان يصدر جريدة سرية مشهورة فى أثينا أثناء الاحتلال رغم انه دائما ما ينزل عند ارادة ناظر المدرسة أمام الناس فإن حيويته هى التى تعطى الدعاية للمدرسة .

راح يرقبنى عن كثب عند فتحة الباب ، دهشت من وجود شىء ما فى عينيه مما جعل مشاعر الغضب فى داخلى تتراجع قليلا ليحل محلها الشعور بالدهشة . وحاول أن يوحى الىَّ بأن الأمور لو تسمح لابتسم لى ثم تحدث فى هدوء قائلا بالفرنسية : أريد أن اتحدث معك يا مستر أصبت بدهشة أخرى فهو لم يسبق أن تحدث معى فى أى شىء بأية لغة سوى اللغة اليونانية . ولذلك كنت أفترض دائما أنه لا يعرف أية لغة أخرى بخلاف اليونانية . سمحت له بالدخول نحو الحقائب ثم دعانى للجلوس

خلف المكتب . ثم سحب كرسيا وجلس بجوار النافذة وطوى ذراعية : عينان حادتان وجعل الصمت يتحدث نيابة عنه . سرعان ما أدركت الموقف فأنا من وجهة نظر ناظر المدرسة مدرس سيء ومن وجهة نظر هذا الرجل فأنا شيء ما آخر بالاضافة إلى أننى مدرس سيىء قلت فى برود : ماذا فى الأمر . اننى آسف لهذه الظروف .

عزيزى السيد مافرو ميخاليس . اذا تصورت . فرفع يديه فى حدة ولكن فى شيء من التهدئة وقال : أنا هنا كزميل لك . والموضوع الذى أريد أن أتحدث عنه جد خطير .

كانت لغته الفرنسية ثقيلة للغاية وبعيدة عن الممارسة العملية . قلت : زميل .. أم مبعوث لاداء مهمة دقيقة ؟

راح يرقبنى ثم وصل إلى لب الموضوع حيث أضاف قائلا : إكراما لمدرستنا فأنا لا أريد فضائح .

ولاحظت أنه يتحدث بضمير المتكلم المفرد ، قلت : كان عليكم أن تفكروا فى ذلك من قبل . وسادت فترة صمت أخرى . ثم قال : لدينا هنا فى اليونان أغنية فلكلورية قديمة تقول : الذى يسرق من أجل الخبز برئ والذى يسرق من أجل الذهب مذنب . اذا كنت ترغب فى تقديم استقالتك .. فاننى اؤكد أن المسيو المدير سيقبلها . وسوف يتم تجاهل الخطاب الآخر .

من تقصد بالمسيو المدير ؟ فابتسم ابتسامة خفيفة للغاية لم يقل شيئا وكنت أدرك أنه لن يقول أبدا أى شيء . شعرت كأننى الانسان الذى يقوم بالاستجواب فى شيء من الاستبداد نظر من النافذة الى الخارج وقال كلاما ليس له صلة بالموضوع : لدينا معمل علمى ممتاز .

وكنت أعرف تلك الحقيقة وكنت أعرف أن المعدات والآلات الموجودة فيه قد قدمها فاعل خير عندما تم افتتاح المدرسة عقب الحرب قلت : اعرف ذلك جئت لكى أدعوك أن تقدم استقالتك . وهل قام زملائى السابقون بتقديم استقالاتهم ؟

واقترب اكثر من الحقيقة . وقال لا أعرف ماذا حدث لك ولا أطلب أن تصفح عن ذلك . بل أن تعفو عن هذه المدرسة أنت تعتقد اننى مدرس ردئى . فقال : لسوف نقدم لك خطاب توصية جيد» .

ـ هل أنا ردئى إلى ذلك الحد ؟
ـ ليس لدينا مكان هنا الا لافضل الناس .

نظرت الى الحقائب فوق السرير كنت اريد الانطلاق بعيدا إلى أثينا أو أى مكان آخر إلى اللاهوية . كنت أدرك أننى لست مدرسا ممتازا . ولكننى تعرضت لفقد مرير للغاية وتعريت اكثر من اللازم مما حال دون اعترافى بأننى مدرس غير ممتاز .

ـ أنت تطلب منى الكثير سألتزم بالهدوء فى أثينا بشرط واحد هو أن يقابلنى هناك .

ـ مستحيل .

وساد الصمت . وساءلت نفسى فى تعجب : كيف أن احساسه بالواجب نحو المدرسة إلى حد الهوس قد تواجد مع ولائه وطاعته تجاه كونشيس .

قلت : لماذا أنت ؟

فابتسم ابتسامة بسيطة وقال :

قبل الحرب .

وادركت أنه لم يكن يقوم بالتدريس في المدرسة ومن المؤكد ان ذلك كان في بوراني . نظرت الى المكتب ثم قلت : سأغادر المدرسة على الفور . اليوم .

ـ هذا امر متفق عليه . ولكن هل تعدنى بعدم إحداث المزيد من الفضائح ؟

ـ سأحرص على عدم اثارة فضائح .

ودار حول المكتب لكى يصافحنى بل وقام يهز كتفى مثلما كان يفعل كونشيس فى بعض الاحيان كأنه يؤكد لى انه حصل على وعد منى ثم انصرف فى رشاقة وخفة .

وهكذا تم طردى من المدرسة .. وبمجرد أن انصرف من أمامى تصاعدت مشاعر الغضب فى داخل كيانى مرة اخرى . غضبت لاننى للمرة الثانية لم استخدم السوط . لم يهمنى كثيرا أن أترك المدرسة ولم يهمنى كثيراً ان يمتد تعاقدى لسنة أخرى متظاهرا بأن بورانى لم يكن لها وجود وبأنها مليئة بالأمور التى لا يقبلها العقل . ولكن المسألة تتعلق بمغادرة

الجزيرة بأكملها بما فيها من بحر وأضواء للشمس ساطعة حملقت نحو حدائق الزيتون . كان الأمر أشبه ما يكون بفقدان فجائى لأحد أطراف الجسم لم تكن المسألة هى الوضاعة الناجمة عن احداث فضيحة وانما عدم الجدوى فمهما جرى من احداث فقد حرمت من العيش فى جزيرة فراكسوس .

وبعد برهة من الوقت ارغمت نفسى على استئناف وضع ملابسى وحاجياتى فى الحقائب وقام صراف المدرسة بارسال كاتب ومعه شيك خاص بمرتباتى بالاضافة الى عنوان شركة الطيران التى ينبغى على الذهاب اليها فى أثينا بخصوص رحلة عودتى إلى وطنى . وعقب الظهر مباشرة خرجت من بوابة المدرسة للمرة الأخيرة .

ذهبت مباشرة إلى منزل باتاريسكو فظهرت امرأة فلاحة عند الباب وقالت :إن الطبيب ذهب إلى روديس لمدة شهر ثم ذهبت إلى المنزل الذى يقع فوق التل . وكانت البوابة مغلقة بالقفل . عدت الى الميناء القديم وإلى الحانة التى سبق أن تقابلت فيها مع باربا العجوز . وأرشدنى جورجيو إلى غرفة فى كوخ قريب . ثم ارسلت تلميذا إلى المدرسة مع عربة صغيرة لنقل الحاجيات لكى يحضر لى حقائبى وبعدئذ تناولت قدرا من الخبز والزيتون .

وفى تمام الساعة الثانية وتحت وهج شمس ما بعد الظهر المتوحشة بدأت أجر خطاى بين سياج من الشجيرات وأشجار الكمثرى نحو سلسلة الجبال الرئيسية .. كنت ممسكا بفانوس لا تطفئه الرياح وبعقلة حديدية ومنشار معدنى فالبحث والتحرى لا يعتبر فضيحة اخرى .

(٦٥)

وصلت إلى بورانى فى حوالى الثالثة والنصف . كان الجزء العلوى من البوابة ، وكذلك الفجوة المجاورة ، محاطا بالاسلاك الشائكة بينما هناك لافتة جديدة تغطى على اللافتة المكتوب عليها (غرفة الانتظار) . مكتوب عليها باللغة اليونانية ممتلكات خاصة . ممنوع الدخول كان من السهل التسلق فوق الاسلاك ولكننى ما أن وصلت الى الداخل حتى سمعت صوتا متراميا من موتسا من خلال الاشجار . فقمت باخفاء المصباح والأدوات خلف شجيرة ثم تسللت إلى الخارج .

وسرت فى حذر هابطا المدق إلى أن تمكنت من مشاهدة الشاطىء كان

هناك مركب راسيا عند الطرف البعيد .. هناك ستة أشخاص من غير اهالى الجزيرة ـ يرتدون مايوهات ذات الوان زاهية . شاهدت إثنين من الرجال يلتقطان فتاة تصرخ ثم القيا بها فى البحر مشيت ياردات قليلة داخل الاشجار اتمكن من التعرف على شخصياتهم فى أية لحظة . ولكن الفتاة بدت ضيئلة ويونانية الطابع .

كان هناك صوت خلفى . صياد حافى القدمين يرتدى بنطلونا باليا إنه صاحب الزورق فسألته عمن يكونوا هؤلاء الناس . إنه السيد سوترياديس واسرته وهم يجيئون فى كل صيف إلى هذه الجزيرة .

هل يجيىء أناس كثيرون من أثينا إلى الخليج فى أغسطس ؟ فقال . عدد كبير للغاية . ثم اشار بيده إلى الشاطىء فى خلال أسبوعين تجيىء زوارق عدد من الناس يفوق طاقة الشاطىء لقد أصبحت بورانى حبلى بالمزيد من الناس : وأصبح لدى السبب الأخير الذى يدعونى لمغادرة الجزيرة .

كان المنزل مغلقا مثلما شاهدته اخر مرة شققت طريقى حول الأخدود وادهشتنى الطريقة المخادعة التى تخفى الباب المسحور ثم رفعت الباب ونزلت هابطا ومعى المصباح ومعى المعدات . وكان علىّ أن أنشر سقاطة الباب المسحور لأول غرفة جانبية ، فانكسر تحت ضغط العتلة . فالتقطت المصباح وأوصدت الباب بالترباس ثم فتحت الباب ودخلت .

فوجدت نفسى فى غرفة مستطيلة وشاهدت فتحتين قد تم سدهما بالقضبان الحديدية وكانت هناك خزانة شاغرة وحقيقة الأمر أن الغرفة كلها كانت خالية من اى شىء شخصى وعلى نحو مخيب للآمال . رحت انشر القفل الأخر لادخل الغرفة وكانت مؤثثة بطريقة مماثلة للغرفة السابقة بها صورة جدارية وفى دولاب عثرت على البوق الذى كان يستخدمه هيكل «ابوللو» فى المناداة وعلى أفرول ابيض لرئيس الطباخين وعلى الزى الرسمى الكامل لضابط من الحرب العالية الأولى عليه شارات برتبة لواء .

توجهت الى رف الكتب . وفى توتر جذبت كمية الكتب كلها فسقطت من احدها نسخة قديمة من تمثيليات شعبية انجليزية تشبه الأراجوز صادرة فى عام ١٩١٤ .

والذى به صور عديدة مرسومة بالطباشير الأحمر كومة مطوية صغيرة اعتقدت فى بادىء الأمر انها مجموعة من الخطابات وكان من الواضح انها

تتضمن نوعا من التعليمات بلا تواريخ .
١ ـ الطيار الايطالى الذى مات غرقا قررنا حذف هذا الحادث العرضى فى الرواية
٢ ـ النرويج : قررنا حذف الزيارات فى هذه الحلقة من سلسلة الاحداث
٣ ـ لو قام الشخص الذى تجرى عليه الابحاث باكتشاف المخبأ ارجو أن تتأكد من الاجراءات الجديدة ازاء هذا الاحتمال الطارىء بحلول اجازة نهاية الاسبوع التالية : وليلى تعتقد ان الشخص الذى تجرى عليه الأبحاث قد يقحم مثل هذا الموقف علينا .
٤ ـ هيرونديل : تجنب التنويه عن اى شىء مع الشخص الذى تجرى عليه التجربة من الآن فصاعدا .
٥ ـ المرحلة النهائية : الانتهاء بحلول نهاية مايو من كل شىء باستثناء مركز النشاط
٦ ـ حالة الشخص الذى تجرى عليه التجربة : يعتقد موريس ان الشخص الذى تجرى عليه التجربة قد وصل الآن الى المرحلة اللينة التى يمكن فيها البدء بالطرق على شخصيته . ولنتذكر أن اى تمثيل مع لشخص الذى نجرى عليه التجربة افضل من عدم التمثيل معه .
وكانت وراء كل ورقة من تلك الأوراق كتابة من الواضح انها مسودات كتبتها ليلى . وهناك كلمات محذوفة وتشطيبات

الحب هو المسلك الذى تسير عليه التجربة وهو الحد الأقصى للقدرة المبدعة .
والحب هو طبيعتك الانسانية ورجولتك فى حدائقى وبساتين فاكهتى .
والحب هو وجهك المكفهر ووجهك اللطيف ويداك اللطيفتان .
٢ ـ الاختيار .
اصفح عنه الى ان يموت
عذبه الى أن يعيش

٣ ـ قدر كاف من الاسرار الغامضة فى وقت الظهيرة الممرات التى لا يتردد عليها أحد والتى تخطف بالابصار الموجودة فوق البحر المطروق من جانب الكثير من المترددين تمسك جيدا بالمتاهة وتحجب الرؤية

ولا داعى لان تتلوى تحت القمر .
هنا فوق الصخرة السرية الصاعدة .
وفى هذا الغضب الأبيض للضوء الباهر يكون الغموض كافيا فى وقت الظهيرة .
أما الأوراق الثلاث الأخيرة فقد كتب عليها قصة خرافية رحت اقرأها .

وكانت كافة « الأوامر » مطبوعة على الآلة الكاتبة وهو أمر مثير للشكوك ، كما أن القصائد كتبت بنفس القلم الرصاص وكأنها كتبت خصيصا من أجل غرض معين فى جلسة واحدة . لم أصدق أن مثل هذه « الأوامر » يمكن أن تكون قد أرسلت . وفكرت مليا فى الأمر فالقصائد والقصة الخرافية المتعلقة بنظرية المعرفة فى الفلسفة من السهل فهمها حيث كانت لها تطبيقات واضحة . من الواضح أنهم لم يكونوا واثقين اننى سأقتحم المخبأ . وربما وجدت مثل هذه العلامات مبعثرة فى جميع أرجاء المكان لعلهم وضعوا فى الاعتبار أننى سأعثر على نسبة ضئيلة من المفاتيح ومع ذلك فهى قد تكون مضللة مثل باقى المفاتيح الأخرى التى قدموها إلى .
كنت أضيع وقتى هباء فى بورانى فكل مايبدو أننى أعثر عليه فى بورانى من شأنه أن يزيد من حيرتى .

فمن خلال البحث المحموم رحت أؤلف قصة بوليسية ترتكز على أحداث الصيف ناظرا الى الحياة باعتبارها قصة بوليسية من حيث هى شىء مايمكن الاستدلال عليه واصطياده والقاء القبض عليه وهو أمر لايتسم بالواقعية ناهيك عن أنه لايتسم بطابع الشعر ، شأنه فى ذلك شأن النظر إلى القصة البوليسية على أنها أهم أنواع الأدب بدلا من النظر إلى القصة البوليسية من حيث حقيقة جوهرها باعتبارها أقل أنواع الأدب أهمية .

فى موتسا ولدى مشاهدتى لمجموعة الناس لأول وهلة شعرت بصدمة الإثارة . ثم شعرت بصدمة من خيبة الأمل عندما أدركت أنهم مجرد سياح . وربما كان يمثل أشد حالات استيائى من كونشيس . إنه استياء لا ينصب على مافعله وإنما لأنه توقف عن الاتيان بما كان يفعله .

قررت أن أقتحم المنزل وأن أقوم بنوع من الانتقام . بدت لى الفكرة حقيرة وغير كافية لأننى كنت أرغب فى تأجيل انتقامى أدركت الكيفية التى يجب أن أعالج بها الموقف . لقد استطاعت المدرسة أن تفصلنى من العمل ولكن لاشىء يمنعنى من المجيىء للجزيرة فى الصيف القادم . وعندئذ سنرى من الذى يضحك أخيرا ؟

تركت المخبأ . ثم ذهبت إلى المنزل وسرت تحت بواكى الأعمدة .

لم تكن الكراسى متواجدة ولاحتى الجرس .

وفى حديقة الخضراوات كانت نباتات الخيار صفراء تلفظ أنفاسها الأخيرة .

كنت مليئا بحزن شديد . حزن على الماضى والحاضر والمستقبل . أن أقول « إلى اللقاء » ولكننى على أمل أن يظهر شخص ما . ولم أعرف ماذا سأفعل لو ظهر شخص ما ؟ لم أعرف ماذا سأفعل عندما أذهب الى أثينا ؟ واذا كنت أريد أن أعيش فى انجلترا فإننى لم أكن أعرف العمل الذى سأقوم به هناك . كنت أعرف فقط الأمور التى لا أريد أن أعملها . وكل ما استطعت التوصل إليه فيما يتعلق بمستقبلى الوظيفى أننى كنت مصمما ألا أصبح مدرسا مرة أخرى فى أى نوع من أنواع التدريس . كنت على استعداد لأن أفرغ صفائح الزبالة ولاأعود للتدريس .

امتدت الصحراء الجدباء من الناحية العاطفية أمامى . وعدم مقدرة على الوقوع فى الحب مرة أخرى مستقبلا وقد نجم ذلك عن الموت من الناحية العملية الواقعية لليلى وعن الموت الحقيقى لاليسون . كنت غير واقع تحت السكر العاطفى لليلى ولكن شعورى بخيبة الأمل الناجم عن فشلى فى مجاراتها قد أصبح إلى حد ما شعورا بالاحباط ازاء شخصيتى ذاتها . تملكنى إحساس بأنها سوف تفسد أية علاقة يمكن أن أكونها مع أية امرأة . بحيث تقف كالشبح وراء كل نقصان فى الذوق . آليسون فقط كان بمقدورها أن تطرد روح ليلى الشريرة . وتذكرت تلك اللحظات من الشعور بالارتياح فى مونيمفاسيا وفى السفينة العائدة الى فراكسوس . وهى لحظات بدت فيها الأشياء العادية جميلة ومحببة للنفس .

كان باستطاعتى العثور على ذلك فى أليسون فروحها كانت كامنة فى سجيتها وفى تكهنها بالمستقبل وفى جوهرها البللورى الخالى من الخيانة وفى انتسابها لكافة الأمور التى لم تتعلق بها ليلى .

لقد عوقبت بتركى وحيدا فى جزيرة مهجورة بدون أجنحة وثقيل الوزن كأن قطيعا غريبا من المخلوقات المجنحة أحاط بى ثم تركنى منطلقا فى غموض مثلما تمر الطيور المغردة فى الهواء مخلفة وراءها الصمت الذى يعقب التغريد .

ولم يترام من الخليج سوى أصوات آدمية علاوة على صيحات خافتة .

كان الحاضر ينخر فى الماضى ويصيبه بالتآكل ومالت الشمس من خلال أشجار الصنوبر فسرت للمرة الأخيرة فى اتجاه التمثال .

كان تمثال بوسايدون يقف منحنيا تجاه بحره المقدس فى جلال كامل بسبب سيطرته الكاملة على بلاد اليونان الخالدة التى لايمكن سبر أغوارها . أكثر البلاد شجاعة وصفاء . بلاد الأسرار الغامضة فى وقت الظهيرة . ربما كان هذا التمثال يقع فى الجزء الأوسط من بورانى .

لم تكن السُّرَّة أو بورانى هى المنزل أو المخبأ أو كونشيس أو ليلى وانما كان متمثلا فى هذا التمثال الصامت المسالم العاجز عن التدخل .

«٦٦»

كان أول شىء قمت به لدى وصولى إلى فندق « بريطانيا العظمى » فى أثينا هو الاتصال تليفونيا بالمطار . وتم توصيلى بالخط التليفونى المطلوب . ورد على الرجل سألنى عن اسمى . ثم قال : انتظر دقيقة من فضلك .

ويبدو أنه كان يقصد دقيقة بالمعنى الحرفى . ولكننى سمعت أخيرا صوتا نسائيا فيه لكنه يونانية / أمريكية . وبدا صوتها مشابها لصوت الفتاة التى كانت قائمة بالعمل عندما قابلت اليسون .

- مجرد صديق لها .

- هل تعيش هنا ؟

ـ نعم .

وسادت لحظات من الصمت . على مدى ساعات اودنى أمل ضئيل محموم . حملقت نحو السجادة الخضراء المنهكة ، جاء السؤال : ألم تعرف ماحدث ؟ لقد ماتت .

ـ ماتت ؟

ومن المؤكد أن صوتى قد ظهرت به نبرات تدل على عدم الدهشة ، جاء الصوت : منذ شهر مضى . وحدث ذلك فى لندن . ولقد ظننت أن كل شخص يعرف ذلك . لقد تناولت كمية كبيرة من ...

فوضعت سماعة التليفون . ثم استلقيت على السرير ورحت أحملق فى السقف . ومر على وقت طويل قبل أن اكتشف أن لدى الرغبة فى النزول لكى أبدأ فى احتساء الخمور .

وفى صباح اليوم التالى ذهبت الى « المعهد البريطانى » وقلت للرجل الذى كلف بالاهتمام بطلباتى أننى قدمت استقالتى « لأسباب شخصية » ولكننى بدأت أوحى له أنه ليس من حقه إرسال أناس الى مثل هذه الأماكن المنعزلة . فقفز ذهنه فجأة الى استنتاجات خاطئة فقلت : انا لم أرتكب أخطاء تتعلق بالتلاميذ . لا شىء من هذا القبيل .

أيها الزميل العزيز . سامحك الله . لم أقصد ذلك .

ثم قدم لى سيجارة فى شىء من الهلع .

تحدثنا بكلام مبهم عن العزلة وعن بحر إيجه والجحيم المطلق المتعلق بتعليم السفارة وافهامها بأن المجلس ليس مجرد مكتب استشارى ملحق بالسفارة . وفى نهاية الحديث سألته بطريقة عرضية عما إذا كان قد سمع عن شخص يدعى كونشيس . ولكنه لم يكن قد سمع عن ذلك الاسم . قلت : انه مجرد رجل قابلته فى الجزيرة ويبدو أنه يرغب فى أن تعطى الجزيرة للانجليز .

ـ يبدو أن هذه الهواية الجديدة الوطنية ، فالأهالى يرغبون فى بذر

الشقاق بيننا وبين الأمريكيين .

شكرا جزيلا لك يا أورفى . انا اسف لأنك قدمت استقالتك . ولكن لاتنزعج ولسوف ننظر بعين الاعتبار لكل ما قلته ، وبينما أشق طريقى فى اتجاه الباب أدركت أنه شعر بالمزيد من الأسف من أجلى لأنه وجه لى الدعوة لكى أتناول مع طعام العشاء فى تلك الليلة .

ولكننى ما أن عبرت ميدان كولوناكى الذى يطل عليه مبنى المعهد البريطانى حتى تعجبت من نفسى بسبب قبولى الدعوة . لقد كان الجو الانجليزى الخانق فى ذلك المكان غريبا علىَّ للغاية ، اكتشفت أننى كنت أحاول التأقلم مع ذلك الجو .

لقد قالوا فى المحكمة : « إنه يسعى إلى مواقف يعرف فيها أنه سوف يجبر على التمرد » .. ولكننى اذا رفضت ان أكون ضحية فعلى أن أجد الشجاعة لرفض كل الماضى الخاص بى وكان على أن أكون مستعدا لتفريغ صفائح الزبالة بدلا من التدريس . لقد كان الناس الموجودين فى المعهد البريطانى غرباء على تماما . أما اليونانيون المجهولى الأسماء لى والموجودون حولى فى الشوارع فهم المواطنيون المألوفون لى .

عندما تركت المعهد البريطانى ذهبت إلى وزارة الداخلية وتحت إدعاء أننى أقوم باعداد كتاب عن الرحلات والأسفار ذهبت إلى القسم الذى يضم ملفات جرائم الحرب . وفى خلال ١٥ دقيقة حصلت على نسخة مكتوبة باللغة الانجليزية للتقرير الحقيقى الذى كتبه أنطون فشرعت انه متطابق تماما ، باستثناء بعض التفاصيل الدقيقة للغاية ، مع ماقاله كونشيس .

سألت الموظف الذى ساعدنى على الحصول على التقرير عما إذا كان كونشيس مازال حيا فراح يتصفح الملف الذى استخرج منه التقرير . لم يكن بالملف أى شىء باستثناء العنوان بفراكسوس . لم يكن يعرف . وهو لم يسبق له أن سمع عن كونشيس لأنه موظف جديد فى القسم .

ثم قمت بزيارة ثالثة ، وفى هذه المرة ذهبت إلى السفارة الفرنسية . وتقابلت مع الملحق الثقافى . وأوضحت له أننى فى اشتياق للغاية لأن أقرأ

كتاب ذلك العالم الفرنسى الشهير فى علم النفس والذى تحدث فيه عن الفن باعتباره وهما ... ويبدو أن هذه الفكرة أثارت اهتمامه ولكننى وقعت فى المتاعب بمجرد أن ذكرت اسم جامعة السوربون . اذ أبدى أسفه وأوضح أنه لاتوجد كلية للطب فى جامعة السوربون .

ومع ذلك قادنى إلى رف به مراجع علمية فى مكتبة السفارة . وسرعان ما تأكدت ان كونشيس لم يكن تحت أى اعتبار ملتحقا بجامعة السوربون (أو فى أى جامعة فرنسية أخرى) بل ولم يكن اسمه مسجلا كطبيب فى فرنسا ولم يسبق أن نشرت له أبحاث باللغة الفرنسية . كان هناك بروفيسور اسمه موريس هنرى كونسيس / فيرونفاى بجامعة تولوز وهو الذى كتب سلسلة من الأبحاث على مستوى علمى رفيع عن أمراض العنب . لكننى رفضت أن أعتبره كبديل .

رجعت إلى الفندق تحت حرارة منتصف النهار الشديدة . واستدار الموظف فى قسم الاستقبال لكى يعطينى مفتاح غرفتى وخطابا . لم يكن على المظروف سوى اسمى فقط مع وجود كلمة « مهم وعاجل » ففتحته على الفور . كان بداخله قصاصة من الورق بها رقم واسم : ١٨٤ سينجرو « من أحضر هذا الخطاب ؟ »

- إنه ساع

ولم يكن يعرف أكثر من هذا كنت أعرف مكان سينجرو : إنه شارع عريض مشجر يمتد من أثينا إلى بيروس . فخرجت من الفندق على الفور وقفزت إلى داخل تاكسى .

وبعد دقيقة توقف التاكسى عند منزل فى حديقة متوسطة الحجم . وكان الرقم ١٨٤ واضحا على اللافتة الخاصة بالمنزل .

كانت الحديقة شنيعة للغاية .

النوافذ مغطاة بألواح من الخشب . وسرت إلى الباب الأمامى للمنزل ثم درت إلى خلف المنزل . كان عبارة عن هيكل لمبنى غير مكتمل البناء . وكانت هناك اثار حريق حدث منذ بضعة سنوات سابقة حيث وجدت السقف

هابطا فى داخل المنزل . رحت أتفحص الجزء الخلفى من الحديقة كان جافا وكئيبا مثل الجزء الأمامى من الحديقة . وكان الباب الخلفى فاتحا فاه . وكانت هناك دلائل مثل العارضات الخشبية الساقطة والحوائط المتفحمة بعض الشيء تدل على أن المومسات قد سكنوا ذلك المكان يوما . وكانت هناك آثار نيران حديثة نسبيا فى مدفأة قديمة . أحسست أنه لايوجد هناك شيء يمكن العثور عليه كانت المسألة خداعا .

رجعت إلى التاكسى المنتظر كانت حركة المرور كثيفة فى شارع سينجرو وكانت الأوراق فى شجرة نخيل عند البوابة تحدث حفيفا وقف بائع أوراق اليانصيب يتحدث مع سائقى . واستدار لدى خروجى من المنزل سألنى : أتبحث عن شخص ما ؟

- منزل من هذا ؟

كان رجلا غير حليق الذقن يرتدى حله رمادية بالية وقميصا قذرا أبيض اللون وكان ممسكا فى يديه بمسبحة رفعها . لأعلى بما يفيد أنه لايعرف . نظرت إليه من وراء نظارتى السوداء . ثم قلت له كلمة واحدة : كونشيس ؟ وعلى الفور أشرق وجهه كما لو كان قد فهم كل شيء : آه .. أفهم الآن . ألنت تبحث عن كونشيس ؟

- نعم .

فتح يديه . وقال : لقد مات .

- متى ؟

- منذ خمس سنوات ذُبح .

ابتسمت ابتسامة حادة وقلت له باللغة الانجليزية : « من أين تجيىء من المسرح القومى ؟ هز رأسه وكأنه لم يفهم نظر إلىّ السائق وقال : إنه رجل غنى للغاية ، إنه مدفون فى مقبرة سانت جورج . وهى مقبرة تساءلت : أهذا هو كل شيء ؟

- لا . اذهب وشاهد قبره ، إنه قبر جميل دخلت إلى التاكسى . فاندفع نحو عصاه التى تضم أوراق اليانصيب ولوح بها مهددا من خلال النافذة قائلا : لسوف تكون سعيد الحظ . الانجليز دائما سعداء الحظ (والتقط

ورقة يانصيب وعرضها علىّ . آه مجرد تذكرة يانصيب واحدة صغيرة » .

فتكلمت فى حدة مع السائق . فاستدار بالتاكسي استدارة شديدة . استوقفت السائق عند إحدى المقاهى . وناديت على النادل وسألته : المنزل الموجود فى الخلف هناك هل تعرف اسم الشخص الذى يمتلكه ؟

ـ نعم .. إنه يخص أرملة تسمى كانت تعيش فى كورفو .

وفى تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم وعندما أصبحت الحرارة أقل حدة استقللت أتوبيسا للذهاب إلى المقبرة . التى تقع على مسافة بضع أميال من أثينا . فوق منحن مليىء بالأشجار لجبل آيجاليوس، وعندما سألت العجوز حارس البوابة كنت أتوقع منه أن ينظر الىَّ نظرة خاوية ولكنه سار فى آلم الى داخل مسكنه وراح يتصفح سجلا كبيرا وقال لى : إنه ينبغى علىَّ أن أسير فى الحارة الرئيسية . ثم أصل الى الحارة الخامسة على اليسار . ومررت بجوار صفوف من المعابد الأيونية الطراز وتماثيل نصفية فى طابور طويل وبلاطات حجرية تحمل نقشا تذكاريا مزخرفا غاية من الذوق الرديىء انها غابة خضراء وظليلة .

فى الحارة الخامسة على اليسار . وبين شجرتين من أشجار السرو وتحت ظلال نبات حزين شبيه بنبات الدريقة ذى الأوراق الكبيرة الدائمة الخضرة توجد بلاطة رخامية عليها كلمات منقوشة تحت صليب :

موريس كونشيس
(١٨٩٦ ـ ١٩٤٩)

ميت منذ أربع سنوات .

وفى أسفل البلاطة الرخامية كان يوجد إناء أخضر صغير به زهرة فل بيضاء ووردة حمراء وكانت الزهرة والوردة ترتفعان فوق وسادة من الأزهار البيضاء بدا ان سويقات النباتات قد قطعت صباح اليوم .

كانت المياه صافية وطازجة . وفهمت . أنها طريقته فى إخبارى بما خمنته وهو أن أعمال التقصى والتحرى لن تؤدى بى إلاّ إلى ـ قبر زائف ونكته أخرى وابتسامة تتلاشى فى نسيم الهواء .

أعدت الأزهار إلى مكانها وسقط أحد الأغصان فالتقطته ورحت أتشممه . كان له عطر جميل شبيه برائحة العسل النحل . وطالما كانت هناك وردة وفلة فربما كان لذلك دلالة معينة . ووضعت الغصن الصغير فى عروة سترتى وحاولت نسيان الموضوع .

وعند البوابة سألت العجوز عما إذا كان يعرف أى شخص من أقارب المرحوم موريس كونشيس .

فراح يبحث فى كتابة مرة أخرى ولكن لم يكن هناك أى أسماء لاقاربه وهل كان يعرف الشخص الذى يحضر الأزهار ؟ لا . فهناك عدد كبير من الناس يحضرون الأزهار والورد . سرعان ما جاء زوار آخرون فأنشغل عن العجوز .

كان العشاء فى ذلك المساء رهيبا . كان صورة مصغرة من البلاهة الانجليزية . وقبل أن أذهب خطر على ذهنى أن أحدثهم عن بورانى . شاهدت منضدة عشاء ساحرة . كنا ثمانية أشخاص : خمسة من المعهد البريطانى وسكرتير السفارة وشخص غريب الأطوار فى منتصف العمر وهو ناقد فنى قد جاء لإلقاء بعض المحاضرات . دار قدر كبير من الدردشة الودية حول الأدب . أن يتطرق الحديث الى بعض الشخصيات الأدبية . تساءل رجل السفارة : هل قرأ أحدكم آخر رواية كتبها هنرى جرين ؟

- لم استطع أن أتذوقها .

- أوه . لقد استمتعت بها بعض الشىء .

فلمس الشخص الغريب الأطوار « البابيون » الخاص به وقالت « أنت بالطبع تعرف ما قاله العزيز هنرى ... عندما رجعت إلى غرفتى بالفندق كانت الساعة . قد وصلت إلى حوالى الثانية عشرة والنصف ليلا . كان هناك نقصان فى الهواء والحرارة المعتادة التى تتميز به ليالى أثينا فى الصيف . وما أن خلعت ملابسى وفتحت الدش لكى آخذ حماما حتى دق جرس التليفون بجوار السرير فاتجهت عاريا الى التليفون . رد علىّ البواب المكلف بنوبة الليل « يا سيد أورفى توجد مكالمة تليفونية من أجلك » .

ثم حدثت طقطقة وسمعت صوت رجل لم أستطع التعرف على صوته يتكلم بالأنجليزية : هل أنت السيد أورفى ؟ .

ـ نعم أنا أورفى من أنت ؟

ـ هل تتكرم بالنظر من نافذتك لو سمحت ؟ وحاولت الابقاء على المكالمة بدون جدوى لأن الرجل قد اعاد السماعة الى موضعها . فأخذت عباءتى على وجه السرعة حيث كانت موجودة على السرير . وأطفأت النور فى الغرفة وجريت الى النافذة .

كان هناك تاكسى واقفا على الجانب المقابل وكان الجزء الخلفى منه فى اتجاهى وعند سفح التل . ظهر رجل يرتدى قميصا أبيض وسارع نحو الجانب البعيد من الشارع متخطيا التاكسى . لم يكن به لافت للنظر . كانت الأرضية خالية من الناس وكانت هناك أضواء الشارع الحوانيت مغلقة والمكاتب مظلمة . ولايوجد سوى هذا التاكسى الوحيد اختفى الرجل . ثم حدثت حركة . ففى مواجهة نافذتى مباشرة وتحتها كانت توجد إضاءة للشارع مثبته على الحائط فوق المدخل المؤدى إلى ممر دكاكين وبسبب الزاوية لم يكن بمقدورى رؤية الجانب الخلفى من ممر البواكى .

ظهرت فتاة خارجة من الممر .

ودار موتور التاكسى .

كانت الفتاة تعرف مكانى . فخرجت الى حافة الرصيف . وتطلعت إلى نافذتى . كان وجهها واقعا تحت ظلال الضوء ترتدى فستانا أسود ممسكة فى يدها اليسرى بحقيبة يد سوداء اللون . وخرجت من الظلال مثلما تفعل المومسات . ولم تظهر عليها أية تعبيرات . ولم يدم ذلك سوى لحظات . صعد التاكسى على الطريق ليصل أمامها مباشرة وفتح شخص ما الباب فاندفعت بداخله . ثم انطلق التاكسى بسرعة هائلة وأطلقت عجلاته صرخة مدوية عند نهاية الشارع .

(٦٧)

كنت قد صحت باسمها فى غضب فى اللحظة الأخيرة . واعتقدت فى بادىء الأمر أنهم عثروا على « دوبلير » أو على إنسانة تشبهها تماما ، لم يكن بمقدور أية فتاة أخرى أن تقلد مشيتها وطريقتها فى الوقوف .

قفزت عائدا الى التليفون واتصلت بالبواب المكلف بالنوباتجية الليلية

وقلت : تلك المكالمة ـ هل يمكنك ان تعرف من أين جاءت ؟

ـ لا أعرف .

ـ هل كان هناك شخص غريب فى حجرة الانتظار بالفندق خلال الساعة الأخيرة ؟

« لايا سيد أورفى » .

أغلقت الدش . وارتديت ملابسى على وجه السرعة وخرجت الى الميدان . وحمت حول جميع المقاهى وحملقت داخل جميع التاكسيات وذهبت الى جميع الأماكن ذات الطراز الحديث فى المنطقة وكنت عاجزا عن التفكير وعن عمل أى شيء سوى ذكر اسمها وسمعته فى وحشية بين أسنانى .

آليسون . آليسون . آليسون .

لقد تقبلت وكان علىَّ أن أتقبل الحقيقة الأولى التى لايمكن تصديقها : وهى أنها وافقت بكل تأكيد أن تنضم إليهم . ولكن كيف أمكنها أن تفعل ذلك ؟

ولماذا ؟ ومرة أخرى : لماذا .

ورجعت إلى الفندق .

ربما عرف كونشيس بالشجار الذى حدث بينى وبين آليسون ، وربما استرق السمع أثناء الشجار .

ولعله استخدم كاميرات فبمقدوره استخدام ميكروفونات وأجهزة تسجيل الصوت على شرائط . من المحتمل أن يكون قد أجرى اتصالات معها أثناء الليل أو فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى . تلك الرسائل الموجودة فى المخبأ . وأولئك الناس بفندق بيروس الذين راحوا يرقبوننى وأنا أحاول اقناعها بأن تسمح لى بالدخول إلى غرفتها . من المؤكد أن كونشيس أرهف السمع بمجرد أن ذكرت اسمها . وهو بمجرد أن عرف أنها بصدد المجيىء الى أثينا أدخل تعديلات جديدة فى خططه . فكلف أشخاصا ليتتبعونا ابتداء من لحظة لقائى ، ثم تمكن من اقناعها مستخدما كل ما لديه من سحر

وجاذبية وربما خدعها لكى تبدأ معه . هبطت علىّ لحظات من الغيرة غير المتصفة بالطابع الجنسي .. وتخيلت أنه قال لها الحقيقة : إننى أرغب فى إعطاء هذا الشاب الأنانى درسا لن ينساه طوال حياته .

ترى هل كانت تعمل لصالحه ؟ ألم يقم بارغامى لمقابلتها عن طريق الغاء أجازة نصف السنة الدراسية ؟ بل وعرض علىّ استخدام المنزل الريفى إذا وددت أنت أحضرها إلى الجزيرة ؟ تذكرت كلاما ، كانت « جين » قد قالته فى الليلة الأخيرة ـ كيف أنهم قد تحايلوا على المشكلة بحل مؤقت . من المؤكد انهم عثروا عقب صراخها فى فندق بيروس ، على طريقة لشراء آليسون مستخدمين منطقهم المريض وجنونهم وأكاذيبهم ونقودهم .. وربما أخبروها بالسر الكبير الذى لم يسمح لى بأن أعرفه : وهو لماذا اختارونى فى بادىء الأمر . وتذكرت جميع الأكاذيب التى قلتها لهم عن آليسون وعن الأمور التى كانت لديهم فكرة كاملة عنها بكل تأكيد . وزمجرت بصوت مرتفع لدى استرجاعى كل ذلك .

رحت افكر فى الأمر مليا ، من الغريب أنهم لم يستفيدوا من « جين » سوى بقدر ضئيل للغاية . ومن المؤكد أنه كان هناك دور كبير لها فى خططهم قبل « دخول » آليسون غير المتوقع الى الميدان . وذلك اللقاء الأول الذى تم معها وجها لوجه وما تم فيه من سخرية من مزاجى المتقلب علاوة على الهراء المتكرر عن قصة « القلوب الثلاثة » كل ذلك يدل على الكيفية التى سارت بها الأمور . ثم يوم الأحد على الشاطىء وذلك التفاخر بجسدها العارى .. ربما لم يكن كونشيس واثقا تماما من آليسون عقب السماح ببعض لأول مرة ولذلك كان الأمر يستلزم السماح ببعض الطوارىء المحتملة الوقوع . من المؤكد أن آليسون هى التى كسبت الجولة فانسحبت « جين » من مسرح الأحداث . وذلك هو أيضا السبب فى أن شخصية ليلى ودورها قد تغير والسبب فى أنه كان عليها أن تتخذ وبسرعة كبيرة دور سيرس ..

لم يكن التابوت شاغرا . لقد أرادوا لها أن تشهد بنفسها نجاح طريقتهم . وتخاذل عقلى تحت قسوة هذا الموقف الخالى من الرحمة . كانت المحاكمة سبب « افتراس للمراهقات » من المؤكد أنها قامت باخبارهم بذلك . والمزاج الانتحارى الذى مرت به قبل مغادرتى لندن . لقد

كانوا يعرفون كل الماضى الخاص بى .

تصاعدت موجات الغضب فى داخلى إلى درجة الجنون . وتذكرت كل موجات الحزن الحقيقى التى اجتاحتنى عندما وصلتنى أنباء موت آليسون . ربما كانت موجودة طوال الوقت فى أثينا وربما بالمنزل فى القرية أو فى بورانى .

بحيث كانت ترقبنى بما يتمشى دائما مع أصداء تلك المواقف الشكسبيرية .. . رحت أجوب غرفتى متخيلا المشاهد التى أضع فيها آليسون تحت رحمتى . وأتخيل نفسى أضربها ضربا مبرحا مما جعلها تبكى فى ندم .

ومرة أخرى انصب تفكيرى على كونشيس وعلى سر مقدرته فى تشكيل فتيات فى مثل ذكاء ليلى والتأثير عليهن والتأثير على فتيات لهن شخصية مستقلة مثل آليسون .

كما لو كان لديه سر من نوع ما أفشاه لهن مما وضعهن تحت رحمته ، ومرة أخرى أصبحت الرحل الملقى فى الظلام . الرحل المنبوذ موضع السخرية باستمرار .

لم أستطع النوم . شعرت بالرغبة فى الذهاب إلى ايلينيكون ولوى رقبة الفتاة الجالسة وراء كاونتر شركة الطيران . فكل من الرجل الذى رد فى بادىء الأمر على مكالمتى التليفونية والفتاة ذاتها ، وهذا هو ما أدركته الآن ، كان متلهفا لأن يعرف شخصيتى ومن المؤكد أنهما قد أقنعا ـ ربما بمعرفة آليسون ذاتها ـ بأن يتعاونا فى هذا الصدد . ولكننى أدرك أننى لن أتمكن من الوصول إلى حقيقة الموقف إذا ذهبت إلى هناك . ومن المتوقع تماما أن يقدما لى نفس قصاصات الصحف المزيفة .

كان على أن أفعل أى شىء فى تلك الأثناء فنزلت إلى بهو الفندق ووجدت البواب المكلف بنوبة الليلة ، قلت ؛ أريد أن أتصل بهذا الرقم التليفونى فى لندن . ثم كتبت الرقم . وبعد دقائق قليلة اشار بيده الى كشك .

ووقفت مصغيا إلى طنين التليفون فى شقتى القديمة فى ميدان راسيل .

واستمر الطنين لفترة طويلة ثم توقف فى نهاية الأمر حيث رفعت السماعة تساءلت :

سبحان الله ... من يكون ذلك ؟

فقال عامل التليفون : هناك مكالمة لك من أثينا .

وكان يبدو من صوتها أنها فتاة لطيفة شبه نائمة . ورغم أن هذه المكالمة الخارجية كلفتنى أربعة جنيهات إلاّ أنها كانت تستاهل هذا المبلغ . اذ اكتشفت أن «آن تيلور» رجعت إلى استراليا منذ ستة أسابيع وتساءلت عما اذا كانت هناك فتاة قد قتلت نفسها فقالت : إنها لاتعرف ذلك . وأضافت أعتقد أنها صديقة لآن تيلور وأظن أنها أخذت الشقة ولكنى لم أشاهدها منذ أسابيع . وهى فتاة شقراء لم أشاهدها سوى مرتين . ويبدو أنها استرالية . ولكن من الذى ....

استيقظت من النوم متأخرا بعد أن نمت نوما أعمق مما كنت أتوقع . ظللت مستلقيا فى السرير لبعض الوقت مصغيا لضوضاء الشارع المترامية إلى من أسفل ومفكرا فى اليسون . حاولت أن أسترجع التعبيرات التى كانت على وجهها وعما إذا كان هناك أى قدر من روح الفكاهة فى وقوفها هنالك .

وكان باستطاعتى إدراك توقيت بعثها من جديد .

وأصبح من الواضح أننى سأكتشف كل شىء بمجرد عودتى إلى لندن . وكان ينبغى أن يتم اكتشافها فى أثينا .

وكان على أن أبدأ فى البحث عنها . انتابتنى الريبة فى مشاهدتها . كنت فى أشد الشوق لرؤيتها واستخلاص حقيقة الأمر منها ولكى أجعلها تدرك كم كانت خيانتها لى أمرا كريها للغاية . وأنها مهما زحفت حول خط استواء على ركبتيها فإننى لايمكننى أن أغفر لها . لكى أجعلها تدرك أن كل شىء بيننا انتهى إلى غير رجعة لأننى أصبحت مشمئزا منها إلى أقصى درجة . وأصبحت غير مفتون بها أو بليلى .

آه لو استطعت أن أضع يدى على ليلى .

ولكن الشيء الوحيد الذى لم أكن مستعدا لأن أقوم به هو البحث عن ليلى .

كان على أن أنتظر . فهم قد يحضرونها الى . وفى هذه المرة سوف أستخدم السوط .

نزلت إلى المطعم وتناولت إفطارا فى وقت الظهيرة . كان هناك خطاب من أجلى تم تسليمه باليد لادارة الفندق . وفى هذه المرة كان الخطاب يحتوى على كلمة واحدة « لندن » وتذكرت ذلك الأمر الذى كان موجودا مع الأوامر الأخرى بالمخبأ : الانتهاء بحلول شهر مايو من كل شيء باستثناء النواة إنها عشتاروث غير المرئية .. لقد كانت هى اليسون .

ذهبت إلى شركة الطيران وحصلت على مقعد على الطائرة المسائية وبينما كنت واقفا منتظرا إعطائى تذكرة السفر شاهدت خريطة لايطاليا معلقة على الحائط وعرفت المكان الذى توجد فيه سوبياكو على الخريطة وقررت أن أقوم بمغامرة .

دخلت إلى أكبر مكتبة لبيع الكتب فى أثينا ، سألت عن كتاب يتناول التعريف بالأزهار . ولم تكن محاولتى المتأخرة عن موعدها والرامية الى الحصول على الانعاش ناجحة مما اضطرنى لأن ألقى بالزهرة الموجودة فى عروة سترتى بعيدا . وقالت الموظفة بالمكتبة : إن المكتبة لايوجد بها كتب فى هذا الموضوع باللغة الانجليزية وأضافت هناك كتاب ممتاز عن الأزهار باللغة الفرنسية وهو يعطى أسماء الأزهار باللغات المختلفة . وتظاهرت بأننى مهتم بالصور ثم رجعت إلى فهرس الكتاب وعرفت أن نبات الآلوسين فى صفحة ٦٩ .

وفى صفحة ٦٩ كان تعريف النبات : أوراق خضراء رفيعة وأزهار صغيرة بيضاء اللون .

يسمى بالانجليزية : اليسون الحلوة .

الباب الثالث

(٦٨)

روما

فى داخل ذهنى كان يخيل لى أننى تركت اليونان منذ أسابيع وليس منذ ساعات . سطعت الشمس كالمعتاد وكان الناس أكثر رشاقة وأناقة والهندسة المعمارية والفنون أكثر ثراء بدا الأمر كأن الايطاليين ـ شأن أجدادهم الرومان ـ كانوا يرتدون قناعا هائلا من الرفاهية .

لم أستطع تحمل فقدان العرى الجميل وانسانية اليونان ولم أستطع تحمل رؤية الرومانيين الحيوانيين الذين تبدو عليهم مظاهرة الترف والثراء . تماما مثلما لايستطيع المرء أحيانا أن يتحمل رؤية وجهه فى المرآة .

وفى وقت مبكر من الصباح عقب وصولى استقليت قطارا محليا خارجا من روما فى اتجاه تيفولى وتلال الألب . وبعد أن ركبت فى الأتوبيس لفترة طويلة تناولت طعام الغداء فى سوبياكو سرت فى طريق صاعد فوق مساحة منخفضة خضراء اللون . وتفرعت من الطريق حارة متجهة إلى واد ضيق مهجور .

وكان باستطاعتى سماع صوت المياه الجارية بالاضافة إلى سماع تغريد الطيور . وصلت إلى ممر يتجه بين غابة رطبة صغيرة مليئة بأشجار البلوط الخضراء ثم استدق الممر وأصبح بمثابة مجموعة من السلالم تتلوى حول حائط من الصخر . ثم ظهر الدير للعيان متعلقا بالصخرة مثل دير يونانى . وكان هناك رواق سقوف قوطى الطراز يطل على الوادى الأخضر مجموعة صغيرة من المصاطب المزروعة الواقعة تحته . وكانت هناك صور مرسومة بالألوان الجميلة على الحائط الداخلية : البرودة ـ والصمت .

رأيت راهبا يجلس خلف الباب المؤدى إلى رواق داخلى . سألته عما إذا

كان باستطاعتي أن أقابل جون ليفاريير وأوضحت له أنه رجل انجليزى فى حالة من الخلوة مع الذات . ومن حسن الحظ أننى كان معى خطابه . فعرضت عليه الخطاب . قام العجوز بفك رموز التوقيع فى حرص - أومأ الرجل برأسه واختفى هابطا إلى أماكن منخفضة بالدير . فتابعت سيرى إلى إحدى القاعات .

ترامى صوت شخص ما يضحك . كان هناك راهب عجوز يؤنب راهبا أصغر سنا باللغة الفرنسية لدى عبورهما القاعة خلفى .

ثم ظهر راهب آخر . وأدركت فى شىء من الصدمة أن ذلك الراهب هو ليفاريير .

كان رجلا طويلا وقد قص شعره ليكون قصيرا وقام بحركة خفيفة متسائلا عما اذا كنت الشخص الذى سأل عنه . قلت : أنا نيقولاس أورفى . من جزيرة فراكسوس .

فبدأ عليه شىء من الدهشة والارتباك فى آن واحد . وبعد تردد طويل مد لى يده مصافحا بدت يده باردة . أما يدى فكانت ساخنة بسبب المشى . تحدث فى شىء من النقد اللاذع الحاد الذى يلجأ اليه بعض المحاضرين فى جامعة أكسفورد أجئت قاطعا كل هذه المسافة الطويلة ؟

- كان من السهل على أن أتوقف فى روما .

- أعتقدت أننى قد أوضحت لك أن

- نعم لقد أوضحت . ولكن .. وابتسمنا معا فى آن واحد ابتسامات خالية من الحرارة بسبب العبارتين الناقصتين اللتين نطقنا بهما . ثم نظر نظرة عميقة فى عينى مؤكدا قراره . وقال :

أخشى أن زيارتك ستكون بدون جدوى بكل تأكيد .

بكل أمانة لم يكن لدى فكرة عن أنك كنت .. ولوحت بيدى فى شىء من الغموض نحو ردائه أعتقد أنك وقعت على خطاباتك .

ونهضنا واقفين فى ارتباك . ويبدو أنه ضاق صبره من هذا الارتباك الذى يستحوذ عليه فقرر أن يكون أكثر لطفا معى علاوة على تطييب

خاطرى . أردت أن أخبره أننى لم أحضر إلى هنا كسائح ولكنه بدأ يقود الطريق ويتقدمنى مخترقا فناء داخليا . وجلعنى أشاهد الغربان والشجرة المقدسة التى ظهرت بها الورد عندما تدحرج القديس بنيديكت عليها .

لم اكتشف أى شىء على الاطلاق يتعلق بصيف عام ١٩٥١ ولو أننى اكتشفت المزيد من المعلومات القليلة عن ليفاريير . فقد كان فى سكرو سبيكو لمدة أسابيع قليلة فقط حيث كان قد انتهى لتوه من ترهبنه فى أحد الأديرة فى سويسرا . لقد التحق بكامبردج ودرس التاريخ وكان يتحدث الايطالية بطلاقة .

وهو لم يرجع الى اليونان منذ أن تركها . وظل الى حد كبير مكتسبا طابع الانجليزى المثقف المرتبك أمام الغرباء المدرك بأنه يبدو عليه أنه ليس جادا فى كونه راهبا وفى ارتدائه لتلك الملابس .

خرج بى إلى الهواء الطلق أسفل الدير . وقادنى إلى مقعد خشبى تحت شجرة تين وجلسنا نظرت فى إعجاب إلى المصاطب المزروعة بالخضراوات وكرمات العنب وقال : هذا أمر غير مرضى للغاية بالنسبة لك . ولكننى سبق لى أن حذرتك .

من دواعى الارتياح بالنسبة لى أن أتقابل مع زميل مع ضحية مثلى حتى ولو كان أبكما وصامتا .

ـ أنا زميل ولست ضحية .

ـ أردت فقط أن نتبادل وجهات النظر فلاذ بالصمت ثم قال : من المؤكد أن جوهر أسلوبه هو أن تتعلم عدم تبادل الآراء ووجهات النظر .

ـ هل ستظل هنا فى ظل الظروف الحاضرة إذاً ....

ـ إن الارتقاء على الطريق الذى ظل الانسان مسافرا عليه لفترة طويلة يوضح متى . وليس لماذا .

من المؤكد أن تجاربنا اختلفت اختلافا شاسعا .

قال : ولماذا تتشابه تجاربنا اسمع ياعزيزى . أنت لاتريد منى الاحسان أنت تريد أن تنتزع منى اعترافات لست على استعداد للادلاء بها . وفى

رأيى أن عدم الادلاء باعترافات هو نوع من الاحسان من جانبى . فهذا الوضع الذى أنا فيه الآن لايسمح لى بذلك وأرجو أن تفهم ذلك وعندما أرحل من هنا فسوف تفهم جوانب الموقف بكل تأكيد .

كان صوته خاليا من الحرارة . ثم سادت فترة من الصمت .

ثم قال : إننى آسف . فأنت ترغمنى على أن أكون أكثر فظاظة وجفافا مما أريد .

ـ يحسن بى أن أنصرف .

فانتهز الفرصة ونهض واقفا وقال :

انا لا أهدف الى أى شىء شخصى .

دعنى أصطحبك إلى البوابة .

وسرنا عائدين من خلال الباب المنحوت فى الصخر وعبرنا أبوابا شبيهة بزنزانات السجن ومنها خرجنا إلى القاعة .

قال : كنت أريد أن أسألك عن المدرسة كان هناك تلميذ يسمى افنداكيس يبشر بالخير ويتوقع له أن يحقق مستقبلا باهرا . وقد كنت أقوم بإعطائه دروسا خصوصية .

رحنا نتجاذب أطراف الحديث عن المدرسة . وأدركت أنه لم يكن مهتما اهتماما حقيقيا وانما كان يبذل مجهودا لكى يبدو لطيفا معى ولكى يقلل من شعوره بالغرور ولكنه حتى فى ذلك كان خجولا ومرتبكا أمامى .

ثم تصافحنا بالأيدى . قال : هذا مزار أوربى عظيم يحج الناس إليه للتعبد والتبرك . ولقد قيل لنا أن زوارنا ـ مهما كانت معتقداتهم الدينية ـ ينبغى أن يتركوا هذا المزار عقب الانتهاء من الزيارة وهم يشعرون أنهم منتعشون وأنهم قد حصلوا على المواساة .

وتوقف عن الكلام كما لو كان يتوقع منى أن أسخر منه ولكنى التزمت بالصمت . فأضاف قائلا : وينبغى على أن أطلب منك أن تعتقد أننى التزمت بالصمت اكراما لك واكراما لى فى نفس الوقت .

ثم انحنى لى انحناءة رسمية نزلت السلالم الى الممر مخترقا أشجار البلوط الخضراء .

وكان على الانتظار حتى حلول المساء فى سوبايكو من أجل أن أستقل الأتوبيس العائد إلى المحطة . انطلق الأتوبيس بين وديان خضراء طويلة وتحت قرى تقع فوق قمم التلال .

كان الفلاحون العجائز يجلسون عند مداخل بيوتهم وبدا وجوه بعضهم يونانية غامضة ونبيلة فى حالة من السلام مع النفس . وشعرت ربما لأننى احتسيت زجاجة من الخمر أثناء انتظارى لمجيىء الأتوبيس - إننى أنتمى لعالم أقدم من عالم ليفاريير . ولم أشعر بالارتياح نحوه وبدا لى أن عدم حبى له وحبى الجارف للعالم اليونانى اللاتينى القديم غير المتغير قد اندمجا فى توحد . لقد كنت انسانا حسيا ولسوف أظل على ذلك النحو للأبد .

وأثناء انتظارى للقطار تناولت المزيد من الخمور ، وحاول رجل فى حانة المحطة أن يجعلنى أدرك أن الشاعر هوارس كان يمتلك مزرعة فوق قمة تل تقع تحت السماء الخضراء فالشاعر هوارس بمفرده أفضل من عشرة قديسين من أمثال بنيديكت . وقصيدة واحدة لهوارس أفضل من عشرة آلاف خطبة وأدركت فى وقت متأخر للغاية أن ليفاريير ربما فى هذه الحالة كان سيوافق لأنه هو أيضا قد اختار لأن هناك أوقاتا يكون فيها الصمت بمثابة قصيدة من الشعر .

(٦٩)

إذا كانت روما وهى مدينة « الحياة السافلة قد سببت لى الاكتئاب عقب اليونان فان لندن وهى مدينة مغبرة ورتيبة كانت أسوأ خمسين مرة من روما . كنت قد نسيت الأمور التى لا تعد ولاتحصى والتى تتميز بها لندن ، نسيت قبحها وكثافتها بالنمل الأبيض . كان الأمر أشبه بالطين بعد الماسات وأشبه بالأعشاب الشديدة الرطوبة الفاسدة الهواء المتواجدة فى أرض الأدغال عقب الرخام المضاء بضوء الشمس . وبينما كان أتوبيس شركة الطيران يشق طريقه زاحفا بين الضاحية اللانهائية التى تقع مابين

نورثولت وكنسينجتون سألت نفسى فى تعجب : تُرى ماهو السبب الذى يجعل المرء يعود بارادته الحرة الى مثل هذه الأراضى ومثل هذا المجتمع ، ومثل هذا الجو ؟ وانجرفت سحب بيضاء نافخة بطنها فى تراخ عبر السماء الرمادية ، وسمعت الناس يقولون : « إنه ليوم جميل أليس كذلك ؟ » ولكن كل تلك الدرجات من الألوان المرهقة الخضراء والرمادية والبنية بدت كأنها تضغط حركات أهالى لندن الذين مررنا بجوارهم إلى اتساق كلى الوجود . كان ذلك شيئا ما قد أصبحت معتادا عليه حتى أننى لم ألحظه فى اليونانيين ــ كم كان كل وجه يقفز متفردا من خلفيته . لا يوجد شخصان يونانيان متشابهان بينما بدا أن كل وجه إنجليزى فى ذلك اليوم أشبه بكل شخص إنجليزى آخر .

ذهبت إلى فندق قريب من المحطة النهائية لخط أتوبيس شركة الطيران فى حوالى الرابعة وحاولت أن أقرر ما ينبغى علىَّ أن أفعله . التقطت سماعة التليفون وأدرت رقم تليفون آن تيلور . فلم يرد أحد . وبعد نصف ساعة حاولت . ومرة أخرى لم يكن هناك رد . فأرغمت نفسى على قراءة مجلة لمدة ساعة . وجربت التليفون دون جدوى . فاتجهت بالتاكسى إلى ميدان راسيل . كنت مضطربا للغاية . فلربما تكون آليسون فى انتظارى أو اذا لم تكن منتظرة فربما أجد دليلا أو مفتاحاً . كنت أتوقع حدوث شىء ما . ودخلت إلى حانة بدون أن أعرف السبب وتناولت كأسا من الويسكى .

ثم شرعت فى السير إلى المنزل . كان الباب المطل على الشارع غير موصد . ووقفت أمام الباب بالدور الثالث ورحت أصغى فلم أسمع صوتا فطرقت على الباب . لم يرد أحد طرقت مجددا ، ترامت أصوات موسيقية من أعلى . فطرقت مرة أخيرة على شقة آن تيلور ثم صعدت لأعلى السلم . تذكرت ذلك المساء عندما صعدت مع آليسون مصطحبا إياها لكى تأخذ حماما . كم عدد العوالم التى ماتت منذ ذلك الحين ؟. مازالت آليسون قريبة على نحو ما . اعتقدت أنها فى الشقة العلوية . لم أعرف ماذا يمكن أن يحدث . أغمضت عينى وقمت بالعد حتى رقم عشرة . ثم طرقت على الباب .

فتحت الباب فتاة تبلغ التاسعة عشر . لاحظت ان هناك شابا وفتاة أخرى يرقصان على موسيقى الجاز وكانت الغرفة مليئة بأضواء شمس

المساء . ثلاثة هياكل تعرضت للإعاقة وظلت ساكنة للحظات قصيرة . كنت غير قادر على إخفاء مشاعر الاحباط التى ظهرت علىَّ . وابتسمت لى الفتاة الواقفة عند الباب ابتسامة مشجعة . تقهقرت للوراء . وقلت : آسف . لقد أخطأت الشقة . وبدأت فى النزول . نادت علىَّ متسائلة عن اسم الشخص الذى أريده : غبت عن الأنظار قبل أن تتمكن من النطق بكلام آخر . ومن لمَّ أفكارها .

توجهت إلى مطعم إيطالى كانت آليسون معجبة به . إنه المطعم المفضل لدى الأكاديميين الفقراء والفنانين وخريجى الجامعات الذين يقومون بإعداد رسائل جامعية وممثلين عاطلين معظمهم من الشباب . زبائن هذا المطعم لم يتغيروا ولكننى تغيرت . رحت أصغى للثرثرة فيما حولى . وشعرت بالنفور والاغتراب بسبب انعزال المكان وبسبب براءته التى تبدت لى فجأة . ورحت أنظر فيما حولى لعلى أعثر على شخص أرغب فى التعرف عليه . ولكننى لم أعثر على أحد . كان ذلك اثباتا لفقدانى لطابعى الانجليزى . وخطر على ذهنى أننى أشعر بنفس المشاعر التى كانت آليسون تحس بها : الشعور أمام الانجليز بمزيج من التوتر والحيرة لأننى لدى نفس اللغة ونفس الماضى ونفس التاريخ ومع ذلك لم أعد أنتمى اليهم . حالة أسوأ من اللاجذور .. أسوأ من عدم الانتساب لجنس بشرى معين .

عدت وألقيت نظرة أخرى على الشقة بميدان راسيل . ولكن لم يكن هناك ضوء فى الدور الثالث . ولذلك عدت إلى الفندق منهزماً . رجل عجوز . رجل عجوز .

وفى صباح اليوم التالى ذهبت إلى سماسرة الأراضى الذين كانوا يرعون شئون المنزل . كانت لهم مجموعة من الغرف الرديئة . وأدركت أن الكاتب الذى جاء ليرد على استفساراتى هو نفس الشخص الذى تعاملت معه فى السنة السابقة . سرعان ما استخلصت منه المعلومات القليلة التى كان عليه أن يقدمها لى . قال : إن الشقة قد خصصت لآليسون فى أوائل شهر يوليو . ولم تكن لديه فكرة عمَّ إذا كانت آليسون مازالت تسكنها أم لا . ونظر إلى نسخة من عقد الايجار الجديد . وكان عنوان الشخص الذى صار التنازل عن الحق إليه هو نفس عنوان الشخص المتنازل عن الحق . فقال :

من المؤكد أنهما مشاركان . وهنا انتهى البحث والتقصى . ولكننى ظللت منتظرا طوال المساء عقب زيارتى للسمسار على أمل أن تصلنى رسالة أخرى . وفى اليوم التالى انتقلت إلى فندق راسيل حتى يكون بمقدورى أن أسير من مدخل الفندق والقاء نظرة عبر الميدان لمشاهدة المنزل وترقب ظهور الضوء فى تلك الشقة المظلمة بالدور الثالث . مرت أربعة أيام بدون أن تظهر الأضواء فى الشقة ولم تصلنى خطابات أو مكالمات تليفونية .

كانت حاجتى لرؤية آليسون تغطى على كل شىء آخر . كنت فى أشد الحاجة إلى مشاهدتها واستخلاص السر منها .. علاوة على أمور أخرى لم أستطع أن أحددها . ضاع أسبوع فى الذهاب إلى دور السينما والمسارح وفى الاستلقاء فى سريرى بالفندق منتظرا أن يدق جرس التليفون القابع بجوارى .

وأخيرا اعترفت بهزيمتى . لم أعد أطيق الفندق أو ميدان راسيل . وشاهدت مكانا معلنا عنه لوحة إعلانات . إنه "شقة" مهلهلة تحت سطح البيت مباشرة وفوق طابقين من غرف الخياطة عند الطرف الشمالى من شارع شارلوت . إنها غالية الثمن ولكن بها تليفون ورغم أن صاحبة المنزل تعيش فى البدروم إلا أنها كانت بكل تأكيد الإنسانة البوهيمية فى شارع شارلوت فى الثلاثينات . حرصت أن تدعنى أعرف فى خلال الدقائق الخمس الأولى أننى فى المنزل الذى عاش فيه "صديقها الوفى" الكاتب المعروف ديلان توماس ولم أصدقها . فقولها هذا مشابها للكلام الذى يفيد أن الملكة اليزابيث اعتادت أن تتردد على الفنادق الريفية الصغيرة . شعرت بارتياح نحوها وقالت لى "إسمى جوان ولكنهم ينادوننى كيمب" .

قالت وهى واقفة عند الباب عقب موافقتى على استئجار الغرف حسنا . طالما أننى سوف أحصل على نقودك فإن لك الحق فى أن تحضر أى شخص تريده وفى الوقت الذى تراه فالشاب الذى استأجر هذه الغرف أخيرا كان قواداً . وكان شابا ظريفا . لقد ألقى الفاشيون القبض عليه فى الأسبوع الماضى .

واشارت إلى رجلى الشرطة فى نهاية الشارع .

اشتريت سيارة قديمة متهالكة ولكن الموتور كان لايزال أمامه عمر افتراضى . وأخذت معى كيمب فى جولة إلى قلعة جاك سترو . راحت

تحتسى الخمور وتتحدث مثل جندى فى سلاح الفرسان . كانت مثلما انشد قلب دافىء علاوة على دردشتها عن نفسها والتى ترغم الإنسان على الاصغاء إليها . مما جعلنى - من خلال طريقتها الدافئة - أن أتصالح بعض الشيء مع لندن ومع كونى انجليزى ومما جعلنى - أتوقف عن الاحساس الشديد بأننى منعزل .

(٧٠)

مر شهر أغسطس فى تثاقل . تعرضت خلاله لنوبات من الاكتئاب وفقدان الحس والحركة . كنت مثل سمكة فى مياه راكدة . أشعر بالاختناق . وبمجرد أن أنظر ألى الوراء ، مثل آدم عقب الخطيئة ، إلى المناظر الطبيعية الزاخرة بالضوء الباهر للشمس فى جزيرة فراكسوس وأملاحها ونباتها العشبى فإننى أنظر إلى الوراء فى أحداث بورانى التى يمكنها ألا تحدث ولكنها حدثت بالفعل ، ووجدت نفسى غير قادر أن أتمنى ألا تكون هذه الأحداث قد حدثت مثلما كنت غير قادر أن أغفر لكونشيس إعطائى الدور الذى خصصنى له . وفى بطء تدريجى بدأت أدرك أن ورطتى كانت فى حقيقة الأمر نوعا من غفران الأمر الواقع والتغاضى عما فعلوه معى .

وذات يوم كدت أتعرض لتصادم بسيارتى عندما لمحت فتاة رشيقة شقراء تسير فى شارع جانبى . فانحرفت بسيارتى فجأة نحو حافة الرصيف وانطلقت وراءها . وحتى قبل أن أشاهد وجهها أدركت أنها ليست ليلى . ولكن كان سبب اندفاعى وراء هذه الفتاة فى الشارع الجانبى أننى أريد استجوابها ومحاولة أن أفهم منها الأمور . لم أفهم معناها . كان باستطاعتى أن أشتاق لمرحلة معينة تتعلق بها هذه المرحلة التى جعلت من المستحيل أن أحبها .

كان علىَّ أن أفعل أى شيء أثناء انتظارى . لذلك قمت خلال النصف الأخير من أغسطس باقتفاء أثر كونشيس وليلى فى انجلترا واقتفاء أثر آليسون من خلالهما .

وهذا فى حد ذاته جعلنى واقعا فى نطاق المسرحية التنكرية وإن كان ذلك بقدر بسيط وفى شيء من التضحية . وقد أدى هذا إلى تعتيم اشتياقى الشديد المليء بالحزن لمشاهد آليسون . وهو اشتياق مليء بالحزن لأن احساسا جديداً بزغ فى داخلى . شعور كنت أريد القضاء عليه ولكننى لم

أستطع ولم يكن السبب فى ذلك أننى كنت أدرك أن بذرة ذلك الشعور قد زرعها كونشيس فى داخلى وأن تلك البذرة كانت تنبت فى ذلك الصمت المتعمد الذى أحاطنى به . شعور يستحوذ على أفكارى ليل نهار . ويستمر فى النمو والتصاعد مثلما ينمو الجنين فى رحم امرأة غير راغبة فى الحمل مما يجعلها تموج بالغضب وفى لحظات خضراء كان يذيب قلبها حنانا .

ظل هذا الإحساس مدفونا تحت التحرى والتخمين . وقررت أن أتجاهل كل ما قاله كونشيس أو الفتاتان والتوقف عن التيقن مما إذا كان كلامهم كان زائفا أم صادقا . ففى كثير من الأمور كنت أريد أن أكتشف أثراً أو بصمة أصابع : لمجرد أن أكتشف مهارتهم الخاصة فى الخداع .

قصاصات الصحف فيما يتعلق بآليسون : كانت حروف الطباعة من نوع مختلف عن حروف طباعة مجلة هولبورن والتى تناولت التحقيق الصحفى عن أسباب الوفاة .

النشرات العلمية لفولكيس : ورد ذكرها فى كتالوج المتحف البريطانى . أما النشرات العلمية لكونشيس فلا توجد إشارة عنها فى نفس الكتالوج .

التاريخ العسكرى : ورد خطاب من الرائد آرثر لى ـ جونز .

عزيزى السيد أرفى ..

أخشى أن يكون خطابك من النوع الذى يناشد المستحيل بالفعل . فالوحدات التى اشتركت فى نيف شابيل كانت معظمها وحدات نظامية . وأعتقد أنه من غير المحتمل تماما أن يكون أى متطوعين فى كتيبة كنسينجتون قد شهدوا ذلك الاشتباك حتى تحت الظروف التى تشير اليها . ولكننا لدينا بالطبع سجلات مكتوبة عن تلك الفترة المليئة بالفوضى .

ولا يوجد أى أثر فى السجلات لكابتن يسمى مونتاجو . وعادة ما يكون المرء واقفا على أرض صلبة بالنسبة للضباط .

دوكانز : لا توجد عائلة بهذا الأسم فى أى مرجع . كما أن چيفراى ـ لو ـ دوق لم يرد ذكرها فى أكبر الفهارس الجغرافية الفرنسية .

لقد قام عمدة كيركينز بتسليمى خطابك لكى أرد عليه لأننى ناظر المدرسة . أقول لكم أنه يوجد فى باسفيكدال مكان يسمى سايديفارى وكان

يوجد فى ذلك المكان منذ سنوات عديدة أسرة تسمى نيجارد وإننى لآسف لأننا لا نعرف ما الذى حدث لهذه الأسرة .

والدة ليلى : اتجهت بسيارتى إلى سيرن أباس بدون أن أتوقع العثور على كوخ "أنستى" ولم أعثر على شىء من هذا القبيل . فقلت لمديرة الفندق الصغير الذى تناولت فيه وجبة الغداء أننى تعرفت على فتاتين من منطقة سيرن أباس - وهما توأم وجميلتان للغاية . ولكننى نسيت إسم العائلة التى تنتميان إليهما فشعرت بالاهتمام الشديد للغاية - كانت تعرف كل فرد بالقرية ولكنها لم تستطع تحديد اسم العائلة . وكان "ناظر المدرسة" بالمدرسة الابتدائية فى حقيقة الأمر ناظرة مدرسة . وكان من الواضح أن الخطابات لفقت فى جزيرة فراكسوس .

زى كونشيس أثناء المحاكمة : أثناء عودتى من سيرن أباس توقفت لتناول طعام العشاء فى هنجرفورد ومررت على دكان قديم أثناء ذهابى إلى الفندق . وفى فاترينة العرض كانت توجد خمس بطاقات لكروت قديمة . وكانت إحداها لرجل يرتدى ملابس مشابهة تماما للملابس التى كان يرتديها كونشيس . بل وكانت توجد نفس الرموز الموجودة على عباءته . وتحت هذه البطاقة كانت توجد كلمة "الساحر" . وكان الدكان مغلقا ولكننى كتبت عنوانه وبعدئذ باعوا لى البطاقة عن طريق البريد . إنها بطاقة جميلة "ترجع إلى القرن الثامن عشر" .

ولقد أحدثت لى صدمة عنيفة لدى مشاهدتى لها لأول مرة - فنظرت فيما حولى كما لو كانت قد وضعت هنالك من أجلى لكى تجذب انتباهى أو كأن هناك من يرقبنى خلسة .

علماء النفس أثناء المحاكمة : أجريت اتصالات مع عيادة تافيستوك ومع السفارة الأمريكية . فاتضح لى أن كافة الأسماء غير معروفة على الاطلاق ولو أن بعض المعاهد لها وجود حقيقى . ومع المزيد من البحث لم أتوصل إلى شىء بخصوص كونشيس .

دوجلاس نفينسون : انه ناظر المدرسة فيما قبل الحرب والذى وردت اشارة من كلية أكسفورد فى كتاب بمكتبة المدرسة . وقام مكتب أمين الجامعة فى باليول بارسال عنوان إلىَّ فى اليابان . فأرسلت خطابا . وبعد أسبوعين جاءنى الرد :

عزيزى السيد أورفى

أشكرك على خطابك الذى بدا كأنه وارد من الماضى . لقد سعدت كثيراً عندما علمت أن المدرسة ظلت على مايرام عقب الحرب . وانى لواثق أنك استمتعت باقامتك هناك مثلما استمتعت أنا من قبل .

لقد نسيت كل ما يتعلق ببورانى ولكنى أتذكر هذا المكان الآن والشخص الذى كان يمتلك بورانى . إن لدى شيء من الحدس بأننى تناقشت معه .

أما بالنسبة "للضحايا" الآخرين فى فترة ما قبل الحرب فاننى لا أستطيع أن أساعدك . فالرجل السابق علىَّ لم أتقابل معه على الاطلاق . كنت أعرف جيوفرى الذى عمل هناك لمدة ثلاث سنوات بعدى . ولم أسمعه يتكلم عن بورانى .

واذا ما قدر لك أن تجيىء إلى هذا الجزء من العالم فانه يسعدنى أن أتكلم معك عن الأيام القديمة .

دوجلاس نيفينسون

فميل : فى أواخر أغسطس صادفنى الحظ السعيد . اذ بدأت أشعر بالألم فى أسنانى فارسلتنى كيمب إلى طبيبها . وبينما كنت جالسا فى غرفة الانتظار التقطت مجلة أفلام قديمة عن شهر يناير المنصرم وعثرت فى منتصفها بالصدفة على صورة لفميل المزيف . وكان مرتديا الزى العسكرى النازى . وتحت الصورة يوجد ذلك التعليق :

يلعب إجناز بروزنسكى دور القائد الألمانى الشرير لمدينة ألمانية فى أفضل أفلام المقاومة فى بولندا تحت عنوان "المحنة السوداء" .

التنويم المغناطيسى :

قرأت كتابين عن التنويم المغناطيسى . وكان من الواضح أن كونشيس تعلم طريقة التنويم المغناطيسى بطريقة حرفية . فالايحاء خلال السبات الذى يحدث أثناءه مع الترسيخ فى الذهن أوامر يتم تنفيذها لدى اعطاء إشارة معينة بعد أن يكون الشخص قد أوقظ من حالة الغيبوبة ويكون قد عاد إلى الحالة السوية بكافة الطرق الأخرى كان "بمثابة خطة ملائمة تماما ثبت صحتها باستمرار" . عندما أمعنت النظر أدركت أننى لم أرغم لا شعوريا على التصرف حيال أى موضوع على نحو يخالف السلوك الذى

كنت أفعله وأنا فى حالة من الوعى . فتصرفى لم يكن يختلف عن تصرفى الحقيقى أثناء الوعى . ومن المؤكد أنه تمت محاولات لانتزاع المعلومات منى تحت تأثير التنويم المغناطيسى . ومن المؤكد أن ارادتى الحرة قامت بالمزيد من المناورات باستثناء بعض الأمور الصغيرة التى لا أهمية لها .

رفع كلتى اليدين فوق الرأس : لقد أخذت كونشيس هذا الوضع من مصر القديمة . فتلك كانت هى علامة "الكا" التى كان يستخدمها المريدون "من أجل وامتلاك القوى الكونية للأسرار الغامضى" . وفى كثير من النقوش الموجودة على جدران المقابر كانت هذه العلامة تعنى : "اننى أستاذ السحر والتعاويذ . والقوة هى قوتى . وأنا الذى أطلعكم على القوة" . وكان الصليب ذو الحلقة فى قمته المرسوم على حوائط غرفة المحاكمة هو أحد الرموز المصرية القديمة الأخرى . فهو "مفتاح الحياة" لدى المصريين القدماء .

ماريـــا : ربما كانت هى امرأة قروية ريفية بالفعل ولكنها إنسانة ذكية . وهى لم تتحدث إلىَّ سوى بكلمتين باللغة الفرنسية . وجلست صامتة طوال فترة المحاكمة حيث كانت فى غير موضعها الصحيح . وهى بعكس الآخرين ربما كانت على النحو الذى بدت عليه فى بادىء الأمر .

بنك ليلى : حصلت على رد من مدير فرع بنك باركليز . كان الرد مكتوبا على ورقة فى أعلاها اسم البنك وعنوانه ، وهى نوعية من الورق مختلفة عن الخطاب الآخر الذى سبق أن تسلمته .

مدرستها : الاسم جولى هولمز ـ غير معروف .

كنت أدرك أننى فى كل هذا أقوم بالدور الذى قررت عدم القيام به : ألا وهو دور المخبر السرى . توقفت عن المطاردة مرات عديدة . ثم اتضح لى أن إحدى جولاتى التى كنت لا أتوقع لها أى نجاح فى البحث والتحرى كانت تبشر بنتائج رائعة ومدهشة .

(٧١)

بدا ذلك فى يوم من أيام "الاثنين" بلقطة سينمائية طويلة تتعلق بالافتراض بأن كونشيس عاش فى لندن عندما كان صبيا ، وأنه كانت هناك النسخة الأصلية من ليلى مونتجمرى فى منطقة سانت جونز . فذهبت إلى مكتبة ماريلوبون وطلبت أن ألقى نظرة على كتاب دليل الشوارع فى الفترة

بين عامي ١٩١٢ و ١٩١٤ . توقعت عدم ظهور إسم كونشيس . ورحت أبحث عن اسم مونتجمرى . رحت أفتش فى كافة الشوارع المحتملة فى شرق طريق ولينتجتون . وفجأة وفى صدمة من الاثارة البالغة قفزت عيناى فوق صفحة . مونتجمرى ، فريد ، ٢٠ طريق آليتسين .

ووردت أسماء الجيران : سميث وماننجهام ولو أن الأخير انتقل من ذلك المكان فى عام ١٩١٤ وحل محله إسم هتشستب . فقمت بكتابة العنوان واستأنفت البحث . وعلى نحو فجائى وعلى نفس الجانب الآخر من الطريق الرئيسى وقعت عينى بالصدفة على مونتجمرى آخر المرة فى طريق « إيلم ى » . ولكن ما أن وقع نظرى عليه حتى أصبت بالاحباط لأن الاسم الكامل كان : سير تشارلز بين مونتجمرى وهو جراح مشهور وذلك من خلال النظر من خلال الحروف الأولى التى تختصر اسمه . إنه ليس هو الشخص الذى وصفه كونشيس .

رحت أتابع فى دلائل لندن الصادرة بعد ذلك اسمى مونتجمرى اللذين عثرت عليهما . لقد اختفى مونتجمرى الذى هو فى طريق آليتسين عام ١٩٢٢ . أما مونتجمرى الذى فى "ايلم ترى" فقد استمر لفترة أطول ـ مما سبب لى الضيق ـ رغم أن سير تشارلز مات بالتأكيد فى عام ١٩٢٢ . وبعد ذلك ظهر اسم الليدى فلورنس منتجمرى كمالكة للعقار واستمر اسمها حتى عام ١٩٣٨ .

وبعد تناولى طعام الغداء اتجهت بالسيارة إلى آليتسين رود . ولدى دخولى فى ذلك الطريق أدركت أنه ليس طريقا جيدا . كانت المنازل ذات شرفات صغيرة ولا يوجد بينها "منزل كبير" على النحو الذى وصفه كونشيس .

ثم وصلت إلى طريق "ايلم ترى" . كان يبدو أفضل من آليستين . وكانت به منازل كبيرة فى الحجم نسبيا وكانت به أكواخ ومجموعة من الاسطبلات من الطراز الفيكتورى المبكر . بدا وكأنه لم يتعرض للتغيير . اتضح لى أن رقم ٤٦ هو أكبر المنازل فى ذلك الطريق . أوقفت سيارتى فى مكان قريب وسرت مترجلاً على ممر ضيق خاص بالسيارات تحفه النباتات ووقفت أمام الباب المهيب ثم دققت الجرس .

ولكن رنين الجرس كان يدوى فى منزل شاغر وظل على ذلك النحو طوال

شهر أغسطس . ومن المؤكد أن من يشغل ذلك المنزل موجود فى أجازة . وتمكنت من معرفة اسمه من دليل السنة . انه سيمون ماركس . أصبحت متلهفا لأن أنتهى من تحرياتى مثلما يريد الطفل أن ينتهى من التهام بقية الحلوى الموجودة فى حوزته . وكدت أشعر بخيبة الأمل عندما شاهدت فى يوم ما فى أوائل سبتمبر سيارة واقفة فى ممر ضيق للسيارات حيث أدركت أن أملاً واهنا آخر على وشك أن يتلاشى .

ورد على الجرس رجلا ايطالى يرتدى معطفا منزليا . ابيض اللون : هل لى أن أتحدث مع صاحب المنزل ؟

"هل هناك موعد سابق" ؟

"لا" .

وتم إنقاذى من خلال ظهور صوت حاد : من يكون هذا الرجل ياإيركول ؟ وظهرت صاحبة الصوت الحاد . إنها امرأة فى الستين من عمرها . ترتدى ثيابا فاخرة . ويطل الذكاء من وجهها . فقلت : إننى منهمك فى عمل دراسة معينة . وأحاول أن أتتبع عائل تسمى مونتجمرى .

- سير تشارلزبين ؟ الجراح ؟
- أعتقد أنه كان يعيش هنا .
- نعم . إنه كان يعيش هنا .

وظل الصبى الذى يعمل بالمنزل منتظراً فلوحت له بيدها لكى ينصرف بطريقة تدل على أنها سيدة مهيبة قلت : اننى فى الواقع أبحث عن الآنسة ليلى مونتجمرى .

"نعم . إننى أعرفها" . وكان من الواضح أنها لم تشعر بالارتياح لدى ظهور ابتسامة على وجهى مليئة بالدهشة البالغة . وأضافت قائلة : "أتود أن تقابلها" ؟

"إننى أقوم بكتابة رسالة فى موضوع علمى محدود عن كاتب يونانى مشهور وأنا أعتقد أن الآنسة مونتجمرى كانت تعرفه منذ سنوات عديدة مضت عندما كان هو يعيش فى انجلترا .

- ما اسم هذا الكاتب المشهور اليونانى ؟
- موريس كونشيس .

كان من الواضح أنها لم تسمع عن اسمه من قبل . تغلب بريق الدراسة

وسحرها على قدر ضئيل من عدم الثقة الذى يراودها . ثم قالت : سوف أبحث لك عن العنوان . تفضل بالدخول .

رحت أنتظر فى القاعة الفاخرة . وبعد دقيقة ظهرت ومعها بطاقة . وقرأت على البطاقة مايلى : مدام ليلى دى سيتاس . دنزفورد هاوس . وقالت هذه السيدة : أنا لم أشاهدها منذ سنوات عديدة .

ـ شكرا جزيلا لك .

ـ أتحب أن تتناول الشاى ؟

كان هناك شىء ما يلمع .. شىء ما يتسم بالجشع الغامض فى عينيها كما لو كانت قد قررت أن تمتص منى المتعة واللذة . امرأة تكاد تموت جوعا فى داخل الترف والرفاهية المحدقة بها . وشعرت بالبهجة لأننمى تمكنت من الافلات منها .

وقبل أن أنطلق بسيارتى ألقيت نظرة على المنازل التى تقع على جانبى المنزل رقم ٤٦ ربما قضى كونشيس فترة شبابه فى أحد تلك المنازل .

وفى صباح اليوم التالى وفى تمام الساعة الحادية عشرة صباحا وصلت إلى العنوان . كان اليوم جميلا ومشرقا وكانت سماء سبتمبر خالية من السحب . إنه يوم يمكن مقارنته بيوم يونانى . وكان المنزل يقع عند مشارف القرية . منزل من خمسة أجنحة يقف فى جلال ورشاقة وشيد بالطوب على مساحة فدان . وفى هذه المرة فتحت الباب فتاة اسكندنافية من النوع الذى يقوم بخدمة منزلية مقابل الأكل والمبيت . نعم كانت المدام دى سيتاس داخل المنزل فى منطقة الاسطبلات ، ويمكننى أن أذهب حول المنزل لكى أصل اليها .

سرت على ممر مرصوف بالحصباء وتحت باكية مشيدة بالطوب اللبن . وكان هناك اثنان من الجراچات تمكنت من مشاهدة الاسطبلات وشم رائحتها . وظهر صبى صغير من فتحة باب ممسكا بجردل فى يديه . نادى بصوت مرتفع "ياأمى ! يوجد رجل" فخرجت من نفس الباب امرأة رشيقة ترتدى بنطلونا مخصصا لركوب الخيول وتضع تلفيعة حمراء على رأسها وبدت فى أوائل الأربعينات . امرأة جميلة منتصبة القامة ، قلت : أبحث عن المدام دى سيتاس .

ـ أنا المدام دى سيتاس .

اقتربت منها شاهدت غضون حول طرف عينيها وترهلات خفيفة حول رقبتها . وبدا أن سنها أقرب إلى الخمسين . إلا أن ذلك جعلها تبدو أقل من سنها الحقيقى بعشر سنوات .

قلت : جئت لكى أسألك عما إذا كان باستطاعتك أن تساعدينى فى الرسالة العلمية الأدبية التى أقوم باعدادها .

ـ أنا !!

ـ هذا اذا كنت ذات يوم تسمين الآنسة ليلى مونتجمرى .

ـ المسألة لا تتعلق بوالدك . لو كان الوقت غير ملائم الآن ، يمكننى ان أجيىء إليكم مرة أخرى .

ـ نحن نقوم بإزالة مخلفات الخيول من الاسطبل .

ـ إننى أكتب دراسة عن ـ موريس كونشيس ؟

ورحت أرقبها مثل الصقر ولكننى كنت فوق حقل شاغر . من يكون موريس هذا ؟

ـ إنه كاتب يونانى مشهور . كان يعيش فى انجلترا عندما كان شابا صغيرا .

مشطت كتلة من شعرها إلى الوراء فى شىء من الرعونة وقلة الذوق بيدها المرتدية للقفاز وأدركت أنها إحدى النساء اللائى لا يعرفن أى شىء سوى الخيول والمنازل والأطفال . وقالت : بكل صدق . إننى آسفة للغاية . من المؤكد أنك وقعت فى غلطة ما .

ـ ربما تكونى قد عرفت ذلك الرجل تحت اسم تشارلز ويمرث ؟ أو تحت اسم هاملتون ديوكس ؟ منذ فترة طويلة للغاية .. منذ الحرب العالمية الأولى .

ـ ياسيدى الفاضل . هل تعرف كم كان عمرى عام ١٩١٤ ؟

ـ من الواضح أنك كنت صغيرة فى السن للغاية فى ذلك الوقت .

ابتسمت ، وقالت : كنت فى العاشرة .

هززت رأسى . لقد خدعنى كونشيس مرة أخرى ووضعنى فى موقف مثير للسخرية . لعله التقط الاسم بالصدفة من دليل قديم . وغمرت نفسى فى المزيد من المجازفات فى غير حرص أو حذر ورددت : يبدو أن هناك خطأ ما بالتأكيد .

فأصابها التردد . وكنت أنا عنيدا فى أدب وكررت عليها "مجرد عشر دقائق" فاستدارت إلى ابنها وقالت : بنجى إذهب واطلب من جنهيلد أن يعد لنا القهوة . واحضرها إلى الحديقة .

وجرى بنجى على الحصباء وسرت وراء مدام دى سيتاس التى راحت تخلع القفاز من يديها . نفذت من باب إلى حديقة قديمة جميلة . وشاهدت بحيرة من أزهار الخريف . وعند الجانب البعيد من المنزل كانت توجد مساحة مزروعة بالحشائش وشجرة أرز . وقادت الطريق متقدمة إياى نحو رواق مشمس . وكان هناك كرسى هزاز يوجد فوقه مظلة للوقاية من وهج الشمس . وجلست فوقه ثم أشارت إلى كرسى لكى أجلس عليه . وتمتمت بكلام ما عن الحديقة . ثم قالت : الآن حدثنى عن كاتبك المشهور الذى لم أسمع عنه على الاطلاق . هل تقابلت معه ؟

ـ لقد مات أثناء الاحتلال .

ـ ياله من رجل مسكين . وماهو سبب الوفاة ؟ فأسرعت قائلا : مرض السرطان . لقد كان متحفظا للغاية بشأن ماضيه مما يجعل المرء يضطر لأن يستنتج أموراً من انتاجه الأدبى . نحن نعرف أنه كان يونانيا ولكنه كان يتظاهر بأنه إيطالى . لقد تحول من الموسيقى إلى الأدب . وهناك إشارات عديدة للغاية وردت فى قصائده الأولى وكذلك فى رواية طويلة كتبها . إلى حب تعيس وقع فيه عندما كان لا يزال يقيم فى انجلترا ولكنه حب بالغ الأهمية بالنسبة له . وبالطبع نحن لا نعرف ـ أو لم نكن نعرف ـ إلى أى حد كان يعبر عن الحقيقة الواقعة وإلى أى حد كان يبالغ فى تصويره لذلك الحب .

ـ ولكن ، هل ذكر اسمى .

ـ هناك إشارات ودلائل عديدة توحى بأن اسم الفتاة التى أحبها هو اسم زهرة . وبأنه كان يسكن بالقرب منها . وأن الرابطة المشتركة بينهما هى الموسيقى .

فاعتدلت فى جلستها فى انبهار وافتتنان ، وقالت : وكيف أمكنك بحق السماء أن تربط بيننا وبين كل ذلك ؟

ـ هناك مفاتيح عديدة . اعتمدت على الاشارات التى وردت فى انتاجه الأدبى . لقد تحدث عن هذه الفتاة التى تحمل اسم عائلة بريطانى قديم . كما اعتمدت على اسم والدها الطبيب المشهور . وبعدئذ بدأت أرجع إلى

دليل أسماء الشوارع .
ـ هذه جهود غير عادية للغاية .
ـ عادة ما يصادف المرء المئات من الطرق المسدودة . ولكن الإنسان عليه ان يشق طريقه بنجاح .

وابتسمت وحملقت فى اتجاه المنزل ثم قالت : ها هو جنهيلد . وعلى مدى الدقيقتين أو الدقائق الثلاث دقائق التالية انهمكنا فى صب القهوة وتحدثنا عن الترويج . وصدرت الأوامر لبنجى لكى ينصرف وأصبحت أنا وليلى الأصلية بمفردنا .

ولكى أحدث تأثيرا عليها استخرجت مفكرة من جيبى راحت تحدثنى عن السيد أرت مدرس الموسيقى ، وحاولت أن اجد له علاقة بكونشيس . أعتقد أنه كان يعيش فى مكان مجاور لك . وهو لم يكن يسكن بجوارك . فأين كان يعيش ؟
ـ ليس لدى أدنى فكرة عن ذلك . فأنت تعرف تلك المرحلة من العمر .

قلت : ربما اخواتك يعرفن شيئا ؟

فتجهم وجهها . وقالت : أختى الكبيرة تعيش فى شيلى . أكبر منى بعشر سنوات . أما أختى روز .
ـ روز ! ياألهى . إن هذا يحسم الأمر . فهناك قصيدة غامضة تشير إليك وإلى أخواتك . وهى قصيدة غامضة للغاية . ولكننا نعرف الآن أنك لك أخت .
ـ كانت لى أخت . لقد ماتت روز فى تلك الفترة تقريبا . فى عام ١٩١٦ .
ـ ماتت نتيجة إصابتها بالتيفود ؟

وقلت تلك العبارة فى اهتمام بالغ حتى أنها أصيبت بالذعر فجأة . ولكنها ابتسمت بعدئذ وقالت : لا . لقد ماتت بسبب تعقيدات نادرة أعقبت اصباتها بمرض اليرقان . وقد سبب لى موتها مأساة هائلة أثناء فترة طفولتى .
ـ وأختك روز ، أكانت أكبر منك ؟
ـ بعامين .
ـ اذن فالصورة كانت عبارة عن فتاتين صغيرتين تضايقان مدرسا للموسيقى أجنبيا ؟

وبدأت تتأرجح فى مقعدها . وقالت : كنا نتجاوز حدودنا ولكننى لا أتذكر

جيدا . أقصد أننا كنا نضايقه بالفعل . وانى لواثقة تماما من أننا كنا مدللات . ولكن الحرب بدأت بعد ذلك . واختفى هو .

ـ إلى أين ذهب ؟

"لا أدرى . ليس لدى أدنى فكرة . ولكننى أذكر أن امرأة شرسة حلت مكانه . وكنا نكره هذه المرأة . وانى لواثقة من أننا افقدناه وأعتقد أننا كنا فتيات صغيرات متغطرسات مزعجات . هكذا كنا فى تلك الأيام .

ـ على مدى كم من السنوات قام بالتدريس لكما ؟

فقالت وكأنها تسألنى : لمدة عامين ؟

ـ أتذكرين أى دليل يدل على أنه كان يشعر نحوك بحب جارف ؟

فراحت تفكر للحظات طويلة ثم هزت رأسها وقالت : أنت لا تقصد .. شيئا ما رديئاً ؟

ـ لا . ولكن هل حدث أن جلست معه فى خلوة بمفردك فى أى وقت من الأوقات ؟

فظهرت عليها تعبيرات الصدمة الزائفة ثم قالت : أبداً . لا على الاطلاق . كانت توجد دائماً المربية الخاصة بنا أو أختى أو والدتى .

ـ ألا يمكنك أن تصفى لى شخصيته ؟

"اننى متأكدة اذا تقابلت معه الآن فانه سيكون على ما أعتقد رجلاً لطيفا ضئيل الحجم .

ـ ألم تعزفى أنت أو أختك على آلة الفلوت ؟

فابتسمت بسبب سخافة التساؤل وقالت : سبحان الله ! لا .

"سأوجه إليك سؤالا خصوصيا للغاية . هل يمكن لك القول أنك كنت فتاة صغيرة رائعة الجمال على نحو مذهل .. أنا واثق من أنك كنت كذلك ـ ولكنك كنت تدركين أنه كان هناك شيء ما له صفة الخصوصية بعض الشيء يتعلق بك ؟

فنظرت لأسفل نحو سيجارتها : لصالح البحث الذى تقوم به ـ ياعزيزى كيف لى أن أقول ذلك ـ فان إجابتى هى · نعم .. أعتقد أنه كان هناك شيء ما له صفة الخصوصية . وحقيقة الأمر أنه رسمت لى صورة زيتية . وأصبحت هذه الصورة مشهورة للغاية . وكانت آخر صيحة وآخر موضة

لعام ١٩١٣ . وهذه الصورة موجودة بالمنزل حالياً سأريها لك فى خلال دقيقة .

رجعت إلى مفكرتى .. وأنت لا تستطيعين أن تتذكرى ما حدث له عندما نشبت الحرب ؟

فراحت تضغط بيديها الجميلتين على عينيها ثم قالت : ياالهى . أعتقد أنه قد اعتقل . ولكنى لا أذكر على وجه الدقة .
ـ هل تعتقدين أن أختك الموجودة فى شيلى قد تتذكر على نحو أفضل ؟ وهل يمكننى أن أكتب رسالة اليها ؟
وأملتنى عنوانها ، فقمت بكتابته .

وجاء بنجى وقد بدا عليه بدون أن يتكلم أن صبره قد نفد . راحت امه تربت على شعره . بينما قلت له ياعزيزى لقد اكتشفت والدتك منذ لحظات أنها ربة للفن وانها مصدر الالهام . فالتفتت الأم إلىَّ وقالت : أتلك هى الكلمة ؟
ـ ما معنى كلمة مصدر الالهام .
ـ انها السيدة التى تجعل رجلاً يكتب القصائد .
ـ وهل يكتب القصائد ؟

وضحكت والتفتت إلىَّ : وهل هو مشهور حقا ؟
ـ أعتقد أنه سيصبح مشهوراً ذات يوم .
ـ أيمكننى أن أقرأ شيئا من انتاجه ؟
ـ مؤلفاته لم تترجم حتى الآن . ولكن من المؤكد أنها سوف تترجم .

ثم قالت : بكل صدق . لا أظن أن باستطاعتى أن أخبرك بالمزيد عنه . ثم ضحكت ونهضت واقفة تحت ضوء الشمس وأمسكت بيد ابنها . وقالت : سنقوم فقط بعرض لوحة زيتية على المستر أورفى ثم نعود إلى أعمالنا .

وسرنا إلى المنزل ودخلنا غرفة تضم منضدة طعام طويلة وشمعدانات فضية . وفوق مجموعة من الألواح الخشبية كانت توجد لوحة زيتية . وأسرع بنجى وأضاء لمبة كهربائية متواجدة فوق اللوحة . فظهرت صورة لفتاة تشبه بعض الشىء آليس ولها شعر طويل وترتدى زى البحارة . وكانت تلتفت نحو باب كما لو كانت مختبئة . وكان وجهها مليئا بالحيوية

والتوتر ومع ذلك كانت البراءة لا تزال تطل من عينيها . وتحت الصورة قرأت كلاما مكتوبا بماء الذهب . المعاكسة فى شقاوة/بريشة الفنان سير وليان بلانت .

ـ جميلة وجذابة وساحرة .

أومأت برأسها فصاح الولد بصوت مرتفع قائلا : إننا نطلق على هذه الصورة إسم "كيف يمكنك أن تصبح صبيانيا ومفرطا فى العاطفة" ؟

واعتذرت عن عدم استطاعتها دعوتى لتناول الغداء معهم حيث تعتمد على الوجبات الجاهزة التى تقدمها "مؤسسة النساء" . وعدتها ان لها نسخة من ترجمتى لأشعار كونشيس بمجرد نشرها .

وبعد أن أصغيت إليها أدركت أننى مازلت ضحية الرجل العجوز . وانني مازلت أصدق إلى حد ما وصفه الأخير لماضيه الغنى المتحرر من النزعات الاقليمية والذى أرغمنى على تقبله . وتذكرت الأصداء المتكررة التى وردت فى قصصه عن التغير الحيوى فى حياته فى العشرينات . وبدأت أشيد افتراضا جديداً . لعله كان الابن الموهوب لأسرة مهاجرة يونانية فقيرة . وأنه يخجل من اسمه اليونانى فاتخذ لنفسه اسما إيطاليا وحاول أن يرتقى بنفسه فى داخل المجتمع الغريب عليه فى لندن وحاول أن ينفض عن نفسه تاريخه بحيث أصبح يعيش نوعا من الحياة المزدوجة ، وبحيث أصبحنا جميعا نحن الذين تورطنا فى "أسلوب" بورانى بمثابة كبش الفداء لكل التعاسات التى تعرض لها . وفى البيوت التى عانى فى داخلها أثناء تلك السنوات البعيدة . وابتسمت لنفسى لدى إمساكى بهذا الخيط الجديد أثناء قياداتى للسيارة .

وصلت إلى الشارع . كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة والنصف ظهراً . فقررت أن أتناول الطعام قبل أن أعود إلى لندن . لذلك توقفت عند حانة صغيرة . وجلست عند البار وكنت أنا الشخص الوحيد الجالس هنالك ، وتساءل صاحب الحانة وهو يقدم لى كأسا : أكنت تمر بسيارتك أثناء رحلتك ؟

ـ كنت فى زيارة لشخص ما . فى منزل دنزفورد .

ـ إنها تسكن فى مكان جميل هنالك .

ـ هل تعرفهم ؟

كانت لهجته فى الكلام شبيهة بلهجة الرجل الذى هو على وشك أن يتقيأ . وظهرت رأس امرأة أضفت على شعرها اللون الأشقر عند الباب . ممسكة بطبق به شطائر . وقال وهو يناولنى باقى النقود : انها مغنية فى أوبرا . ألم تكن كذلك ؟.

ـ لا أظن ذلك .

ـ هذا ما يقوله الناس فى هذه المنطقة . والتزمت بالصمت لكى أتيح له الفرصة لتزويدى بالمزيد من المعلومات ولكنه لم يكن مهتما للغاية بالحديث عنها . تساءلت : ماهو العمل الذى يقوم به زوجها ؟

فقال : انها غير متزوجة . نحن هنا منذ عامين فقط . وفى خلال هذه الفترة لم أسمع عن وجود زوج لها . ولكن هناك مجموعة من الأصدقاء .. وهذا هو ما قيل لى .

ـ آه . فهمت .

سادت فترة من الصمت . ثم التقط كأسا وقال انها امرأة جميلة الشكل . ألم تشاهد كريماتها ؟ فهززت رأسى . فراح يلمع الكأس وقال :

ـ إن بناتها جميلات للغاية ولهن مقدرة فائقة "كم عمر بناتها" ؟

"لا تسألنى هذا السؤال . فأنا فى هذه الأيام لا أستطيع التفرقة بين الفتاة فى سن العشرين والفتاة فى سن الثلاثين . والبنتان الكبيرتان توأم .

ولو لم يكن مشغولا فى تلميع الكأس . لشاهد وجهى يتجمد مثل الحجر .

ثم رفع الكأس الزجاجى لأعلى فى اتجاه الضوء . وأضاف : ويقال أن أمهما لا تستطيع التمييز بينهما إلا من خلال الندبة الغائرة الموجودة فى يد إحداهما .

وخرجت من الحانة بسرعة خاطفة حتى أنه لم يكن لديه متسع من الوقت لكى يصيح مناديا علىَّ .

(٧٢)

لم أشعر بالغضب فى بادىء الأمر . قدت السيارة بسرعة حتى كدت أقتل رجلاً يركب دراجة ولكننى كنت أبتسم لنفسى فى معظم الطريق . فى هذه المرة لم أتوقف بسيارتى فى تحفظ عند البوابة وانما انزلقت بها على الممر الخصوصى . أوقفت سيارتى أمام الباب الأسود . واستخدمت

مقرعة الباب في طرق عنيف لم يشهده الباب طوال حياته الممتدة على مدى قرنين من الزمان .

وفتحت مدام دى سيتاس الباب بنفسها . كانت قد غيرت ملابسها . فارتدت بنطلونا من النوع العادى . ونظرت إلى ما ورائى نحو سيارتى كما لو كان ذلك سيوضح لها السبب في عودتى اليها . وابتسمت : يبدو أنك لن تخرجي لتناول الغداء خارج المنزل .

ـ نعم . لقد وقعت فى غلطة فى هذا اليوم .

أغلقت ياقة قميصها وقالت : هل نسيت شيئا ما هنا ؟

ـ ابنتيك التوأم .

تغيرت التعبيرات على وجهها . ولم يظهر عليها أنها مذنبة على الاطلاق . نظرت الىَّ نظرة مليئة بالاذعان ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة للغاية . وتعجبت من نفسى لأننى لم ألحظ التشابه فى العينين وفى الفم الطويل . وقفزت إلى ذهنى تلك اللقطة الفوتوغرافية الزائفة التى عرضتها ليلى علىَّ . كانت صورة لامرأة ذات شعر منفوش لأعلى . ثم اتخذت هى خطوة للوراء لكى تسمح لى بالدخول .

ظهر بنجى عند باب متواجد فى نهاية الصالة . فتكلمت مع ابنها فى هدوء وهى تغلق الباب ورائى . وقالت له : كل شىء على مايرام . اذهب وتناول طعام غذائك .

انحنيت قليلا أمام الولد وقلت له : يابنجى . هل يمكنك أن تخبرنى بشىء ما ؟ تخبرنى باسمى أختيك التوأم ؟

فحملق فى وجهى فى شكوك ولكننى أدركت أنه يشعر بشىء من الخوف أيضاً وكأنه ضبط متلبسا باخفاء شىء ما . ونظر إلى والدته . ومن المؤكد أنها أومأت له برأسها . فقال الصغير : ليلى وروز .

ـ شكرا جزيلاً .

وألقى علىَّ نظرة أخيرة مليئة بالشكوك ثم اختفى . فالتفت إلى مدام ليلى دى سيتاس . قالت وهى تسير نحو غرفة الاستقبال : سميناها بهذين الاسمين لكى نسترضى والدتى .

وجلست فى كرسى فوتيى . وأشارت لى بيدها لكى أجلس على الأريكة

الكبيرة التى توجد فى منتصف الحجرة ولكننى هززت رأسى . ولم تكن متوترة بل وابتسمت لى وقالت : حسنا ؟

نحن نبدأ من الحقيقة التى مفادها أن لك ابنتان مغامرتان . دعينى أسمعك وأنت تلفقين مرة أخرى ابتداء من هذه النقطة .

ـ أخشى أن تكون تلفيقاتى قد وصلت إلى نهايتها . ولا أستطيع الا أن أقول لك الحقائق . موريس هو الكفيل المعمد للفتاتين التوأم .

ـ هل تعرفين من أنا ؟

ـ أنت المستر أورفى . وأعرف من أنت .

نظرت لأسفل إلى يديها ثم نظرت إلىَّ وقالت : لقد قتل زوجى فى عام ١٩٤٣ . فى الشرق الأقصى . وهو لم يشاهد بنجى على الأطلاق . وهو أيضا كان أول مدرس للغة الانجليزية فى مدرسة لورد بيرون .

ـ لم يكن مدرسا فى مدرسة لورد بيرون . فلقد بحثت فى كافة النشرات المطبوعة .

إذن فأنت تذكر الاسم : هيوز .

ـ نعم .

فوضعت ساقا على ساق . كانت تجلس فى كرسى قديم ذهبى اللون وكانت معتدلة للغاية فى جلستها وكانت كل مظاهر الخيول فى هذه المنطقة قد اختفت . وقالت لى : هل تجلس .

تقبلت رفضى وبرودى ، وهزت كتفيها هزة خفيفة ، ونظرت نظرات عميقة فى عينى . نظرت تتسم بأنها ثاقبة وخالية من الخجل والاضطراب بل ومتغطرسة . ثم شرعت فى الحديث :

ـ لقد مات والدى عندما كان عمرى ١٨ عاما . ولكنى أهرب من المنزل دخلت فى زواج غبى . وفى عام ١٩٢٨ تقابلت مع زوجى الثانى . كنا نرغب فى الخروج من انجلترا لبعض الوقت ولم يكن لدينا قدر كاف من النقود . وتقدم هو ليشغل وظيفة مدرس فى اليونان . كان عالما مثقفا يحب بلاد اليونان . وتقابلنا مع موريس . حملت فى ليلى وزوز أثناء وجودى فى جزيرة فراكسوس . وكان ذلك فى منزل أعطاه موريس لنا لكى نقيم فيه .

ـ أنا لا أصدق كلمة واحدة مما تقولينه . ومع ذلك استمرى فى الكلام .

ـ وشعرت بالذعر لدى انجابى توأم فى اليونان واضطررنا أن نرجع إلى

انجلترا . وكان اسم والدتى قبل زواجها هو : دى سيتاس . وكان لها أخ أعزب . وهو بالغ الثراء وكان يعاملنى كابنة له . كانت والدتى امرأة تميل إلى الاستبداد .

تذكرت أن كونشيس كان قد قال لى : إنه عثر على بورانى فى إبريل ١٩٢٨ ، قلت : تقولين أنك لم تقابلى موريس كونشيس على الاطلاق .. قبل عام ١٩٢٩ ؟

فابتسمت وقالت : بالطبع لا . لكننى زودته بكل تفاصيل ذلك الجزء من قصته التى حكاها لك .

ـ وأخت تسمى روز ؟

وراحت تنظر فى امعان فى عقب سيجارتها وجعلتنى أنتظر للحظات واكملت : أنجبت التوأم . وبعد ذلك بسنة مات عمى . واكتشفنا أنه ترك كل ثروته شريطة أن يغير بيل اسمه رسميا إلى دى سيتاس وليس إلى دى سيتاس هيوز . وكانت والدتى هى المسئولة أساساً عن هذه الوضاعة . ثم نظرت إلى مجموعة الرسومات المنمقة التى تتدلى إلى جوارها عند رف المستوقد . وأضافت : وكان خالى هو آخر الذكور فى عائلة دى سيتاس . وحول زوجى اسمه إلى إسمى . بالطريقة اليابانية . ويمكن لك أن تتأكد من هذا أيضاً . هذا هو كل مافى الأمر .

ـ ياالهى . ليس هذا هذا هو كل مافى الأمر على الاطلاق .

ـ ولأنى أعرف عنك الكثير للغاية هل لى أن أناديك فى غير تكلفة باسمك الأول : نيقولاس ؟

ـ لا .

ابتسمت الابتسامة المثيرة للغيظ التى كانت ترتسم على وجوههم جميعا . وعلى وجهى ابنتيها وعلى وجه كونشيس بل وعلى وجه آنطون وماريا كما لو كانوا جميعا قد دربوا لكى يبتسموا نفس الابتسامات الغامضة . خطر على ذهنى أنه اذا كان هناك شخص ما قد قام بتدريب الآخرين على تلك الابتسامة فإن ذلك الشخص هو تلك المرأة بالذات . قالت :

ـ لا ينبغى أن تعتقد أنك أول شاب وقف أمامى معبرا عن مرارته وغضبه من موريس . ومنا نحن جميعا الذين ساعدناه . ولكنك أول شخص يرفض

الصداقة التى عرضتها عليك الآن .
ـ لدى بعض الأسئلة المزعجة التى أرغب فى توجيهها إليك الآن . لماذا أنت معروفة فى القرية بأنك مغنية أوبرا ؟
ـ لقد غنيت مرتين فى كونشرتات محلية . وكنت مدربة على الغناء .

تجاهلتها وتجاهلت رقتها وتجاهلت سلاح الأنوثة الخاصة بها وأعطيت ظهرى لها قلائلاً : ياعزيزتى مدام سيتاس . لا يمكن لأى قدر من السحر والجاذبية والذكاء ، ولا لأى قدر من التلاعب بالألفاظ أن يجعلك تفلتين من الحصار .

فالتزمت بالصمت لفترة طويلة . قبل ان تكمل :
ـ أنت الذى شكلت موقفنا . فأنت تجيىء إلى هنا لكى تقول لى الأكاذيب . أنت تجيىء إلى هنا من أجل كافة الأسباب الخاطئة . ولذلك فأنا أردد عليك بأن أقول لك أكاذيب . أرد عليك بأن أذكر لك الأسباب غير الصحيحة .
ـ هل ابنتاك هنا ؟
ـ لا .

فاستدرت لكى أواجهها وأنظر اليها : وماذا عن آليسون ؟
ـ آليسون وأنا صديقتان حميمتان .
ـ أين هى ؟

فهزت رأسها والتزمت بالصمت ، قلت : أطلب منك أن تذكرى لى مكان آليسون .
ـ فى داخل منزلى لا يمكن لأى شخص أن يصدر أوامره .
ـ حسنا . لسوف نعرف وجهة نظر الشرطة فى ذلك الأمر .
ـ يمكننى أن أخبرك من الآن وجهة نظر الشرطة . إنهم سيعتقدون أنك سخيف .

أعرضت بوجهى مرة أخرى محاولا أن أدفعها لأن تقول المزيد من الكلام . ولكنها جلست فوق المقعد فأحسست بعينيها متمركزتين على ظهرى . كنت ادرك أنها جالسة . وأدرك أنها كانت تشبه آلهة جالسة على عرشها وليست مجرد امرأة ماهرة تناهز الخمسين من عمرها فى عام ١٩٥٣ فى غرفة مع وجود جرار يدندن فى مكان ما قريب بالحقول ولكنها

كانت تلعب دورا متأصلا فى الولاء لمفاهيم لم أستطع فهمها والولاء لأناس لا يمكننى أن أغفر لهم حتى أنه كاد ألا يكون دوراً .

ونهضت واقفة ، واتجهت إلى مكتب متواجد في الركن ورجعت ومعها بعض الصور وضعتها على منضدة وراء الأريكة . ثم رجعت إلى كرسيها . ووجهت لى الدعوة لكى ألقى نظرة على الصور . كانت هناك صورة لها وهى جالسة على الكرسى الهزاز أمام الرواق المستوف . وعند الجانب الآخر من الصورة كان كونشيس جالساً وبينهما كان يوجد بنجى . وفى صورة أخرى شاهدت ليلى وروز ، كانت ليلى تبتسم وهى تنظر للكاميرا أما روز فقد ظهر بروفيل وجهها وهى تضحك ويبدو أنها كانت تمر خلف أختها . ومرة أخرى شاهدت الرواق المسقوف فى خلفية الصورة . والصورة التالية كانت صورة قديمة وتعرفت فيها على بورانى . كان يوجد بها خمسة رجال واقفين أمام المنزل . وكان كونشيس واقفا في الوسط والى جواره امرأة جميلة ، أنها ليلى دى سيتاس . وهناك رجل طويل يلف ذراعه حولها . نظرت إلى ظهر الصورة : كانت هناك عبارة "بورانى ١٩٣٥" .

- من هما هذان الشخصان ؟
- أحدهما صديقا . أما الآخر فكان سابقا عليك .
- أهو جيوفرى سوجدين ؟

فأومأت برأسها فى شيء من الدهشة . ووضعت الصورة على المنضدة وقررت أن أقوم بقدر ضئيل من الانتقام ، فقلت : لقد اقتفيت أثر أحد أساتذة ماقبل الحرب بالمدرسة . فزودنى بقدر كبير من المعلومات .

سادت لحظات من الصمت المليئة بالارتباك وتفرست بعينيها فى عينى . ثم قالت : ماذا قال لك ؟

- قال كلاما كثيراً .

ومرة أخرى اتجهت إلى المكتب واستخرجت خطابا وفصلت الجزء الأسفل منه وعملت مراجعة على الخطاب ثم ناولتنى إياه . لقد كان نسخة كربونية من الخطاب الذى أرسله نيفينسون إلىَّ . وكان قد كتب فى الجزء الأعلى من الخطاب مايلى : "آمل ألا يتسبب هذا فى أى ضرر دائم لعينى مستلم هذا الخطاب" ! كانت قد استدارت بعيداً وبدأت تنظر إلى أرفف الكتب . ثم عادت وناولتنى ثلاثة كتب وأخذت منى الخطاب . وابتلعت

السخرية والتهكم . ونظرت إلى الكتاب الموجود أعلى الكتابين الآخرين - إنه من الكتب المدرسية المقررة على الطلبة ومربوط بقطعة من القماش الزرقاء . وقرأت عنوان ذلك الكتاب : مقتطفات مختارة من الأدب اليونانى من أجل المدارس جمعها وشرحها وعلق عليها وليام هيوز الحاصل على الماجستير من جامعة كمبردج عام ١٩٣٢ . اما الكتاب الثانى فكان طبعة محدودة لترجمة للونجوس بتاريخ ١٩٣٦ .

- عام ١٩٣٦ . مازال هيوز ؟

- أى مؤلف له الحق فى استخدام الاسم الذى يعجبه .

تذكرت كلاما تفصيليا عن القصة التى قالت ابنتها ، سألتها : هل قام بالتدريس فى ونشستار ؟ ابتسمت وقالت : لفترة قصيرة . قبل أن نتزوج . أما الكتاب الآخر فكان طبعة لترجمات عن قصائد لشعراء يونانيين محدثين . نظرت لأعلى فى ضيق وقلت : موريس كونشيس . الشاعر المشهور . اختيار رائع من جانبى .

فأمسكت بالكتب ووضعتها على المنضدة وقالت : تصورت أنك فعلت ذلك فى ذكاء شديد .

- ومع ذلك فأنا شاب سخيف وغبى للغاية .

جلست فى مقعدها الهزاز وابتسمت فى وجهى ابتسامة دافئة فى خبث ، ابتسامة بها روح الصداقة من امرأة ذكية متوازنة . اتجهت إلى النافذة . فتلامس ضوء الشمس مع يدى . وشاهدت بنجى والفتاة النرويجية يلعبان عند الرواق المسقوف . ومن وقت لآخر كانت صيحاتهما تترامى الينا .

استندت بظهرها للوراء وأغمضت عينيها . ثم قالت : ياعزيزى أورفى . علىَّ أن أوضح أننى حصلت على اسمك من المعهد البريطانى . وزوجى الذى كان أول مدرس للغة الانجليزية فى مدرسة لورد بيرون مات مؤخرا ولقد عثرنا بين أوراقه على وصف لتجربة مشهورة بشأن ... ثم رفعت حاجبا عينيها فى استفسار . أخشى ألا أستطيع أن أجيبك على ذلك التساؤل .

وصلت إلى رف فى الحائط فوق المدفأة بجوارها واستخرجت صورة فوتوغرافية من خلف حلية . كانت الصورة لثلاث نساء ممتطيات ظهور

الخيول . احداها ليلى دى سيتاس . وكانت الثانية جنهيلد . أما الثالثة فكانت آليسون . قد بدا عدم الثقة على وجهها وهى تضحك ، سألت : هل تقابلت مع ابنتيك ؟ فحملقت عيناها لأعلى نحوى . وقالت : لو سمحت . احتفظ بهدوء أعصابك .

راحت ترقبنى وقد وضعت ذقنها على يدها وهى جالسة فى كرسيها الأصغر . وكانت هادئة . لم أعرف سبب هدوئها ولكنها مسيطرة على مشاعرها . شعرت أننى مثل جرو متهور يقتفى أثر أرنب برى عجوز ماكر . نظرت إلى صورة آليسون ثم مزقتها إلى أربعة أجزاء وألقيت بها فى طفاية سجاير . ساد الصمت ولكنها قالت بعد قليل : ياعزيزى الشاب المستاء . دعنى أقول لك . آليسون لديها مقدرة نادرة على الارتباط والاخلاص . وعلى نحو يفوق كثيراً ما كان لدى من إخلاص فى أى وقت من الأوقات . وأعتقد أن هذه الميزة ذات قيمة كبيرة . لقد حاولت أن أقنعها بأنها يجب عليها ألا تقلل من قيمة الأمور التى ينبغى عليها أن تقدمها .

ـ كم أنت شفوقة ؟

فتنهدت قائلة : السخرية اللاذعة مرة أخرى .

ـ حسنا . وما الذى تتوقعينه ؟ دموع الشعور بالندم ؟

ـ أنت أكثر الشباب سعادة وأكثرهم فى عدم الرؤية . أنت سعيد لأنك تتمتع بهذه الجاذبية رغم أنك مصمم على عدم اظهار جاذبيتك لى . وأنت أعمى لأنك تمتلك قطعة من الأنوثة الخالصة بين يديك . هل تدرك أن آليسون تمتلك تلك الخاصية الهائلة الوحيدة التى ينبغى أن يساهم بها الجنس الناعم فى الحياة ؟ انها خاصية تتضاءل أمامها الخواص الأخرى مثل التعليم والطبقة الاجتماعية والخلفية التاريخية بل وتعتبر لا شىء بالنسبة لتلك الخاصية الانثوية الهائلة . ومع ذلك فقد تركتها تنزلق من بين يديك .

ـ وذلك بفضل ابنتيك الفاتنتين .

ـ لم تكن ابنتاى سوى تجسيد لانانيتك .

فتصاعد فى داخلى غضب مبهم وعميق ، وقلت : لقد وقعت بطريق الصدفة . فى حب واحدة من بنتيك .

ـ مثلما يقع جامع للوحات الفنية . فى حب لوحة زيتية يريد الحصول

عليها . ويستعد لأن يفعل أى شيء من أجل الحصول عليها .

ـ لم تكن لوحة فنية . وانما فتاة لديها قدر من المبادىء الأخلاقية يعادل ما تملكه عاهرة ومتآكلة تعيش فى بلاس بيجال .

نهضت واقفة واستندت باحدى يديها على الرف الموجود بالحائط فوق المدفأة وراحت ترقبنى وأنا أتجول داخل الغرفة ، انها تتلاعب بى مثل طائرة ورقية . كان بمقدورى أن أقوم بحركة فجائية وأنفتح . ولكنها كانت ممسكة بخيوط الطائرة الورقية . سألت : أنت على استعداد لأن تصغى فى انتباه بدون أن تقاطعنى فى الحديث ؟

فنظرت اليها ثم هززت كتفى موافقا : حسنا . اذن فلنضع جانبا مسألة ماهو صحيح وماهو غير صحيح من الناحية الجنسية . لأننى أعيش فى منزل مشابه لمنزل الملكة آن . لا تظن أننى أعيش ، مثلما يظن معظم الناس فى بلادنا ، وفقا لأخلاقيات الملكة آن .

ـ ليس هناك شيء بعيد عن عقلى .

وقفت عند النافذة وقد أعطيت ظهرى لها . وشعرت أنه ينبغى أن أسد عليها كافة السبل وأضعها فى موقف حرج . وأضافت قائلة : لو أن موريس هنا لكان قد قال لك أن الجنس بمثابة لذة أكبر من أى لذة أخرى ولكنه ليس بأى حال من الأحوال متعة مختلفة . كان سيخبرك أن الجنس ليس سوى جزء واحد ـ وليس هو الجزء الجوهرى ـ فى العلاقة التى نسميها الحب . كان سيقول لك أن الجزء الجوهرى فى الحب هو الصدق وهو الثقة التى يشيدها الحبيبان فى عقليهما . فى نفسيهما . فى إرادتهما . وسيقول إن الخيانة الزوجية الحقيقية هى الخيانة التى تخفى الخيانة الجنسية . لأن الشيء الوحيد الذى لا ينبغى أن يحدث بين رجل وامرأة قدما الحب لبعضهما البعض هو الكذب .

حملقت إلى الخارج فى اتجاه المساحة المزروعة بالحشائش . وأدركت تحفظ كلامها عن ظهر قلب . كانت لهجتها لطيفة بشكل غير متوقع بل وأضافت : إننى أحاول أن أوضح لك ما نحن عليه . لقد أقنعنا موريس ـ منذ أكثر من عشرين عاما ـ بأن علينا أن نلغى المحرمات المتعلقة بالسلوك الجنسى من حياتنا . ليس بسبب أننا نتسم بالفساد الأخلاقى . ولكن لأننا أكثر التزاما بالأخلاقيات من الآخرين . لقد حاولنا أن نفعل ذلك فى حياتنا

الخاصة . حاولت أن أفعل ذلك بالنسبة للطريقة التى ربيت بها أطفالنا . وينبغى علىَّ أن أجعلك تفهم أن الجنس بالنسبة لنا جميعا ، نحن الذين نقوم بمساعدة كونشيس ، ليس هو الشىء الوحيد فى حياة أغلب الناس . فالناس لديهم أمور أكثر أهمية ينبغى أن يفعلونها .

ثم أضافت قائلة "قبل الحرب لعبت دوراً مزدوجا شبيها إلى حد ما بالدور الذى لعبته ليلى معك . وهى على أستعداد لأن تفعل أشياء لم أكن على استعداد أن أفعلها . كان أمامى الكثير من المحرمات التى طرحتها جانباً . والتى كان علىَّ أن أتخلى عنها . كان لى زوج أعشقه من الناحية الجنسية مثلما أعشقه فى كافة الأمور . ولكن نظرا لأننا تغلغلنا بعمق شديد فى حياتك فاننى أجد لزاما أن أقول أننى أسلمت نفسى لكونشيس مرات عديدة حتى أثناء وجود زوجى على قيد الحياة وكان هو على معرفة كاملة بذلك وتم ذلك بموافقته . وهو بدوره أثناء الحرب كان يحتفظ لنفسه بسيدة هندية وكنت أنا على علم بذلك وكنت موافقة عليه . ومع ذلك أعتقد أن زواجنا كان كاملا بل سعيداً تماما لأننا كنا نحافظ على اثنين من المبادىء الجوهرية . اذ لم يسبق لنا أن تبادلنا الأكاذيب لن أقول لك المبدأ الآخر إلى أن أعرف جوانب شخصيتك على نحو أفضل

نظرت حولى فى احتقار . واكتشفت أن هدوءها لا يبعث علىَّ الراحة وأدركت أن الجنون كان يتأجج تحت السطح . ثم جلست هى مرة أخرى . وقالت : اذا كنت ترغب أن تعيش فى العالم الذى تحلى فيه الأخلاقيات فان ما فعلته ابنتى يعتبر أمرا مثيرا للاشمئزاز . حسنا . يجب أن تتذكر أن هناك تفسيراً آخر . فهى ربما كانت ملتزمة بالشجاعة الشديدة . لا أنا ولا طفلتى . نحن أغنياء وأذكياء ونهدف لأن نحيا حياة تتسم بالغنى والثراء والذكاء .

ـ أنتم سعداء الحظ .

بالطبع . نحن سعداء الحظ . ونتقبل المسئولية التى ألقاها على عاتقنا حظنا السعيد فى يانصيب الوجود . رددت على عقبى مرة أخرى لكى أواجهها قائلاً : مسئولية !

ـ هل تعتقد أننا نفعل هذا من أجلك ؟ هل تعتقد أننا لا نقوم بالتخطيط لرحلة طويلة ؟ كل ما فعلناه كان بالنسبة لنا ضرورة .

ـ بكل ما تحمله ضرورة الفحش والبذاءة التى لا مبرر لها .
ـ بكل ما تحمله ضرورة تجربة بالغة التعقيد . فقد انتهى عهد التجارب التى تتميز بالبساطة .

وهبط الصمت بيننا . كنت لازلت مليئا بالغضب الشديد . وبطريقة ما غامضة كنت خائفا من التفكير فى آليسون وقد وقعت بين يدى هذه المرأة مثلما يسمع المرء عن منطقة ريفية جميلة يتم بيعها لمقاولين يرغبون فى تشييد العمارات عليها . شعرت أيضاً ان الناس تخلو عنى .
ـ اننى أعرف شبابا يمكنهم أن يحسدونك . ثم سيشعرون بالشفقة عليك بسبب ضيق أفقك وحماقتك .

ثم وقفت ورائى ووضعت يدها على كتفى وجعلتنى أستدير لكى أواجهها ، سألت : هل يدل منظرى على أننى امرأة شريرة ؟ وهل يدل منظر ابنتّى على أنهما شريرتان ؟
ـ الأعمال والتصرفات هى التى تدل على ذلك وليس المظهر الخارجى .
ـ هل أنت واثق أن تصرفاتنا لم تنطو على أى شىء سوى الشر ؟

نظرت لأسفل ولم أستطع أن أجيب عنها . ثم أنزلت يدها عن كتفى ، ولكنها ظلت واقفة أمامى عن كثب .

هل يمكنك أن تثق فى لبرهة قليلة لمجرد لحظات قصيرة ؟

لم أرد عليها فأضافت قائلة : يمكنك أن تتصل بى تليفونيا . واذا أردت أن تفتش المنزل يمكنك أن تفعل ذلك . ولكننى أنبهك أنك لن تشاهد أى شخص تريد أن تراه . لا يوجد سوى بنجى وجنهيلد .

ثم نظرت للخارج من خلال النافذة وقال : أود أن أساعدك .
ـ إننى أريد آليسون . ولا أريد مساعدة .
ـ هل لى أن أستدعى لك كونشيس الآن ؟.

فالتفت بعيداً عنها واتجهت إلى منضدة الأريكة وحملقت فى الصور الفوتوغرافية . وأضافت : حسنا . لن أسأل مرة أخرى .
ـ كان بمقدورى أن أذهب إلى إحدى الصحف وأحكى لهم القصة . وان ادمر كل أعمالكم اللعينة .
ـ مثلما كان باستطاعتك أن تهبط بالسوط فى عنف على ظهر ابنتى .

فنظرت فى حدة إليها وتساءلت : أكنت أنت المتواجدة فى التابوت ؟
ـ لا .
ـ هل كانت آليسون هى الموجودة ؟
ـ قيل لك أن التابوت كان شاغرا . وتقابلت عيناها مع عينى غير المصدقتين . فقالت : أقول لك بكل صدق أن آليسون لم تكن فى ذلك التابوت . ولا أنا . ربما كان هناك شخص آخر .
ـ من هو ؟
ـ أنه شخص ما .. معروف في كل العالم . ولو شاهدته لعرفته . على الفور .

وبدأت خيوط تعاطفها تشق طريقها فى داخل غضبى . فألقيت نظرة مقتضبة ومشيت نحو الباب . فسارت ورائى واختطفت قصاصة ورق من فوق قمة المكتب : خذ هذه القصاصة لو سمحت .

فشاهدت قائمة بأسماء وتواريخ مواليد . هيوز إلى دى سيتاس ٢٢ فبراير ١٩٣٣ ورقم التليفون .

فهززت كتفى ودفعت بقصاصة الورق فى اهمال داخل جيبى وواصلت سيرى دون أن أنظر اليها . وفتحت الباب الأمامى فى عنف . فجاءت ورائى ، توقفت عند باب سيارتى وحملقت فى حزن وشقاء نحو مدام دى سيتاس وقلت لها : لسوف أشاهد آليسون فى جهنم قبل أن أعود اليك .

ففتحت فمها كأنها بصدد أن تجيب عنى ولكنها غيرت رأيها . وظهر على وجهها نوع من التأنيب . دخلت سيارتى . ولدى خروجى من البوابة لمحت هيكلها فى المرآة تحت الشرفة المسقوفة . كانت لا تزال واقفة هنالك وكأنها تشعر بالأسف بسبب انصرافى من منزلها .

(٧٣)

كنت أتظاهر بأننى غاضب على نحو يفوق غضبى الحقيقى . وأنها عندما تحاول التخفيف من حدة مشاعرى العدائية من خلال اللجوء إلى الهدوء . أحاول تحطيم هدوئها من خلال مشاعرى العدائية . ولم أشعر بالأسف بسبب اصرارى على معاملتها فى غلظة . وكنت أقصد إلى حد ما ما قلته عن آليسون فى تلك الآونة .

لأن هذا أصبح آنئذ هو السر الحقيقى : عدم السماح لى بمقابلة

آليسون . كان هناك شيء ما متوقعا منى أن أفعله . أن أقوم بنوع من الانجاز العظيم الذى سيتيح لى الفرصة للوصول إلى الجحيم الذى كانت تخفى نفسها فيه . كنت بصدد اجتياز امتحان دقيق . ولكن أحدا لم يقدم لى أى إشارة حقيقية لما يراد لى أن أبرهن عليه . كان من الواضح أننى عثرت على المدخل المؤدى إلى الجحيم . اما الأمور التى قالتها مدام ليلى دى سيتاس فلم تقربنى منه السر الغامض : ماهى تلك الرحلة الطويلة وماهى تلك الخطط ؟

اكتفيت بمشاعر الغضب التى لازمتنى فى اليوم التالى . ثم ذهبت إلى منزل سومرست . واكتشفت أن كل المعلومات التى زودتنى بها مدام ليلى دى سيتاس صحيحة فأدى هذا إلى تحويل غضبى إلى حالة من الاكتئاب . وفى ذلك المساء اتصلت برقم تليفونها . فردت الفتاة النرويجية على التليفون .

من تكون أنت لو سمحت ؟ من المؤكد أن شخصاً ما نادى عليها لأننى سمعتها تقول "الشخص الذى اتصل تليفونيا لم يرد علىَّ . وبعدئذ جاء على التليفون صوت آخر . "هالوا" . وضعت السماعة وهى لا تزال هناك . ولكن لم يكن هناك شيء يدفعنى إلى التكلم معها .

وفى اليوم التالى وهو اليوم الثالث عقب الزيارة قمت بتحرير خطاب مرير موجه إلى آليسون باستراليا . وكنت قد أعتقدت أن استراليا هى المكان الذى ذهبت اليه آليسون فى نهاية الأمر . وكتبت فى ذلك الخطاب كل ما كان ينبغى علىَّ أن أقوله لها . ومن المؤكد أننى رحت أقرأه عشرين مرة كما لو كان باستطاعتى من خلال قراءته مرات كافية تحويله إلى خطاب يتناول حقائق دافعة عن براءتى وعن تواطئها معهم . ولكننى ظللت أؤجل وضعه فى صندوق البريد وفى النهاية قضى الخطاب ليلته على الرف الموجود بالحائط فوق المدفأة .

كنت قد تعودت على تناول طعام الافطار مع كيمب فى معظم أوقات الصباح ، ولكننى لم أتناول معها الافطار فى تلك الأيام الثلاثة الأخيرة حيث كنت أحمل فى داخلى تجهما موجها ضد كافة الأوضاع البشرية . ولم يكن لدى كيمب أى وقت لكى تقضيه فى المطبخ على الاطلاق ولكنها كان بمقدورها أن تعد قهوة جيدة . وفى صباح اليوم الرابع كنت فى أشد

الاحتياج لاحتساء القهوة .

وعندما دخلت إلى الغرفة وضعت هى جريدة "الديلى ووركر" . ثم جلست هنالك تدخن سيجارتها . وتبادلنا سويا عبارتين . ثم لاذت بالصمت . ولكن فى خلال الدقائق التالية أدركت أننى كنت واقعا تحت تفحص طويل من خلال الدخان الذى كانت ترتديه مثل قناع رحيم أمام وجهها الصباحى . وتظاهرت بأننى منغمس فى القراءة ولكن ذلك لم يخدعها .

- ماذا دهاك يانيقولاس ؟ لا أصدقاء لك . ولا فتيات . ولا أى شىء . اننى احاول مساعدتك .

كانت تجلس هنالك فى امتلاء وقصر قامة ترتدى فستانا قديما . وكان شعرها غير ممشط .

- أعرف أنك تحاولين مساعدتى ياكيمب .

نظرت نحو وجهها . كان شاحبا ومترهلا . ومدت يدها عبر المنضدة وربتت على يدى . وكنت أعرف أنها أصغر فى السن من ليلى دى سيتاس بخمس سنوات ومع ذلك كانت تبدو أكبر منها بعشر سنوات . قلت : المسألة فى غاية التعقيد . أمامى اليوم بأكمله لكى أساعدك فى حل المشكلات .

فجأة بدت لى حملقتها خاوية ومليئة بالتهديد مثل حملقة القاضى الذى يوجه الأسئلة . كنت أشعر بالارتياح نحوها ومع ذلك شعرت أن حب الاستطلاع لديها شبيه بشبكة ملقاة حولى . لقد كانوا مخطئين فى آرائهم أثناء المحاكمة . فأنا لم أقم بالهجوم على الفتيات وافتراسهن . ولكن حقيقة الأمر أن سبيلى الوحيد للوصول إلى الإنسانية السوية وإلى أى انفتاح للقلوب كان يمر من خلال الفتيات اللائى كُن يفترسننى . وبذلك كنت الضحية الحقيقية .

لم يكن هناك سوى شخص واحد أريد التحدث اليه . وإلى أن يتم ذلك كنت أحمل بين ضلوعى سرى الغامض . بينما تغلفنى أسرارى وتحدق بى مثل استحكامات دفاعية . ومثل رفيقى الوحيد .

- فى يوم ما ياكيمب . ليس الآن . فهزت كتفيها ونظرت الىَّ نظرات متحجرة مليئة بالتنبؤ ومنذرة بما هو أسوأ .

وصاحت المرأة العجوز التى تنظف السلالم مرة واحدة كل أسبوعين من خلال الباب . لقد كان تليفونى يدق . فصعدت السلم بسرعة ورفعت سماعة التليفون أثناء الجرس الأخير والذى بانتهائه تنفصل المكالمة التليفونية : هالو . أنا نيقولاس أورفى .

ـ صباح الخير ياأورفى . أنا ساندى ميتفورد .

ـ هاأنت قد عدت !

ثم سلك صوته وأضاف : وصلتنى رسالتك المختصرة . وكنت أود أن أسألك عما اذا كان وقتك يسمح بأن نتناول الغداء سويا فى مكان ما .

وبعد دقيقة أخرى وعقب تحديد الوقت والمكان الذى نتقابل فيه رحت أقرأ الخطاب الذى كتبته لآليسون مرة أخرى . كان مالئوليو الجريح منتشرا بين كافة السطور . وبعد دقيقة من أخرى لم يكن هناك خطاب وانما أصبح الخطاب كتلة من الرماد شأنه شأن كل علاقة أخرى فى حياتى . الكلمة نادرة ولكنها دقيقة .

لم يطرأ أى تغير على ميتفورد على الاطلاق . بل باستطاعتى أن أقسم أنه يرتدى نفس الملابس . كان ميتفورد أقل زهوا عن ذى قبل . ولكنه بعد احتساء عدد قليل من كؤوس الجن عاد إلى غروره القديم . إنه لم يتسلم أى خطاب مرسل منى من جزيرة فراكسوس . من المؤكد أنهم مزقوا ذلك الخطاب . كان هناك شىء ما لا يريدون له أن يقوله .

ورحنا نتناول الشطائر ونثرثر ونتحدث عن المدرسة . ولم نتطرق فى الحديث إلى بورانى . وظل يذكرنى بأنه سبق أن حذرنى . وانتظرت حلول اللحظة المناسبة لكى أتطرق إلى الموضوع الوحيد الذى يهمنى أن أتطرق اليه . أخيرا قام هو بفتح المجال فى التحدث فى ذلك الموضوع وهذا هو ما كنت آمل فيه . اذا تساءل : ألم تذهب إلى غرفة الانتظار ؟

فأدركت على الفور أن تساؤله هذا لم يتم بطريقة عرضية وعلى النحو الذى كان يريد له أن يبدو عليه . أدركت أنه يموج بمشاعر الرهبة وحب الاستطلاع وأننا فى حقيقة الأمر لدينا نفس السبب الذى دعانا لعقد هذا اللقاء ، قلت : أوه ياألهى . كنت أريد أن أسألك عن ذلك . هل تذكر . بمجرد أن قلنا لبعضنا البعض مع السلامة .

نظر إليَّ نظرة مليئة بالحرص والحذر ورد : نعم ، ألم تذهب أبداً إلى خليج موتسا ؟ انه الخليج الجميل الذى يقع عند الجانب القبلى ؟ إننى اعرفه بالطبع .

- ألم تلاحظ الڤيلا التى تقع عند رأس الخليج من جهة الشرق ؟
- نعم . كانت دائما مغلقة . ولقد قيل لى ذلك .
- إنها ممتعة للغاية .

ونظر عبر الصالة وبدا عليه كأنه يتذكر الأحداث الماضية وتركنى فى حيرة وترقب . شاهدته يرفع سيجارته إلى شفتيه وشاهدت الدخان يتسلل من فتحتى أنفه . ثم قال : حسنا هكذا كان الأمر أيها الصديق القديم .

- لماذا قمت بتحذيرى ؟
- لقد أخبرتك بالفعل .
- اخبرتنى !
- لقد تشاجرت مع الشخص المتعاون مع الأعداء . هل تذكر ؟
- نعم .
- انه نفس الرجل الذى يمتلك الڤيلا .

رحت أطرق بخفة على أصابعى وأضفت : انتظر لحظة . ماذا كان اسم ذلك الرجل ؟

وظهرت ابتسامة مليئة بالمتعة والتلسية على وجهه كما لو كان يعرف الكلام الذى بصدد أن أقوله . ثم تحسس شاربه وكان دائما ما يسوى شاربه بيده وقال : كونشيس .

- ولكنى أعتقد أنه فعل شيئا ما حسنا وخيراً أثناء مقاومة الاحتلال .
- لا . فحيقيقة الأمر أنه عقد صفقة كبيرة مع الألمان . حيث قام شخصيا بتنظيم عملية إطلاق النيران على ثمانين قروياً . ثم جعل أصدقاءه يضعونه فى صف القرويين لكى يبدو أمام الناس أنه شجاعا وبريئا .

نفث الدخان من أنفه محتقراً سذاجتى . وقال : أيها الصديق القديم .. يجب أن تعرف أنه لا يمكن للمرء أن يبقى على قيد الحياة اذا وقف فى الصف لكى ينفذ فيه الألمان الحكم بالاعدام . لا . فهذا الأفاق خدع الناس . لأنه كان خائناً ومع ذلك نجح أن يعامله الناس على أنه بطل دموى . بل قام بتزييف تقرير ألمانى كاذب عن الحادث .

فنظرت فى حدة إليه . وخامرتنى شكوك جديدة مريعة . دهاليز جديدة فى المتاهة .

فقام ميتفورد بتحريك إصبع الابهام والسبابة فى يده بتلك الحركة اليونانية المعبرة عن الرشوة والفساد والبرطلة . فقلت : ولكنك لم تشرح لى حتى الآن مسألة غرفة الانتظار .

إنه الاسم الذى أطلقه على الفيللا . انتظار الموت أو شيء من هذا القبيل .

ـ وما الذى حدث بينك وبينه ؟

ـ لا شيء . لا شيء على الاطلاق .

فابتسمت فى سذاجة وصفاء نية وقلت :

ـ أوه . بحق السماء . ماذا يحدث ؟

فقال : كلها أمور سخيفة لعينة . فى حقيقة الأمر أننى خرجت للنزهة ذات يوم . كنت أشعر بالملل من المدرسة . فذهبت إلى موتسا لكى أسبح فى الماء وأروح عن نفسى وهبطت إلى الشاطيء مخترقا الأشجار . فشاهدت فتاتين . لم تكونا مجرد فتاتين . ولكنهما رائعتا الجمال . فاندفعت مختصرا الطريق إليهما . وقلت لهما كلاما ما باللغة اليونانية فردتا علىَّ باللغة الانجليزية . كانت إنجليزيتين . مخلوقتان رائعتان للغاية . توأم .

ـ ياألهى العظيم . دعنى أقدم لك كأساً .

وقفت عند البار منتظرا تقديم كؤوس الجن ورحت أرقب نفسى فى المرآة وغمزت لنفسى بعينى غمزة خفيفة واكمل : تحركت فى سرعة ونشاط . واستجمعت قواى . وتعرف على شخصيتهما . وأكتشفت أنهما ابنتان فى العماد لذلك العجوز الموجود فى الفيللا . وأنهما من عائلة كبيرة ذات حسب ونسب . وأنهما تعلمتا آداب المجتمع فى سويسرا . وكل تلك الأمور . وقالتا أنهما موجودتان باليونان لقضاء الصيف . ثم قالتا : إن العجوز سيرحب كثيراً بمقابلتى ولذلك فليس هناك مانع من أن أصعد معهما إلى الفيلا لكى أتناول الشاى معهم . ثم انطلقنا سويا . وتقابلت مع العجوز . وتناولنا الشاى سويا .

ذلك الرجل الذى هو صاحب الفيلا .. لقد نسيت اسمه .. هل يعرف كيف

يتحدث بالانجليزية ؟
ـ إنه يتكلم الانجليزية فى إتقان شديد . قد تجول فى أجاء أوربا طوال حياته . واختلط بأفضل المجتمعات . أدركت أن إحدى الاختين تكتنفها سحابة من الحزن . وأنها من طراز لا يتمشى مع ذوقى . أما الثانية فكانت تتلاءم معى . أوكى . وانصرف الرجل والفتاة التى لا تتمشى مع ذوقى عقب تناول الشاى ثم قامت الفتاة المتلائمة معى والتى تسمى جين باصطحابى للتجول فى أرجاء ذلك المكان .
ـ هذا انجاز عظيم .
ـ وشعرت على نحو ما أن هذه الفتاة كانت مستعدة وراغبة . وأنت تعرف ظروف الحياة فى هذه الجزيرة المنعزلة .

وثنى ذراعه وربت على الجزء الخلفى من شعره . ثم قال : ثم هرولت عائدا إلى المدرسة . وودعتنى وداعا رقيقا . ووجهت الدعوة لكى أتناول طعام العشاء فى أجازة نهاية الأسبوع التالية . ومر الأسبوع . وارتديت أفضل ما لدى من ثياب وذهبت إلى هناك . وغير ذلك من الاستعدادات الضرورية الأخرى . وكانت هناك الخمور وكانت هناك الفتاتان الرائعتان العظيمتان . ولكن الفتاة الأخرى تعرضت للدورة الشهرية والحيض وصدرت عنها الروائح الكريهة . وكنت قد حصلت على رقمها فى الأسبوع السابق . إنها واحدة من الفتيات المثقفات اللعينات . تظاهرت أنها قاسية مثل المجانين . وأصبح الأمر غير مأمون الجانب أثناء العشاء . وأصبح الموقف مربكا . بدأت هذه الفتاة التى تسمى جولى تقف ضدى ولم ألحظ هذا الاتجاه من جانبها فى بادىء الأمر . ثم اعتقدت أن هذه الفتاة متضايقة من نفسها لأنها تمر بفترة العادة الشهرية . ولكنها . شرعت بعد ذلك فى السخرية منى والاستهزاء بى على نحو سخيف .
ـ كيف ؟
ـ تلك الحركات التى تعرفها .. راحت تقلد صوتى وطريقتى فى تناول الأمور . وأعتقد أنها كانت ماهرة فى تقليدى . وقد تعمدت الاساءة الىَّ بشكل لعين . كانت تقول كلاما سخيفا وغبيا عن حل النزاع بين الدول بالطرق السلمية ، وكلاما عن القنبلة الذرية . أنت تعرف هذا النوع من الكلام . لم يكن لدى أى خلفية عن تلك الموضوعات .
ـ ألم يشترك الآخرون فى الحديث ؟

لم يشترك الآخرون بأى كلمة . كانوا مرتبكين للغاية ثم انفجرت جولى فى سيل من الشتائم وفقدت أعصابها تماما . وفتحت أبواب جهنم . فنهضت جين واتجهت إلى أختها . ورفرف العجوز بيديه مثل غراب جريح . فاسرعت جولى بمغادرة المكان ثم سارت أختها وراءها . ووجدت نفسى جالسا مع العجوز . فبدأ يتحدث معى ويقول : إن هاتين الفتاتين يتيمتان وقال كلاما كثيراً كنوع من الاعتذار لما حدث .

ـ وماهى تلك الاهانات والشتائم التى قالتها ؟

ـ كانت تقول كلاما مثل البول ومثل الغائط . وقالت عنى أننى إنسان نازى .

تنهندم وسوى ريشه بمنقاره استعاريا واستطرد قائلاً : عادت جين بعد قليل . وتركنا العجوز بمفردنا لدقائق قليلة وبدت هى لطيفة معى للغاية . وأنا بالطبع تظاهرت بأن مشاعرى جرحت وأشرت أن التريض قليلا تحت ضوء القمر من شأنه أن يعيدنى إلى حالتى الطبيعية . وعندئذ قالت : وما رأيك فى أن نسبح فى الماء سويا ؟. ورحبت بالفكرة لما يصاحب السباحة من أنشطة أخرى مسلية للغاية . واتفقنا أن نلتقى عند البوابة فى منتصف الليل . ثم انصرفنا للنوم فى الحادية عشرة مساء . وظللت جالساً منتظر حلول ساعة الصفر . ثم تسللت من المنزل . لم تكن هناك مشاكل . وذهبت إلى البوابة وبعد خمس دقائق جاءت إلىَّ . ويمكننى أن أقول لك أننى سبق لى القيام ببعض الممارسات مع الفتيات فى شبابى ولكن وجه تلك الفتاة أضاء فى ابتسامة فجائية مثل القنبلة . فبدأت أعتقد أن السباحة فى منتصف الليل بصدد الالغاء من أجل القيام بممارسات أكثر أهمية . ولكنها قالت أنها تريد أن تهدىء من روعها وتبرد نفسها لبعض الوقت .

ـ اننى لمسرور لأنك لم تقل لى هذا الكلام قبل أن أذهب . لأن مشاعر الاحباط كانت ستؤدى إلى قتلى .

فابتسم فى تعطف . وأضاف : ثم نزلنا إلى الشاطىء . وبعدئذ قالت لى لم ألبس المايوه تحت ثيابى . فهل يمكنك أن تنزل إلى الماء أولاً . فظننت أنها ربما خجولة أو ترغب فى خلع ثيابها بعيداً عن ناظرى . وذهبت لتتوارى بين الأشجار . وقام تشارلى بالتصرف وفقا لما قيل له على وجه الدقة .. سبح فى الماء لمسافة خمسين ياردة ثم وطأ بقدميه فى الماء وانتظر لمدة دقيقتين ثم ثلاث دقائق وأربع دقائق وفى النهاية وصلت المدة

إلى عشر دقائق وبدأ بعد ذلك يشعر بالبرد الشديد ولكن الفتاة لم تظهر من بين الأشجار .

ـ وملابسك التى تركتها على الشاطىء اختفت . ها أنت قد أدركت ما حدث أيها الصديق القديم وكنت عاريا تماما كما ولدتنى أمى . ثم وقفت على الشاطىء اللعين ورحت أنادى اسمها اللعين بصوت هامس . هذا هو ما حدث . مقلب فظيع . وتصاعدت مشاعر الغضب الشديد فى داخلى . وأعطيتها نصف ساعة لكى ترجع . ثم رجعت أبحث عنها . فانطلقت عائدا إلى المنزل . وقطعت جزءا من غصن شجرة صنوبر لكى أغطى عورتى اذا اقتضت الضرورة .
ـ شىء رائع للغاية .

وبدأت أشعر أنه من الصعب علىَّ ألا ابتسم ابتسامة كبيرة ولكن كان من الواضح أنه كان يقصد لى أن أشاركه فى ثورة غضبه .
ـ ونفذت من البوابة وصعدت على المدق نحو المنزل . ودرت متجها إلى واجهة المنزل . فماهو الشىء الذى شاهدته على ما تعتقد ؟ كان هناك رجل منتظراً .
ـ أأنت تمزح ؟
ـ لا . أيها الصديق القديم . بل هم الذين كانوا يمزحون . كان فى الواقع عبارة عن تمثال من تماثيل الأزياء . مثل واحد من تلك الأشياء التى تستخدمها فى التمرين على الطعن بالسونكى . شىء ممتلىء بالقش . ومعلق من حبل ملفوف حول رقبته . يرتدى ملابسه . وكان رأيه مطليا بحيث تبدو شبيهة برأس هتلر .
ـ ياألهى . وماذا فعلت حينئذ ؟
ـ جذبت ذلك الشىء اللعين لأسفل ونزعت عنه ملابسه التى كان يرتديها .
ـ وماذ بعدئذ ؟
ـ كان هناك زورق . سمعت صوته يدمدم فى موتسا . واعتقدت أنه زورق خاص بأحد صيادى السمك . كانوا قد تركوا حقيبتى فى خارج المنزل . وكان كل شىء فى داخل الحقيبة كما هو . لم يسرق أى شىء . كل ما هنالك أننى اضطررت لقطع تلك المسافة اللعينة التى تبلغ أربعة أميال عائداً إلى المدرسة .

- من المؤكد أنك كنت تموج بالغضب الشديد .
- كنت أشعر بالغيظ بالفعل .
- ولكنك حرصت ألا يفلتوا من العقاب .
- هذا صحيح . اذ كتبت تقريرا مختصرا . أولاً عن ذلك الأمر الذى حدث أثناء الحرب ثم أوردت بعض الحقائق القليلة تبين التعاطفات والميول السياسية الحالية للمستر كونشيس . وأرسلت التقرير إلى الجهات المختصة .
- هل اتهمته بالشيوعية ؟
- كنت أعرف واحدا من المسئولين فى جزيرة كريت . واكتفيت بقولى أننى شاهدت اثنتين فى جزيرة فراكسوس فتتبعتهما إلى أن وصلتا إلى منزله . وكان يكفى أن أقول لهما هذا الكلام فذلك هو كل ما كانوا يريدونه . فمثل هذا الكلام المختصر يسير لمسافات بعيدة . ولعلك تدرك الآن السبب فى أنك لم تستمتع استمتاعاً كبيراً .

ورحت أطرق باصبعى على عنق الكأس . حيث بدأت أعتقد أن هذا السخيف الجالس إلى جانبى ربما كان السبب أننى حصلت على ذلك "الاستمتاع" . ففى وقت ما من تلك السنة ، ومثلما اعترفت لى جين من قبل - أنهم قد أخطأوا فى حساباتهم وتقديراتهم مما جعلهم يتوقفون ويشعرون باليأس : فعدم تواجد المكر والدهاء فى الثعلب جعلهم يؤجلون عملية الصيد بمجرد أن بدأت تلك العملية . وما الذى قاله كونشيس عن أن المشاركة الأولى لى كانت من قبيل المجازفة والمخاطرة ؟ فأنا على الأقل لم اجعلهم يندمون على ما بذلوا من مال أو مجهود . وابتسمت فى وجه ميتفورد قائلا : اذن ، فأنت الذى كسبت الجولة فى نهاية الأمر وأنت الذى ضحكت عليهم .
- هذه هى عادتى دائما أيها الصديق القديم . وهذا يتلاءم مع شكلى ولونى .
- لماذا قاموا بعمل ذلك ؟ لعلهم يشعروا بالارتياح نحوك . كان بمقدورهم رفضك وصدك فى خشونة منذ البداية .
- كل ذلك الكلام عن كونهما طفلتين بالتعميد لذلك العجوز كلام زائف . فهما بالطبع لم تكونا ابنتيه بالتعميد . بل عاهرتان من طبقة اجتماعية عالية . فاللغة التى استخدمتها جولى كشفت اللعبة . إنها الطريقة التى

ينظم بها عمل ما والتى تشاهدها بالصدفة فى حوض البحر المتوسط . لقد سبق أن تقابلت مع مثل هذه المواقف من قبل .

ـ هل تقصد ...

ـ أقصد أن كونشيس الغنى لم يكن ماهراً للغاية فى هذه اللعبة . فهو يستمتع من وراء مشاهدته لمراحل تنفيذ هذه اللعبة ؟

نظرت اليه فى خلسة وأدركت أننى ضائع فى متاهات الأصداء اللانهائية . أكان هو كذلك أم لم يكن كذلك ؟

ـ ألم يلمحوا إلى أى شىء ؟

ـ كانت هناك تلميحات . ولقد تمكنت من فهم مغزاها فيما بعد .

لم أشعر بالارتياح نحو ميتفورد لأنه كان جاهلاً ، كما كان وضيعاً بل وكنت أكرهه أكثر لأنه صورة كاريكاتورية ، وامتداداً لصفات معينة فى داخل نفسى . اذ كان لديه فوق جلده وبشكل مرئى ومكشوف نفس سرطان الأنسجة المتواجد فى داخل كيانى . كان علىّ ان أشك أنه كان بمثابة "جاسوس" آخر . ولكن مع ذلك كان هناك شىء ما لا يمكن اختراقه على الاطلاق فى ذلك الرجل ، فلم أستطع أن أصدق أنه كان مستهلكا للغاية كممثل . وفكرت فى ليلى دى سيتاس وكيف أننى أبدو من وجهة نظرها مثلما بدا لى ميتفورد من وجهة نظرى . شخصى همجى وبربرى وغير مهذب ، عندما خرجنا سويا إلى رصيف الشارع . قال : لسوف أذهب إلى اليونان فى الشهر القادم . فالشركة سوف تبدأ فى تنظيم رحلات إلى هناك فى الصيف القادم .

نظرت إلى شارع سوهو المزدحم وقلت :

ـ آمل أن يصعقك زيوس بالبرق فى اللحظة التى تصل فيها هناك فأخذ كلامى هذا على أنه نكتة . وقال : انه عصر الرجل العادى أيها الصديق القديم .

ومد يده لكى يصافحنى . تمنى أن أعرف كيف أتمكن من لوى يده والقائه من فوق كتفى إلى الأرض . وكان آخر شىء شاهدته هو ظهره الأزرق وهو يسير فى اتجاه شارع شافتسبرى . دائما وأبداً المنتصر فى حرب حيث يكسب فيها الخاسرون .

وبعد مرور سنوات اكتشفت أنه كان يمثل فى ذلك اليوم وإن كان على

المنوال الذى كنت أخشاه . فقد وقع بصرى على اسمه مكتوبا فى إحدى الجرائد . حيث ألقى القبض عليه بتهمة اصدار شيكات تحت ادعاءات كاذبة . مستخدما شخصية الكابتن الكسندر ميتفورد الحاصل على وسام الخدمة الممتازة العالية فى الحرب .

قال المدعى العام "على الرغم من أن هذا الشخص المتهم ذهب إلى اليونان ضمن قوات الاحتلال عقب سقوط ألمانيا فإنه لم يلعب أى دور يذكر فى أعمال المقاومة الشعبية" وبعد ذلك كانت هناك فقرة أخرى : "وفى وقت ما عقب تسريح الجيش عاد ميتفورد إلى اليونان حيث حصل على وظيفة مدرس عن طريق تزوير مؤهلات علمية زائفة وبالتالى تم طرده من وظيفته" .

وفى وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم اتصلت برقم هاتف ماتس هادهام . وأخذ التليفون يدق لفترة طويلة ولكن شخصا ما رفع السماعة فى نهاية الأمر . فسمعت صوت ليلى دى سيتاس . وكانت لاهثة الأنفاس قلت : أنا نيقولاس أورفى .

ردت فى غير مبالاة : آسفة . كنت فى الحديقة .

- أرغب فى مقابلتك مرة أخرى .

فسادت فترة صمت للحظات ثم قالت : ليس لدى أنباء جديدة .

- ولكنى أود أن أقابلك .

وأدركت أنها كانت تبتسم فى خلال فترة الصمت التى أعقبت كلامى .

وقالت : متى ؟

(٧٤)

عندما رجعت فى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر عثرت على ورقة كانت كيمب دفعت بها تحت بابى : "جاء رجل أمريكى لكى يقابلك . وقال : إنه يريد أن يقابلك من أجل موضوع مهم . ولسوف يجيئك مرة أخرى فى الساعة الرابعة" . فنزلت لكى أقابل كيمب . وكانت لا تحب أن يقاطعها أحد أثناء قيامها "برسم اللوحات الزيتية الملونة" . قلت : هذا الرجل .

- إنه مصمم على مقابلتك بشأن الذهاب إلى اليونان .

ووقفت مبتعدة قليلا عن اللوحة . وكانت سيجارتها فى فمها ، راحت

تتأمل تلك اللخبطة التى تضم ألوانا شتى . وأضافت قائلة : وبشأن وظيفتك السابقة أو أى شيء من هذا القبيل .
ـ ولكن كيف عرف عنوان المسكن الذى أقيم فيه ؟
ـ لا تسألنى عن ذلك .

وجاء فى الساعة الرابعة إلا خمس دقائق . كان رجلا يميل إلى الطول ، نحيل الجسد . يرتدى نظارة . يصغرنى بعام أو عامين وكان له ابتسامة ممتعة . ممتلئا بالصحة والخضرة مثل الخس . ومدَّ يده لى لكى يصافحنى وقال : أنا جون بريجز .
ـ مرحبا بك .
ـ أأنت نيقولاس أورفى ؟ وهل نطقى لاسمك صحيح ؟

فدعوته للتفضل بالدخول وقلت له : أخشى ألا يكون هذا المكان الذى أقيم فيه ملائماً .

قال إنه مكان لطيف ، ثم راح ينظر فيما حوله .

قلت ونحن نصعد السلم : أتوقع أن يزورنى شخص أمريكى .
ـ كنت هنا فى هذه السنة الماضية بجامعة لندن . وطوال تلك الفترة كنت أحاول أن أعرف كيف يمكننى أن أحصل لنفسى على سنة فى بلاد اليونان قبل أن أعود إلى وطنى . وأنت لا تعرف كم أشعر بالاثارة .

وصلنا إلى منبسط الدرج . وشاهد بعض فتيات الحياكة يعملن من خلال باب مفتوح . فقامت اثنتان أو ثلاث فتيات بالتصفير بأفواههن . فلوح بيده لهن . وقال : "أليس هذا المنظر لطيفا ؟
ـ أين سمعت عن الوظيفة ؟
ـ فى الملحق التعليمى لجريدة التايمز ووصلنا إلى شقتى . ثم أغلقت الباب وقلت : ظننت أن المعهد البريطانى توقف عن تعيين أعضاء جدد .
ـ هل الأمر كذلك ؟ وأعتقد أن لجنة المدرسة قررت أن يقوم كونشيس باجراء امتحان المقابلة الشخصية للمتقدمين طالما أنه هنا .

كان قد دخل إلى غرفة الجلوس وراح ينظر من النافذة إلى شارع شارلوت القديم المليىء بالقاذورات ، وقال : هذا عظيم . اننى "أحب" هذه المدينة .

ـ هل المستر كونشيس هو الذى أعطاك عنوانى ؟
ـ بالتأكيد . أكان ذلك خطأ ؟
ـ لا . ليس خطأ على الاطلاق . هل قال لك أى كلام عنى ؟

رفع يده كما لو كنت فى حاجة إلى التهدئة وقال : حسنا . لقد نبهنى إلى مدى خطورة المؤامرات التى قد يقوم بها الزملاء . وكما علمت أنه كان من سوء حظك .. ألا زلت تشعر بالضيق والمرارة مما حدث ؟

فهززت كتفى وقلت : اليونان هى اليونان .
ـ إننى لواثق تماما من أنهم يفركون أيديهم من الآن لحصولهم على شخص أمريكى حقيقى .

سألته : متى شاهدت السيد كونشيس ؟
ـ عندما كان هنا منذ ثلاثة أسابيع . وكان من المقرر أن أتصل بك فى وقت مبكر عن هذا الموعد ولكنه فقد عنوانك . لقد أرسل لى عنوانك تواً من اليونان . ولم يصلنى عنوانك الذى أرسله لى الا هذا الصباح فقط . نعم . أرسل لى برقية . ولقد دهشت . اعتقدت أنه نسى الموضوع . هل تعرف كونشيس معرفة جيدة ؟

"أوه .. لقد قابلته مرات قليلة . ولكننى لم أكن متأكدا تماما من سلطانه على لجنة المدرسة .

أخبرنى أن ليس له وظيفة رسمية فى لجنة المدرسة . وانما يقدم يد العون فقط . ولو أن لغته الانجليزية رائعة .

ورحنا نقيم بعضنا البعض لمعرفة خصائص ومميزات بعضنا البعض . كان يكتنفه شىء من الاسترخاء ويبدو أنه اكتسب ذلك من خلال التعليم ومن خلال قراءة كتاب ما عن "كيف تشعر بالارتياح والاطمئنان أثناء تواجدك مع أشخاص غرباء" . وليس من خلال موهبة فطرية . وشعرت أن شيئا ما لم يسر فى الاتجاه الخاطىء فى حياته ولكنه كان لديه نوع من الحماس . رحت أحلل الموقف . فالمصادفة الطبيعية لظهوره وزيارتى لماتش هادهام كانت أمرا بعيدا الاحتمال للغاية من حيث أن ذلك كان فى صالح براءته . ومن ناحية أخرى فمن المؤكد أن مدام دى سيتاس استنتجت من مكالمتى التليفونية أننى أمر بمرحلة تغير فى مشاعرى . وأن

ذلك كان وقتا ملائما لاختبار صدق ذلك التغير . ومع ذلك فإن اخباره لى بمسألة البرقية جعله يبدو بريئا بالفعل . ورغم أننى فهمت أن "الموضوع" كان ينبغى أن يكون من قبيل المجازفات فانه ربما كان هناك سبب ما ونتيجة ما غير معروفة ناجمة عن ذلك الصيف جعلت كونشيس يقرر اختيار الخنزير الجديد لاجراء تجاربه عليه . وعندما تقابلت وجها لوجه مع بريجز المتحمس الخالى من المكر والخداع شعرت بنفس المشاعر التى أحس بها بالتأكيد ميتفورد معى : التسلية الخبيثة الحقودة المشوبة بابتهاج أوربى لدى مشاهدة أمريكا الوقحة الصفيقة المتهورة وقد تم اتخاذها مطية للآخرين وعلاوة على ذلك كانت لدى رغبة ألا أتلف تجربة كونشيس وهى رغبة لم أعترف بها على الاطلاق لكونشيس أو لليلى دى سيتاس .

من المؤكد أنهم كانوا يعرفون أننى ربما أخبره بكل شىء ولكنهم يعرفون أيضا أننى كنت أدرك أن هذا سيكلفنى الكثير اذا فعلت ذلك . فذلك يعنى فقط بالنسبة لهم أننى لم أتقبل أى شىء وأننى لا يمكن إعطائى أى شىء آخر كمقابل . كنت ممزقا أمام المغامرات التى قاموا بها .

استخرج بريجز بلوك نوت من الحقيبة الصغيرة التى كانت معه . قال : هل لى أن أوجه اليك بعض الأسئلة ؟

كان منهجيا ومنظما على نحو مريع . سأل عن مناهج التدريس والكتب المدرسية والملابس والظروف المناخية والتسهيلات الرياضية ، والأدوية التى ينبغى أن يتعاطاها والأطعمة وحجم المكتبة وما ينبغى أن يشاهده فى بلاد اليونان وشخصية المدرسين الآخرين ـ كان يريد معلومات عن كل مظاهر الحياة . وأخيراً رفع بصره عن البلوك نوت وعن الملاحظات التى كتبها بالقلم الرصاص ثم أمسك بكأس البيرة الذى ملأته من أجله وردد : هذا رائع . هذا يغطى كل شىء !

ـ باستثناء مسألة الاقامة هناك .

أومأ برأسه وقال : نبهنى كونشيس إلى ذلك . اتعرف كيف تتكلم باللغة اليونانية ؟

ـ اننى أدرس هذه اللغة حاليا .

ـ اليس لديك مغامرات مع النساء .

أومأ برأسه وقال : اننى منضبط ولكننى خطبت فتاة .

ـ هل ذكرت ذلك للسيد كونشيس ؟
ـ لقد رحب بذلك ترحيباً شديداً . بل وقال : إنه يمكن لها أن تقيم فى منزله .
ـ فى أى منزل فهو كما تعرف له منزلان ؟

قال مبتسما : أظن أنه قال : إنها يمكن أن تقيم فى المنزل الموجود بالقرية . وحقيقة الأمر أنه قال أنه سيجعلنى أسدد إيجار الغرفة التى ستقيم فيها .

ثم أتى بحركة من يده تفيد أننى أعرف مثل هذه الأمور . ولكنه أدرك من وجهى أننى لم أعرف ما يدور فى ذهنه وأضاف : كل ما هنالك أنه يرغب فى الابقاء على هذا الموضوع فى طى الكتمان . ولقد اعتقدت أنك ربما قد سمعت عن ذلك .. ذلك الاكتشاف المشهور الذى تم فى ضيعته .
ـ الاكتشاف ؟
ـ يبدو أن جزءا من صخرة قد سقط فى خلال هذا الصيف فاكتشفوا أساسات وهو يعتقد أنها أساسات خاصة بقصر مسينى . انه يعتقد أن بمقدوره الاحتفاظ بهذا السر فى طى الكتمان لفترة معينة . لقد غطاه بطبقة من التراب ينوى القيام بالحفريات فى خلال الربيع القادم . ومن الطبيعى أنه لا يرغب حاليا أن يقوم أى شخص بزيارة هذه المنطقة .

فانتهى من احتساء كأس البيرة الخاص به ثم نظر إلى ساعته ، وصاح : ياألهى . علىَّ أن أسارع بالانصراف . فلدى موعد مع أماندا . لقد استفدت كثيرا من لقائى معك . وأؤكد لك أننى سأكتب خطابات لك لكى أوضح لك كيف سارت الأمور معى .

وسرت وراءه وهو يهبط على السلالم ولاحظت شعر رأسه المملوق ليكون قصيرا مثل شعر البحارة . وبدأت أدرك السبب فى اختيار كونشيس لذلك الشاب . فلو قام المرء بأخذ مليون شاب جامعى أمريكى وعمل لهم عملية تقطير لكى يحصل من ورائهم على الزبد لحصل على شخص شبيه بالسيد بريجز .

وخرجنا إلى السلمة الأمامية ، سأل : هل لديك نصائح لها طابع الحكمة تود أن تنصحنى بها ؟
ـ أتمنى لك خالص الأمنيات بالتوفيق . وتصافحنا بالأيدى مرة أخرى .

قلت : لسوف تواجه بعض التجارب الغريبة .
ـ أوه بالتأكيد . لا تعتقد أننى لست ذاهبا بعقل مفتوح . وربما لمواجهة كل شىء . شكرا جزيلا لك .

فابتسمت . وأردت له أن يتذكر أنها ابتسامة تحمل فى طياتها معانى تزيد على ما يتطلبه الموقف . ثم رفع يده محييا وانطلق منصرفا وبعد أن سار خطوات قليلة نظر إلى ساعته وبدأ يهرول مسرعا . وفى داخل قلبى أشعلت شمعة من أجل ليفاريير .

(٧٥)

جاءت مقبلة حيث كانت متأخرة عن موعدها بعشر دقائق وقد ظهرت على وجهها دلائل الاعتذار فى أدب واتجهت مباشرة إلى حيث كنت واقفا وصاحت : اننى لآسفة للغاية . إنه التاكسى .

فسلمت على يدها الممدودة . إنها امرأة تبلغ من العمر نصف قرن جميلة على نحو مثير للاعجاب . ترتدى ملابس مميزة مما جعل معظم الزوار الموجودين حولنا يبدون أكثر قذارة مما كانوا عليه فى حقيقة الأمر . كانت مرتدية بدلة شانيل بيضاء أبرزت بشرتها المدبوغة من كثرة التعرض لأشعة الشمس كما أبرزت عينيها الصافيتين .

سألتها : هذا المكان الذى تقابلنا فيه يتسم بالزحام والجنون . فهل هذا يزعجك ؟
ـ لا . على الاطلاق .
ـ لقد اشتريت لوحة يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر منذ أيام . وهم هنا ممتازون في تحديد التطابق . لن يستغرق الأمر سوى لحظات قليلة .

كان من الواضح أنها تعرف المتحف معرفة جيدة . قادت الطريق متجهة إلى المصاعد الكهربائية . كان علينا أن ننتظر دورنا . أمامى عشرات الأمور التى أريد أن أقولها . ولكن وصولها اللاهث واحساس الفجائى بأننى كنت متهيئا لمواجهة يوم مشحون بالعمل جعل الأمور التى أريد أن أقولها تبدو لى خاطئة . قلت : لقد شاهدت جون بريجز فى يوم الثلاثاء .
"ياله من أمر مثير . لم أتقابل معه" .
ـ حدثته عن كل شىء أعرفه . ذكرت له كل ما أعرفه عن بورانى وحدثته عن الأمور التى يمكن أن يتوقعها .

ـ اعتقدنا أنك ستفعل ذلك . وهذا هو السبب فى أننا أرسلناه اليك .

وكنا نبتسم سويا فى آن واحد ابتسامات خفيفة فى صمت مؤقت .

فى المصعد لم نتكلم . ثم خرجنا منه إلى قاعة خاصة بالأثاث . قالت : نعم ، كان ينبغى أن توضح له .
ـ لعله مجرد اختبار .
ـ الاختبار لم يكن ضروريا .

فنظرت إلىَّ وقد اتسعت عيناها وبنفس النظرة التى ظهرت على وجهها عندما ناولتنى نسخة من خطاب نيفينسون . وفى نهاية القاعة وصلنا إلى باب : قسم الخزف . فقامت بالضغط على الجرس الموجود إلى جوار الباب .

وفتح الباب ، وسمح لها بالدخول . لم تعطنى أى فرصة ولو أن نظرتها السريعة إلى الخلف نحوى قبل انغلاق الباب بدت نظرة مليئة بالاعتذار بل بدت وكأنها تخشى أن ألجأ إلى الفرار .

وبعد دقيقتين عادت الىَّ وسألتها : هل حالفك الحظ ؟
ـ نعم . كان الأمر على النحو الذى كنت أمل فيه .

ودخلنا إلى رواق مهجور للخزف والفخار . وبدأت أشك فى أنها سبق لها التدرب على هذا المشهد نظرا لأنها اتجهت مباشرة إلى أحد الصناديق الحائطية . واستخرجت اللوحة من سلتها ورفعتها لأعلى وراحت تمشى فى بطء إلى أن ظهرت لوحة تكاد تكون متماثلة لها خلف مجموعة من الفناجين والأباريق . فاتجهت ووقفت خلفها . راحت تقارِن مابين اللوحتين ثم لفت لوحتها فى الورق النسيجى مرة أخرى وبعدئذ قدمت اللوحة لى مما جعلنى أصاب بالدهشة البالغة . وقالت : هذه اللوحة هدية لك . لقد اشتريت هذه اللوحة مع آليسون .

ودفعت باللوحة فى رفق بين يدى . وفى حيرة وارتباك رحت أفك الورق عنها ورحت أحملق نحو رجل صينى وزوجته مرسومين فى بساطة بينهما طفلان . ولسبب ما قفزت إلى ذهنى صورة الفلاحين المسافرين على أرخص مكان للسفر على السفينة وصورة أمواج البحر العاتية والرياح الليلية . قالت : ينبغى عليك أن تعتاد على التعامل مع الأشياء الرقيقة

الهشة المعرضة للتلف . ومع الأشياء التى هى أكثر قيمة من ذلك .

لا أزال أحملق فى الهياكل الزرقاء الغامقة للغاية .

ذلك هو السبب فى أننى طلبت منك أن أقابلك فى حقيقة الأمر .

وتقابلت عينانا . ولأول مرة يخالطنى احساس بأننى لا أتعرض لمجرد التقييم .

"هل لنا أن نذهب ونتناول الشاى الخاص بنا" ؟

سألت : لماذا طلبت أن تقابلنى ؟

كنا قد عثرنا على مائدة فى الركن وكان قد تم تقديم الشاى لنا . قلت : آليسون .

فالتقطت براد الشاى وقالت : سبق أن أخبرتك أن الأمر يتوقف عليها .

- ويتوقف عليك أيضا .

- لا . لا يتوقف علىَّ على الاطلاق .

- هل هى موجودة فى لندن ؟

لقد وعدتها الا أخبرك عن مكانها .

استمعى إلىَّ يامدام دى سيتاس . ماذا تريد بحق الجحيم .

وما الذى ينبغى علىَّ أن أفعله الآن ؟ فلست على استعداد لأن أنتظر لفترة أطول .

- عندئذ سوف نتخلص منك .

واحتسيت قدرا من الشاى . وبدأت هى فى نشر العسل فى هدوء على خبزها المحمص ثم راحت تتكلم : لا أستطيع أن أفعل شيئا من حيث أن أحضر آليسون اليك . فالمسألة الآن بكل بساطة منحصرة بينك وبينها . وآمل أن تعفو آليسون عنك . ولكن ينبغى عليك ألا تكون واثقا للغاية من أنها ستعفو عنك . عليك أن تنجح فى استردادها .

- ينبغى أن يكون النجاح فى العودة صادراً عن الجانبين .

- ربما . فذلك أمر ينبغى تسويته بمعرفتكما أنتما الاثنان . لقد انتهت لعبة الشيطان .

- لعبة ماذا ؟

- لعبة الشيطان .

وبدأت تأكل قطعة التوست ، وقمت بالحملقة إلى ما ورائها فى صالة الشاى المزدحمة بالناس . وقد امتلأت بأصوات احتكاك السكاكين بالأطباق الخزفية الصينية علاوة على تمتمة أصوات الناس المنتمين إلى الطبقة المتوسطة بالمجتمع . سألتها : هل هذا الاسم هو ما تطلقونه على ذلك الموضوع ؟ إنه نوع من الكنية الذى نستخدمه .

أدركت أنها قد أسهبت فى الابتسام أكثر من اللازم . نظرت لأسفل وأضافت على وجه السرعة قائلة : أخبرنى موريس ذات يوم ـ عندما سألته سؤالا شبيها بأسئلتك .

"الاجابة تكون دائما صيغة للموت" .

كان هناك شيء ما آخر فى وجهها . لم يكن شيئا متصلبا لدوداً ولكنه كان على نحو ما شيئا غير قابل للاختراق .

قلت : أظن أن الأسئلة هى صيغة للحياة ، فلم ترد علىَّ ولكنى ظللت منتظراً . ثم أضفت قائلاً : وهو كذلك . لقد عاملت أليسون معاملة سيئة للغاية . وأنا إنسان قد ولدت نذلاً وخسيساً . وبى كل الصفات الدنيئة التى تتخيلونها . ولكن ما سبب قيامكم بكل هذه الاجراءات الهائلة لمجرد أن توضحوا لإنسان بائس مفلس أخلاقيا طبيعة شخصيته ؟

ـ ألم تسائل نفسك فى تعجب على الاطلاق عن السبب الذى يجعل التطور يهتم بتجزئة نفسه إلى أشكال وأحجام عديدة ومختلفة للغاية ؟ ألا يبدو ذلك أيضاً بمثابة إجراء غير ضرورى ؟

ـ من المؤكد أن هناك هدفا يكمن وراء عدم كوننا جميعا معصومين من الخطأ .

ـ هدف يكمن عدم كوننا على شاكلة واحدة .

ـ وماهو ذلك الهدف ؟

فهززت كتفى . ثم قلت : ذلك يعطى للأشخاص الذين لا خير فيهم من أمثالى الحرية لأن يصبحوا أقل من حيث عدم الانضباط والضياع .

ترددت بعض الشيء ، ومرة أخرى راحت تتفحصنى ثم تكلمت فى يقين أقل : أعرف أنهم قالوا لك بعض الأشياء الرهيبة فى تلك المحاكمة الصورية الوهمية يانيقولاس . ولكنك كنت القاضى . واذا كانت الأشياء الرهيبة هى كل ما ينبغى أن يقال عنك لما كنت قد أعطيت سلطة اصدار

الحكم . وكان كل فرد هناك يعرف ذلك . وليس ابنتى فقط على الاطلاق .
ـ ولماذا سمحت لى أن أمارس معها الحب ؟
ـ أدرك أن ذلك يرجع إلى رغبتها . وهو قرار خاص بها .
ـ ردك هذا لا يعتبر اجابة عن سؤالى .

عندئذ فأنا أفترض أن اللذة الفيزيقية والمسئولية الأخلاقية أمران مختلفان كبيران للغاية .

هنا تذكرت الكلمات الأخيرة التى قالتها ليلى لى على ذلك السرير وأدركت أننى كان لدى سر واحد صغير احتفظ به لنفسى . فتلك الليلة كانت معقدة للغاية وعلى نحو أكثر من مجرد درس موضوع وفق خطة . أو هو على الأقل كان درسا يجمع بين النقيضين . واستطردت والدتها : يانيقولاس لو أن أحدا حاول أن يستنبط شيئا ما من الأهداف الغامضة التى تحكم الوجود فإنه ينبغى عليه أن يحاول الذهاب إلى ما وراء بعض التقاليد والأعراف التى ابتكرها الإنسان لكى يصد تلك الأهداف . وذلك لا يعنى أننا فى حياتنا العادية . نعتقد أن مثل هذه التقاليد والاعراف ينبغى اكتسابها . الأمر أبعد ما يكون عن ذلك . فهذه التقاليد بمثابة خرافات . ولكننا فى لعبة الشيطان نبدأ من المقدمة المنطقية التى تقول : إن كل شىء فى الواقع هو من قبيل الاختلاقات ومع ذلك فلا يوجد اختلاق واحد له صفة الضرورية .

فرددت على ابتسامتها بابتسامة خفيفة من جانبى . ولكنى لا أعرف الشروط العملية التى تم على أساسها اختيارى .
ـ المبدأ الرئيسى فى الحياة هو الصدفة . وموريس يقول لى : إن هذا لم يعد مسألة تقبل المناقشة . وإذا ما تعمق المرء بالقدر الكافى فى الفيزيقا النووية فإنه ينتهى إلى موقف يتسم بالصدفة البحتة . ونحن جميعا بالطبع نتوهم أن الأمر ليس كذلك ولا يمكن أن يكون كذلك .
ـ ماذا كان سيحدث لو كنت أحضرت أليسون إلى الجزيرة ؟ فقد ظهر اقتراح بهذا الشأن فى إحدى المراحل .

لا أستطيع أن أؤكد لك شيئا واحداً محدداً . كان موريس سيدرك على الفور أنها ليست بحاجة لأن توضع أمانتها وصدقها العاطفى فى الاختبار .

نظرت لأسفل وقلت : هل هى تعرف عن ...؟

ـ إنها تعرف ما نفعله . أما التفاصيل .. فلا .
ـ هل وافقت على الفور ؟
ـ أنا أعرف أنها وافقت فى نهاية الأمر . أو هى على الأقل وافقت بالنسبة لمسألة ادعاء الانتحار . وذلك على أساس أنك سوف تكشف بسرعة أن الانتحار كان زائفاً .

فالتزمت بالصمت لبعض الوقت وسألت : هل قلت لها إننى أريد مقابلتها ؟
ـ إنها تعرف وجهة نظرى إزاء ذلك .

نظرت إلى ساعتها وقالت : « ياعزيزى . إننى لآسفة . ولكن جنهيلد وبنجى سيكونان فى انتظارى . ذلك الكعك المحبب للنفس ..

كان الكعك موجودا فى روعته وبهائه المنفرة ذات اللون الأصفر الكرومى المتعدد الدرجات وبدون أن يُمسّ .

فقلت : أظن أن المرء يدفع ثمن الاستمتاع بعدم تناول الكعك .

فلوت عضلات وجهها موافقة على كلامى ثم ناديت على النادلة لكى تحضر إلى فاتورة الحساب . وأثناء انتظارنا قالت : وهناك شىء كنت أريد أن أقوله لك أن موريس تعرض خلال السنوات الثلاث الماضية لنوبتين قلبيتين خطيرتين . لذلك ربما لاتكون هناك ... سنة تالية .

نعم .. لقد قال لى ذلك .

وأنت لم تصدقه ؟

لا

وبعد دقيقة كنا نسير فى الدهليز فى اتجاه المدخل . وكان هناك رجلان يسيران فى الدهليز فى اتجاهنا . وبينما كانا على وشك أن يتخطيانا صدر عن الرجل الموجود إلى اليسار شهقة لاهثة . فتوقفت ليلى دى سيتاس عن السير وقد أصابتها الدهشة البالغة أيضا . وكان ذلك الرجل يرتدى حلة زرقاء ورباط عنق من نوع « البابيون » وله خصلة شعر فى مقدمة رأسه قد ابيض لونها قبل الأوان .

استدارت على وجه السرعة وقالت يانيقولاس .. أيمكنك أن تحضر لى ذلك التاكسى لو سمحت ؟

كان له وجه رجل مشهور ـ أصبح فجأة صبيا مرة أخرى . رجل رق قلبه على نحو كوميدى بعض الشيء ودخل فى ذكريات جميلة بسبب ذلك اللقاء الفجائى غير المتوقع . قمت باظهار أدب جم نحو بعض أناس آخرين متجهين إلى صالة الشاى مما جعلنى أتلكأ للحظات . كان ممسكا بكلتى يديها ويسحبها على جانب ابتسمت ابتسامتها الغريبة . وكان على أن أواصل السير ولكننى التفت مرة أخرى عند نهاية الدهليز . كان الرجل الآخر الذى كان معه قد استمر فى السير وأصبح واقفا فى انتظار عند باب صالة الشاى . وقف كلاهما هناك . وكان باستطاعتى اما هى فمازالت تبتسم مع تلقى الثناء والتقدير .

لم تكن هناك تاكسيات فانتظرت عند الحاجز الحجرى الخاص بحافة الطريق . وساءلت نفسى فى تعجب : ترى أكان ذلك الرجل « هو ذلك الشخص المشهور للغاية » والذى كان فى التابون ؟ لم أتعرف عليه من حيث هو رجل مشهور ولكننى لم أدرك سوى ذلك الافتتان الشديد اذ كانت عيناه مشغولتين بها فقط كما لو كانت المهمة التى كان ذاهبا إليها قد زوت وتلاشت لدى رؤية ذلك الوجه .

وخرجت على وجه السرعة وسألتها : هل لى أن أوصلك بسيارتى إلى أقرب مكان تريدين الذهاب إليه ؟

لم تكن بصدد تقديم أى تفسير أو إيضاح . وكانت التعبيرات التى على وجهها توحى بأنه من السوقية أن يكون المرء محبا للاستطلاع روت : لا شكرا جزيلا لك . فأنا ذاهبة إلى شيلسى .

رحت أرقبها خفية للحظات ، ثم قلت : اعتدت أن أفكر فى قصة أثناء تواجدى مع ابنتك . وأظن أننى أفكر فى تلك القصة أكثر أثناء تواجدى معك . ربما لاتكون هذه القصة حقيقية ولكنها قصة عن مارى أنطوانيت وجزار . اذ قاد الجزار حشدا من الناس الغوغاء إلى داخل قصر فرساى . وكان ممسكا بساطور فى يده . وهو يصيح قائلا : إنه سيقوم بقطع رقبة

مارى أنطوانيت . وقامت حشود الناس الغوغائية بقتل الحراس واقتحم الجزار الباب المؤدى الى الغرف الملكية . وأخيرا تمكن الجزار من الوصول إلى غرفة نومها . كانت بمفردها واقفة بجوار نافذة . ووجد الجزار نفسه وجها لوجه مع الملكة .

ولمحت تاكسيا منطلقا فى الاتجاه العكسى فلوحت لسائقه لكى يلف ويستدير واكملت : لقد خر ساجدا على ركبتيه وانفجر باكيا فى دموع غزيرة .

فالتزمت بالصمت للحظات ثم قالت : يا له من جزار مسكين !!

وأعتقد أن ذلك بالضبط هو ما قالته مارى أنطوانيت .

ورأت التاكسى وهو يلف ثم تساءلت : ألا يتوقف كل شىء عمّا كان يبكى عليه الجزار ؟

فأشحت بوجهى بعيدا عن عينها وقلت : لا لا أعتقد فى ذلك .

قمت بفتح باب التاكسى . وراحت ترقبنى للحظات ومدت يدها ثم قالت ولكن أليسون ليست هدية . فهى ينبغى دفع ثمنها .

لقد حصلت بالفعل على الانتقام منى .

وكانت على وشك أن تترك يدى ولكنها أنئذ استبقت يدى فى يدها . وقالت : يانيقولاس لم أحدثك أبدا عن الوصية التى احتفظت بها أنا وزوجى .

وذكرت لى تلك الوصية بدون أن يظهر على وجهها ابتسامة . وتعلقت عيناها بعينى للحظات ثم دخلت إلى التاكسى . ورحت أحملق فى التاكسى إلى أن غاب عن الأنظار . وكنت أحملق بدون دموع ولكننى كنت فقط ـ وفقا لتصوراتى ـ مشابها لذلك الجزار المسكين الذى حملق بالتأكيد لأسفل نحو السجادة .

ولذلك لجأت إلى الانتظار والترقب وبدت لى هذه الأيام الأخيرة من الأرض الخراب متسمة بالطابع السادى .

رحت أقضى الساعات فى دور السينما أو فى قراءة الكتب التافهة لأن كل ماكنت أريده من قراءة الكتب فى تلك الفترة هو الابقاء على ذهنى مخدرا . واعتدت على قيادة سيارتى طوال الليل إلى أماكن لم أرغب فى الذهاب إليها .

وكانت تلك الفترات الطويلة من قيادتى للسيارة تهدىء من روعى حيث كان يبدو الأمر وكأننى أقوم بعمل بناء من خلال الانطلاق بالسيارة بسرعة كبيرة بين طيات الليل حيث كنت أقود السيارة بسرعة مخترقا المدن النائمة مع العودة دائما فى خلال الساعات السابقة على طلوع الفجر والدخول إلى لندن فى إرهاق مع بزوغ الفجر ثم الاستسلام للنوم حتى الساعة الرابعة أو الخامسة من بعد الظهر .

لم يكن شعورى بالملل هو الذى يحتاج إلى التهدئة . اذ كانت لدى مشكلة أخرى قبل .. مقابلاتى مع مدام ليلى دى سيتاسى بوقت طويل .

كنت أقضى العديد من ساعات النزهة فى منطقة سوهو أو شيلسى . وهما منطقتان لايذهب إليهما خطيب عفيف لفتاة اللهم إلاّ اذا كان متشوقا لاختبار مدى عفته وطهارته . إذ كان هناك عدد كاف من النساء الرهيبات فى الغابة ابتداء من النساء البشعات الفقيرات القذرات الملبس المتواجدات عند مداخل الشارع اليونانى إلى الفتيات « الموديلات » الجذابات الوسيمات المتواجدات فى شارع الملك . وكثيرا ماكنت أشاهد فتاة تثيرنى جنسيا . وقد بدأت بكبت الفكرة ذاتها وبعدئذ اعترفت بها صراحة . فإذا كنت قد صممت أن أسحب نفسى أو أشيح بوجهى بعيدا عن المواقف التى توحى بإعطاء نتيجة إيجابية فإن ذلك كان يرجع إلى أسباب مختلفة وهى أسباب تتسم بوجه عام بطابع الأنانية أكثر مما تتسم بطابع النبل . أريد أن أبين لهم ان بمقدورى أن أعيش بدون اقامة علاقات غرامية كما كنت أظهر لنفسى هذا الاتجاه . أن أكون قادرا على مواجهة أليسون بالمعرفة من حيث هى سلاح ومن حيث هى مهماز يضاف إلى السوط .

وحقيقة الأمر أن ذلك الشعور الجديد المتكرر الذى كنت أشعر به ازاء أليسون لم يكن له علاقة بالنواحى الجنسية . ربما كان له علاقة بشعورى

بالاغتراب والنفور من انجلترا والانجليز وله علاقة بعدم وجود جنس محدد لى .

كان يبدو لى أن باستطاعتى أن أنام مع فتاة مختلفة فى كل ليلة مع استمرار رغبتى فى مشاهدة أليسون بنفس الحماس . فأنا اريد شيئا آخر منها الآن .. شىء لا تستطيع أى فتاة أخرى أن تقدمه لى .

وكان ذلك هو الفرق بينها وبين جميع الفتيات الأخريات . إنه شىء لم أستطع أن أسميه بالحب لأننى شاهدته كشىء تجريبى يعتمد على عوامل مثل درجة توبتها واكتمال اعترافاتها ، ومدى اقناعها لى بأنها مازالت تحبنى . وأن حبها العميق لى هو الذى تسبب فى خيانتها لى . عندئذ شعرت تجاه اللعبة الشيطانية بتلك المشاعر المختلطة التى تجمع مابين الاعجاب الشديد والمقت الشديد والتى يشعر بها المرء تجاه عقيدة تتسم بالذكاء . وكنت أدرك « أنه يوجد بالتأكيد شىء ما » فى ذلك الأمر ولكننى كنت أدرك أيضا أننى لست بالتأكيد من ذلك النوع المتدين من الناس . وعلاوة على ذلك فإن النتيجة المنطقية لهذا التمييز الشديد الوضوح مابين الحب والجنس لم يكن بالتأكيد بمثابة دعوة للدخول إلى عالم يتسم بالوفاء والاخلاص .

ومع ذلك تمرد شىء ماعميق فى داخلى . لقد تمكنت من ابتلاع قصتها ولكنها كانت ترقد كالغثيان فوق معدتى . وسخر من شىء ما أعمق من التقاليد والعادات المتبعة وسخر من إحساس فطرى بأنه ينبغى على أن أعثر على كل ما أريده فى داخل كيان اليسون وأننى اذا فشلت أن أفعل ذلك فان هناك شيئا يفوق المبادىء الأخلاقية أو الانغماس فى الشهوات الحسية . شىء لم أستطع تحديد هويته شىء بيولوجى يتعلق بالقدرة المبدعة وبالموت .

ربما كانت « ليلى » تتطلع إلى مبادىء أخلاقية جنسية من أجل القرن الواحد والعشرين ولكن كان هناك شىء ضائع أو وقاية حيوية من نوع ما . ساورتنى الشكوك فيما إذا كنت قد قمت بالواجب إزاء القرن الثانى والعشرين .

من السهل أن يفكر المرء فى مثل هذه الأمور ولكن من الصعب أن

يعيشها وهو مازال فى الفترة المتبقية من القرن العشرين .

إن غرائزنا تبزغ فى مزيد من العرى . وعواطفنا وارادتنا تغير اتجاهاتها فى مزيد من السرعة وعلى نحو لم يحدث من قبل . فالشاب الفيكتورى الذى هو من نفس عمرى لايزعجه أن ينتظر خمسين شهرا وليس مجرد خمسين يوما من أجل محبوبته دون أن يسمح لأية فكرة أن تلوث عقله أو جسده . كنت أدخل نفسى فى الحالة النفسية الخاصة بشاب من العصر الفيكتورى ولكننى فى منتصف اليوم ومع وجود فتاة جميلة واقفة الى جوارى فى دكان لبيع الكتب كنت أجد نفسى أدعو الله ألا تلتفت نحوى وتبتسم لى .

وفى إحدى الأمسيات ابتسمت لى فتاة بالفعل . كان ذلك فى حانة إسبرسو وكنت قد قضيت معظم الوقت الذى قضيته فى تناول طعامى فى النظر إليها وهى تتكلم مع صديق يجلس فى مواجهتها . ذراعاها عاريتين وثدياها يبشران بكل خير وإيطالية الملامح سوداء الشعر انصرف صديقها فألقت بظهرها للوراء ثم ابتسمت بعينيها ابتسامة مباشرة لطيفة . لم تكن عاهرة بل تقول فقط : إذا كنت ترغب فى التكلم تعالى إلى .

كان تقهقرى المخزى ناجما الى حد ما عن جنون الاضطهاد . وكانت الفتاة وصديقها قد جاءا ورائى وجلسا إلى منضدة بحيث يتعذر على مراقبتهما . بدأت أشعر أن كل فتاة تعترض سبيلى هى فتاة مستأجرة من أجل تعذيبى واختبارى . وبدأت أنظر من خلال النوافذ قبل دخولى إلى الحانات والمقاهى والمطاعم لكى أعرف ما اذا كان باستطاعتى العثور على ركن منعزل عن مناظر وأصوات المخلوقات الفظيعة وازدادت تصرفاتى الخرقاء وتزايد غضبى من الظروف التى ساعدت على جعل تصرفاتى تتخذ ذلك الطابع . وبعدئذ جاءت جوجو .

كان ذلك أثناء الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر وبعد أسبوعين من مقابلتى الأخيرة مع ليلى كنت متضايقا إلى حد الموت من نفسى . فذهبت فى فترة متأخرة من بعد ظهر أحد الأيام لمشاهدة فيلم قديم .

جلست بدون تفكير بجوار شكل محدب ورحت أشاهد الفيلم . ومن خلال

أصوات التشمم بالأنف المبحوحة العديدة أدركت أن ذلك الشكل المحدب هو لأنثى . وبعد نصف ساعة استدارت إليَّ لكى أشعل لها سيجارتها فشاهدت وجهها .

وعندما أضيئت الأنوار وبينما كنا ننتظر الفيلم الرئيسى حاولت، أن تلتقطنى ولكنها كانت قليلة المهارة على نحو مثير للشفقة . كانت ترتدى بنطلون جينز وسويتر رمادى قذرا له رقبة عالية ضيقة . كان بها ثلاثة مفاتن غريبة : عديمة الجنس وجه مبتسم باستمرار ولهجة أسكتلندية مبحوحة ومسحة من مشاعر الانعزال عن الناس جعلتنى أدرك على الفور أن لها روح تشبه روحى . وعلى نحو ما لم تبد الابتسامة حقيقية وصادقة تماما وإنما هى نتيجة لاستغلال نفوذها من وراء ستار لصالحها الشخصى . كانت تجلس متهاوية ومتكبرة مثل ولد ممتلىء ومحزون حاولت فى غير نجاح على الاطلاق أن تستخلص معلومات عنى وعن المكان الذى أسكن فيه .

ذهبنا إلى مقهى كنت أشعر بالجوع فقلت : إننى سأتناول بعض المكرونة الاسباجتى . وسألتها عما اذا كانت ترغب فى تناول المكرونة مثلى فتمنعت فى بادىء الأمر ولكنها اعترفت فيما بعد أنها انفقت كل ما لديها من نقود ثم أخذت بعد ذلك تأكل فى نهم شديد كالذئب . فازداد عطفى على الحيوانات العجماوات .

ثم ذهبنا إلى حانة ، لقد جاءت من جلاسجو منذ شهرين لكى تدرس الفنون كطالبة . وهى فى جلاسجو كانت تنتمى لجماعة بوهيمية وتعيش الآن فى الحانات والمقاهى ودور السينما « عن طريق مساعدات ضئيلة للغاية من أصدقائى » وكانت قد حشدت الفن فى داخل كيانها .

تزايد شعورى بالعفة والطهارة والبساطة معها وربما كان ذلك هو السبب الذى جعلنى أرتاح إليها بسرعة كبيرة . أدخلت على التسلية وكانت لها شخصيتها المميزة بصوتها المبحوح وبافتقادها للجاذبية الأنوثية . لم تشعر بالشفقة على نفسها على الاطلاق . أوصلتها بسيارتى إلى باب المنزل الذى تقيم به . واعتقدت أننى كنت أتوقع منها أن « أنام معها » فسارعت إلى تحريرها من هذا الوهم قالت :

اذن فسوف نلتقى مرة أخرى قلت : « يمكننا ذلك » ثم نظرت إلى هيكلها

القصير البدين المتواجد الى جوارى وتساءلت « كم تبلغن من العمر ؟ »

« ٢١ عاما »

شنت بأنفها وقالت : سأعرض عليك اتفاقا يتم بيننا ...

أعرض عليك وظيفة اصطحابى خلال مدة قصيرة . علما بأن هناك وكالات متخصصة فى لندن تقوم بمثل هذه النوعية من الخدمات والأعمال .

فقالت بينما الابتسامة لاتفارق وجهها : أود من كل قلبى أن تصعد معى إلى حجرتى لا . فأنت منجرفة وراء التيار بشكل مؤقت . وهكذا حالى . لذلك هيا بنا ننجرف سويا بشكل مؤقت ... سأتولى مسألة النفقات المالية كلها . ولكن بشرط عدم ممارسة الجنس . مجرد صداقة بريئة .

فراحت تحك معصميها فى بعضها البعض من الداخل . ثم ابتسمت مرة أخرى وهزت كتفيها كما لو أن إضافة جنون واحد آخر كان أمرا ولا أهمية له .

لذلك أخذت أتعامل معها . فإذا كانوا قد وضعوا عيونهم على فإن الأمر سيرجع إليهم من حيث اتخاذ اجراءات . بل واعتقدت أن ذلك من شأنه أن يساعدنى على التعجيل فى سير الأحداث .

كانت جوجو مخلوقة غريبة . إذ كانت شبيهة بأمطار لندن من حيث مومسيتها لأنها نادرا ماكانت نظيفة للغاية . وكانت بدون طموح وانزلقت فى اتقان نحو تأدية الدور الذى حددته لها . فذهبنا الى دور السينما سويا والى الحانات والمعارض .

وفى بعض الأحيان كنا نقضى اليوم بأكمله فى شقتى . ولكننى كنت دائما وعند حلول الليل أطلب منها العودة إلى حجرتها الصغيرة . وفى كثير من الأحيان كنا نجلس لساعات طويلة إلى نفس المنضدة وننخرط فى قراءة المجلات والصحف بدون أن نتبادل كلمة واحدة . وعقب مرور سبعة أيام شعرت كأننى أعرفها منذ سبع سنوات . كنت أعطيها راتبا قدره أربعة جنيهات أسبوعيا . كما عرضت عليها أن أشترى لها بعض الفساتين والملابس وأدفع لها إيجار غرفتها .

كانت تؤدى مهمتها على نحو جيد للغاية حيث كانت تبعد عنى كل فتاة تنظر إلينا وأنا من جانبى دعمت نوعا من الوفاء المهووس المجنون المنقول نحوها .

كانت دائما شاكرة لكل معروف أقدمه لها مهما كان ضئيلا مثل كلبة عجوز . كانت ملتزمة بالصبر وغير مبالية وبدون أن يخامرها شعور بالاساءة إليها ورفضت أن أتحدث عن اليسون وربما كفت جوجو عن الايمان بها وقالت لنفسها أننى « مجرد إنسان » مخبول بعض الشىء »

فى احدى أمسيات أكتوبر أحسست بعدم الرغبة فى النوم وعرضت عليها أن أوصلها بسيارتى إلى أى مكان تريد الذهاب إليه فى نطاق ساعات الليل . فراحت تفكر للحظات ثم قالت : إنها تريد الذهاب الى ستونهنج هناك جلسنا فى السيارة . ورحنا نتناول قطعا من الشيكولاته . وكان بمقدورى مشاهدة وجهها ... مشاهدة التلطخات الضبابية الغامقة لعينيها .. ومشاهدة ابتسامة الجرو البريئة ، سألتها : لماذا تبتسمين ياجوجو ؟

- لأننى أشعر بالسعادة .

إ نحنيت للأمام وقبلت جانب رأسها . وكانت تلك أول مرة أقبلها فيها . ثم أدرت موتور السيارة على الفور . وبعد برهة قصيرة غلبها النعاس واستندت برأسها فى بطء تدريجى على كتفى وعندما راحت فى سبات عميق بدت وكأنها صغيرة فى السن للغاية ... راح شعرها يتناثر على لعلها لم تغسله فى حياتها مرة واحدة . شعرت نحوها بنفس المشاعر التى أحس بها نحو كيمب : مشاعر المحبة الهائلة التى لاتمتزج بأى رغبة فى جسدها .

وفى إحدى الليالى ذهبنا ومعنا كيمب إلى السينما . لقد اعتقدت كيمب أننى مخبول لأننى اضاجع هذه الصعلوكة القبيحة المنظر وأنا لم أحاول أن أوضح لها حقيقة الموقف ، لكننى كنت مسرورا .

ثم ذهبنا جميعا إلى « الاستوديو » الخاص بها وجلسنا نحتسى الكاكاو . وفى حوالى الساعة الواحدة تخلصت كيمب منا حيث كانت ترغب فى الذهاب للنوم كما كنت أرغب فى النوم . فذهبت مع جوجو ووقفنا عند

الباب الأمامى . كانت أول ليلة باردة للغايةفى فصل الخريف وعلاوة على ذلك كان المطر يهطل بغزارة وقفنا عند الباب ورحنا نرقب الجو فى حذر . قالت : لسوف أنام فى شقتك يانيقولاس .. فوق مقعدك .

ـ لا . لسوف يتحسن الجو . عليك بالبقاء هنا . لسوف أحضر السيارة .

كنت قد اعتدت على إيقاف سيارتى فى شارع جانبى . دخلت الى سيارتى وتقدمت بها للأمام ولكن ليس إلى مسافة بعيدة . كانت العجلة الأمامية خالية من الهواء وخامدة ولاحياة فيها . فخرجت إلى المطر ونظرت ولعنت الظروف وذهبت إلى حقيبة السيارة لاحضار المنفاخ . ولم أجده هناك . ولم أكن قد استخدمته منذ أسبوع .

فأغلقت غطاء حقيبة السيارة فى عنف وجريت عائدا الى الباب وقلت لها : اكتشفت وجود عجلة لعينة خالية من الهواء .

ـ هذا أمر حسن لاتكن مخبولا . سأنام على مقعدك القديم .

فكرت فى أن أقوم بايقاظ كيمب من نومها . ولكننى غيرت رأيى . ورحنا نصعد السلم متخطين غرف الخياطة الصامتة وأخيرا دخلنا شقتى .

ـ استمعى الى . أنت تنامين فى السرير وأنا سوف أنام هنا .

مسحت أنفها على ظهر يدها ثم أومأت برأسها . وذهبت الى الحمام ثم اتجهت إلى غرفة النوم واستلقت على السرير وجذبت معطفها الصوفى الخشن القديم على جسدها . كنت فى حقيقة الأمر غاضبا منها حيث كنت أشعر بالارهاق الشديد ولكننى جذبت كرسيين ووضعتهما بجوار بعضهما البعض ومددت جسدى . وبعد خمس دقائق شاهدتها واقفة عند الباب بين الغرف تنادينى .

وظلت واقفة هنالك للحظات صامتة . كانت تحب أن تتأمل وتفكر مليا فى إجراءاتها التمهيدية .

قلت : ياجوجو . نحن مجرد صديقين تجمعهما الصداقة البريئة . ولذلك لن ننام فى السرير معا .

ـ لمجرد أن نكون مَع بعض معا مرة واحدة فقط .

ـ لا .

بدت مثل بقعة ملوثة داكنة فى اتهام صامت . وكان الضوء المتسلل من الخارج يشتت الظلال حول هيكلها وحول وجهها المنعزل حتى أنها كانت تشبه صورة مطبوعة على حجر .

كان منظرهما يعبر عن الغيرة .

وهى تردد : أشعر بالبرد الشديد .

ـ إذن عليك بالدخول تحت البطاطين .

وظلت منتظرة لدقيقة ثم سمعتها تزحف عائدة إلى السرير . ومرت خمس دقائق . ثم شعرت برقبتى تتخشب وتتصلب وسمعتها تنادى :

إننى فى السرير الآن يانيقولاس . يمكنك بسهولة أن تنام إلى جوارى . هل تسمعنى ؟

كان المطر يهطل بغزارة فى الخارج وينساب من مزاريب الماء . وكان الهواء الليلى للندن الممطرة يسود فى أرجاء الغرفة . مشاعر الوحدة القاسية . والشتاء . نادت : هل يمكن لى أن أجيىء لثوان قليلة لكى أشعل النيران ؟

ـ أوه . يا إلهى .

ـ لن أتسبب فى إيقاظك على الاطلاق .

وتسللت فى داخل الغرفة وسمعتها لدى إشعالها عود كبريت . وفرقع الغاز وبدأ يصدر صوتا هامسا وامتلأت الغرفة بتوهج يميل إلى اللون القرمزى . كانت هادئة ملتزمة بعدم إصدار أى أصوات ولكننى بعد برهة بدأت فى الجلوس .

ـ لا تنظر إلى . فأنا لا أرتدى أية ملابس على جسدى .

نظرت اليها . كانت تقف بجوار النيران أدركت فى قدر ضئيل من

الصدمة أنها تكاد تكون جميلة أو هى على الأقل أنثوية الطابع ساعدنى على مشاهدتها ذلك الضوء الخافت الصادر عن الغاز . فأدرت لها ظهرى ومددت يدى لكى أشعل سيجارة . وأنا أتمتم .

استمعى إلىّ ياجوجو . لن أمارس الجنس معك .

- سخنى جسدك الى أن تشعرى بالدفء ثم عودى الى السرير .

نظرت خلسة فيما حولى . كانت منتظرة فوق أرضية الغرفة وقد أعطت ظهرها الصغير الممتلىء لى .

وكانت محتضنة ركبتيها تحملق فى النيران . وازدادت فترة الصمت ، قلت : ارتدى ملابسك . أو ادخلى فى السرير وبعدئذ يمكننا أن نتجاذب أطراف الحديث معا . قمت باشعال سيجارة أخرى مستخدما عقب السيجارة الأخيرة فى الاشعال ، قالت فى اصرار .

أنا أعرف السبب فى احجامك ، انت تتصور أننى مصابة بأحد الأمراض اللندنية الرديئة .

- جوجو

ربما أكون أنا مصابة باحد هذه الأمراض . وأنت لاتريد أن تتعرض للمرض على الاطلاق .

- كفى عن هذا الكلام أنا لم أفكر على الاطلاق فى ذلك ..

- انا لا ألومك . لا ألومك على الاطلاق .

وسادت فترة من الصمت .

ثم خطت قدماها العاريتان فى خفة عبر أرضية الغرفة وأغلقت باب غرفة النوم فى عنف ـ وقفز الباب منفتحا مرة أخرى . وبعد لحظات سمعت صوت بكائها . فرحت ألعن غبائى لأننى لم أنتبه لدلائل عديدة حدثت أثناء فترة المساء ـ لم أنتبه إلى شعرها المغسول والذى تم تصفيفه وفقا لتسريحة ذيل الحصان ولم أنتبه إلى تلك التعبيرات الوسيمة التى ظهرت على وجهها .. وهبط على ذهنى مشهد مريع لطرق حازم على الباب مع وقوف

اليسون هنالك عند الباب . فشعرت بالصدمة . فهى لم يسبق أن سبت ولعنت على الاطلاق ولقد استخدمت الألفاظ اللطيفة المهتدية للتعبير عن الأشياء البغيضة من وجهة نظرها واستخدمتها مثل فتاة تفوقها احتراما خمسين ضعفا . لقد تغير اتجاهها تغييرا حادا .

ظللت مستلقيا للحظات قليلة ثم دخلت إلى غرفة النوم . كانت النيران تلقى ضوءا دافئا فى أرجاء الغرفة . وقمت بجذب الملاءات لأعلى حول كتفيها . وقلت : أوه ياجوجو . أنت انسانة خرقاء ورحت أربت على رأسها مع الامساك بالملاءات فى إحكام بيدى الأخرى كاجراء وقائى فى حالة قفزها على . وبدأت تتشمم بأنفها بصوت مسموع فناولتها منديلا : هل لى أن أقول لك شيئا ؟

- بالطبع

- لم يسبق لى أن نمت فى السرير مع رجل

- ياإلهى !!

« إننى نظيفة تماما وفى مثل النظافة التى كنت عليها يوم أن ولدت من بطن أمى .

- شكرا لله على ذلك

فانقلبت على ظهرها وحملقت نحوى وقالت فى تساؤل : ألا تريدنى الآن ؟

قمت بلمس خدها ثم هززت رأسى فقالت : إننى أحبك حبا عظيما يانيقولاس .

- ياجوجو . أنت لاتحبينى . أنت لا تستطيعين أن تحبيننى .

فشرعت فى البكاء مرة أخرى . مما أثار فى داخلى مشاعر السخط والضيق . سألت : إستمعى إلى . هل وضعت خطة لكى يتم ذلك ؟ وقمت بترسيب الهواء من تلك العجلة ؟ وتذكرت أنها تسللت مدعية أنها بصدد الذهاب إلى الدور العلوى بينما كانت كيمب تعد وتجهز على مشاعرى .

فى تلك الليلة التى ذهبنا فيها الى ستونهينج ومنذ ذلك الوقت لم أستطع النوم . لم يغمض لى جفن . كنت أجلس إلى جوارك بالسيارة هنالك مدعية أننى مستغرقة فى النوم لكننى لم أكن نائمة .

- ياجوجو . هل يمكننى أن أقص عليك قصة طويلة لم يسبق أن حكيتها لأى شخص آخر ؟

ومسحت دموع عينيها بالمنديل على حافة السرير معطيا ظهرى لها . وحكيت لها كل شيء عن اليسون وعن الطريقة التى تركتها بها ولم أخف عنها أى شيء من كافة التفاصيل الدقيقة حدثتها عن اليونان ولم أذكر لها الوقائع الحقيقية لعلاقتى مع ليلى لكننى حدثتها عن بارناسوس والتى تجسد كل الذنب الذى ارتكبته وشرحت السبب فى أننى أنشأت علاقة معها . كانت جوجو بمثابة أغرب قسيس أعترف أمامه بخطاياى ولكنها لم تكن أسوأ القساوسة . لأنها غفرت لى ذنوبى وخطاياى .

تمتمت : أوه . إننى انسانة ساذجة من جلاسجو بالإضافة إلى أننى فى سن المراهقة فأنا عمرى ١٧ عاما فقط يانيقولاس . ولقد سبق أن كذبت عليك كذبة بيضاء بالنسبة لسنى .

- إذا قمت بإعطائك أجرة سفرك فهل ستقومين ..

هزت رأسها على الفور .

وسادت دقائق من الصمت بعدئذ وفى خلال تلك الدقائق رحت أفكر فى الحقيقة الوحيدة التى تهمنى .

وفى الخطيئة والوحيدة الجريمة الوحيدة . وعندما أبلغتنى ليلى بترجمتها لتلك الحقيقة فى نهاية اجتماعنا فى المتحف فإننى أخذت كلامها على أنه أمر له أثر رجعي . أدركت الآن أن كلامها كان يتعلق بمستقبلى .

لقد حل التاريخ محل الوصايا العشر الواردة فى التوراة . وبالنسبة لى لم يكن لهذه الوصايا العشر أى معنى حقيقى فى أى وقت من الأوقات على الاطلاق . ولكن الجلوس فى غرفة النوم والحملقة فى وهج النيران المنعكس على عارضة الباب جعلنى أدرك أننى بدأت أشعر بقوة الوصية العليا والتى

تعبر تلخيصا لكافة الوصاية .

سألتنى : هل يمكننى الحصول على سيجارة يا نيقولاس ؟

فذهبت وأحضرت لها سيجارة . وراحت تدخن السيجارة وهى مستلقية وترقبنى من وقت لآخر بخديها المكتسبين لون التفاحة الحمراء . فأمسكت بيدها .

فيما تفكرين ياجوجو ؟

« فلنفرض أنها لم تحضر » »

- سوف أتزوجك

- تلك كذبة بيضاء

ولسوف أنجب منك مجموعة من الأطفال الممتلئين الذين لهم ابتسامات مشرقة مثل ابتسامات القرود .

- أنت وحش قاس .

- شخص ما أفضل منى سوف يتزوجك فى يوم ما .

- هل هى تشبهنى كثيرا ؟

- نعم

- أراهن أنتما الاثنتان ... لاتشبهان جميع الناس الآخرين .

وصرخ قطار جهة الشمال من عند طريق ايوستون فاستدارت وأطفأت عقب سيجارتها مرددة : أتمنى لو كنت جميلة بالفعل .

وجذبت الملاءات حول رقبتها كما لو كانت تحاول إخفاء قبحها ودمامتها .

- أن تكونى جميلة هو مجرد شىء ما يضاف إلى جوهرك . مثل الورق الملفوف حول الهدية . وليس هذا الورق هو الهدية فى حد ذاتها .

صمت طويل . أكاذيب لها طابع التقوى والورع . ولكن ما الذى يضع

حدا لسقوط المرأة وفقدان عفافها ؟

ـ لسوف تنسانى .

ـ لن أنساك . سوف أتذكرك دائما .

ـ ليس دائما . ربما ستتذكرنى من وقت لآخر . أنا سوف أتذكرك بكل تأكيد .

ثم قالت بعد مرور دقائق كما لو أن الهدية لم تعد أمرا حقيقيا تماما ولم تعد حلم طفولة : فى انجلترا العجوزة النتنة الكريهة الرائحة .

« ٧٧ »

كانت الساعة قد وصلت إلى السادسة صباحا قبل أن يغلبنى النعاس استيقظت مرات عديدة . واخيرا وفى تمام الساعة الحادية عشرة صباحا قررت أن أواجه النهار .. ذهبت إلى باب حجرة النوم لقد انصرفت جوجو . فاتجهت الذى المطبخ الى كان يضم غرفة الحمام . وهناك وجدت نقشا مكتوبا على المرأة بقطعة من الصابون : « مع السلامة » واسمها لقد تسللت خارجة من حياتى بطريقة عارضة مثلما دخلت . وفوق منضدة المطبخ كانت توجد المضخة الخاصة بسيارتى .

منتظرا . ودائما فى حالة انتظار . استندت على المنضدة الخشبية القديمة ورحت أحتسى القهوة باللبن وأتناول البسكويت الرطب . اذ كنت قد نسيت شراء أى خبز كالمعتاد .

ثم قمت باعداد فنجان آخر من القهوة ولعنت اليسون ... تلك اللعينة . لماذا كان ينبغى على انتظارها ؟ ولماذا اخترت لندن من بين كافة الأماكن الأخرى مع أن لندن تضم فتيات متلهفات أكثر من أى مكان آخر فى أوربا ... فتيات أكثر جمالا .. حشودا من الفتيات الصغيرات اللائى جئن إلى لندن لكى يتم انتزاع ملابسهن ولكن يستيقظن ذات صباح وهن فى سرير شخص غريب أجنبى بالنسبة لهن ..

وبعدئذ تجيىء جوجو .. إنها آخر انسانة فى العالم أردت أن أسبب لها

الضرر . وبدا الأمر وكأننى ركلت حيوانا مهجنا فى ضلوعه المسكينة الهشة .

وهاجمتنى ردود فعل عنيفة محملة بمشاعر الاشمئزاز من النفس . لقد كنت طوال حياتى إنسانا يقف فى عناد ضد تأثر المرء بأفكار الآخرين . وها أنا الآن قد أصبحت لين العريكة بل أصبحت بعيدا عن الحرية أكثر مما كنت عليه من قبل فكرت فى إثارة بالغة فى الحياة مع اليسون وفى الانطلاق على نحو غير متوقع مرة أخرى ... بمفردى إلى امريكا الجنوبية .

كانت الحرية تصنع اختيارا فجائيا من نوع ما وتعمل بما يتمشى مع ذلك الاختيار .

وكان على أن أمتلك عنصر المغامرة والمخاطرة وأن أحطم غرفة الانتظار التى كنت بها لأتمكن من الخروج منها .

هبطت على السلالم لكى أقابل كيمب وقلت لها : إننى بصدد ترك المنزل فاستمعت إلى كلامى فى برود . وساءلت نفسى فى تعجب : ترى هل علمت كيمب بما حدث بينى وبين جوجو ؟ حيث شاهدت لمعانا حجريا من الاحتقار فى عينيها لدى استخفافها بالعذر الذى سقته ، وهو أننى قد قررت استئجار كوخ فى الريف .

ـ ستأخذ جوجو معك . أليس كذلك ؟

ـ لا . لقد أنهينا الموقف بيننا .

ـ أنت الذى أنهيت الموقف بينكما .

اذن لقد كانت تعرف تفاصيل ماحدث بينى وبين جوجو ، قلت : وهو كذلك . أنا الذى أنهيت الموقف ظننت انك سئمت التردد على الأماكن الفقيرة تلتقط فتاة مسكينة صغيرة السن . والله وحده يعلم سبب التقاطك لها . ثم تتأكد تماما من أنها أحبتك حبا خالصا فتتصرف كجنتلمان حقيقى فتقوم بطردها من حياتك .

ـ استمعى الى .

« لاتضايقنى ولاتضحك على ذقنى أيها الولد ، استمر فى إجراءاتك . وعد إلى منزلك بسرعة »

ثم استدارت بعيدا كأن الأمر لم يعد يهمها على الاطلاق وكان الحياة كانت شبيهة بالاستوديو الذى تعيش فيه مليئة بأنواع الفشل والفوضى وتستهلك منها كل طاقاتها لكى تتمكن فى البقاء على قيد الحياة .

وخرجت . ولكننى ما كدت أصل إلى قمة السلالم المؤدية إلى الدور الأول حتى خرجت كيمب وصرخت منادية على قائلة :

دعنى أقول لك : إنك إنسان مغرور . وأنت ابن حرام ، هل تعرف ماذا سيحدث لهذه الطفلة المسكينة اللعينة ؟ سوف تستمر فى اللعبة . وهل تعرف مَنْ وضعها فى هذا الوضع هنالك ؟ ثم رفعت أصبعها فى اتهام نحو وجهى وأضافت : إنه القديس نيقولاس أورفى المحترم .

وكانت تلك العبارة هى أسوأ العبارات الغامضة التى سمعتها تمر من بين شفتيها . وسقطت أشعة عينيها على فحرقتنى ثم عادت وصفعت باب الأستوديو فى عنف مغلقة إياه .

رحت أعبىء حاجياتى فى غضب مليىء بالبرود . وكنت غارقا فى شجارى الذى تم مع كيمب ورفعت لوحة « السهم » فى شىء من الاهمال عن المسمار . فارتطمت بحافة موقد الغاز وبعد لحظات كنت أحملق فى اللوحة كانت قد كسرت إلى نصفين فى المنتصف .

ركعت على اللوحة . وكانت الدموع على وشك التجمع فى عينى حتى اننى اضطررت لأن أعض على شفتى فى وحشية شديدة . ركعت ممسكا بالقطعتين . بدون أن أحاول مواءمتها مع بعضها البعض . ودون أن أتحرك لدى سماع صوت أقدام كيمب تترامى فوق السلالم . دخلت كيمب وتقدمت نحوى وأنا مازلت راكعا . لا أعرف الكلام الذى دعاها لأن تصعد إلى بالدور العلوى لكى تقوله لى ولكنها عندما شاهدت وجهى لم تنطق بكلمة .

رفعت القطعتين قليلا لأعلى لكى أريها ماحدث للوحة . حياتى والماضى الخاص بى ومستقبلى . ظلت صامتة للحظات طويلة . وراحت تستوعب ماحدث . الحقيبة التى لم أستكمل وضع حاجياتى بها . ولخبطة الكتب والأوراق فوق المنضدة . وهاهو ابن الحرام المعتد بنفسه . وهاهو الجزار المطوع المرود قد خرَّ ساجدا على ركبتيه بجوار المدفأة .

فقالت : ياإلهى . من نفس عمرك فى نفس سنك .

لذلك مكثت مع كيمب وبقيث معها .

« ٧٨ »

إن أصغر قدر من الآمال مع استمرارية ضئيلة للغاية . في التواجد على قيد الحياة يكفي من أجل المستقبل المناهض للبطل . يقول عصرنا : أتركه .... أتركه حيث يكمن الجنس البشرى فى تاريخه لكى يفقد الكل ولايكسب إلاّ المزيد من نفس الشيء . دعه يبقى على قيد الحياة ولكن لاتقدم إليه أى توجيه أو أية مكافأة لأننا فى حالة انتظار فى غرفنا الانفرادية المنعزلة ... لا يدق جرس التليفون على الاطلاق .. ومنتظرين هذه البللورة الشفافة الخاصة بالانسانية والخيال لكى تعود . والقول بأنها سوف تعود أكذوبة .

عشرة أيام أخرى لم يدق خلالها جرس التليفون على الاطلاق .

وبدلا من ذلك أخذتنى كيمب فى اليوم الأخير من شهر أكتوبر ـ للنزهة معها . وكان ينبغى أن تساورنى الشكوك إزاء مثل هذا التصرف من جانبها حيث لم يسبق لها أن اعتادت أن تفعل ذلك معى من قبل .. ولكن تصادف أن كان الجو مشرقا تسوده سماء تنتمى لربيع عالم آخر ، وكانت للأشجار ألوان صخرية وكهرمانية وصفراء ، وكان الهواء ساكنا مثل سكون الهواء أثناء الأحلام . بالإضافة إلى ان كيمب كانت قد أقبلت فى ارتياح على معاملتى معاملة الام لابنها . وهى عملية احتاجت الكثير من اللغة التعويضية ومن النظافة والغلظة حتى أن العلاقة بيننا تحولت إلى شيء ما على العكس تماما من الناحية الظاهرية من طبيعته الحقيقية . فعدم حديثنا صراحة أننا نحب بعضنا البعض . أظهر نوعا من دماثة الخلق المتبادلة بيننا وهى دماثة برهنت على أننا نحب بعضنا بالفعل . لعل كيمب هى التى جعلتنى اشعر بأننى أكثر سعادة خلال تلك الايام العشرة ، وربما كان هذا أثرا من الآثار الناجمة عن جوجو التى هى أقل الملائكة جمالا وشفقة ولكنه أُرسل عن طريق المجازفة من عالم أفضل الى عالمى . وربما كان هذا هو مجرد شعور بأن باستطاعتى الانتظار لفترة أطول أكثر مما كنت أتخيل آنئذ . ومهما كانت طبيعة ذلك الأمر فإن شيئا ما فى داخلى قد تغير . كنت لازلت الشخص الذى هو موضع السخرية وإن كان ذلك فى معنى آخر . فالحقائق التى قالها كونشيس وخاصة الحقيقة التى صبها فى داخل كيان ليلى قد نضجت فى داخل كيانى . إذ بدأت أتعلم تدريجيا كيف أبتسم ..

وأبتسم بالمفهوم الذى يقصده كونشيس ولو أنه يمكن للمرء أن يقرر وهو مازال لا يصنع القرار موضع التنفيذ .

سرنا معا عبر شارع إيوستون ومنه إلى حديقة ريجينت .

وكانت الحديقة مليئة بالمساحات الخضراء وبمجموعات لانهائية من الناس المبعثرين هنا وهناك : عشاق وعائلات وأناس بمفردهم مع كلابهم . وخفت حدة ألوان الناس والأشياء من خلال ضباب الخريف الذى لاتكاد تدركه العين وكانت الألوان بسيطة ورحنا نرقب البط فى محبة واعزاز ونرقب لاعبى الهوكى فى احتقار قالت كيمب : ياولد يانيقولاس : إننى بحاجة لأن أتناول كأسا من المشروب الوطنى اللعين .

ذهبنا إلى الجناح الخاص بالشاى . ووقفنا فى طابور المنتظرين ثم عثرنا على منضدة . وبعدئذ تركتنى كيمب لكى تذهب إلى دورة المياه وجذبت كتابا له غلاف من ورق غير سميك كنت قد وضعته فى جيبى .

ضمنت أن كيمب وقفت فى طابور من أجل الدخول إلى دورة المياه . ثم استغرقت فى قراءة الكتاب .

فى هدوء شديد وفى بساطة تامة راحت تنظر لأسفل نحو المنضدة وليس نحوى . تحركت حولى باحثا عن كيمب لكننى ادركت إنها عادت الى منزلها .

لقد كنت طوال الوقت أتوقع نوعا من الدخول الجديد الهائل المدهش .. نوعا من النداء الغامض . ومع ذلك فإننى عندما حملقت فيها وقد انعقد لسانى وفى رفضها الرد على نظراتى بنظرة من جانبها أدركت أن تلك كانت هى الوسيلة الوحيدة الممكنة للعودة . صعودها إلى مثل هذه المناظر البالغة الابتذال وإلى أكثر الأماكن المبتذلة فى لندن والى هذه الحقيقة التى هى فى مثل بساطة وسخافة القمح فطالما أنها قد ألقى بها من حيث هى « حقيقة » فانها جاءت بمفردها وتبوأت أخيرا المكانة التى تستحقها وان كانت على نحو ما شديدة التأثر وغريبة ومازالت هالة العالم الآخر تكتنفها . جاءت من الجمهور الذى وراءها دون أن تكون منتمية له .

كانت ترتدى حلة من قماش التويد وتلفيعة خضراء ملفوفة حول راسها بأسلوب ريفى . جلست وقد وضعت يديها فى حجرها كأنها أدت واجبها إنها هنا الآن . وأصبح على أن أقوم بأى مبادرة أخرى من جانبى . ولكن

ما أن هبت على تلك اللحظات حتى شعرت أننى غير قادر على عمل أى شىء أو قول أى كلام أو حتى التفكير فى اتخاذ أى اجراء . تخيلت وسائل عديدة تتعلق بلقائنا مرة أخرى ولكننى لم أتخيل هذه الطريقة على الاطلاق . وفى النهاية حملقت لأسفل نحو كتابى كأننى لم أعد أريد أى شىء يتعلق بها . ثم نظرت لأعلى فى غضب إلى ما وراءها نحو عائلة مثيرة للازعاج ونظرت هى نظرة سريعة للغاية إلىّ لاتتعدى جزءا من الثانية ولكن نظرتها وقعت على وجهى فشاهدت الغضب الذى أصبه على تلك الأسرة وليس عليها هى .

فظنت أن تعبيرات الغضب موجهة لها فنهضت فجأة وغادرت المكان . ورحت أرقبها وهى تتحرك بين المناضد : بجسدها الضئيل الدقيق . تلك الضآلة والرشاقة التى كانت جزءا طبيعيا من أنوثتها المتفجرة . وشاهدت عيون الناس الآخرين يتتبعونها إلى أن خرجت من الباب .

ظللت فى مكانى متجمدا وممزقا للحظات قليلة . ثم انطلقت وراءها مصطدما بالناس الذين تصادف وجودهم فى طريقى فى عنف . كانت تمشى فى بطء على العشب حتى وصلت إليها . لم نقل أى كلام . شعرت أننى مذهول من هول المفاجأة ... وكانت المفاجأة تتعلق أيضا بالملابس التى أرتديها . اذ كنت قد فقدت كل الاهتمام بمظهرى الخارجى ... كنت قد أتخذت طابع التلوين الذى تتخذه الحيوانات لإخفاء نفسها وهو الطابع الذى تميزت به الحياة التى تعيشها كل من كيمب وجوجو . فشعرت أننى إنسان غريب المظهر والشكل وأنا بجوارها وشعرت باستياء من ذلك الوضع . إذ لم يكن لها الحق أن تظهر من جديد على هيئة زوجة شابة من الطبقة الاجتماعية المتوسطة متميزة بالهدوء ورباطة الجائش مع الوعى بنوعية الملابس التى ترتديها بل وبدا الأمر كأنها أرادت أن تتباهى بالصورة العكسية وبالانقلاب الذى حدث بالنسبة لأدوارنا وحظوظنا فى الحياة . ثم نظرت فيما حولى . كان هناك عدد كبير من الناس بحيث يتعذر التعرف على أشخاص معينين بينهم .

سألت : أين هم ؟

هزت كتفيها هزة خفيفة وقالت : إننى بمفردى .

ـ مثل عذاب جهنم .

سرنا خطوات أخرى فى صمت . وأشارت برأسها إلى مقعد خشبى شاغر بجوار طرقة تتواجد بها أشجار على الجانبين . وبدت غريبة فى ناظرى إنها باردة وهادئة للغاية .

سرت وراءها إلى المقعد الخشبى . وجلست هى عند أحد طرفى المقعد وجلست فى منتصفه والتفت نحوا ورحت أحملق فى وجهها . وشعرت بالحنق لأنها لم تنظر إلى ولم تظهر أدنى دليل على اعتذارها لى ولم تقل أى كلام لى .

قلت : إننى فى حالة انتظار ظللت منتظرا ثلاثة شهور ونصف .

فقامت بفك تلفيعتها وهزت شعرها لكى ينساب فى حرية . لقد نما شعرها مرة أخرى وأصبح طويلا وشبيها لما كان عليه عندما شاهدتها لأول مرة أدركت ، ويبدو أن هذا قد زاد من شعورى بالتوتر ، إن الصورة التى اتخذت شكلا مثاليا والخاصة بليلى وهى فى أفضل أحوالها قد شوهت اليسون ووضعتها فى أبوأ أحوالها . كانت اليسون ترتدى قميصا بنى فاتح تحت الحلة . وكانت الحلة جميلة للغاية ومن المؤكد أن كونشيس أعطاها النقود اللازمة . كانت جميلة وجذابة بل وحملقت اليسون نحو طرف حذائها ذى الكعب المنخفض للغاية .

ونظرت بعيدا فوق الأعشاب وقلت : أريد أن أوضح شيئا واحدا اننى غفرت لك تلك الخدعة القذرة التى قمت بها فى خلال هذا الصيف وأغفر لك هذا الحقد الأنثوى اللعين الذى جعلك تقررين إبقائى فى حالة انتظار طوال كل هذا الوقت .

فهزت كتفيها والتزمت بالصمت للحظات ثم قالت :

ولكن ماذا ؟

ـ أود أن أعرف ماجرى وماحدث فى ذلك اليوم فى أثينا . وجميع الأمور التى حدثت بعد ذلك منذ ذلك اليوم . أريد أن أعرف مايدور الآن من أحداث .

ـ ثم سنرى ماتسفر عنه الأمور والتى تطل على الحديقة . زخرفة ونقوش بالجص لها لون الكريمة أو القشدة وصف من التماثيل البيضاء اللون على طول الأفاريز والكورنيشات . ودرجات اللون الأزرق البكوامات فى السماء .

وجرى نحونا كلبه من نوع البوديل الذى يتميز بالذكاء والشعر المجعد الكثيف . فلوحت له بقدمى لكى ينصرف بعيدا عنا ولكن اليسون راحت تربت بيدها على رأسه . ثم نادت امرأة قائلة .. ياتينا ! يا .

نظرت إلى نظرة مقتضبة امسكت بسيجارتها وكأنه لايوجد شىء يدفعها أن تتكلم . وطارت ورقة من شجرة الدلب وهبطت فى وثب متكاسل لأسفل ولمست جونلتها فانحنت والتقطت الورقة ثم جاء شخص هندى وجلس عند الطرف الآخر من المقعد .

تحركت قليلا إلى جوار اليسون واخفضت من صوتى وتعمدت أن يكون صوتى باردا وفى مثل برودتها وأنا أقول لها : وماذا عن كيمب ؟

ـ يانيقولاس . لا تستجوبنى لو سمحت . أرجوك لا تستجوبنى

لقد نطقت باسمى . وكان هذا بمثابة تقدم طفيف من جانبها . إنها لاتزال جامدة .

ـ هل يرقبوننا ؟ هل هم موجودون هنا فى مكان ما ؟

فتنهدت فى نفاذ صبر هل هم متواجدون هنا ؟

فقالت لا لست أدرى . لا أعرف

كانت لاتزال غير راغبة فى النظر إلى . ثم تكلمت بصوت منخفض به مسحة من الملل قائلة :

الأمر لايتعلق بهم الآن

وسادت فترة طويلة من الصمت .

ثم قلت : لايمكنك أن تكذبى على . وجها لوجه .

فلمست شعر رأسها بمعصم يدها مما جعلها ترفع وجهها قليلا لدى

قيامها بهذه الحركة . فشاهدت فى لمحة خاطفة شحمة أذنها فدبت الشجاعة في أوصالي كما لو كنت قد أدركت فجأة أننى كنت محتجزا عن ملكية خاصة بى . فقلت لها :

إنك الانسانة الوحيدة التى قابلتها فى حياتي والتى لم تكذب على أبدا هل يمكنك أن تتخيلى الحالة التى كنت أنا عليها فى الصيف ؟ عندما تسلمت ذلك الخطاب وتلك الأزهار ..

فقالت إذا سنبدأ فى التحدث عن الماضى .

يبدو أنها قررت ألا ألمسها .

قالت : عدت إلى لندن لكى أبيع الشقة . ثم سأرجع إلى أستراليا .

قلت : انها رحلة طويلة للغاية من أجل مثل هذه المسألة البسيطة .

- ومن أجل أن أراك .

- أن تشاهدينى بهذه الكيفية ؟

- لم أكن أرغب فى المجيىء

- إذن ما السبب فى وجودك هنا ؟

هل ذلك ضد رغبتك ؟

لم ترد على تساؤلى . كانت تميل إلى الغموض وكادت أن تكون فتاة أخرى جديدة . وكان على أن أرجع إلى الوراء عدة خطوات لكى أبدأ معها من جديد . وأن أعرف المكان للمرة الأولى . وبدا الأمر وكأن ذلك الشىء الذى كان مباحا وطليقا فى داخلها . قد أصبح محبوسا فى داخل زجاجة مقدسة غير قابلة للتدنيس . كنت أعرف اليسون حق المعرفة .. وأدركت أنها قد اتخذت لون وطابع الناس الذين ارتاحت اليهم ولكنها مع ذلك قد ظلت محتفظة بشخصيتها المستقلة تحت السطح . أدركت من أين جاء هذا الصمود الناعم غير القابل للاختراق والذى اتسمت به . لقد كنت جالسا مع قديسة .

حاولت أن أكون شخصا واقعيا ومجرد من العواطف . فتساءلت « أين

كنت منذ أن غادرت أثينا ؟ هل كنت فى وطنك ؟ أو فى منزلك »

ـ ربما .

فأخذت نفسا عميقا وتساءلت مرة أخرى : وهل كنت تفكرين فى »

ـ أحيانا .

ـ وهل هناك شخص آخر فى حياتك ؟ فأصابها التردد ثم قالت : لا .

ـ يبدو أنك غير متأكدة تماما ..

قالت : لايوجد أحد فى حياتى من فيهم انت .

بروفيل الوجه المتجهم وتلك الحملقة الشرسة فى الفراغ . كانت مدركة لنظراتى المنصبة عليها . تتبعت بعينيها شخصا كان يمر أمامها كما لو كانت قد وجدته ممتعا أكثر منى ، سألت : ماذا تتوقعين منى أن أفعل ؟ آخذك بالاحضان بين ذراعى ؟ أخر ساجدا أمامك ؟ ماذا يريدونه هم ؟

ـ لا أعرف عم تتحدث أو . أنت تعرفين جيدا فرفرفت عيناها رفرفة جانبية نحوى . ونظرت لأسفل ثم قالت : لقد فطنت إلى ألاعيبك فى ذلك اليوم . وذلك هو كل ما فى الأمر . وإلى الأبد .

ـ لقد عاشرتك جنسيا فى ذلك اليوم . وأيضا .. إلى الأبد .

رحت أرقبها وهى تأخذ شهيقا من الهواء وكأنها تكبت احتقارها وظللت منتظرا أن تقول أى شىء حتى ولو كان ذلك الكلام هو التعبير عن احتقارها لى . أخمدت الغضب المتصاعد فى داخلى وحاولت أن أبدو هادئا وأنا أقول لها :

كانت هناك لحظة فوق ذلك الجبل شهدت حبى الصادق العميق لك . وكنت تدركين ذلك تماما . لقد شاهدت ذلك منعكسا عليك أنا لا أتحدث عن جسدينا .

ظلت منتظرة للحظات قبل أن تجيب قائلة : ولماذا ينبغى على أن أتذكر ذلك المشهد ؟ ولماذا لاينبغى أن أبذل ما بوسعى لكى أنساه ؟

ـ أنت تعرفين الاجابة عن سؤالك هذا .

ـ لاتقترب أكثر . أرجوك لاتزيد من اقترابك .

لم تكن تنظر إلى . وكان هناك شىء فى صوتها . كان لدى إحساس بأننى ارتعش ارتعاشات عميقة بحيث لاتبدو واضحة على السطح وكأن خلايا مخى هى التى ترتعش . ثم تكلمت وقد أشاحت بوجهها بعيدا عنى فقالت : « أعرف معنى ذلك » وبينما وجهها لايزال متحولا عنى أخرجت سيجارة أخرى وأشعلتها وأضافت .. عندما أحببتك كان لك شىء تقوله أو تفعله له معنى . ويحدث تأثيرا على ويثيرنى بل ويصيبينى بالاحباط ... اذ كان يجعلنى ... مثل الطريق التى تجلس بها ، وبعد كل ما حدث هنا فى ذلك المكان الذى يقدم الشاى وتنظر إلى وكأننى مومس أو أى شىء من هذا القبيل و ....

ـ لقد كانت صدمة فجائية بالنسبة لى . بحق السماء .

وضعت يدى على كتفها ولكنها أزاحت يدى . واضطررت لأن أزيد من اقترابى منها لكى أسمع ما تقوله :

فى كل مرة أكون فيها معك فإن الأمر يبدو لى وكأننى أذهب لشخص ما وأقول له عذبنى واستخدمنى بطريقة سيئة ووجه إلى السباب والشتائم . وطلع روحى ونكل بى لأننى ..

ـ اليسون .

ـ أوه . أنت الآن لطيف . أنت الآن ظريف لطيف للغاية وعلى نحو لعين . وستظل كذلك لمدة أسبوع أو شهر . وبعد ذلك ستعود إلى البدء مرة أخرى .

وكانت تبكى بالدموع . فاستندت للأمام ونظرت . وعلى نحو ما أدركت أنها كانت تمثل ومع ذلك لم تكن تمثل . لعلها تدربت على تأدية هذا المشهد وذلك الكلام ولكنها لاتزال تعنى ماتقول .

هل سترجعين إلى استراليا

كنت أتكلم فى لا مبالاة وبدون تهكم ولكنها التفتت ورمقتنى بنظرة خاطفة كأن كلامى القاطع له طابع الوحشية . ووقعت فى غلطة لأننى بدأت فى الابتسام وطلبت يدها . نهضت فجأة على قدميها . وسارت تحت الأشجار ومنها إلى المساحات العشبية المكشوفة .

ثم توقفت فوق الاعشاب .

واذا كان ذلك قد بدا مقنعا من حيث هو رد فعل حركى وخاصة بدا أقل التوقف عن المشى . كان هناك شىء ما بالنسبة للطريقة التى توقفت بها والاتجاه الذى اتخذته ... وفى لمحة خاطفة ذهنية أدركت الموقف على نحو أكيد . فإلى ما وراءها كان العشب ممتدا لمسافة ربع ميل حتى حافة الحديقة وإلى ما وراء ذلك كانت توجد الواجهة الملكية المزدانة بالتماثيل والمليئة بالنوافذ العديدة ذات التصميمات الجميلة .

نهضت واقفا أمامها معطيا ظهرى فى اتجاه المبانى البعيدة فأخفضت بصرها . لم يكن من الصعب عليها أن تلعب ذلك الدور : ذلك الوجه المحتقن القريب للغاية من الدموع ولكنه ليس فى حالة من الدموع : والآن استمعى إلى يا اليسون . أعرف من الذى يرقبنا الآن . وأعرف المكان الذى يرقب منه . وأعرف السبب فى تواجدنا هنا . لذلك أقول لك : أولا : أنا انسان أكاد أكون مفلسا من الناحية المالية . فأنا لا أشغل أى وظيفة لها أهمية فى أى وقت على الاطلاق . ولذلك فأنت واقفة مع أسوأ فرصة للنجاح فى المستقبل فى لندن .

وثانيا : لو أن ليلى سارت على تلك الطرقة خلفنا ثم قامت بالمناداة علىّ واستدعائى ... لست أدرى . فالحقيقة التى لا أعرفها والتى ربما لن أعرفها أبدا هى ما أريده لك أن تتذكريه .

تذكرى أنها ليست فتاة واحدة ولكنها نموذج من مناوشة ولقاء غير متوقع .

وثالثا : فأنا لست انسانا ممتازا للغاية فى السرير مثلما تفضلت وقلت لى ذلك فى أثينا .

ـ لم أقل ذلك

وحملقت نحو قمة رأسها انا أدرك أن وراء رأسى توجد النوافذ العلوية الشاحبة الخاصة .

ورابعا : انه قال لى شيئا ما ذات يوم . شيئا مايتعلق بالذكور والاناث . وكيف أن الذكور يحكمون على الأشياء من حيث هى أشياء مدركة بالحواس بينما الاناث يحكمن على الأشياء من حيث العلاقات القائمة بين الأشياء . وهذا صحيح . فأنت دائما كنت قادرة على مشاهدة هذا ... مهما كان ذلك ... بيننا . الربط بيننا . أما أنا فلم أنظر للأمور من هذه الزاوية . وذلك هو كل ما فى الأمر . وذلك هو كل مايمكننى أن أقدمه لك . امكانية أننى بصدد البدء فى إدراك الموقف .

ـ هل لى أن أتكلم ؟

ـ لا . أمامك الآن أن تختارى . عليك أن تقومى بذلك الاختبار بسرعة كبيرة . إما أن تختارينى أنا أو تقومى باختيارهم .

ـ ليس لك الحق فى أن

ـ إن لى الحق مثلما كان لديك الحق فى تلك الغرفة بالفندق فى اليونان . وهو كل الحق .

ـ الأمر ليس نفسه الأمر تماما .

أشرت بيدى للوراء .

وأضفت قائلا : إن لديهم كل شىء يقدمونه . ولكننى مثلك . ليس لدى سوى شىء واحد . بل إننى لا أستطيع أن ألومك اذا وقعت فى نفس الغلطة التى وقعت أنا فيها ... اذا اعتقدت أن كل شىء خاص بهم هو أفضل بكثير من أى مستقبل يمكن أن يكون لنا معا . الشىء الوحيد أمامك الآن هو أن عليك أن تقامرى أمامهم . الآن .

فنظرت اليسون لأعلى نحو صف المنازل واستدرت أنا أيضا للحظات . وتسببت شمس ما بعد الظهر فى جعل المنازل تلمع وتتلألأ بالضوء ..

قالت كما كانت قد رفضتهم ورفضتنى فى آن واحد : سأعود الى استراليا .

أحسست بوجود هوة سحيقة بينى وبينها ... هوة عميقة على نحو لايمكن سبر أغوارها ولكنها مع ذلك هوة ضيقة على نحو غير معقول . رحت أحملق فى وجهها المحتقن فى عنادها بدأت أسير في اتجاه الممر الذى يؤدى إلى البوابة الجنوبية فى طريقى للانصراف الى منزلى . وقطعت خطوتين وأربع خطوات وست خطوات . ثم عشر خطوات .

- نيقولاس .

وبدا صوتها ملزما وقاطعا وخشنا وليس استرضائيا على الاطلاق . فتوقفت عن السير بشكل مؤقت ونظرت فيما حولى نظرة غير مكتملة ثم أرغمت نفسى على مواصلة المسير . فسمعتها تجرى ورائى ولكنى لم التفت إليها إلا بعد أن أصبحت عى مسافة قصيرة للغاية منى . وتوقفت هى على مسافة خمسة أو ستة أقدام وهى لاهثة الأنفاس تتنفس فى صعوبة بعض الشىء . لم تكن تتظاهر كانت بصدد العودة الى استراليا .

- أو على الأقل بصدد العودة الى شىء من العقلية الأسترالية .

ومع ذلك فهى لم تكن ترغب أن تدعنى انصرف من أمامها على ذلك النحو . كانت عيناها جريحتين وكانت مشاعر الاساءة البالغة تتفجر من عينيها . وكنت شخصا لايطاق أكثر من أى وقت آخر . اتخذت خطوتين إلى الوراء فى اتجاهها . ورفعت أصبعا غاضبا فى وجهها . قلت :

أنت لم تتعلمى بعد ... حتى الآن . مازلت تتصرفين بما يتفق مع النص المكتوب فى روايتهم .

فتطاير الشرر من عينيها كرد على الغضب الذى يتطاير من عينى . ثم قالت :

لقد عدت لأننى ظننت أنك تغيرت .

ولا أعرف السبب الذى دعانى لأن أفعل ما فعلته بعدئذ . فما فعلته لم

يكن مقصودا أو غريزيا . ولم يكن ناجما عن القسوة وغلظة القلب أو عن سرعة الانفعال والتهيج . ومع ذلك فقد بدا لى عند ارتكابه أنه كان عملا ضروريا وليس تحطيما للسنن الطبيعية . اذ ارتفعت ذراعى وهبطت على خدها الأيسر بكل ما لدى من قوة . وأحدثت لها اللطمة مفاجأة وذهولا تاما . بل وكادت اللطمة تفقدها توازنها وتلقيها على الأرض . ورمشت عيناها مع هول الصدمة وبعدئذ وضعت يدها اليسرى فى بطء شديد على خدها . ورحنا نحملق فى بعضنا البعض فى وحشية للحظات طويلة فى نوع من الرعب : كان العالم قد اختفى وكنا نسقط من خلال الفراغ . ربما كانت الهوة السحيقة ضيقة ولكنها كانت بدون قاع . وإلى ما وراء اليسون تمكنت من مشاهدة أناس يتوقفون أثناء سيرهم على الممر . وهب رجل واقفا بعد أن كان جالسا على مقعد . وجلس الهندى يرقب المشهد . وظلت يدها على جانب وجهها وكانت الدموع قد بدأت تظهر فى داخل عينيها ربما بسبب الألم الناجم عن اللطمة وربما بسبب وجود نوع من عدم التصديق لما حدث .

وهبطت الحقيقة النهائية على ذهنى ، كنا نقف مرتعشين وباحثين بين جوانب كل ماضينا المشترك وبين جنبات كل مستقبلنا ..

لم تكن هناك عيون ترقب . كانت النوافذ مصمتة على النحو الذى بدت عليه . كان المسرح شاغرا . بل لم يكن مسرحا . ربما قد قالوا لها أنه مسرح ولعلها صدقتهم كما أننى صدقتها . ربما أن كل ذلك قد تم من أجل إعطائى الدرس الأخير والمحنة الأخيرة . أشحت بوجهى بعيدا عن اليسون ونظرت إلى النوافذ البعيدة .

كان الموقف منطقيا وكان معبرا عن الذروة المتقنة للعبة الشيطانية . لقد تسللوا منصرفين فجأة بعد أن ارتكبوا أخطاءهم وأصبحنا أنا وأنت بمفردنا . وكنت متأكدا تماما من ذلك .

نظرت إلى الوراء نحو الممر . كان المشاهدون المتسمون بالمزيد من السمات الطبيعية يستأنفون سيرهم فى بطء كما لو أن هذه الوحشية الضئيلة جعلتهم أيضا يفقدون اهتمامهم لالقاء نظرة أخرى . لم تتحرك

اليسون من مكانها . وكانت لاتزال تضع يدها على خدها . ولكن رأسها كان منحنيا منكسرا مفعما باليأس ومليئا بالدهشة البالغة وهى تقول : إننى أكرهك . أنا أكرهك .

ولم أرد عليها بأى كلام ولم أقم بأى حركة لكى ألمسها . وبعد لحظات قصيرة نظرت لأعلى وظهرت على وجهها نفس التعبيرات التى لاحت من صوتها وكلماتها : الكراهية والألم وكل الاستياء الأنثوى منذ بدء الخليقة زمنيا . ولكننى تشبثت بشىء ما تشبثت بالشىء الذى لم أشاهده على الاطلاق أو بالشىء الذى كنت أخشى دائما أن أراه فى تلك العينين الرماديتين المليئتين بالانفعالات الحادة . ذلك الشىء الجوهرى الكامن وراء كل الكراهية والدموع . خطوة صغيرة متزنة وانتظار بلورى مهشم لأن تتم ولادة من جديد . وتكلمت هى مرة أخرى كأنها تريد أن تقتل ماكنت أنظر اليه : إننى أكرهك ..

- إذن لماذا لم تتركينى لكى أنصرف ؟

فهزت رأسها الذى أخفضته فجأة كما لو كان تساؤلى يتسم بالظلم وعدم الانصاف :

أنت تعرف السبب .

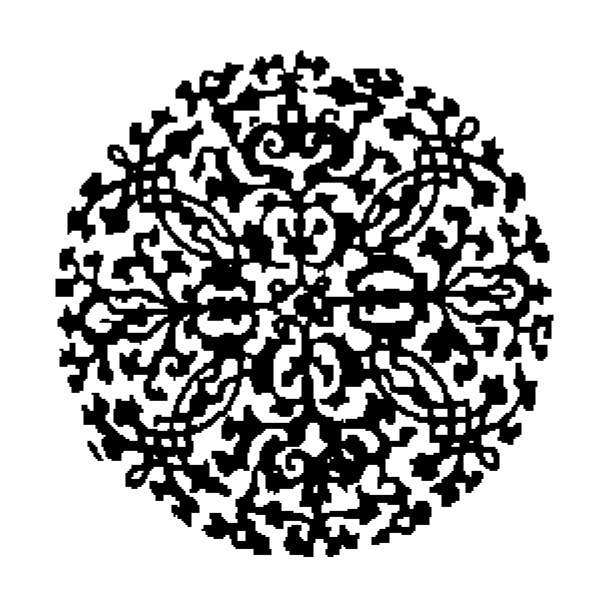
- أنا لا أعرف السبب

- لقد أدركت جوانب الموقف فى خلال الثوانى الأولى عقب مشاهدتك ... فاقتربت منها أكثر . وعندئذ اتجهت يدها نحو وجهها كما لو كانت تتوقع أن أصفعها على وجهها مرة أخرى . ثم قلت :

اننى أفهم تلك الكلمة الآن يا اليسون إننى أفهم كلمتك ..

ظلت منتظرة وقد أخفت وجهها بين يديها مثل شخص أبلغ بتعرضه لخسارة فاجعة تراجيدية . وأضفت قائلا : لا يمكنك أن تكرهى شخصا ما ساجدا أبدا أن يكون أكثر من شبه انسان بدونك . الرأس المنكس . والوجه المحتقن .

انها ملتزمة بالصمت المطبق . انها لن تتكلم على الاطلاق . ولن تصفح أبدا ولن تمد يدا . ولن تتخلى عن هذا التوتر المتجمد بدت كل الانتظارات معلقة . أشجار الخريف كانت معلقة . وسماء الخريف كانت معلقة . والناس الذين بلا سماء كانوا معلقين . عصفور صغير أبله ومسكين يغنى فى خارج أوقات الموسم بين أشجار الصفصاف بجوار البحيرة . سرب من الحمام فوق المنازل . أجزاء مهشمة غير متكاملة من الحرية والمخاطرة . ومن مكان ما كانت تترامى الرائحة الكريهة الناجمة عن احتراق أوراق .



رقم الايداع : ١٩٩٤/٤٥١٤
I . S . B . N
977 - 07 - 0337 - 0



جون فاولز

● ولد فى قرية قريبة من لندن عام ١٩٢٦

● درس الادب الفرنسى فى نيوكوليج بجامعة اكسفورد وعرف برحلاته حول العالم . ومن تجربة هذه الرحلات استقى رائعته النادرة « الساحر » .

● كتب الرواية والدراسة الفلسفية ، والقصة القصيرة . وهو من المقلين فى ابداعهم .

● من ابرز اعماله « جامع الفراشات » التى ترجمتها روايات الهلال منذ عامين ثم « الساحر » المنشورة عام ١٩٦٦ و « عشيقة الضابط الفرنسى » ١٩٦٩ . وكلها اعمال حولتها السينما الى افلام شهيرة .

● تتميز اعمال فاولز الادبية بانها ارقى من كافة الأفلام المأخوذة عنها .

● من مجموعاته القصصية «برج الابنوس» ومن دراساته الفلسفية « الامتياز » وهو كتاب فلسفى يدور حول الصراع الابدى بين الأضداد

هــذه الـروايــة

هذه واحدة من أهم الروايات التى يمكن ان تقرأها فى حياتك .

لذا حرصنا على ان نقدمها كاملة فى هذا المجلد الضخم ، لتظل روايات الهلال فى الطليعة دائما .

فها هو جون فاولز يذهب ببطله الى جزيرة يونانية ليعمل مدرسا ، مخلفا وراءه حبيبته الاسترالية آليسون ، وهناك ، وفى قمة وحدته ، وجد الصحبة ، وياٰلها من صحبة ، لقد التقى برجل يمزج بين كل الثقافات والحضارات ، ويتمتع بثراء ضخم ، انه كونشيس الذى ادخله معه فى عالمه المجهول الغامض ، والذى كلما تكشف منه بصيص من النور ، امتلأت اشياء اخرى بغموض ، فوجد نفسه يقوم بدور رئيسى فى مسرحية حقيقية ، لايعرف كيف ستنتهى ؟

ترى ماذا سيكون مصير بطل هذه الرواية كلما تمادى فى فصول هذه المسرحية ، والى اى مصير ستئول علاقته باليسون التى اختفت فجأة ، ثم بامرأتين توأمين دخلتا حياته فجأة .

انها ليست مجرد رواية عابرة .. بل هى ملحمة روائية . لايكتبها إلا اديب من طراز جون فاولز .

روايات الهلال تقدم

الطيب والشرير والجميلة

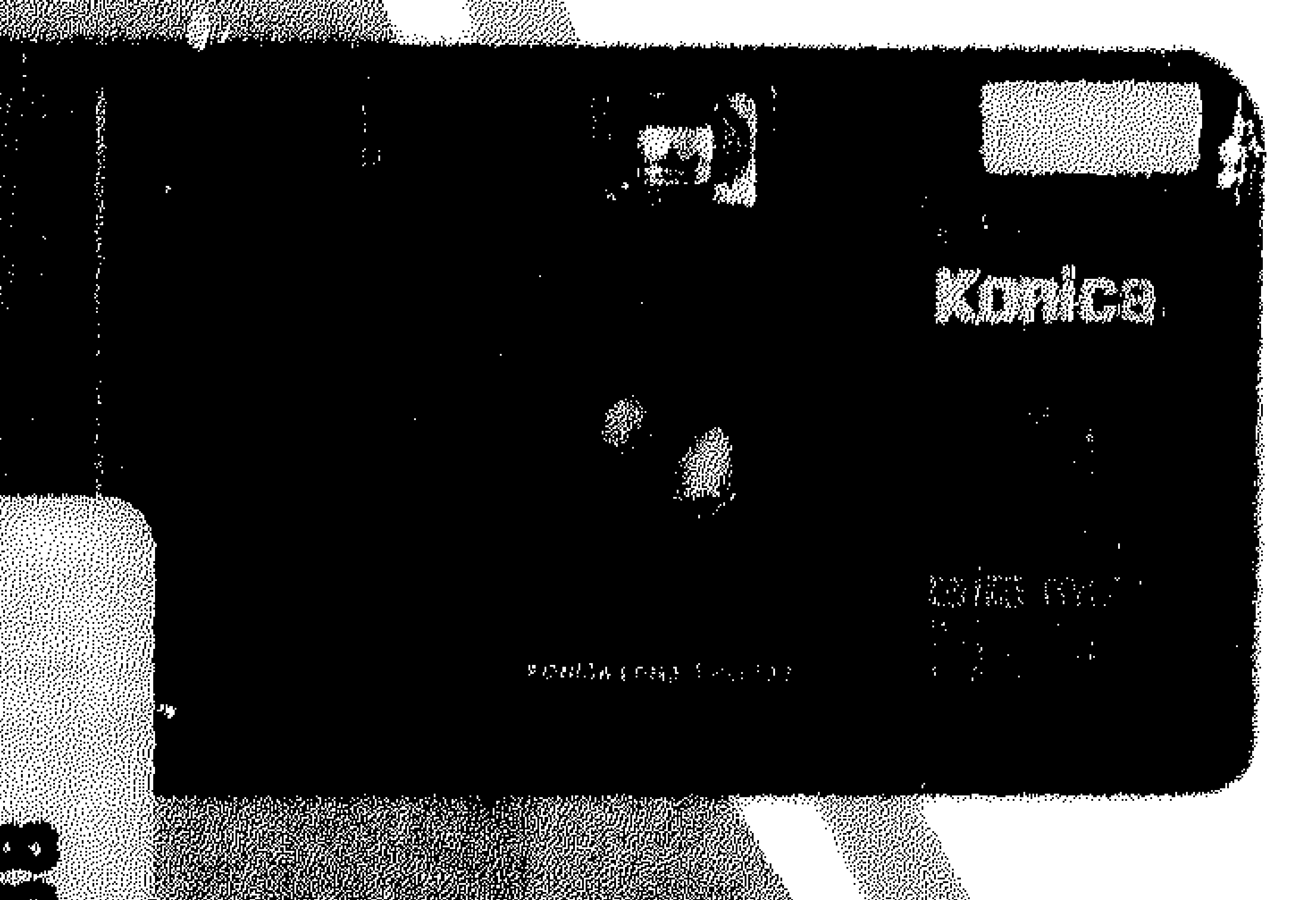
(مسرحية)

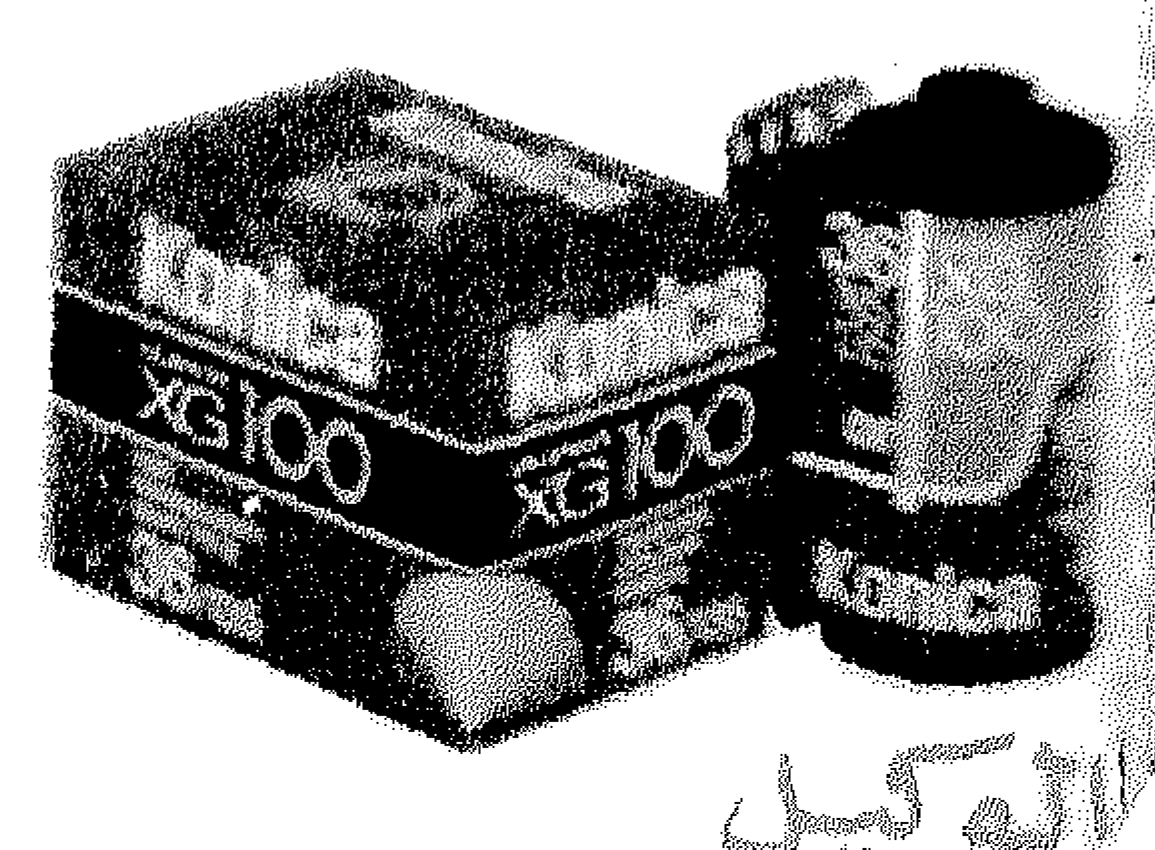
بقلم

الفريد فرج

تصدر : ١٥ اغسطس سنة ١٩٩٤


Konica


Konica


Konica
XG100
Konica
XG100
Konica